

استون سینکر

الغفر

عبد الحکیم ناصف



مطبعة دار الفکر

0117991



Bibliotheca Alexandrina

ابن سينا

رواية عالمية

الكتاب

ترجمة: جبريل الكريم

مكتبات وزارة الثقافة والإعلام القومي

دمشق - ١٩٨٣



الضوان الاصلي للكتاب :

UPTON SINCLAIR

THE JUNGLE

WITH AN AFTERWORD BY

ROBERT B . DOWNS

كانت الساعة الرابعة حين انتهت المراسم وبدأت العربات بالتوافد .
وكان ثمة حشد يزحم بعضه بعضاً في طريقه نحو الخارج بسبب
حماسة ماريا بيرجينسكاس المفرطة . فأعباء المناسبة تقع على كاهلها
وواجبها التأكد من أن الأمور تسير على النحو المطلوب ووفق أفضل
تقاليد الوطن ، لذا ظلت طوال النهار تنتقل هنا وهناك مبهدة كل من
تجده في طريقها ، معنفة محروضة ، فقد كانت ماريا تتوق كل اتق
لأن ترى الآخرين يراعون الآداب العامة الي تراعيها هي نفسها .
كانت ماريا آخر من غادر الكنيسة ، ولرغبتها في أن تكون أول من
يصل إلى قاعة الحفل فقد اصدرت أوامرها إلى الخوذي بأن يسوق
بأسرع مايسطيع . وحين أبدى ذلك الخوذي رغبة مغايرة في المسألة ،
طوحت بالنافذة على عجل ، مخرجة رأسها منها ثم شرعت تخبره رأيها
به ، أولاً باللغة الليتوانية التي لم يكن يفهمها مطلقاً ثم بالبولونية التي
كان يفهمها تماماً . لكن الخوذي ، مستفيداً من مكانه المرتفع ، أصر
على رأيه ، بل لقد غامر وحاول التكلم فكانت النتيجة مشادة حامية
الوطيس استمرت طوال الطريق نزولاً إلى شارع آشلاند ، مما اضاف
حشداً جديداً من الأولاد البائسين إلى الموكب على كلا جانبي الشارع
ويطول نصف ميل .

وكان هذا من سوء الحظ ، اذ كان حشد آخر قد تجمع أمام الباب من قبل . كانت الموسيقى قد بدأت ، وكان بإمكانك أن تسمع عن بعد عشرات الامتار صوت الكمان الكبير « بروم . . . بروم . . » يرافقه صرير كمنجيتين تنافس واحدهما الاخرى في مباراة معقدة عالية الأصوات . حين رأت ماريا الحشد ، أنهت بصورة عاجلة المناقشة التي كانت تدور حول اجداد الحوذي ثم وثبتت من العربة المتحركة ومضت شاقة طريقها إلى القاعة وما ان غدت داخلها حتى انعطفت وبدأت تشق طريقها في الاتجاه الآخر صارخة في غضون ذلك « آيلك ! ! اوزرايلك دوريس (١) ! » بصوت جعل موسيقى الجوقة الهادرة تبدو أشبه بموسيقى بالغة الرقة .

« غرانجونوس باسيلينكسمينيماس دارزاس (٢) . خمور ومشروبات » - هكذا كانت تقول اللوحة . والقارئ الذي لايلم بلغة ليتوانيا النائية تلك ، سيسره أن يجد التفسير وهو أن المكان غرفة خلفية من صالون في ذلك القسم من شيكاغو المعروف باسم « ماخلف الزرائب » وهي معلومات محددة وتناسب مع واقع الأمر ، لكن كم تراها بدت غير ملائمة لمن كان يعلم ان تلك الساعة هي ساعة النشوة المثلى في حياة واحدة من أنبل مخلوقات الله ، وان ذلك المشهد هو مأدبة عرس أونالوكوترايت الصغيرة ولحظة تجلي فرحها .

(١) باللغة الليتوانية الأصلية أي : « افسحوا الطريق » .

(٢) اسم الصالون .

كانت أونا ، تحرسها ابنة العم ماريا ، تقف في المدخل وقد انقطعت
أنفاسها من الاندفاع عبر الحشد ، يؤلمها لفرط سعادتها أن ترفع ناظرها .
كان في عينيها بريق تعجب واندعاش وكانت أجفانها ترتعش ووجهها
الصغير الشاحب في الاوقات الأخرى تصبغه حمرة الحجل الآن .
كانت أونا ترتدي فستاناً من الموسلين أبيض ناصعاً وكان قناع صغير
متصلب ينحدر حتى كنفها ، وقد غرست فيه خمس وردات اصطناعية
بلون الزهر واحدى عشرة من اوراق الورد ذات اللون الأخضر الزاهي .
وكان يستر يديها زوج جديد أبيض من القفازات القطنية راحت وهي
تحقق فيما حولها تفتلها وتدعكها بشكل محموم . كان الأمر كله
أكثر مما تستطيع تحمله - وكان بوسعك ان ترى آثار العناء التي تركها
الانفعال الشديد على وجوها ، والارتعاش الكامل الذي انتاب جسمها .
فهي فتاة صغيرة السن - لم تكمل السادسة عشرة بعد - صغيرة الجسم
بالنسبة لسنها ، مجرد طفلة ، ومع ذلك فقد زوجها ، ومن بين كل
الرجال ، لجرجس ، لجرجس رودكوس ، ذي الزهرة البيضاء في
عروة بذلته السوداء الجديدة ، والكشفين المتينتين واليدين الضخمتين .

كانت أونا شقراء زرقاء العينين بينما كان لجرجس عينان سوداوان
كبيرتان وحاجبان كثان وشعر أسود كثيف ينحدر أجعد متموجاً
حول اذنيه - اي باختصار كان لجرجس وأونا زوجين من أولئك
الازواج المتناقضين متعذري الوجود والذين غالباً ما ترغب الأم الطبيعة

بأن تفند بهم كل نبوءات المتنبيين من قبل ومن بعد . كان بإمكان جرجس أن يرفع بين يديه قطعة من عجل مذبح لا يقل وزنها عن مائتين وخمسين رطلاً انكليزياً ثم يحملها إلى العربة من غير تردد او تفكير حتى . والآن هاهو ذا يقف في زاوية بعيدة ، مذعوراً كحيوان حبيس ، مضطراً لأن يبذل شفثيه بلسانه كلما اراد الرد على تهاني اصدقائه .

شيئاً فشيئاً تم الفصل بين المتفرجين والضيوف - فصل كاف على الأقل لأغراض العمل . فخلال الاحتفالات التي تجري ، يتعذر الا تتواجد جماعات من المتفرجين يتجمعون هنا وهناك في المداخل والزوايا ، واذا ما حدث واقترب اي منهم إلى حد كاف ، أو بدا جائعاً تماماً فغالباً ما يقدم له كرسي ويدعى للمأدبة . ان احد قوانين Vesilija (١) هو ألا يخرج احد من المأدبة جائعاً ورغم انه من الصعب على قانون وضع في غابات ليتوانيا ان يطبق في منطقة المسلخ في شيكاغو التي يبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة ، فقد ظل القوم يعملون مافي وسعهم لتطبيقه . لذا كان الأطفال الذين يؤمون المأدبة من الشارع يخرجون راضين ، بل حتى الكلاب لم تكن تخرج الا وهي أكثر سعادة . فاحدى خصائص هذا الاحتفال هي رفع الكلفة والبساطة الساحرة . كان الرجال يرتدون قبعاتهم او يخلعونها حسبما

(١) من العادات الليتوانية المتبعة في الأعراس وسرى تفسيرها فيما بعد .

يشتهون وكانوا يأكلون حينما وحيثما يشاؤون كما كانوا يشغلون بالطريقة التي يشاؤون. وكان من المفروض ان تلقى كلمات او تردد اغان ، لكن مامن أحد كان مضطراً للاصغاء لمن لايهتم بالاصغاء له ، بل لورغب خلال ذلك أن يتكلم او يغني هو نفسه ، لكان له ملء الحرية في ان يفعل ذلك . وكانت النتيجة خليط اصوات هائلاً لم يكن ليزعج احداً ربما باستثناء الأطفال الرضع الذين كان يوجد منهم مايوازي مجمل الأطفال الرضع لدى المدعوين . اذ لم يكن ثمة مكان آخر يوضع فيه هؤلاء لذا كان الجزء الأهم من ترتيبات الحفل انما هو اعداد مجموعة من اسرة الأطفال وعرباتهم ووضعها في احدى الزوايا . في هذه الاسرة والعربات كان الرضع ينامون معاً ثلاثاً ورباعاً ، او يستيقظون معاً وذلك حسب مقتضى الحال أما الأطفال الأكبر سناً والذين كان بمستطاعتهم بلوغ الطاولات ، فقد كانوا يتجولون وهم يمضغون ، بأصوات طحن عالية ورضى كامل ، عظام اللحم والسجق البولوني .

تبلغ مساحة الغرفة حوالي ثلاثين متراً مربعاً وهي ذات جدران مطلية بالكلس الأبيض عارية الا من تقويم سنوي ولوحة لسباق خيول وشجرة عائلة مؤطرة باطار ذهبي . وإلى اليمين باب يؤدي إلى الصالون ، عند مدخله يقف بضعة متسكعين وفي الزاوية الخلفية مشرب يشرف عليه شخص يرتدي ثوباً أبيض متسخاً وله شاربان اسودان ناميان وخصلة شعر مسرحة بعناية ومثبتة على طرف جبينه . في الزاوية المقابلة طاولتان

تشغلان ثلث الغرفة ، محملتان بالطباق واللحوم الباردة التي كان بعض الضيوف الأشد جوعاً قد بدؤوا بالتهامها فعلاً . وفي الصدر ، حيث تجلس العروس ، كعكة (كاتو) بيضاء كالثلج زخرفت على غرار برج ايفل وزينت بورود من السكاكر وفي اعلاها تمثالا ملاكين وحلويات صفراء وخضراء وزهرية رشت عليها رشاً سخياً . وفي الحلف باب يؤدي إلى المطبخ حيث يمكن للمرء ان يلمح صفّاً من الأواني يتصاعد منه البخار ونساء كثيرات ، صبايا وعجائز ، يندفعن هنا وهناك . اما في الزاوية اليسرى فهناك الموسيقيون الثلاثة الذين يقفون على منصة صغيرة وهم يجهدون انفسهم ايما اجهاد كي يتركوا بعض التأثير على الحشد المختلط ، كما يوجد الرضع المشغولون بالأمر ذاته ونافذة مفتوحة يتلقى المارة منها المشاهد والأصوات والعطور .

فجأة يبدأ بعض البخار بالاندفاع ، ترى من خلاله الحالة اليزابيث ، امرأة أبي أونا - تيتا إليزابيتا كما يسمونها - حاملة عالياً طبقاً كبيراً عليه بطة مطهوة على نار هادئة . وخلفها كوترينا تشق طريقها بحذر وهي ترنح تحت حمل مماثل وبعد نصف دقيقة تظهر ايضاً البحدة العجوز ماجوزكيين بزبدية صفراء من البطاطا المدخنة تكاد توازيها حجماً . وهكذا تأخذ المأدبة شكلها شيئاً فشيئاً - فهناك لحم خنزير ، كراوت (١)، ارز مسلوق ، معكرونة ، سجق بولوني ، أكوام كبيرة من الكعك

(١) طعام معد من كرنب مخمر .

الرخص ، زبديات من اللبن وأباريق من البيرة كثيرة الرغبة . كذلك هناك المشرب إلى الورا وعلى بعد لايزيد عن ستة اقدام حيث يمكنك ان تطلب ماتشتهى نفسك دون أن تضطر لدفع أي مقابل . « آيكسر ! غرايجياو ! ! » (١) تصرخ ماريا بير جينسكاس وتنهمك هي نفسها في العمل - اذ يوجد داخل القرن أكثر مما في خارجه مما سيتلف ان لم يؤكل .

وهكذا يأخذ الضيوف اماكنهم مع الضحك والهتاف واللهو والصخب الذي لانهية له . الشباب منهم ، اولئك الذين تجمع معظمهم قرب الباب ، يحزمون امرهم ويتقدمون . أما جرجس المنكمش على نفسه فيدفعه كبار السن ويعنفونه إلى أن يرضى باتخاذ مقعد إلى يمين عروسه . ثم تجلس الوصيفتان وعليهما شارة مهمتهما وهي اكليلان ورقيان ، ثم بقية الضيوف ، شيباً وشباناً ، فتياناً وفتيات . وتطغى روح المناسبة على رجل المشرب الجليل الذي يتنازل فيمد يده إلى طبق البطة ، بل حتى الشرطي السمين - الذي سيكون واجبه فيما بعد أن يفض النزاعات - يسحب كرسيّاً ويجلس إلى طرف الطاولة . ومع صراخ الاطفال وزعيق الرضع وضحك الجميع وغنائهم وهذرهم يلعلع صوت ابنة العم ماريا الذي يصم الآذان موجهة اوامرهما إلى الموسيقيين .

(١) بالليتوانية اصلاً وتعني : هلموا ، تفضلوا .

وهؤلاء - كيف يبدأ المرء بوصفهم ياترى ؟ - فطوال هذا الوقت كانوا هناك يعزفون بحمية مسعورة - وكل ما في هذا المشهد يجب أن يقرأ أو يقال أو يغنى مع الموسيقى . فالموسيقى هي التي تجعله على ما هو عليه ، وهي التي تحول المكان من غرفة خلفية لصالون يقع في مؤخرة الزرائب إلى مكان مسحور ، عالم عجائب ، ركن صغير من أركان القصور العالية في السماء .

الشخص الضئيل الذي يقود هذا الثلاثي الموسيقي هو رجل ملهم . كمنتجته ذات لحن نشاز وليس هناك قلفونة لقوسه ، لكنه رغم ذلك رجل ملهم - إلهة الموسيقى ذاتها باركته بيديها . انه يعزف كمن أصابه مس من شيطان أو مس من قطع شياطين كامل ، يمكنك أن تتحسس وجودها في الهواء المحيط به ، وهي تنط وتتواذب على نحو محموم . أقدامها غير المرئية توقع الايقاع ، وشعر قائد الجوقة منتصب مزبر ومقلتاه جاحظتان من محجريهما وهو يجهد نفسه كي يحافظ على الايقاع الذي توقعه أقدامها .

اسمه تاموزيوس كوترلايكا ، وقد درب نفسه على الكمان بممارسة العزف طوال الليل ، بعد أن يشغل النهار بطوله في « أحواض الذبح » . انه ، باكمام قميصه وصدرته المزينة بحدوات الفرس المذهبة الباهتة وقميصه المخطط باللون الزهري ، يوحى لك بحلولى منكهة بالتمنع . كما ان بنطاله العسكري ، بلونه الأزرق الباهت والمخطط بالأصفر ، يفيد

في اعطاء ذلك الايجاء هيبة قائد عصابة . طوله حوالي خمسة اقدم لاغير ، لكن حتى بنطاله يرتفع عن الأرض حوالي ثماني بوصات . وانك لتساءل من أين تراه حصل عليه ، أو بالأحرى تتساءل ، اذا اتاح لك وجودك في حضرته وما تشعر به من اثاره وقتاً للتساؤل أو التفكير بأمور كهذه .

ذلك لأنه رجل ملهم . كل بوصة منه ملهمة — بل لتكاد تقول أنها ملهمة بذاتها . فهو يديق الأرض بقدميه ، يطوح برأسه ، يتمايل ويتذبذب إلى الامام والوراء . انه بوجهه الصغير الذابل يثير السخرية بصورة لا تقاوم ، وعندما يقوم باداء دور موسيقي أو مقطع منمق يعتقد صاحبيه ويشغل شفتيه ويطرف باجفانه — بل حتى طرف ربطة عنقه ينتصب . وبين الحين والحين تراه يلتفت إلى صاحبيه ، هازأ برأسه ، مشيراً بيديه ، مومئاً بشكل جنوني — وكل بوصة فيه تصرخ بالتداء ، بالتوسل لآلهة الموسيقى واجتذابها .

العضوان الآخران في الجوقة قلما يستحقان صحبة تاموزيوس . فعازف الكمنجة الثاني رجل سلوفاكي ، طويل نحيل ذو نظارتين مؤطرتين باطار أسود ونظرة خاوية صبور أشبه بنظرة بغل مجهد ، انه يتجاوب مع السوط انما تجاوباً ضعيفاً وسرعان ما يعاود سيرته الاولى . اما الموسيقي الثالث فهو سمين للغاية ذو انف دائري احمر بالغ الحساسية يعزف وعينه منقلبتان إلى السماء تملؤهما نظرة حنين ابدى . انه يعزف الجانب الجهير من الأصوات على كمانه الكبير ، وهكذا فلا شأن

للاثارة به ، ويغض النظر عما يحدث للثلاثي فان واجبه هو أن يحرك قوسه ذهاباً وإياباً عازفاً لحناً كثيباً متطاولاً تلو لحن آخر ، بدءاً من الرابعة بعد الظهر وحتى الساعة ذاتها تقريباً من صباح اليوم التالي ، مقابل الثلث الذي ينوبه من اجمالي الدخل وهو دولار واحد لكل ساعة .

لم تمض خمس دقائق على ابتداء المأدبة حتى كان تاموزيوس قد بلغ الذروة في هياجه ، ولن تمضي دقيقة او دقيقتان حتى تراه يبدأ التقدم شيئاً فشيئاً باتجاه الطاولات وقد تمدد منخراه وتسارعت انفاسه — فشياطينه هي التي تدفعه: انه يحرك رأسه ويهزه لصاحبيه ، مشيراً اليهما بكمنجته إلى أن ينهض اخيراً عازف الكمان الثاني بهيئته الطويلة وقد اثير هو الآخر . وفي النهاية يبدأ الثلاثة بالتقدم ، خطوة خطوة بين المحتضين بينما يلدق عازف الكمان الكبير ، فالتينيا فنجيا ، على كمانه بين النغمات . اخيراً يتجمع الثلاثة عند نهاية الطاولات وهناك يصعد تاموزيوس أحد الكراسي .

انه الآن في ذروة مجده ، سيد المشهد بلا منازع . بعض الناس يأكلون ، والبعض يضحكون ويثرثرون — لكنك ستخطيء خطأ كبيراً ان تظن أن هناك واحداً منهم لا يسمعه . فألحانه ليست صحيحة ابداً وكمنجته تصلر طنيناً في الانغام الواطئة وصريراً وصريفاً في الانغام العالية ، بيد أن هذا كله ليس بلدي اهمية إلا بقدر اهمية الوسخ والضجيج والقذارة المحيطة بهم — فمن هذه المواد بالذات عليهم ان

يبنوا حياتهم لبنة لبنة وبواسطتها عليهم أن يعبروا عن انفسهم ، وهذا هو تعبيرهم ، فهذه الموسيقى ، سواء كانت مرحة وعنيفة ، أو حزينة ومعولة ، أو هائجة وصاخبة ، هي موسيقاهم ، موسيقى الوطن . انها تمد اذرعها اليهم ، وليس عليهم الا أن يلقوا بأنفسهم في أحضانها — فشيكاغو بصالوناتها وأحيائها الفقيرة البائسة تتلاشى وتزول — لتظهر بدلاً منها المروج الخضر والأنهار المشبعة بأشعة الشمس والغابات الهائلة والتلال المكسوة بالثلوج . انهم ، بها ، يستعيدون مناظر الوطن الطبيعية ومرايح الطفولة ، كما تبدأ ذكريات الحب القديمة والصدقات بالتنبه من غفلتها ، الأفراح القديمة والأفراح بكل ما فيها من ضحك ونحيب . فيلقي البعض بأنفسهم إلى الوراء وقد اغلقوا عيونهم ، بينما يدق البعض الآخر بقبضات ايديهم على الطااولات . وبين الحين والحين يقفز احدهم مطالباً بهذه الاغنية أو تلك ، لتشب النار اعلى واعلى في عيني تاموزيوس وليقذف بكمانه اعلى واعلى صارخاً بصاحبيه ، حاثاً اياهما على الضي قدماً في الطريق المسعرر . وتقوم الجماعة كلها مقام جوقة الغناء ، لتصرخ برجالها ونسائها وكأنما اصابها مس من جنون ، فيقفز بعضهم ويثب داقين بأقدامهم الأرض رافعين كؤوسهم شاربين الانخاب . ولا يمضي زمن طويل قبل أن يحدث ويطلب احدهم اغنية من اغاني الأعراس القديمة التي تمجد العروس ومتع الحب . وفي خضم الهياج الذي تحدثه مثل هذه الرائعة يبدأ تاموزيوس كوتر لايكاً بالتقدم شيئاً فشيئاً بين الطااولات شاقاً طريقه باتجاه صدر القاعة حيث

تجلس العروس . ورغم انه قد لا يكون هناك اي فراغ بين كراسي الضيوف ورغم أن تاموزيوس قصير القامة إلى درجة تجعله يدفعهم بقوس كمانه ، حيثما يصل ، كي يتمكن من عزف ألحانه الواطئة إلا أنه يستمر في الزحف ويصر اصراراً لاهوادة فيه على أن يتبعه صاحبه . وغني عن القول أن اصوات الكمان الكبير تخمد تماماً خلال تقدمهم هذا ، لكنهم يصلون أخيراً إلى الصدر ليحتل تاموزيوس موقعه إلى يمين العروس ويبدأ بسكب روحه على شكل انغام ذوابة .

اونا الصغيرة أكثر انفعالاً من أن تستطيع تناول شيء . انها من حين إلى حين تمد يدها لتضع شيئاً صغيراً في فمها وذلك حين تقرر صها ابنة العم ماريا من مرققها كي تذكرها بذلك ، لكن فيما عدا ذلك تراها جالسة وهي تطيل التحديق بعينيها ذاتهما وقد ملائتهما الدهشة والخوف . أما تيتا الزبيبتا فانها ترفرق في كل مكان ، مثل طير طنان ، وأخواتها ، أيضاً ، يندفعن خلفها هامسات مقطوعات الانفاس . لكن اونا نادراً ماتصغي اليهن على ما يبدو — فالموسيقى مازال تناديهما ، والنظرة النائية البعيدة تعود ، فتجلس ويداهما منضغطتان معاً على صدرها . بعدئذ تغرورق عيناها بالدموع وبما أنها تفجئ ان تمسح دموعها ، فانها تلتفت جانباً وتهز رأسها قليلاً ، ثم تصبغ الحمرة وجنتيها عندما تكتشف أن جرجس يراقبها . واخيراً حين يصل تاموزيوس إلى جانبها ويلوح بعصاه السحرية فوق رأسها تغدو وجنتا اونا قرمزيتين تماماً وتبدو وكأنها تهم بالنهوض من مكانها كي تفر بعيداً .

لكن ، في هذه الشدة لاينقذها الا ماريا بيرجنسكاس التي تحط عليها فجأة إلهة الموسيقى . فماريا مولعة باغنية ، اغنية فراق الاحباء ، وهي تود أن تسمعها . وبما أن الموسيقيين يجهلونها فانها تنهض ثم تمضي كي تعلمهم اياها . ماريانا قصيرة لكنها قوية البنية . وهي تعمل في معمل للتعليب ، حيث تمضي سحابة نهارها وهي تنقل علب لحم البقر التي تزن واحدتها اربعة عشر رطلاً انكليزياً . وجهها سلافي عريض ذو وجنتين حمراوين بارزتين ، وحين تفتح فمها يغدو شكلها مأساوياً ، لكنك لاتستطيع الامتناع عن التفكير بالحصان . انها ترتدي بلوزة من الفانيلا الزرقاء ، درجت كميها نحو الاعلى لتكشف عن ساعديها المفتولين ، وفي يدها شوكة كبيرة تدق بها على الطاولة كي تحفظ الايقاع . ثم تهاجر بأغنياتها ، بصوت يكفي للقول أنه يملأ أرجاء المكان بينما يتبعها الموسيقيون الثلاثة ، بدقة تامة ونغمة بعد نغمة وبذلك يمشون على مهل من مقطع إلى مقطع مرددين اغنية تحكي تفجع عاشق تيمه الحب .

حين تنتهي الأغنية يأتي دور الكلمات ، فيهب ديد انشاناس العجوز على قدميه . والجد انطوني ، أي والد جرجس ، رجل لايتجاوز الستين لكن يخيّل اليك انه في الثمانين . ورغم انه لم يمض أكثر من ستة اشهر في امريكا ، الا ان التغيير لم يعد عليه بأي نفع . ففي شبابه كان يعمل في معمل قطن الا أن السعال ألم به إلى ان اضطره لترك العمل . في الريف زال كل أثر للمشكلة لكنه بعد مجيئه إلى امريكا راح يعمل

في غرف التخليل في منشأة دور هام ، فأعاد له المرض مرة ثانية استنشاقه للهواء الرطب البارد طيلة النهار . والآن وهو ينهض ، أمسكت بخناق نوبة سعال شديدة جعلته يتمسك بكرسيه ويدير جانباً وجهه الشاحب الذي أبلاه الزمن إلى أن مضت النوبة .

درجت العادة عموماً على أن تؤخذ الكلمة التي تلقى في حفلة العرس من أحد الكتب وتحفظ عن ظهر قلب ، لكن ديد انتاناس كان يهتم بنفسه في أيام شبابه ، يتعلم ويبحث عن المعرفة ، وكان بالحقيقة يكتب كل رسائل أصدقائه الغرامية ، والآن يدرك الجميع أنه كتب كلمة من بنات أفكاره يبارك فيها ويهنئ ، وإلقاء الكلمة حدث من أهم أحداث المناسبة . فحتى الغلمان الذين يقصفون ويمرحون في الغرفة ، يقربون ويصغون ، بل إن بعض النساء ينشجن بالبكاء ويمسحن أعينهن بمراويلهن . إنها كلمة بالغة الرصانة ، لأن انتاناس رودكوس تملكته فكرة معينة وهي أنه لم يبق من عمره ما يتيح له العيش مع أولاده . لذا تتركهم كلمته وقد ملأت أعينهم الدموع حتى أن أحد الضيوف ، وهو يعقوب تزيدي فيلاس الذي يدبر مخزن معلبات في شارع هالستيد وصاحب الجسم البدين والقوي ، يثار إلى درجة ينهض بها ويقول أن من المستحيل أن تكون الأمور بمثل هذا سوء ثم يتابع كلامه فيلقي خطبة صغيرة يصب فيها وابلاً من التهاني والتمنيات بالسعادة على رأس العروسين ، ثم يمضي إلى الخصوصيات الصغيرة التي تبث البهجة في قلوب الشبان ، انما تجعل أونا تحمر نحجلاً أكثر بكثير من ذي قبل .

فيعقوب هذا يمتلك ما نصفه زوجته ، وهي راضية كل الرضى ، بأنه
« بويتز كافايد نتوف » أي الخيال الشعري .

في تلك اللحظة ، كان قسم كبير من الضيوف قد انتهوا من الطعام ،
ونظراً لانتهاء كل المراسم ، بدأ عقد المأدبة بنفط . وهكذا راح بعض
الرجال يتجمعون حول المشرب والبعض الآخر يتجولون وهم يضحكون
ويغنون ، جماعة صغيرة هنا وجماعة صغيرة هناك والكل يغني بمرح
وعدم مبالاة بالآخرين وبالحوقة الموسيقية أيضاً . الجميع قلقون تقريباً
— وبإمكان المرء التخمين أن في أذهانهم شيئاً ، الأمر الذي يثبتته الواقع
فعلاً . إذ ما إن يفرغ آخر الضيوف الذين تباطؤوا في تناول عشاءهم
حتى تراح كافة الطاولات والكراسي إلى الزاوية وكذلك ركام الطعام
والأطفال الرضع ، كي يبدأ حفل العرس الحقيقي . عندئذ يعود
تاموزيوس كوتزلايكا ، بعد أن أنعش نفسه بجرع ابريق من البيرة ،
إلى منصته ثم يعيد المشهد ، منتصب القامة . في البداية يدق بهيئة سلطوية
آمرة على جانب كمانه بعدئذ يثبتته بعناية تحت ذقنه ويحرك قوسه كي
يعزف مقطعاً ممتعاً محكماً وأخيراً يضرب الأوتار الرنانة ويطبق عينيه
ساجداً بروحه بعيداً على أجنحة « فالس » حاملة . فيحذو رفيقه حذوه ،
انما مفتوح العينين مراقباً الموضع الذي يطؤه ، وأخيراً يتبعهما فالييتينا
فيجيا بعد قليل من الانتظار داقاً الأرض بقدمه كي يحتفظ بالايقاع ،
ومن ثم يلقي بعينه إلى السقف ويبدأ الحز على الكمان « بروم ! بروم ! » .
وسرعان ما تتشكل الجماعة أزواجاً من الراقصين ، وتغدو الغرفة

كلها في حالة تامة من الحركة . من الواضح أنه ما من أحد يعرف الفالس ، لكن ليس لهذا أية أهمية - فهناك موسيقى وهم يرقصون ، كل على هواه ، تماماً مثلما كانوا يغنون من قبل . معظمهم يفضل رقصة « الخطوتين » ولا سيما الشبان ، فهذا هو الدارج بينهم أما الأكبر سناً فان لهم رقصاتهم التي جاؤوا بها من الوطن ، خطوات غريبة ومعقدة يؤدونها برزانة وجد . البعض لا يرقصون أي نوع من الرقص بل يمسكون بكل بساطة ، بعضهم بأيدي البعض الآخر ، ويتركون لفرح الحركة الذي لا يعرف نظاماً أن يعبر عن نفسه بأقدامهم . من بين هؤلاء هناك يعقوب تزيدي فيلاس وزوجته لوسيا ، اللذان يديران المخزن معاً ويستهلكان من معلباته بقدر ما يبيعان تقريباً . إنهما أكثر بدانة من أن يرقصا لكنهما يقفان في وسط الحلبة يضم واحدهما الآخر بين ذراعيه متمائلاً على مهل من جانب إلى جانب ، متبسماً تبسماً ملائكياً ، لوحة لنشوة درداء تقطر عرقاً .

من بين كبار السن هناك كثيرون يرتدون ملابس تذكر ، في بعض تفاصيلها ، بالوطن - صدرية أو معدية (١) مزخرفة أو منديل زاهي الألوان أو سترة واسعة الأردن ذات أزرار غريبة الأشكال . هذه الأشياء كلها تجنّبها الشبان بكل عناية ، فمعظمهم تعلم النطق بالانكليزية ويرتدي ملابس من أحدث طراز . الفتيات يرتدين الفساتين

(١) قطعة من ثياب المرأة تغطي المعدة أو الصدر .

أو البلوزات الجاهزة وبعضهن يظهرن جميلات تماماً . وهناك بعض الشبان يشبهون الأمريكيين أو بالأحرى ذلك النمط من الأمريكيين الكتبة ، وذلك لا لشيء إلا لأنهم يلبسون قبعاتهم وهم في القاعة . كل زوج من هؤلاء الشبان يرقص وفق أسلوبه الخاص ، فبعضهم يشد فتاته بين ذراعيه والبعض الآخر يحافظ على مسافة الحذر ، والبعض يمد ذراعيه بعيداً على نحو متصلب في حين يرنحها بعضهم على الجانبين . البعض يرقصون متواثمين والبعض ينزلق برفق ولين في حين يتحرك البعض الثالث برفعة وجد . وهناك أزواج شديداً العنف يرقون كالسهام في القاعة ، مزيجين كل من يعترض طريقهم . وهناك أزواج عصبيون يخيفهم أولئك فيصرخون « نوستوك ! كاس ! ايرا ؟ » (١) في وجوههم وهم يمشون . كل زوج من الراقصين يظل كما هو المساء بطوله — لا يبدلون بعضهم بعضاً . فعلى سبيل المثال ، هناك إلينا جاسيتيت التي رقصت ساعات طويلة مع جوزاس راجيوس ، خطيبها . إلينا ملكة جمال الحفل وهي ستكون أجمل حقاً لو كانت أقل كبرياء ، ترتدي بلوزة بيضاء ربما يمثل ثمنها عمل نصف نهار في طلي العلب. إنها ترقص وهي تمسك تنورتها بيدها بكثير من المهابة والدقة ، مثلما تفعل السيدات العظيمات . يعمل جوزاس سائقاً لاحدى عربات دورهام ويكسب أجراً عالياً ، وهو يتبع في مسلكه الجانب « الوعر » ، لابساً قبعته على أحد جانبي رأسه محتفظاً بسيجارة في فمه طيلة المساء . ثم هناك يادفيغا مارسينيكوس

(١) ليتوانية وهي كلمات تحذير .

وهي جميلة أيضاً انما متواضعة . يادفيغا تطلي العلب أيضاً لكن لديها أمها العاجزة وأخواتها الصغيرات الثلاث وعليها أن تعيلهن لذا لايسعها أن تنفق أجورها على الملابس . يادفيغا صغيرة الجسم رقيقة ذات عيين سوداوين وشعر فاحم عقصته على شكل حبكة صغيرة في أعلى رأسها . انها ترتدي فستاناً أبيض قديماً صنعته بنفسها وارتدته في كافة الحفلات التي جرت في السنين الخمس الماضية . انه عالي الخصر – يصل حتى ابطنها تقريباً وليس لائقاً كثيراً – لكن ذلك لا يضايق يادفيغا التي ترقص مع رفيقها ميكولاس . انها صغيرة الجسم في حين أنه كبير وقوي وهي تعشش بين ذراعيه كما لو أنها تود أن تخفي نفسها عن الأنظار وتتكىء برأسها على كتفه . وهو بدوره يشبك ذراعيه حولها كما لو أنه سيعملها بعيداً ، هكذا هي ترقص ولسوف ترقص الليل بطوله بل إلى الأبد بنشوة مابعدھا نشوة . ربما ستبتسم حين تراها – لكنك لن تفعل ذلك اما عرفت القصة كاملة . فهذه هي السنة الخامسة على خطبة يادفيغا لميكولاس ، وقلبها ملدنف . كانا سيتزوجان في البداية ، لولا أن والد ميكولاس لايفتأ يسكر طوال النهار والليل تاركاً ميكولاس الكاسب الوحيد في عائلة كبيرة بل حتى في هذه الحالة ربما كانا سيتدبران الأمر (فميكولاس رجل بارع) لولا الحوادث الفظيعة التي حلت بهما وكادت تقتلع قلوبهما . انه يعمل في تجريد عظام البقر وهذه مهنة خطيرة ، خاصة حين يكون عمالك بالقطعة وتحاول أن تكسب قدرأ أكبر من المال كي تنال عروسك . فيداك تنزلقان وسكينك تنزلق وأنت تكد ، تتعب نفسك

بصورة جنونية ، وقد يحدث أن يكلمك أحد أو تضرب عظماً فتترلق
يدك على النصل وتكون النتيجة جرحاً مخيفاً ، جرحاً قد لا يكون بالغ
السوء لولا العدوى الجرثومية القاتلة . صحيح أن الجرح قد يشفى لكن
ليس بوسعك أبداً أن تؤكد ذلك . مرتين حتى الآن وجد ميكولاس
نفسه . ، خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، مرمياً في المنزل مصاباً بتسمم
في الدم : الأولى لمدة ثلاثة أشهر والأخرى لسبعة تقريباً . بل انه فقد
عمله في المرة الأخيرة وكان معنى ذلك أن امضى ستة أسابيع أخرى
وهو يقف على أعتاب دور التعليب منذ الساعة السادسة من كل صباح
من صباحات الشتاء القارسة ، والثلج يغطي الأرض بارتفاع يزيد عن
القدم الواحدة وفي الجو المزيد والمزيد منه . صحيح أن هناك أناساً
متعلمين قد يقولون لك بناء على الاحصائيات أن العاملين في تجريد عظام
البقر يكسبون أربعين سنتاً في الساعة لكن الصحيح أيضاً أن هؤلاء ربما
لم يلقوا نظرة واحدة على أيدي مجردي العظام المساكين .

عندما يتوقف تامرزيوس وصاحبه لفترة استراحة ، كما تقضي
بذلك الضرورة من حين إلى حين ، فإن الراقصين يتوقفون حيث هم
وينتظرون صابرين . إذ لا يبدو عليهم أنهم يتعبون أبداً وليس ثمة مكان
لهم كي يجلسوا ان أرادوا الجلوس . لكن الأمر لا يتعدى الدقيقة الواحدة
على أي حال ، ثم ينهض القائد ثانية رغم احتجاجات الآخرين كلها .
وهذه المرة يكون هنالك نوع آخر من الرقص ، رقصة ليتوانية . فاولئك
الذين يفضلونها يتابعونها برقصة « الخطوتين » ، لكن الأكثرية تؤذيها

بمسلسلة معقدة من الحركات تشابه التزلج الخيالي أكثر مما تشابه الرقص ،
وتبلغ الرقصة ذروتها في « بريستيسيمو » مسعورة حيث يحسك أزواج
الراقصين بعضهم بأيدي البعض الآخر ويبدؤون نوعاً من اللف المجنون
الذي لا يقاوم أبداً ، ثم ينضم كل من في القاعة إليه حتى يغدو المكان
كتلة من التناير والأجساد الطائرة تبهر النظر تماماً . . غير أن أروع
المشاهد في هذه اللحظة هو مشهد تاموزيوس كوتزلايكا . فالكمنجة
العتيقة تصرف وتزعق احتجاجاً لكن تاموزيوس لا يسمع احتجاجاً
ولا يرحم . العرق ينسكب على جبينه ومع ذلك تراه حانياً ظهره كراكب
دراجة في الشوط الأخير من السباق . بدنه كله يهتز ويرتعش مثل محرك
بخاري أفلت من عقاله إذ ليس باستطاعة الأذن أن تلاحق زخات الألحان
الطائرة - وهناك ضباب أزرق باهت حيثما تتطلع لترى ذراعه المتقوسة .
مع ذلك ، وباندفاع أشد ادهاشاً يمضي حتى يبلغ نهاية اللحن ثم يطوح
بيديه ويترنح إلى الوراء مستنفذ القوى ، فينفصل الراقصون بصرخة
ابتهاج أخيرة ثم يكرون هنا وهناك ليستندوا على جدران القاعة بضع
لحظات .

بعد هذا تدور كؤوس البيرة للجميع ، ومن بينهم الموسيقيون ،
ثم يأخذ المحتفلون نفساً طويلاً ويستعملون لحدث الأمسية الكبير ، أي
الأجيا فيماس . والأجيا فيماس هو طقس من طقوس الاحتفال ما إن
يبدأ حتى يستمر لثلاث أو أربع ساعات . إنه رقصة واحدة لا انقطاع
فيها ، بشكل فيها الضيوف حلقة كبيرة وقد تشابكت أيديهم . عندما

تبدأ الموسيقى يبدؤون بالتحرك على شكل حلقة تقف في وسطها العروس ،
ثم يدخل الرجال واحداً تلو الآخر داخل تلك الحلقة ويرقصون مع
العروس كل منهم لبضع دقائق - أو المدة التي يشاء . انها عملية شديدة
المرح يصحبها الكثير من الضحك والغناء لكن عندما ينتهي الضيف
من الرقص يجد نفسه وجهاً لوجه أمام تيتا الزيتا التي تمسك بقبعة يتعين
عليه أن يسقط فيها مبلغاً من المال - دولاراً أو ربما خمسة دولارات
وذلك حسب قدرته وأريحته ! فالتوقع أن يدفع الضيوف مالا يقابل هذا
اللهو وإذا ما كانوا ضيوفاً جيدين سترى أنهم تركوا مبلغاً محترماً
لعروسين يمكنهما بدء حياتهما الزوجية به .

ان أشد ما يخيف المرء هو التفكير بنفقات هذا الحفل . فهي بالتأكيد
لا تقل عن مائتي دولار وقد تكون ثلاثمائة ، وثلاثمائة دولار مبلغ
يفوق الدخل السنوي لأكثر الأشخاص في هذه القاعة . فهناك رجال
أقوياء الأجسام يعملون منذ شروق الشمس حتى وقت متأخر من الليل
في أقبية باردة كالجليد تغطي المياه أرضها بارتفاع يزيد على ربع
بوصة - رجال لا يرون الشمس لسته أو سبعة أشهر في العام بدءاً من
عصر الأحد وحتى صباح الأحد التالي - ولا يستطيعون أن يكسبوا
ثلاثمائة دولار في العام . وهناك أولاد لم يدخلوا عقدهم الثاني ولا يبلغون
سطح نضد العمل إلا بالكاد - أولاد زور أبائهم أعمارهم كي يحصلوا
لهم على أما كنهم هذه - ولا يحصلون على نصف الدولارات الثلاثمائة في العام

بل ربما لا ينالون حتى ثلثها ، ثم تقوم بانفاق مبلغ كهذا في يوم واحد ، على مأدبة عرس ! ! (لكن بوجود هذا التقليد يغدو الأمر سيان أي سواء أنفقت هذا المبلغ مرة واحدة في عرسك أو على مدى طويل في أعراس أصدقائك جميعاً) .

إنه تقليد شديد الحماسة والطيش ، مأساوي - لكن ، آه ، كم هو جميل ! فهؤلاء الناس كانوا قد تخلوا بالتدريج عن كل شيء ، ماعدا هذا فقد تمسكوا به وبكل ما لديهم من قوة . أنهم لا يستطيعون التخلي عن الفيزيليجا ، فأن يفعلوا ذلك يعني أنهم لم يهزموا وحسب بل أن عليهم أن يعترفوا بالهزيمة - والفارق بين هذين الأمرين هو الشيء عينه الذي يبقى على العالم . لقد انحدرت إليهم عادة الفيزيليجا من زمن بعيد ، تلك العادة التي تعني قبل كل شيء أن المرء قد يسكن الكهوف ويحدق النظر إلى الظلال شريطة أن يتمكن مرة واحدة في حياته من تحطيم قيوده والاحساس بأن له جانحين يستطيع التحليق بهما نحو الشمس ، شريطة أن يستطيع مرة واحدة في العمر أن يثبت أن الحياة ، بكل ما فيها من اهتمامات ومخاوف ، ليست بالنتيجة إلا متاعاً تافهاً ، فقاعة على سطح نهر ، شيئاً يمكن أن يقذف المرء به ويتلاعب كما يقذف المشعوذون بكراتهم الذهبية ويتلاعبون ، شيئاً يمكن أن يعبه المرء بجرعات كبيرة كما يعب كأس نبيذ أحمر نادر . وحين يعرف المرء أنه سيد الأشياء يغدو بإمكانه أن يرجع إلى حياة الكد والتعب وأن يعيش على تلك الذكرى طيلة عمره .

كان الراقصون يتميلون ويدورون - وكانوا حين يشعرون بالدوار ، يدورون بالاتجاه الآخر . وقد استمر هذا الساعة ثاو الساعة - حتى خيم الظلام وبدأت القاعة معتمة إذ لم يكن ينيرها إلا مصباح زيت مدخنان . كان الموسيقيون قد بددوا كل حميتهم حتى هذه اللحظة وكانوا يعزفون لحناً واحداً بنوع من السأم والتواني . لقد عزفوا مايزيد عن العشرين وصلة موسيقية وحين بلغوا النهاية بدؤوا من جديد . لكنهم كانوا ، مرة كل عشر دقائق ، يفشلون في البدء من جديد وبدلاً من ذلك كانوا يغرقون إلى الوراء منهكين ، وهي الحالة التي كانت تسبب الكثير من الألم والخوف وتجعل الشرطي السمين نفسه يتحرك قلقاً حيث ينام خلف الباب .

لكنها ماريا بير جنيسكاس التي تحرك كل شيء ، ماريا تلك الروح الظامئة التي تتعلق تعلق القائط بأذيال إلهة الموسيقى المنسحبة . فطوال النهار كانت في حالة من البخل الرائع والآن هاهذا يتلاشى - لكنها لن تدعه يفلت من يديها . كانت روحها تصرخ بكلمات فاوست « امكث ! ! امكث فأنت رائع » وسواء كان ذلك عن طريق البيرة أو الصراخ أو الموسيقى أو الحركة فقد كانت ماريا تقول بكل وضوح أنها لن تتركه يفلت من يديها ، وأنها ستعاود مطاردته - رغم أنها ما إن تبدأ المطاردة حتى تجد عربتها قد انحرقت عن سكتها بسبب غباء أولئك الموسيقيين المثلثي - اللعنة. وفي كل مرة كانت ماريا تطاق صرخة وتنفض عليهم هازة قبضتها في وجوههم ، داقة بقدميها الأرض ،

محمرة الوجه مرتعدة من الغضب . عبثاً كان تاموزيوس المدعور يحاول الكلام ، متفرعاً بإمكانيات الجسم الانساني المحدودة ، وعبثاً كان يعقوب وزوجته اللاهثان يتدخلان وعبثاً كانت تيتا الزبيبتا تتوسل . « تزالين » كانت ماريا تصرخ « بالوك ! اتركيليو ! » ، « من أجل ماذا ندفع لكم يا أولاد جهنم ؟ » وهكذا يعاود الموسيقيون ، بدافع الخوف وحده ، عزفهم من جديد ، وتعود ماريا إلى مكانها وأداء مهمتها.

كانت ماريا تحمل أعباء الاحتمال كله . وكانت أونا قد ظلت محافظة على حالها بسبب انفعالها ، أما النساء الأخرى جميعاً ومعظم الرجال فكانوا قد سقطوا من الأعباء — روح ماريا وحدها ظلت لا تقهر . كانت ماريا تحت الراقصين — الذين كانوا يشكلون حلقة في البداية وباتوا الآن على شكل اجاصة ، وماريا في الرأس تدفع في هذا الاتجاه وتسحب في ذلك الاتجاه ، صائحة ، داقة الأرض ، مغنية ، بركان طاقة حقيقياً . بين الحين والحين كان أحد الداخلين أو الخارجين يترك الباب مفتوحاً ، وهواء الليل بارد ، فكانت ماريا وهي تمر به تمد رجلها وترفس الباب ليبدو منصفقاً أشد الانصفاق . في إحدى المرات كانت هذه العملية سبباً في كارثة راح ضحيتها المنحوس سيبا ستيوناس تزيدي فيلاس . فسبباً ستيوناس الصغير . وعمره ثلاث سنوات كان يتجول في القاعة غير مبالي بأي شيء ، قالباً في فمه زجاجة من سائل غازي أشبه « بالكازوز » لونه وردي ، بارد كالجليد ولذيذ . ونظراً لأنه كان

يعبر الباب ، فقد ضربه هذا ضربة شديدة جعلته يصرخ صرخة حادة توقف إثرها الرقص . أخذت ماريما ، التي كانت تهدد بالقتل مائة مرة في اليوم وتبكي ان الحقت الأذى بلذابة ، سيبا ستينوناس بين ذراعيها وشرعت تهدئه بالقبلات ، الأمر الذي جعل الحقوة الموسيقية تفوز بقسط من الراحة وكثير من المرطبات ، ثم مضت ماريما تعقد الصلح مع ضحيتها ، جلسة إياه على المشرب واقفة بجانبه ، رافعة إلى شفتيه كأساً من البيرة كثيرة الزبد .

في غضون ذلك كان يجري في زاوية أخرى من القاعة مؤتمر مشير للقلق بين تينا الزبييتا وديد انتاناس وبضعة من أصدقاء العائلة الأكثر حميمية . كانت ثمة مشكلة قد حلت . فالفيزيليجا هي اتفاق ، اتفاق غير مكتوب ، ولهذا السبب وحده فقد كانت في الوطن أكثر الزاماً للجميع . فحسب هذا التقايد كان ما يتعين على كل فرد أن يدفعه يختلف عادة عن نصيب الآخر لكن الجميع كانوا يعرفون تماماً نصيب كل منهم ويسعون لدفع بعض الزيادة . أما الآن ومنذ أن جاؤوا إلى هذه البلاد الجديدة فقد تغير هذا كله لكان هناك سماً خفياً يستنشقه المرء مع الهواء الذي يتنفسه هنا — فقد أصاب بعدواه كل الشباب على الفور . انهم يأتون جماعات جماعات ، يحشون بطونهم بأطاييب الطعام ثم ينسلون . بحجة أو بأخرى ينسلون . فقد يلقي أحدهم بقبعة رفيقه من النافذة ثم يخرجان كلاهما للمجيء بها ولا يعودان . أوروبما يجتمع خمسة أو ستة منهم بين الحين والحين ثم يخرجون من القاعة هكذا وبلا استحياء ،

مخلفين إليك سآخرين منك وجهاً لوجه . بل إن بعضهم الآخر ، وهذا انكى وأشد سوءاً . قد يجتمعون حول المشرب ويشربون على حساب المضيف حتى يغيب واحد منهم عن وعيه تاركاً الآخرين يظنون أنه رقص مع العروس من قبل أو ينوي أن يفعل ذلك فيما بعد .

كل هذه الأشياء كانت تجري الآن ، وكان أفراد العائلة يائسين خائفين . لقد تعبوا وكدوا زمناً طويلاً ، والآن ، هذا المبلغ الكبير من المال الذي بددوه ! كانت أونا تقف بجوارهم ، جاذبة العينين خوفاً . فهذه الفواتير المربعة - كم كانت تتناهبها كالشبح . كل بند فيها عصر روحها نهراً وأقضى مضجعها ليلاً . كم من المرات راجعتها بنداً بنداً وحسبتها المرة تلو المرة وهي تمضي إلى العمل - خمسة عشر دولاراً أجر القاعة ، اثنان وعشرون دولاراً وربع ثمن البط ، اثنا عشر دولاراً أجر الموسيقيين ، خمسة دولارات للكنيسة ، إضافة إلى بركة العذراء - وهلم جرا . غير أن أسوأ ما في الأمر هو الفاتورة المربعة التي كانت ستأتي فيما بعد من غرايغونوس ثمن البيرة والمشروبات الروحية التي استهلكك . وليس بإمكان المرء أن يحصل سلفاً من صاحب الصالون على أكثر من تخمين فيما يتعلق بهذا الأمر - لكن بعدئذ ، وعندما يحين الوقت ، يأتيك دائماً وهو يهرش برأسه قائلاً أن تخمينه كان متدنياً . لقد بذل قصارى جهده ، لكن ضيوفك أفرطوا في الشراب . انك معه توقن تماماً بأنك خدعت بلا رحمة - ومع ذلك تظن بأنك أغلى صديق لديه على الإطلاق . إنه يبدأ بتقديم الشراب لضيوفك من دن

نصف ملآن وينتهي بدن نصف فارغ وعند الحساب يسجل عليك دين من البيرة . إنه يوافق على تقديم نوعية معينة من المشروبات بسعر معين ، وعندما يحين الوقت تشرب أنت وأصدقائك نوعاً من السم الفظيع الذي لا يمكن وصفه أبداً . وقد تتذمر لكنك لن تخرج بطايل سوى افساد أمسياتك ، أما ان بلأت للقانون فانك قد تزول عن وجه الأرض في الحال. فصاحب الصالون يدعمه كبار رجال السياسة في المنطقة وعندما تكتشف معنى التورط في مشكلة مع أمثال هؤلاء الناس ، ستفضل بلا شك أن تدفع ما يطلبونه منك دون أن تنبس بنبت شفة .

وما جعل هذا كاه أكثر ايلاماً هو أن الأمر كان في غاية الصعوبة على بعض الأشخاص الذين بذلوا أفضل ما في وسعهم فعلاً . فهناك ، على سبيل المثال ، يعقوب العجوز المسكين – لقد دفع خمسة دولارات ، لكن ، ألم يكن الجميع يعلمون أن يعقوب تزيد فيلاس هذا رهن مخزنه مقابل مائتي دولار كي يدفع الايجار المتراكم لعدة أشهر ؟ وهناك أيضاً بوني آنييل ، العجوز الذابلة الوجه – الأرملة ، ذات الأطفال الثلاثة اضافة إلى الرومانزم والتي كانت تقوم بأعمال الغسيل لتجار شارع هالستيد بأسعار تنقطع لها نياط قلبك . لقد دفعت آنييل كل ماربحتهم من فراريجها لعدة أشهر . فراريجها الثمانية التي ربتها في مكان صغير مسيج على درجها الخلفي . كان أطفال آنييل يقضون النهار بطوله يتقبنون في المزابل بحثاً عن الطعام لهذه الفراريج ، بل إنك ، أحياناً وعندما تكون المنافسة شديدة ، تراهم في شارع هالستيد ، وهم يسرون

بجلاء المجاريير ، تلحق بهم أمهم كيلا تدع أحداً يسرق منهم ما يجدونه .
فالمال ليس الشيء الذي تحدد به العجوز جوكنيين قيمة هذه الفراريج—إنها
تحدد قيمتها بطريقة مختلفة ، فهي تشعر أنها تحصل من خلالها على شيء
مقابل لا شيء وإنها بواسطة هذه الفراريج تحصل على أفضل شيء من
عالم يحصل على أفضل ما لديها بطرق أخرى كثيرة . وهكذا كانت
تراقب فراريجها كل ساعات النهار كما تعلمت الإبصار في الليل ،
كالبومة ، لكي تراقبها . فقبل حين من الزمن سرق واحد منها ،
ولم يكن يمضي شهر واحد دون أن يحاول أحدهم سرقة فروج من فراريجها.
وبما أن الشعور بالاحباط الناجم عن تلك المحاولة الفريدة كان يشتمل
على عشرين انذاراً كاذباً فسوف يكون مفهوماً أية ضريبة دفعتها العجوز
جوكنيين ، لا شيء إلا لأن تيتا إلزبيثا قد أقرضتها ذات مرة مبلغاً
من المال لبضعة أيام وحمتها من أن تطرد خارج منزلها .

تجمع المزيد من الأصدقاء حول الحلقة التي كان يدور فيها نوع
من المناحة حول مسألة الدفع . كان البعض يقترب أكثر على أمل استراق
السمع وهؤلاء هم أنفسهم المذنبون — الأمر الذي كان يتطلب صبر
القديسين بالتأكيد . أخيراً جاء جرجس ، يدفعه أحدهم ، فرووا له
القصة من جديد . أصغى جرجس بصمت وقد عقد حاجبيه الأسودين
الكبيرين اللذين كان يشع ألق ما تحتها ، وهو يمسح القاعة من حين
إلى آخر بنظرة سريعة . ربما كان الأشهى إلى قلبه أن يمضي إلى بعض
أولئك بقبضتيه الكبيرتين المطبقتين بإحكام ، لكنه كان يدرك عدم

الجدوى من تصرف كهذا . فما من فاتورة ستقتص إذا ما أخرج أياً من هؤلاء الناس في هذا الوقت ، ناهيك عن الفضيحة التي ستحدث — وجر جس لا يبتغي سوى أن يمضي في طريقه مع أونا ويدع العالم يمضي في طريقه . وهكذا تراخى قبضته ليقول بهدوء تام « لقد انتهى الأمر ولا نفع من النواح ، تيتا الزبييتا » بعدئذ يلتفت بناظره إلى أونا التي تقف بجواره فيرى نظرة الرعب المائلة في عينيها . « صغيرتي » يقول لها بما يشبه الهمس « لاتبالي فالأمر لا يهمنا . سندفع لهم كل شيء بشكل من الأشكال ، ولسوف أعمل بجد أكثر » . لقد قال ذلك في ليتوانيا عندما أخذ أحد الضباط جواز سفره منه وقبض عليه ضابط آخر لكونه لا يحمل جواز سفر ثم اقتسم الاثنان ثلث ممتلكاته . وقاله مرة ثانية في نيويورك ، عندما تلقاهم الوكيل المعسول — الكلام مباشرة وجعلهم يدفعون أسعاراً باهظة وكاد يمنعهم من مغادرة محله رغم أنهم دفعوا له . والآن هاهو ذا يقوله للمرة الثالثة . وتنفست أونا الصعداء وهي تكلم نفسها : « إنه شيء رائع أن يكون لديك زوج ، شأنك شأن النساء الناضجات ، زوج بوسعه أن يحل كل المشكلات ، زوج كبير ، قوي » .

تكنم ماريا النشيح الأخير لسيباستيوناس الصغير ثم تسرع لتذكر الحقوة بواجبها . ويبدأ الحفل ثانية — لكن لم يبق هناك إلا القلة ممن ترقص معهم وسرعان ما يفرط عقد المجموعة لتبدأ رقصات مشوشة مرة أخرى . الوقت الآن بعد منتصف الليل ، والأمور لم تعد كما كانت من قبل .

فالراقصون ممتلئون ثقال الأجسام معظمهم عب الكثير من الشراب
وتخطى منذ زمن طويل حالة الانسراح . انهم يرقصون بايقاع رتيب ،
يدورون ويدورون ، ساعة بعد ساعة بأعين مثبتة في الفراغ وكأنهم
فيما يشبه الغيبوبة ، في حالة من الخدر يترايد باستمرار . الرجال يخاصرون
النساء باحكام لكن قد تمر نصف ساعة دون أن ينظر واحدهما في
وجه الآخر . بعض الأزواج لايهتمون بالرقص بل ينسحبون إلى الزوايا
ليجلسوا متشابكي الأذرع ، والبعض الآخر ، ممن لايزالون يشربون ،
يتجولون في القاعة مصطدمين بكل شيء ، والبعض الثالث يشكلون
جماعات من اثنين أو ثلاثة ليرفعوا عقائرهم بالغناء ، ولكل مجموعة
أغنياتها الخاصة . ومع مرور الزمن تجد أممك أنواعاً مختلفة من السكارى ،
لاسيما بين صغار الشبان . فالبعض يترنحون بين أذرع البعض الآخر ،
وهم يهمسون بكلام السكارى – وآخرون يبدؤون المشاجرات لأتفه
ذريعة ويتوصلون إلى ضرب بعضهم بعضاً حتى يضطر طرف ثالث
للتدخل بينهم . الآن بالتحديد يتنبه الشرطي ويتحسس عصاه الغليظة
كي يتأكد من جاهزيتها للعمل . فعليه أن يكون سريعاً وحازماً فمشجارات
الساعة الثانية من الصباح ، إذا ما أفلت زمام أمرها ، تكون أشبه بنار
الغابة ، وقد تحتاج لكل احتياطات المركز . ما يتعين عليك أن تفعله
هو أن تكسر كل رأس تراه مشتركاً في العراك قبل أن تدخل رؤوس
لاستطيع تكسير أي منها . وليس هناك من يحاسب على تكسير الرؤوس
في منطقة « ما خلف الزرائب » ، لأن الرجال الذين يضطرون لتكسير

رؤوس الحيوانات طيلة النهار يتعودون هذه العادة على ما يبدو ليمارسوها على أصدقائهم بل حتى على عائلاتهم بين الحين والحين . وهذا أحد الأسباب التي تدعو للتهنئة بأن الأساليب الحديثة لا تترك إلا لعدد ضئيل من الرجال المهمة الضرورية المؤلمة ، مهمة تكسير الرؤوس من أجل كل العالم المتحضر .

غير أنه لم ينشب عراك تلك الليلة ، ربما لأن جرجس كان يراقب بحذر -- أكثر حتى مما كان يفعل الشرطي . لقد شرب جرجس قلراً كبيراً ، كما يشرب أي امرئ في مناسبة كهذه ينبغي دفع كل شيء فيها سواء ثمل أم لم يشمل ، لكنه رجل راسخ الأركان ، من الصعب أن يفقد وعيه . مرة واحدة فقط حدثت مشادة حامية -- وكانت تلك خطيئة ماريا بيرجنسكاس . فماريا توصلت منذ حوالي الساعتين إلى استنتاج واضح مفاده أنه إن لم يكن المذبح الموجود في الزاوية ، بساقيه ذي الثوب الأبيض المتسخ ، هو الموطن الصحيح لإلهة الموسيقى ، فهو على أي حال أقرب بديل لذلك الموطن يمكن بلوغه على وجه الأرض . كانت ماريا تعارك أحد السكارى عندما وصلت إلى سمعها أنباء الأوغاد أولئك الذين لم يدفعوا « نقطة » العروس في تلك الليلة . فسلكت ماريا طريق القتال مباشرة ، دون حتى تمهيدات الأسباب المعهودة ، وحين أبعدها بعضهم كانت تمسك بيديها ياقطين من ياقات أولئك الأوغاد . ولحسن الحظ ، كان الشرطي ميالاً للمنطق ، لذا لم تكن ماريا من طوح به الشرطي بخارج القاعة .

هذا كله قطع الموسيقى مدة لا تزيد عن دقيقة أو اثنتين . بعد ذلك بدأ اللحن القاسي مرة ثانية - اللحن الذي كان يعزفه الموسيقيون طوال نصف الساعة الأخير بلا أي تغيير . انه لحن امريكي هذه المرة . لحن التقطوه من الشوارع ، يبدو انهم جميعاً يعرفون كلماته - أو على الأقل ، البيت الأول من الاغنية التي يدندنونها لأنفسهم المرة تلو المرة بلا أي توقف « ايام الصيف الجميلة تلك ! ! ايام الصيف الجميلة تلك ! ! ايام الصيف الجميلة تلك ! » وعلى ما يبدو كان في هذه الكلمات ما يחד المرء بتكرارها الطاغى الذي لانهاية له . انه يثبت الحذر في كل من يسمعه وكذلك فيمن يعزف اللحن . ومامن أحد يمكنه التخلص منه أو حتى التفكير بالتخلص منه . فالساعة الثالثة صباحاً وهم مازالوا يرقصون بفرح غامر ، يرقصون بكل ما لديهم من قوة ، بكل القوة التي يمكن ان يتيحها لهم شراب غير محدود - وليس هناك من أحد بينهم يملك القوة في أن يفكر بالتوقف . ففي الساعة السابعة من صباح هذا الاثنين سيكونون جميعاً مضطرين للتواجد في اماكن لدى دورهام أو براون أو جونز ، وقد ارتدوا بزات العمل . واذا متأخر واحد منهم دقيقة واحدة ، يغرم بحسم اجرة ساعة ، اما ان تأخر دقائق اخرى فان من المحتمل أن يجد اسمه قد شطب من قائمة العاملين ، مما يعني انه سينضم إلى ذلك الحشد من الجائعين الذين ينتظرون كل صباح عند ابواب دور التعليب من الساعة السادسة وحتى الثامنة والنصف تقريباً . وليس هناك استثناء لهذه القاعدة ولا حتى اونا الصغيرة -

التي طلبت اجازة يوم واحد بعد عرسها . اجازة بدون أجر . لكن عاد طلبها بالرفض - فطالما هناك الكثيرون ممن يتوقون للعمل كما تشتهي ، لاداعي أبداً لان ترعج نفسك بمن لا يعملون كما تشتهي .

كانت اونا الصغيرة على وشك الاصابة بالاعماء وهي نفسها في حالة شبه خدر بسبب روائح القاعة الثقيلة الوطأة . لم تكن اونا قد شربت نقطة واحدة . لكن كل من عداها كان يحرق كحولاً بكل ما في الكلمة من معنى . تماماً مثلما تحرق المصابيح الزيت . وكان بعض الرجال الذين يسترقون في سبات عميق وهم في كراسيهم أو على الأرض يطلقون رائحة الكحول من افواههم إلى درجة يتعلم معها الاقتراب منهم . وبين الحين والحين كان جرجس يحدق إليها نهماً - فقد نسي منذ زمن طويل نجله . الا ان القاعة كانت مليئة بالناس وكان مايزال يرقب الباب حيث يفترض أن تأتي اليه العربة . لكنها لم تأت فقرر الا ينتظر أكثر بل جاء إلى اونا التي اصفر وجهها على الفور وبدأت بالارتعاش . وضع جرجس شالها عليها ثم ارتدى معطفه . انهما يسكنان على بعد كلمتين بنائيتين فقط ولم يعد جرجس يبالي أجمعت العربة ام لم تجيء .

لم يكن هنالك حتى وداع تقريباً - فالراقصون لم يلاحظوه وكان كل الأطنال وكثير من الكبار قد غرقوا في سبات عميق . ديدانتاناس كان دائماً نائماً وكذلك الزوج والزوجة تريامفيلاس .

حيث كان الأول يشخر معزوفة ثمانية الالحان . وحدهما تيتا اليزبيتا وماريا راحتا تنشجان بصوت عال ثم خيم سكون الليل وقد بدأت النجوم تشحب في الشرق . وهكذا رفع جرجس اونا بين ذراعيه ، دون أن ينبس ببنت شفة ثم خرج بها وقد ارتعى رأسها على كتفه مع أنه طويلة . وحين وصل المنزل لم يكن متأكداً مما اذا كانت مصابة بالاغماء ام نائمة ، لكنه عندما اضطر للامساك بها بيد واحدة كي يفتح الباب رآها تفتح عينيها . « لن تذهبي إلى معمل براون هذا اليوم ، يا صغيرتي ! » همس في اذنها وهو يصعد السلم ، فامسكت ذراعه بشيء من الذعر ، ثم شهقت : « لا ، لا ، لأجرؤ ! هذا سيحطمننا ! » لكنه أجابها ثانية : « دعي الأمر لي . . . دعيه لي . . . سأكسب المزيد من المال - سأعمل بجد أكثر » .

- ٢ -

كان جرجس لا يتحدث عن عمله الا قليلاً ، لأنه كان شاباً . لقد حكوا له قصصاً عن تحطيم الرجال ، هناك في مسالخ شيكاغو وعما كان يحدث لهم بعدئذ - قصص ينمل لها لحم الانسان ، لكن جرجس كان يضحك ، ليس الا . لم يكن قد دضى عليه هناك سوى اربعة اشهر وكان صغير السن ، ضخم الجثة كذلك ، كما كان وافر الصحة أيضاً فلم يكن باستطاعته ان يتصور ما معنى ان يضرب الانسان . وكان يقول : « هذا قد يحدث لرجال مثلكم ياسيلبناس ! ! أشخاص ضئيلين - أما أنا فممكنني عريض » .

كان جرجس اشبه بفتى قادم من الريف ، من ذلك الصنف الذي يحب أصحاب الأعمال أن يتوفر لهم ، الصنف الذي يشتكون ان لم يستطيعوا وضع ايديهم عليه . فحين يقال له ان يمضي إلى مكان معين ، يذهب بأقصى سرعة ، وحين لا يكون لديه مايفعله في لحظته الراهنة يقف متململاً ، يتراقص بفيض الطاقة التي في داخله . وان كان يعمل في صف من الرجال ، فان الصف يتحرك دائماً ببطء شديد بالنسبة له حتى ليسعلك ان تفرزه على حدة لنفاد صبره وشدة قلقه . وهذا هو السبب الذي جعلهم يتعرفون اليه في احدى المناسبات الهامة ، اذ أن جرجس لم يقف في اليوم الثاني لوصوله إلى شيكاغو أمام « مركز اللوام » التابع لبراون وشركاه الا حوالي نصف ساعة ثم طلبه احد رؤساء العمال . ولقد كان فخوراً بهذا الأمر ، بل جعله أكثر ميلاً من ذي قبل للهزء بالمتشائمين . كما رأى أنه نوع من الهراء ، كل ماقالوه له عن افراد في ذلك الحشد الذي اختير منه مضى على وقوفهم هناك شهر - بل ، أشهر كثيرة ولم يقع عليهم الاختيار بعد . اذ كان يقول « أجل ، لكن اي صنف من الرجال هم ؟ مغفلون محطمون لا يصلحون لشيء ، أشخاص انفقوا كل ما لهم في الشراب ويودون أن يحصلوا على المزيد منه . اتريدون اني ان اصدق ان الناس سيدعونني وأنا املك مثل هاتين الدراعين -- ويطبق قبضتيه باحكام ثم يرفعهما في الهواء حتى يغدو بامكانك رؤية عضلهما المنتول -- أموت جوعاً ؟ » .

فيجيبيونه : « واضح انك آت من الريف ومن مكان ناء في الريف » .
وقد كانت هذه حقيقة . لأن جرجس لم ير مدينة ابداً ، وربما لم
ير حتى بلدة ذات حجم معقول الا نادراً ، إلى ان انطلق كي يجرب
حظه في العالم ويكسب حقه بأونا . فوالده ووالد والده قبله ، وكذلك
اجدادهم جميعاً ، كانوا قد عاشوا في ذلك الجزء من ليتوانيا الذي يعرف
باسم بريلوفيج ، الغابة الامبراطورية ، وهي رقعة كبيرة تبلغ مساحتها
مئات آلاف الفدادين ظلت منذ زمن غارق في القدم منطقة صيد خاصة
بالنبلاء . في هذه الغابة كان يقطن بضعة فلاحين يحملون سندات ملكية
منذ العهود القديمة ، أحد هؤلاء كان انتاناس رودكوس الذي نشأ
هو نفسه ونشأ أولاده بدوره على استثمار ستة فدادين من أرض استصلحتها
في وسط المجاهل . كان لديه ابن آخر ، عدا جرجس ، وابنة واحدة .
الأول سيق إلى الجيش قبل عشر سنوات ومنذ ذلك الحين لم يسمع
احد خبراً عنه . أما الابنة فقد تزوجت ، وكان زوجها هو الذي ابتاع
الأرض حين قرر انتاناس العجوز أن يسافر مع ابنه .

لقد مضى عام ونصف تقريباً على لقاء جرجس بأونا ، في سوق
للخيول يبعد مائة ميل عن المنزل . لم يكن جرجس يتوقع ابداً ان يتزوج -
بل كان يسخر من الزواج باعتباره شركاً يقع فيه الرجال الحمقى ،
لكن هنا ، ودون أن يتكلم كلمة واحدة معها أو يكون بينهما أكثر
من تبادل بضع ابتسامات ، وجد نفسه ، محمر الوجه من الضيق

والخوف ، يطلب من والدها أن يقبله زوجاً لها — مقدماً له حصاني والده اللذين كان قد جاء بهما ليبيعهما في السوق . غير أن والد اونا اثبت انه صلب كالصخر فالفتاة ماتزال طفلة وهو رجل غني ولا يمكن ان يدع ابنته تسلك هذا الطريق الوعر . وهكذا عاد جرجس إلى البيت دامي القلب ، وأمضى ذلك الربيع والصيف وهو يكاد ويتعب كي ينسى . وفي الخريف ، بعد انتهاء البيار ، رأى انه لن يستطيع النسيان ، فعزم على قطع رحلة الأربعة عشر يوماً التي تفصل بينه وبين اونا .

هناك ، وجد الأمر على غير ما كان يتوقع — فوالد الفتاة مات وأرضه رهنه لصالح الدائنين . وكاد قلب جرجس يشب من بين اضلاعه حين ايقن ان الجائزة باتت في متناول يده . كانت العائلة تتألف من الزبييتا لوكوترايت ، أو الخالة تيتا كما كانوا يسمونها وهي امرأة والد اونا ، ومن أطفالها الستة وهم من مختلف الاعمار . كذلك كان هناك اخوها جوناس ، وهو شاب ضئيل البنية جاف العروق يعمل في المزرعة . لقد كانوا اناساً ذوي منزلة رفيعة ، كما خيل لجرجس ، قدموا حديثاً إلى الغابات . كانت اونا تعرف القراءة وأشياء أخرى كثيرة لم يكن يعرفها هو نفسه ، وكانت المزرعة قد بيعت وأمست العائلة كلها في مهب الريح ، فكل ما يملكونه في العالم لم يكن يتعدى السبعمائة روبل ، أي نصف هذا الرقم بالدولار . لقد كان لديهم ثلاثة اضعاف هذا المبلغ . الا أنه ذهب إلى المحاكم ، فقد اتخذ القاضي

قراره الثاني ضدهم الأمر الذي كلفهم المبلغ المرقوم كي يجعلوه
يغير قراره .

كان بإمكان اونا ان نتزوج وتتركهم ، الا انها لم تفعل ذلك فقد
كانت تحب تيتا إلزبييتا . ركان جوناس هو الذي اقترح فكرة الذهاب
إلى امريكا ، حيث كان احد اصدقائه قد اصبغ غنياً . فهو سيعمل ،
وكذلك النساء وبعض الأولاد بغير شك ، ولسوف يعيشون بشكل من
الأشكال . كان جرجس قد سمع بامريكا ايضاً . فهي البلاد التي ،
كما يقال ، يمكن للانسان فيها أن يكسب ثلاثة روبلات في اليوم .
وحاول جرجس ان يتخيل ماتعنيه ثلاثة روبلات يومياً بأسعار تشابه
اسعار معيشتهم ، فقرر على الفور ان يذهب إلى امريكا ويتزوج ويصبح
رجلاً غنياً ايضاً . ففي تلك البلاد ، كما يقولون ، الانسان حر سواء كان
غنياً او فقيراً ، وهو ليس مضطراً للخدمة في الجيش كما انه غير مضطر
للدفع امواله لموظفي الحكومة الاندال بل يمكنه ان يفعل مايشاء وأن
يرى نفسه على قدم المساواة مع كل الناس الآخرين . وهكذا كانت
امريكا المكان الذي يحلم به العشاق . واذا مااستطاع المرء تدبير نفقات
السفر فقط بات بإمكانه القول ان متاعبه قد انتهت .

تم الاتفاق على أن يهاجروا في الربيع القادم . وفي غضون ذلك ،
باع جرجس نفسه إلى متعهد لمدة زمنية معينة ثم سار على قدميه حوالي
اربعمائة ميل مع زمرة من الرجال كي يقوموا بأعمال السكة الحديدية

في سمولينسك . وكانت هذه تجربة مخيفة بكل ما فيها من وسخ وسوء تغذية وقسوة واجهاد ، لكن جرجس تحمل كل شيء وخرج منها بمبلغ لا بأس به ، ثمانين روبلاً أخفاها في معطفه . لم يكن جرجس يتعاطى المسكرات ولم يكن يعارك أحداً ، بل كان يفكر طيلة الوقت بأونا علاوة على انه كان هادئاً رابط الجأش يفعل ما يؤمر به ، ويسيطر على اعصابه اغلب الاحيان ، لكنه اذا ما فقد اعصابه جعل المسيء اليه يتمنى الا يفقدها مرة ثانية . عندما دفعوا لجرجس أجره تفادى مقامي المجموعة والحانات ، لذا حاولوا قتله ، لكنه فر منهم وعاد ادراجه إلى موطنه ، يقوم على الطريق ببعض الأعمال الغريبة وينام دائماً وقد فتح إحدى عينيه .

وهكذا حين جاء الصيف انطلقوا جميعاً إلى امريكا ، حيث انضمت اليهم في آخر لحظة ماريا بيرجنيسكاس ، وهي إحدى بنات عم اونا . كانت ماريا يتيمة الأبوين عملت منذ طفولتها لدى مزارع غني في « فيلنا » كان يضربها باستمرار . وفي سن العشرين فقط حدث أن جربت ماريا عضلاتها ، حين رفعت الرجل فوق رأسها وطرحته ارضاً فكادت تزهق روحه ثم فرت إلى غير رجعة .

كانت الجماعة كلها تتألف من اثني عشر شخصاً ، خمسة راشدين وستة اطفال - واونا التي كانت بين بين . وكانت الرحلة بالغة الصعوبة . صحيح أنه كان هناك وكيل قدم لهم المساعدة

لكن الصحيح ايضاً أنه كان وغداً زنيماً أوقعهم مع بعض الموظفين في شرك كلفهم الكثير من مالهـم الغالي الذي كانوا يتعلقون به تعلق الغريق بجبل النجاة . حدث لهم هذا مرة ثانية في نيويورك - لأنهم ، بالطبع . كانوا يجهلون كل شيء عن البلاد ولم يكن هناك أحد يحيطهم بها علماً ، وكان من السهل على رجل يرتدي بذلة رسمية زرقاء أن يقودهم إلى مكان بعيد وأن يأخذهم إلى فندق يحتفظ بهم فيه ويُعلمهم يدفعون مبالغ طائلة كي يفروا منه . فالقانون يقول أن بطاقة التصنيف يجب أن تكون على باب الفندق لكنه لايقول انها ينبغي أن تكون باللغة الليتوانية .

في زرائب الماشية في شيكاغو كان صديق جوناس قد أصبح غنياً . وهكذا مضت الجماعة إلى شيكاغو . لم يكونوا يعرفون الا تلك الكلمة ، شيكاغو - وكان ذلك كل ما يحتاجونه ، على الأقل إلى أن يصلوا المدينة . بعدئذ خرجوا من الشاحنات بغير مراسم ولم يكونوا أفضل حالاً من ذي قبل ، ثم وقفوا يحدقون النظر بشارع ديربورن بأبنيتـه السوداء الكبيرة المرتفعة عن بعد ، عاجزين عن اقناع انفسهم بأنهم وصلوا ، عاجزين عن ادراك السبب الذي كان يجعل الناس ، حين يسألونهم عن شيكاغو ، لايشيرون بعد ذاك إلى اتجاه معين ، بل بدلاً من ذلك يبدون حائرين أو يضحكون أو يتابعون طريقهم دون أن يعيروهم اي انتباه . لقد كانوا يشيرون الشفقة لشدة بأسهم ، فبعد

كل ما مر بهم باتوا يخشون أي صنف من الأشخاص يرتدي بزة رسمية ، وهكذا كلما كانوا يرون شرطياً كانوا يعبرون الشارع إلى الطرف الآخر مسرعين الخطأ . ظلت الجماعة تتجول طوال النهار في لوحة الزحام المصم للآذان وأخيراً ضاعت . في الليل فقط ، وهي تتكوم على أنفسها مرتعدة في مدخل احد المنازل اكتشفها أخيراً أحد رجال الشرطة وسار بها إلى المخفر . في الصباح جاؤوا بمرجم ثم اخذوا الجماعة في عربة قطار وقد تعلم افرادها كلمة واحدة هي « الزرائب » . غير أن فرحهم لم يكن يوصف حين اكتشفوا انهم خرجوا من تلك المغامرة دون ان يخسروا شيئاً .

كانوا يجلسون وأعينهم تحلق من النافذة إلى الخارج فقد بدا الشارع وكأنه سيطول إلى الأبد ، ميلاً بعد ميل — اربعة وثلاثين ميلاً ، لو كانوا يعلمون — وكل جانب من جانبيه صف واحد مستمر من الأبنية الخشبية الكالحة الصغيرة ذات الطابقين . وهكذا كان كل شارع مروا به — لاثلة ولا وهدة ، بل دائماً المشهد ذاته من الابنية الخشبية الصغيرة القلدة البشعة التي لانهاية لها . هنا كان يمكنك ان ترى جسراً على جدول وسخ ، ضفافه من الطين المتصلب وقد اقيمت عليها سقائف حقيرة وأرصعة قلدة . وهناك كنت ترى سكة حديد وشبكة من التحريلات تعبر عليها قاطرات بخارية تنفث دخانها وقد اصطفت خلفها عربات الشحن . وفي مكان ثالث قد تجد معملاً كبيراً ، بناء حقيراً ذا نوافذ

لا حصر لها تتصاعد من مداخنه اعمدة كثيفة من الدخان حتى اسود بها الهواء واحالت حتى الأرض دونها كتلة من القذارة . لكن بعد كل انقطاع من هذه الانقطاعات ، كان المنظر البائس يعود مرة ثانية سمعنا الأبنية الصغيرة الكثيرة . قبل ساعة كاملة من وصول الجماعة إلى المدينة بدؤوا يلحظون تغيرات محيرة في الجو إذ كان يزداد قتامة شيئاً فشيئاً ، وعلى الأرض كان العشب يبدو وكأنه أقل اخضراراً . كان القطار مسرعاً ، وكانت الألوان تغدو كل دقيقة أكثر وأكثر قتامة كما كانت الحقول تبدو جافة صفراء والمناظر الطبيعية كريهة جرداء . ومع الدخان المتكاثف بدؤوا يلاحظون شيئاً آخر ، رائحة غريبة حادة لم يكونوا على ثقة من أنها رائحة كريهة ، بعضهم قال انها رائحة ممرضة لكن احساسهم بالروائح لم يكن نامياً ، وهكذا لم يكن باستطاعتهم ان يقولوا الا انها رائحة غريبة . في تلك اللحظة ، وهم يجلسون في المقطورة ، أدركوا انهم في طريقهم إلى موطن تلك الرائحة — وانهم قد رحلوا الطريق كله من ليتوانيا اليها . لم تعد المسألة مسألة رائحة بعيدة خفيفة تأتلك على شكل هبات يل بات بوسعك ان تتلوقها تماماً وأن تشمها أيضاً — بل يمكنك أن تمسك بها تقريباً وأن تتفحصها على راحتك . غير أن الجماعة انقسمت في الرأي ، البعض قال انها رائحة مادة من مواد الطبيعة ، خام وفجة ، رائحة مشبعة ، زخنة تقريباً ، حسية وقوية . والبعض راح يبتلعها وكأنها شراب مسكر والبعض الآخر وضعوا مناديل على وجوههم . كان المهاجرون الجدد مائز اللون يشتمونها

ضائعين في بحران الحيرة عندما توقفت المقطورة فجأة ثم انفتح الباب على مصراعيه وصاح احدهم بصوت عال : « الزرائب » .

بعد ذاك وجدوا انفسهم يقفون على الزاوية جاحظي الأعين ، أمامهم وفي شارع جانبي كان يقوم صفان من المنازل الآجرية ، بينهما مجاز ضيق وكانت هناك نصف دزينة من المداخن ، تضاهي في علوها اعلى الابنية بل تلامس السماء ذاتها وينطلق منها نصف دزينة من اعمدة الدخان كثيفة ، لزجة ، سوداء كالليل . ربما كان هذا الدخان آتياً من مركز العالم ، حيث النيران الأولى ماتزال تشتعل . كما كان يتصاعد من المداخن وكأنما يندفع ذاتياً ، دافعاً كل شيء امامه ، نتاج انفجار دائم متجدد ابداً . فهو لا يتفد ولا ينتهي ، يحدد المرء إليه آملاً أن يتوقف ، لكنه يتصاعد ويتصاعد تيارات كبيرة لاتنقطع ، ناشرة سحائب هائلة في الجو تلتف وتتحرك بطريقة لولبية إلى أن تتحدد في تيار ضخم واحد يجري في السماء ماداً حجاباً اسود قائماً على مدى النظر .

عند ذاك احست الجماعة بشيء غريب آخر ، شأنه شأن الراحة ، يتعلق بمادة من مواد الطبيعة : انه صوت ، صوت يتكون من عشرات آلاف الأصوات الصغيرة ، صوت يصعب أن تلاحظه في البداية - فهو يغوص في وعيك ، ازعاجاً غامضاً ، اشكالاً محيراً ، انه اشبه بطنين النحل في الربيع ، بحفيف الغابة ، وهو يدل على نشاط لانهاية له ، دمدمة عالم يتحرك . بالجهد الجهد فقط يمكن للمرء ان يعرف انه من

صنع حيوانات ، أنه خوار بعيد لعشرة آلاف بقرة . قباع بعيد لعشرة آلاف خنزير .

كان بود الجماعة ان تتبع هذا الصوت لكن ، والأسفاه . لم تجد لديها الوقت لمثل هذه المغامرة . فالشرطي الواقف عند الزاوية بدأ يراقبهم ، لذا بدؤوا ، كالعادة ، بصعود الشارع . لكنهم لم يقطعوا كتلة ابيسة حتى سمعوا جوناك يطلق صرخة عالية وبانفعال شديد يشير بيده إلى الاتجاه الآخر من الشارع . وقبل ان يتمكنوا من فهم مغزى كلامه ، وهو يطلقه لاهثاً مقطوع الانفاس ، كان هو قد قفز بعيداً ، ثم رأوه يدخل حانوتاً . كتب على لوحته : ي . ترينفيلاس ، معلبات . وحين خرج مرة ثانية كان في صحبته رجل قوي البنية يلبس كمي قميص ومريلة ويضم جوناك بكلمات يديه ويضحك بانسراح شديد . حينذاك تذكرت تيتا الزبيبتا ان ترينفيلاس هو اسم الصديق الاسطوري الذي صنع ثروة له في امريكا . واكتشافهم انه صنع هذه الثروة من تجارة المعلبات هو ضرب من الحظ الخارق للعادة في تلك اللحظة اذ كان الوقت مايزال صباحاً ، ولم يكونوا قد تناولوا افطارهم . وكان الأطفال قد بدؤوا بالحويل .

وهكذا كانت النهاية السعيدة لرحلة مليئة بالكوارث . لقد اخذ كل فرد من العائلتين افراد العائلة الاخرى بالاحضان -- ذلك لانه كان قد مضى عهد طويل منذ قابل يعقوب ترينفيلاس احد اقربائه من ليتوانيا . ولم تأت الظهيرة حتى كانوا قد غلدوا اصدقاء عمره . كان يعقوب

يدرك كل خفايا هذا العالم الجديد ، قادراً على ان يشرح كل اسراره ،
كما كان بإمكانه أن يخبرهم بما عليهم في مختلف الحالات الطارئة.
والأهم من ذلك كله انه ، كان يستطيع اخبارهم بما عليهم ان يفعلوه
في تلك اللحظة . وهكذا اخذهم إلى بوني انييل التي كانت تدبر نزلاً
في الجانب الآخر من الشارع ، شارحاً لهم ان السيدة جوكنين ليس
لديها ما يمكن ان يدعوه الانسان بالفرش الحديد الا أنه يحل المشكلة
مؤقتاً . فأسرعت تيتا الزبييتا لتقول ان كل شيء سيكون غالباً بالنسبة
لهم ، هم الذين يرتعدون فرقاً من ان يضطروا لانفاق المبالغ الضئيلة
التي يملكونها . غير أن بضعة أيام قليلة من التجربة العملية في هذه البلاد
ذات الأجور العالية كانت كافية لأن توضح لهم الحقيقة القاسية وهي
انها كانت ايضاً بلاداً ذات اسعار باهظة ، شأن الفقير فيها شأنه في
اي ركن آخر من أركان العالم . وهكذا اختفت في ليلة واحدة أحلام
الثروة الزاهية التي كانت تراود جرجس . وما جعل الاكتشاف أكثر
ايلاًماً ، هو أنهم باتوا ينفقون بالأسعار الأمريكية مالا كانوا قد كسبوه
بمعدلات الأجور المنخفضة في الوطن — لقد خدعهم العالم . والحقيقة
أنهم في اليومين الأخيرين كانوا يموتون جوعاً — إذ اصبوا بنوع من
الغشيان حين وجدوا انفسهم مضطرين لأن يدفعوا مقابل الطعام تلك
الأثمان التي كان يطلبها منهم اناس السكك الحديدية .

مع ذلك ، حين رأوا منزل الأرملة جوكنين ، لم يستطيعوا منع
انفسهم من التراجع . فظلوا رحلتهم ، لم يكونوا قد رأوا أشياء بمثل

ذلك السوء . كان لدى بوني انييل شقة من أربع غرف في احد مجاهل تلك الابنية الخشبية ذات الطابقين التي تقع « خلف الزرائب » . كذلك كان هنالك أربع شقق في المبنى ، كل شقة منها نزل يشغله الاجانب : ليتوانيون ، بولنديون ، سلوفاك أو بوهيميون . بعض هذه الاماكن يديرها أشخاص لانفسهم وبعضها يُدار بالتعاون ، حيث يشغل كل غرفة ، وبصورة متوسطة ، نصف دزينة من الاشخاص — بل أحياناً ثلاثة عشر أو اربعة عشر شخصاً في الغرفة ، وخمسون أو ستون في الشقة . كذلك كان كل واحد من السكان يؤمن مايلزمه من فرش — أي فراش وتوابعه — ثم يمد الفراش بجانب الآخر صفافاً على الأرض — ولا شيء آخر سوى الموقد . كما كان امراً عادياً ان يشترك رجلان في فراش واحد ، احدهما يعمل ليلاً والثاني نهاراً . وغالباً جداً ما كان مدير المنزل يؤجر الفرش ذاتها لفريقين من الرجال بالتناوب .

كانت السيدة جوكتنين امرأة ضئيلة الجسم جافة العروق متغضنة الوجه . بيتها وسخ إلى حد يصعب تصوره ، كما يتعذر عليك دخوله من بابه الأمامي لما مدت فيه من فرش ، وحين تحاول صعود الدرج الخلفي تجد أنها قد رفعت جدراناً في القسم الأعظم من الممر بالواح عتيقة صنعت منها خماً لدجاجاتها . وكانت إحدى المزحات المعروفة بين سكان النزل هي أن انييل تنظف المكان بافلات دجاجاتها في الغرف . ولاشك ان هذا قد خفف من الهوام والحشرات الضارة ، لكن الصحيح

أيضاً ، اذا ما أخذنا كل الظروف بعين الاعتبار ، هو أن العجوز كانت تعد ذلك وسيلة لتغذية الدجاج أكثر مما هو وسيلة لتنظيف الغرف . فالحقيقة هي أنها اقلعت منذ زمن طويل عن فكرة التنظيف ، تنظيف أي شيء ، لما تعانيه من هجمات الروماتيزم الذي كان يتركها مرمية في إحدى زوايا غرفتها ، متكومة على نفسها أكثر من اسبوع ، مما يدفع بعض الساكنين لديها الغارقين حتى آذانهم في ديونها ، للاستنتاج بأن عليهم ان يجربوا حظهم في إيجاد عمل في مدينة كنساس . فالشهر شهر تموز والحقول خضراء . والمرء لا يرى حقلاً أو شيئاً أخضر في مدينة التعليب ، لكن بإمكانه أن يخرج إلى الطريق العام « ويتجول عليه » كما يقول الناس هنا ، فيرى الريف ويحظى باستراحة طويلة ووقت مريح يستقل فيه عربات الشحن .

هذا هو المنزل الذي وجد القادمون الجدد مأوى لهم فيه . ولم يكن باستطاعتهم أن يجدوا أفضل منه — بل ربما لم يكونوا يطمحون للبحث عما هو أفضل ، لأن السيدة جوكنين كانت تبقي غرفة واحدة على الأقل لنفسها ولأطفالها الثلاثة ، وقد عرضت ان يشاركها فيها نساء وبنات الجماعة . كان بإمكانهم أن يحصلوا على لوازم نوم من مخزن للمواد المستعملة ، كما شرحت لهم ، وهم لن يحتاجوا شيئاً طالما ظل الطقس حاراً جداً — فلا شك أن بوسعهم ان يناموا على الأرض في ليال كهذه ، مثلما فعل كل ضيوفها تقريباً . « غداً » ، قال جرجس

حين باتوا بمفردهم في الغرفة . « غداً سأجد عملاً . وربما سيجد
جوناس عملاً أيضاً ، وعند ذاك يمكننا ان نستأجر مكاناً خاصاً بنا » .

في وقت لاحق من ذلك العصر خرج هو واونا للتمشي قليلاً ،
إلقاء النظر على ماحولهما كي يريا المزيد من هذه المنطقة التي ستغدو
موطنهم . في مؤخرة انزرائب كانت البيوت الخشبية البائسة ذات الطابقين
مبعثرة متفرقة ، وكان هناك فراغات خالية فيما بينها - ربما ظلت
كذلك بسبب الانتشار السريع لمدينة تمتد في منطقة مراع . وكانت
تغطي تلك الفراغات الخالية اعشاب صفراء حقيرة تخفي في ثناياها عدداً
لاحصر له من علب البندورة وعدداً لا حصر له من الاطفال الذين
يلعبون بها ويطارد بعضهم بعضاً هنا وهناك ماثين الدنيا زعيقاً وعراكاً .
على أن الأمر الأشد إثارة للاستغراب في هذا الحي هو عدد الأطفال ،
فاذا ما نظرت حولك ظننت أن هنالك مدرسة لكنك ما ان
تتعرف إلى المنطقة جيداً حتى تعلم انه لا يوجد اي مدرسة على الاطلاق .
وأن هؤلاء هم اولاد الحي ليس الا - فقد كان في كل بناية من الاطفال
ما يجعل من المتعذر على اي حصان او عربة في اي شارع من شوارع
باكنجتاون أن يمشي بأسرع من الانسان .

وليس بإمكانه ان يسير أسرع على اي حال ، بسبب حالة الشوارع . فهذه
التي كان يسير عبرها جرجس واونا كانت أقل شبيهاً بالشوارع منها
بخرطة طبوغرافية مصغرة . فالطريق بصورة عامة أكثر انخفاضاً

بعدة اقدام من مستوى المنازل التي يتصل بعضها ببعض احياناً بواسطة
ممرات خشبية عالية ، ولم يكن ثمة ارضفة -- بل هناك جبال ووديان
وأناهار ، مجاريير وحفر وبرك كبيرة مملأى بماء اخضر آسن . في
هذه البرك كان الاطفال يلعبون ثم يتدحرجون في وحل الشوارع .
وهنا وهناك كان المرء يلحظهم وهم يحفرون فيها متعقبين غنائم انكبوا
عليها انكباً . كان المرء يطوف بهذا كله كما يطوف بأسراب من الذباب
الذي يملأ المكان حتى ليحجب الشمس فعلاً ، والرائحة الزنخة الغريبة
تملاً انفه ، رائحة رهيبة تنبعث من كل الكائنات الميتة في هذا الكون .
انها تدفع الزائر لان يسأل -- وعند ذاك قد يجيب القاطنون مفسرين
بهذوء ان هذه كلها ارض « صناعية » وأنها باتت كذلك لاستعمالها
كمكان تلقى فيه قمامة المدينة كلها . بعد بضع سنوات ربما ستروى
كل الآثار الكريمة لهذه الحالة . هكذا يقول البعض ، لكن في غضون
ذلك وعندما يكون الطقس حاراً -- وعلى الأنحس عندما تمطر -- فان
الذباب يتحول إلى عنصر ازعاج حقيقي « أليس المكان غير صحي ؟ »
قد يسأل الغريب ، فيجيب القاطنون : « ربما ، لكن ليس هنالك
احصاء » .

وصل جرجس واونا بعد مسافة قليلة ، وهما جاحظا الأعين
تمجباً ودهشة . إلى المكان الذي كانت فيه هذه الأرض « الصناعية »
قيد الصنع . . هنا ، كانت قد حفرت حفرة كبيرة ربما تزيد مساحتها
عن مساحة كتلتين بنائيتين في المدينة وصفوف طويلة من عربات القمامة

ترحف اليها . وكانت للمكان رائحة يعجز الكلام عن وصفها ، وقد تنثر عليها الأولاد الذين ينبشون فيها من الفجر حتى حلول الظلام . احياناً كان زوار باكنجتاون يطوفون خارجاً ليروا هذه الزبالة وقد يقفون بجانبها ويتناقشون وكأنما يتناقشون فيما اذا كان الاولاد يأكلون الطعام الذي يحصلون عليه ام انهم يعملون فقط على جمعه للدجاج في منازلهم . لكن بالتأكيد ، مامن احد منهم نزل إلى حيث كان هؤلاء الاولاد كي يكتشف الحقيقة .

خلف هذه المزبلة كانت هناك ساحة كبيرة لصنع الآجر ، يتصاعد الدخان من مدائننها . لقد كانوا يستخرجون التراب أولاً لصنع الآجر ثم يملؤون الحفر بالنفايات ، الأمر الذي بدا لجرجس واونا اجراء ناجحاً تتميز به بلاد تحب المغامرة كأمریکا . بعد مسافة قصيرة كانت هناك حفرة كبيرة اخرى حفرت ولم تملأ بعد . فتمجمع فيها الماء الذي كان يظل طوال الصيف، وقد عجز التراب عن امتصاصه ، يفسد ويأسن تحت الشمس ومن ثم يأتي احدهم ، عند حلول الشتاء ، كي يقطع الجليد منه ويبيعه لسكان المدينة . هذا ، ايضاً ، بدا للقادمين الجدد اجراء اقتصادياً ناجحاً ، لانهم لم يكونوا قد قرؤوا الجرائد ولم تكن رؤوسهم قد امتلأت بالافكار المزعجة عن « الجراثيم » .

كانا يقفان هناك والشمس تنحدر على هذا المنظر وأفق الغرب يصطبغ بلون الدم الأحمر وسطوح المنازل تتوهج كالنار . لكن جرجس

واونا لم يكونا يفكران بغروب الشمس فقد كانا يديران ظهريهما لها .
بل كانت كل افكارهما تنصب على باكنجتاون ، التي كان بإمكانهما
رؤيتها بسهولة عند طرف الافق . كان صف الابنية ينتصب اسود
واضحاً في السماء ، ترتفع منه هنا وهناك مدانخ كبيرة يتدفق منها
نهر الدخان الذي يجري إلى نهاية العالم . انه خليط من الألوان ، هذا
الدخان الآن ، فعلى ضوء الغروب كان قد أصبح اسود وبنياً وارجوانياً
ورمادياً . كانت كل الايحاءات القنطرة للمكان قد ولت - ليبقى في
الغسق رؤيا القوة فقط . لقد بدأ المنظر للعاشقين اللذين وقفوا يراقبانه
والظلام ينجم شيئاً فشيئاً عليه ، أشبه بحلم من احلام العجائب ، بكل
مافيه من حكايا عن قدرات الانسان ، عن اشياء تم صنعها ، عن استخدام
الآلاف والآلاف من الناس ، عن الفرص والحرية ، عن الحياة والحب
والفرح . وعندما رجعا ، وقد شبكا ذراعاً بذراع ، كان جرجس يقول
« غداً سأذهب إلى هناك ، وأجد عملاً » .

استطاع يعقوب ترينديلاس ، بمقدرته الخاصة كبائع معلبات
أن يكسب الكثير من المعارف . من بين هؤلاء كان احد رجال الشرطة
الخاصة التي يستخدمها دورهام لاختيار الرجال الصالحين للاستخدام .
ورغم أن يعقوب لم يختبر صداقة هذا الشرطي ، الا أنه كان واثقاً
من انه يستطيع تأمين عمل لبعض اصدقائه . وقد تم الاتفاق ، بعد
طول مشاور . ان يقوم يعقوب بالمحاولة من اجل جوناس وانتاناس

المعجوز . اما جرجس فقد كان واثقاً من قدرته على ايجاد عمل لنفسه
ينون مساعدة أحد .

وكما ذكرنا من قبل ، لم يكن مخططاً في هذا . فقد ذهب إلى
مسلخ براون ولم يقف هناك أكثر من نصف ساعة حتى لاحظ أحد
الرؤساء قامته الشاحنة فوق الجميع فأشار له بيده . المحادثة التي تلت
ذلك كانت مختصرة وباتجاه الهدف مباشرة :

« تتكلم الانكليزية ؟ » .

« كلا ، اللبوانية » (وكان جرجس قد درس هذه الكلمة بعناية) .

« عمل ؟ » .

« إي » (مع إحناء رأس) .

« هل عملت هنا من قبل ؟ » .

« لأفهم » .

(اشارات وحركات من يدي الرئيس ورأسه . هزات رأس قوية

من قبل جرجس) .

« تنزع الامعاء ؟ »

« لأفهم » (المزيد من هزات الرأس) .

« زارنوس . باغيكيزتمس . ترللوئا » (مع حركات تقليدية)

« اي » .

« أترى الباب ؟ » (مشيراً بيده) .

« اي » .

« غداً ، الساعة السابعة . اتفهم ؟ ريتوج ، بريتزبيتس ، سبتيني ؟ » .

« ويكوى تاميستاي » (شكراً ياسيدي) . وانتهى كل شيء .

دار جرجس مبتعداً ، ثم ، باندفاعة مفاجئة ، طغى عليه تيقنه من النصر فاطلق صرخة ثم قفز وانطلق يعدو . لقد وجد عملاً ! وجد عملاً ! ومضى يقطع الطريق إلى المنزل وكأنه يطير بجناحين ثم اندفع داخل المنزل كالاعصار مما اثار غضب سكان المنزل الكثر الذين كانوا قد وصلوا لتوهم من أجل نوبة نومهم النهارية .

في غضون ذلك ، كان يعقوب قد ذهب لرؤية صديقه الشرطي وتلقى جواباً مشجعاً ، وبذلك كانت الجماعة سعيدة . لم يكن هناك مايفعلونه بقية ذلك اليوم ، فالحانوت تديره لوميا ، لذا كان باستطاعة زوجها أن يمضي قدماً كي يري اصدقاءه معالم باكنجتاون وقد فعل يعقوب هذا بهيئة ابن الريف الذي يصحب رهطاً من الزوار جاؤوا لأرضه . لقد كان مقيماً قديماً العهد شاهد بأم عينه هذه الأعاجيب كلها وهي تكبر شبراً شبراً وكان فخوراً كل الفخر بها . ربما كان اصحاب دور التعليب يملكون الأرض ، اما هو فقد كان يملك الطبيعة كلها ولم يكن ثمة احد يعترض على ذلك .

هبط يعقوب وصحبه الشارع المزدحم الذي يؤدي إلى الزرائب .
كان الوقت ما يزال باكراً وكل شيء في أعلى مدله من النشاط . جدول
دائم الجريان من المستخدمين كان يصب عبر البوابة . ففي هذه الساعة
يأتي المستخدمون ذوو المراتب العالية ، الكتبة ، عمال الاختزال وما شابه .
أما النساء فقد كانت هناك عربات كبيرة ذات حصانين تنتظر ، تنطلق
حين تملىء بهن وتعدو نحوها بأقصى سرعة . ومن بعيد كان يأتي
إلى الاسماع ثمانية خوار البقر ، صوت شبه بهدير محيط بعيد . في
هذه المرة تبعوه ، تدفعهم رغبة شديدة كتلك التي تدفع أطفالاً لرؤية
سيرك - والمشهد ، بالحقيقة ، شديد الشبه به . بعثد عبروا خطوط
السكة الحديدية ليجدوا على كلا جانبي الشارع حظائر ملاءى بالماشية ،
كانوا سيتوقفون لالقاء نظرة لولا ان يعقوب حثهم على الاسراع إلى
حيث كان هنالك سلم ورواق مرتفع يمكنك ان ترى منه كل شيء .
فوقفوا هناك جاحظي الأعين ، مقطوعي الانفاس دهشة وعجباً .

فهناك مايزيد على الميل المربع من الارض الخلاء التي حولت إلى
زرائب ، أكثر من نصفها تشغله حظائر الماشية . وإلى الشمال والجنوب ،
وعلى مدى العين ، يمتد بحر متلاطم من الحظائر التي امتلأت جميعاً
بالبقر - عدد كبير إلى حد لا يحلم احد بوجود مثله في الدنيا . بقر
احمر ، اسود ، ابيض ، اصفر ، بقر فتي ، بقر هرم ، ثيران ضخمة ،
عجول صغيرة رأت النور منذ ساعة . بقر حلوب هادىء ، ثيران

تكسسية طويلة القرون شرسة . وكان صوتها يبدو وكأنه آت من حظائر
العالم كلها ، أما بالنسبة لعدددها سفيراً تحتاج النهار بطوله لعد الحظائر
وحدها . وهنا وهناك كانت تمتد ممرات طويلة تقطعها على فواصل
منتظمة تقريباً بوابات قال لهم يعقوب أن عدددها خمسة وعشرون ألفاً .
لقد قرأ مؤخراً مقالاً في صحيفة مليئة بإحصائيات من هذا النوع ، وكان
يبدو في ذروة الكبرياء وهو يكررها ويجعل ضيوفه يصرخون دهشة .
جرجس نفسه أحس بشيء من هذا الكبرياء . ألم يجد عملاً لتوه ياترى ؟
ألم يصبح شريكاً في كل هذه النشاطات ؟ مسماراً في هذه الآلة الهائلة ؟
في كل مكان من الممرات كان هناك رجال يمتطون ظهور الخيول ،
يعدون بها ، وقد لبسوا جزمات طويلة وحملوا في أيديهم سياطاً طويلة .
كانوا مشغولين للغاية ، ينادي بعضهم بعضاً ، كما ينادون أولئك
الذين يسوقون الماشية إليهم . كان منهم سائقو الماشية ومربوها أولئك
الذين جاؤوا من ولايات بعيدة ، ومنهم السماسرة وتجار الكومسيون
والشارون لكل دور التعليب الكبيرة . فهنا يقفون كي يتفحصوا زمرة
من الماشية ، وهناك تنعقد مساومة مختصرة وعملية . وقد يوميء الشاري
برأسه أو يوقع سوطه فيعني ذلك صفقة ، وهو قد يدون ذلك في دفتره
الصغير جنباً إلى جنب مع مئات التلوينات الأخرى التي اودعها دفتره
في ذلك الصباح . أشار يعقوب إلى المكان الذي تساق إليه الماشية كي

توزن على ميزان كبير يمكن أن يزن مائة ألف رطل انكليزي في المرة الواحدة ويسجل الوزن بصورة أتوماتيكية . كان الميزان قرب المدخل الشرقي الذي يقفون بجواره وعلى طول هذا الجانب الشرقي من الزرائب كانت تمتد خطوط السكة الحديدية التي كانت تسير عليها عربات القطارات محملة بالماشية . طوال الليل ، كان هذا العمل يجري ، والآن امتلأت الحظائر ، لكن ما إن يأتي الليل حتى تكون قد أفرغت ليعاودوا الكرة من جديد .

« وماذا سيحل بكل هذه المخلوقات ؟ » صرخت تينا الزبييتا .

فأجاب يعقوب :

« هذه الليلة ستكون كلها قد ذبحت وقطعت . وهناك في الجانب الآخر من دور التعليب سلكك حديدية أخرى وقطارات تنقلها بعيداً » .

طول السلك الحديدية في الزرائب لا يقل عن مائتين وخمسين ميلاً ، تابع دليلهم القول ، تنقل يومياً حوالي عشرة آلاف رأس من البقر ومثلها من الخنازير ونصف هذا العدد من الغنم – أي مابين ثمانية وعشرة ملايين رأس من الحيوانات التي تحول إلى طعام للانسان كل عام . كان واحد منهم يقف ويراقب . شيئاً فشيئاً كان يتعرف إلى اتجاه المد ، أي اتجاه دور التعليب . فهناك كانت مجموعات من الماشية تساق إلى

المساقط وهي طرق بعرض خمسة عشر قدماً ترتفع عالياً فوق الحظائر .
على هذه المساقط كان جدول الحيوانات يجري باستمرار . وقد كان
أمراً غريباً تماماً أن تراقبها ، وهي تدفع بعضها بعضاً نحو مصيرها
الأخير من غير أن تشك بذلك أبداً - انه نهر الموت ذاته . لكن أصدقاءنا
لم يكونوا شعراء ، لذا لم يوح لهم المنظر بأية صور مجازية عن المصير
البشري ، ولم يفكروا إلا بالفعالية العجيبة لهذا الترتيب . كانت المساقط
التي تساق عليها الخنازير ترتفع عالياً أيضاً - إلى سطوح الأبنية البعيدة
ذاتها. فشرح يعقوب أن الخنازير تصعد هذه المساقط بنفسها ، ومن ثم
يدفعها ثقلها ذاته لتمر عبر كل العمليات اللازمة لتحويلها إلى لحم
معلبات .

« لاشيء يضيع هنا » قال الدليل ثم ضحك وأضاف طرفة سره
كثيراً أن يحسبها أصدقاءه السذج من بنات أفكاره : « هنا يستفيدون
من كل ما في الخنزير باستثناء صراخه » . كان أمام مبنى مكتب براون
العام بقعة عشب صغيرة هي البقعة الخضراء الوحيدة في باكنجتاون ،
كذلك فإن هذه الطرفة المتعلقة بالخنزير السائرة بين كل الأدلاء هي الأثر
الوحيد للهزل الذي يمكنك أن تجده هنا .

بعد أن أخذت الجماعة كفايتها من مشاهدة الحظائر عادت فصعدت
الشارع إلى كتلة الأبنية الكبيرة التي تشغل مركز الزرائب . هذه الأبنية

المشيقة بالآجر والملطخة بطبقات لا حصر لها من دخان باكتجائون ، كانت كلها قد طليت بلوحات دعائية يعرف الزائر منها على الفور أنه وصل إلى موطن الكثير من عذابات حياته . فهنا تصنع تلك المنتجات العجيبة التي تضايقه كثيراً — بالاعلانات التي تشوه المناظر الطبيعية حين يسافر ، بالدعايات البارزة في الصحف والمجلات — وبالأغاني الصغيرة السخيفة التي لم يكن باستطاعته اخراجها من ذهنه ، والصور المبهرجة التي تفاجئه في كل ركن وزاوية من المدينة .

هنا كانت كل دور التعليب الشهيرة بدءاً من دار براون التي تتضمن مختلف عمليات التعليب وأنواعه وانتهاء بدورهاام وكل مالديه من أنواع التعليب أيضاً .

وجدت الجماعة ، لدى دخولها أحد مباني دورهاام ، عدداً من الزوار الآخرين ينتظرون ، وماهي إلا بضع دقائق حتى جاء دليل لمصاحبتهم في أرجاء المكان . انهم يحققون هدفاً كبيراً حين يسمحون للغرباء برؤية منشآت التعليب ، ففي ذلك دعاية جيدة غير أن الصديق يعقوب همس بشيء من الضغينة أن الزوار لا يرون إلا ما يرغب أصحاب دور التعليب بأن يروه .

صعدت الجماعة سلسلة طويلة من السلم خارج المبنى إلى أن وصلت سطح الدور الخامس أو السادس . هنا وقفت تشاهد المسقط ، بنهر خنازيره ، وهي تكد صاعدة طريقها بصبر شديد . بعدئذ تقف في

مكان معين كي ترتاح فيه وتستبرد ، ثم تمضي عبر ممر آخر إلى قاعة لا رجعة منها للخنازير .

إنها قاعة ضيقة طويلة تمتد على امتدادها رواق للزائرين . في صدرها عجلة حديدية كبيرة محيطها عشرون قدماً تقريباً وعلى طول حافتها حلقات ودوائر وهناك ، من كلا الجانبين ، حيز ضيق تدخله الخنازير لدى انتهاء رحلتها . وفي وسطها يقف زنجي ضخم الجثة قوي البنية عاري الذراعين والجذع . كان في تلك اللحظة يستريح . فالعجلة قد توقفت لانشغال الرجال بالتنظيف . لكن بعد دقيقة أو اثنتين بدأت تدور من جديد بطيئة بطيئة ، وعند ذاك قفز الرجال على كلا جانبيها كي يبدؤوا العمل . كانت لديهم سلاسل يشبثون واحدها حول قائمة أقرب خنزير ويعلقون النهاية الأخرى بأحدى حلقات العجلة التي ما إن تدور حتى يجد الخنزير نفسه وقد ارتفع فجأة عن الأرض كي يحمل بعيداً .

في تلك اللحظة انقضت على آذانهم صرخة شديدة الهول ، فأجفل الزوار مذعورين وشحبت وجوه النساء وتراجعن خائفات . اعقبت الصرخة صرخة أخرى أعلى وأكثر إيلاًماً إذ ما ان يبدأ الخنزير تلك الرحلة ، حتى لا يعود أبداً ، وعندما يصل أعلى العجلة يقذف بعيداً إلى حامل متحرك يعبر القاعة على مهل . في غضون ذلك يُقذف خنزير ثان ثم ثالث ورابع إلى أن يغدو على الحامل صف مزدوج منها ، وكل

منها معلق من قائمته يرفس كالمجنون ويطلق صراخاً حاداً ، صراخاً مخيفاً خطراً على طبيلات الآذان ، حتى ليخشى أن يكون الصراخ أشد مما تتحمله القاعة — أي يخشى أن تنهار جدران القاعة أو يتشقق سقفها . كانت هنالك صرخات حادة عالية وواظئة وهمهمات وأصوات معاناة ، ثم جاءت لحظة سكون أعقبها انفجار أصوات جديدة أعلى من سابقه ، انفجار أصوات بلغ الذروة التي تصم الآذان . وكان ذلك أكثر من قدرة بعض الزوار على تحمله — فراح الرجال ينظر بعضهم إلى بعض وهم يضحكون على نحو عصبي بينما وقفت النساء وقد أطبقن أيديهن بإحكام واندفع الدم إلى وجوههن وطفرت الدموع من عيونهن .

أثناء ذلك ، ودون أن يهتموا بكل هذه الأشياء ، كان الرجال الموجودون على الأرض يتابعون عملهم ، لا تؤثر بهم صرخة خنزير أو دمة زائر . . . انهم يعلقون الخنازير واحداً واحداً وبضربة سريعة يقطعون رقابها واحداً واحداً ، حتى يتشكل صف طويل من الخنازير ، ذات الصرخات الحادة والدم المنبثق منها جميعاً ، لتمضي بعيداً معاً إلى أن يختفي واحدها أخيراً ، ناثراً حوله الماء في راقود ضخمة من الماء المغلي .

كان ذلك كله يجري بنوع من التصرف العملي يجعل المرء يرقبه كالسحور . أنها صناعة اللحم المقلب بالآلات ، صناعة اللحم المقلب بالرياضيات التطبيقية . لكن رغم ذلك ، ليس باستطاعة أكثر الناس عملية أن يمنعوا أنفسهم من التفكير بالخنازير ، تلك الخنازير البريئة

التي تأتي هنا بكثير من الثقة والتي تحمل احتجاجاتها الكثير من صفات احتجاج الانسان فهي لم تفعل شيئاً تستحق عليه ذلك . وما يزيد الطين بلة ، والعمل يجري هنا ، هو قذفها إلى الأعلى بهذه الطريقة الباردة الفظيعة بلا أي شكل من أشكال الاعتذار وبدون أثر من دمة في العيون . من حين إلى آخر كان زائر مايبيكي ، بالتأكيد ، إلا أن آلة الذبح هذه كانت تمضي في عملها سواء كان هناك زوار أم لم يكن . وكان ذلك أشبه بجريمة ترتكب في زنازة لا يراها أحد ولا يبالي بها أحد ، مخفية عن الأنظار والذاكرات .

لكن من المتعذر على المرء أن يقف هنا فترة طويلة ويراقب دون أن يصبح فلسفي التزعة ، دون أن يعالج بالرموز والاستعارات ، سماع الصرخة — التحذيرية الموجهة إلى الكون . ترى أمن المسموح الاعتقاد أنه ليس هناك على الأرض أو فوقها أو في السماء مكان للخنازير تعوض فيه عن كل هذا العذاب ؟ فكل خنزير من هذه الخنازير مخلوق قائم بذاته . بعضها أبيض وبعضها أسود أو بني أو منقط . بعضها كبير السن والبعض فتي ، بعضها طويل نحيل والبعض ضخم كبير . لكن كلا منها له ذاته الخاصة ، ارادته الخاصة ، آماله ورغائبه . كل منها كان يحمل اعتداداً بالذات ، احساساً بالأهمية ، شعوراً بالأنفة . بثقة وإيمان قوي كان واحدها يمضي في طريقه وقد أسلط سيف القدر فوق رأسه ليجد نفسه أخيراً وقد سار إلى حتفه بظلفه ، ليجد نفسه فجأة وقد عاق

من قائمته بغير رحمة وبلا ونحر ضمير . كل احتجاجاته ، صرخاته
تذهب مباء - لا أحد يسمعها ، لا أحد يهتم بها وكأن رغباته : «شاعره»
لم يكن لها وجود قط . فالآلة تقطع عنقه وترقبه وهو يلفظ آخر أنفاسه .
والآن ، هل على المرء أن يعتقد أنه ليس هنالك إله لهذه الحيوانات ،
تهم هذه الحيوانات ككائنات ويحمل صراخها وعذاباتها معنى من
المعاني ؟ إله يأخذ هذه الحيوانات بين ذراعيه ويهددها ، يكافئها
على المهمة التي أحسنت أدائها ويربها معنى تضيئحتها ؟ ربما كان يدور
في نخل جرجس ، صاحبنا ذي العقل المتواضع ، أثر من هذا كله
وهو يدور على عقبيه ليمضي مع بقية الصبح ، فقد همهم « ياإلهي -
احملك على أنني لست بختيراً » .

كانت جثة الخنزير تخرج من الراقود بواسطة الآلة ، لتسقط بعدئذ
إلى طابق ثانٍ ، ثم تعبر في طريقها آلة عجيبة ذات كاشطات عديدة
تتكيف مع حجم وشكل الحيوان ليخرج من الطرف الآخر وقد أزيل
كل ما عليه من هلب تقريباً .

بعدئذ تنظمها الآلات على شكل سلسلة وترسل على حامل متحرك
آخر ، عابرة هذه المرة بين صفيين من الرجال جلسوا على إفريز مرتفع ،
وكل منهم يقوم بعمل معين حين تمر به الجثة . أحدهم يكشط الجانب
الخارجي من القائمة ، آخر يكشط الجانب الداخلي منها . واحد بضربة
سريعة يقطع العنق ، وثانٍ بضربتين يفصل الرأس الذي يسقط على

الأرض ويختفي ضمن حفرة ، وثالث يصنع شقاً طويلاً في الجسد ورابع يفتح فتحة أوسع فيه بينما يقطع خامس بمشارف يده عظم الصدر وسادس يحمل أربطة الأحشاء وسابع يسحبها خارجاً — لتتلقى هي الأخرى في حفرة في الأرض كذلك . وثمة رجال يكشطون كل جانب من الجانبين ورجال يكشطون الظهر وآخرون ينظفون داخل الجثة ثم يفتشونها ويغسلونها ، وحين ينظر المرء إلى أسفل هذه القاعة يرى صفّاً من الخنازير المتدلية ، يزحف على مهل بطول مائة ياردة ، وفي كل ياردة ثمة رجل يعمل وكأن شيطاناً يطارده . في نهاية مسيرة هذا الخنزير تكون كل بوصة من الجثة قد عولجت عدة مرات وعند ذاك تدرج إلى قاعة التبريد ، حيث تبقى أربعاً وعشرين ساعة ، وحيث يفضل الغريب طريقه في غابة الخنازير المتجمدة .

لكن قبل أن يتم ادخال الجثة إلى هنا ، لابد أن تمر بمفتش حكومي يجلس في المدخل ويتحسس غدد الرقبة بحثاً عن جراثيم السل . هذا المفتش الحكومي لا يسلك سلوك رجل يتعامل مع الموت ، ولا ينتابه أي خوف من أن الخنزير قد يتجاوزه قبل أن يقوم بفحصه واختباره . وإن كنت رجلاً اجتماعياً سيكون راعياً تماماً بالدخول في محادثة معك ، ليشرح لك الطبيعة القاتلة للتومينات (١) التي توجد في لحم الخنزير المسلوق ، وبينما يحدثك لا يسعك إلا أن تستنكر الوضع وأنت تلاحظ

(١) التومينات : مادة سامة تنشأ عن تعفن البروتينات الحيوانية أو النباتية .

أن عشرات الذبائح قد مرت به دون أن يمسه . هذا المفتش يضع شارة فضية مهيبة ويصنع حوله هالة من السلطة تزيد من هيبة المشهد ، أما مهمته ، إذا جاز التعبير وكان له مهمة ، فهي أن يضع خاتم الموافقة الرسمية على الأشياء التي تصنع في معمل دورهام .

تابع جرجس مشاهدة الصف مع بقية الزوار ، جاحظ العينين فاغر القم تملكه الحيرة والدهشة . كان في الماضي قد ذبح وأعد للبيع خنازير في غابة ليتوانيا لكنه لم يتوقع أبداً أن يعيش إلى أن يرى خنزيراً واحداً يذبح ويعد للتعليب من قبل مئات الرجال . كان ذلك أشبه بقصيدة رائعة تلقاها كلها ببراعة وحسن نية - حتى بالنسبة للوحات الواضحة التي تقضي بأن تكون نظافة العاميين كاملة لاغبار عليها . شعر جرجس بالضيق حين ترجم يعقوب المتشائم هذه اللوحات مرفقة بتعليقات ساخرة ، عارضاً أن يأخذهم إلى الغرف السرية حيث تؤخذ اللحوم الفاسدة لكي تعالج طبياً . بعدئذ نزلت الجماعة إلى الطابق التالي ، حيث تعالج مختلف المواد المهدورة . ففي هذا الطابق تأتي الأحشاء لكي تفرك وتنظف وتغسل وتصبح نقائق ، وفيه يعمل الرجال والنساء وسط رائحة قاتلة جعلت الزوار يسرعون الخطأ مقطوعي الأنفاس . وإلى قاعة أخرى تأتي كل النفايات لكي « تعالج » . وتعالج هنا تعني أن تغلى وتستخرج منها الشحوم لصنع الصابون والدهون ، أما في الأسفل فكانوا يخرجون الفضلات وهذه أيضاً منطقة لم يستطع الزوار المكوث فيها طويلاً .

وهناك أماكن أخرى كان الرجال مشغولين فيها بتقطيع الذبائح التي كانت تعبر إلى غرف البريد فقبل كل شيء . هناك « الشطارون » وهم أكثر رجال المنشأة خبرة ، يكسبون أجراً يصل حتى الخمسين سنتاً في الساعة الواحدة وهمتهم طوال اليوم شطر الذبيحة من منتصفها . بعدئذ هناك « رجال السواطير » وهم رجال ضخام الأجسام ذوو عضلات فولاذية لدى كل واحد منهم رجلان يعملان تحت إشرافه - يزلقان نصف الذبيحة أمامه على الطاولة ويمسكها بينما يقطعها بساطوره ومن ثم يقلبان كل قطعة كي يقطعها مرة أخرى إن احتاج الأمر . فساطوره ذو نصلة بطول قدمين لا يضرب به إلا ضربة واحدة وهو يضرب بطريقة محكمة كي لا يثلم الساطور أو يصاب حده . إنه يضرب بما يلزم من القوة كي يقطع قطعاً تاماً لا أكثر ولا أقل . وهكذا عبر مختلف الحفر الفاتحة أفواهاها في الأرضية كانت تنزاق القطع إلى الطابق الأسفل حيث توزع مختلف أنواع اللحوم . في كل غرفة نوع منها . وحين ينزل المرء إلى هذا الطابق يرى غرف التخليل حيث توضع اللحوم في رواقيد كبيرة ، وكذلك غرف التدخين الكبيرة وأبوابها الحديدية المانعة للهواء . والغرف الأخرى الخاصة بإعداد اللحم المملح - وهناك أقبية كاملة مملأة به حيث يرتفع اللحم أبراجاً عالية حتى السقف . وثمة غرف يضعون فيها اللحم في علب وبراميل ويلفون أنواعاً منها في أوراق مددونة بالزيت ثم يختمونها ويضعون عليها بطاقات ويخيطونها . من أبواب هذه الغرف كان الرجال يخرجون بعربات محملة

إلى رصيف تقف عنده عربات شحن بانتظار أن تملأ . وحين يخرج المرء إلى هناك يدرك بشيء من الدهشة أنه وصل أخيراً إلى الطابق الأرضي في هذا البناء الضخم .

بعد ذاك عبرت الجماعة الشارع إلى حيث كانوا يقومون ببيع البقر — حيث يحولون في كل ساعة أربعمائة أو خمسمائة رأس من البقر إلى لحم معلب . وخلافاً للمكان الذي غادروه لتوهم ، كان كل العمل هنا يتم في طابق واحد ، لكن بدلاً من أن يكون هناك صف واحد من الدبائح تتحرك باتجاه الرجال العاملين ، فقد كان هناك خمسة عشر أو عشرون صفاً يتحرك العمال من صف منها إلى صف آخر ، الأمر الذي أضفى على المشهد حيوية شديدة ، لوحة للقوة البشرية ما أروع مراقبتها ! ! كان ذلك كله يجري في قاعة كبيرة واحدة أشبه بمسرح سيرك ، فيها رواق خاص بالزوار يحيط بالمركز

وكان يمتد على طول أحد جوانب القاعة رواق ضيق لا يتعدى بضعة أقدام . في هذا الرواق كان ثمة رجال يسوقون الأبقار بمهاميز تسبب لها صدمات كهربائية . وما إن تتجمع هنا ، حتى تكون هذه المخلوقات قد حبست ، كل منها في حظيرة مننصلة ، بواسطة أبواب تغلق فلا تترك لها فراغاً يمكنها أن تدور فيه وبينما تقف هناك وهي تنخور وتحاول اقتحام الباب المغلق في وجهها ، ينحني من على سطح الحظيرة أحد « الطرايين » وقد تسلح بمطارقة ثقيلة ، منتظراً فرصة مناسبة كي

يسدد ضربته . وتردد القاعة أصداء الضربات التي تنزل على هذه المخلوقات بتتابع سريع كما تردد تخبط الثيران ورفسها . وفي اللحظة التي يسقط فيها الحيوان يتقل « الطراق » إلى حيوان آخر ، في حين يرفع رجل ثان عتلة يرتفع بارتفاعها جانب الحظيرة فيزلق الحيوان ، وهو ما يزال يتخبط ويرفس ، خارجاً إلى « حوض الذبح » . هنا يضع أحد الرجال قيداً حول الساق ثم يضغط عتلة أخرى فينقذف الجسم عالياً في الهواء . كان هناك خمس عشرة أو عشرون حظيرة كهذه . ولا يستغرق الأمر أكثر من دقيقتين لطرح خمسة عشر أو عشرين رأس بقر أرضاً ودحرجتها خارجاً . بعدئذ تفتح الأبواب مرة أخرى لتدفع إلى الحظائر وجبة ثانية وهلم جراً . حتى ترى أن جدولاً دائم الجريان من الذبائح يتدفق باستمرار من هذه الحظائر و يتعامل مع رجال ينتظرون عند حوض الذبح كي يوجهوه إلى الطريق المرسوم .

الأسلوب الذي كانوا يؤدون به مهامهم جميعاً شيء يراه الانسان ولا ينساه أبداً . فقد كانوا يعملون بحدة وعنف - وبايقاع لا يقارن به شيء سوى مباراة في كرة القدم . إنه عمل بالغ التخصص ، لكل رجل فيه مهمة يؤديها تتألف بصورة عامة من ضربتين أو ثلاث ضربات محددة ، ثم يمر على صف من خمس عشرة أو عشرين ذبيحة ، يوجه لكل منها ضرباته المحددة هذه . فقبل كل شيء ، هناك « الجزار » الذي يدميها . وإدماؤها هذا يعني ضربة واحدة سريعة . سريعة إلى درجة لا يمكنك رؤيتها - ما عدا لمعة السكين فقط . وقبل أن ترى

ماجرى ، يكون الرجل قد اندفع إلى الصف التالي ، لينسكب جدول أحمر قان على الأرض التي يغطيها الدم بارتفاع نصف بوصة رغم كل المحاولات التي يبذلها الرجال لحرفه إلى الفتحات الأرضية . إنه يجعل الأرض زلقة . لكن ما من أحد يمكنه تخمين هذا من مراقبة الرجال وهم يعملون .

بعدئذ تعلق الذبيحة كي ينزف دمها . بضع دقائق لا أكثر ، فليس هناك وقت يمكن اضاعته ، وهكذا تجد عدة ذبائح معلقة في كل صف ، وذبيحة جاهزة دائماً يدعونها تنزل إلى الأرض ثم يأتي « قطاع الرؤوس » ومهمته فصل الرأس عن الجسد بضربتين أو ثلاث ضربات سريعة . بعدئذ يأتي « رجل الأرضية » الذي يصنع الشق الأول في الجلد ، بعده يأتي سالخ آخر ليكمل الشق حتى منتصف الذبيحة ، ثم تمر على نصف من السالخين الذين يكملون عملية السليخ بضربات سريعة متتالية . بعد انتهاء العملية هذه تعلق الذبيحة في الأعلى ، وبينما يفحص أحد الرجال الجلد بعصاه كي يتأكد من سلامته بدرجة آخر ويلقيه إلى إحدى الحفر التي لا بد منها في الأرضية ، بينما تتابع الذبيحة مسيرتها ، لتجد في انتظارها رجالاً يقطعونها وآخرين يشطرونها ، رجالاً يخرجون احشائها وآخرين ينظفون داخلها . وهناك البعض يحملون خراطيم تطلق عليها مياهاً مغلاة مضغوطة وآخرون يزيلون مقادعها ويضعون اللمسات الأخيرة عليها . في النهاية ، وكما هي الحال بالنسبة للخنازير ، تدفع الذبيحة التي انتهت معالجتها إلى غرفة التبريد لتعلق المدة المحددة لها .

مضى الدليل بالزوار إلى هناك كي يريهم الذبائح وقد علقت جميعها على شكل صفوف حسنة الترتيب ووضعت عليها بطاقات المفتشين الحكوميين على نحو واضح - بينما دُمِغ بعضها ، ذاك الذي ذبح بعملية خاصة ، بدمغة تميزه عن الذبائح الأخرى وثبت أنه صالح للبيع للأرثوذكس اليهود . بعد ذلك ، مضى الزوار إلى أجزاء المبنى الأخرى كي يروا ما حل بكل جزء من مواد الفضلات التي كانت تختفي عبر فتحات الأرضية ثم إلى غرف التخليل ، التمليح ، التعليب ، التزيم حيث يتم اختيار اللحم لتحميله في العربات المبردة وتوجيهه لكي يؤكل في أركان الدنيا الأربعة . بعد ذاك خرجت الجماعة لتطوف مختلف الأبنية التي كانت تجري فيها الأعمال الملحقة بهذه الصناعة . وما من شيء يحتاجه أصحاب منشأة دورهام في عملهم هذا لا يصنعونه بأنفسهم . فهناك منشأة كبيرة للطاقة البخارية ومولد للكهرباء ، كما يوجد معمل للبراميل وورشة لإصلاح المراحل . وهناك أيضاً مبنى تضخ إليه الشحوم بالأنابيب لتحول إلى صابون ودهون ، كما يوجد مصنع لصنع علب لهذه الدهون ومصنع آخر لصنع صناديق الصابون . وهناك مبنى يجري فيه تنظيف هلب الخنازير وتجفيفه لتصنع منه مساند من الشعر وأشياء كهذه ، كذلك ثمة مبنى تجفف فيه الحلود وتُدبغ وآخر تحول فيه الرؤوس والمقادم إلى غراء وثالث تصنع فيه أسمدة من العظام . لم تكن منشأة دورهام تضخ جزءاً صغيراً من أية مادة عضوية . فمن

قرون الماشية يصنعون أمشاطاً ، أزراراً ، دبائيس شعر . عاجاً تقليدياً ، ومن عظم الساق والعظام الكبيرة الأخرى يصنعون مقابض للسكاكين وفراشي الأستان وجوزات للغلايين ، ومن الأظلاف يقطعون دبائيس شعر وأزراراً ثم يحولون البقية إلى غراء . ومن أشياء كالمقادم والمفاصل وقصاصات الجلود والأوتار ، تأتي منتجات غريبة ومتباينة كالجلاتين ، غراء السمك ، الفوسفور ، سماد العظام ، صباغ الأحذية وزيت العظام . بل لديهم أعمال خاصة بقص شعر ذبول البتر « ونزاعة صوف » لمعالجة جلود الأغنام كما يصنعون خميرة الهضم (الببسين) من معد الحنازير والزلال من الدم وأوتار الكمان من الأحشاء الكريهة الرائحة . وحين لا يعرفون ما يفعلون بالشيء فانهم يضعونه في خزان أولاً حيث يستخرجون منه كل ما فيه من دهن وشحم ومن ثم يحولونه إلى سماد . كل هذه الصناعات كانت قد جمعت في أبنية قريبة ، تتصل من خلال أروقة وسكك حديدية بالمبنى الرئيسي . وتقول التقديرات أنهم عالجوا حوالي ربع بليون رأس منذ انشئت هذه المؤسسة على يد دورهام الأكبر . أي قبل جيل وأكثر . وإذا ما أضفت لها المنشآت الكبيرة الأخرى - وهي الآن جميعاً منشأة واحدة بالحقيقة - فانها تغدو ، كما أخبرهم يعقوب بذلك ، أكبر تجمع لليد العاملة ورأس المال في مكان واحد سبق أن وجد على ظهر الأرض . فهناك حوالي ثلاثين ألف عامل يعملون اعالة مباشرة مائتين وخمسين ألف نسمة في المناطق المحيطة ، واعالة غير مباشرة حوالي نصف مليون . أما منتجاتها

فإنها تصل إلى كل بلد من بلدان العالم المتحضر وتوفر الغذاء لما يزيد على ثلاثين مليون نسمة .

أصغى أصحابنا لهذه المعلومات كلها فاغري الأفواه — فقد بدا لهم أن من المستحيل التصديق بأن أشياء مذهلة كهذه يمكن أن تكون من تصميم انسان فان . وهذا هو السبب الذي جعل جرجس يفكر بأن الكلام عن هذا المكان وبالطريقة التي كان يتكلم بها يعقوب ، طريقة التشكيك ، نوع من التجديف والكفر فقد كان المكان كبيراً هائلاً كالكون — لذا لا يمكن أن تكون طرق وقوانين عمله ، شأنها شأن طرق وقوانين الكون ، موضع تساؤل أو فهم . كل ما يمكن أن يفعله الانسان العادي ، كما خيل لجرجس ، هو أن ينظر إلى شيء كهذا كما هو تماماً وأن يفعل ما يقال له أن يفعل . فأن يعطى موضع فيه وأن يسمح له بنصيب من نشاطاته الرائعة انما هي نعمة عليه أن يكون متمناً لها كل الامتنان ، كما يمتن الانسان ويشكر الله على شروق الشمس والمطر . بل لقد كان جرجس مسروراً على أنه لم ير المكان قبل أن يحقق انتصاره ، فقد شعر أن حجمه كان سيظهره . لكنهم الآن كانوا قد تبنوه — الآن بات جزءاً من هذا كله ! كان جرجس يشعر بأن هذه المؤسسة الضخمة كلها قد بسطت عليه رعايتها وأنها غدت مسؤولة عن خيره ومصالحته . بريئاً جداً كان جرجس وجاهلاً بطبيعة العمل إلى حد لم يدرك معه أنه كان قد أصبح مستخدماً لدى منشأة براون وأن من المفروض في نظر العالم كله أن براون ودورهام خصمان متنافسان حتى الموت — بل

المطلوب أن يكونا خصمين متنافسين حتى الموت بحكم قانون البلاد نفسه الذي يأمر بأن يحاول واحدتهما تحطيم الآخر تحت طائلة العقوبة بالغرامة والسجن ! .

من غير إبطاء قدم جرجس نفسه في الساعة من صباح اليوم التالي إلى رئيس العمال . جاء إلى الباب الذي كان قد دله عليه وهناك انتظر حوالي ساعتين . كان رئيس العمال قد طلب منه أن يدخل لكنه لم يقل شيئاً ، وحين لم يحضر جرجس إلى مكان العمل خرج كي يستأجر رجلاً آخر وهناك رآه . فرماه بقدر لا بأس به من اللعنات لكن نظراً لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما قال فان جرجس لم يعترض ، بل لحق بالرئيس الذي بين له أين يضع بزة خروجه ثم انتظره ريثما ارتدى ملابس العمل التي كان قد اشتراها من محل للثياب المستعملة ، بعدئذ قاده إلى « أحواض الذبح » . العمل الذي كان على جرجس أن يعمل به هنا بسيط جداً ، لم يستغرق منه تعلمه سوى بضع دقائق . فقد زود بمكنسة خشنة كتلك التي يستخدمها كناسو الشوارع ، على أن تكون مهمته اقتفاء أثر الرجل الذي ينتزع الاحشاء من اللدبائح ثم جرفها إلى مكان خاص ، كان مغلقاً حينذاك ، بحيث لا ينزلق أحد عليها . حين دخل جرجس كانت بقرة الصباح الأولى قد ظهرت لتوها ، وهكذا لم يتم له وقت للنظر حوله أو التكلم مع أحد ، بل غرق مباشرة في العمل . كان يوماً شديداً الحرارة من أيام تموز ، والمكان يفيض بالدم الحار المتصاعد منه البخار — والذي يخوض المرء فيه . كذلك كانت

الرائحة لاتقاوم تقريباً ، الا انها لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة لجرجس . فقد كانت روحه ترقص فرحاً - لقد استلم العمل اخيراً ! ! لقد استلم العمل وسيكسب مالاً . وطوال النهار ظل يتصور شتى التصورات لنفسه . في آخر النهار دفعوا له المبلغ الخيالي ، سبعة عشر سنتاً لكل ساعة وبما انه كان يوماً مضغوطاً فقد عمل حتى الساعة مساءً تقريباً ثم مضى إلى المنزل ليخبر جماعته بأنه كسب أكثر من دولار ونصف في يوم واحد . في المنزل ايضاً كان هناك المزيد من الاخبار الطيبة ، كثير من الاخبار الطيبة إلى درجة حدث معها نوع من الاحتفال في غرفة نوم انييل التي تحولت إلى صالة احتفالات . فقد ذهب جوناس لمقابلة الشرطي الخاص الذي قدمه له تيزيد فيلاس ، وهناك اخذه هذا وعرضه على عدة رؤساء عمال . وكانت النتيجة ان وعده أحدهم بعمل في بداية الاسبوع القادم . كذلك كانت هناك ماريا بيرجنسكاس التي نطلقت ، وقد اشعلتها الغيرة من نجاح جرجس ، لتبحث عن عمل بنفسها . لم يكن لدى ماريا ما تأخذه معها سوى زنديها المقتولين ، وكلمة « عمل » التي تعلمتها باتقان . بهذه الاشياء طافت في باكنجتاون طوال النهار ، وألحقة كل باب بدت عليه اية علامة من علامات النشاط . من بعض هذه الأبواب وجدت ماريا نفسها تطرد مع سيل من اللعنات ، لكن ماريا لم تكن تخشى رجلاً أو شيطاناً ، بل كانت تسأل كل من تراه - زائراً كان ام غريباً ، أم طالب عمل مثلها بل سألت مرة أو مرتين شخصيات رفيعة في مكاتب عمل ، راحوا يحدقون اليها كما

لو أنها معتوهة . لكنها في النهاية جنت ثمار بحشها . ففي إحدى المنشآت الصغيرة ، وقعت على غرفة كان يجلس فيها إلى طاولات طويلة عشرات النساء والفتيات ممن يحضرن لحم البقر المدخن في علب ، وبعد أن طافت من غرفة إلى غرفة ، وصلت ماريا أخيراً إلى المكان الذي تطلّى فيه العلب المختومة وتوضع عليها البطاقات . هنا كان لها من حسن الحظ ما جعلها تقابل « المشرقة » . لم تفهم ماريا حينذاك ، كما قدر لها فيما بعد أن تفهم ، ما الذي جذب « المشرقة » إليها ، هي الفتاة ذات الوجه المفعم بطيبة لا حدود لها ، والعضلات التي تشبه عضلات حصان جر ، لكن المشرقة طلبت إليها أن تأتي في اليوم التالي قائلة أنها قد تعطيها فرصة لتعلم مهنة طلي العلب . وبما أن طلي العلب ، حين يتقنه المرء ، يصبح عملاً بالقطعة ، قد يصل اجر العامل فيه إلى الدولارين في اليوم فقد اسرعت ماريا إلى المنزل لتفاجيء العائلة بصرخة كصرخة الهنود الحمر ، ثم راحت تنط في الغرفة وتثب إلى درجة انخافت فيها الطفل وجعلته يصاب بما يشبه التشنج .

كان من الصعب ان يأملوا بحظ افضل من هذا ، اذ لم يكن قد ظل سوى شخص واحد يبحث عن عمل . فقد عزم جرجس على ابقاء تيتا الزبييتا لادارة شؤون المنزل تساعدنا اونا التي لم يكن يرغب في تشغيلها — فهو ليس من ذلك الصنف من الرجال كما قال ، وهي ليست من ذلك الصنف من النساء — ولسوف يكون امراً غريباً ان يعجز رجل مثله عن اعالة الأسرة ، تساعد ماريا وجوناس . لم يكن

جرجس قد سمع بأن الناس يبحثون بأطفالهم إلى العمل — ففي أمريكا مدارس للأطفال لا يذهبون إليها عبثاً ، كما سمع . وإذا كان الكاهن يعترض على هذه المدارس فهذا امر لم يسمع به ، الا أنه كان قد عزم في الوقت الحاضر على اثاحة الفرصة لاطفال تيتا الزبيتا لأن يذهبوا إلى المدرسة ، شأنهم شأن كل الأطفال الآخرين . كان اكبرهم ، ستانيسلوفاس الصغير ، لا يتعدى الثالثة عشرة ضئيل الحجم بالنسبة لسنه هذه . ورغم أن ابن تزيد فيلاس لم يكن يتعدى الثانية عشرة ورغم انه كان يعمل في منشأة جونس منذ أكثر من عام ، فقد رأى جرجس أن على ستانيسلوفاس أن يتعلم الانكليزية وأن يكبر كي يكون رجلاً ذا مهارة ما .

وهكذا ، لم يكن هناك الا ديد الثناس الذي كان جرجس يريد ان يرتاح أيضاً ، لكنه اضطر للاعتراف بأن هذا غير ممكن ، فضلاً عن أن العجز لم يكن ليسمح له بالتكلم عن ذلك — فكل ما يشغل باله هو التأكيد بأنه مفعم حيوية ونشاطاً شأنه شأن اي فتى . لقد جاء إلى أمريكا بآمال لا تقل عن آمال اي منهم ، والآن هاهو ذا يغدو المشكلة الرئيسية التي تقض مضجع ابنه . فكل من تكلم معه جرجس بشأن ابيه أكد له ان من العبث البحث عن عمل لرجل هرم في باكتنجتون . لقد أخبره تزيد فيلاس أن ارباب العمل هنا لا يحتفظون حتى بمن يكبرون في السن من عمالهم — فكيف تراهم يأخذون مسنين جدداً ؟ وهذه ليست قاعدة هنا وحسب ، بل انها قاعدة معمول بها في كل مكان من

امريكا حسب معرفته . لكن لكي يرضي جرجس ، سأل الشرطي الذي اجاب بأن من الخير لهم الا يفكروا بالامر بتاتا . غير انهم لم ينتقوا هذا الخبر لانتوتي العجوز الذي قضى بعد ذلك يومين كاملين وهو يطوف من مسلخ إلى آخر ، كي يعود إلى المنزل ويسمع اخبار انتصارات الآخرين ، ثم يبتسم بشجاعة ويقول أن دوره سيحل في يوم آخر .

كانوا يشعرون بأن حظهم الطيب اعطاهم الحق في التفكير بمنزل . فراحوا ، وهم يجلسون على عتبة البيت في ذلك المساء الصيفي ، يتشاورون بالأمر ، بعد أن انتهز جرجس المناسبة لطرح موضوع خطير . ذلك أنه ، وهو يعبر الشارع إلى مكان عماله في ذلك الصباح ، كان قد رأى غلامين يلصقان اعلانات وهما ينتقلان من منزل إلى منزل . وحين رأى أن في الاعلان صوراً طلب جرجس واحداً لنفسه ثم درجه ودسه داخل قميصه . وعند الظهيرة قرأه له زميل من زملائه اتيحت له فرصة التحدث معه ، وأخبره شيئاً عما به ، فكانت النتيجة أن راودته فكرة جهنمية .

اخرج جرجس الاعلان الذي كان عملاً من اعمال الفن تماماً ، طوله قدما تقريبا ، مطبوع على ورق كأوراق التقاويم . مجموعة من الالوان زاهية إلى درجة تتألق في ضوء القمر ، وفي وسط الاعلان كان ثمة منزل مطلي طلاء لماعاً جديداً يبهز النظر . سقفه مطلي باللون الارجواني وموشى باللون الذهبي . أما المنزل نفسه فمطلي باللون الفضي ، والابواب

والتوافد باللون الأحمر . كان المنزل عبارة عن بناء من طابقين . نه مدخل امامي مسقوف وزخرفة لولبية غريبة جداً على الاطراف ، وكان كاملاً في كل تفاصيله الدقيقة ، حتى قبضة بابه ، كما كانت هنالك ارجوحة في المدخل المسقوف وستائر مخرمة بيضاء على التوافد . في الداخل وفي زاوية من الزوايا ، كانت هناك صورة زوج وزوجة في عناق حميم ، وفي الزاوية المقابلة كان هناك مهد طفل صغير تستره ستائر رقيقة خفيفة كالزغب ، وقد رسم عليها ملاك باسم يطير بجناحين ملونين بلون الفضة . وخشية ان يضيع معنى هذا كله ، فقد كانت هناك بطاقة كتب عليها بالبولونية والليتوانية والالمانية « دوم - نامي . هايم » « لماذا تدفع ايجاراً ؟ » كانت النشرة اللغوية تتساءل « لماذا لا يكون البيت ملكك ؟ هل تعلم أن بإمكانك ان تشتري منزلاً بأقل مما تدفع من ايجار ؟ لقد شيدنا آلاف المنازل التي تسكنها الآن آلاف العائلات السعيدة » - وهكذا تابعت النشرة بكل فصاحة وصفها لقيمة الحياة الزوجية في منزل لا تدفع ايجاره . بل لقد اقتبست عبارة « الوطن » ، « الوطن العذب » وتجرات على ترجمتها إلى البولونية - رغم انها لسبب من الاسباب حذفتها من النص الليتواني . فربما وجد المترجم ان من الصعوبة بمكان كبير أن يكون عاطفياً في لغة يعرف فيها النشيج باسم « غوكجيجموس » والابتسام باسم « فوزيتريزوجيموس » .

حدقت العائلة طويلاً إلى الوثيقة بينما كانت اونا توضح محتوياتها . كان واضحاً أن هذا المنزل يحتوي على أربع غرف وقبو وأن بالامكان

شراءه مقابل الف وخمسمائة دولار مع قطعة الأرض وكل شيء ،
من هذا المبلغ ، كان ينبغي دفع ثلاثمائة دولار فقط أما البقية فتدفع
بمعدل اثني عشر دولاراً شهرياً . بالواقع ، كانت هذه المبالغ مخيفة ،
لكنهم كانوا الآن في أمريكا حيث يتكلم الناس عن مبالغ كهذه بلا
وجل أو خوف . وكانوا قد علموا ان عليهم أن يدفعوا تسعة دولارات
اجرة شهرية للشقة ، أو انهم لن يدفعوا اقل من ذلك الا اذا كانت
العائلة المؤلفة من اثني عشر شخصاً تستعيش في غرفة أو غرفتين كما هو شأنها
في الوقت الحاضر . وبالطبع ، حين يدفعون ايجاراً سيظلون يدفعونه
إلى الأبد ولن يخرجوا بشروى نقيض ، في حين انهم اذا استطاعوا مواجهة
المصاريف الإضافية في البداية ، سيأتي وقت لا يدفعون فيه اي ايجار
بقية العمر ، وراحوا يوازنون المسألة . لم يكن قد بقي الا مبلغ ضئيل
من المال لدى تيتا الزبييتا ، وأقل منه لدى جرجس . وكان لدى ماريما
حوالي خمسين دولاراً مخبأة في مكان ما من جواربها ، أما الجدة انتوني
فقد بقي لديه بعض المال من ثمن مزرعته . لكن اذا اجتمعوا كلهم ،
سيكون لديهم ما يكفي لتسديد القسط الأول ، واذا ما وجد كل منهم
عملاً ، فانهم سيكونون مطمئنين للمستقبل ، وستثبت هذه الخطة
انها أفضل خطة حقاً . بالطبع لم تكن المسألة من النوع الذي يكتفي
بالقليل من الكلام بل كان عليهم أن يحصوها كل التمحيص وأن يغوصوا
فيها حتى الأعماق . لكن إن كانوا سيقدمون على هذه المغامرة فليسرعوا ،
اذ بقدر ما يكون تحركهم اسرع بقدر ما يكون افضل ، ترى أليس عليهم

طيلة هذا الوقت ان يدفعوا ايجاراً رغم انهم يسكنون اسوأ سكنى ؟
كان جرجس قد اعتاد على الوسخ - فما من شيء يخيف رجلاً عمل
في ورشة سكك حديدية ، حيث يستطيع المرء أن يجمع البراغيث عن
ارضية غرفة النوم بحفته ، لكن الأمر لا ينطبق على اونا . اذ لابد أن
يكون لهما منزل أفضل وبأقصى سرعة . قال جرجس ذلك بكل الثقة
التي يملكها رجل كسب لتوه مائة وسبعة وخمسين سنتاً في يوم واحد .
لقد كان جرجس عاجزاً عن ان يفهم ، والأجور على هذا النحو ،
السبب في أن كثيراً من الناس في هذه المنطقة يعيشون على النحو الذي
يعيشون .

في اليوم التالي ، ذهبت ماريا لرؤية « شرفتها » فطلبت اليها هذه أن
تداوم في اليوم الاول من الاسبوع وان تتعلم مهنة طلي العلب . عادت
ماريا إلى المنزل وهي تغني طوال الطريق لتصله في اللحظة التي كانت
اونا رزوج ابيا تهمان بالخروج للسؤال عن المنزل . في ذلك المساء
قدمت النسوة الثلاث تقريرهن الى الرجال : المنزل كماظهر في النشرة
تماماً ، أو هكذا قال الوكيل على اي حال . ومجموعة المنازل تقع
نحو الجنوب على بعد ميل ونصف من الزرائب ، وهي صفقة رائعة
كما أكد السمسار لهم - على نحو شخصي ومن أجل مصلحتهم فقط .
كذلك شرح لهم ان باستطاعته ابرام الصفقة من اجلهم ، فليس له اية
مصلحة شخصية . انه مجرد وكيل للشركة التي شيدت المنازل وهي

آخر منازل تشيدها ، لذا على من يود الاستفادة من هذه الخطوة الرائعة ، خطة الملاييجار ، أن ينتهز الفرصة حالاً . بل الحقيقة أن هناك بعض الشك في أن يكون قد ظل منزل واحد لدى الشركة ، ذلك لأن الوكيل اخذ الكثير من الناس لرؤية هذه المنازل التي ربما تكون الشركة قد باعت آخرها . لكنه اضاف بشيء من التردد ، حين رأى تيتا الزبييتا تحزن حزناً واضحاً لهذا الخبر ، أنه مستعد اذا كان في نيتهم الشراء فعلاً . لان يبعث رسالة هاتفية على حسابه ، ويحجز احد هذه المنازل لصالحهم . بذلك تم ابرام الصفقة اخيراً — وكان عليهم ان يذهبوا لرؤية المنزل صباح الأحد التالي .

كان اليوم هو الخميس ، وطوال ايام الاسبوع الباقية ، كانت ورشة الذبيح في مؤسسة براون تعمل تحت ضغط شديد حتى كان بمسئطاع جرجس ان يحصل على دولار وخمسة وسبعين سنتاً كل يوم ، اي بمعدل عشرة دولارات ونصف اسبوعياً أو خمسة واربعين دولاراً شهرياً ، ولم يكن جرجس قادراً على الايغال في الحساب رغم انه مبلغ بسيط جداً اما « أونا » فكانت أسرع من البرق في مثل هذه الأمور ، لذا سرعان ما حلت المسألة على النحو التالي : على كل من ماريا وجوناس ان يدفع ستة عشر دولاراً كل شهر مقابل نفقات الطعام . وقد أصر العجوز على الشيء ذاته حالما يجد عملاً — وهو أمر قد يحصل في اي يوم منذ اللحظة . بذلك يغدو المبلغ ثلاثة وتسعين دولاراً . كذلك على ماريا وجوناس ان يفتسما بينهما الحصة الثالثة من البيت ، وبذلك يبقى

مبلغ ثمانية دولارات شهرياً يتعين على جرجس ان يدفعها كجزء من القسط . وهكذا يظل لديهم مبلغ خمسة وثمانين دولاراً كل شهراً ولنفرض ان ديد انتاناس لم يجد عملاً في الوقت الراهن ، فسيكون مجموع ما يكسبونه شهرياً هو سبعون دولاراً — وينبغي بالتأكيد أن يكون كافياً لاعالة عائلة من اثني عشر فرداً .

قبل ساعة من الوقت المحدد صباح يوم الاحد انطلقت الجماعة بكاملها . كان العنوان لديها وقد سجلته النسوة على قطعة من الورق راحوا يعرضونها على عابري السبيل من حين إلى حين . كانت الرحلة بطول ميل ونصف لكنهم ساروها ، وبعد حوالي نصف ساعة من الانتظار ظهر الوكيل وهو شخصية ناعمة منمقة شديدة الاناقة ، يتكلم اللغة بكل طلاقة الأمر الذي اكسبه فائدة كبيرة في التعامل معهم . لقد رافقهم إلى المنزل الذي كان واحداً من صف طويل من مساكن خشبية عمودجية في الجوار كله . حيث فن العمارة ترف يستغنى عنه . هبط قلب اونا ، فالمنزل لم يكن كما بدا في الصورة ، ألوانه مختلفة من جهة ومن جهة أخرى لم يكن بالحجم الذي بدا عليه في الصورة . مع ذلك كان طلاؤه ما يزال جديداً ، وكان يسر العين إلى حد ما . انه جديد تماماً ، قال لهم الوكيل الذي كان يتحدث بلا انقطاع إلى حد أربكهم كل الإرباك ولم يتح لهم الوقت لطرح المزيد من الاسئلة . كان هناك الكثير من الأمور التي عزموا على الاستفسار عنها لكن ما ان

حان الوقت حتى وجدوا انفسهم وقد نسوها أو انهم لا يتجرؤون على طرحها . المنازل الاخرى في الصف لم تبد جديدة ، كما كان بعضها مسكوناً على ما يبدو ، وحين غامروا وألحوا إلى هذا الامر ، أجاب الوكيل بأن الشارين ينتقلون إلى المنازل بسرعة . فكفوا عن السؤال . ذلك لان الحاحهم على هذه النقطة سيجعلهم يبدون و كأنهم يشكون فيما يقول ، هم الذين لم يسبق لواحدهم في حياته كلها أن تكلم مع شخص من مرتبة « المحتلمان » الا باذعان وخنوع .

كان المنزل يتكون من قبو يقع تحت مستوى الشارع بقدمين ، وطابق واحد فوقه بحوالي ستة اقدام ، يمكنك الوصول اليه عبر مجموعة درجات . اضافة لذلك ، كان هناك عليّة ، صنعتها قمة السقف ولها نافذة صغيرة في كل طرفيها . أما الشارع الواقع أمام المنزل فقد كان غير معبد وغير منار والمنظر الذي يمكنك رؤيته يتألف من بضعة منازل متشابهة تماماً ، مبعثرة هنا وهناك على قطع من الارض نمت فيها أعشاب كالحق حقيمة . في الداخل ، كان المنزل يحوي اربع غرف مكسوة بالحص الأبيض ، أما القبو فلم يكن الا هيكلًا ، جدرانه غير مكسوة بالحص وأرضه غير مبلطة . شرح الوكيل ان المنازل تبنى بهذه الطريقة نظراً لان الشارين بصورة عامة يفضلون اكمال كسوة المنزل بما يناسب اذواقهم . كذلك كانت العلية غير مكتملة — و كان افراد العائلة قد تصوروا انهم في حال الطوارئ يستطيعون تأجير

هذه العلية لكنهم وجدوها وليس فيها ارضية ، بل لاشيء سوى عوارض تدعيم ، تحتها الشرائح الخشبية وجص السقف السفلي لكن كل هذا لم يخفف من حماستهم بالقدر الذي نتوقع ، وذلك للذراية لسان الوكيل وشدة دورانه ولفه . فالمنزل بالنسبة له ، لانهاية لحسناته ، تلك التي راح يعددها وهو يدور بهم دون أن يصمت لحظة واحدة ، عارضاً عليهم كل شيء ، حتى اقفال الأبواب ومقابض النوافذ وكيفية عملها . لقد أراهم المجلى في المطبخ مع الماء الجاري والخفية ، الأمر الذي لم تكن اشد الاحلام تطرفاً لدى تيتا الزبييتا تحلم بامتلاكه . وبعد اكتشاف كهذا بات نوعاً من الجحود ان يجلسوا في المنزل اية نقيصة ، لذا حاولوا ان يغمضوا عيونهم عن العيوب الاخرى .

لكنهم مع ذلك كانوا مايزالون اناساً فلاحين يتمسكون بنقودهم غريباً ، وكان من العيب كل العيب أن يلح لهم الوكيل عن مسألة السرعة - « سيرون ، سيرون » هكذا قالوا له ، فليس بوسعهم ان يقرروا قبل برهة من الزمن ، وهكذا عادوا إلى المنزل ليمضوا النهار بطوله والمساء ايضاً وهم يتجادلون ويتناقشون . كان امراً شديداً العذاب بالنسبة لهم أن يضطروا للبت بمسألة كهذه دون تحقيق اجماع في الرأي . فهناك حجج كثيرة من كل جانب وقد يكون الواحد منهم عنيداً لكن ما ان يقنعه البقية حتى يتضح ان حججه جعلت واحداً آخر يردد . في احدى لحظات المساء ، توصلوا جميعاً إلى نوع من الاتفاق وبدأ المنزل

وكأنه ابتيع وانتهى الأمر ، ثم دخل تزيّد فيلاس فقلب كل شيء رأساً على عقب . لم يكن تزيّد فيلاس يميل لامتلاك المنازل . وقد حكى لهم قصصاً فظيعة عن اناس اتلفتهم حتى الموت لعبة « شراء البيوت » هذه . فهو واثق تقريباً من انهم سيدخلون مكاناً محكماً يخسرون كل ما لهم فيه . اذ ليس هنالك نهاية للمصارييف التي يعجز المرء عن التكهن بها ، وقد لا يكون المنزل صالحاً من اعلاه الى اسفله - وأنى لرجل فقير أن يعرف ؟ ثم ، بامكانهم أيضاً أن يحتالوا عليك لدى كتابة العقد - وكيف سيتسنى لرجل مسكين ان يفهم شيئاً من العقد ؟ فتجارة المنازل هنا ليست اكثر من اسلوب للسرقة ، وليس هناك من سلامة للمرء الا بالابتعاد عن هذه الامور . وتدفع ايجاراً ؟ سأل جرجس ، آه ، نعم بالتأكيد أجباب الآخر ؛ وتلك سرقة أيضاً بل الأمر كله سرقة بالنسبة للفقير . وبعد نصف ساعة من محادثة مشبّطة للعزيمة كهذه ، قرروا أن تزيّد فيلاس أنقلدهم وهم على شفا الهاوية . لكن بعدئذ رحل تزيّد فيلاس ، فدكرهم جوناس وهو رجل ضئيل الجسم حاد المزاج ان مهنة بيع المعلبات فاشلة ، طبقاً لما يقول صاحبها نفسه ، وأن هذا الفشل هو الذي يفسر نظرة تزيّد فيلاس التشاؤمية ، الأمر الذي فتح الموضوع من جديد !

كان الجانب الأساسي في المسألة هو أنهم لا يستطيعون البقاء حيث هم - بل عليهم أن يرحلوا إلى مكان ما . وإذا تخلوا عن خطة الشراء

وقرروا الاستئجار ، فان فكرة دفع ايجار قدره تسعة دولارات شهرياً إلى الأبد ، بدت لهم بالغة الصعوبة . وهكذا ظلّوا طوال النهار والليل ولمدة أسبوع يناقشون المشكلة ، وفي النهاية تحمل جرجس المسؤولية . كان الأخ جوناس قد استلم عمله وهو دفع عربة في منشأة دورهام . كما كانت ورشة الدبج في منشأة براون ما تزال تعمل من الصباح الباكر حتى المساء ، مما زاد ثقة جرجس بنفسه ساعة بعد ساعة حتى غدا أكثر اطمئناناً لموقعه كسيد . فقال لنفسه ، هذا هو الشيء الذي ينبغي على رجل العائلة أن يبت به ويتحمل مسؤولية تنفيذه . ربما يفشل الآخرون في مثل هذا الأمر ، أما هو ، جرجس فانه رجل ناجح - ولسوف يريهم كيف يفعل ذلك . إنه سيعمل طوال النهار بل وطوال الليل أيضاً إذا احتاج الأمر ، ولن يرتاح حتى يسدد ثمن المنزل وحتى يغدو ملكاً خالصاً لهم . هكذا أخبرهم وهكذا اتخذ القرار أخيراً .

كان الحديث قد دار خلال المناقشات الطويلة هذه عن ضرورة رؤية منازل أخرى قبل القيام بالشراء ، لكنهم لم يكونوا يعرفون أين تقع مثل هذه المنازل ولا طريقة إيجادها . كان المنزل الذي رأوه قد سيطر على أفكارهم ، فما أن يفكروا بمنزل حتى يكون المنزل الذي رأوه هو ما يفكرون به وهكذا ذهبوا إلى الوكيل وأخبروه بأنهم على أهبة الاستعداد لاتمام الصفقة . كانوا يعلمون ، كفكرة مجردة ، أنه ينبغي اعتبار كل الناس كذابين في مسائل العمل ، لكنهم لم يستطيعوا إلا التأثير بما سمعوه من الوكيل الفصيح حتى باتوا في النهاية على اقتناع

نام بأن أي تأخير في شراء المنزل سيعرضهم لخطر فقدانه . وتنفسو الصعداء حين قال لهم الوكيل أن الوقت لم يفت بعد .

كان عليهم أن يأتوا في الغد ، وسيكون قد أعد لهم كل الأوراق ، والأوراق هذه مسألة يدرك جرجس أن عليهم مقاربتها بحذر تام ، لكنه لم يكن يستطيع الذهاب بنفسه — فالجميع يقولون أن من المستحيل الحصول على اجازة بل سيفقد عمله إن طلب اجازة . وهكذا لم يكن لديهم خيار سوى أن يعهدوا بالعملية كلها للنساء والصدیق تزيّد فيلاس الذي وعد أن يذهب معهن . أمضى جرجس الأمسية كلها وهو يحاول إفهامهم مقدار أهمية هذه المناسبة — وفي النهاية ، خرجت من المخابىء الكثيرة التي اعتملوها في ملابسهم وأمتعتهم ، لفائف الأوراق المالية الغالية لتجمع كلها معاً في محفظة صغيرة وتخط بسرعة في بطانة ثوب تيتا الزبييتا .

في الصباح الباكر انطلقوا . كان جرجس قد زودهم بالكثير من التعليمات وحذرهم من كثير من المخاطر حتى شحبت وجوه النساء من الخوف ، بل حتى بائع المعلبات الواصل من نفسه ، الفخور بأنه رجل أعمال شعر بالقلق والانزعاج . عند الوكيل وجدوا الوثيقة جاهزة ، فدعاهم للجلوس وقراءتها على مهل ، وهذا ما تقدم تزيّد فيلاس لفعله وهو عمل شاق ومؤلم ، كان الوكيل خلاله ينقر بأصابعه على الطاولة . وكانت الزبييتا شديدة الضيق إلى حد بدأ العرق معه يتصبب قطرات

على جبينها . ترى أليست هذه القراءة نوعاً من القول لهذا السيد ، وفي وجهه مباشرة ، أنهم يشكون بشرفه ؟ رغم ذلك استمر تزيد فيلاس يقرأ ويقرأ . وعلى الفور ظهر له أن هناك سبباً جيداً لفعل ذلك ، فقد بدأ شك فظيع يبرز في ذهنه ، الأمر الذي جعل حاجبيه ينقعدان أكثر وأكثر وهو يقرأ . لم تكن هذه الورقة وثيقة بيع على الإطلاق ، حسبما رأى - بل كل بنودها تتعلق باستئجار المنزل ! وكان من الصعب أن يلفظ ، مع كل هذا الكلام القانوني الغريب ، كلمات لم يسبق أن سمعها قط ، لكن كان كل شيء واضحاً - « يتعهد الفريق الأول أن يستأجر من الفريق الثاني المذكور » ، ومن ثم « ايجار شهري قدره اثنا عشر دولاراً لمدة ثماني سنوات وأربعة أشهر ! » عند ذلك خلع تزيد فيلاس نظارتيه ونظر إلى الوكيل يسأله متلعثماً .

لكن الوكيل أجاب بمزيد من التهذيب ، شارحاً لهم أن تلك هي الصيغة المعتادة وأن الترتيب يجري دائماً على هذا المنوال ، أي أن المنزل يستأجر استئجاراً فقط ، واستمر في محاولاته لكي يربهم شيئاً ما في الفقرة التالية ، غير أن تزيد فيلاس لم يستطع تجاوز كلمة « ايجار » - وحين ترجمها لتيتا الزبييتا ، تملكها الخوف أيضاً . إذن لن يكون المنزل ملكاً لهم قبل تسع سنوات تقريباً ! فبدأ الوكيل ، بصبر لا حدود له ، يشرح الأمر ثانية ، انما دون جدوى . فقد ثبت في ذهن الزبييتا وبصورة راسخة لا تتزعزع آخر تحذير رصين لخرجس : « ان كان ثمة أي خطأ فلا تدفعوا له مالاً ، بل اخرجوا واثثوا بمحام » . كانت لحظة شديدة

العذاب ، لكنها جلست في كرسيها ويداهما مطبقتان بإحكام ، ثم قامت بمحاولة رهيبة ، وهي ترج بكل ما لديها من طاقة وشجاعة لتفصح أخيراً عما تريده .

ترجم يعقوب كلماتها . فتوقعت أن يطير عقل الوكيل ، إلا أنه ، لدهشتها ، لم يحرك ساكناً أبداً ، بل عرض أن يذهب بنفسه ويحضر محامياً لها ، لكنها رفضت هذا الاقتراح . ساروا مسافة طويلة ، بهدف إيجاد رجل ليس شريكاً في المؤامرة. ولتتصور ما حل بهم من ذعر حين عادوا ، بعد نصف ساعة ، بمحامٍ حيا الوكيل باسمه الأول .

شعروا بأن كل شيء قد ضاع ، فجلسوا أشبه بمساجين دعته المحكمة لسماع الحكم عليهم بالاعدام . لم يكن قد ظل في أيديهم ما يفعلونه — لقد وقعوا في المصيدة ! قرأ المحامي الوثيقة عليهم ، وحين أكمل قراءتها أعلم تزيد فيلاس بأنها نظامية تماماً وأنها الوثيقة التي غالباً ما تستخدم في حالات البيع هذه . وهل تم الاتفاق على الثمن ؟ سأل العجوز — ثلاثمائة دولار مقدماً وقسط شهري مقداره اثنا عشر دولاراً حتى يصبح المبلغ الاجمالي المدفوع ألفاً وخمسمائة دولار ؟

أجل هذا صحيح . وهو مقابل بيع منزل كذا وكذا — المنزل وقطعة الأرض وكل شيء ؟ أجل — ثم أوضح له المحامي أين كان هذا كله مكتوباً . اذن كل شيء نظامي تماماً ليس هناك خدعة من أي نوع ؟ انهم ناس فقراء . وهذا المبلغ هو كل ما يملكون في الدنيا . وإذا

كان ثمة أي خطأ فانهم سيتحطمون إلى أبد الأبدين . هكذا تابع تريديفيلاس الكلام طارحاً سؤالاً مرتعشاً بعد آخر ، في حين كانت أعين النساء مثبتة عليه ملؤها عذاب أبكم . لم تكن واحدة منهن تفهم ما يقول لكنهن كن يعلمن أن مصيرهن متوقف على هذا الذي يقول . وحين فرغت جعبته من الأسئلة وحان الوقت لأن يحزموا أمرهم أخيراً . أي إما أن يبرموا الصفقة أو بلغوها ، لم تستطع تيتا الزبييتا أن تمنع نفسها من الانخراط في البكاء . كان يعقوب قد سألها ان كانت نود التوقيع . مرتين سألها — ترى ما الذي تستطيع قوله ؟ أنى لها أن تعلم ان كان هذا المحامي يقول الحقيقة — وانه ليس متآمراً مع الوكيل ؟ لكن كيف يمكنها أن تقول ذلك — ما المبرر الذي تملكه بين يديها ؟ كانت عيون كل من في الغرفة مثبتة عليها ، تنتظر قرارها ، وأخيراً وقد غشت عينيها الدموع ، بدأت تتلمس سترتها باحثة عن الموقع الذي خبأت فيه نقودها الغالية ، ثم أخرجتها وفضتها أمام الرجلين . كل هذا راقبته أونا وهي جالسة في أحد أركان الغرفة ، تفتل يديها الواحدة بالأخرى ، طيلة الوقت . في حمى مسعورة من الخوف . كانت أونا تتوق لأن تصرخ طالبة من امرأة أبيها إيقاف كل شيء ، لأن تقول لها أن ذلك كله شرك غادر . لكن بدا لها وكأن شيئاً ما يطبق على حنجرتها ، يمنعها من اصدار ايما صوت — وهكذا وضعت تيتا الزبييتا النقود على الطاولة فالتقطها الوكيل ثم علها ، وكتب لهم ايضالاً بالمبلغ وأخيراً سلمهم الوثيقة . بعد ذاك تنفس الصعداء ثم نهض وصافحهم فرداً فرداً ، ناعماً مهذباً مثلما كان

في البداية . وقد ظلت في ذهن أونا ذكرى باهتة عن المحامي وهو يقول
لتزید فيلاس أن أجره دولار ، الأمر الذي اثار بعض الجدل والمناقشة
والكثير من الضنى والعلاب. ثم خرجوا ، بعد أن دفعوا اللولار ،
إلى الشارع ، وقد أطبقت يد تيتا الزبييتا بأحكام شديدة على الوثيقة .
لقد جعلهم الخوف في أشد حالات الضعف حتى أنهم لم يقووا على المسير
فاضطروا للجلوس على قارعة الطريق . .

وهكذا ذهبوا إلى المنزل ، وخوف قاتل ينهش نفوسهم . في ذلك
المساء جاء جرجس وسمع قصتهم ، وكانت تلك الطامة الكبرى . كان
جرجس واثقاً من أنهم وقعوا ضحية احتيال وأنهم تحطموا إلى
الأبد ، فراح يشد شعره ، شامخاً لاعناً كالمجنون ، مقسماً أغلظ الايمان
أنه سيقتل الوكيل قبل أن يطلع الفجر . وأخيراً أمسك بالورقة واندفع
خارجاً ، شاقاً طريقه عبر الفناءات حتى شارع هالستيد . هناك سحب
تزيد فيلاس من طاولة عشائه ثم اندفعا معاً ليستشيرا محامياً آخر . هب
المحامي على قدميه حين دخلا مكتبه ، فقد كان جرجس ، بشعره
المتطاير ومقلتيه المحمرتين كالدم ، يبدو أشبه بالمجنون . شرح صاحبه
الموقف ، فأخذ المحامي الورقة وشرع في قراءتها بينما وقف جرجس
بمسكاً طاولة المحامي بيدين شديديتي الاطباق ، يرتعش كل عصب فيهما .
مرة أو مرتين ، رفع المحامي ناظريه لي طرح سؤالاً ماعلى تزيد فيلاس .
أما جرجس فلم يكن يعلم كلمة واحدة مما يقول ، إلا أن عينيه كانتا

مُثَبَّتِينَ عَلَى وَجْهِ الْمُحَامِي بِإِذْلًا كُلِّ مَا فِي وَسْعِهِ كَيْ يَقْرَأَ مَا يَمُورُ فِي
ذَهْنِهِ : رَأَى الْمُحَامِي يَنْظُرُ إِلَى الْأَعْلَى وَيَضْحَكُ : فَشَهِقَ . ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ
شَيْئًا لِتَزِيدَ فَيَلَّاسَ ، فَالْتَفَتَ جَرَجَسٌ إِلَى صَدِيقِهِ ، وَقَلْبُهُ يَكَادُ يَتَوَقَّفُ
عَنِ الْخَفَقَانِ .

« حَسَنًا » ؟ قَالَ لَاهُثًا .

فَأَجَابَ تَزِيدَ فَيَلَّاسَ :

« يَقُولُ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرَامُ »

« عَلَى مَا يَرَامُ ؟ » .

« أَجَلُ . يَقُولُ إِنَّهَا صَحِيحَةٌ تَمَامًا » فغاص جرجس بكثير من
الارتياح ، فِي كُرْسِيهِ .

« هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ » سَأَلَ مُتَقَطِعُ الْأَنْفَاسِ ، ثُمَّ جَعَلَ
تَزِيدَ فَيَلَّاسَ يَتَرَجِّمُ لَهُ السُّؤَالَ تَلَوَّ الْآخِرَ . لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَسْمَعَ
الترجمة حتى آخرها كما لم يكن في أسئلته كثير من التغير . أَجَلُ ،
لَقَدْ اشْتَرَوْا الْمَنْزِلَ ، اشْتَرَوْهُ فَعَلًا . وَأَنَّهُ بَاتَ مُلْكُهُمْ ، عَلَيْهِمْ فَقَطْ أَنْ
يُدْفَعُوا الْمَالُ وَسَوْفَ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرَامُ . عِنْدَئِذٍ أَخْفَى جَرَجَسُ
وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ ، فَقَدْ كَانَتْ عَيْنَاهُ مَغْرُورَتَيْنِ بِالْذَمِّوعِ ، وَتَمَلَّكَ شَعُورُ
طَاغٍ بِأَنَّهُ أَحْمَقُ وَكَانَ خَوْفُ فَظِيعِ قَلْبِهِ تَمَلَّكَهُ مِنْ قَبْلِ حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ ،
هُوَ الرَّجُلُ الْقَوِيُّ . أَوْهَى مِنْ أَنْ يَسْتَطِيعَ النَّهْوضُ .

شرح لهما المنحامي أن الايجار أمر شكلي - إذ يقال ان المنزل مستأجر فقط إلى أن يدفع المستأجر آخر قسط ، والغاية هي أن يكون بالامكان اخراجه منه ان تأخر عن دفع الأقساط . لذا ، طالما ظلوا يدفعون الأقساط فليس عليهم أن يخشوا شيئاً ، المنزل ملكهم .

كان جرجس فرحاً ممتناً حتى أنه دفع نصف اللولار الذي طلبه المحامي دون أن يطرف له جفن ، ثم اندفع مسرعاً إلى المنزل لينقل للعائلة الخبر السعيد . وجد جرجس أونا في حالة اغماء والأطفال يصرخون والمنزل كله قائم قاعد - فقد كان الكل يعتقدون أنه ذهب كي يقتل الوكيل . وكان لابد من مرور ساعات قبل أن تهدأ النفوس وطوال تلك الليلة المنظمة ظل جرجس ينهض من حين إلى آخر ليسمع أونا وامرأة أبيها وهما تنشجان بصوت مكتوم في الغرفة المجاورة .



لقد تم الشراء انما كان من الصعب عليهم التصديق أن بإمكانهم الانتقال إلى المنزل الرائع الذي بات ملكهم ، حينما يشاؤون . كانوا يمضون طيلة الوقت وهم يفكرون به ، وبما سيضعون فيه . وبما أن اسبوعهم لدى انييل كان سينتهي خلال ثلاثة أيام فقد بدؤوا بالاستعداد على الفور ، كان عليهم أن يقوموا ببعض التحركات لتأثيثه ، وقد وهبوا كل لحظة من فراغهم لمناقشة هذا الأمر .

ان شخصاً أمامه مثل هذه المهمة لا يحتاج لأن يبحث كثيراً في
باكنجتاون — بل ليس عليه إلا أن يعيش الشارع صعباً ويقرأ لوحات
المحلات أو يدخل في حافلة ترام كي يحصل على معلومات كاملة عن
كل شيء يحتاجه الكائن البشري . إنه لشيء مؤثر تماماً ، حماسة الناس
وهم يرون أن ثمة من ينهض بأعباء صحتهم وسعادتهم . هل يود
الشخص أن يدخن ؟ إذن ، هناك شيء من الكلام عن السجائر ، بحيث
يبين له لماذا «سيجار» «توماس جفرسون» هو السيجار الوحيد الجدير
باسم السيجار . من جهة أخرى ، أترأه يدخن كثيراً ؟ ها هنا علاج
للاقلاع عن عادة التدخين . خمسة وعشرون جرعة مقابل ربع دولار
والشفاء مضمون تماماً بعشر جرعات . بطرق عديدة كهذه ، كان
المسافر يجد أن هناك من يهتم بتمهيد الطريق له عبر العالم وإعلامه بما
أنجز الآخرون له . في باكنجتاون كان للاعلانات أسلوب خاص تماماً
متكيف مع الطراز الخاص بسكانها . فالمرء قد يكون موسوساً كثيراً ،
« هل زوجتك شاحبة الوجه ؟ » قد يتساءل الاعلان « هل هي واهنة
القوى ؟ هل تجر نفسها في المنزل جراً وترى كل شيء خطأ ؟ إذن ،
لماذا لاتقول لها أن تجرب حافظات الحياة للدكتور لاناها ؟ » اعلان
آخر قد يطالعك مماًزحاً ، صافعاً اباك على قفاك كي تتكلم « لاتكن
متبلداً » ، هكذا قد يبادئك « امض فاشتر علاج غولييان بونيون » ،
« حسن حركتك » قد يطالعك آخر « وهذا أمر سهل ، إذا مالبت
حذاء أوريكا بدولارين ونصف » .

بين هذه اللوحات التي تدفعك بالحاح كانت هناك واحدة لفتت انتباه العائلة بصورها . إذ كان يظهر فيها طائران بالغ الصغر وهما بينان لنفسيهما عشا ، وقد طلبت ماريا إلى إحدى معارفها أن تقرأها لها فقالت لها هذه أنها تتعلق بأثاث المنزل . « ضع الريش في عشتك » هكذا كان يبدأ الاعلان - ثم يمضي ليقول أن بالامكان تقديم كل ما يلزم من ريش لعش مؤلف من أربع غرف مقابل مبلغ قافه لا يتجاوز خمسة وسبعين دولاراً . الشيء الهام بالنسبة لهذا العرض هو أنك غير مضطر لأن تدفع مقدماً إلا جزءاً صغيراً من هذا المبلغ - أما البقية فبإمكانك أن تدفعها على شكل أقساط شهرية لا يتعدى واحدها بضعة دولارات . كان على أصحابنا أن يبحثوا ببعض الأثاث ، وليس ثمة من مفر ، لكن رصيدهم الضئيل من المال انخفض إلى حد لم يستطيعوا معه إلا بالكاد أن يفوزوا بالنوم ليلاً ، وكانوا يفرون إلى النوم باعتباره خلاصاً لهم . لقد كان هناك المزيد من العذاب بانتظار الزبيبتا وهي توقع ورقة أخرى . بعدئذ وحين جاء جرجس ذات ليلة إلى المنزل ، نقلوا إليه الخبر الذي يقطع الأنفاس : الأثاث وصل المنزل بأمان . طقم صالون من أربع قطع ، غرفة نوم من ثلاث ، طاولة طعام وأربعة كراسي ، طقم « تواليت » رسمت عليه كله ورود زهرية جميلة ، أواني مطبخ كاملة من الفخار رسمت عليها هي الأخرى ورود زهرية - وحلم جرا . أحد صحن الطقم وجد مكسوراً عندما فكت رزمته ، وأونا ستهب إلى المخزن لاستبداله قبل أن تفعل أي شيء في صباح

الغد . كذلك كانوا قد وعدوهم بثلاثة صبحون صغيرة إنما لم يأت إلا اثنان ،
فهل فكر جرجس بأنهم يحاولون خداعهم ؟

في اليوم التالي ذهبت النسوة إلى المنزل وعندما عاد الرجال أكلوا
بضع لقيمات على عجل في منزل آنيل ثم انطلقوا إلى العمل ، والعمل
هو نقل أمتعتهم إلى منزلهم الجديد . كانت المسافة ، بالحقيقة ، أكثر
من ميلين ، غير أن جرجس قام برحلتين في تلك الليلة ، حاملاً في
كل مرة على رأسه كلسة كبيرة من الفرش والشراشف وقد حشيت
داخلها رزم الملابس والحقائب والأشياء الأخرى . لو كان جرجس في
أي مكان آخر سوى باكنجتاون ، اذن لتعرض مرات عديدة للاعتقال ،
لكن الشرطة هنا اعتادت ، كما يبدو ، على هذه التحركات غير الرسمية
وكانت تكفي بالقيام بتفتيش عرضي من حين إلى آخر . كان شيئاً
رائعاً أن ترى كم كان المنزل يبدو حسناً بكل ما فيه من أشياء ، بل حتى
بضوء مصباحه الشاحب . لقد كان منزلاً حقيقياً مثيراً كما جاءت صورته
في الاعلان تقريباً . وكانت أونا ترقص تماماً حين وصل جرجس
فامسكت به من يد وماريا من يد أخرى وراحتا تنتقلان به من غرفة
إلى غرفة ، لتجلسا على كل كرسي بالتناوب وتصرا على أن يفعل الشيء
ذاته . أحد الكراسي صر صريراً حاداً تحت ثقله الكبير ، فصرخت
الفتاتان خوفاً ، مما ايقظ الطفل وجعل كل من في المنزل يجري . لقد
كان يوماً رائعاً بكل ما في الكلمة من معنى ورغم أنهما كانا متعبين ،
فقد سهر جرجس وأونا إلى وقت متأخر راضيين كل الرضى أن يمسك

واحدتهما بالآخر من يده ويهيم بنظرة منتشياً في أرجاء الغرفة . كان في نيتهما أن يتزوجا حالما يستقر كل شيء ويتمكنان من توفير بعض النقود ، وكان هذا هو مترهما وتلك الغرفة الصغيرة هناك ستكون غرفتهما !

كان ترتيب المنزل متعة لا نهاية لها بالحقيقة . إذ لم يكن لديهم مال كي ينفقوه من أجل متعة الانفاق ، انما كانت هنالك بضعة أشياء ضرورية للغاية وشراؤها مغامرة خالدة بالنسبة لأونا . فقد كان ينبغي أن تتم في الليل دائماً . وهذا يعني أن جرجس قد يخرج وإذا ما شرب وعاء من الشراب أو بضع كؤوس من الخمر مقابل عشرة سنتات ، فان ذلك سيكون مصروفاً أكثر مما يتحملونه . ليلة الأحد عادوا إلى المنزل بسلة مملأى بأشياء وأشياء فرقوها على الطاولة ، بينما وقفوا جميعاً حولها ، وتسلق الأطفال الكراسي أو أعولوا مطالبين برفعهم كي يروا . كان على الطاولة سكر ، ملح ، شاي ، بسكويت هش ، علبة من شحم الخنزير ، سطل حليب ، فرشاة لتنظيف المنزل ، حذاء للطفل الثاني ، علبة زيت ، قدوم وكيلو من المسامير التي ينبغي أن تدق في جدران المطبخ وغرف النوم لتعلق عليها أشياءهم ، وفي الحال دارت مناقشة عائلية حول الأمكنة التي ينبغي دق هذه المسامير فيها . بعدئذ حاول جرجس أن يدقها لكنه أصاب أصابعه فالقدوم صغير جداً وكاد يجن لأن أونا رفضت اعطاءه خمسة عشر سنتاً أخرى لكي يشتري قدوماً أكبر . بعدها طلبوا إلى أونا أن تحاول دق المسامير بنفسها فطرقت ابهامها وصاحت

ملء صوتها مما اقتضى أن يأتي جرجس ويقبل ابهامها . أخيراً ، وبعد أن حاول كل منهم بدوره ، دقت المسامير وصار بالامكان تعليق شيء ما . كان جرجس قد عاد إلى المنزل حاملاً رزمة كبيرة على رأسه ، ثم أرسل جوناس لاجتماع أخرى كان قد اشتراها . وكان ينوي أن يفكك جوانب هاتين العلبتين غداً ليعمل منها رفوفاً ويصنع مكاتب وأماكن لحفظ الأشياء في غرف النوم . فالعش الذي كان قد أعلن عنه لم يكن يتضمن ريشاً كافياً لعدد كبير من الطيور يماثل عدد أفراد هذه العائلة .

بالطبع ، كانوا قد وضعوا طاولة طعامهم في المطبخ ، أما غرفة الطعام فقد حولت إلى غرفة نوم لتيما الزبييتا وأطفالها الخمسة ، بحيث تنام هي والطفلان الأصغران في السرير الوحيد ، وينام الثلاثة الآخرون في فراش يمد على الأرض . أما أونا وابنة عمها فقد كانتا تجران فراشاً إلى الصالون وتنمان في الليل ، بينما كان الرجال الثلاثة والابن الأكبر ينامون في الغرفة الأخرى وليس تحتهم إلا الأرض ينامون عليها في الوقت الراهن . رغم ذلك كانوا ينامون نوماً عميقاً - حتى أن الزبييتا كانت تضطر لكي توقظهم في الخامسة والربع من كل صباح لأن تخبط على الباب أكثر من مرة وكانوا يجلدونها قد أعدت ابريقاً كبيراً من القهوة السادة الساخنة مع وجبة من دقيق الشوفان والحبز والنقانق المدخنة . بعد ذلك تملأ لهم سحاول غداًهم بشرائح خبز أكثر سماكة بينها شحم

الختير ، فالزبدة غالية لايسعهم تحمل ثمنها - اضافة إلى بضع بصلات وقطعة جبن ، وبذلك ينطلقون إلى عملهم سيراً على الأقدام .

بدا لخرجس وكأن هذه هي المرة الأولى في حياته التي يعمل فيها حقاً. المرة الأولى التي يعمل فيها شيئاً يستغرق كل ما لديه من طاقات . كان جرجس يقف مع البقية في البهو ويرقب الرجال في « أحواض الذبح » ، يشيرون العجب بسرعتهم وقوتهم وكأنهم آلات عجيبة . لم يكن أحد يفكر أبداً بالجانب الآخر من العمل ، جانب اللحم والدم - أو بالأحرى لايفكر به قبل أن ينزل عملياً إلى موضعه وينزع سترته . حينذاك كان يرى الأشياء بمنظار مختلف ، كان يدخل إلى صميمها . فالايقاع الذي يعملون به يتطلب كل ما يملك الرجل من مقدرة - منذ اللحظة التي يسقط فيها أول ثور مذبوحاً وحتى سماعهم صوت صافرة الظهيرة ، ثم مرة ثانية من الساعة الثانية عشرة والنصف وحتى ساعة من ساعات الأصيل أو المساء لايعلمها إلا الله ، بلا لحظة استراحة للإنسان : ليده أو عينه أو دماغه . بات جرجس يعلم كيف يحافظون على وتيرة العمل هذه فهناك قسم يحدد ايقاع العمل للبقية ، لذا يأتون برجال من نوع خاص للعمل في هذا القسم ويدفعون لهم أجوراً عالية ويبدلونهم باستمرار . كنت تستطيع بسهولة أن تحدد صانعي الايقاع هؤلاء لأنهم يعملون تحت اشراف رؤساء العمال مباشرة ويعملون وكأنما أصابهم المس . كانت هذه العملية تدعى « تسريع الورشة » وحين لايستطيع

عامل من العمال أن يمشي سرعتهم ، كان بإمكان الرؤساء أن يجلبوا
المئات في الخارج ممن يتوسلون إليهم لأن يجربوا أنفسهم .

لكن جرجس لم يبال بذلك بل الأخرى أنه استمتع به . فقد وفر
عليه ضرورة إلقاء ذراعيه جانباً والتأمل كما كان شأنه في معظم
الأعمال الأخرى . كان يضحك من نفسه وهو يسرع هابطاً مع الصف ،
ملقياً نظرة سريعة على الرجل الذي يتواجد أمامه من حين إلى آخر . صحيح
أنه لم يكن أمتع عمل يذكر به الإنسان ، لكن الصحيح أيضاً أنه كان
عملاً ضرورياً ، وأي حق يمكن للإنسان أن يطالب به أكثر من أن تتاح
له الفرصة في أن يعمل شيئاً مفيداً ويكسب مقابل ذلك أجراً حسناً ؟ .

هكذا كان يفكر جرجس وهكذا كان يتكلم بأسلوبه الجريء
الحر ، لكن لشدة دهشته وجد أن هذا الكلام يكاد يؤدي به في داهية .
فمعظم الرجال هنا ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة تماماً . وقد ارتعدت
فرائصه حين اكتشف الأمر لأول وهلة — حين عرف أن معظم الرجال
هنا يكرهون عملهم . فقد يبدو غريباً ، بل حتى فظيلاً حين يتأتى
لك أن تكتشف شعوراً طاعياً بين الناس ، لكن هذه حقيقة مؤكدة — أنهم
يكرهون عملهم . يكرهون رؤسائهم وأصحاب العمل ، يكرهون
المكان بكل ما فيه ، المنطقة بكل ما فيها — بل حتى المدينة بأسرها
كراهية شاملة تامة ، مرة وعنيفة . النساء والأطفال قد يغرقون في توجيه
اللعنات لها . أنها عنفة ، عنفة كالجحيم — كل شيء عنفن . وحين

كان جرجس يسألهم مقصدهم ، كانوا يبدؤون بالارتياح فيه ويكتفون بالقول « لاعليك ، ابق هنا وانظر بنفسك » .

احدى المشكلات الأولى التي واجهت جرجس هي مشكلة النقابة . لم تكن لديه أية تجربة سابقة مع النقابات وكان لابد أن يشرح له أحدهم أن العمال يتحدون معاً بهدف المطالبة بحقوقهم . فسأل جرجس ما المقصود بحقوقهم ، وكان صادقاً كل الصدق بطرحه للسؤال ، فليس لديه أية فكرة سابقة عن الحقوق التي يمكن أن تكون له سوى حق البحث عن عمل والقيام بما يؤمر به حين يحصل على هذا العمل . لكن بصورة عامة كان مثل هذا السؤال الذي لا يحمل أي أذى بحد ذاته يجعل زملاءه العمال يفقدون أعصابهم ويتعكر مزاجهم ويدعونهم « أبله » . لقد جاء مندوب من نقابة مساعدي الجزارين كي يرى جرجس ويسجله في النقابة ، وحين رأى جرجس أن عليه أن يشارك بجزء من ماله ، تجمد على الفور فتعكر مزاج المندوب الذي كان إيرلندياً لا يعرف إلا بضع كلمات ليتوانية وبدأ بتهديده . في النهاية ثار غضب جرجس تماماً وأوضح للمندوب بصورة كافية أنه يحتاج لأكثر من إيرلندي واحد لكي يخيفه ويجعله يدخل النقابة . ثم شيئاً فشيئاً علم أن الشيء الأساسي الذي يبتغيه هؤلاء النقابيون هو أن يضعوا حداً لعملية « التسريع هذه » . كانوا يبدلون كل ما في وسعهم لابطاء ايقاع العمل . فهناك البعض ، كما قالوا ، لا يسعهم مباشرة سرعة العمل ، تلك السرعة القاتلة بالنسبة لهم . لكن مثل هذه الأفكار لم تلق استجابة لدى جرجس — فقد كان

بإستطاعته أن يقوم هو نفسه بالعمل ، وكذلك بإستطاعة البقية أن يفعلوه ان كانوا يصلحون لأي شيء آخر . اما إن لم يكن بإستطاعتهم القيام به فليمضوا إلى مكان آخر . لم يكن جرجس قد درس الكتب ولم يكن يعلم كيف يلفظ عبارة « Laissez Faire » «دعه وشأنه» لكنه كان قد طاف في العالم بما يكفي لأن يعلم أن على الانسان أن يتنقل فيه وأنه إما نال أسوأ ما فيه ، فليس من أحد يسمع شكواه .

مع ذلك ، من المعروف أن هناك فلاسفة ورجالاً بسطاء يثقون بما قاله مالتوس في الكتب لكنهم يتبرعون لحمالات الانقاذ وقت المجاعات . وكان الأمر ذاته بالنسبة لجرجس الذي عزا ما هو غير مناسب لنزعة التخريب بين العمال رغم أنه كان يطوف طوال النهار ممزق القلب على والده العجوز المسكين الذي كان يبحث في كل مكان من الترائب عن فرصة يكسب بها قوت يومه . كان انتاناس العجوز عاملاً منذ طفولته ، بل لقد فر من منزل أبيه وهو ما يزال في الثانية عشرة لأن والده ضربه حين رآه يحاول تعلم القراءة . ولقد كان رجلاً مخلصاً أيضاً ، رجلاً بوسعك أن تتركه بمفرده شهراً ذاملاً إذا تركته يعلم فقط ما تود منه أن يفعل والآن هاهو ذا بالي الجسد والروح ، ليس له مكان في العالم أكثر من كلب مريض . صحيح أن له منزلاً وأن هناك من يرعاه ان لم يجد عملاً ، لكن الصحيح أيضاً ان ابنه لم يكن يستطيع منع نفسه من التفكير : لنفرض أن الحال كانت على غير ماهي عليه . كان انتاناس رودكوس قد ذهب إلى كل مبنى في باكنجتاون حتى

هذه اللحظة وإلى كل غرفة تقريباً وكان يقف الصباحات بطولها بين جموع طالبي الأعمال إلى أن تأتي الشرطة بالذات ، فيتعرف أحدها إلى وجهه ويأمره بالانصراف إلى بيته والاقلاع عن المطالبة بعمل . كذلك ، ذهب إلى كل المخازن والصالونات ضمن دائرة قطرها ميل متضرعاً أن يسندوا إليه أي عمل ، لكن حيثما يذهب يجد الجواب عينه . الطرد وأحياناً اللعنات والشتائم ، وما من مرة واحدة تنازل أحدهم وسأله سؤالاً .

وهكذا حدث في النهاية نوع من الصدع في البنية الحسنة لإيمان جرجس بواقع الأمور كما هو . وراح الصدع يتسع مع ذهاب ديدانتاناس للبحث عن عمل لكنه كان أشد اتساعاً حين حصل عليه أخيراً . فذات مساء عاد العجوز إلى المنزل في حالة شديدة من الابتهاج ليروي لهم أن رجلاً في أحد ممرات غرف التخليل في منشأة دور هام دنا منه وسأله عما يدفع لكي يحصل على عمل . لم يعلم بما يجيب في الوهلة الأولى ، لكن الرجل تابع بشيء من الصراحة العملية أن بإمكانه تأمين عمل له ، شريطة أن يكون على استعداد للدفع ثلث الأجر له . أهو رئيس عمال ؟ . سأله انتاناس ، فأجاب الرجل بأن ذلك ليس شغله ، لكن باستطاعته تنفيذ ما يقول .

كان جرجس قد أقام بعض الصداقات حتى هذه اللحظة . فبحث عن واحد منهم وسأله عن معنى ذلك — والصديق المدعو تاموزيوس

كوتزلايكا كان رجلاً ضئيل الجسم حاد المزاج يقوم بطي الجلود في أحواض الذبح ، أصفى لما قاله جرجس دون أن يبدو عليه أثر لدهشة . مثل هذه الحالات شائعة كثيراً ، قال الصديق . لاشك أنه رئيس عمال يود أن يزيد دخله قليلاً . وبعد أن ينقضي على جرجس في عمله حين من الزمن سيعلم أن المنشأة معششة تماماً بعفونات من هذا النوع - الرؤساء يبتزون العمال وهم يبتزون بعضهم بعضاً ، وذات يوم يكتشف المشرف شيئاً عن رئيس العمال فيبتزه . وتسخيماً للموضوع ، تابع تاموزيوس شرح الموقف ، فهذه مؤسسة دورهام ، مثلاً ، يملكها رجل يحاول أن يكسب منها أكبر قدر ممكن من المال ولا يبالي بمقدار شعرة واحدة بكيفية الحصول عليه ، ودونه على السلم تجد صفوفاً من المراتب والدرجات كالخيش تماماً فهناك مدراء ومشرفون عامون وناظرون ، وكل منهم يحاول رفس من دونه واعتصار ما أمكن من العمل منه ، كما أن جميع الأشخاص الذين هم من المرتبة ذاتها يتربص بعضهم بالبعض الآخر فحساباتهم مستقلة ، وكلهم يخشى أن يفقد عمله إذا ما استطاع واحد آخر أن يسجل رقماً أعلى من رقمه . وهكذا فإن المكان من عاليه إلى سافله هو بكل بساطة قدر تغلي بالحسد والضغائن ، فليس هناك إخلاص أو مراعاة للآداب العامة في أي ناحية منه ، وليس هنالك شبر فيه لا يمكنك شراء أي رجل مقابل دولار ، والأنكى من ذلك كله أنه ليس هنالك ذرة شرف . والسبب في ذلك ؟ من يعلم ؟ لا بد أنه

د رهام القديم منذ البداية . لابد أنها التركة التي تركها التاجر العصامي لابنه ، جنباً إلى جنب مع ملايينه .

كان جرجس سيكتشف هذه الأمور بنفسه ، لو أنه مكث ما يكفي من الزمن . فالعمال في المنشأة هم الذين يتعين عليهم أن يعملوا كل الأعمال القدرة ، وهكذا لم يكن ثمة مجال لخداعهم هم الذين تأثروا بروح المكان وراحوا يفعلون ما يفعله البقية . جاء جرجس إلى هنا ظاناً أنه سيجعل نفسه مفيداً وسيرتفع ويصبح رجلاً ماهراً لكنه سرعان ما اكتشف خطأه — إذ ما من أحد يرتفع في باكنجتاون من جراء القيام بعمل جيد . وهذه قاعدة — فإذا ما التقيت برجل ارتفع في باكنجتاون فاعلم أنك التقيت بوغد . الرجل الذي أرسله رئيس العمال لوالد جرجس يمكن أن يرتفع ، والرجل الذي ينم ويشي بزملائه يمكن أن يرتفع ، لكن الرجل الذي يفكر بعمله ويؤديه على خير وجه ، فلا — وكيف سيرتفع ؟ انهم « يسرعونه » إلى أن يتلفوه ومن ثم يلتقي في المجاريير .

عاد جرجس إلى المنزل وفي رأسه طنين حقيقي . لكنه رغم ذلك لم يستطع اقناع نفسه بتصديق أشياء كهذه — لا ، لا يمكن أن تكون الأمور على هذا النحو — تاموزيوس ببساطة هو أحد أولئك المتدمرين . انه رجل يقضي كل وقته وهو يدندن على الكمان يذهب إلى الحفلات في الليل ولا يعود إلى المنزل احياناً حتى مطلع الشمس ، وهذا بالطبع يحول بينه وبين حب العمل . ثم انه رجل ضئيل صغير الجسم ، لذا

فهو في آخر الركب ، وهذا هو السبب في تدمره وشكواه . لكن رغم ذلك ، ظلت هناك أشياء كثيرة غريبة يلاحظها جرجس كل يوم .

لقد حاول اقناع والده باهمال العرض كلياً ، لكن انتاناس العجوز كان قد طرق الأبواب حتى يلي وفقد آخر ماله من شجاعة ، كان يريد عملاً ، أي عمل . لذا ، ذهب في اليوم التالي ، وجد الرجل الذي فاتحه بالأمر وعاهده على أن يقدم له ثلث ما يكسب ، فاستلم العمل في اليوم ذاته في اقبية دورهام وفي إحدى « غرف التخليل » حيث لا توجد نقطة جافة يمكنك أن تطأها بقدمك ، لذا دفع كل ما كسبه في الاسبوع الاول تقريباً لكي يشتري حذاء سميك النعل . كان عمله سكويد غاي Squeed gie أي يطوف طيلة النهار ويبيده خرقه ذات مقبض طويل يسمح بها الأرض ، وإذا ما استئفينا الرطوبة والعتمة وجدنا أن العمل لم يكن كريهاً في الصيف .

كان انتاناس رودكوس الطف وأرق رجل خلقه الله على وجه الأرض ، لذا استغرب جرجس كل الاستغراب حين رآه يعود ذات يوم وهو يلعن ، بكل ماله من طاقة ، دورهام ومنشأته مما ثبت في ذهن جرجس أقوال زملائه الآخرين . ذلك أنهم كلفوه بمهمة تنظيف « الاشراك » ، فجلست العائلة حوله تصغي متعجبة وهو يروي لها معنى « الاشراك » . كان العجوز يعمل في الغرفة التي يعد فيها العمال لحم البقر للتعليب ، حيث توضع الذبيحة في رواقيد كبيرة

ملأى بمواد كيماوية ، ثم يشكها العمال بشوكات كبيرة وينقلونها إلى عربات كي تؤخذ إلى غرفة الطهو . وحين ينقلون بشوكاتهم كل ما يستطيعون الوصول اليه في الراقود ، يفرغون الراقود على الأرض ومن ثم يجرفون ما تبقى بمجاريف ويضعونه في العربة . ورغم أن الأرض وسخة ، فقد كان على انتاناس أن يدفع « المخلل » بمسحته إلى داخل فتحة متصلة ببالوعة ، حيث يجمع هناك ويعاد استخدامه المرة تلو المرة وإذا افلت شيء منه ، فقد كان هناك محبس في الانبوب تتجمع عنده كل فضلات اللحم والنثرات والفتات ، وكان واجب العبوز أن ينظف هذه المحابس كل بضعة أيام ويجرف محتوياتها إلى إحدى العربات مع بقية اللحم !

تلك كانت تجربة انتاناس ، ثم جاءت أيضاً تجربة جوناس وماريا بما لديهما من قصص يقصانهما . كانت ماريا تعمل لدى أحد أصحاب دور التعليب المستقلين ، وكانت سعيدة تماماً بمبالغ المال التي كانت تحصل عليها من عملها في طلي العلب . لكنها ذات يوم عادت إلى المنزل مع امرأة صغيرة شاحبة الوجه كانت تعمل مقابلها ، اسمها يادفيغا مارسنيكوس ، ويادفيغا هذه هي التي أخبرتها كيف صدف أن حصلت ، هي ماريا ، على عملها . لقد حلت محل امرأة إيرلندية كانت تعمل في ذلك المصنع منذ زمن طويل ربما يزيد عن خمسة عشر عاماً ، كما

قالت ، ومنذ زمن طويل ايضاً كانوا قد غرروا بهذه المرأة واسمها ماري دنيس فوضعت غلاماً مشوهاً يصاب بنوبات صرع لكنه كان ابنها بل كل ماتحب في هذا العالم . وكانت تعيش معه في غرفة صغيرة مفردة في مكان ما يقع خلف شارع هالستيد ، حيث يعيش الايرلنديون . كانت ماري مصابة بالسل وكنت تسمع سعالها طوال الوقت ، وفي الفترة الاخيرة كانت قد تحطمت ارباً ، لذلك قررت « المشرفة » حين جاءت ماري أن تطرد تلك المرأة المسكينة . كان على المشرفة ان تبلغ بانتاجها مستوى معيناً ولم يكن باستطاعتها ان تتوقف من أجل شخص مريض ، هكذا شرحت يادفيغا . والحقيقة أن ماري كانت هناك منذ زمن طويل إلى حد أنها لم تكن تشكل اي فارق – ومن المشكوك فيه ان كانت المشرفة تعرف ذلك حتى ، لأنها هي والمشرف العام كانا جديدين في العمل لم يمض عليهما سوى سنتين او ثلاث . لم تعرف يادفيغما حل بتلك المسكينة ، وكان بודהا أن تذهب لرؤيتها الا أنها كانت هي نفسها مريضة . فهي تعاني من آلام في ظهرها طيلة الوقت ، شرحت لهم يادفيغا ، وتخشى أن يكون لديها اضطرابات في الرحم . فليس بالعمل الذي يناسب امرأة أن تنقل علماً زنة الواحدة اربعة عشر رطلاً انكليزياً طوال النهار .

والفرصة الغريبة الأخرى هي أن حصول جوناس على عمله

كان على حساب شخص آخر وبسبب سوء حظه . كان جوناس يدفع
عربة يد محملة باللحوم الخارجة من غرف التدخين إلى مصعد ومن هناك
إلى غرف التعليب . العربات مصنوعة كلها من الحديد وهي ثقيلة وهم
يضعون حوالي ستين شريحة من لحم الخنزير في كل منها ، أي حمولة
تزيد عن ربع طن . على الأرض غير المستوية تكون مهمة العامل
أن يقلع إحدى هذه العربات ولايستطيع ذلك ان لم يكن عملاقاً ، وبعد
أن تقلع من مكانها ، يبدل ، بالطبع ، كل مافي وسعه لابقائها قيد
الحركة . كان رئيس العمال يتجول دائماً هناك واذا ماحدث أي تأخير
فانه يبدأ السباب على الفور ، وبما أن معظم العمال من الليتوانيين والسلوفاك
ولايفهمون مايقول رؤسائهم ، فقد كان هؤلاء يميلون لرفسهم كما
ترفس الكلاب كي يدفعوهم إلى العمل . لذلك كانت هذه العربات
تقطع معظم الشوط جارية جرياً وقد تعرض سلف جوناس لان تحشره
أحد العربات بالحائط حيث تهشم بطريقة فظيعة يتعذر وصفها .

كل هذه الأحداث كانت أحداثاً مشؤومة ، الا انها كانت تافهة
بالمقارنة مع ما رآه جرجس بأم عينه قبل انقضاء فترة وجيزة . لقد
لاحظ امراً مشيراً للاستغراب في اليوم الأول لعمله في جرف الأحشاء .
خدعة ذكية من رؤساء عمال الطابق كانوا يلجؤون اليها في اي وقت
يصادف أن يكون هناك عجل « جهيض » . فأبي امرىء يعرف شيئاً عن

الجزارة يعرف ان لحم البقرة التي توشك على الولادة او التي ولدت لتوها لا يكون صالحاً كغذاء . وكان يأتي عدد كبير من هذا النوع من البقر في كل يوم إلى دور التعليب . وبالطبع ، لو ان هناك انتقاء لكان من السهل على أصحاب دور التعليب ابقاء هذه البقرات إلى أن تصبح صالحة . لكن بغية توفير الوقت والعلف ، كانت القاعدة تقضي بأن يجري على هذه البقرات مايجري على الاخرىات وكل من يلاحظ وجود واحدة منها عليه أن يخبر رئيس العمال الذي يشرع للتو بمحادثة المفتش الحكومي ثم يتمشى الاثنان مبتعدين . وهكذا ، بمثل لمح البصر ، تجد أن جثة البقرة قد اخلت من المكان وأحشاءها اختفت ، وكانت مهمة جرجس أن يزلقها إلى الشرك ، العجل والأمعاء وكل شيء ، وفي الطابق الأسفل يمكنهم ان يستخرجوا هذه العجول الجهيضة ليستفيدوا من لحمها ويستخدموا حتى جلودها .

ذات يوم تزحلق رجل فأوذيت بساقه ، وفي ذلك العصر ، حين تم التصرف بآخر ذبيحة ، وكان العمال يغادرون المكان ، جاء الأمر لجرجس بأن يبقى ويقوم بالعمل الخاص الذي كان ذلك العامل يقوم به عادة . كان الوقت متأخراً ، ظلاماً تقريباً . وكان المفتشون الحكوميون قد ذهبوا جميعاً ، ولم يبق الا عشرة أو عشرون رجلاً في الطابق . كانوا في ذلك اليوم قد ذبحوا حوالي أربعة آلاف رأس من البقر ، جاءت كلها بقطارات شحن من ولايات بعيدة وكان بعضها قد اصيب

بالأذى . فمنها ما انكسرت قوائمه ومنها ما اتبعجت خاصرته بل منها ما قضى نحبه دون أن يستطيع أحد معرفة السبب ، وكان ينبغي تدبير امرها جميعاً ، هنا في العتمة والصمت . كان العمال يدعون هذا النوع من الذبائح « بالسقط » وكان ثمة مصعد خاص في دار التعليب لنقل هذا السقط إلى أحواض الذبح ، حيث تمضي الورشة لمعالجتها ، بلا مبالاة وبأنهماك كامل بالعمل مما يدل على أنها ممارسة يومية تجري في هذه المنشأة . استغرقت المهمة ساعتين إلى أن تم الانتهاء منها ، ورآها جرجس أخيراً في غرف التبريد جنباً إلى جنب مع اللحوم الأخرى مفرقة هنا وهناك بعناية كي يتعذر تمييزها فيما بعد . حين عاد جرجس إلى المنزل تلك الليلة كان في حالة مزاجية بالغة الاكتئاب فقد بدأ يرى أخيراً كم كانوا على صواب ، أولئك الذين سخرُوا منه لإيمانه بأمريكا !

- ٦ -

كان كل من جرجس واونا عاشقاً تيم قلبه الحب ، وكان قد طال بهما الانتظار — فهذا هي ذي السنة الثانية على خطبتهما وجرجس يحكم على كل شيء من معيار واحد ، مدى مساعدته أو اعاقته لزواجهما . كانت كل افكاره تدور حول هذه النقطة ، فقد قبل بالعائلة لأنها جزء من اونا ، وكان مهتماً بالمنزل لانه ، سيكون منزل

أونا . حتى الخلع والفظاعات التي رآها في مؤسسة دورهام لم يكن يعني بها الا بمقدار ما تؤثر في مستقبلهما هو وأونا .

واو ترك الأمر لهما اتم الزواج في الحال ، اكن هذا يعني انهما سيتزوجان بلا حفل زفاف وعندما اقترحا هذا ، دخلا في صراع حاد مع الأكبر منهما سناً . فهذا الاقتراح بالنسبة لتيثا الزبيثا ، عل وجه الخصوص ، كارثة حقيقية . أن يتزوجا هكذا على قارعة الطريق كالشحاذين ! لا وألف لا ! فالزبيثا كانت قد نشأت على تقاليد معينة . كانت ، شخصية ذات اهمية في صباها — عاشت في اقطاعه كبيرة لديها خدم وحشم وربما كانت ستتزوج زيجة حسنة وتغدو سيدة مجتمع لولا انها كانت واحدة من تسع بنات لأخوة هن . لكن حتى والأمر كذلك ، كانت الزبيثا تعلم مايليق وما لايليق وكانت تتمسك بتقاليدها تمسك اليأس . فهم لن يفقدوا كل اعتبار لانفسهم حتى واو كانوا عمالا غير مهرة في باكنجتاون ، وحين اقترحت أونا حذف الفيزيليجا كان ذلك كافياً لان تقضي امرأة ايها ايلها كله لاتغمض لها عين . كان من الحماسة بالنسبة لهم ان يقولوا أن لديهم قلة من الأصدقاء ، فمع الزمن سيكون لهم اصدقاء وحينذاك سيتكلم هؤلاء الأصدقاء عن الامر . عليهم الا يتخلوا عما هو صواب من أجل قليل من المال — وان فعلوا ، فان المال ان يعود عليهم بالنفع ، وبإمكانهم أن يعتمدوا

على ذلك . بعد ذلك استدعت الزبيبتا ديد انتاناس لمؤازرتها ، فقد كان الخوف يعيش في نفسي هذين الكائنين من أن تكون هذه الهجرة إلى بلاد جديدة قد تمكنت من الخط من قيم الوطن والتأثير على فضائل اولادهما . لذا وفي اول احد أمتوا به الكنيسة ، شعرت الزبيبتا ، رغم ماكانوا عليه من فقر ، أن من المستحسن أن تشتري بقليل من مالها تمثالا مصنوعاً من الجص وملوناً بازهى الألوان . ورغم أن التمثال لم يكن يزيد على الثلاثين سنتماً ، فقد كان هناك مقام ذو ابراج اربعة بيضاء كالثلج ، تقف فيه العذراء وابنها بين ذراعيها والملوك والرعاة والحكماء ينحنون بين يديها . كان ثمنه خمسين سنتاً ، الا أن الزبيبتا كانت تشعر بأن النقود التي تنفق على أشياء كهذه يجب الا تحسب حساباً دقيقاً ، لأنها تعود بطرق خفية . كان التمثال قطعة جميلة وقد بدا أكثر جمالا حين وضع على رف موقد الصالون ، والمرء لا يستطيع أن يترك منزله بغير شيء من الزخرفة ! !

تكاليف حفلة العرس يمكن بالطبع أن تسترد ، لكن المشكلة هي طرح المسألة في الوقت الحاضر ، اذ لم يكن قد انقضى عليهم في الحي الا وقت قصير لايتيح لهم أن يستدينوا من أحد شيئاً ، ولم يكن هنالك الا تزيد فيلاس يمكنهم استدانة مبلغ ضئيل منه . وهكذا كان جرجس واونا يجلسان الليلة تلو الليلة وهما

يتصوران النفقات ويحسبان فترة انفصالهما . لم يكن بالامكان تدبير شؤون العرس بأقل من مائتي دولار ، ولم يكن باستطاعتهم أن يأملا ، حتى ولو ادخلا في حسابهما كل ماتكسبه ماريا وجوناس كلابين يسلمدانه فيما بعد أن يوفر هذا المبلغ بأقل من أربعة أو خمسة اشهر . وهكذا بدأت أونا تفكر بالبحث عن عمل ، قائلة أنها اذا ما حالفها الحظ ، ستوفر عليها وعلى خطيبها شهرين من العذاب . وكانا قد بدأ بالتكيف مع هذه الضرورة حين نزلت على رؤوسهم صاعقة مفاجئة -- كارثة بعثت آمالهم كلها كبريش في مهب الريح .

على مقربة منهم كانت اسرة ليتوانية اخرى تعيش هناك . اسرة تتكون من ارملة مسنة وابنها الراشد ، كان اسم العائلة ماجوتزكين وقد اقام جماعتنا تعارفاً مع هذه الأسرة خلال فترة قصيرة . وذات مساء جاءت الجارة ماجوتزكين تزورهم ، وبطبيعة الحال كان الموضوع الأول الذي دار الحديث عنه هو الحي وتاريخه . وحينذاك شرعت الجدة ، وكانوا يدعونها كذلك لكبر سنها ، تروي لهم سلسلة من الفضائح جمعت لها دماؤهم . كانت الجدة ماجوتزكين ارملة متغضنة الوجه ذابابة الجلد -- لابد أنها في الثمانين -- وبينما كانت تغغم قصتها الكثيرة عبر لثنيها اللرداوين ، بدت لهم شبه ساحرة مفرطة في الهرم . كانت الجدة ماجوتزكين قد عاشت في خضم المصائب زمناً طويلاً

إلى أن غدت المصائب جزءاً لا يتجزأ منها ، وقد حدثتهم عن المجاعات والأمراض والموت كما يتحدث الناس الآخرون عن الأعراس والعطل .

لقد حدث الأمر على نحو تدريجي . لكن قبل كل شيء لم يكن المنزل الذي اشتروه بالحديد البتة ، كما كانوا يظنون ، بل لقد بني منذ خمسة عشر عاماً ولم يكن فيه شيء جديد سوى الطلاء الذي كان من السوء إلى درجة ينبغي معها تجديده كل عام أو عامين . وهذا المنزل هو واحد من صنف من المنازل شيدتها شركة قامت لا بتراز أموال الفقراء والتحايل عليهم . فالعائلة ستدفع ألفاً وخمسمائة دولار ثمناً له هو الذي لم يكلف يوم بنائه خمسمائة دولار -- وقد كانت الجولة تعرف ذلك لأن ابنها ينتسب إلى تنظيم سياسي فيه متعهد يقيم مثل هذه المنازل تماماً . انهم يستخدمون أرخص المواد وأقلها مقاومة ، يبنون كل ستة من المنازل دفعة واحدة ولا يهتمون سوى بالمظهر الخارجي . وقد صدقت العائلة كلامها على الفور ، بسبب المشكلات التي واجهتها في المنزل منذ دخله ، ولأن الجولة ذاتها كانت قد مرت بها جميعاً -- فهي وابنها اشتريا منزلهما بالاسلوب نفسه تماماً . لكنهم ، مع ذلك لعبوا على الشركة لأن ابنها عامل ماهر ، يصل أجره الشهري حتى المائة دولار ، ولم يكن يميل للزواج لذا تمكننا من تسليده ثمن المنزل .

لاحظت الجولة ماجوتركين أن اصدقاءها ذهبوا لهذه الملاحظة فهم لم يعرفوا تماماً كيف ان تسليده ثمن المنزل هو لعب على الشركة .

كان من الواضح انهم اغرار للغاية . فرغم رخص هذه المنازل ، كانت الشركة تبيعها وهي مؤمنة كل الايمان أن الناس الذين سيشترونها لن يتمكنوا من تسليده اثمانها . وحين يفشلون — ولو لشهر واحد فقط — فانهم يفقدون حقهم بالمنزل وبكل مادفعوه حتى حينه ، وعند ذاك تبيعه الشركة مرة ثانية . وهل تتاح مثل هذه الفرصة كثيراً ؟ يا الله ! (وترفع الجلدة ماجوتزكين يديها) لقاء اتبحت ، لكن من يعلم عدد المرات ، انما هو بالتأكيد أكثر مما يتخيلون . ان بإمكانهم أن يسألوا اي امرئ يعرف شيئاً عن باكنجتاون فيما يتعلق بهذه المسألة . انها تعيش هنا منذ بني هذا المنزل وبإمكانها أن تخبرهم كل شيء عنه . ترى هل بيع من قبل ؟ سوسيملكي ! ! يا للعجب ! ! كيف ؟ فمئذ أن بني حاولت شراءه أكثر من أربع عائلات . حددت الجلدة اسماءها ثم انخفضت في اكمال اقساطه . وبإمكانها أن تخبرهم بعض المعلومات عن ذلك .

كانت العائلة الأولى المانية ، والعائلات الاخرى من جنسيات مختلفة. ففي الزرائب والمسالخ عمل ممثلو عدة عروق وقد حل بعضهم محل بعض . الجلدة ماجوتزكين نفسها جاءت مع ابنها إلى امريكا في زمن لم يكن في المنطقة كلها سوى عائلة ليتوانية واحدة . كان العمال جميعاً حينذاك من الالمان وكانوا جزاري — ماشية مهرة يأتي بهم أصحاب دور التعليب من الخارج كي يبلطوا مهنهم . بعد ذلك ، جاءت يد

عاملة أرخص ، ورحل الالمان بعيداً . كان القادمون الجدد من
الاييرلنديين - وقد مرت ست أو ثماني سنوات كانت فيها باكنجتاون
مدينة ايرلندية تماماً . وحتى اليوم كانت مائزال فيها بعض التجمعات
الاييرلندية إلى حد يكفي لادارة كل النقابات وقوة الشرطة وممارسة
أعمال الكسب غير المشروع . لكن ، معظم من كانوا يعملون في
دور التعليب شدوا رحالهم لدى الهبوط التالي في الأجور أي بعد الاضراب
الكبير . بعدئذ جاء البوهيميون ثم البولنديون . ويقال أن دورهام
القديم نفسه هو المسؤول عن هذه الهجرات ، فقد اقسم أن يأتي لباكنجتاون
بأناس لا يستطيعون ابداً اعلان اضراب عليه ، وهكذا كان يبعث بوكلائه
إلى كل مدينة وقرية من اوروبا ليث الاقويل عن فرص العمل وعن
الاجور العالية في الزرائب . وكان الناس يجيئون زرافات زرافات
ليشدد دورهام العجوز قبضته عليهم أكثر وأكثر ، ويسرعهم ويطحنهم
فتاتاً ثم يبحث عن محل محليهم . وهكذا جرف الليتوانيون البولنديين
الذين جاؤوا أول ماجاؤوا بعشرات الآلاف والآن يتراجع الليتوانيون
أمام السلوفاك . ومن هناك اشد فقراً وبؤساً من السلوفاك ؟ لم تكن لدى
الجنة ماجوتزكين اية فكرة ، لكن أصحاب دور التعليب سيكتشفونهم ،
لاتخافوا ابداً . اذ من السهل الاتيان بهم فالاجور اعلى بكثير من اجور
بلادهم فعلاً ، ولسوف يكون الوقت متأخراً حين يعام هؤلاء المساكين
أن كل شيء هنا ، لا الأجور وحسب ، أعلى سعراً من بلادهم .

انهم يصبحون أشبه بالخرذان في مصيدة ، تلك هي الحقيقة بينما يتكدرس المزيد منهم كل يوم . لكن شيئاً فشيئاً يأخذون بثأرهم ، اذ أن الأمر يتجاوز حدود التحمل البشري ، فيثور الناس ويقتلون أرباب العمل . كانت الجدة ماجوتز كين اشتراكية أو شيئاً من هذا ، فابن آخر من ابنائها كان يعمل في مناجم سيبيريا ، والسيدة العجوز نفسها كانت تلقي خطاباً في زمانها — الأمر الذي جعلها تبدو أشد رهبة في أعين سامعيها .

ومرة ثانية اعادوها إلى قصة المنزل . العائلة الالمانية كانت من الصنف البعيد لكن بالتأكيد كان عدد افرادها كبيراً ، وهو الأمر الشائع في باكنجتاون ، لكنهم كانوا يعملون بدأب شديد وكان الوالد رجلاً صلباً قوي الشخصية وقد سدد أكثر من نصف ثمن المنزل . لكنه قتل في حادث مصعد في منشأة دورهام .

بعدئذ جاء الايرلنديون ، وكان عددهم كبيراً ايضاً ، كان الزوج يشمل ويضرب أولاده — وكان بإمكان الجيران ان يسمعوا صراخهم كل ليلة . وكانوا يتأخرون عن دفع الايجار دائماً ، لكن الشركة احسنت معاملتهم . فقد كان وراء ذلك سياسة ما ، لم تفصح الجدة ماجوتز كين بشيء عنها . سوى أن عائلة « لافرتي » هذه كانت تنتسب « لعصابة الترويج للحرب » وهي اشبه بناد سياسي يضم كل الديمقائين ومحبي الحصام في المنطقة ، واذا ما انتسبت إلى ذلك النادي ، لم يعد

بالامكان القاء القبض عليك لاي سبب كان . فذات مرة امسكوا
بلافرتي العجوز مع عصبة تمارس سرقة أبقار الفقراء في المنطقة ثم
ذبحها في مكان قذر يقع خلف الزرائب ومن ثم بيعها . وقضى في السجن
ثلاثة أيام ثم خرج وهو يضحك اذ لم يفقد حتى مكان عمله في دار
التعليب . لكنه رغم ذلك استمر يشرب حتى اهلكه الشراب وفقد كل
قواه ، فانبرى ابنه ، الذي كان رجلاً طيباً ، يرعاه هو واسرته إلى أن
قضى عليه السل بعد عام أو عامين .

وهذا أمر آخر ، قاطعت الجدة ماجوتزكين نفسها -- فهذا المنزل
مشؤوم . كل عائلة تقطن فيه يصاب أحد افرادها بالسل . لاأحد يستطيع
تفسير ذلك . انما لابد أن يكون ثمة شيء في هذا المنزل . أوريا الطريقة
التي بني فيها -- فالبعض يقولون إن السبب في ذلك هو أن البناء بدأ
وقت إظلام القمر . وكانت هناك عشرات المنازل في باكنجتاون بنيت
بالطريقة ذاتها . احياناً تكون هناك غرفة خاصة يمكنك التعرف اليها
فاذا مانام أحد في تلك الغرفة غدا أشبه بالموتى . بالنسبة لهذا المنزل كان
الايرلندي هو أول من اصاب بالسل فيه ثم جاءت العائلة البوهيمية
ففقدت طفلاً من اطفالها -- مع ذلك ليس الأمر مؤكداً تماماً ، نظراً
لأن من المتعذر معرفة الأمراض التي يشكو منها الاطفال العاملون في
المسالخ . ففي تلك الأيام لم يكن ثمة قانون يحدد سن العمل بالنسبة
للأطفال -- وكان أصحاب دور التعليب يشغلون الجميع ماعدا الأطفال

الرضع : عند هذه الملاحظة بدت العائلة مندهلة تماماً، ومرة ثانية وجبات
الجلدة نفسها مضطرة لتقديم تفسير - فالقانون الآن يمنع تشغيل الاطفال قبل سن
السادسة عشرة. ما معنى ذلك ؟ سألوها. فقد كانوا يفكرون بتدبير عمل
لستانيسلو فاس الصغير . حسناً ، لاحاجة للانزعاج ، أجابت الجلدة
ماجو تر كين - فالقانون لم يحدث أي فارق سوى أنه أجبر الناس على
الكذب فيما يتعلق باعمار اولادهم . لكن المرء يود أن يعلم ما الذي
يتوقعه واضعو القانون من هؤلاء الناس . فهناك عائلات لا وسيلة
لديها لاعالة نفسها سوى اولادها والقانون لم يقدم لها طريقة اخرى
لتأمين معيشتها . كذلك غالباً ما يحدث أن يظل الرجل شهوراً بدون عمل
في باكنجتاون ، في حين يستطيع الولد أن يحصل على عمل بسهولة
تامة ، فهناك دائماً آلة جديدة يمكن لاصحاب دور التعليب أن يحصلوا
بتشغيل ولد عليها ما يحصلون عليه من تشغيلهم رجلاً كبيراً وبثلث
الأجر لا أكثر .

لنعد إلى المنزل ثانية ، فقد كان الشخص الذي قضى نحبه من العائلة
الثانية هو الزوجة . وقد حدث ذلك بعد أن مر على اقامتهم في المنزل
اربعة سنوات تقريباً ، كانت المرأة فيها تضع توأماً من الاطفال كل
عام - وكان لديهم اطفال أكثر مما يمكنك احصاؤه عندما رحلوا
إلى المنزل . بعد أن توفيت كان الرجل يذهب إلى العمل ليترك اولاده
يسرحون على هواهم في الحى - وكان الجيران يمدون لهم يد المساعدة

بين الحين والحين لانهم كانوا يتجمدون حتى الموت تقريباً . في النهاية
ظالوا ثلاثة أيام بمفردهم قبل ان يكتشف اهل الحي موت والدهم .
كان الرجل يعمل « ماسح أرض » في منشأة جونز . وفي أحد الأيام
هاجمه ثور جريح اقلت من حظيرته وهشمه بين قرنيه والعمود . بعد
ذاك نقل الأطفال وباعت الشركة المنزل في الاسبوع نفسه لجماعة جديدة
من المهاجرين .

هكذا تابعت العجوز الكثيبة قصتها ، قصة الاهوال . كم كان
فيها من المبالغة ، من تراه يستطيع القول ؟ لكنها كانت معقولة ايضاً .
فهناك ذلك الجزء من القصة المتعلق بالسل مثلاً . انهم لا يعرفون شيئاً
عن السل ، علما انه يجعل الناس يعملون ، ومنذ اسبوعين كان قد
انتابهم القلق بسبب سعال انتاناس ، فقد بدأ يهز جسمه هزاً ولم يكن
يتوقف ، كما بات باستطاعتك أن ترى لطخة حمراء حيثما يبصق
على الأرض .

لكن هذا كله لم يكن شيئاً بالمقارنة بما حكته لهم بعد وقت قصير .
فقد بدؤوا يسألون السيدة العجوز عن أسباب عجز عائلة من العائلات
عن الدفع ، محاولين أن يوضحوا لها بالارقام أن ذلك أشبه بالمستحيل ،
وبدأت الجملة تناقش ارقامهم . تقولون اثني عشر دولاراً شهرياً ،
لكن ذلك لا يتضمن الفائدة .

عندئذ حملقوا بها مندمشين ثم صرخوا بصوت واحد « فائدة ! ! » .

فأجابت « أجل . فائدة على المال الذي ماتزالون مدينين به »
« لكننا لسنا ملزمين بدفع أية فائدة » هتف ثلاثة أو أربعة منهم
في آن واحد ، « ماعلينا الا أن ندفع اثني عشر دولاراً شهرياً » .

فضحكت منهم ثم قالت « انتم كالأخرين ، كلكم سواء .
يخدعونكم بسهولة ويأكلونكم وانتم احياء . فهم لا يبيعون المنازل
بغير فائدة . أخرجوا وثيقتكم وأمعنوا فيها النظر » .

عند ذلك ، فتحت تينا إزبييتا درجها وقد غاص قلبها بين جنبها
هلعاً ، ثم أخرجت الورقة التي كانت قد سببت لهم الكثير من العذابات .
حينذاك تحلقوا حولها وقد حبسوا أنفاسهم جميعاً ، بينما أمسكت العجوز
التي كانت تحسن القراءة ، بالورقة وهزت بها على عجل ، ثم قالت
اخيراً « أجل ، هاهي ذي ، طبعاً . بفائدة تحسم شهرياً بمعدل سبعة
بالمائة في السنة » .

وتلا ذلك صمت مطبق « ماعني ذلك ؟ » سأل جرجس اخيراً
فيما يشبه الهمس .

فأجابت العجوز « هذا يعني أن عليكم أن تدفعوا سبعة دولارات
في الشهر القادم علاوة على الاثني عشر » .

ومرة أخرى خيم صمت مطبق ، صمت كأنه الكابوس الذي
تشعر فيه بأن شيئاً ما ينهار تحت قدميك وأنتك تغوص وتغوص في هاوية

ليس لها قراراً . لقد رأوا انفسهم وبسرعة البرق ضحايا قتل لايرحم .
محاصرين في زاوية ، وقد اطبق عليهم الفخ ، لقمة سائغة في فم الهلاك .
كل ما بنوه من آمال كان يتهشم ، وكانوا يسمعون صوت تهشمه
بآذانهم . وطوال الوقت كانت العجوز مستمرة في الكلام . كانوا يودون
فوتصمت ، فقد بدا صوتها اشبه بنعيب غراب خفيف . كان جرجس
يجلس وقد اطبق قبضتيه باحكام وقطرات العرق تسيل على جبينه ،
أما اونا فقد كانت تشعر بأن هناك كتلة كبيرة تسد بلعومها وتخنقها .
عند ذاك شقت حجاب الصمت ولولة اطلقتها تبتا الزبيبتا ، ثم شرعت
ماريا تعصر يديها وتنشج « آي ! آي ! يدامان ! » .

لكن البمراخ لايجدي فتيةً بالطبع . فقد كانت الجلدة ماجوتر كين
تجلس هناك وهي تمثل القدر . وبالطبع لم يكن قلراً حسناً ، انما لم
تكن المسألة في تلك اللحظة مسألة حسن أو قبح . فهم لم يكونوا يعرفون
ذلك القدر ، بل كان المقصود ألا يعرفوه ، الا انه كان في الوثيقة
وكان ذلك كل مايلزم ، اذ سيكتشفونه عندما يحين الوقت .

بشكل أو بآخر تخلصوا من ضيفتهم ومن ثم امضوا الليل في النواح .
افاق الاولاد فاكتشفوا أن هناك خطباً ما ، فاعولوا بلبورهم دون أن
يجدوا من يسكتهم . في الصباح ، كان على معظمهم ، طبعاً ، أن يلذهبوا
إلى العمل ، فلور التعليب لا توقف اعمالها بسبب احزانهم ، لكن ما ان
حلت الساعة السابعة حتى كانت اونا وامرأة ابيها تقفان عند عتبة مكتب

الوكيل . وعندما جاء قال لهم : أجل . . هذا صحيح تماماً ، عليكم أن تدفعوا فائدة . عند ذاك انطلقت تيتا الزبيبتا تحتج وتصيح حتى بدأ المارة يتوقفون ويسترقون النظر من النافذة . غير أن الوكيل ظل لطيفاً هادئاً كعادته ابداً . بل لقد قال لهما انه يتألم أشد الألم عليهم وانه لم يذكر هذه النقطة ، لأنه كان يظن أنهم يعرفونها ، فلنفع فائدة على الدين أمر طبيعي متوقع .

وهكذا عادتا لتذهب اونا عند الظهيرة إلى المسلخ كي ترى جرجس وتقل الخبر اليه فتلقاه جرجس برباطة جأش — اذ كان قد أعد نفسه للأمر حتى ذلك الحين .

لقد كان ذلك جزءاً من قدرهم ، ولسوف يتدبرون الأمر بشكل من الاشكال « سأعمل يجد أكثر » نطق اخيراً بجوابه المعهود . لكنه اعترف بأن هذا الاكتشاف سيقلب خططهم لحين من الزمن ، ولعله يتوجب على اونا نفسها أن تعمل . عند ذاك اضافت اونا ان تيتا قررت تشغيل ستانيسلوفاس الصغير ايضاً . فليس من المستحسن تركها هي وجرجس يميلان العائلة ، بل على العائلة ان تساعد با وسعها ذلك . كان جرجس في السابق يعارض هذه الفكرة كل المعارضة ، لكنه الآن قطب حاجبيه ولوح برأسه على مهل — أجل ، ربما سيكون من الأفضل أن يقدم الكل توضيحات من نوع ما .

وهكذا انطلقت اونا في ذلك اليوم للبحث عن عمل ، وفي الليل

عادت ماريا إلى المنزل لتقول إنها قابلت فتاة تدعى جازيتيه لها صديقة تعمل في إحدى غرف المصرفي منشأة براون وأنها قد تؤمن عملاً لاونا . غير أن المشرفة من النوع الذي يأخذ هدايا ولاجلوى من طلبك عملاً منها ان لم تضع في يدها عشرة دولارات . لم يفاجيء هذا الأمر جرجس ، فقد اعتاد عليه الآن - بل اكتفى بالسؤال عن الأجور في ذلك المكان. وهكذا فتح باب المناوضات ، وعادت اونا بعد مقابلتها للمشرقة لتقول ان هذه احبتها على مايلسو وأن باستطاعتها ، وان تكن غير متأكدة تماماً ، أن توكل اليها مهمة خياطة الأغطية التي تغطي بها اللحوم ، وهو عمل يدر ما لا يقل عن ثمانية دولارات في الاسبوع . ذلك ييشر بالخير ، قالت ماريا بعد أن استشارت صديقتها ، ثم انعقد مؤتمر محموم في المنزل . فذلك العمل يجري في أحد الأقبية ولم يكن جرجس يريد أن تعمل اونا في مكان كهذا ، لكنه كان عملاً سهلاً والمرء لا يستطيع أن ينال كل مايشتهي . أخيراً مضت اونا ، وفي راحة يدها عشرة دولارات تكويها ، لتقابل مرة أخرى المشرفة العزيزة .

في غضون ذلك اخذت تينا الزبييتا ستانيسلوفاس الصغير إلى الكاهن وحصلت منه على شهادة تثبت أن الغلام أكبر من عمره الحقيقي بعامين ، وبهذه الشهادة انطلق الفتى الصغير يجرب حظه في الدنيا . كان دورهام قد ادخل لتوه آلة جديدة عجيبة لتعبئة شحم الخنزير ، وحين رأى الشرطي الخاص الواقف امام مركز الدوام ستانيسلوفاس الصغير ووثيقته .

ابتسم بينه وبين نفسه ثم امره بالذهاب « جيا ! جيا ! » مشيراً بيده .
وهكذا هبط ستانيسلوفاس ممراً حجرياً طويلاً ثم صعد مجموعة من
الدرج افضت به إلى غرفة منارة بالكهرباء . تعمل فيها الآلات الجديدة
الخاصة بتعبئة العلب بشحم الخنزير . كان الطابق السفلي مخصصاً لمعالجة
الشحم معالجة كاملة ، حيث يندفع هذا إلى الأعلى على شكل نوافير
صغيرة تشبه ثعابين جميلة ملوثة بيضاء كالثلج ذات رائحة كريهة .
وكان هناك عدة حجوم وأنواع من هذه النوافير التي تتوقف بصورة
آلية ، حين تنفث قدراً معيناً من الشحم ، ثم تدور الآلة العجيبة دورة
صغيرة تأخذ بها العلبة لتضعها تحت نفثة أخرى وهكذا إلى أن تمتلئ
حتى الحافة تقريباً ثم تضغطها بأحكام وتملسها . وللإشراف على هذا
كله وتعبئة عدة مئات من العلب كل ساعة كان يلزم وجود مخلوقين
بشريين ، أحدهما يعرف كيف يضع العلبة الفارغة في نقطة معينة
كل بضع ثوان والآخر يعرف كيف يأخذ العلبة المعبأة بالشحم من
نقطة معينة كل بضع ثوان ويضعها على صينية .

وهكذا ، وبعد أن وقف ستانيسلوفاس الصغير يحملق مذعوراً
حوله لبضع دقائق ، دنا منه رجل وسأله عما يبتغي فأجاب
ستانيسلوفاس «عمل» عندئذ سأله الرجل «كم عمرك؟» فأجاب الغلام
« ست عشرة » . مرة أو مرتين في العام كان المفتش الحكومي يأتي
ليطوف في منشأة التعليب سائلاً ولداً هنا وولداً هناك عن عمره .

وهكذا كان أصحاب دور التعليب حذرين بخصوص الأعمار حريصين على تطبيق القانون الذي لم يكن يكلفهم أكثر من أن يتناول رئيس العمال وثيقة القى ، مثلما فعل رئيس العمال هذا مع ستانيسلو فاس والنظر اليه ومن ثم ارساله إلى المكتب لفتح اضبارة له . بعدئذ وضع شخصاً في عمل آخر وأوضح للغلام كيف يضع علبة الشحم في كل مرة تجيء اليه بها النراخ النارضة للآلة التي لا ترحم ، وبذلك تقرر مكان ستانيسلو فاس الصغير في العالم ومصيره حتى آخر عمره - ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم وسنة تلو سنة . كان قلده أن يظل واقفاً في رقعة صغيرة محددة قرب الآلة بدءاً من الساعة صباحاً وحتى الظهر ، ثم مرة ثانية من الثانية عشرة وحتى الخامسة والنصف دون أن يتحرك حركة واحدة أو تتسنى له معالجة فكرة واحدة ، ماعداً وضع علب الشحم . في الصيف كانت رائحة الشحم الساخن تصيب بالغثيان ، وفي الشتاء كانت العلب تكاد تجمد اصابعه الصغيرة العارية في القبو غير المدفأ . وكان القبو يظل مظلماً اثناء العمل طوال نصف السنة تقريباً ثم يخرج بعد انتهاء العمل ايجد الظلام امامه ايضاً . وهكذا لم يكن يرى الشمس طوال ايام الاسبوع . مقابل هذا كله ، كان يحمل معه في نهاية الاسبوع ثلاثة دولارات ، فمعدل أجرته خمسة سنتات في الساعة - أي حصته تماماً من مجمل ما يكسبه مليون وثلاثة ارباع المليون من الاولاد الذين يشتغلون كي يكسبوا قوتهم في الولايات المتحدة اليوم .

اثناء ذاك ، ولأنهما كانا شابين صغيرين ، والأمل لا يموت قبل
اوانه ، فقد عاد جرجس وأونا إلى حساباتهما ثانية ، اذ اكتشفنا أن
اجرة ستانيسلو فاس تسدد الفائدة وتزيد قليلاً . ومعنى هذا أن العائلة
عادت إلى حيث كانت في السابق . اما هما فلم يكن ينقصهما الا أن
يقولا أن الفتى الصغير مسرور من عمله . ومن كسب المزيد من المال
وان غرام واحدهما بالآخر يكبر يوماً بعد يوم .

- ٧ -

ظلت العائلة تكد وتتعب طوال الصيف ، وفي الحريف تجمع
لديها من المال ما يكفي لان يتزوج جرجس وأونا حسب تقاليد الوطن
واعرافه . وهكذا استأجروا في أواخر تشرين الثاني صالة من الصالات
ودعوا كل معارفهم الجدد الذين جاؤوا وتركوهم غارقين في دين
يزيد على المائة دولار .

إنها تجربة مرة وقاسية بالنسبة للعروسين دفعتهما إلى خضم العذاب
والياس . ان يعيشا في زمن كهذا ومن بين كل الازمنة ، هما صاحبا
القلبين الرقيقين ! ! أن تكون بداية حياتهما الزوجية مثيرة للشفقة
بهذا الشكل ! كان واحدهما يحب الآخر ولم يعد بوسعهما تحمل أي
ارجاء . انه الوقت الذي كان كل شيء يصيح بهما أن عليهما ان يسعدا .
وكان العجب يحترق في قلوبهما والدهشة تتلظى لهباً مع كل نفس من

انفاسهما . كانا يهتران حتى الاعماق من رغبة الحب الأكيد . - فهل هو ضعف منهما أن يصرخا طالباً لبعض الراحة ؟ كان قلباهما يتفتحان كما تفتح الازهار للربيع وكان الشتاء القاسي قد حط عليهما . وكان يتساءلان ان كان هناك اي حب زاهر في الدنيا قد تحطم وديس عليه بهذا الشكل .

على ظهريهما ، كان يفرقع ، بوحشية وبلا رحمة ، سوط الحاجة ، وفي الصباح الذي تلا العرس ، أيقظهم من نومهم قبل طلوع الفجر وهو يدفعهم دفعاً إلى العمل . لم تكن اونا قادرة الا بالكاد على الوقوف اعياءً وانهاكاً ، لكنها ان فقدت عملها فسيدمرهم ذلك . وهي ستفقدته بالتأكيد ان لم تصل إلى مكان العمل في الوقت المحدد . كان عليهم جميعاً أن يذهبوا ، حتى ستانيسلوفاس الصغير الذي كان مريضاً من فرط التهام التفائق والسارسابريلا (١) . وطوال ذلك اليوم ظل يقف عند آتته يتأرجح يمناً وشمالاً مغمض العينين رغباً عنه وكان قاب قوسين أو أدنى من فقدانه عمله إذا اضطر المشرف مرتين لاستخدام خذائه وركله كي يوقظه .

ولقد مضى اسبوع كامل قبل أن يستعيدوا حالتهم العادية مرة ثانية . في غضون ذلك ، ومع عويل الصغار وعصية الكبار ،

(١) السارسابريلا : شراب غازي منكه بنبات مترش يدعى الفشاغ ونمو في أمريكا .

لم يكن المنزل بالمكان المريح الذي يمكن العيش فيه . غير أن جرجس لم يفقد أعصابه البتة - والسبب في ذلك اونا . فحسبه نظرة واحدة اليها لجعله يضبط نفسه . لقد كانت بالغة الحساسية - ولم تكن تخلقت لحياة كهذه ، وكان كلما فكر بها . ولما مرة في اليوم . يطبق قبضتيه باحكام ويندفع مرة ثانية في العمل المفروض عليه . كان يقول لنفسه ، انها فتاة طيبة جداً ، وكان خائفاً . خائفاً كثيراً لانها كانت فتاته . لقد صبر طويلاً وتحمل كثيراً كي تصبح له . اما الآن وقد اصبحت كذلك فقد عرف انه لم يكن يستحقها وأن ثقتها به نتيجة طيبتها وبساطتها لانتيجة فضائله هو لكنه صمم على الا يدعها تكتشف هذا ابداً . كان حذراً دائماً من أن يكشف أمامها أي جانب من جوانب نفسه البشعة . كان حذراً حتى في القضايا الصغيرة . كسلوكه مثلاً وعاداته في التجديف والسباب حين يقع اي خطأ ، وكانت الدهوع تنحدر بسهولة من عيني اونا وهي تتطلع اليه بتضرع - الأمر الذي أبقى جرجس مشغولاً تماماً باتخاذ القرارات . علاوة على كل الاشياء الاخرى التي كانت تشغل ذهنه . والحقيقة أن اشياء كثيرة كانت تشغل بال جرجس في هذا الوقت . أشياء أكثر بكثير من أي وقت مضى .

كان عليه أن يحميها . أن يصارع من أجلها الأهوال التي رآها تخلف بهم . كان جرجس كل شيء في حياتها ، واذا ما فشل فانها متضيع . كان يلف ذراعيه حولها ويحاول ان يخفيها عن العالم . كان

قد تعلم الأساليب التي تجري فيها الأمور من حوله ، وكانت الحرب حربيها ضد كل شيء . فأنت لا تقسيم مآدب للآخرين بل تنتظر منهم أن يقيموا لك مآدب ، وأنت تمضي في كل مكان ونفسك مفعمة بالريبة والكراهية وأنت تدرك أنك محاط من كل صوب بقوة معادية تحاول نهب مالك وتستعمل كل فضائلها كي تجعلك طعاماً للفتح الذي نصيبته لك . أصحاب الدكاكين يزبنون نوافلهم بكل أنواع الخدع والأكاذيب كي يغروك ، الحواجز ذاتها القائمة على جوانب الطرق ، اعمدة المصابيح ، بل حتى اعمدة الهاتف مطلية كلها بالخدع والأكاذيب . والمؤسسة الكبيرة التي تشتغل لديها تكذب عليك ، وتكذب على البلاد كلها — من القمة إلى القاع ليس ثمة شيء سوى كذبة واحدة كبيرة .

هكذا كان جرجس يفهم المسألة ، ومع ذلك كان الأمر محزناً ، لأن الصراع غير متكافئ — بعضهم يتمتع بكثير من المزايا ! فهذا هو ، مثلاً ، يركع على ركبتيه مقسماً على أن يحمي اونا من الاذى . انما لم يمر اسبوع حتى وجد نفسه يعاني اشد المعاناة ، ومن ضربة لم يكن بمستطاعه تفاديها ابداً . فقد جاء يوم هطل فيه المطر مداراراً ، ولاعجب فالشهر كانون الأول ، وأن تبطل بالمطر وتضطرب للجلوس طوال النهار في أحد اقبية براون الباردة مسألة غير مضحكة بتاتاً ، كانت اونا فتاة عاملة ولم يكن لديها اقيات مطر وما شابه . وهكذا أخذها جرجس وأركبها في الترام . وكان خط الترام هذا ملك اشخاص

يحاولون كسب ثروة سريعة ولأن البلدية اصدرت امراً يقضي باعطاء تذكار تخول الراكب الانتقال من ترام إلى آخر ، فقد هاجوا وماجوا غضباً ، ووضعوا قاعدة هي أنه لا يمكن الحصول على هذه التذكار الا عندما تدفع الاجرة ، ثم وضعوا قاعدة أخرى أشد بشاعة حتى - وهي أن على الراكب أن يطلب التذكرة لا أن يقدمها الجاني له . الآن قيل لونا أن عليها أن تحصل على تذكرة . وبما أنها لم تعتد أن ترفع صوتها ، فقد انتظرت وحسب . متتبعة الجاني بناظرها متسائلة في سرها متى تراه سيفكر بها ، وحين وصلت اخيراً إلى حيث يتعين عليها النزول ، طلبت التذكرة فرفض الجاني اعطاءها اياها ولكونها تجهل ماينبغي فعله ، فقد بدأت تجادل الجاني بلغة لم يفهم كلمة واحدة منها . وبعد تحذيرها مرات عدة ، شد الجرس فانطلق الترام - مما جعل أونا تنفجر بالهكاء . في الموقف التالي خرجت أونا ، طبعاً . وبما أنها لم تكن تملك أية نقود ، فقد تعين عايتها أن تسير بقية الطريق إلى المسلخ تحت المطر المشكك كالقرب . وهكذا جلست النهار بطوله وهي ترتعش ثم عادت إلى المنزل ليلاً تصطك أسنانها وتعاني من آلام شديدة في رأسها وظهرها . ولأسبوعين بعد ذاك ، ظلت أونا تعاني أشد المعاناة - ورغم ذلك ، كانت تجر نفسها كل يوم كي تلتحق بعملها . فمشرفتها قاسية في معاملتها كثيراً لأنها تعتقد أن أونا حاقدة عليها لعدم اعطائها اجازة في اليوم الذي أعقب عرسها . أما أونا فقد كانت تفكر بأن « مشرفتها »

تكره كثيراً أن تتزوج فتياتها — ربما لأنها هي نفسها مسنة قبيحة ولم تتزوج بعد .

كانت هناك أخطار كثيرة من هذا القبيل ، ولم تكن ثمة ميزة واحدة لصالحهم . فالأولاد ليسوا سعداء كما كانوا في الوطن . وأنى لهم أن يعلموا أن منزلهم بغير مجارير وأن تصريف المياه الوسخة مدة خمسة عشر عاماً كان يتم في مجرور يقع تحته . أنى لهم أن يعلموا أن الحليب ذا اللون الأزرق الباهت ، الذي كانوا يبتاعونه من مكان قريب من الزاوية ، ممزوج بالماء فضلاً عن أنه معالج بالفورما لدهيد ؟ عندما كان الأطفال يصابون بمرض من الأمراض في الوطن ، كانت تبتا الزبيبتا تجمع بعض الأعشاب وتعالجهم أما الآن فقد كانت مضطرة للذهاب إلى الصيدلية وابتياح خلاصات الأعشاب ، وأنى لها أن تعلم أنها كلها مخشوشة ؟ أنى لهم أن يكتشفوا أن شايبهم وبنهم ، سكرهم ودقيقهم كلها معالجة بالمواد الكيماوية ، وأن البازلاء المعلبة التي يتناولونها تأخذ لونها من أملاح النحاس وأن مربيات الثمار مصبوغة بأصبغة الأنيلين ؟ بل حتى لو عرفوا ذلك ، أي نفع ستعود به عليهم هذه المعرفة ، طالما أنه ما من مكان آخر على بعد ميل كامل يمكنهم أن يشتروا شيئاً منه ؟ كان الشتاء القارس على الأبواب ، وعليهم أن يوفروا بعض النقود كي يشتروا المزيد من الملابس وأغطية النوم . لكن مهما وفروا فلن يكون باستطاعتهم الحصول على شيء يدفئهم . فكل الملابس التي يمكنهم

شراؤها من المخازن انما هي مصنوعة من القطن والصوف الرديء ،
ملابس تصنع بتمزيق الثياب القديمة ارباً ارباً ومن ثم تنسج نحيوطها
مرة ثانية وإذا دفعوا أسعاراً أعلى فانهم قد يحصلون على ملابس مزخرفة
وغريبة الشكل انما رديئة النوعية ذلك أن من الصعب عليهم الحصول
على النوعية الجيدة من الملابس لا مقابل الحب ولا مقابل النقود .
أحد أصدقاء تزيديلاس وكان قد وصل قبل فترة وجيزة من الخارج ،
أصبح موظفاً في أحد المخازن في شارع آشلاند ، روى بكثير من المرح
خدعة لعبها رئيسه على ريفي ساذج كان يرغب بشراء ساعة منه .
فعرض عليه الرئيس ساعتين متشابهتين تماماً قائلاً له أن سعر الأولى
دولار وسعر الثانية دولار وخمسة وسبعون سنتاً . وحين سأله الريفي
عن الفارق بينهما . قام الرجل بلف نابض أولاهما نصف لفة والثانية
لفة كاملة ثم بيّن للزبون كيف أن الثانية تعطي صوتاً ضعف الأولى .
الأمر الذي جعل الزبون يقول أن نومه ثقيل وأن من الأفضل له أن
يشترى الساعة الأعلى .

ثمّة شاعر يقول :

تشتد أحاسيسهم عمقاً وهيئتهم نبلاً ،

من يحرقون شبابهم في نيران العذاب .

لكن من غير المحتمل أن يكون هذا الشاعر قد قصد ذلك النوع
من العذاب الذي يرافق العوز والاملاق ، ذاك الذي يكون مرأً وقاسياً

بشكل لا حدود له . مرعباً فظيماً ، بشعاً ، مذلاً — لا يخفف من وطأته أثر من رفعة أو حتى شفقة . انه ذلك النوع من العذاب الذي لا يتعامل معه الشعراء عمومأ ، الكلمات التي تعبر عنه لا تدخل أبداً قاموس الشعراء — والتفاصيل المتعلقة به لا يمكن التكلم عنها في المجتمع الراقي على الإطلاق . كيف . مثلاً ، يمكن للمرء أن يتوقع إثارة التعاطف لدى عشاق الأدب الجيد باخبارهم كيف تجد عائلة من العائلات منزلها مائتاً بالهوام ، أو التحدث إليهم عن كل العذاب والضيق والمذلة التي وجدوا أنفسهم عرضة لها ، وعن تلك الأموال التي شقوا كل الشقاء للحصول عليها ثم انفقوها وهم يحاولون التخلص من هذه الهوام ؟ فبعد أخذ ورد طويلين دفعت العائلة خمسة وعشرين سنتاً ثمن علبة كبيرة من مسحوق قاتل للحشرات — وهو مستحضر فعال . كما قالوا لهم ، خمسة وتسعون بالمائة منه يتكون من الجص . وهو نوع من التربة غير الضارة يكلف تحضيره حوالي سنتين . بالطبع لم يكن لهذا المستحضر أية فعالية ، اللهم إذا ما استثنينا بعض الصراصير التي كان سوء حظها يقودها إلى أن تشرب ماء بعد التهامه ، مما يحول المسحوق إلى كتلة من العجينة اللاصقة في أحشائها . ولم يكن باستطاعة العائلة ، هي التي لا تملك أية فكرة عن هذه الشؤون وليس لديها الكثير من النقود لانفاقها هنا وهناك ، أن تفعل شيئاً سوى الاستسلام لنوع آخر من أنواع البؤس بقية أيامها .

بعدئذ جاءت مشكلة انتاناس العجوز . فقد جاء الشتاء والمكان الذي يعمل فيه قبو رطب معتم ، يمكن لعينيك أن تريا فيه أنفاسك طوال النهار وتكاد أصابعك أن تتجمد أحياناً . وهكذا بدأ سعال العجوز يشتد إلى أن جاء يوم لم يعد يتوقف البتة ، وغدا مصدر ازعاج لكل من في المكان . بعد ذاك حدث شيء آخر أكثر فظاعة حتى ، فحيث يعمل كانت قدماء تشيلان بالمواد الكيماوية ، ولم يمر وقت طويل حتى برزتا من حذائه المهترىء ثم بدأت القروح تظهر في قدميه وتزداد سوءاً يوماً بعد يوم . ما إذا كان دمه قد فسد أو أن هنالك جرحاً ، أمر لم يستطع التأكد منه البتة لكنه سأل زملاءه فعلم أن الأمر عادي — انها نترات الصوديوم أو البوتاسيوم . فكل من يلمسها يصاب بمثل هذا التقرح ان عاجلاً أو آجلاً ومن ثم ينتهي أمره ، على الأقل بالنسبة لذلك النوع من الأعمال . فالقروح قد لا تشفى — وفي النهاية تتساقط أصابع قدميه ان لم يترك . مع ذلك لم يكن انتاناس العجوز ليترك ، كان يرى عذابات عائلته ولم يكن قد نسي بعد ، ما كلفه حصوله على هذا العمل من مشقة وجهد . وهكذا شد رباطاً على قدميه ومضى يعمل وهو يعرج ويسعل ، إلى أن تحطم ارباً ، مرة واحدة وإلى الأبد سقط متكوماً وكأنه عربة صغيرة ذات حصان واحد . حمله زملاؤه إلى مكان جاف وكوموه على الأرض ، وفي ذلك المساء ساعده اثنان منهم فأوصلوه إلى منزله . وضع العجوز المسكين في فراشه ولم يستطع ، رغم محاولاته المتكررة كل يوم ، أن ينهض أبداً . كان يستلقي هناك يسعل ليل نهار ، ذائباً

يوماً بعد يوم حتى لم يعد أكثر من هيكل عظمي . بل لقد جاء وقت بدأت العظام تتحرك عبر ذلك اللحم الهزيل الذي تبقى وكان أمراً فظيماً أن ترى ذلك أو تفكر به حتى . ذات ليلة جاءت نوبة معال سخافة ، ثم انبثق من فمه جدول من الدم . فأرسلت العائلة وقد جنت هلعاً ، خلف طبيب ثم دفعت له دولاراً لكي يقول أن لافائدة من العجوز أبداً . ورحمة بالعجوز لم يقل الطبيب هذا على مسمعه إذ كان ما يزال مؤمناً بأنه سيتمحسن غداً أو بعد غد وأنه سيعود إلى عمله . . فالشرطة أرسلت تقول أنها ستحتفظ له بمكانه أو أن جرجس هو الذي رشا أحد العمال كي يأتي في عصر يوم أحد ويقول له ذلك . وظل انتاناس على إيمانه ، رغم أنه أصيب بثلاث حالات نزيف أخرى ثم وجدوه ذات صباح متصلباً بارداً . لم تكن أمورهم على ما يرام حينذاك ، وقد اضطروا للتغاضي عن معظم مراسم الجنازة تقريباً واكتفوا بعربة موتى وعربة أجرة للنساء والأطفال . فقد قضى جرجس ، الذي تعلم الأشياء بسرعة ، يوم الأحد كله وهو يساوم على هذه الأشياء ثم عقد الصفقة بحضور شهود حتى إذا حاول الرجل تحميله نفقات ثانوية أخرى لم يضطر للدفع . طوال خمسة وعشرين عاماً كان العجوز انتاناس وابنه يقيمان في الغابة معاً ، وكان من الصعب أن ينفصلا بهذه الطريقة لكن ربما كان من حسن حظ جرجس أنه اضطر لإبلاء اهتمامه كله لاقامة الجنازة دون أن يصاب بالافلاس ، وبذلك لم يجد وقتاً للغرق في الذكريات والأحزان .

الآن ، حط الشتاء المخيف عليهم . في الغابات وطوال الصيف ، كانت أغصان الأشجار توفر لهم الضوء إذ كان بعضها يضعفُ ويتكسر ، ثم تأتي الرياح الهائجة وعواصف الثلج والبرد فتغطي الأرض بتلك الأغصان الضعيفة . هكذا كان الأمر تماماً في باكنجتاون . كانت المنطقة كلها تعد نفسها للكفاح وكان الكفاح هنا عذاباً حقيقياً ، كذلك كان هناك آخرون يعدون أنفسهم . إنهم أولئك الذين حان حينهم والذين سيقضون نحبهم جماعات جماعات . فعلى مدار السنة كانوا يعملون كأجزاء من آلة التعليب الهائلة والآن آن الأوان لتجديد هذه الآلة واستبدال أجزائها التالفة . فهنا تأتي ذات الجنب والنزلة والصدفية أمراض كثيرة أخرى تتجول بينهم باحثثة عن البنى الضعيفة ، وهناك الحصاد السنوي للسِّل ، ذاك الذي يحصد بمنجله أولئك الذين وهنت أجسامهم وهزلت ، كما تأتي الرياح القارسة اللاذعة ، وعواصف الثلج لتختبر بغير رحمة العضلات العاجزة والدم الفقير . ثم عاجلاً أو آجلاً يأتي اليوم الذي يتغيب فيه المصاب عن العمل ، حينذاك وبغير اضاعة وقت وبغير سؤال أو ندامة يشطبون اسمه ليأتوا يعامل جديد .

والعمال الجدد بالآلاف هنا . فطوال النهار ، ترى أبواب دور التعليب محاصرة بالناس المعدمين والمهددين بالموت جوعاً . والحقيقة أنهم يأتون بالآلاف كل صباح ويعارك بعضهم بعضاً كي تتاح لواحد منهم

فرصة يكسب فيها عيشه . كانوا يأتون تحت المطر والثلج ، لا فرق أبداً ، ليكونوا في متناول اليد دائماً ، وكنت تجدهم في متناول اليد قبل شروق الشمس بساعتين ، وقبل ابتداء العمل بساعة . أحياناً كانت وجوههم تتجمد ، وأحياناً أقدامهم وأيديهم وأحياناً أخرى تتجمد كل أجسامهم لكنهم يظلون . فليس تمة مكان يذهبون إليه . ذات يوم أعلن دورهام في إحدى الصحف عن حاجته لمائتي رجل كي يقطعوا الجليد . وطوال ذلك اليوم ظل جائع ومشرذو المدينة يخوضون في الثلج وقد ثوافدوا من كافة أنحاء المدينة أي من مساحة لا تقل عن مائتي ميل مربع . وفي تلك الليلة احتشد ما يزيد على ثمانمائة منهم في الدار المركزية لمنطقة الزرائب — كانت الغرف تعج بهم وكان بعضهم ينام في حجور البعض الآخر وفق طراز المزلقة ، كما كان بعضهم يتكوم فوق بعض في الممرات الى ان انغقلت أبواب المكان وبقي البعض في الخارج عرضة للتجمد . في اليوم التالي وقبل طلوع الشمس ، كان هناك ثلاثة آلاف رجل عند منشأة دورهام مما اضطرت معه كل قوى الشرطة واحتياطها لأن تتدخل لتفريق الشعب. عند ذلك اختار رؤساء عمال دورهام عشرين رجلاً من أضخم الرجال ، وتبين أن « المائتين » كُتبت في الصحيفة نتيجة خطأ مطبعي .

على بعد أربعة أو خمسة أميال إلى الشرق كانت تقع البحيرة وعلى هذه البحيرة كانت الرياح القارسة تهيج . كانت درجة الحرارة تنخفض في بعض الليالي إلى عشر أو عشرين درجة تحت الصفر وكنت ترى

الشوارع في الصباح وقد تكدست عليها طبقات الثلج حتى بلغت نوافذ الطابق الأول . لم تكن الشوارع التي ينبغي على أصحابنا المرور عبرها غير مرصوفة وحسب بل ملأى بالحفر العميقة والأنحاديث ، وكان على المرء حين يهطل المطر الصيفي الغزير أن يخوض حتى يخرجه في الماء قبل بلوغ منزله ، والآن وقد جاء الشتاء ، فلم يعد مزاحاً أن تعبر هذه المواضع قبل شروق الشمس وبعد حلول الظلام . كان القوم يلقون أنفسهم بكل ما يملكون من ثياب إنما لم يكن باستطاعتهم أن يلقوا أنفسهم ضد الاجهاد والارهاق ، فكثيراً ما كان المرء يستسلم في معاركه هذه مع طبقات الثلج المكسدة ليلقي بنفسه أرضاً ويستغرق في النوم .

وإذا كان الأمر بهذا السوء بالنسبة للرجال ، فكيف تراه بالنسبة للنساء والأولاد الذين يتعين عليهم الالتحاق بأعمالهم ؟ بعضهم كان يركب العربات إذا كانت العربات تسير ، لكن حين لا يكون أجرة واحد منهم أكثر من خمسة سنتات في الساعة ، كما هو شأن ستانيسلوفاس الصغير ، فلن يجد في نفسه كثيراً من الميل لتبديد مثل هذا المبلغ الصغير على عربات تنقله ميلين . لذا كان الأولاد يأتون إلى المسالخ . وقد ألفوا آذانهم بشالات كبيرة وحزموا أنفسهم إلى درجة يصعب عليك معها أن ترى شيئاً منهم - ورغم ذلك ظلت هناك حوادث .

في صباح لاذع القرس من أيام شباط وصل الغلام الذي يعمل مع ستانيسلوفاس الصغير على آلة تعبئة شحم الخنزير ، إلى عمله بعد تأخر

ساعة و كان يصرخ من شدة الألم . فكوا أحرزته في الحال ، وبدأ أحد الرجال يدعك اذنيه بشدة ، وبما أنها كانتا متجمدتين تماماً ، فلم يقم إلا بدعكتين أو ثلاث حتى سقطت اذنا الغلام عن رأسه . ونتيجة لهذا فقد تملك ستانيسلوفاس الصغير رعب هائل من البرد كاد يبلغ حد الهوس . ففي كل صباح عندما يحين موعد الانطلاق إلى الزرائب ، كان يبدأ الصراخ والاحتجاج . ولم يكن أحد يعلم كيف يتدبر الأمر معه ، فالتهديد لا يجدي نفعا ، - وكان واضحاً أن خوفه أكبر من أن يستطيع السيطرة عليه ، حتى أنهم باتوا يخشون أن يصاب بالتشنج . أخيراً اضطروا لترتيب الأمر بأن يذهب دائماً مع جرجس وأن يعود معه أيضاً وحين تكون طبقات الثلج عميقة على الأرض ، غالباً ما كان الرجل يحمل الصبي على كتفيه طوال الطريق لكن جرجس كان يعمل أحياناً حتى وقت متأخر من الليل ، وحينذاك يغدو الأمر مثيراً للشفقة ، إذ ليس هناك مكان يمكن للغلام أن ينتظر فيه ، ما عدا مدخل الأبواب أو زاوية من زوايا أحواض الذبح وكثيراً ما كان يوشك ، حيث ينتظر ، على السقوط نعاساً والتجمد برداً حتى الموت .

لم يكن ثمة تدفئة في أحواض الذبح ، وكان الرجال يعملون طوال الشتاء هناك وكأنهم يعملون في العراء تماماً . والحقيقة ، لم تكن هناك تدفئة في أي مكان من المبنى ما عدا غرف الطهو وما شابه - الرجال الذين يعملون في هذه الأماكن هم الذين يتعرضون لأشد المخاطر ، ذلك لأنهم حينما يذهبون يتعين عليهم أن يجتازوا ممرات باردة كالثلج

لا يستر أجسامهم أحياناً إلا قميص داخلي بغير أكمام . في أحواض
الذبح ، كان من المحتمل دائماً أن تغطي بالدم وكان الدم يتجمد بضعاً
بضعاً عليك ، وهكذا إذا استندت إلى عمود تجد نفسك قد التصقت به .
وإذا وضعت يدك على نصل سكينك ، فقد تعرض نفسك لخطر ابقاء
جلدك عليه . كان الرجال يحزمون أقدامهم بأوراق الجرائد والأكيس
العتيقة ، فتتبلل هذه بالدم وتتجمد ، ثم تتبلل ثانية وهكذا دواليك ،
حتى لا يجيء الليل إلا وقد بات الرجل منهم يسير على كتلتين ضخمتين
لا تقل حجم واحدتهما عن قدم الفيل . وبين الفينة والفينة ، حين يغفل
رؤساء العمال ، كنت ترى العمال يدفعون بأقدامهم وكواحلهم في
جثة الثور الحارة المتصاعد منها البخار أو يمرقون كالسهم عبر الغرفة
إلى نوافير الماء الحار . على أن أفظع ما في الأمر هو أنهم جميعاً أقصد
جميع أولئك الذين يستخدمون السكاكين — لا يستطيعون ارتداء قفازات ،
لذا تغدو سواعدهم بيضاء من الصقيع وتصاب أيديهم بالخدر التام ،
الأمر الذي ينجم عنه الكثير من الحوادث . كذلك ، قد يكون الهواء
مشبعاً بالبخار ، بخار الدم الحار والماء الحار ، حتى لا يعود بوسعك
أن ترى أبعد من خمسة أقدام ، لذا تعد عجيبة من عجائب الزمان ،
والعمال يندفعون بسرعة هنا وهناك والجزارون يحملون في أيديهم
سكاكين أحد من شفرات الحلاقة ، ألا يذبح من الرجال أكثر مما
يذبح من الماشية .

رغم كل هذه الازعاجات فقد كان بإمكان هؤلاء العمال التكيف لو توفر لهم شيء واحد — مكان يتناولون فيه طعامهم . فقد كان على جرجس اما أن يأكل وسط القلدارة والرائحة العفنة التي كان يعمل فيها ، أو أن يسرع كما كان يفعل زملاؤه جميعاً ، إلى واحد من مخازن الشراب الكثيرة التي كانت تمتد له أفرعها . فالى الغرب من الزرائب كان يمتد شارع اسلاند وكان هناك صف متصل من الحانات « صف الويسكي » كانوا يسمونه ، وإلى الشمال كان الشارع رقم ٤٧ ، حيث توجد نصف دسنة من المحلات في كل كتلة بنائية وعند ملتقى الشارعين كانت هناك « نقطة الويسكي » خلاء بمساحة خمسة عشر أو عشرين أكرا (١) يحوي مصنعاً للغراء وحوالي مائتي حانة .

بين هذه الحانات قد يسير المرء إلى أن يقع اختياره على واحدة منها « حساء بازلاء حار وملفوف مسلوقة هذا اليوم » ، « كراوت وفرانكفورت » (٢) ، ادخل « حساء فاصولياء ولحم خروف مسلوقة أهلاً بك » . وكانت هذه الأشياء كلها مكتوبة بلغات كثيرة كما هي الحال بالنسبة لأسماء الأماكن التي يمكن للمرء أن يلجأ إليها ليريح نفسه . وكانت غير محدودة في تنوعها وطرق اغراءاتها . فهناك « الحلقة

(١) الاكر : وحدة مساحة انكليزية تساوي ٤٠٠٠ م^٢ .

(٢) الفرانكفورت : نقائق خاصة تشتهر بها فرانكفورت .

المنزلية » و « ركن كوزي » وهناك « الجوانب النارية » و « أحجار
الموقد » و « قصور المتعة » و « أرض العجائب » و « قصور الأحلام »
و « لذائذ الحب » . وأياً كان اسمها ، فمن المؤكد أنها كانت تدعى
« مركز الاتحاد » وكانت تمتد يدها مرحة بالعمال ، إذ يوجد دائماً
موقد دافئ ، بجانبه كرسي وبعض الأصدقاء الذين يجادلونك
ويضايقونك . الشرط الوحيد الذي ينبغي عليك تنفيذه هو أن تتعاطى
المسبكرات فإذا دخلت إلى مكان كهذا وليس في نيتك الشراب ستجد
نفسك وقد ألقى بك خارجاً لا محالة ، وإن لم تخرج بهلوه وسلام ستجد
رأسك وقد انشق بزجاجة بيرة على الحساب . غير أن كل الرجال كانوا
يعلمون التقاليد هنا ويتبعونها . كانوا يعتقدون أنهم بذلك يحصلون
على شيء مقابل لا شيء — إذ لم يكونوا مضطرين لتناول أكثر من كأس
واحدة وبفعل قوتها يمكنهم أن يملؤوا بطونهم بوجبة غداء حارة شهية .
لكن هذا لم يكن يتحقق دائماً على أرض الواقع ، إذ يحدث أحياناً أن
تلتقي بصديق يستضيفك وفي المرة القادمة تضطر لاستضافته . ثم قد
يأتي شخص آخر — وعلى أي حال ، فإن بضع كؤوس لا تضير شخصاً
يعمل عملاً شاقاً . فحين يرجع إلى العمل لا يجد نفسه مرتجفاً من قمة
رأسه حتى أخمص قدميه ، بل سيجد لديه الكثير من الشجاعة لمواجهة
مأهليه من واجبات كما أن روتينية عمله القاتلة لن تؤثر عليه كثيراً —
ولسوف تتوارد على ذهنه أفكار وتغدو نظراته للأحوال والظروف
أكثر بهجة . لكن في طريقه إلى المنزل قد يعاوده الارتعاش ثانية ، ولذلك

يُضطر للتوقف مرة أو مرتين عسى أن يتزود بما يدفع عنه غائلة البرد .
وبما أنه يوجد في هذه الصالونات الكثير من الأشياء الحارة التي يمكنه
أن يأكلها فقد يصل إلى المنزل متأخراً عن عشاءه أو قد لا يصل إلى المنزل
البتة . حينذاك قد تشرع زوجته في البحث عنه وقد تشعر أيضاً بالبرد ،
وربما يكون بصحبته بعض الأطفال - وهكذا قد تندفع العائلة كلها
لاحضيان الشراب ، كما يتدفق تيار النهر نحو المصب . ولكي تكتمل
الدائرة ، فقد كان أصحاب دور التعليب جميعاً يدفعون لعمالهم بواسطة
« شيكات » ، ويرفضون كل طلب بالدفع نقداً . وأين عساه يذهب
المرء في باكنجتاون لصرف شيكه ان لم يذهب إلى حانة ، حيث يمكنه
أن ينفق ، لكي يصرف الشيك ، جزءاً من النقود ؟

استطاع جرجس أن ينقذ نفسه من كل هذه الأشياء بسبب أونا .
إذ لم يكن يأخذ إلا كأساً واحدة عند الظهيرة ، وهكذا اشتهر بأنه
شخص فظ ولم يكن مرغوباً به في الحانات ، لذا كان مضطراً للتنقل
من حانة إلى أخرى . بعدئذ كان يذهب إلى المنزل ليلاً ، مساعداً أونا
وستاينسلوفاس ، أو مرسلأً أونا على الأغلب ، في عربة الترام وحين
يصل إلى المنزل ربما يتوجب عليه أن يقطع ، متثاقلاً الخطأ ، عدة كتل
بنائية كي يرجع مترنحاً عبر طبقات الثلج وهو يحمل كيساً من الفحم
على كتفه . فالمنزل ليس مكاناً شديداً الجاذبية - في هذا الشتاء على الأقل .
فميزانيتهم لم تسمح لهم بأن يشتروا سوى موقد واحد ، موقد صغير

ثبت بالتجربة أنه لا يكفي لتدفئة المصبخ وحده في حالات الجو الأشد قساً ، مما جعل الأمر في غاية الصعوبة بالنسبة لتيما الزيبيتا طوال النهار ، وبالنسبة للأطفال طوال تواجدهم في المنزل . أما في الليل فكانوا يجلسون متكومين على أنفسهم حول هذا الموقد وهم يتناولون عشاءهم . كل من حجره ، ثم يدخن كل من جرجس وجوناس غليونيه وبعد ذلك يزحفون إلى مضاجعهم ليحفظوا بشيء من الدفء بعد أن يطفئوا نار الموقد لتوفير الفحم . وكانت لهم تجارب مخيفة مع البرد . إذ كانوا ينامون بكامل ثيابهم ، بما في ذلك معاطفهم ، ويغطون أنفسهم بكل ما لديهم من أغطية وملابس احتياطية ، أما الأطفال فكانوا ينامون وقد تجمعوا كلهم في فراش واحد ورغم ذلك لم يكونوا يحظون بالدفء . فمن ينم في الأطراف يظل طوال الليل يرتعش برداً وغالباً ما يفيق لينشج بالبكاء ثم يزحف فوق الآخرين محاولاً الوصول إلى الوسط ، مثيراً معركة حامية الوطيس . فهذا المنزل العتيق بألواحهِ التي تتسرب منها برودة الجو يختلف كل الاختلاف عن حجيراتهم في الوطن ، بجدرانها السميكة الهائلة المكسوة بالحصص من الداخل ، وبالطين من الخارج . ان البرد الذي يصل إليهم هنا شيء حي يخيل إليك وأنت في حضرته أن ثمة شيطاناً في الغرفة . فهو قد يوقظهم في منتصف الليل حين يكون كل شيء معتماً ، وقد يسمعونه معولاً في الخارج ، أو قد يسود الكون صمت كصمت القبور . ويكون هذا أشد سوءاً . انهم يشعرون بالبرد وهو يزحف عبر الشقوق ماداً إليهم أصابعه المتجلدة القاتلة .

فينكمشون على أنفسهم ويرتعدون محاولين التملص منه والاختفاء ،
لكن عبثاً . فهو يتقدم ، ويتقدم ، وحشاً رهيباً مروعاً ، شيطاناً ولد في
كهوف الرعب المظلمة ، مخلوقاً قديراً هائلاً يحمل أشد العذابات لأرواح
قذفت بها القدر إلى مهاوي السديم والخراب . انه قاس ، صلب كالحديد ،
وهم يرتعدون في قبضته الساعة تلو الساعة وليس لهم من معين . فما من
أحد يسمع صراخهم ان صرخوا وليس هناك من مساعدة أو رحمة .
هكذا يظلون إلى أن يأتي الصباح حينها يخرجون ليقضوا يوماً آخر في الكد
والعناء ، وهم أضعف أجساماً وأقرب قليلاً إلى الساعة التي سيحين فيها
دورهم للتساقط كما تتساقط أوراق الأشجار .

لكن رغم هذا الشتاء القارس ، كانت بذور الأمل تثبت في قلوبهم .
ففي هذا الوقت بالذات حدثت المغامرة الكبرى لماريا .

والضحية تاموزيوس كوترلايكا ، عازف الكمان كان
الجميع يضحكون منهما فتاموزيوس ضئيل « Petit » هش الجسم
وماريا قوية البنية مفتولة العضلات بوسعها أن تحمله بيد واحدة . لكن
ربما كان هذا هو السبب في افتتانها به . فطاقات ماريا الصرفة طاغية تماماً .
كانت ليلة العرس تلك هي المرة الأولى التي يراها تاموزيوس فيها ،
ويومها أشاح ببصره عنها ، لكن فيما بعد حين وجد أن قلبها قلب
طفل صغير ، لم يعد صوتها وعنفها يخيفانه ، بل بدأ يكتسب عادة
زيارتها أيام الآحاد . ولم يكن ثمة مكان تقضي فيه الجماعة وقتها إلا المطبخ .

وهكذا كان تاموزيوس يجلس بين أفراد العائلة وقبعته بين ركبته لا يتلفظ بأكثر من خمس كلمات معاً ، ويحمر وجهه قبل أن يستطيع التلفظ بتلك الكلمات . فيضطر جرجس أخيراً لأن يلممه على ظهره . بطريقة الودية هاتفاً « هلم الآن . فاعزف لنا لحناً » حينذاك يشرق وجه تاموزيوس ويخرج كما أنه ثم يشبه تحت ذقنه ويعزف . بعد ذلك نتوهج روحه ويغرد فصيح اللسان .- انما على نحو غير لائق . فنظراته تظل طوال الوقت مركزة على وجه ماريا إلى أن تبدأ بالاحمرار خجلاً وتخفض عينيها . لكن موسيقاه ساحرة لا تقاوم . فحتى الأطفال تراهم يجلسون مذهولين مندهشين والدهوع تنحدر على وجنتي تيتا الزبيتا . ولأنه لامتياز رائع أن يتسنى لك الدخول هكذا إلى شغاف قلب رجل عبقري ، وأن تتاح لك مشاركته نشوة وعذابات حياته الصميمية .

كذلك كانت هناك منافع أخرى عادت على ماريا من هذه الصداقة .- منافع ذات طبيعة جوهرية أكثر . فالناس يدفعون لتاموزيوس أموالاً كثيرة كي يجيء ويعزف لهم موسيقى في مناسباتهم ، كما أنهم يدعونه إلى الحفلات والمهرجانات وهم على يقين من أنه لن يجيء بغير كمانه . وأنه حين يجيء ، سيضطر لأن يعزف ألحاناً يرقص عليها الناس . وما إن تجرأ مرة على دعوة ماريا لمصاحبته إلى حفلة كهذه حتى وافقت . فأبهجه ذلك كل البهجة وبعدها لم يقصد مكاناً واحداً بدونها . أما إذا كان أصحاب الحفل من أصدقائه فقد كان يدعو بقية العائلة أيضاً .

وفي كل الحالات ، كانت ماريا تعود وجيوبها مملأى حتى الحافة بالكعك والسندويش للأطفال ، وبقصص من كل الأنواع لها ، تتزود بها طوال الأسبوع . لقد كانت تضطر في هذه الحفلات ، لقضاء معظم وقتها على طاولة المرطبات ، إذ لم يكن باستطاعتها أن تراقص أحداً سوى النساء الأخريات والرجال الطاعنين في السن ، فتاموزيوس ذو مزاج حاد سريع التهيج ، شديد الغيرة ، وأي امرئ عازب يغامر بوضع يده حول خصر ماريا اللدن ، سيغامر ، بالتأكيد ، بأن تتوقف الجوقة الموسيقية عن العزف .

وانه ليعون عظيم للإنسان الذي يكده طوال أيام الأسبوع ، أن يكون في استطاعته التطلع إلى شيء من مثل هذه الراحة في ليالي الآحاد . فقد كانت العائلة تعيش فقراً مدقعاً وتعمل أعمالاً شاقة إلى حد لم يكن باستطاعتها أن تقيم صداقات وتكسب معارف ، فالقاعدة في باكنجتاون هي أن الناس لا يعرفون إلا جيرانهم وزملاءهم في الشراء من الحوانيت ، وهكذا فقد كان المكان أشبه بعدد ضخم من قرى ريفية صغيرة . لكن الآن بات يسمح لأحد أفراد العائلة بالتنقل وتوسيع أفقه ، وهكذا غدا هناك في كل أسبوع أشخاص جدد يمكن التحدث عنهم -- كيف يلبسون ، أين يعملون كم يكسبون ، من هي حبيبته أو حبيبها ، كيف نبذ هذا الرجل فتاته ، كيف تشاجرت هذه مع تلك ، ما جرى بينهما ، وكيف ضرب ذلك الرجل زوجته وانفق كل ما تكسبه على الشراب

ورهن حتى ملابسها . بعض الناس يكرهون هذا الكلام ويعتبرونه نقل اشاعات وأقاويل ، لكن على المرء أن يتكلم عما يعرفه .

ذات ليلة من ليالي الآحاد ، وخين كانا عائدتين إلى المنزل من أحد الأعراس ، في تلك الليلة وجد تاموزيوس في نفسه شجاعة جعلته يضع علبة كمانه على أرض الشارع ويفتح قلبه لماريا ، وعندئذ ضمته ماريا بين ذراعيها . وفي اليوم التالي حكمت لهم عن كل شيء ، بل بكت من فرط سعادتها وقالت ان تاموزيوس رجل رائع يحبه القلب . بعد ذلك لم يعد يعبر عن حبه لها بكمانه . بل راحا يجلسان ساعات طويلة في المطبخ يضم واحدتهما الآخر بسعادة بالغة ، وكان من تقاليد العائلة السرية ألا يحاول أحد منها أن يعرف ما يجري في تلك الزاوية .

كانت نخطتهما أن يتزوجا في الربيع ، أن يرتبا وضع علبة المنزل ويعيشا هناك . كان تاموزيوس يكسب أجوراً حسنة ، وشيئاً فشيئاً كانت العائلة تسدد لماريا دينها ، لذا كانت ستملك في وقت قريب ما يكفي لأن تبدأ حياتها به . - انما لطيفة قلبها العجيبة كانت تصر على اتفاق قلدر لا بأس به من مالها على أشياء ترى أنها بحاجة إليها . كانت ماريا هي رأس مالية العائلة حقاً ، فقد غدت خيرة في طلاء العلب - وهي تكسب أربعة عشر سنتاً مقابل طلاء مائة وعشر علب ، وكان باستطاعتها أن تطلي أكثر من علبتين في كل دقيقة . كانت ماريا تشعر ، بالحقيقة ، أنها تضع يدها على المختق وأن الحي يضج بالكلام عن مباهجها وأفراحها.

ورغم أن أصدقاءها كانوا يهزون رؤوسهم ويطلبون إليها أن تخفف من غلوأها قليلاً . فقد كانت تشعر أن المرء لا يمكنه أن يلقي أرضاً بحظ حسن كهذا أبداً . فهناك حوادث طارئة دائماً . لكن ماريا لم تكن من تمكن السيطرة عليهم . فمضت تخطط وتحلم بكل الكنوز التي ستتوفر لها في منزلها ، وهكذا حين جاءت الضربة كان حزنها أعظم من أن يتصوره المرء .

لقد انهار معملها . معمل التعليب . وكادت ماريا ترى الشمس نفيها تنهار . فالمؤسسة الضخمة لا تقبل في نظرها مكانة عن الكواكب والقصور . لكنه انهار الآن ! ودون أن يقدموا لها تفسيراً ، بل دون أن ينذروها قبل يوم واحد . كل ما فعلوه أنهم ذات أحد الصقوا ملاحظة مفادها أنهم سيدفعون لكل العاملين في المعمل في ذلك العصر وإن يستأنف العمل قبل شهر على الأقل وكان هذا كل شيء . لقد خسرت عملها .

انتهت العطلة بكل ما فيها من فورة وازدحام . وبدأت ماريا تتساءل وتجيّبها الفتيات ، بعدئذ حل ركود كامل . البعض قال أن المصنع سيعاود العمل بنصف دوام ، إنما لم يؤكد هذا القول أحد . والبعض قال أنه سيظل مغلقاً حتى الصيف . كانت كل التوقعات سيئة في الوقت الحاضر وقد قال عمال الشحن الذين كانوا يعملون في المستودعات بأن هذه المستودعات ملأى بالعلب حتى السقف ، لذا لاتجد المؤسسة فراغاً لانتاج اسبوع آخر من العلب ، وقد استغنت عن

ثلاثة أرباع هؤلاء الرجال ، وهي علامة أشد سوءاً ، مذ عرفت أنه ليس هنالك طلبات لتليتها . كلها العوبة ، طلي العلب ، هكذا قالت الفتيات – إذ أنك تجن سروراً حين تكسب اثني عشر أو أربعة عشر دولاراً كل اسبوع وتوفر نصفها ، انما عليك أن تنفق كل ما تكسبه كي تبقى حياً وأنت خارج العمل ، مما يعني أن أجرك ، بالحقيقة ، هو نصف ما تظن .

عادت ماريا إلى المنزل ، ونظراً لعدم قدرتها على الركون للراحة دون أن يهددها الخطر بالانفجار – فقد قامت مع قريبتها بإجراء تنظيفة كبيرة للمنزل ثم انطلقت كي تبحث في باكنجتاون عن عمل تسد به الثغرة . لكن بما أن كل مؤسسات طلي العلب كانت قد أغلقت أبوابها ، وكل الفتيات يبحثن عن عمل ، فإن من السهل علينا أن نفهم كيف اخفقت ماريا في الحصول على عمل . بعدئذ توجهت نحو المخازن والحانات مجربة حظها وحين اخفقت أيضاً ، قصدت مناطق بعيدة مناطق قرب حدود البحيرة حيث كان يعيش الأغنياء في قصورهم الفخمة ، وحيث رجّتهم أن يسندوا لها أي عمل يمكن أن يؤديه شخص لايعرف الانكليزية .

حتى العاملون في أحواض الذبح شعروا بآثار الكساد الذي حرم ماريا من عملها لكنهم شعروا به بطريقة مغايرة : طريقة جعلت جرجس يدرك أخيراً كل مافيه من مرارة . فأصحاب دور التعليب لم يستغنوا

عن عمالهم وم يغلقوا منشآتهم ، كما فعلت معامل العلب ، بل بدؤوا ينقصون ساعات العمل شيئاً فشيئاً ، كانوا دائماً يطالبون إلى العمال أن يتواجدوا في أحواض الذبح في الساعة السابعة ، رغم علمهم بأنه لن يكون هناك ما يفعلونه قبل أن يخرج الشارون إلى العمل في الزرائب وقبل أن يرسلوا بعض المواشي إلى المساقط ، أي في حوالي العاشرة أو الحادية عشرة ، وهو أمر في غاية السوء ، بكل معنى من المعاني . لكن الآن وفي موسم الركود ، ربما لم يكونوا يرسلون شيئاً لعمالهم حتى وقت متأخر من العصر ، لذا كانوا يضطرون للتسكع هنا وهناك حيث درجة الحرارة عشرون تحت الصفر ! في البداية قد يراهم المرء وهم يركضون أو يمازح بعضهم بعضاً محاولين تدفئة أنفسهم ، انما لا ينقضي النهار إلا وقد تجمدوا من البرد تماماً واستنفدت قواهم . وحين تأتي الماشية أخيراً ، كانوا يجلدون أن أية حركة يقومون بها نوع من العذاب بعدئذ ، وعلى نحو مفاجيء ، يحتل المكان حيوية ونشاطاً ، ويبدأ « التسريع » الذي لا يرحم .

في هذه الفترة الزمنية مرت أسابيع على جرجس كان يعود فيها إلى المنزل كل يوم دون أن يكون قد عمل أكثر من ساعتين - أي بأجر قدره خمسة وثلاثون سنتاً . كما مرت أيام كثيرة هبط العمل فيها إلى أقل من نصف ساعة وأيام أخرى بدون عمل على الإطلاق . كان المتوسط العام هو ست ساعات يومياً ، أي حوالي ستة دولارات اسبوعياً

لخرجس ، وهذه الساعات الست لا يحصل عليها إلا بعد الوقوف في حوض الذبح حتى الساعة الواحدة أو ربما حتى الثالثة أو الرابعة . وبما أن الدفعة الكبيرة من المواشي قد لا تأتي إلا في آخر النهار ، فقد كان على العاملين أن يتدبروا أمرها قبل العودة إلى منازلهم أي أن يعملوا على ضوء الكهرباء حتى التاسعة أو العاشرة وربما حتى الثانية عشرة أو الواحدة وبدون لحظة استراحة يتناول العامل فيها لقمة من طعام . كان العمال تحت رحمة الماشية . ولعل الشارين كانوا يؤجلون عمليات الشراء بانتظار أسعار أفضل . ذلك أنهم إذا ما استطاعوا إيهام البائعين بأنهم لن يشتروا شيئاً هذا اليوم ، مثلاً ، فقد يستطيعون فرض الشروط التي تناسبهم . فليسبب من الأسباب كانت تكلفة علف الماشية في الزرائب أعلى بكثير من سعر السوق — وليس مسموحاً لك أن تأتي بعلف المواشيك من الخارج ! كذلك يحتمل أيضاً أن يصل عدد من شاحنات المواشي في وقت متأخر من النهار ، سيما وأن الثلج يقطع الطرق فيشتري أصحاب دور التعليب ماشيتهم في الليل كي يحصلوا عليها بسعر أرخص ومن ثم يطبقون قاعدتهم الصارمة كالحديد ، وهي أنه ينبغي ذبح كل الماشية في ذات اليوم الذي يتم به شراؤها ولم يكن ثمة فائدة من الاحتجاج أو الاعتراض في هذا الصدد — فقد ذهب الوفد تلو الوفد لرؤية أرباب العمل انما دون جدوى ، فهذه قاعدة ، ولا مجال أبداً لتغيير القاعدة . وهكذا اضطر جرجس في ليلة عيد الميلاد لأن يعمل حتى الساعة الواحدة صباحاً وأن يعود إلى أحواض الذبح في الساعة صباحاً .

هذا كله كان مبيئاً انما لم يكن الأسوأ . فبعد كل مايقوم به العامل من عمل شاق لم يكن يتلقى إلا أجر جزء منه ، ليس إلا . في الماضي كان جرجس بين أولئك الذين هزئوا من فكرة الغش في هذه المصالح الضخمة . لذا بات باستطاعته الآن ان يقدر السخرية المريرة التي تتضمنها الحقيقة القائلة بأن حجمها هو وحده الذي أتاح لهم فرصة القيام بالغش دون أن تظالمهم يد القانون . احدى القواعد المتعلقة بالعمل في أحواض النبع هي أن العامل الذي يتأخر دقيقة واحدة يحسم منه أجر ساعة وهذه مسألة اقتصادية إذ كان عليه أن يعمل مقابل الساعة — ولايسمح له بالوقوف هنا وهناك والانتظار . من جهة أخرى ، إذا جاء قبل موعد العمل فانه لا يأخذ أجراً على ذلك — وإلا كان رؤساء العمال غالباً ما يبدؤون عمل الورشة قبل عشر أو خمس عشرة دقيقة من اطلاق الصافرة ، وهذه العادة ذاتها هي التي كانوا يتبعونها في نهاية العمل . فهم لا يدفعون عن أي كسر من كسور الساعة — انه « وقت مستقطع » فالمرء قد يعمل خمسين دقيقة بتمامها ، لكن إذا لم يبق عمل بحيث تكتمل الساعة لا يأخذ أجراً على الدقائق الخمسين هذه . وهكذا تكون نهاية النهار دائماً ضرباً من الحظ — صراعاً يكاد يتحول إلى حرب مكشوفة بين رؤساء العمال والعمال ، الأوائل يحاولون الاسراع بالعمل ، والآخرون يحاولون اطالة أمره . وقد وضع جرجس اللوم في هذا الأمر على « رؤساء العمال » ، رغم أن الخطأ ، للحقيقة والتاريخ ، ليس خطأهم دائماً . فأرباب العمل هم الذين يجعلونهم في حالة خوف دائم من فقدان مصدر رزقهم — ومحين

يكون المرء مهدداً بمحطرات التزول عن المستوى المطلوب . فهل هنالك أسهل من أن يجعل الورشة تعمل حيناً من الزمن « لوجه الله » ؟ هذه نكتة فظة كانت سائرة بين العمال . وكان جرجس بحاجة لمن يشرحها له وقد قام بذلك عامل عجوز يدعى جونز . كان بارعاً في تنفيذ المهمات الخاصة وما شابه ، وهكذا عندما كانوا يقومون بأي عمل زري قدر ، فقد كانوا يتغامزون ويقولون « الآن نعمل لوجه الله ! » .

أحدى النتائج التي نتجت عن هذه الأشياء كلها هي . أن جرجس لم يعد يصاب بالحيرة والذهول عندما يسمع العمال يتحدثون عن الكفاح من أجل حقوقهم . بل بات يشعر بالميل للكفاح هو نفسه ، لذا ، حين جاء مرة ثانية المندوب الايرلندي ، ممثل نقابة « مساعدي الجزارين » استقبله بروح مغايرة تماماً . فكرة رائعة بدت له الآن ، فكرة هؤلاء الرجال وهي أنهم باتحادهم قد يتمكنون من الوقوف في وجه أرباب العمل والتغلب عليهم ! وراح جرجس يتساءل : من تراه أول من فكر بهذه الفكرة ، وحين قيل له أنها منتشرة بين كل العمال في أمريكا ، أدرك لأول مرة مغزى « بلاد حرة » . شرح له المندوب كيف أن النقابة تعتمد على قدرتهم على تنسيب كل عامل لها كي يناصر المنظمة ، وعند ذلك أشار جرجس إلى أنه يرغب بأداء نصيبه . وقبل مرور شهر آخر . كان جميع العاملين من أفراد عائلته يحملون بطاقات نقابية ويضعون على بذلاتهم أزرارهم النقابية بكل فخر . لقد ظلوا اسبوعاً كاملاً في غاية السعادة والسرور ظانين أن الانتساب للنقابة يعني نهاية مشكلاتهم جميعاً .

لكن بعد عشرة أيام فقط من انتساب ماريا للنقابة ، أغلق معملها أبوابه وقد جعلتهم تلك الضربة يترنحون إذ لم يستطيعوا أن يفهموا أبداً لماذا لم تمنع النقابة ذلك ، وفي أول مرة حضرت فيها اجتماعاً ، هبت ماريا على قدميها وألقت خطاباً حول هذه المسألة . لقد كان اجتماع عمل وكانت لغته هي الانكليزية ، انما لم تبال ماريا بذلك كله . لقد قالت ما في نفسها ، دون أن تبالي بطرقات مطرقة الرئيس ولا بصراخ الحضور وضجيجهم . ففضلاً عن مشكلتها الخاصة ، كانت ماريا تغلي في داخلها احساساً منها بالظلم والغبن ولقد قالت ما في نفسها عن أصحاب دور التعليب وما تحملاه من أفكار عن عالم يسمح لأشياء كهذه بأن تحدث . بعدئذ ، وبينما كانت القاعة ما تزال تردد أصداء صوتها الجمهوري ، جلست مرة ثانية وفي يدها مروحة تطرد بها الحر عن نفسها ثم عادت مياه الاجتماع إلى مجاريها ومضى الرفاق لمناقشة انتخاب أمين سر لتدوين المحاضر .

جرجس أيضاً قام بمغامرة في المرة الأولى التي حضر فيها اجتماعاً نقابياً ، لكنها مغامرة فرضت عليه فرضاً ولم يسع إليها بنفسه . لقد ذهب جرجس إلى الاجتماع وكل ما يرغب به هو أن يقبع في إحدى الزوايا المعتمدة ويراقب ما يجري ، غير أن موقف الصمت هذا والانتباه بعينين مفتوحتين أفرده ليكون الضحية . فتومي فنيغان وهو يعمل على رافعة إيرلندي ضئيل الجسم ذو عينين كبيرتين جاحظتين ومظهر غريب ،

محطم تماماً . وقد مر تومي فنيغان في فترة ما من ماضيه البعيد بتجربة غريبة مازال يحمل عبثها على كاهله حتى اليوم . وكل ما فعله في حياته هو محاولته افهامها للناس . فحين يتكلم يمسك بضحيته من عروة قسيصه ليقرب بوجهه من وجه ضحيته أكثر وأكثر . لم يبال جرجس بذلك ، بل أصيب بشيء من الدعر وحسب . فالطريقة التي يعمل بها أصحاب الذكاء العالي هي الموضوع الذي راح تومي يتحدث عنه ، وقد رغب في أن يكتشف إذا كان جرجس قد فكر يوماً بأن تمثيل الأشياء حسب نقاط تشابهها الحالية يمكن أن يكون غامضاً كلية على مستوى أرفع . فهناك بالتأكيد سران عجيبان يتعلقان بتطور هذه الأشياء ، ثم مضى فنيغان ، وهو يهمس همساً ، كي يخبره عن بعض اكتشافاته الخاصة . « ان كان لك في يوم من الأيام شأن بالأرواح » قال تومي ، وهو يتطلع إلى جرجس متسائلاً ، ويهز رأسه باستمرار ، « فلا بأس ، لا بأس » ، تابع الرجل « إلا أن تأثيراتها قد تقع عليك ، وذلك مؤكداً كما أقول لك . فهي ذات علاقة بالمحيط المباشر الذي يملك معظم القوة . لقد قدر لي في شبائي أن أتعرف إلى الأرواح » هكذا استمر تومي يهذر ظاناً أنه يفسر نهجاً فلسفياً ، بينما كان العرق يتصبب من جبين جرجس ، والقلق والضيق يشتدان في صدره . في النهاية جاء أحد الرجال ، وقد رأى بلواه ، فأنقذه ، انما مر بعض الوقت قبل أن يتمكن من إيجاد واحد يشرح له الأمر ، وخلال ذلك كان أنحشى ما ينشاه هو أن يعود

الاييرلندي فيحشره في الزاوية مرة ثانية ، الأمر الذي شعر بأنه يكفي لجعله يفر من الغرفة في تلك الأمسية .

مع ذلك ، لم يغب جرجس عن اجتماع واحد من اجتماعات النقابة . إذ كان قد التقط بضع كلمات من الانكليزية حتى ذلك الحين ، وكان بعض الاصدقاء يساعدونه على الفهم . كانت الاجتماعات ، في الغالب اجتماعات تسودها الفوضى والاضطراب ، خمسة أو ستة من الحضور يتكلمون في آن معاً وبلهجات انكليزية كثيرة غير أن المتكلمين كانوا دائماً جادين كل الحدة ، وكان جرجس جاداً كل الحدة ايضاً، إذ أدرك أن الحركة على قدم وساق ، وأن هذه الحركة معركته . فمنذ انقشع الوهم عن عينيه ، أقسم جرجس ألا يثق بأنسان ماعدا أسرته ، إلا أنه اكتشف هنا أنه يوجد رفاق له في المعاناة ، وله حلفاء ايضاً ، فرصتهم الوحيدة في الحياة هي في اتحادهم وبذلك يصبح الكفاح نوعاً من الحرب الطويلة . لقد كان جرجس دائماً من اتباع الكنيسة الخالص نظراً لأن هذا هو الشيء الصحيح الذي يمكن فعله ، إلا أن الكنيسة لم تكن تؤثر به فترك ذلك كله للنساء . لكن ، هنا ، كان دين جديد — دين يلامس شغاف قلبه ويقبض على كل ذرة فيه ، لذا خرج بكل حماسة وحمية المهتدي الجديد للدين ليكون مبشراً . كان بين الليتوانيين أناس كثير غير نقاييين وكان عليه أن يعمل لاقتناعهم وهدايتهم محاولاً أن يبين لهم طريق الصواب . كان أحياناً يصطدم بأناس عنيدين منهم يرفضون رؤية ما يراه ، ولم يكن جرجس صبوراً دائماً . لقد نسي كم كان هو

نفسه أعمى ، قبل وقت قصير - لذا ، ووفق الأسلوب الذي اتبعه الصليبيون الأول ، انطلق جرجس ينشر رسالة الأخوة بقوة السلاح .

- ٩ -

كانت إحدى النتائج الأولى لاكتشاف جرجس النقابة هي أنه أصبح راضياً بتعلم الانكليزية . أراد أن يعلم مايجري في الاجتماعات ، أن يتمكن من المشاركة فيها . وهكذا بدأ يتطلع حوله ، محاولاً التقاط الكلمات . الأطفال الذين كانوا يذهبون إلى المدرسة ، ويتعلمون بسرعة ، بدؤوا يعلمونه الكلمات ، وأحد أصدقائه أعاره كتاباً فيه بعض الكلمات التي قرأتها أونا له . بعدئذ كان جرجس يحزن أشد الحزن لأنه لا يستطيع قراءتها . وفي وقت لاحق من أوقات الشتاء ، حين أخبره بعضهم أن هناك مدرسة ليلية حرة ، ذهب إليها وسجل اسمه فيها . بعد ذلك ، وعقب عودته من المسلخ كل مساء ، كان يذهب في الموعد المحدد إلى المدرسة ، بل كان يذهب حتى وإن لم يكن أمامه سوى نصف ساعة دراسية . كانوا يعلمونه قراءة الانكليزية والناطق بها على السواء ، وكانوا يعلمونه أشياء أخرى لو أن لديه قليلاً من الوقت .

كذلك تركت النقابة اختلافاً كبيراً في اهتماماته - فقد بدأ يولي اهتمامه لشؤون البلاد . بدأ يفكر بالديمقراطية . انها دولة صغيرة ، هذه النقابة ، جمهورية مصغرة ، شؤونها شؤون كل فرد من أفرادها ولكل فرد الحق في أن يقول رأيه فيها . أي بعبارة أخرى ، تعلم جرجس

في النقابة أن يتحدث في السياسة . لم يكن هناك ما يدعى سياسة في المكان الذي جاء منه جرجس ، ففي روسيا القيصرية يفكر المرء بالحكومة وكأنها قلعة من السماء مثلما هو البرق والبرد . « نحن ، يا أخي الصغير نحن » كان الفلاحون الحكماء المسنون يهمسون « فكل شيء يمر » . وحين جاء جرجس إلى أمريكا كان يظن أن الأمر ذاته هنا . لقد سمع أناساً يقولون إنها « بلد حر » — لكن ماعنى ذلك ؟ فقد اكتشف أنه يوجد هنا ، كما هي الحال في روسيا تماماً ، رجال أغنياء يملكون كل شيء ، وإذا لم يستطع المرء أن يجد عملاً ، ترى ألا يبدأ الجائع هنا بالشعور بمشاعر الجائع نفسها هناك ؟

حين كان قد مضى على عمل جرجس في منشأة براون حوالي ثلاثة أسابيع ، جاء إليه ذات ظهيرة رجل يعمل حارساً ليلياً سأله ان كان يرغب في استخراج الأوراق اللازمة للجنس كي يصبح مواطناً . ولم يكن جرجس يعلم معنى ذلك ، لكن الرجل شرح له فوائد الحصول على الجنسية . فقبل كل شيء ، لا تكلفه العملية مليمًا واحداً ، كما أنه يحصل على أجرة نصف يوم دون أن يعمل ، وعندما يجيء موعد الانتخاب سيكون قادراً على الادلاء بصوته — وهنا الفائدة . وبالطبع كان من دواعي سرور جرجس أن يوافق ، وهكذا قال الحارس الليلي بضع كلمات لرئيس العمال ، فأعطاه الاذن بالذهاب بقية النهار . وفي وقت لاحق ، حين طلب اجازة لعروسة لم يستطع الحصول على يوم واحد ، أما بالنسبة لتلك الاجازة التي أخذها بأجر كامل — فאלله وحده

يعلم بأية أعجوبة كانت وكيف حدثت . مع ذلك ، فقد ذهب مع الرجل الذي التقط عدة مهاجرين جدد ، بولونيين وليتوانيين وسلوفاك وأنخرجهم جميعاً ، إلى حيث كانت تقف عربة طويلة تجرها أربعة خيول وقد سبقهم إليها خمسة عشر أو عشرون رجلاً . كانت فرصة جميلة أن يشاهدوا المدينة وقد أتيح للجماعة وقت ممتع سيما وأنهم تلقوا كمية كبيرة من البيرة من داخل العربة . وهكذا سارت بهم العربة إلى قلب المدينة حيث توقفوا أمام مبنى غرائتي مهيب ، قابلهم فيه موظف مسؤول كان قد أعد أوراقهم من قبل ولم يكن ينقصها سوى الأسماء . وهكذا أدى كل منهم بدوره يميناً لا يفهم كلمة واحدة منها ، ثم استلم وثيقة مزخرفة بمهورة بخاتم أحمر كبير ودرع الولايات المتحدة ، وقيل لخرجس أنه بات الآن مواطناً من مواطني الجمهورية وأنه مساو بالحقوق والواجبات لرئيس الجمهورية نفسه .

بعد شهر أو شهرين قام جرجس بمقابلة هذا الرجل نفسه مرة أخرى ، فأخبره بالمكان الذي ينبغي عليه أن « يسجل » نفسه فيه . بعدئذ ، حين جاء موعد الانتخاب أُلصقت دور التعليب اعلانات مفادها بأن من يرغب بالاقتراع يمكنه أن يتغيب حتى التاسعة من ذلك الصباح ، وفي الليلة ذاتها أخذ الحارس الليلي جرجس وبقية مجموعته إلى الغرفة الخلفية للصالون وأوضح لكل منهم أين وكيف يؤشر على ورقة اقتراعه ، ثم قدم لكل منهم دولارين وأخذهم إلى مكان الاقتراع ، حيث كان

هناك شرطي يقوم بمهمة خاصة ألا وهي التأكد من أن كل شيء يتم بصورة سليمة . ظل جرجس ممتلئاً بشعور الفخر والكبرياء لحظه الحسن هذا إلى أن بلغ المنزل والتقى بجوناس الذي انتحى به جانباً وهمس في أذنه عارضاً عليه أن يقترح ثلاث مرات مقابل أربعة دولارات فقبل جرجس العرض .

الآن ، التقى جرجس في النقابة بمن شرح له كل هذه الملاحظات فعلم أن أمريكا تختلف عن روسيا بأن حكومتها تتخذ شكلاً من أشكال الديمقراطية . فالمسؤولون الذين يحكمونها ويقومون بكل ابتزازاتهم المالية وكسبهم غير المشروع يجب أن يتم انتخابهم أولاً ، لذا هناك فريقان متنافسان من المبتزين وناهبي الشعب يعرفان بأنهما حزبان سياسيان يكسب قصب السياق منهما من يكون أقدر على شراء الاصوات . من حين إلى حين يأتي موعد الانتخاب وتأتي معه فرصة الفقراء ، عمال المسالخ ، ولاسيما حين تجري الانتخابات الوطنية وانتخابات الولاية ، أما في الانتخابات المحلية ، فإن الحزب الديمقراطي يكتسح دائماً كل ماعداه . لذا كان حاكم المنطقة هو دائماً من الحزب الديمقراطي ، وهو الآن إيرلندي ضئيل الجسم يدعى سكولي . يدير مايك سكولي هذا مكتباً هاماً للحزب في الولاية ويرثس حتى بلدية المدينة ، كما يقولون . مصدر قوته أنه يضع الزرائب ومن فيها في جيبه . انه رجل فاحش الثراء - له يد في كافة أعمال الكسب غير المشروع في

الحوار . فسكولي ، مثلاً ، هو الذي يملك مقلب النفاية ذاك الذي رآه جرجس وأونا في أول يوم لوصولهما . وهو لا يملك مقلب النفاية وحسب ، بل يملك مصنع الآجر أيضاً لذا يجعل المدينة ترسل بنفاياتها لاملأه الحفر ، وبذلك يتسنى له بناء المنازل وبيعها للناس . وهو أيضاً يبيع الآجر للسكان بالسعر الذي يرتثيه . وأولئك الذين يشترون الآجر منه ينقلونه بعرباته أيضاً . كذلك يملك سكولي الحفرة الأخرى المجاورة ، حيث يوجد الماء ، وهو الذي يقطع الجليد في الشتاء وبيعه ، والأكثر من ذلك أنه إذا أفشى أحد العمال السر ، لم يستطع أحد الزامه بدفع ضرائب عن الماء كما كان قد بنى بيتاً خارج المدينة ولم يكن مضطراً لدفع أي شيء عليه . كانت الصحف قد توصلت لحقيقة تلك القصة فانتشرت فضيحة حولها غير أن سكولي استأجر شخصاً اعترف بأن الذنب ذنبه وبذلك تلقى كل اللوم الذي يستحقه . ثم اختفى من البلاد . ويقال أيضاً أنه بنى معمل آجره بالطريقة عينها وأن العمال كانوا يتلقون أجورهم من الدولة وهم يبنون له مصنعه ، إلا أنه ينبغي على المرء أن يضغط كثيراً على العمال لكي يستخلص منهم هذه الحقيقة . فالامر لا يعنيههم أولاً ، كما أن مايلك سكولي شخص طيب يستحسن الوقوف إلى جانبه . فورقة صغيرة يوقعها تساوي تعيناً في إحدى دور التعليب في أي وقت من الاوقات ، كما أنه هو نفسه يستخدم عدداً كبيراً من الرجال ولا يدعهم يشتغلون الا ثماني ساعات فقط . ويدفع لهم أعلى الاجور ، الامر الذي أكسبه الكثير من الأصدقاء - تضمهم « عصبة

الترويج للحرب « التي يمكنك أن ترى ناديها قرب الزرائب تماماً .
انه أكبر ناد في شيكاغو كلها . وهم يقيمون مباريات يقدمون فيها
جوائز بين الحين والحين . فاليوم مباراة لمصارعة الديكة مثلاً وغداً
مباراة كلاب وهلم جرا . كل أفراد الشرطة في المنطقة ينتسبون
للعصبة . وبدلاً من منع مثل هذه المباريات فانهم يبيعون البطاقات
بأنفسهم . وقد كان الرجل الذي عرض على جرجس الحصول على
الجنسية واحداً من هؤلاء « الهنود » كما يسمونهم . في أيام الانتخابات
تجد هناك المئات من هؤلاء في جيب كل منهم محفظة مملأ بالنقود
يوزعونها هي وكؤوس الشراب على رجالهم في حانات المنطقة لكن
هذا شيء آخر . كان الرجال يقولون - فعلى كل أصحاب الحانات
أن يكونوا من « الهنود » وأن يكونوا على أهبة الاستعداد لتقديم الخدمات ،
والا لن يجدوا من يؤم حاناتهم أيام الاحاد ، ولن تجري لديهم أية لعبة
قمار أبداً . بالطريقة نفسها كان في يد سكولي كل الوظائف المتاحة
في قسم الاطفاء وكل ما هنالك من أعمال الكسب غير المشروع في
الزرائب ، كما كان يبني بناء ضخماً في مكان ما من شارع أشلاند
والرجل الذي يشرف عليه يتلقى راتباً كمفتش لمجارير المدينة . كان
مفتش المدينة الخاص بأنايب المياه قد توفي ودفن منذ أكثر من عام
الا ان اسمه كان ما يزال مدرجاً في دفتر الرواتب . أما مفتش
المدينة فلم يكن يدع أحداً من التجار من شرهان لم يقف إلى جانب سكولي .

بل حتى أصحاب دور التعليب كانوا يرهبون جانبه ، حسب أقوال الناس ، وكان يسرهم أن يصدقوا هذا ، لأن سكولي رجل الشعب وهو يفتخر بذلك ويتبجح به حين نحل الانتخابات . كان أصحاب دور التعليب بحاجة لجسر في شارع أشلانده . انما لم يكونوا قادرين على تنفيذه الا بعد أن يروا سكولي ، والامر ذاته بالنسبة « لجلول بوبلي » الذي ظلت المدينة تهدد أصحاب دور التعليب بضرورة تغطيته ، إلى أن جاء سكولي لمساعدتهم . و « جللول بوبلي » هذا فرع من فروع نهر شيكاغو ويشكل الحلة الجنوبي للزرائب ، لذا كانت كل مجارير المياه الخارجة من دور التعليب وضمن مساحة ميل مربع تصب فيه ، حتى كان بالحقيقة مجروراً كبيراً مكشوفاً بعرض مائة أو مائتي قدم . وهناك تفرع طويل من تفرعاته مسدود ، لذا فالأقذار فيه دائمة أبداً . ذلك أن الشحوم والكيماويات التي تصب فيه تمر بكل ضروب التحولات الغريبة التي هي سبب اسمها ذاته وهي دائماً في حالة تغير وحركة وكان هناك حوتاً هائلاً يتغذى منها أو كأن هناك وحوشاً ضخمة تخفي نفسها في أعماقها . ففقااعات غاز الفحم ترتفع إلى السطح وتنفجر وتصنع دوائر قطرها قدمان أو ثلاثة . وهنا وهناك ترى الشحم قد تصلب والقذارة قد تجمدت ، كما يبدو الجللول مهداً للطمي فاللدجاج يمشي متجولاً عليه ، يلتقط غذاءه ، وكثيراً ما وجد أحد الغرباء غير الحذرين نفسه وهو يغوص في وحوله بل ويختفي حين من الزمن وقد اعتاد أصحاب دور التعليب على ترك الجللول بهذا الشكل إلى أن يلتقط سطحه

من حين إلى آخر شعلة نار فيحترق احتراقاً شديداً ، ثم تأتي أفواج الاطفاء لانخماد الحريق . لكن ، ذات مرة ، جاء أحد الغرباء العباقرة وبدأ يجمع هذه الاوساخ في مواعين قائللاً أنه سيستخرج منها شحم الخنزير وسرعان ما « لقط أصحاب دور التعليب الحبة » فاستصعدروا أمراً رسمياً بإيقافه ، ومن ثم بلدؤوا هم أنفسهم يجمعها . وبما أن الشعر كان قد التصق على نحو كثيف بصفاف « جدول بوبلي » فقد عمل أصحاب دور التعليب على جمعه أيضاً وتنظيفه .

بل ثمة أشياء أغرب حتى ، حسب تقولات الناس . فأصحاب دور التعليب لديهم خطوط رئيسية من شبكة المياه ، يسرقون عبرها بلايين الغالونات من ماء المدينة . ولقد ضجبت الصحف في يوم من الايام بهذه الفضيحة — وذات مرة جرى تفتيش وكشف فعلي للأنابيب ، انما لم يعاقب أحد قط واستمرت الامور على ما كانت عليه . ثم هناك صناعة اللحم اللعينة بأموالها التي لاحد لها .

دان سكان شيكاغو يرون مفتشي الحكومة في باكنجتاون ويظنون انهم بذلك يضمنون حمايتهم من اللحوم المريضة ، لكنهم لم يكونوا يدركون أن هؤلاء المفتشين ، وعددهم مائة وثلاثة وستون مفتشاً ، قد تم تعيينهم بناء على طلب أرباب العمل وأنهم يأخذون رواتبهم لالشيء الا المهر كل اللحوم المريضة بخاتم الدولة . فليس لديهم صلاحية تتعدى هذه . ذلك لأن دائرة تفتيش اللحم الذي سيباع في المدينة

والولاية ذات بكامل ملاكها تتألف من ثلاثة موظفين تابعين للجهاز السياسي المحلي . بعد فترة وجيزة من انشائها ، اكتشف أحد هؤلاء الثلاثة ، وهو طبيب ، أن جثث الثيران الذبيحة التي يحكم عليها مفتش الحكومة بأنها مصابة بالسل وبأنها لهذا السبب تحوي « بتومين » أي سموماً فتاكة ، ترك على افريز مكشوف وتنقل بالعربات لكي تباع في المدينة . لذلك أصر على أن تعالج هذه الجثث بحقنها بالكبروسين وحرقتها — فجاءه الأمر بأن يستقيل في الاسبوع نفسه . وقد اشتد بأصحاب دور التعليب السخط إلى حد جعلهم يطلبون من رئيس البلدية إلغاء دائرة التفتيش كلها ، ومنذ ذلك الحين زال حتى التظاهر بأي تدخل في شؤون الكسب غير المشروع . فهناك ، كما يقال ، ألفا دولار أسبوعياً تأتي مالاً حراماً من الثيران المسلوطة وحدها ، ومثلها أيضاً من الخنازير التي تنفق من جراء الكوليرا والأمراض الأخرى في القطارات والتي يمكنك أن تراها في أي وقت تشاء وهي محملة في عربات صندوقية لتنتقل إلى مكان يدعى « غلوب » في « انديانا » حيث يصنع منها صنف غريب من شحوم الخنزير .

راح جرجس يسمع بهذه الامور شيئاً فشيئاً ، على السنة أولئك الذين كانوا مجبرين على ممارستها ، وبدأ الأمر و تأنك تسمع ، في كل مرة تلتقي فيها بشخص جديد من دائرة جديدة ، بالأعيب وجرائم جديدة . فعلى سبيل المثال كان هناك ليتواني يعمل جزار ماشية في

المنشأة التي تعمل ماريا فيها ، والتي تأخذ اللحم لتعليبه فقط . انك ان تسمع هذا الرجل وهو يصف الحيوانات التي يأتون بها المنشآت تشعر وكأنك تسمع وصفاً من أعمال دائني أو زولا . فعلى ما يبدو ، لديهم وكلاء في كافة أنحاء البلاد يبحثون ويترصدون الماشية المريضة والأكسيحة التي «تعلب» ، وهناك ماشية يطعمونها «ملت الوسكي» (١) أي فضلات مصانع البيرة فتصبح ما يدعوه الناس «ستيرلي» - أي مغطاة بالبثور . انه عمل قذر أن تقدم على قتل هذه الحيوانات ، لأنك حين تغمد سكينك فيها تنفجر وتنثر مادة كريهة في وجهك ، وحين يتلطح قميص المرء أو أكمامه بالدم وتتلوث بداه به ، فكيف تراه سيمسح وجهه أو ينظف عينيه كي يتمكن من الرؤية ؟ انها مادة أشبه بتلك التي صنع منها «لحم البقر المحنط» والتي قتلت من جنود الولايات المتحدة أكثر بمرات عدة مما قتل رصاص الاسبان . الفارق الوحيد فقط هو أن لحم البقر الذي كان يتزود به الجيش يومذاك لم يكن جديد التعليب بل مادة قديمة تركت سنوات طويلة في الأقبية .

في أمسية من أماسي الآحاد ، جلس جرجس ينفث دخان غليونه بجوار موقد المطبخ ، ويتحدث مع زميل قديم عرفه عن طريق جوناس ، زميل يعمل في غرف التعليب في منشأة دورهام ، علم جرجس منه بضعة أشياء عن مؤسسة دورهام الكبيرة للتعليب والتي كانت قد غدت

(١) الملت : هو الشعير الذي يثبت بثقله بالماء .

مؤسسة وطنية . لقد كانوا كيميائيين نظاميين في مؤسسة دورهام ،
فهم يعلنون عن صلصة الفطور والعاملون فيها لا يعرفون شكل الفطور .
ويعلنون عن «الدجاج المطبوخ والمحفوظ في القدر» . وهو أشبه بالحساء
الذي تقدمه المثاوي (١) ، ذلك الحساء الذي لا يلامسه الدجاج الا ملامسة
فقط . بل ربما لديهم عملية سرية لصنع الدجاج كيميائياً — فمن
يدري ؟ قال صديق جرجس ، فالأشياء التي تدخل المزيج هي الكرش
ودهن الخنزير وشحم البقر وقلوب البقر وأخيراً فضلات لحم العجل
حين يتوفر شيء منها . وهم يصنعونها ضمن أصناف عدة ويبيعونها
بأسعار مختلفة ، رغم أن محتويات العلب تخرج كلها من المزيج نفسه ،
أي تنوعت الأسماء والمضمون واحد ، بل حتى قبل عام أو عامين
جرت العادة على أن تدبج الخيول في المسالخ — ظاهرياً من أجل
السماح لكن بعد طول بحث ، تمكنت الجرائد من جعل الجمهور يوقن
أن لحم الخيول يذهب إلى العلب . أما الآن فالقانون يحظر ذبح الخيول
في بائناجاتون وهم يطبقون القانون فعلاً — في الوقت الحاضر على أي
حال . لكن قد يرى المرء في أي يوم مخلوقات شعشاء الشعر حادة القرون
تجري مع الأغنام — انما ليس من شأنك اطلاع الجمهور على أن قسماً
كبيراً مما يشتريه باعتباره لحم خروف ليس بالحقيقة الا لحم ماعز .

(١) المثاوي ، جمع مثوى : وهو بيت يقدم الطعام والمتانة للتزلاء لقاء مبلغ اسبوعي
أو شهري محدد .

ثمة مجموعة أخرى من الاحصائيات المثيرة التي يستطيع المتتبع جمعها في باكنجتاون - وهي احصائيات عن الاصابات المختلفة للعمال . فحين قام جرجس لأول مرة بتفتيش دور التعليب مع تزيديفلاس أبخذه العجب وهو يصغي إلى الكلام الذي يصف كل تلك الأشياء التي ستخرج من الذبائح وعن الصناعات الصغرى الملحقة بها ، أما الآن فقد وجد أن كل صناعة من تلك الصناعات الصغرى هي جسيم صغير مستقل ، فظيع ومرعب مثلما هي أحواض الذبج ، منبع ومصدر الأهوال والفظاعات جميعاً . فلكل صناعة منها أمراضها الخاصة التي يصاب بها عمالها وقد يشك الزائر المتجول بالأعيب والحدع هناك انما لا يستطيع الشك بأي شيء هنا ذلك لان العامل يحمل الدليل عليها بشخصه ذاته - اذ يكفي عادة أن يرفع يده .

فعلى سبيل المثال ، هناك عمال غرف التخليل ، حيث عاد أنتاناس العجوز بمنيته منها ، وحيث يندر أن تجد جسم عامل من العمال لا يحمل في مكان ما نقطة تثير الاشمئزاز . دع رجلاً يكشط اصبعه وهو يدفع عربة اليد في غرف التخليل وسرعان ما تجد القرع الذي يحدثه هذا الكشط يودي به إلى قبره . كما أن مفاصل أصابعه جميعاً قد تتآكل بفعل الحمض ، مفصلاً مفصلاً . كذلك نادراً ما تجد بين الجزارين ، السالحين ، مجردي العظام ، الشطارين ، وكل من يستخدم نصلاً ، شخصاً يستطيع استخدام ابهامه ، فالمرّة تلو المرّة تشرط قاعدته إلى أن يندو مجرد كتلة من اللحم يضغط العامل عليها مقبض سكينه للامساك

بها . وغالباً ماتجد أيدي هؤلاء العمال موسومة بالندب والجروح حتى
ليتعذر عليك الادعاء بأنك قادر على عدها أو تتبع آثارها وقد لا يكون
لهؤلاء العمال أظافر - وهي تتساقط بانحسار جلود أصابعهم ، وانفخاخ
براجم هذه الاصابع حتى تغدو أشبه بالمراوح . وهناك العاملون في
غرف الطبخ ، وسط البخار والروائح الممرضة ، وعلى الضوء الاصطناعي .
ففي هذه الغرف قد تعيش عصيات السل مدة سنتين ، رغم أن التزود
بها يتجدد كل ساعة . وهناك مراكب لحم البقر ذات الأجنحة الرباعية
الأضلاع والتي تحمل قطعاً بوزن مائتي رطل انكليزي إلى العربات
المبردة . وهذا عمل مخيف يبدأ من الرابعة صباحاً ويهلك أقدر الرجال
خلال بضع سنوات . كذلك هناك العاملون في غرف التبريد الذين
يصابون دائماً بالروماتزم ، وأقصى مدة يستطيع قضاءها أي عامل
هنا هو خمس سنوات ، كما يقولون ، وهناك « ثقافو الصوف » الذين
تتمزق أيديهم ارباً ارباً على نحو أسرع بكثير من أيدي العاملين في غرف
التخليل ، ذلك لأن جلود الخنم تدهن بالحمض ليسهل نتف صوفها ،
هذا النتف الذي يتم بأيدي عارية ، الامر الذي يجعل الحمض يؤثر على
الاصابع شيئاً فشيئاً إلى أن تتآكل . وهناك العاملون في صنع الصحف
كي يكون علباً للحم ، أيديهم هي الأخرى مجموعة هائلة من الجروح ،
وكل جرح يمثل احتمالاً من احتمالات تسمم الدم . كما أن البعض
يعمل في آلات الختم ، ونسأدرأ ما يعمل واحد منهم لمدة طويلة
وبوتيرة العمل المعروفة هناك ، دون أن يغفل أحياناً وينسى نفسه ،

الأمر الذي يعرض جزءاً من يده للقطع . وهناك « عمال الرافعات » كما يسمونهم ، مهمتهم الضغط على عتلة ترفع الذبيحة عن الأرض فهم يحرون على طول رافدة لينظروا داخل الماء الحار والبخار ، وبما أن معماريي دورهام الكبير لم يبنوا غرفة الذبح بما يلائم عمال الرافعات هؤلاء ، فانهم يضطرون ، كل بضعة أقدام ، لأن ينحنوا تحت عارضة خشبية على ارتفاع أربعة أقدام مثلاً عن الرافدة التي يحرون عليها ، حتى تغدو مشيتهم أشبه بمشية الشمبانزي . على أن أسوأ مافي الأمر هو حال العاملين في الاسمدة واولئك الذين يعملون في غرف الطهو . فهؤلاء الناس لايسمح لزائر برؤيتهم — لأن رائحة عامل الاسمدة تخيف أي زائر عادي وتجعله يهرب عن بعد مائة ياردة ، أما الأناس الآخرون الذين يعملون في غرف التخزين المملأى بالبخار والتي يوجد في بعضها رواقيد مكشوفة ، قريبة من مستوى الارض ، فان لهم مشكلة خاصة هي أن واحدهم قد يسقط في الراقود ، وعندما يخرجونه منه يكون قد غدا شيئاً لايمكن النظر اليه — وفي بعض الاحيان يغفلون عن واحدهم بضعة أيام ، وبذلك يخرج كل شيء منه إلى العالم ، باستثناء عظامه ، على شكل رقائق شحم خنزير صاف من مصانع دورهام .

— ١٠ —

خلال القسم الاول من الشتاء كانت العائلة تكسب من المال مايكفيها للعيش علارة على تسليد بعض ديونها ، لكن حين هبط دخل جرجس من تسعة أو عشرة دولارات في الاسبوع إلى خمسة أو ستة لم يعد ثمة

ما يوفرونه . ثم مضى الشتاء وحل الربيع وهم يعيشون عيشة الكفاف ، ولا يملكون سوى ما يقيم أودهم من يوم إلى يوم . كانت ماريا يائسة ، فليس هناك خبر عن إعادة افتتاح معمل التعليب الذي تعمل فيه بينما كادت مدخراتها أن تنفذ كلياً . وهكذا اضطرت للتخلي عن فكرة الزواج مؤقتاً ، فالعائلة لا تستطيع الاستمرار بدونها رغم أنها ستكون في وقت قريب عبثاً على كاهلهم ، إذ حين تنفق كل ماتملك ، سيضطرون لايفائها دينها على شكل طعام . وهكذا كان جرجس وأونا الزببينا يعقدون مؤتمرات صاخبة تدوم حتى وقت متأخر من الليل ، محاولين وضع تصور يمكنهم به تدبر الامر دون أن يموتوا جوعاً .

الشروط القاسية التي باثت حياتهم قائمة عليها هي أن عليهم ألا يتوقعوا لحظة واحدة من الراحة ، لحظة واحدة لا يتأهب فيها شبح الحاجة للمال والتذكير به ، وأنهم لن ينتهوا من مشكلة حتى يقعوا في أخرى . وعلاوة على كل المشقات التي تتحماها أجسادهم ، هنالك عبء ثقيل الوطأة ودائم الضغط على أذهانهم . يلاحقهم طوال النهار والليل ضيقاً وخوفاً . لم تكن هذه بالحقيقة حياة بل قلما يمكن اعتبارها أكثر من وجود يعيشونه يوماً بعد يوم يملؤهم احساس طاع بأن الثمن الذي يدفعونه باهظ للغاية وأنهم لا يحصلون على شيء مقابل ما يدفعون . كانوا يودون أن يعملوا طوال الوقت ، وحين يبدل الناس كل مافي وسعهم ، أليس من الواجب أن تتاح لهم امكانية العيش ؟

لم يكن هناك ، على ما يبدو ، نهاية للأشياء التي ينبغي عليهم
شراؤها أو نهاية للطوارئ غير المتوقعة . فذات مرة انفجرت تمديدات
المياه لديهم بعد أن تجمد الماء فيها ، وحين حاولوا ، بلهولهم ، تدوير
الماء ، أغرق مترلهم طوفان أشبه بطوفان نوح . وقد حدث ذلك حين
كان الرجال في العمل فاندفعت الزبييتا المسكينة إلى الشارع صارخة
مولولة تطلب المساعدة ، إذ لم تكن تعلم ان كان مايزال بالامكان إيقاف
الطوفان أو انهم دمروا إلى الابد . والواقع أن الامر بدا أشبه بالحالة
الأنخيرة ، إذ اكتشفوا في النهاية أن اصلاح التمديدات يكلفهم خمسة
وسبعين سنتاً في كل ساعة وخمسة وسبعين سنتاً لرجل آخر كان يقف
ويراقب المصلح ، وقد دخل ضمن المدة المحسوبة كل الوقت الذي
قضاه الاثنان وهما يذهبان ويبحثان ، فضلاً عن ثمن كل أنواع المواد
والملاحقات التي احتاجوا اليها . بعدئذ ، وحين ذهبوا بغية دفع القسط
المتزلي عن كانون الثاني ، أفزعهم الوكيل بسؤالهم ان كانوا قد فكروا
بمشكلة التأمين أو أنهوها . وجواباً على سؤالهم عن مشكلة التأمين ،
دطم على جملة في وثيقة البيع تشترط عليهم أن يؤمنوا المتزل مقابل ألف
دولار حالما ينتهي سند التأمين الحالي ، الامر الذي سيحدث خلال بضعة
أيام . سألت الزبييتا المسكينة التي تلقت الصدمة مرة ثانية ، كم يكلفهم
هذا ، فأجاب الرجل : سبعة دولارات . وفي تلك الليلة جاء جرجس ،

مضمماً عابس الوجه طالباً إلى الوكيل أن يعلمه ، مرة واحدة وإلى الابد ، بكل الحسابات التي يحتمل أن يدفعوها . ثم قال له بسخرية تلائم أسلوب الحياة الحديد الذي تعلمه : الوثيقة موقعة الآن - وبما ان الوثيقة موقعة فلا جدوى يكسبها الوكيل من بقائه صامتاً . ثم حذق جرجس في عيني الرجل بقوة ، وبذلك لم يضع أي وقت في الاحتجاجات التقليدية بل قرأ له الوثيقة . كان عليهم أن يجددوا عقد التأمين كل عام وأن يدفعوا الضرائب أي حوالي عشرة دولارات سنوياً وأن يدفعوا ضريبة الماء ، وهي حوالي ستة دولارات - فصمم جرجس في سره على أن يغلق الصنبور . هذا كل شيء فضلاً عن الفائدة والأقساط الشهرية ، - ما لم يحدث أن تقرر البلدية تمديد مجاريير أو اقامة طوار . أجل ، قال الوكيل ، فعليهم في هذه الحالة أن يدفعوا حصتهم من هذه التكاليف أيضاً اذا ماقررت الحكومة تنفيذها . وسوف يدفعونها طوعاً أو كرهاً ، علماً أن المجرور يكلفهم حوالي اثنين وعشرين دولاراً أما الطور فيكلف خمسة عشر ان كان من الخشب وخمسة وعشرين ان كان من الاسمنت .

وهكذا مضى جرجس إلى المنزل ثانية : انها راحة حقيقية ان يعرف أسوأ ما في الامر ، فهو على أي حال لن يفاجأ بطلبات جديدة بعد . لقد رأى الآن كيف ينهبونهم ، ولم يكن ثمة مفر ولا مجال للرجوع .

كان بإمكانهم أن يستمروا ليس الا أن وأن يخوضوا معركتهم وينتظروا --
ذلك لأن الهزيمة أمر لا يمكنهم حتى التفكير به .

حين حل الربيع ، حمدوا الله على خلاصهم من سطوة القرس
الرهيب ، وخلاصهم ليس مسألة سهلة ، علاوة على أنهم لن يضطروا
بعد اليوم لدفع ثمن الفحم -- في ذلك الوقت تماماً كانت مدنخرات ماريا
قد بدأت تنفد . لكن جاء الطقس الدافئ بازعاجاته الخاصة ، ولكل
فصل ازعاجاته . ففي الربيع ، هناك الامطار الباردة التي تحيل الشوارع
إلى أقنية ومستنقعات . وتجعل الوحل عميقاً إلى حد تغرق معه العربات
حتى محاور دواليبها ويتعذر معه على ستة أحصنة أن تحركها قية لدائنة .
وبالطبع ، كان من المتعذر على المرء أن يصل إلى مكان عمله جاف
القدمين ، وهو أمر سيء بالنسبة لرجال لا يرتدون الا أسوأ الملابس
لكنه أشد سوءاً بالنسبة للنساء والاطفال . بعدئذ ، جاء منتصف الصيف
بحرارته الخائفة ، فأصبحت أحواض الذبح القلدة في منشأة دورهام
جحيماً حقيقياً للعذاب . ذات يوم ، صرعت ضربة الشمس ثلاثة رجال
معاً إذ ظلت أنهار الدم الحار تتدفق طوال النهار إلى أن أصبحت الرائحة ،
مع حرارة الشمس المنسكبة وسكون الهواء ، كافية لصرع أقوى الأقوياء ،
ذلك أن الحرارة تبعث كل ما اخترنه المكان من روائح طوال جيل كامل --
وليس هناك من يهتم بغسل الجدران والروافد والركائز التي كانت

معجونة كلها بقذارة عمر كامل . بل حتى الرجال الذين يعملون في
أحواض الذبح . كانت لهم رائحة كريهة إلى حد يمكنك معه أن تشم
رائحة واحد منهم من بعد خمسين قدماً ، ولم يعد هناك من يهتم بأمور
اللياقة العامة ، بل لقد تخلى عنها أكثر الرجال عناية وحرصاً ليغرق
في حمأة القذارة . لم يكن هنالك حتى مكان يستطيع المرء فيه أن يغسل
يديه ، وربما كان العمال يأكلون دماً جافاً مع وجبتهم بقلل ما يأكلون
من الطعام . فحين يكونون في ميدان العمل يتعذر عليهم حتى مسح
وجوههم - في هذا المجال يصبحون أعجز من طفل وليد . ورغم
أنها قد تبدو مسألة تافهة إلا أن العرق يبدأ بالتصيب على رقابهم مدغداً
أيامهم ، أو تحط ذبابة على وجه واحد منهم وتضايقه دون أن يستطيع
مد يده إليها . عذاب حقيقي أشبه بأن ترى نفسك وأنت تحرق حياً ،
وسواء كانت دور الذبح أو المزابل هي المسؤولة . وهو أمر لا يستطيع
أحد تقريره . إلا أنه مع مجيء الطقس الحار حطت على باكنجتاون
بلوى حقيقية من الذباب ، بلوى لا يمكن وصفها - فالذباب يغطي
جدران المنزل حتى تراها سوداء ، وليس ثمة من مفر ، انك قد تزود
أبوابك ونوافذك بشريط منخلي ناعم غير أن طنين الذباب في الخارج
سيجعلك تتذكر دائماً أسراب النحل ، وحينما تفتح الباب يندفع إلى
الداخل وكأن عاصفة ريح تسوقه .

ولعل زمن الصيف يوحي لك بأفكار الريف ، برؤى الحقول
الخضر والجبال والبحيرات المتلألئة . غير أنه لا شأن للزرائب بمثل هذه

الايحاءات . فآلة التعليب الهائلة تدور وتطحن بغير رحمة ، وبدون تفكير بالحقول الخضر ، كما أن الرجال والنساء والأطفال الذين هم جزء منها لا يرون شيئاً أخضر حتى ولا زهرة . فالى الشرق منهم وعلى أربعة أو خمسة أميال تقع بحيرة ميتشيغان بمياهها الزرقاء الساحرة ، لكنهم كانوا يشعرون أنها لاتقل بعلداً عن المحيط الهادىء . فليس لديهم سوى الآحاد ولا يأتى الأحد عادة الا وهم أشد اعياء من أن يسيروا على أقدامهم . لقد شد رباطهم إلى آلة التعليب الكبيرة ، مرة واحدة وإلى الابد . المدراء والمشرفون والموظفون في باكنجتاون يؤتى بهم جميعاً من طبقة أخرى وليس من بين العمال أبداً ، لذا فهم يحتقرون العمال احتقاراً شديداً . قد يكون هناك كاتب بسيط يعمل في مؤسسة دورهام منذ عشرين سنة براتب قدره ستة دولارات في الاسبوع ، وقد يعمل لعشرين سنة أخرى دون أن يتحسن وضعه ، لكنه مع ذلك ينظر إلى نفسه على أنه « جنتلمان » ، سيد كبير يفصله عن أمهر العمال في أحواض الذبح مايفصل القطب الشمالي عن الجنوبي . انه يلبس على نحو مختلف ، ويقطن في ناحية أخرى من البلدة ، ويأتي إلى العمل في ساعة مختلفة من النهار ، وطوال النهار يبقى حليماً من أن يلامس أحد العمال . ولعل هذا ناجم عن الاشتمزاز من العمل ، فالناس الذين يعملون بأيديهم يشكلون طبقة منفصلة ، وكل من حولهم يدفعهم للاحساس بذلك .

في أواخر الربيع عاد معمل التعليب ففتح أبوابه ثانية ، وهكذا

عادت ماريا تصدح وتغرد من جديد كما اتخذت موسيقى الحب التي يعزفها تاموزيوس طابعاً أقل أسى وحزنًا . انما لم يدم ذلك طويلاً ، فبعد شهر أو شهرين حلت بماريا كارثة مروعة ، وكان قد مضى عليها عام وثلاثة أيام مذ بدأت عملها في طلي العلب ، حين فقدت عملها .

انها قصة طويلة ، تصر ماريا على أنها نتيجة نشاطها في النقابة فلأرباب العمل ، بالطبع ، جواسيس في كل النقابات ، فضلاً عن أنهم يعملون ، عادة ، على شراء عدد معين من المسؤولين النقابيين ، بقدر ما يظنون أنهم يحتاجون . وهكذا يتلقون في كل اسبوع تقارير حول مايجرى ويعرفون الامور في أغلب الأحيان قبل أن يعرفها أعضاء النقابة أنفسهم . لذا فكل من يرويه خطراً عليهم يجلدون أن رئيسه لايجبه لسبب أو لآخر ، ولماريا يد طولى في البحث عن الأجانب والتبشير فيهم . لكن أياً كانت الحجة ، فالحقائق المعروفة هي أن ماريا كانت قد خسرت قبل بضعة أسابيع من اغلاق المصنع ، أجرة طلاء ثلاثمائة علبة نتيجة خداعهم وغشهم . فالفتيات يعملن على طاولة طويلة ، ويخلفهن تمشي امرأة في يدها قلم رصاص ودفتر تسجل عليه الارقام التي تنجزها كل عاملة . هذه المرأة كائن بشري ، طبعاً ، والبشر يخطئون أحياناً ، لكن حين يحدث هذا ، لايجد أحداً يصلح الخطأ — فاذا نلت يوم السبت ، مثلاً ، نقوداً أقل مما تستحق ، فعليك أن تصمت وتحمل . بيد أن ماريا لم تكن تفهم هذا ، بل راحت تثير القلاقل .

وقبلاقل ماريا لاتعني أي شيء ، فهي لاتعرف سوى البوانية والليتوانية ،
وحما لغتان لاتؤذيان ، لأنها حين تتحدث بواحدة منهما يكتفي الناس
بالضحك منها ودفعها للبكاء . أما الآن فقد باتت ماريا قادرة على
مناداة الاسماء بالانكليزية ، وبذلك جعلت المرأة التي أخطأت معها
تكرهها . ولعل هذه المرأة ارتكبت الخطأ عمداً ، فكما ادعت ماريا ،
تكرر الخطأ بعد ذلك ، لكن عند وقوع الخطأ الثالث اشعلت ماريا
نار الحرب ، فاشتكت في البداية إلى المشرفة ، وحين لم يرضها جوابها ،
اشتكت إلى المراقب العام نفسه . قال لها المراقب أنه أمر لم يسمعوا بمثله
من قبل ، لكنهم سيرون المسألة ، ففسرت ماريا قوله بأنها ستحصل على
نقودها ، وبعد انتظار ثلاثة أيام ذهبت لرؤيته مرة ثانية . لكن الرجل
عبس هذه المرة وقال أنه غير فارغ لمثل هذه الأمور النافهة ، وحين
حاولت ماريا ، رغم نصائح زميلاتها وتحذيراتهن ، إثارة الموضوع
مرة أخرى أمرها بالعودة إلى عملها وقد ثارت ثائرتة . كيف حدثت
الامور بعد ذلك ، لاتعرف ماريا تماماً ، لكن المشرفة أخبرتها ،
عصر ذلك اليوم ، بأنهم استغنوا عن خدماتها ، ولم تكن ماريا لتصاب
بدهول أشد لو أن المشرفة طرقتها على رأسها بدلاً من قولها هذا .
في البداية لم تستطع تصديق ماسمعه ، بعدئذ ثار غضبها وأقسمت على
أن تبجيء مهما يكن وأن مكانها لها ، لا لأحد سواها . وأخيراً جلست
على الارض تبكي وتولول .

لقد كان درساً قاسياً ، لكن ماريا عنيدة متصلبة — كان عليها أن

تطيع أولئك المجربات . في المرة القادمة ستعرف من هي تماماً ، كما قالت لها المشرفة ، وهمكنا نخرجت ماريا ، ونخرجها واجهت العائلة مشكلة القوت مرة ثانية .

على أن الأمر كان صعباً على نحو خاص هذه المرة ، فأونا ستضع مولوداً خلال فترة وجيزة وجرجس يحاول جاهداً أن يوفر بعض المال لمواجهة هذا الحدث . فقد سمع قصصاً رهيبة عن القابلات اللواتي يزددن سمته كالبراغيث في باكنجتاون ، وقد عزم على أن يأتي بطبيب لها . وبإمكانه ان يكون في غاية العناد حين يريد ذلك وقد كان كذلك في هذه الحالة ، الامر الذي اثار رعب النساء اللواتي كن يشعرن أن مجيء طبيب ذكر أمر غير لائق وأن المسألة تخصهن وحدهن بالحقيقة . فأرخص طبيب يمكن ايجاده سيكلفهن خمسة عشر دولاراً وربما أكثر حين تدخل الفواتير . فأعلن جرجس أنه سيدفع ذلك حتى ولو اضطر للصيام عن الطعام بعد ذلك .

كان قد بقي لدى ماريا خمسة وعشرون دولاراً فقط ، ويوماً بعد يوم كانت تطوف المسالخ بحثاً عن عمل انما دون أمل في ايجاده هذه المرة . كان باستطاعة ماريا أن تقوم بأعمال الرجال المقتدرين ، في حالتها العادية ، لكنها وقد حل بها ما حل ، غدت واهنة القوى مشبعة العزيمة وغالباً ما كانت تعود إلى المنزل ليلاً ، حطاماً يثير الشفقة . لقد حفظت درسها هذه المرة ، هي المخلوق البائس ، حفظته عشر مرات ،

وحفظته العائلة معها — وهو أن عليك حين تحصل على عمل في باكنجتاون أن تتمسك به ، مهما يحدث .

ظلت ماريا تبحث وتفتش أربعة أسابيع ونصف الأسبوع الخامس . وبالطبع توقفت عن دفع ما يترتب عليها للنقابة . لقد فقدت كل اهتمام لها بالنقابة بل لعنت نفسها لحماقتها ودخولها في شيء كهذا . وكانت على وشك أن تقرر أنها روح ضائعة حين أخبرها أحدهم بوجود منفذ ، فذهبت وهناك حصلت على عمل « مشدبة لحم » . لقد حصلت عليه لأن رئيس العمال رأى أن عضلاتها مثل عضلات أي رجل ، لذا طرد عاملاً لتحل ماريا محله ، موفراً بذلك نصف الأجر الذي كان يدفعه من قبل . في البداية ، وحين جاءت إلى باكنجتاون ربما كانت ماريا ستزدي عملاً كهذا لكنها الآن تقبل به ، تشذب لحوم تلك الماشي المريضة التي حدثوا جرجس عنها قبل فترة وجيزة . كانت تعمل في إحدى الغرف المغلقة حيث لا يرى الناس الشمس الا نادراً ، تحتها غرف التبريد حيث يحفظ اللحم ، وفوقها غرف الطهو ، وهكذا كانت قدمها تقفان على أرض باردة كالجليد بينما يغرق رأسها في جوف خائض من الحرارة حتى ليكاد يتعذر التنفس . انها تشذب اللحم عن عظام بقر يزن واحداً مائة رطل انكليزي ، بينما تقف من الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل ، وفي قدمها حذاء غليظ تدوس به على أرض رطبة دائماً ، مليئة بالبرك الصغيرة دائماً ، عرضة للطرد من العمل دائماً بسبب الكساد ، وعرضة أيضاً لأن تعمل وقتاً إضافياً في مواسم ازدحام

العمل وأن تظل تعمل وتعمل إلى أن يرتعش كل عصب في جسمها وتفقد سيطرتها على سكينها الحادة وتصيب نفسها بجرح يتسم منه دمها — هذه هي الحياة الجديدة التي بسطت نفسها أمام ماريا . لكن بما أن ماريا حصان بشري فقد اكتفت بالضحك وهي تتابع طريقها . فهذا العمل سيجعلها قادرة مرة ثانية على دفع ثمن طعامهم وتساهم في تسيير شؤون العائلة . أما بالنسبة لتاموزيوس — فقد انتظرا زمناً طويلاً وبامكانهما الانتظار قليلاً . اذ ليس باستطاعتهم أن يعيشا على أجره وحده ، والعائلة لاتستطيع تأمين عيشها بدونها . كان بإمكانه أن يأتي ويزورها وأن يجلسا في المطبخ يمسك بيدها ويكفي بذلك . لكن يوماً بعد يوم ، كانت الموسيقى الصادرة عن كمان تاموزيوس تغدو أكثر عاطفية وهزاً للقلوب ، وكانت ماريا تجلس مشبوكة اليدين ، مبللة الوجنتين يرتعش جسمها كله ، وهي تسمع في نحيب الألحان الموسيقية أصوات أجيال لم تولد تصرخ في داخلها طالبة أن ترى النور .

لقد جاء درس ماريا في وقته تماماً فأنقذ أونا من مصير مشابه . ذلك أن أونا لم تكن هي الأخرى راضية عن عملها ، ولديها أسباب أكثر بكثير من ماريا . فهي لم تحك نصف قصتها في المنزل ، لأنها رأت فيها عذاباً شديداً بالخرجس وكانت تخشى مما قد يقدم عليه . فلمدة طويلة من الزمن كانت أونا ترى أن الآنسة هندرسون المشرقة في قسمها ، لاتبها . في البداية ، ظنت أن ذلك نتيجة الخطأ القديم العهد الذي

ارتكبته حين طلبت اجازة زواج . بعدئذ استتجت أن كرهها هذا لا بد أن يكون بسبب تقصيرها في تقديم الهدايا للمشرقة في المناسبات — فهي من الصنف الذي يأخذ الهدايا من الفتيات ، كما علمت أونا ، وتمارس كل أنواع التمييز لصالح من يقدمها لها . لكن في النهاية ، اكتشفت أونا أن الأمر أسوأ من ذلك حتى . فالآنسة قادمة جديدة ، وقد استغرق الأمر بعض الوقت إلى أن أظهرت الاشاعات الحقيقة ، إذ تبين أخيراً أنها امرأة — تحت — التصرف ، خلية سابقة لمراقب القسم في البناء نفسه . وقد وضعها هنا لاسكاتها على ما يبدو لكنه لم ينجح في ذلك كلياً ، فقد سمعها الناس مرة أو مرتين يتشاجران ذلك أن طبعها أشبه بطبع الضبع إذ ما إن تحمل في مكان حتى يغدو أشبه بمرجل ساحرة . كان هناك بعض الفتيات اللواتي هن من صنفها ، ومن يرغبن في تملقها ومجاملتها ونقل القصص والاشاعات عن البقية ، وبذلك كانت المعارك لا تنتهي . على أن الأسوأ من هذا كله هو أن المرأة كانت تقطن في بيت للدعارة في قلب المدينة مع رجل إيرلندي فظ أحمر الوجه يدعى كوانور ويعمل رئيساً لعمال ورشة التحميل في الخارج ويرفع الكلفة مع الفتيات في مجيئهن وذهابهن من العمل . وفي مواسم الركود يذهب بعض هؤلاء الفتيات مع الآنسة هندرسون إلى هذا البيت الواقع في قلب المدينة — والواقع أننا لانتجاوز الحقيقة حين نقول أنها كانت تدير قسمها في منشأة براون بالتنسيق مع ادارة البيت . ففي بعض الأحيان تعطى نساء من البيت أعمالاً في المنشأة جنباً إلى جنب مع فتيات شريفات ، وبعد

أن تطرد فتيات شريفات أخريات ليحل هؤلاء محلهن . وحين تعمل في قسم هذه المرأة ، فان بيت الدعارة لايفارق أفكارك طوال اليوم . فهناك دائماً نفحات تذكرك به مثلما تذكرك رائحة باكنجتاون بمنشآت التعليب في الليل حين تتحرك الريح فجأة . كذلك فان القصص تتسرب ، فالفتيات المقابلات قد يرونها بينهن ويتغامزن عليك . في مكان كهذا ، لم تكن أونا لتمكث يوماً واحداً ، لكن للضرورة أحكام ، ومع ذلك فانها لم تكن واثقة يوماً من أنها ستبقى في اليوم التالي . لقد أدركت الآن أن السبب الحقيقي لكراهية الأنسة هندرسون هو أنها امرأة متروجة عفيفة ، كما علمت أن الواشيات والمتملقات من الفتيات يكرهنها للسبب نفسه ، وأنهن يعملن كل ما في وسعهن لتعكير حياتها .

لكن ، ليس ثمة مكان في باكنجتاون يمكن لفتاة أن تذهب إليه إذا كانت متشددة في مسائل من هذا النوع . ، ليس هناك مكان لاتستطيع مومس أن تذهب إليه أكثر من فتاة شريفة . فهنا تجمع سكانني ، أجنبي في معظمه — ومن طبقة دنيا ، هو دائماً على حافة الموت جوعاً وتعتمد فرص حياته على نزوات رجال يشبهون في كل ذرة من تكوينهم سائقي العبيد في العهود القديمة بكل ما فيهم من وحشية وغلاظة وقسوة . في ظروف كهذه يغدو الفساد الأخلاقي أمراً لامناص منه ويغدو هو الطاغى تماماً كما كانت الحال أيام عبودية الرق . فالأشياء التي لايتكلم الناس عنها عادة ، تجري في دور التعليب في وضوح النهار وتعتبر أمراً عادياً.

تماماً ، الفارق الوحيد هو أنهم لم يكونوا يعلنون ذلك ، كما في أيام العبودية القديمة ، لأنه لم يكن هنالك فارق في اللون بين السيد والعبد .

ذات صباح ، مكثت أونا في المنزل وجاء جرجس بالطبيب ، طبقاً لرغبته ، بعد ذاك بقليل وضعت له بسلام طفلاً جميلاً . لقد كان صبيّاً كبير الجسم قوياً رغم أن أونا ضئيلة الجسم حتى بدا حجمه بالمقارنة معها ، غير ممكن التصديق .

كان محيي هذا الصبي حدثاً حاسماً بالنسبة لجرجس ، فقد جعله رب أسرة على نحو لا يمكن الرجوع عنه ، وقضى في نفسه على آخر دافع قد يدفعه للخروج في المساء ومجالسة الرجال في الحانات ومسامرتهم . فليس هناك ما يشير اهتمامه الآن سوى أن يجلس ويمعن النظر في الصبي ، وهو أمر يشير الاستغراب تماماً ، إذ لم يكن جرجس يهتم بالأطفال من قبل ، لكن هذا الطفل كان نوعاً غير عادي ، فعيناه صغيرتان سوداوان شديدتا التآلق وله خصيلات شعر سوداء متفرقة على رأسه . كان صورة حية عن والده ، هكذا قال الجميع — وقد وجد جرجس أن هذه الحالة تفتن القلب ، فهو شيء محير تماماً أن تكون مضغة الحياة الصغيرة هذه قد خرجت إلى العالم بالطريقة التي خرجت بها وأنها جاءت صورة طبق الأصل عن الوالد ، الأمر الذي يبعث في النفس كل العجب .

وفكر جرجس ، لعل المقصود من هذا كله الدلالة على أنه من صلبه ، وأن عليه أن يرعاه . لم يكن قد سبق لجرجس أن اهتم بشيء في

الدنيا كاهتمامه بهذا الطفل - وإنه لشيء رائع ، حين تفكر جدياً
بالمسألة ، أن يكون لديك طفل . فهو سينمو ويغدو روحاً بشرية ، إنساناً
ذا شخصية قائمة بذاتها ، وإرادة خاصة . كانت مثل هذه الأفكار تراود
جرجس حتى تفعمه بكافة أنواع الانفعالات الغريبة والمثيرة تقريباً .
لقد كان فخوراً إلى حد مدهش بأنثناس الصغير ، يهتم بكل التفاصيل
المتعلقة به - من غسيل ، لباس ، أكل ، نوم ، ويسأل كل أنواع
الأسئلة السخيفة عنه . ولقد استغرق الأمر زمناً طويلاً منه قبل أن يستطيع
تجاوز خوفه من أن تكون ساقا المخلوق الصغير قصيرتين قصراً غير عادي.

لكن وأسفاه ، لم يكن لدى جرجس الكثير من الوقت ليرى فيه
طفله ، وهو لم يشعر بالسلاسل التي تقيده مثلما شعر بها في ذلك الحين .
فحين يعود إلى المنزل ليلاً يكون الطفل نائماً ، وبمحض المصادفة يستيقظ
أحياناً قبل أن يكون على جرجس نفسه أن يأوي إلى فراشه . وفي
الصباح لا يجد لحظة واحدة يتأمل فيها وجه طفله ، لذا فقد كانت الفرصة
الوحيدة المتاحة للوالد هي يوم الأحد ، غير أن الأمر كان في غاية
الصعوبة بالنسبة لأونا التي كان عليها أن تمكث في البيت وترعى الطفل
كما قال الطبيب ، من أجل صحتها وصحته أيضاً ، وفي الوقت ذاته
عليها أن تذهب إلى العمل وتركه في رعاية تينا الزبييتا تطعمه من ذلك
السم الأزرق الشاحب الذي يدعونه حليباً والذي يبتاعونه من بقالية
الزاوية . لم نخسر أونا بانقطاعها عن العمل سوى أجر أسبوع واحد - فقد

ذهبت إلى المعمل يوم الاثنين التالي ، وجل ما استطاع جرجس اقناعها به هو أن تتركب الترام ثم مضى. يجري خلفها حتى منشأة براون ليساعدها عند الهبوط . بعدئذ سار كل شيء على ما يرام ، كما قالت أونا ، فليس ثمة أي جهد في الجلوس طوال النهار ونخياطة أغطية لحم الخنزير ، ولو أنها انتظرت فترة أطول ، اذن لوجدت مشرفتها وقد استبدلت بها عاملة أخرى . وفي هذه الحالة ستكون الكارثة أشد هولاً من ذي قبل ، لاسيما وقد جاء الوليد . فعلى الجميع أن يعملوا الآن بجهد أكبر من أجله . انه مسئولية وعليهم أن يتحملوا مسؤولية كهذه — كذلك عليهم أن ينشئوا الطفل بحيث لا يعاني مثلما عانوا هم ، وهذا بالحقيقة هو الشيء الأول الذي فكر به جرجس نفسه — فقد أطبق يديه بأحكام وشد من عزمته للكفاح مجدداً ، كرمى لعيني تلك المضغة الصغيرة ، رجل المستقبل. وهكذا عادت أونا إلى منشأة براون فأنقذت عملها من الضياع ووفرت أجور أسبوع وبذلك سببت لنفسها نوعاً من تلك الأمراض الألف التي يدرجها النساء عادة تحت اسم « الاضطرابات الرحمية » ولم تعد شخصاً سوياً بعد ذلك طيلة الأيام التي عاشتها . وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نعبر بالكلمات عما كان ذلك كله يعني لأونا . لقد بدأ أشبه بوجع بسيط إلا أن عقوبة هذا الوجع جاءت أشد بما لا يقاس حتى أنها لم تستطع ولم يستطع أحد سواها أن يربط بين الاثنين . « فاضطراب

الرحم » لم يكن يعني لأونا أبداً أنه مرض يحتاج لتشخيص أنخصائي
وفرة معالجة قد تطول وربما عملية أو عمليتين ، بل كان يعني ببساطة
بعض الصداع في الرأس والآلام في الظهر ووهناً في القوى ومرضاً
في القلب وشيئاً من العصاب حين تضطر للذهاب إلى المعمل تحت المطر .
كانت غالبية النساء اللواتي يعملن في باكنجتاون يعانين من الحالات
ذاتها وللسبب ذاته ، لذا لم يفكر أحد بأن الحالة تستحق الذهاب إلى
الطبيب وبدلاً من ذلك جربت أونا الأدوية المؤثرة واحداً بعد الآخر ،
طبقاً لنصائح صديقات لها وبما أنها كانت كلها تحوي كحولاً أو مسكناً
من المسكنات الأخرى فقد كانت تريحها حين تتناولها ، وهكذا غدت
دائماً تطارد شبح الصحة والعافية ولا تستطيع الإمساك به ، إذ كانت
أضعف وأفقر من أن تستطيع الاستمرار .

- ١١ -

خلال الصيف ، عاد النشاط الكامل لدور التعليب واستطاع جرجس
أن يكسب مائلاً أكثر لكنه لم يكسب بالقدر الذي كسبه في الصيف الماضي
ذلك لأن أرباب العمل أدخلوا الكثير من الأيدي العاملة الجديدة ، ففي
كل اسبوع تجد عمالاً جدداً يدخلون - انه النظام الاعتيادي ، فهذا
العدد يحتفظون به حتى موسم الركود التالي وبذلك يحصل كل منهم
على مبلغ أقل مما كان يحصل عليه في السابق . انهم ، بهذه الخطوة ،
يحولون اليد العاملة الحرة في شيكاغو عاجلاً أو آجلاً إلى أيد مدربة على

القيام بأعمالهم . فأية خدعة بارعة هذه ! ! كان على العمال القدامى أن يدربوا الجدد الذين قد يأتون في يوم من الأيام ويحطمون الاضراب الذي قد يعلنه أولئك وأثناء ذلك يبقون في حالة مزرية من الفقر المنعهم من التفكير بالاضراب .

لكن لا يظن أحد أن هذا الفيض الزائد من المستخدمين يعني أن العمل غدا أسهل على أحد من العمال القدامى . بل العكس هو الصحيح فالتسريع يتزايد ، على ما يبدو ، بصورة أكثر وحشية طوال الوقت ، وهم باستمرار يخترعون أساليب جديدة لتكديس العمل وتراكمه — فالعملية ، بالنسبة للعالم كله ، أشبه بالقلاووظ الابهامي الذي كانوا يستخدمونه في حجرات التعذيب في القرون الوسطى . انهم يأتون بصانعي ايقاع جدد ويدفعون لهم أكثر كما يدفعون الرجال أكثر وأكثر إلى العمل بآلات جديدة ، بل يقال إن السرعة التي تتحرك بها الحنازير في غرف الذبح انما تحددها ساعة وأن هذه السرعة تزداد قليلاً كل يوم . في أماكن العمل بالقطعة يمكنهم أن يخفضوا الزمن ، طالبين أداء العمل نفسه في وقت أقصر ، ومن ثم يدفعون الأجر نفسه ، لكن بعد أن يعتاد العمال على هذه السرعة الجديدة يخفضون معدل الدفع بحيث يتناسب مع التخفيض في الزمن وغالباً ما كانوا ياجؤون إلى هذه الأساليب في مؤسسات التعذيب إلى حد وصلت معه النشيات إلى حالة من اليأس فأجورهن هبطت بـ مقدار الثالث خلال السنتين الماضيتين ، وكان من المحتمل كثيراً أن يتحول السخط الذي يغلي في صدورهن إلى عاصفة تنفجر في أي يوم ، لم يكن قد مر على عمل ماريا

في منشأتها الحديدية كمشرحة لحجم الأشهر واحد حين بلعامعمل التعليب الذي تركته إلى خفض أجور عاملاته إلى النصف تقريباً ، وقد أثار ذلك سخطهن إلى درجة جعلتهن يخرجن مباشرة إلى الشارع ، بدون مفاوضات حتى . وكانت إحدى الفتيات قد قرأت ذات مرة أن العلم الأحمر هو الرمز المناسب للعمال المضطهدين ، وهكذا رفن عاملاً أحمر وطفن في كل الساحات يصرن عن احتجاجاً وغضباً . كانت نتيجة هذا الانفجار ظهور نقابة جديدة غير أن هذا الاضراب . لا رجالي تحطم ارباً خلال ثلاثة أيام وذلك بسبب تدفق اليد العاملة الحديدية . وفي نهاية الاضراب وجدت الفتاة التي حملت الراية الحمراء نفسها تذهب إلى قلب المدينة لتبحث عن عمل وجدته أخيراً في مخزن كبير بأجر لا يزيد عن دولارين ونصف في الأسبوع .

استمع جرجس وأنا لهذه القصص بشيء من الملل ، إذ لم يكن أحد يعلم متى يأتي دورهم . مرة أو مرتين سرت اشاعات بأن إحدى دور التعليب الكبيرة ستخفض أجر عمالها غير المهرة إلى خمسة عشر سنتاً في الساعة وقد علم جرجس أنه إذا ما حدث هذا ، فسوف يأتي دوره سريعاً . لقد علمته الأيام أن باكنجتاون ليست ، بالحقيقة ، عهداً من المؤسسات على الاطلاق ، بل هي مؤسسة كبيرة واحدة ، « تروست (١) » للحم البقر » ففي كل اسبوع يجتمع مدراء هذا التروست معاً لاجراء مقارنات بين ملاحظاتهم ، وليضعوا مقياساً واحداً لكل عمال المسالخ ،

(١) التروست : اتحاد احتكاري بين عدد من الشركات يستهدف التحكم بالسوق .

مقياس كفاءة ومهارة . كذلك قيل بخرجس أنهم ثبتوا السعر الذي سيدفعونه ثمناً للبقر الحي وكذلك أسعار اللحوم المذلية في جميع أنحاء البلاد ، إنما كان ذلك شيئاً يتجاوز مدارك جرجس وأثار اهتماماته .

وحدها ماريا لم تكن تخشى تخفيض الأجور ، وأتت هنأت نفسها بكثير من السذاجة ، على أنهم كانوا قد طردوها من عملها قبيل فترة وجيزة إذ غدت مشذبة لحم ماهرة ، تتمحسّن مهارتها باستمرار . كان جرجس وأونا قد عملا خلال الصيف والخريف على تسديد آخر مليم يدينان لما به . وهكذا بدأت مشروعاً آخر فقد فتحت لنفسها حساباً في المصرف . وكان لتاموزيوس حساب في المصرف أيضاً ، وهكذا بدأ سباقاً وبدأ بتصوران ويحسبان معاً مصاريف افتتاح بيت الزوجية مرة أخرى .

غير أن امتلاك ثروة كبيرة يجر هموما ومسؤوليات ، ذلك ما اكتشفته ماريا المسكينة نفسها ، فقد أخذت بنصيحة صديقة من صديقاتها وأودعت مدخراتها في مصرف يقع في شارع آشلانند ، وبالطبع لم تكن تعرف شيئاً عنه باستثناء أنه مصرف كبير ومهيب - وأية فرصة يمكن أن تتاح لعاملة أجنبية مسكينة كي تفهم الأعمال المصرفية على النحو الذي تجري عليه في بلاد المال المسعورة هذه ؟ لذا عاشت ماريا في خوف دائم خشية أن يحدث طارئ لمصرفها ، وكثيراً ما كانت تعرج عليه في الصباح وهي ذاهبة إلى العمل ، كي تطمئن على أنه ما يزال في موقعه .

كان الحريق هو العدو الرئيسي الذي تخافه ، فقد أودعت أموالها على شكل سندات وكان أخشى ما تخشاه هو أن يحترق المصرف ولا تحصل على أية سندات أخرى . كان جرجس يسخر من تفكيرها هذا ، لأنه كان رجلاً فخوراً بما لديه من معرفة رفيعة ، ولقد أخبرها بأن في المصرف أقبية مضادة للحريق ، وأن كل أمواله تختبئ بأمان تام في تلك الأقبية .

مع ذلك قامت ماريا ذات صباح بجولتها الممهودة ، فرأت ، والرعب يقطع أنفاسها ، حشداً كبيراً وزحاماً شديداً أمام المصرف فشحب وجهها خوفاً وانطلقت تعدو صارخة بالناس ، سائلة اياهم عن الأمر ، انما دون أن تتوقف كي تسمع جوابهم ، حتى وصلت أخيراً إلى خضم الجمهور حيث بات من المتعذر عليها اختراقه . كانت هناك « هجمة لسحب الودائع من المصرف » قالوا لها أخيراً لكنها لم تفهم معنى ذلك ، وهكذا راحت تنتقل من شخص إلى آخر ، محاولة أن تفهم ، يعلبها الخوف والرعب . هل حلت مصيبة بالمصرف ؟ لا أحد يعلم بصورة مؤكدة ، انما يظنون ذلك . ألا تستطيع الحصول على مالها ؟ لا أحد يعلم أيضاً ، بل إن الناس خائفون من أنهم لن يستطيعوا الحصول على أموالهم ولذلك جاؤوا يحاولون . كان الوقت ما يزال مبكراً للحسم في هذه المسألة — فالمصرف لايفتح أبوابه قبل ثلاث ساعات تقريباً ، وهكذا بدأت ماريا بياس مسعور تشق طريقها نحو أبواب المبنى ، عبر حشد غفير

من النساء والرجال والأطفال وكلهم مهتاجون قلقون . كان منظرًا من مناظر الفوضى العجيبة ، نساء يصرخن ويعصرن أيديهن ثم يسقطن مغشىاً عليهن ، رجال يعاركون ويدوسون على كل شيء في طريقهم . وحين وصلت ماريا إلى وسط الجمهور المائج تذكرت أنها لا تحمل دفتر الرصيد ولا يمكنها الحصول على نقودها بأي حال من الأحوال ، وهكذا عادت فشقت طريقها خارجة من الزحام ثم بدأت تجري إلى المنزل ، وقد كان هذا لحسن حظها ، فبعد بضع دقائق فقط وصلت قوات الشرطة الاحتياطية .

بعد نصف ساعة عادت ماريا ومعها تيتا الزبيبتا ، تلهثان كلتاهما لشدة الجري وتكادان تسقطان من الخوف ، فوجدتا الحشد وقد انتظم في رتل يمتد مئات الأمتار ويقوم بالاشراف عليه وتنظيمه حوالي خمسين شرطياً ، لذا لم تستطيعا فعل شيء سوى الانتظام في الرتل انما في نهايته . في الساعة التاسعة فتح المصرف أبوابه وبدأ عملية الدفع للحشد المنتظر ، لكن كيف ترى كانت حالة ماريا وهي ترى أمامها ثلاثة آلاف نسمة — وهو عدد يكفي لخراج آخر بنس من اثني عشر مصرفاً ؟

ولكي يزداد الطين بلة ، فقد بدأ يهطل رذاذ من المطر ، بللهم حتى الجلد ، لكنهم مع ذلك ظلوا واقفين هناك طوال النهار يزحفون ببطء باتجاه الهدف — وطوال العصر وقفوا هناك ، وقد هبطت قلوبهم بين جنوبهم وهم يرون أن ساعة اخلاق المصرف تقرب وأنهم سيعودون

بجني حنين . عزمت ماريا ، وليحدث ما يحدث ، أن تبقى حيث هي كي تحافظ على مكانها ، لكن بما أن الجميع كانوا سيفعلون الشيء ذاته ، ويمكثوا الليل البارد بطوله ، فإنها لم تقترب من باب المصرف إلا قليلاً . عند المساء جاء جرجس ، وقد سمع القصة من الأطفال ، حاملاً معه بعض الطعام والدنارات الجافة مما سهل الأمور قليلاً .

في الصباح التالي ، وقبل طلوع الفجر . جاء حشد أكبر من ذي قبل كما وصل المزيد من الشرطة من قلب المدينة . وتمسكت ماريا بموقعها كالموت الزؤام . ومع العصر كانت ماريا تدخل المصرف وتقبض أموالها ... كلها دولارات فضية كبيرة ملء منديل . وحين وضعت يدها عليها زال خوفها تماماً ، فأرادت أن تعيدها ثانية إلا أن الرجل الموجود في الشباك كان بالغ الهمجية إذ صرخ بها قائلاً أن المصرف لا يستقبل ودائع بعد اليوم لمن شارك في عملية السحب هذه . وهكذا وجدت ماريا نفسها مضطرة لحمل دولاراتها معها إلى المنزل ، فمضت تنظر ذات اليمين وذات الشمال متوقعة في كل لحظة أن يهجم عليها أحد المارة ويسرقها . وحين وصلت إلى المنزل لم تجد نفسها في حال أفضل . فريثما تتمكن من إيجاد مصرف آخر لم يكن أمامها ما تفعله سوى أن تخفي نقودها في ملابسها وتخيطها عليها . وهكذا ظلت ماريا أكثر من اسبوع محملة بسبيكتها الفضية . خائفة من عبور الشارع أمام المنازل ، فقد قال جرجس أنها قد تغوص في الوحل حتى قمة رأسها .

وبجملها هذا ، راحت تشق طريقها إلى الزرائب خائفة أيضاً ، .خائفة
هذه المرة من أن تكون قد فقدت عملها ، إنما لحسن الحظ كان عشرة
بالمائة من الناس العاملين في باكنجتاون من المودعين في ذلك المصرف ،
وليس من المعقول أن يصرف أرباب العمل مثل هذا القدر من العمال
دفعة واحدة . أما سبب ذلك الرعب والزحام فهو أن شرطياً حاول القبض
على سكير في حانة مجاورة ، الامر الذي دعا لتجمع الكثير من الناس
في الساعة نفسها التي كان الناس يقصدون أماكن عملهم وبذلك بدأ
« التزاحم لاسترداد الودائع » .

في ذلك الوقت تقريباً كان جرجس وأونا قد ابتدأ أيضاً حساباً
مصرفياً . إذ فضلاً عن أنهما دفعا ديون جونس وماريا ، كانا قد دفعا
أيضاً معظم أقساط الاثاث بل وادخرا مبلغاً صغيراً أودعاه في المصرف ،
فطالما كان باستطاعة كل منهما أن يعود إلى المنزل بتسعة أو عشرة
دولارات في الاسبوع ، كانت أمورهما تسير على مايرام . كذلك
كان موعد الانتخاب قد عاد ثانية فاستطاع جرجس أن يظفر بنصف
أجر الاسبوع منه ، ربحاً حلالاً زلالاً . كانت الانتخابات حامية
هذا العام ، وقلوصلت حرارة المعركة الانتخابية حتى باكنجتاون . فالفريقان
المتنافسان ، وكل من فيهما لصوص ينهبون الشعب ويبتزونه ،
كانا قد استأجرا صالات وراحا يشعلان المفرقعات النارية ويلقيان
الخطب ، في محاولة منهما لاثارة اهتمام الشعب . ورغم أن جرجس
لم يكن يفقه شيئاً بتاتاً الا أنه كان يعلم مايكفي لجعله يدرك أن بيع صوته

عمل غير صحيح . لكنه مع ذلك فعل مثلما فعل كل الناس . فرفضه الانضمام إلى الركب لن يؤثر قدر قلامة على النتائج : كما أن فكرة الرفض ستبدو حمقاء لو أنها خطرت في ذهنه .

الآن بدأت الرياح الباردة وأيام العمل القصيرة تحذرهم معلنة أن الشتاء قادم ثانية . فبدأ لهم وكأن الاستراحة كانت بالغة القصر .- اذ لم يتسع لهم الوقت الكافي للاستعداد للشتاء . لكنه مع ذلك جاء ، ولامفر منه أبداً . وبدأت نظرة الرعب تعود إلى عيني ستانيسلوفاس الصغير ، كما انتقل الرعب إلى قلب جرجس ايضاً ، إذ كان يعلم ان أونا ليست في حال تمكنها من مواجهة الشتاء بيرده وطبقات ثلوجه . ولنفرض أن أونا لم تأت إلى العمل في يوم عاصف من أيام هذا الشتاء حين تتوقف عن السير في شوارعه حتى الترامات . ثم جاءت في اليوم التالي لتجد أن عملها قد أعطي لواحاة أخرى تسكن في مكان أقرب ويمكن الاعتماد عليها أكثر . فماذا يحدث يا ترى ؟

في الاسبوع السابق لعيد الميلاد ، جاءت أول العواصف الكبيرة ، فهاجت روح جرجس في داخله مثل أسد في قفص . لقد مرت أربعة أيام لم تسر ترامات شارع أشلاند فيها أبداً ، وللمرة الاولى في حياته ، علم جرجس مامعنى أن يعاكسه الحظ حقاً . كان جرجس قد واجه صعوبات من قبل ، لكنها بدت له الآن أشبه بلعب الاولاد ، انه كفاح الموت ، وكل ما في داخله من ثوران وغضب أفلت من عقاله الآن .

في أول صباح من هذه الايام الاربعة ، انطلقوا قبل ساعتين من طلوع
الفجر ، أونا متدثرة بالبطانيات ، محمولة على كتفيه ككيس من الجريش ،
والصبي الصغير منكمش على نفسه ملفوف حتى لا تكاد تراه العين ،
متعلق بأذنيه . كانت هناك عاصفة ثلجية هائجة تلطمه على وجهه و كان
ميزان الحرارة يشير إلى مادون الصفر ، والثلج يغطي حتى ركبتيه ،
وفي بعض المواضع يصل حتى ابطيه . انه يمسك بقدميه ويحاول إبقافه ،
يرتفع على شكل جدار أمامه ويصده فيدفع نفسه فيه غائصاً مثل
بوفالو (١) جريح ، نافخاً ناخراً وقد استبدت به سورة الغضب .
هكذا ، شبراً شبراً ، كان يشق طريقه ، وحين وصل أخيراً إلى منشأة
دورهام كان يترنح تماماً ، يكاد لا يرى شيئاً أمامه ، فاستند إلى عمود ،
يشهق مقطوع الأنفاس ، ويشكر الاله على أن الماشية جاءت متأخرة
إلى أحواض الذبح في ذلك اليوم . في المساء اضطرب جرجس لفعل الشيء
ذاته ، ولأنه لم يكن قادراً على تحديد ساعة انتهاء عمله ، فقد طلب
من صاحب حانة أن يسمح لأونا بالجلوس في ركن من أركان الحانة
وانتظاره . ورغم أنها كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً حين خرج
من منشأته وكان الظلام أسود كالفحم ، رغم ذلك فقد ذهب إلى المنزل .
لقد قضت تلك العاصفة على الكثير من الرجال ، إذ أن الحشد
في الخارج ، ذلك الحشد من العاطلين عن العمل الذين ينتظرون فرصتهم

(١) البوفالو : هو الجاموس الأمريكي .

لم ينقص أبداً ، بل ربما ازداد ولم يكن أرباب العمل لينتظروا أحداً لحظة واحدة . لكن عندما انتهت العاصفة شعر جرجس بأن روحه طائر يغرد . لقد واجه العدو وهزمه فأحس جرجس بأنه سيد قدره . هكذا يحدث مع أحد أبطال الغابة حين يهزم أعداء في معركة مكشوفة ثم يسقط في شرك غادر أثناء الليل . فالحقيقة ليس هنالك من خطر في أحواض اللدبح الا عندما يفلت أحد الثيران من حظيرته . ذلك أنهم أحياناً ، وبسبب العجالة الشديدة ، قد يطرحون أحد الثيران على الأرض قبل أن يقضي نحبه تماماً ، حينها يهب على قوائمه ويندفع كالمجنون . وتنطلق صرخات التحذير - عندئذ يلقي العمال بكل ما في أيديهم ليندفعوا إلى أقرب عمود ، قاذفين بأنفسهم أرضاً هنا وهناك ، واقعاً بعضهم فوق بعض . وهو أمر بالغ السوء في الصيف ، حين يكون باستطاعة المرء أن يرى ، أما في الشتاء فإنه أمر يقف له شعر الرأس . لأن الغرف تكون مملأى بالبخار إلى درجة لا تستطيع معها أن ترى أبعد من خمسة أشبار ومن المؤكد أن الثور حين يندفع يكون أعمى تماماً ومجنوناً تماماً ، ولا يقصد إيذاء أحد بصورة خاصة ، لكن ماعليك إلا أن تفكر بأحد الاحتمالات وهو أن تقع على سكين من تلك السكاكين التي يحملها العمال ، وكلهم يحملون سكاكين تقريباً . ولزيادة الطين بلة ، يندفع بعد ذلك رئيس العمال ببندقيته وتبدأ لعلعة الرصاص .

في واحدة من حالات الهرج والمرج هذه سقط جرجس في الشرك . إنها الكلمة الوحيدة لوصف الحادث ، ولقد كان حادثاً بالغ

القسوة ، ومن المستحيل التكهّن به . في البداية لم يوله أي اهتمام ، انه مجرد حادث بسيط - فقد انفتل كاحله وهو يتنحى مبتعداً عن الطريق وكان هذا كل شيء . لكنه بدأ يحس بلمعة ألم خفيفة ، الا أن جرجس كان معتاداً على الألم ولم يزعج نفسه بالامر . لكنه حين عاد إلى المنزل ، أدرك أن كاحله يسبب له قدراً كبيراً من الألم ، وفي الصباح كان قد تورم وغدا ضعف حجمه تقريباً ، بل لم يستطع ادخال قدمه في الحذاء . رغم ذلك لم يفعل جرجس أكثر من رش بعض الشتائم واللعنات ثم لف قدمه ببعض الحرق القديمة وراح يعرج إلى الترام . كان ذلك اليوم وبمحض المصادفة يوم ازدحام في العمل فظل طوال الصباح يجري هنا وهناك عارجاً تؤلمه قدمه ، انما لم تحل الظهيرة حتى كان الألم قد اشتد إلى درجة جعلته يصاب بالاغماء ، وبعد ساعتين من العمل بعد الظهر وجد نفسه عاجزاً عن الاستمرار ، مضطراً لاجبار رئيسه . حينئذ أرسلوه إلى طبيب الشركة الذي فحص القدم ثم قال أن عليه أن يذهب إلى منزله وأن يرتاح في فراشه مضيفاً أنه ربما سيتعطل أسبوعاً كاملة نتيجة حماقته وأن الشركة ليست مسؤولة عن الضرر الذي لحق بقدمه . وكان ذلك كل شيء ، كل ما يهيم الطبيب من الامر .

وصل جرجس إلى المنزل ، عاجزاً تقريباً عن رؤية شيء أمامه لشدة الألم ، محملة نفسه برعب شديد الهول . ساعدته الزبيبتا حتى وصل إلى فراشه ثم ضمدت قدمه المصابة بعد أن دلكتها بالماء البارد وحاولت جاهدة ألا تدعه يرى ما يعتمل في نفسها من خوف ، وحين عاد بقية

أفراد العائلة ليلاً ، قابلتهم واحداً واحداً في الخارج وأنخبرتهم ، وهي تتصنع الشجاعة كما كانوا هم أنفسهم يتصنعونها ، بأن الامر قد يستغرق أسبوعاً أو أسبوعين وأن عليهم أن يشجعوه .

لكن عندما رأوه ينام ، أسرعوا إلى المطبخ حيث تحلقوا حول النار وبدؤوا يناقشون المسألة بهمسات خائفة . انهم في حالة حصار ، ومن السهل رؤية ذلك ، فجرجس لا يملك في المصرف الا ستين دولاراً ، وفترة الركود على الابواب وربما لن يكون باستطاعة ماريا وجوناس أن يكسبا أكثر مما يكفي لدفع ثمن الطعام ، ماعدا ذلك ليس هناك الا أجور أونا وما يأخذه الصبي الصغير من أجرة زهيدة . كان عليهم أن يدفعوا الايجار وكذلك بعض ديون الأثاث ، كما كان هناك سند التأمين ، وفي كل شهر كيس فحم بعد كيس . كانوا في كانون الثاني ، منتصف الشتاء ، وأفزع وقت تضطر فيه لمواجهة حالة طارئة . الثلوج العميقة ستعود ثانية ، فمن تراه يحمل أونا إلى عملها ؟ انها قد تفقد عملها — بل هي على يقين تام من أنها ستفقده . كذلك بدأ ستانيسلوفاس الصغير بالتذمر والنواح — من تراه يشمله برعايته ؟

انه لشيء رهيب أن بسبب حادث من هذا النوع ، حادث لا يمكن لإنسان أن يتفاداه ، كل هذه المعاناة ، لقد بات ، بما فيه من مرارة وهول ، طعام وشراب جرجس . ولم يكن ثمة جدوى من محاولتهم

مخادعته ، فقد كان يعرف عن الوضع مثلما يعرفونه ، كما كان يعلم أن العائلة قد تموت جوعاً فعلاً . كان لشدة قلقه يتأكل تأكلًا - وبدأ يظهر عليه الهزال منذ اليومين أو الايام الثلاثة الاولى . والحقيقة أنه أمر يدعو للجنون أن يضطر رجل قوي مقاتل مثله أن يستلقي هناك لاحول له ولاطول ، يعيد للعالم كلها قصة بروميثيوس مقيداً . فطوال الساعات ، كانت تراود جرجس ، وهو مستلق على ظهره في الفراش ، أفكار وأحاسيس لم تخطر له قط . فحتى ذلك الحين كان يقابل الحياة بوجه بشوش - كانت له تجاربه ، انما لم تكن من النوع الذي لا يستطيع الانسان مواجهته . أما الآن ، حين يحل الليل ويبدأ جرجس بالتقلب ذات اليمين وذات الشمال فقد كان يحبب غرفته دائماً شبح قائم ، تقشعر لمنظره الابدان ويقف الشعر . كان جرجس يشعر وكأن العالم كله يمد تحت قدميه ، كأنه يغوص في هاوية لاقرار لها ، إلى مهاو لليأس فاغرة الافواه . فبعد كل شيء ، قد يكون صحيحاً مايقوله الآخرون عن قسوة الحياة ، وأن أعظم طاقات الانسان وقدراته لايمكنها مواجهتها . كذلك قد يكون صحيحاً أنه رغم كل كفاحه وكده وتعبه قد يفشل ، وقد يهوي ويتحطم ! كان مجرد التفكير بشيء كهذا ينزل على قلبه كيد جليدية ثقيلة ، وكان جل تفكيره هو أنه ، هو وكل من يحب في هذا الوجود قد يسقطون في هذا المنزل الكريه المليء بالاهوال وقد يهلكون جوعاً وبرداً دون أن يجدوا اذنًا تسمع

صراخهم أو قلباً يعطف عليهم . أجل ، ذلك صحيح . . . وألف صحيح - فهنا ، في هذه المدينة الضخمة وبكل ما فيها من مخزونات وثروات مكدسة ، في هذه المدينة قد تقع مخلوقات بشرية في المصائد لتحطمها قوى الطبيعة الغاشمة ، تماماً مثلما كانت الحال أيام انسان الكهوف .

لانت أونا في تلك الآونة تكسب حوالي ثلاثين دولاراً في الشهر وستايسلوفاس حوالي ثلاثة عشر يضاف إلى هذا ثمن طعام جوناتس وماريا ، حوالي خمسة وأربعين دولاراً ، تحسم منها أجرة المنزل ، الفائدة ، أقساط الاثاث ، فيبقى ستون دولاراً ، يحسم منها ثمن الفحم فيبقى خمسون . لقد استغنوا عن كل شيء يمكن للكائن البشري أن يستغني عنه . اذ ظلوا بملابسهم القديمة البالية التي تركتهم تحت رحمة القرس والصقيع ، وحين كانت تبلى أحذية الاولاد كانوا يحزمونها بالخرق والخيوط . وكانت أونا ، وهي نصف العاجزة ، تؤذي نفسها أيما ايداء بسيرها تحت المطر والبرد إلى أن تتركب الترام . لم يكونوا ، بالحقيقة يشترى شيئاً سوى الطعام - ومع ذلك كان من المتعذر عليهم الاستمرار بخمسين دولاراً في الشهر . لكنهم ربما كانوا سيستمرون ، لو كانوا يحصلون على طعام نقي وبأسعار معقولة ، أو لو كان باستطاعتهم فقط أن يعلموا ماالذي ينبغي أن يأكلوه - لو لم يكونوا جاهلين إلى حد يثير الشفقة ! لقد كانوا غرباء ، في بلاد غريبة كل شيء فيها مختلف ،

حتى الطعام . وكانوا دائماً معتادين على تناول النقانق المدخنة لكن أنى لهم أن يعلموا أن مايشترونه في أمريكا ليس كذلك الذي عرفوه في روسيا — فاللون تستمده النقانق من الكيماويات ونكهتها الدخانية من كيماويات أخرى ، وهي فضلاً عن ذلك محشوة بـ « دقيق البطاطا » ، أي تلك الفضلات التي تخلفها البطاطا بعد استخلاص النشاء والكحول منها . وليس لهذا الدقيق من قيمة غذائية أكثر مما للخشب ، وبما أن استخدامه كطعام أمر محظر في أوروبا يخضع مرتكبه للعقوبة فان آلاف الأطنان منه تشحن إلى أمريكا كل عام . والكميات التي يحتاجها احد عشر شخصاً جائعاً كل يوم شيء يدعو للدهشة . لذا لم يكن مبلغ الدولار وخمسة وستين سنتاً يكفي لاطعامهم ولم يكن ثمة جدوى من المحاولة ، لذا كانوا مضطرين لان يسحبوا قدرأ من المبلغ الضئيل الذي كانت أونا قد أودعته في المصرف . وبما أن الحساب مسجل باسمها فقد تمكشت من ابقاء الامر سراً على زوجها لتفرد هي وحدها بالهم والعذاب .

ولو أن جرجس كان مريضاً حقاً ، لو أنه لم يكن قادراً على التفكير اذن لكان الامر أكثر ، ولكن يفعل حينذاك مايفعله معظم العاجزين ، لكنه لم يكن مريضاً ورغم ذلك كان كل مايستطيع فعله هو أن يستلقي ويتقلب من جنب إلى جنب . بين الحين والآخر كان ينفجر باللعن

والسباب ، بغض النظر عن كل اعتبار و دل شيء . من حين إلى آخر
كان يدفعه نفاد صبره لمحاولة النهوض مائلاً إياه قوة واندفاعاً ، غير
أن تيتا الزبييتا تسرع إليه ، متوسلة كالمجنونة . فالزبييتا هي وحدها
التي تظل معظم الوقت معه . تجلس وتمسك له جبينه الساعة بطولها
تحدثه وتحاول دفعه للنسيان . أحياناً يكون الطقس أشد برودة من أن
يستطيع الاطفال الذهاب إلى المدرسة ، فيبقون ويضطرون للعب في
المطبخ حيث يجلس جرجس لانه المكان الوحيد شبه المدفأ في المنزل .
وكانت هذه أوقاتاً رهيبة ، اذ يغدو جرجس متوتر الأعصاب كأني
دب هائج ، وليس بوسعك توجيه اللوم اليه ، فلهذه من المضايقات
والازعاجات ما يكفي ، وضجيج الاطفال وصخبهم يمنعه من الرقاد
كلما حاول الرقاد .

عزاء الزبييتا الوحيد في تلك الايام كان أنتاناس الصغير ، والحقيقة
أنه يصعب علينا القول كيف كان بوسعهم الاستمرار لولا وجود أنتاناس
الصغير . فسلى جرجس وعزاؤه في سجنه الطويل أن لديه الوقت
الآن لتأمل طفله والنظر اليه . كانت تيتا الزبييتا تضع سلة الملابس التي
ينام فيها الطفل بجوار فراشه ، وهكذا يتكلم جرجس على أحد مرفقيه
ويراقبه الساعات ، متصوراً أشياء وأشياء . حينذاك قد يفتح أنتاناس
عينيه — فقد بدأ يلاحظ الأشياء الآن ، وقد يبتسم — كيف تراه
يبتسم ! ! وبذلك يبدأ جرجس النسيان والشعور بالسعادة . لان في

هذا العالم شيئاً جميلاً كابتسامة أُنثاناس الصغير ولأن عالماً كهذا لا يمكن إلا أن يكون رائعاً في صميمه . كان الصغير يزداد شبيهاً بأبيه كل ساعة ، قالت الزبيبتا ذلك وكررته مرات ومرات ، لأنها رأت أن قولها هذا يسر جرجس . فالمرأة المسكينة الضئيلة المذعورة كانت تخطط طوال الليل والنهار لتهدة العملاق السجين الذي عهدوا لها برعايته . أما جرجس الذي لم يكن يعلم شيئاً عن نفاق هذه المرأة الدائم والطويل العهد ، فقد كان يلتقط الطعام ويبتسم بابتهاج ثم يرفع أصبعه أمام عيني الطفل الصغير ويحركها إلى اليمين والشمال ثم يضحك بسرور بالغ وهو يرى الطفل يتابعها . لا ، لا يمكن لحيوان مدلل أن يكون بسحر طفل وفتنته ، انه يحلق إلى وجه جرجس بحدة وذكاء فيهب جرجس صارخاً « بالوك» (١) انظري ، ماما . . انه يعرف أباه ! ! انه يعرفه الماتو تزيل (٢) ، الوغد الصغير .

- ١٢ -

انقضت ثلاثة اسابيع على اصابته ولم ينهض جرجس من الفراش . لقد كان التواء كاحل بالغ الشدة . الورم لم ينقص والألم ما زال مستمراً ، لكنه ، في نهاية هذه الفترة ، لم يعد يحتمل نفسه ، فبدأ يحاول السير قليلاً كل يوم ، عاملاً على اقناع نفسه بتحسن حاله . كل الحجج

(١ - ٢) باللغة الأصلية وقد اثرنا ابقائها ، أما معناها فيفسره ما بعدها .

فشلت في اقناعه بالعكس او اقناعه بالاقلاع عن عزمه ، وهكذا اعلن بعد ثلاثة أو أربعة ايام ، انه عائد إلى العمل ، وبالفعل مضى في الصباح يعرج على قدمه إلى أن وصل الترام وامتطاه إلى مؤسسة براون حيث وجد أن رئيسه حافظ له على مكانه ، اي انه كان يرغب في ان يرمي إلى الثلج ذلك البائس المسكين الذي استأجره في غضون ذلك . بين الفينة والفينة كان الألم يجبر جرجس على التوقف عن العمل ، الا انه ظل يتحمل حتى ساعة تقريباً من موعد انتهاء العمل . حينها اضطر للاعتراف بانه سيقع مغشياً عليه ان استمر . كاد هذا يحطم قلبه ، الا انه اعترف بعجزه ووقف متكئاً على عمود يبكي كما يبكي الاطفال . بعد ذاك اضطر اثنان من العمال لمرافقته إلى الترام وحين نزل منه اضطر لان يجلس على الثلج ، وانتظر إلى أن جاء من ساعده حتى المنزل .

وهكذا وضعوه في فراشه مرة ثانية وارسلوا خلف طبيب ، مثلما فعلوا في البداية . فتمين ان احد اوتار القدم قد انفصل خارجاً من مكانه ، وانه لن يتحسن الا بعناية شديدة . عند ذاك اطبق قبضتيه على جني الفراش وكثر على اسنانه وابيض لونه من الألم بينما كان الطبيب ، يسحب كاحله المتورم ويبرمه ويفتله . وحين غادره الطبيب قال له ان عليه ان يستلقي دون حراك مدة شهرين ، وانه اذا مذهب إلى العمل قبل هذه المدة سيصاب بالعرج مدى الحياة .

بعد ثلاثة ايام ، جاءت عاصفة ثلجية شديدة أخرى . فخرج

جوناس وماريا واونا وستانيسلوفاس الصغير جميعاً قبل ساعة من طلوع
الفجر ، محاولين الوصول إلى المسلخ . لكن ، حوالي الظهر عادت أونا
وستانيسلوفاس وهو يصرخ المأ . لقد تجمدت أصابعه كلها ، على ما يبدو ،
وكان عليهم ان يتخلوا عن محاولة الوصول إلى المسلخ بعد ان كادوا
يهاكون في طبقات الثلج . ولكي يتدفقوا كان كل ما يعرفونه هو أن يقربوا
أصابعهم المتجمدة من النار ، لذا قضى ستانيسلوفاس معظم الوقت
وهو يرقص في الغرفة من شدة الألم إلى ان انتفض جرجس في سورة
غضب مسعورة وراح يسب ويلعن كالمجنون معلناً أنه سيقته ان لم يكف .
وطوال ذلك النهار والليل ظلت العائلة شبه مصابة بالجنون لخشيته أن
تكون أونا والصبي قد فقدوا عملهما ، وفي الصباح انطلقا أبكر حتى .
بعد أن ضرب جرجس الغلام بعضاً على قفاه . فالمسألة لا تتحملها أونا
قط ، انها مسألة حياة أو موت ، ولم يكن أحد يتوقع من ستانيسلوفاس
الصغير ان يدرك أن من الخير له أن يتجمد تحت طبقات الثلج من أن يفقد
عمله في آلة تعبئة شحم الخنزير . كانت أونا متأكدة من أنها ستجد
عملها قد ضاع ، وتنفس الصعداء تماماً حين وصلت أخيراً إلى مؤسسة
براون ووجدت أن المشرفة نفسها فشلت في الوصول ، ولذلك اضطرت
لأن تكون رحيمة .

احدى نتائج هذا الحدث هو أن المفاصل الأولى لثلاث من أصابع
الغلام قد أصيبت بعطل دائم . وثمة نتيجة أخرى هي أنه لم يعد يخرج

إلى العمل عندما يهطل الداج إلا بالضرب . وكان على جرجس أن يضربه ، وبما أن ذلك كان يؤدي قدمه فقد كان يضربه بحقد وحب انتقام إلا أن ذلك لم يكن يشفي غليله أبداً . يقول المثل القديم : أفضل الكلاب تغدو شرسة حين تظل مقيدة بالسلاسل دائماً ، وهذا ينطبق على الرجل فهو لم يكن يستطيع إتيان شيء طوال النهار سوى الاستلقاء على ظهره ولعن قدره ، وقد حان الوقت الذي بات يرغب فيه بلعن كل شيء .

على أن هذا لم يكن يلوم طويلاً على أي حال ، إذ ما إن تبدأ أونا بالبكاء حتى يزول غضب جرجس ، كان المسكين يبدو أشبه بشبح شرير ، وجنتاه خائرتان ، شعره منسدل حتى عينيه ولم يكن يجرؤ على قصه أو التفكير بمظهره . كما كانت عضلاته تنوي وتضممر وما تبقى منها كان رخواً متهدلاً . لم تكن لديه شهية للطعام . ولم يكونوا يستطيعون اغراءه بالملاطفات . إذ كان يقول : من الأفضل ألا أكل شيئاً ، اني أوفر بذلك . وفي نهاية آذار وقعت يده على دفتر حسابات أونا فعلم منه أنه لم يبق لديهم في كل هذا العالم سوى ثلاثة دولارات .

ولعل أسوأ نتائج هذا الحصار الطويل هي أنهم خسروا فرداً آخر من أفراد عائلتهم . لقد اختفى الأخ جوناكس . ففي ليلة من ليالي السبت ، لم يعد جوناكس إلى المنزل ، وبعد ذلك ضاعت كل جهودهم في البحث عنه . لقد قيل على لسان رئيس العمال في منشأة دورهام أنه استلم أجرته الاسبوعية وغادر المنشأة . لكن قد لا يكون ذلك صحيحاً ، بالطبع .

فهم يقولون ذلك أحياناً عندما يقتل أحد العمال . وهي أسهل طريقة
لطي موضوع أي رجل بالنسبة لكل من يعنيهم الأمر . فعلى سبيل المثال ،
حين سقط أحد العمال في صهريج من صهاريج الإعدام وتحول إلى
رقائق شحم مختزير صاف وسماد لانظير له . لم يكن ثمة فائدة من
ترك الحقيقة تتسرب وجعل عائلته تبتس وتحن . لكن المعقول أكثر ،
هو أن جوناس هجرهم ومضى في طريقه يبحث عن السعادة . لقد
كان ساخطاً منذ مدة طويلة ولم يكن ذلك بغير سبب . انه يدفع مبلغاً
جيداً مقابل طعامه ونومه ومع ذلك كان مضطراً للعيش في بيت لا يجد
واحد من أفراده كفايته من الطعام . لقد ظلت ماريا تعطيهم كل ما لها
وهو مدعو ، بالطبع ، لفعل الشيء ذاته ، علاوة على ذلك فقد كان
هناك شياطين صغيرة دائمة الصراخ والضجيج . وكذلك كل ضروب
البؤس ، وربما ينبغي على الانسان أن يكون بطلا كي يتحمل هذا كله
دون شكوى أو تدمير ، ولم يكن لجوناس علاقة بالبطولة قط ، فهو
مجرد شخص عجوز أبلته صروف الدهر لا يرغب بأكثر من عشاء جيد
وجلسة بجانب الموقد يدخن غليونه بسلام قبل أن يسلم نفسه للرقاد .
لكن هنا ، لم يكن ثمة فراغ له بجانب الموقد وفي الشتاء قلما يدفأ المطبخ
ليكون المكان الذي يجد فيه الراحة والسلام . لذا ، ومع مجيء الربيع ،
ماعساه يراوده أكثر من تلك الفكرة المجنونة ، فكرة الفرار ؟ سنتان
والنبر في عنقه كالثور ، يجر عربة حملاتها نصف طن في أهبة دورهام

المظلمة : بغير راحة أبداً سوى أيام الآحاد وعطلة الأيام الأربعة كل سنة . وبغير كلمة شكر أيضاً - اللهم إلا إذا كانت الرفسات والكلمات واللعنات التي لا يتحملها حتى الكلاب ، تعد شكرًا . والآن انتهى الشتاء وبدأت تهب رياح الربيع ، وإذا مارس الإنسان يوماً واحداً على قدميه فانه سيضع دخان باكنجتاون خلفه إلى الأبد ويصل حيث العشب الأخضر والأزهار الزاهية بكل لون ولون .

بذهاب جوناس ، نقص دخل العائلة بمقدار الثلث ، بينما نقص الطلب على الطعام بنسبة واحد من أحد عشر أي غدت الأمور أشد سوءاً ، كذلك كانوا يستدينون المال من ماريا ويقضمون شيئاً فشيئاً حسابها المصرفي ، قاضين بذلك على كل آمالها في الزواج والسعادة . بل لقد غرقوا في دين تاموزيوس كوترلايكا حتى أصيب بالفقر هو نفسه . لم يكن لتاموزيوس المسكين أي أقرباء أبداً ، لكنه كان ذا موهبة وكان ينبغي أن يكسب ثروة وينعم بالثراء ، إلا أنه وقع في الغرام ، وقدم كل فروض الولاء والطاعة لحظه هذا فحكم عليه بأن يمرغ في التراب أيضاً .

وهكذا تقرر أخيراً أن على اثنين من الأولاد أن يتركا المدرسة . كانت هناك البنت التي تلي ستانيسلو فاس مباشرة وعمرها ثلاثة عشر عاماً تقريباً وتدعى كوترينا الصغيرة ثم غلامان : فيليماس وعمره أحد عشر عاماً ونيكالوجوس وعمره عشرة أعوام ، وكلاهما غلام

ذكي ، ولم يكن هناك سبب واحد يفسر لماذا كان على العائلة أن تموت جوعاً إذا كان هناك آلاف الأولاد الذين لايزيدونهم سناً ، يعملون ويكسبون ؟ وهكذا ، أعطي كل منهما ذات صباح ربع دولار ولفافة خبز في وسطها نقائق ، وزاداً من الارشاد والنصيحة ليس كمثله زاد ، ثم أرسلنا كي يسعيا في مناكبها ، يشقا طريقهما في المدينة ويتعلما بيع الصحف . في وقت متأخر من الليل ، عادا وهما يذرفان الدموع فقد قطعا خمسة أو ستة أميال سيراً على الأقدام ليخبرا العائلة بأن رجلاً عرض عليهما أن يأخذهما إلى مكان تباع فيه الصحف . ثم أخذنقودهما ودخل مخزناً كي يجلب لهما الصحف إلا أنه اختفى بعد ذلك ولم يريا له أثراً . وهكذا تلقى كل منهما جلدة سياط على ظهره وفي الصباح انطلقا من جديد . في هذه المرة وجدا محل بيع الصحف واشتريا بغيتهما ، وبعد التجول والتطواف حتى الظهيرة تقريباً ، منادين « صحف ، صحف » في وجه كل من يريانه ، جاء رجل ادعى أن المنطقة له وأنها تعديا عليها فأخذ ما معهما من صحف ثم رفس كلاهما بضع رفسات لكن لحسن الحظ ، كانا قد باعا بضع صحف من قبل وبذلك عادا بمثل المبلغ الذي بدأ به .

بعد اسبوع من مصائب ومضايقات كهذه ، بدأ الصغيران يتعلمان أصول المهنة — أسماء شتى الجرائد، كم يشتريان من كل منها ، الناس الذين يعرضان عليهم شرائها ، أين يذهبان ، أين لا يذهبان . بعد هذا بدأ يغادران المنزل في الرابعة صباحاً ، يجريان في الشوارع حاملين

صحف الصباح أولاً ، ثم صحف المساء ليعودا في وقت متأخر من الليل وفي جيب كل منهما عشرون أو ثلاثون سنتاً - وربما أربعون . من هذا المبلغ كان عليهما أن يحسما اجرة الترام نظراً لأن المسافة طويلة جداً ، لكن بعد لأي ، صار لهما أصدقاء واكتسبا مزيداً من المعرفة وحينذاك بدأ يوفران أجرة انتمائهما ، فهما يصعدان إلى الترام حين يكون الجاني غافلاً منشغلاً بشيء ما ثم يمدسان نفسيهما في الزحام ، وفي ثلاثة أرباع الحالات لا يطلب منهما الأجرة إما لأنه لا يراها أو لظنه أنهما دفعا من قبل ، وإذا صدف وطلب منهما الأجرة فأنهما يبدآن البحث في جيوبهما ومن ثم يبدآن البكاء وفي هذه الحالة إما أن تدفع عنهما سيدة من تلك السيدات العجائز رقيقات القلوب ، أو ينزلان لي تجربا حظهما في ترام آخر وهما يشعران بأن ذلك كله نوع من العبث الجميل . ترى ، خطيئة من إذا كانت الترامات تزدهم كثيراً في الأوقات التي يذهب فيها العمال إلى أعمالهم إلى درجة يتعذر معها على الجاني أن يجبي كل الأجور ؟ فضلاً عن ذلك ، فإن أصحاب الشركات مجموعة من اللصوص ، هكذا يقول كل الناس - أنهم يختلسون حقوق الناس ويسرقون أموال الشعب ، تساعدكم في ذلك طغمة من السياسيين .

الآن وقد مر الشتاء وزال معه خطر الثلج ونفقات الفحم ، وصارت هناك غرفة أخرى دافئة إلى حد يكفي لوضع الأولاد فيها حين يكون ، ومال يكفي للانفاق من أسبوع إلى أسبوع ، فقد غدا جرجس أخف

وطأة ما كان من قبل . فالإنسان يستطيع الاعتياد على أي شيء بمرور الزمن ولقد اعتاد جرجس على القعود في البيت . لاحظت أونا هذا لكشها كانت حريصة على ألا تفسد هدوء باله ، بألا تبده يعلم مقدار ما تتحمل من آلام . كان قد جاء أوان الربيع وأمطاره الغزيرة وكان على أونا أن تركب ، غالباً ، إلى عملها رغم نفقات الركوب ، وكان رجهها يشحب يوماً بعد يوم ، وكانت أحياناً رغم تصميمها ، تتألم كثيراً لأن جرجس لم يعد يلاحظ شيئاً ، بل بدأت تتساءل ان كان يهتم بها كما كان يفعل من قبل ، إن كان هذا البؤس كله لم يقض على حبه . كان عليها أن تظل بعيدة عنه طرال الوقت ، أن تحمل همومها وتحمل هو همومه ثم لا تعود إلى المنزل إلا وهي منهكة القوى ، ولا يتكلمان إلا عن الهموم والمشكلات - وفي حياة كهذه من الصعب حقاً أن تظل أية عاطفة على قيد الحياة . لذا كانت أونا تشتعل أحياناً حسرة وحرقة على هذا كله . وفي الليل تضم فجأة زوجها الكبير بين ذراعيها وتخرط في بكاء مرير ، ملححة على أن تعرف ان كان يحبها حقاً ، أما جرجس المسكين الذي غدا بالحقيقة أكثر واقعية وعملية بفعل الضغط الذي لانهاية له ، ضغط الفقر المدقع ، فقد كان يجد نفسه في حيرة من أمره ، لا يدري ما يفعله بأمور كهذه ، فكل ما يتذكره هو المرة الأخيرة التي ثارت بها أعصابه وهكذا تضطر أونا لمسامحته وتنشج في سرها قبل أن تجد سبيلها للرقاد .

في أواخر نيسان ذهب جرجس إلى الطبيب ، فأعطاه هذا ضماداً يشد به كاحله وقال له أن بإمكانه العودة إلى العمل . غير أن الأمر كان بحاجة لأكثر من اذن الطبيب ، فحين قدم نفسه لمراقب أحواض الذببح في مؤسسة براون أخبره هذا بأنه كان من المستحيل ابقاء مكانه شاغراً . فعلم جرجس أن هذا يعني ، ببساطة ، أن المشرف وجد شخصاً آخر يؤدي العمل على نحو أفضل ولا يرغب بازعاج نفسه واجراء أي تبديل . فوقف في المدخل يتطلع بحزن وأسى إلى أصدقائه وزملائه وهم يعملون ، يملؤه شعور قائم بأنه طريد منبوذ وأخيراً لم يجد بداً من أن يخرج ويحتل مكاناً بين حشد العاطلين عن العمل .

غير أن جرجس لم يكن هذه المرة يمتلك تلك الثقة العظيمة بالنفس ولا سبب تلك الثقة نفسه . فهو لم يعد الرجل الأحسن مظهراً في الحشد ولم يكن ليلفت أنظار الرؤساء ، بل هو الآن ضامر مهزول خلق الثياب ، بائس ، وهناك المئات الذين كانوا يبدوون ويشعرون مثله ، مئات ممن كانوا يتسكعون منذ أشهر في باكنتاون يستجدون عملاً ، كانت هذه الفترة حاسمة في حياة جرجس ، ولو كان رجلاً أضعف اذن لسار الطريق الذي يسير عليه البقية ، أولئك الأوغاد العاطلون عن العمل الذين يقفون حول دور التعليب كل صباح إلى أن تطردهم الشرطة فيتفرقوا بين الحانات . قلة منهم كانت تمتلك الشجاعة لمواجهة الدفع والصد الذي يواجهونه حين يحاولون دخول الأبنية لمقابلة رؤساء العمال ، وإذا لم تتح لهم فرصة في الصباح ، لا يظل لديهم ما يفعلونه سوى التسكع

في الحانات بقية النهار والليل . لقد أنقذ جرجس نفسه من هذا كله—جزئياً وبالتأكيد ، لأن الطقس كان حسناً ولم يكن ثمة ضرورة للاحتماء في الأروقة والمداخل إنما بصورة رئيسية لأنه يحمل معه دائماً وجه زوجته الصغير المثير للاشفاق . كان عليه أن يجد عملاً ، أن يخوض معركة خوض اليائس في كل لحظة من لحظات النهار . وكان ينبغي أن يجد لنفسه مكاناً يعمل فيه ويوفر بعض النقود قبل أن يحل الشتاء .

لكن أين العمل ؟ لقد سعى إلى كل أعضاء نقابته — وكان جرجس قد حافظ على عضويته في النقابة طوال هذه الفترة — توسل إليهم أن ينطقوا بكلمة من أجله . كذلك قصد كل معارفه ، باحثاً عن فرصة ، أية فرصة وفي أي مكان . كان يطوف النهار بطوله من بناء إلى بناء وبعد أسبوع أو أسبوعين ، حين كان قد طاف بكل المسالخ ودخل كل غرفة استطاع الدخول إليها ، وعلم أنه لا عمل له في أي مكان ، اقنع نفسه بأنه ربما حدث تغيير في الأمكنة التي زارها أولاً فبدأ تطوافه مرة ثانية ، إلى أن أصبح الحراس والمراقبون في الشركات يعرفونه بمجرد رؤيتهم له ويطردونه مع وابل من التهديدات ، عند ذلك لم يعد لديه ما يفعله سوى الانضمام للحشد في الصباح والبقاء في الصف الأول تظهر عليه مظاهر التوق للعمل ، وحين يفشل ، يعود إلى المنزل ويلعب مع كوترينا الصغيرة والطفل الصغير .

على أن أشد ما في هذا كله من مرارة ، هو أن جرجس كان يرى معناه على نحو بالغ الايلام . في البداية كان غض الإهاب قوياً ، وقد

وجد عمالاً منذ اليوم الأول ، أما الآن ، وقد أصبح مادة « مستعملة » بالية ، ان جاز لنا التعبير ، فانهم لم يعودوا بحاجة إليه . لقد امتصوا منه خير ما فيه - أكلوه لحماً ويلفظونه الآن عظماً ، ولقد تعرف جرجس إلى الكثير من أمثاله العاطلين عن العمل فوجد أنهم جميعاً يعيشون التجربة نفسها . بالطبع ، كان هناك البعض الذين جاؤوا من أماكن أخرى ، ممن طحتهم مطاحن أخرى ، وكان هناك من خرجوا نتيجة خطأ ارتكبوه بأيديهم . فبعضهم ، مثلاً ، لم يكن قادراً على احتمال الواقع بغير شراب ، إلا أن الغالبية العظمى كانت ، بكل بساطة ، قطعاً بالية استهلكتها آلة التعليب الهائلة التي لا ترحم . لقدكدوا وتعبوا هناك وحافظوا على وتيرة العمل بل إن بعضهم جاراها مدة عشر أو عشرين سنة إلى أن جاء وقت لم يعودوا قادرين على مجاراتها . فقليل لهم بصراحة ، ان السن تقدمت بهم وان الحاجة تدعو لادخال عمال أكثر شباباً . البعض الآخر قدم فريضة لهم حين قام بعمل من أعمال الإهمال أو عدم الكفاءة أما الأغلبية الغالبة فقد كانت فريضة فصلهم من أعمالهم مثل فريضة جرجس - لقد انهم العمل وتعرضوا زمناً طويلاً لسوء التغذية ، وفي النهاية حط مرض من الأمراض الشديدة الوطأة على كواهلهم ، أو أنهم جرحوا أنفسهم ، وأصيبوا بتسمم في الدم أو حدث لهم حادث آخر من تلك الحوادث الكثيرة ، وحين عاد واحد منهم بعد ذلك لم يستطع استعادة عمله إلا بمجامة رئيسه ومراعاته . وليس هناك استثناء لهذه القاعدة إلا حين يكون الحادث من النوع الذي تتحمل الشركة مسؤوليته ، وفي هذه الحالة يرسلون

محامياً داهية لرؤيته ، فيحاول ، قبل كل شيء ، أن يغريه بالتنازل عن حقوقه ، لكن إذا ما أثبت أنه ماكر لا يمكن خداعه ، يحده المحامي بأن تضمن الشركة له ولائي فرد من أفراد عائلته العمل الدائم وهم يحفظون مثل هذه العهود تماماً — انما لمدة سنتين . فالسنتان هما « قانون التحددات » أما بعد ذلك ، فلا يعود بوسع الضحية رفع أية قضية .

ما يحدث للعامل بعد ذلك يتوقف على الظروف . فإن كان من العمال الميزة قد يجد لديه ما يكفي لاجتياز محتته ، ذلك أن أفضل العمال أجوراً ، وهم الشطارون ، يكسبون خمسين سنتاً في الساعة ، أي خمسة أو ستة دولارات يومياً وذلك في مواسم ضغط العمل ، ودولاراً أو دولارين في مواسم الركود ، وبإمكان المرء أن يعيش ويوفر من هذا المبلغ انما ليس هناك إلا نصف دسته من الشطارين في كل مكان . واحد منهم كان يعرفه جرجس وكان يعمل عائلة تتألف من اثنين وعشرين طفلاً ، كلهم يرجون أن يكبروا ويصبحوا شطارين كأبيهم . أما العامل غير الماهر الذي يكسب عشرة دولارات في الأسبوع أيام ضغط العمل وخمسة أيام الركود ، فوضعه الله يتوقف على سنته وعلى عدد الأفراد الذين يعيلهم . ذلك أن الرجل الأعزب قد يوفر إن لم يكن يتعاطى المسكرات أو كان أنانياً مفرط الأنانية — أي حين لا يدفع شيئاً لوالديه العجوزين ، أو لا يبالي بأخوته وأخواته الصغار ، أو بأقربائه الآخرين الذين قد يكونون حولهم ، ولا يهتم بأعضاء نقابته أو زملائه أو الناس الذين قد يموتون جوعاً في المنزل المجاور .

خلال هذه الفترة التي كان جرجس يبحث فيها عن عمل حدثت وفاة كريستوفوروس الصغير ، وهو احد أطفال تيتا الزبييتا الذي كان مع أخيه الصغير جوزاباس مقعدين ، الأخير فقد احدى ساقيه في حادث دهس والأول يعاني من خلع مفصلي خلقي ، الأمر الذي جعل امكانية مشيه مستحيلة . كان هذا آخر العنقود لدى الزبييتا ، ولعله جاء هكذا بهدف تقصده الطبيعة تماماً وهي أن تنبئها أنها قد ولدت مافيه الكفاية . على أية حال ، كان الطفل يمرض دائماً وكان ضئيل الحجم ، يعاني من الكساح ، ورغم أنه كان قد أكمل الثلاث سنوات إلا أنه لم يكن أكبر من طفل العام الواحد . كان طيلة النهار يزحف هنا وهناك في الشقة بثوب صغير وقدر ، مهمهما ناحياً ، ولأن الشقة كانت ملاءى بالتيارات الهوائية فقد كان يصاب بالزكام دائماً وكان يعطس ويسيل أنفه . كل هذا جعله مصدر ازعاج ومشكلات لانهاية لها في البيت . فأمه ، بعناذها غير الطبيعي ، كانت تحبه أكثر من الجميع وتثير الكثير من البلبلة بشأنه — إذ تتركه يفعل أي شيء دون أن تسمح لأحد بازعاجه . خِط في البكاء حالما تثير مناكدته غضب جرجس .

اما الآن فقد مات . لعلمها التفائق المدخنة التي اكلها ذلك الصباح -
والتي قد تكون مصنوعة من بعض لحوم الخنزير المسلوقة التي حكم
عليها بانها غير مناسبة للتصدير . على اي حال ، بدأ الطفل ، وبعد
ساعة واحدة من تناولها ، يبكي بآلم شديد وخلال ساعة أخرى
كان يتدحرج على الارض متشنجاً . جرت كوترينا الصغيرة ،
التي كانت بمفردها معه ، إلى الخارج وهي تصرخ وتستغيث وبعد حين
من الزمن جاء الطبيب ، انما كان كريستوفوروس قد انظ آخر انفاسه .
ما من احد حزن حزناً حقيقياً على هذا الا الزبييتا المسكينة التي لم تكن
لتجد عزاء عنه . اعلن جرجس ان على البلدية أن تدفن الطفل نظراً
لانهم لا يملكون مالاً لاقامة جنازة له . هنا طار صواب المرأة المسكينة
وراحت تعصر يديها وتولول حزناً وقنوطاً . طفلها يدفن في قبر شحاذ !
أخته تسمع ذلك ولا تعترض ! ! ذلك يكفي لان ينهض والدها من قبره
ويوبئها . ان وصل الامر إلى هذا الحد فعليهم اذن ان يموتوا جميعاً
وان يدفنوا كلهم سوية . في النهاية قالت ماريا انها ستساهم بعشرة
دولارات ، وبما أن جرجس ظل مصراً على رأيه ، فقد خرجت الزبييتا ،
تسبقها دموعها ، لتطلب مالاً من البحيران ، ثم اقيم جناز على روح
الطفل الصغير ودفن كما يدفن كل اصحاب الكرامات . غير ان الام
المسكينة لم تعد إلى سابق طبيعتها قبل بضعة اشهر . بل كانت تبكي
بمجرد رؤيتها الارض التي كان يزحف عليها كريستو . . وكانت

تردد دائماً ، مسكين . كان حظه سيئاً . . لقد ولد معوقاً . ولو أنها
عرفت ذلك منذ ولادته اذن لجاءت باحسن طبيب لعلاجّه . قبل فترة
وجيزة كان بعضهم قد أنخبرنا ان احد اثرياء شيكاغو دفع مبلغاً كبيراً
واتى بجراح اوروبي كبير ليعالج له ابنته الصغيرة التي تعاني من مرض
كريستو نفسه ، ولان هذا الجراح كان بحاجة لأجسام يظهر مهاراته
بها ، فقد اعلن انه سيعالج اطفال الفقراء : نفحة من نفحات الاريحية
طبلت لها الصحف كثيراً وزمرت ، غير ان الزبيبتا ، وبالأأسف ،
لم تكن تقرأ الصحف ولم يخبرها احد بهذا الخبر ، ولعل ذلك من حسن
حظهم ، اذ لم يكونوا حينذاك يملكون اجرة الترام إلى المدينة كي
ينتظروا الجراح كل يوم ، ولم يكن لدى احد منهم الوقت الذي يسمح
له بمرافقة الطفل .

طوال الوقت الذي كان جرجس يبحث فيه عن عمل ، كان هناك
ظل اسود يخيم عليه . كان يشعر وكأن وحشاً رهيباً يختبئ له في مكان
ما من طريقه ، وحشاً يعرفه انما لابد من الاقتراب منه . في باكنجتاون
توجد كافة مراحل البطالة ، وبرعب شديد كان جرجس يواجه
احتمال وصوله إلى المرحلة الدنيا ، إلى الدرك الاسفل وليس هناك
سوى مكان واحد ينتظر من يصل إلى هذا الدرك الاسفل - انه معمل
الاسمدة .

العمال يتحدثون عنه بهمسات ملؤها الذعر ، والواقع انه لم يكن يحاول دخول هذا المعمل أكثر من عِشر العمال، اما الأعمار التسعة الاخرى فكانوا يكتفون بما يسمعون دليلاً وباحتلاس نظرة عبر الابواب . فهناك اشياء اسوأ حتى من الموت جوعاً . انهم يسألون جرجس اذا كان قد اشتغل هناك من قبل واذا كان ينوي العمل ، وجرجس يناقش المسألة في سره ، ترى هل يتجرأ ، وافراد عائلته الفقراء المساكين يقدمون ما يقدمونه من توضيحات ، على أن يرفض اي نوع من أنواع العمل الذي يعرض عليه ، مهما يكن عليه من سوء ؟ هل يجرؤ ان يذهب إلى المنزل ويأكل خبزاً من عرق اونا ، هي الضعيفة المريضة ، وماذا تراها تقول ان عرفت انه اتيجت له فرصة ، وتردد في اقتناصها ؟ - ورغم أنه كان يناقش المسألة في سره النهار بطوله ، الا ان نظرة واحدة على الاعمال في مصنع الاسمدة كانت تجعله يولي الادبار وهو يرتعش . لكنه رجل وسيء ذي واجبه ، وهكذا ذهب وقدم طلباً - لكن بالتأكيد ، دون أن يراوده أدنى أمل بالنجاح . كانت اعمال الاسمدة في منشأة دورهام تقع بعيداً عن بقية اعمال المنشأة بل ان القلة من الزوار كانت تراها ، وكانت هذه القلة تخرج كما نخرج داني الذي أعلن الفلاحون حين رأوه ، انه كان يبدو وكأنما كان خارجاً فعلاً من الجحيم ، هذا القسم من المسالخ كانت تأتي إليه كل « نفايات المسلخ » وكل اصناف الفضلات . فهنا يجففون العظام - . ويتم ذلك في اقبية خائفة لا يدخلها

نور الشمس ، حيث ترى الرجال والنساء والأطفال ينحنون على آلات سريعة الدوران ناشرين العظام بشتى الاشكال ، متنفسين ببالح الصعوبة ، مالتين صدورهم بدقائق الغبار ، محكوماً على كل منهم بالموت خلال اجل محدود . وهنا يصنعون من الدم زلالاً ومن الاشياء الأخرى البغيضة الرائحة اشياء ابغض رائحة حتى ، وفي الممرات والمغاور التي يجري فيها ذلك ، قد تضيق كما يضيق المرء في مغاور كنتكي . كانت مصابيح الكهرباء تضيء في وسط الغبار والبخار شاحبة ضعيفة مثل نجوم نائية بعيدة ، نجوم حمراء وزرقاء وخضراء وارجوانية ، وذلك حسب لون الضباب والسديم الذي تمر عبره ، اما بالنسبة للروائح في هذه المقابر الرهيبة فقد تكون هناك كلمات في اللغة الليتوانية تعبر عنها اما في الانكليزية فلا . ان من يدخل إلى مكان كهذا يجد نفسه بحاجة لتجميع كل شجاعته كما يفعل من يريد الغوص في ماء شديد البرودة ، وقد يتابع انما كمن يسبح تحت الماء . وهو قد يضع منديله على وجهه ، وقد يجد أن دويماً ما بدأ في رأسه وان سرايين جبهته تنبض بشدة إلى أن تهاجمه اخيراً هبة طاغية من روائح النشادر فينفثل على عقبه ويجري لانقاذ حياته لكنه لا يصل إلى الخارج الا وهو شبه فاقد الوعي .

في القسم العلوي من المعمل كانت هناك غرف تجفيف النفائات وهي تلك المادة الحيطية السمراء التي تتخلف ، بعد استخراج الشحم والودك ، من تلك الاقسام المهذورة من الذبائح . بعد ذاك تطحن هذه المادة المجففة إلى أن تصبح مسحوقاً ناعماً وبعدها تخرج مزجاً حسناً

بمسحوق صخري بني اللون ، غامض وغير ضار ، مسحوق تأتي به مئات الشاحنات من الخارج لهذا الغرض ، وبذلك يغدو مادة تعبأ في أكياس وتخرج إلى العالم باعتبارها احد الانواع العديدة لفوسفات العظام النموذجي . بعدئذ قد يشتري المزارع في كاليفورنيا او تكساس أو ماين هذه المادة بخمسة وعشرين دولاراً للطن مثلاً ، ويرش ذرته بها ، ولعدة ايام بعد عملية الرش قد تظل هناك رائحة قوية ليس للحقل وحسب بل للحقل والمزارع نفسه بل والعربة وحتى الخيول التي حملتها. أما في باكنجتاون فالسماد نقي ، وعوضاً عن المقادير الصغيرة التي يمكن ان يرشها المزارع . عوضاً عن الطن وماشابه مما يرش على الحقل في الهواء الطلق ، ثمة مئات وآلاف الاطنان منه في المبنى الواحد ، مكومة هنا وهناك ككوم البيادر ، مغطية الارض في كل مكان بعمق عدة بوصات ، مائلة الهواء بغبار نحاتق يتحول إلى عاصفة رملية تعمي العيون حين يتحرك الهواء .

إلى هذا المبنى كان جرجس يجيء يومياً ، وكأنما تجره يد غير مرئية . كان شهر ايار من ذلك العام شهراً بارداً على نحو استثنائي ، وقد استجيبت دعواته السرية . لكن في مطلع حزيران ارتفعت الحرارة ارتفاعاً فاق كل معدل لها ، ونتيجة لذلك باتت الحاجة ماسة لعمال في معمل الاسمدة .

في ذلك الحين بات رئيس عمال قاعة الطحن يعرف جرجس كسا وصفه بأنه شخص مقبول ، وهكذا عندما جاء إلى الباب في حوالي الساعة

الثانية من ظهيرة ذلك اليوم الحار الخائق ، شعر بتشنج فجائي مؤلم يمرق كالسهم في جسده - فقد اوماً رئيس العمال له وخلال عشر دقائق اخرى كان جرجس قد نزع سترته وقميصه العلوي وكز على اسنانه جيداً ومضى إلى العمل . فيها هي ذي عقبة أخرى عليه ان يواجهها وينالها .

استغرق عمله دقيقة واحدة من الزمن كي يتعلمه فأمامه واحدة من فتحات الطاحونة التي تطحن السماد - وكان هذا يتدفق منها على شكل نهر اسمر كبير ، ناثراً حوله غباراً ناعماً كأنه السحاب . اعطي جرجس رفشاً ، وأوكلت اليه ، اضافة إلى نصف دسته من العمال الآخرين بجواره ، مهمة جرف هذا السماد إلى العربات اليدوية . اما الآخرون الذين كانوا يعملون معه فكان يعرفهم بسبب أصواتهم ، ولأنهم كانوا يصدونهم احياناً . أما لولا ذلك فما كان باستطاعته أن يميز وجودهم . ففي وسط هذا الغبار يتعذر على المرء أن يرى أكثر من ستة اشبار امامه . لذا كان عليه ، حين يملأ العربة ان يتلمس حواليه إلى ان تأتي عربة اخرى ، فاذا لم يكن هناك واحدة تعين عليه ان يتابع تلمسه إلى ان تصل . خلال خمس دقائق ، طبعاً غدا جرجس من عاليه إلى سافله سماداً وكانوا قد اعطوه اسفنجة كمن بها فمه كي يتمكن من التنفس ، انما لم تستطع الاسفنجة ان تحول بين شفثيه وأجفانه وبين تشكل عجينة من هذا السماد عليها او بين اذنيه وامتلائهما به . كان يبدو اشبه بشبح اسمر عند الغسق - فقد غدا من شعره حتى قدميه

بلون المبنى ولون كل مافيه ، بل ولون كل مايقع خارجه حتى مائة ياردة . كان على المبنى ان يظل مفتوحاً دائماً لذا حين كانت تهب الريح كان دورهام وشركاؤه يخسرون مقداراً كبيراً من الأسمدة . وهكذا راح الفوسفات يتسرب إلى مسام جلد جرجس ، وهو يعمل عاري اليدين وبدرجة حرارة تزيد عن الاربعين . وفي غضون خمس دقائق كان قد بدأ الصداع في رأسه وخلال خمس عشرة دقيقة اوشك ان يصاب بالاغماء . كان الدم يدق في دماغه بصوت يشبه صوت المحرك ، وكان هناك ألم خفيف في اعلى جمجمته ، ولم يستطع الا بالكاد ان يتحكم بيديه . مع ذلك فقد استمر ، وهو يستعرض في ذهنه ذكرى الاشهر الاربعة من الحصار التي خلفها وراءه ، استمر يعمل وهو في نوبة جنون من التصميم ، لكن بعد نصف ساعة بدأ يتقيأ وظل يتقيأ إلى ان شعر وكأنه سيتقيأ احشائه نفسها ، غير ان رئيس العمال جاء اليه ثم قال : المرء يتعود على الجو هنا ، اذا اراد ان يتعود . أما جرجس فكان قد بدأ يرى ان المسألة ليست مسألة ارادة وتصميم بل مسألة تخص معدته وحدها . . . تقبل ام لا تقبل .

في نهاية يوم الاحوال ذاك ، كان جرجس لا يستطيع الوقوف إلا بالكاد . كان عليه ان يتوقف من حين إلى حين ويتكئ على جدار المبنى بعض الوقت لكي يستجمع قواه ، اما معظم العمال فكانوا ، حين يخرجون ، يذهبون مباشرة إلى الخانات إذ كانوا ، على ما يبدو ، يضعون السماد وسم الافعى ذات الاجراس في مرتبة واحدة . غير ان

جرجس كان اشد مرضاً من ان يفكر بالشراب — لم يكن يستطيع فعل شيء سوى شق طريقه بصعوبة والترنج إلى اقرب ترام . كان يراوده احساس بالدعابة ، وفيما بعد ، حين اصبح عاملاً قديماً ، بات يظن انه امر مضحك ان تركيب تراماً ، كما فعل هو ، وترى ما يحدث . لكنه كان حينذاك اشد مرضاً من ان يلاحظ — كيف بدأ ركاب الترام يشهقون ويبصقون ، كيف بدأوا يضعون المناذيل على انوفهم ويحدجون بنظرات لاهية . كل ماعرفه جرجس هو ان احد الركاب امامه نهض مباشرة وقدم له المقعد ، وبعد نصف دقيقة نهض اثنان آخران من كلا جانبيه ، وفي غضون دقيقة واحدة كان الترام المزدحم خاوياً تقريباً — فأولئك الركاب الذين لم يجدوا محلاً لهم بعيداً عنه غادروا الترام وانطلقوا سيراً على الاقدام .

وبالطبع احال جرجس منزله إلى مصنع اسماء مصغر بعد دقيقة من ولوجه بابه . فالسماد كان قد انغرس عميقاً في جلده — جسمه كله كان مشبعاً به ، ولعله كان سيستغرق اسبوعاً ، ليس بذلك وحده بل بأشد انواع الحك والفرك ، للتخلص منه . لم يكن بالامكان ، وهو على ماعليه ، ان يقارن نفسه بأي شيء سبق وعرفه البشر ، اللهم ماعدا تلك المادة المشعة التي اكتشفها العلماء من جديد ، تلك المادة التي تشع طاقة لا مد غير محدود دون أن ينقص ذلك من طاقتها . وقد طغت رائحته على كل شيء ، حتى على الطعام ، ما دفع بأفراد العائلة جميعاً للتقيؤ ، اما هو نفسه فقد ظل ثلاثة ايام عاجزاً عن ابقاء شيء في جوفه — فهو

قد يغسل يديه ويستخدم شوكة وسكيناً لكن أليس فمه وبلعومه مليئين
بالسم ؟

رغم ذلك كله ظل جرجس متمسكاً بعمله ورغم الصداع الذي
يقلع الرأس سار مترنحاً إلى مكان عمله ليحمله مرة أخرى ثم بدأ بجرف
السماد غارقاً في سحابة من الغبار تعمي العيون . وهكذا لم ينته الأسبوع
حتى كان قد غدا عاملاً في معمل الأسمدة إلى الأبد . لقد بات قادراً
على كسب قوته مرة ثانية ورغم ان صداع رأسه لم يكف ابداً ، إلا انه
لم يصل إلى درجة من الشدة توقفه عن عمله .

وهكذا انقضى صيف آخر ، صيف ازدهار في البلاد كلها ،
أكلت البلاد فيه منتجات دور التعليب بنهم شديد ، وكان معنى ذلك
توفر قدر كبير من العمل للعائلة كلها ، رغم محاولات أرباب العمل ،
إبقاء فيض زائد من اليد العاملة . وهكذا استطاعوا مرة ثانية ان يدفعوا
ديونهم وبدؤوا بتوفير بعض المال غير انه كان هناك تضحية أو تضحيتان
اعتبرت العائلة ان تقديمهما لمدة طويلة امر شديد الوطأة . لقد كان
امراً بالغ السوء ان يظل الغلامان بائعي صحف وهما في هذه السن .
فمن العبث تماماً ان تحذرهما وتنبههما . اذ انهما ، وبلهلهما التام ،
انخرطا في جوهرهما الجديد انخراطاً تاماً ، لقد تعلموا السباب والتجديف
بالانكليزية الدارجة . وتعلموا التقاط اعقاب السجائر وتدخينها ، وكذلك
قضاء الساعات وهما يقامران بالبسبات والنرد وعلب السجائر . كما

تعرفنا إلى كافة مواخير المدينة . واسماء النساء اللواتي يدبرنها وباتا يعرفان الايام التي يقمن فيها حفلاتهن السرية التي يحضرها ضباط الشرطة وكبار السياسيين جسيماً . فاذا ماسألهما احد الزبائن الريفيين من زوار المدينة باتا باستطاعتهم ان يدلاه على حانة « هنديدينك » الشهيرة . بل ويمكنهما حتى ان يدلاه بالاسم على مختلف لاعبي القمار والمشاكسين و « القبضايات » الذين كانوا قد اتخذوا من المكان مقرآلهم . على ان الاسوأ من هذا كله هو ان الغلامين باتا لا يرجعان إلى المنزل ليلاً . كانا يتساءلان ما الفائدة من اضاءة الوقت والطاقة وربما اجرة الترام لكي يذهبا إلى منطقة الزرائب كل ليلة في حين ان الجو لطيف وبامكانهما الزحف تحت شاحنة او التسلل إلى مدخل نخل والنوم فيه كما ينام واحدتهما في منزله ؟ ثم ، طالما ان واحدتهما يعود إلى المنزل بنصف دولار يومياً ، فمن الذي يهتم بعد ذلك متى يعود ؟ لكن جرجس اعلن ان المسافة التي تفصل بين هذه النقطة وبين عدم المجيء بتاتا ليست طويلة جداً . لذا اتخذت العائلة قرارها بان يعود فيليماس ونيكالوجوس إلى المدرسة في الحريف . وعوضاً عنهما يمكن لالزبييتا ان تخرج وتبحث عن عمل . اذا احتلت محلها في المنزل ابتتها الصغرى .

فكما هو شأن معظم ابناء الفقراء . صارت كوترينا الصغيرة كبيرة السن قبل الاوان ، كان عليها ان ترعى أخاها الصغير الذي كان مقعداً وكذلك الطفل الرضيع ، كما كان عليها ان تطهو الطعام وتغسل الصحون وتنظف المنزل وتجهز العشاء حين يصل العاملون إلى المنزل

مساءً . لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة من العمر . فضلاً عن انها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لسنها ، الا انها كانت تقوم بكل هذه الاعباء دون تأمر . وقد خرجت امها فعلاً . ثم استطاعت ، بعد التطواف يومين كاملين من فناء إلى فناء ، ان تستقر أخيراً كخادمة لدى « آله نقاتق » .

كانت الزبيبتا معتادة على العمل الا انها وجدت هذا التغير في نوعية العمل صعباً للغاية ، اذ كان عليها ان تقف على ساقيها بلا حراك من الساعة صباحاً وحتى الثانية عشرة والنصف ، ثم مرة ثانية من الواحدة حتى الخامسة والنصف . في الايام القليلة الاولى بدا لها انها لن تستطيع التحمل .- فقد كانت تعاني مثلما عانى جرجس في معمل الاسمدة ، كما كانت تخرج إلى الشمس ورأسها يفتل تماماً . فضلاً عن هذا ، فقد كانت تعمل في واحد من تلك الجحور المظلمة ، على ضوء الكهرباء ، والرطوبة قاتلة .- فهناك دائماً برك ماء على الارض ورائحة لحم رطب في الغرفة تدعو للاقياء . كان الناس الذين يعملون هنا يتبعون عادة قديمة من عادات الطبيعة ، يكون بها الترمجان (١) بلون الاوراق الميتة في الخريف وبلون الثلج في الشتاء ، كما تسود الحرباء حين تكون على جذل (٢) شجرة وتختصر حين تنقل إلى الاوراق . ولقد كان الرجال والنساء

(١) الترمجان : طائر من رتبة الدجاج في الأصقاع الشمالية من الكرة الأرضية .

(٢) الجذل : مايتبقى من الشجرة بعد قطعها .

العاملون في هذا القسم بلون « النفاق البلدي الطازج » الذي يصنعونه
تماماً .

كانت غرفة النفاق مكاناً مشيراً حين تزوره الدقيقتين او ثلاث
شريطة الا تنظر إلى الناس هناك ولعل الآلات الموجودة فيها هي اروع
ما في المنشأة بأسرها . إذ من المفترض ان النفاق كانت تة طع وتحشى
باليد في سالف الزمان . واذا كان الامر كذلك فانه سيكون امراً
مثيراً ان نعلم كم من العمال حلت محلهم هذه الآلات . ففي احد جوانب
الغرفة كانت هناك القواديس التي يلقيها العمال رفوشاً محملة باللحم
وعربات يدوية ملأى بالبهارات والتوابل ، في تلك القواديس كانت
هناك سكاكين تدور دوراناً سريعاً ، التي دورة في الدقيقة ، وحين
يطحن اللحم طحناً ناعماً ويتبل بدقيق البطاطا ثم يمزج بالماء ، فانه يدفع
قسراً إلى آلات الحشو الموجودة في الجانب الآخر من القاعة والتي تشرف
عليها عاملات من النساء . ففي كل آلة يوجد بزباز يشبه بزباز الخرطوم ،
تقف بقربه إحدى النساء وتأخذ حبلاً طويلاً من الامعاء المنظفة ثم
تضع طرفه على البزباز ليملأه هذا بالحشوة ، تماماً كما يمتليء القفاز
الضيق باصابع الكف . هذا الحبل قد يكون بطول عشرين او ثلاثين
قدماً ، الا ان المرأة تملؤه بلحظة واحدة ، فحين يصير لديها عدة حبال
منها تضغط عتلة وفي اللحظة ذاتها ينطلق جدول من لحم النفاق ،
ثم تسحب الامعاء بالطريقة نفسها التي جاءت بها . وهكذا يمكن للمرء
أن يقف ويرى ، وعلى نحو يثير العجب كيف تولد من الآلة حبال

النقائى الافعوانىة الملتوىة وبطول لاىصدق . فى الواجهة كان هناك
حوض كبرى ىستقبل تلك المخلوقات وكانت هناك ، عاملتان اخريان
ىمسكان بها حالما تظهر ثم يلفانها على شكل حلقات . هذا العمل ، بالنسبة
للعاملة غير المدربة ، كان أكثر مافى المهمة صعوبة ومدعاة للاحيرة ،
فكل ماكان عليها ان تفعله هو فتلة صغيرة من الرىخ ، وبطريقة تحاول
فىها ان تصنع على يديها ، وعوضاً عن تلك السلسلة التى لانهاية لها من
مجال النقائى ، حزمة من الخبال تتدلى كلها من مركز واحد وكان
ذلك اشبه بأعمال المشعوذين — فالمرأة تعمل بسرعة إلى درجة ىتعذر
معها على الناظر ان يالحق بها عملياً ، اذ لايرى الا سديماً من الحركة .
تظهر على الاثر حلقة نقائى بعد اخرى . لكن فى نخضم السديم هذا
ىلاحظ الزائر فجأة الوجه المتوتر الاعصاب مع تغضنين محفورين على
الجبين وشحوباً مروءاً فى الوجنتين فىتذكر فجأة انه آن له ان يذهب .
أما المرأة فلا تذهب ، بل تمكث الساعات الطوال هناك — ساعة بعد ساعة
ويوماً بعد يوم وسنة بعد سنة ، تلف حلقات النقائى وتسبق الموت .
إنه عمل بالقطعة ، وقد يكون لديها عائلة تريد ابقاءها على قيد الحياة ،
فالقوانين الاقتصادية التى لاترحم فرضت عليها ألا تستطيع أداء عملها
هذا إلا بالطريقة التى تؤديه بها تماماً ، ساكبة كل روحها فيه ، دون أن
تجد لحظة واحدة تستطيع النظر، ولو نظرة خاطفة، إلى السيدات والسادة
الذين جاؤوا وهم فى أبهى الملابس للتفرج عليها وكأنما ىتفرجون على
وحش غريب فى معرض للوحوش .

بات لدى العائلة ، واحدى نساءها تعمل في تشذيب لحم البقر في
معمل للتعليب وأخرى في معمل للنقانق ، معرفة مباشرة بأغلبية الأعيب
باكنتاجاون . إذ كانت العادة ، كما اكتشفوا ذلك بأنفسهم ، أن اللحم
حين يكون فاسداً ولا يمكن استخدامه في أي مجال آخر فإنه إما أن يعلب
أو يقطع وتصنع منه نقانق . وإضافة إلى المعلومات التي كان جوناس
قد نقلها لهم عما يدور في غرف التخليل فقد بات باستطاعتهم الآن أن
يدرسوا مجمل صناعة اللحم الفاسد من الداخل وأن يروا معنى كريهاً
وجديداً في تلك المزحة القديمة السائدة في باكنتاجاون - أي أنهم
يستخدمون كل ما في الخنزير ماعدا صراخه .

كان جوناس قد أخبرهم كيف أن اللحم الخارج من التخليل غالباً
ما يكون كريه الطعم وكيف أنهم يفركونه بالصودا ويزيلون رائحته
ثم يبيعونه طعاماً يؤكل على طاولات المطاعم . كذلك من بين معجزات
الكيمياء التي يصنعونها ، فقد كان باستطاعتهم أن يعطوا اللون الذي
يشاؤون لأي نوع من اللحم ، طازجاً كان أم مملحاً ، كاملاً أم مفروماً ،
كما كان باستطاعتهم أن يضيفوا عليه أية نكهة ورائحة . فلدى تحليلهم
للحم الخنزير ، هناك جهاز رائع يوفر به الوقت ويزيدون استطاعة

المنشأة — آلة تتألف من ابرة جوفاء معلقة إلى مضخة ، حيث يستطيع المرء ، بغرز هذه الابرة في اللحم وتشغيل قدمه أن يملأ قطعة اللحم بالمخلل خلال بضع ثوان ، مع ذلك ، ورغم هذا كله يظل هناك بعض قطع اللحم الفاسدة ، وتكون رائحة بعضها كريهة إلى حد يصعب معه على الانسان أن يتحمل بقاءه في الغرفة التي يوجد فيها ، لكي لا ينخر أصحاب المنشآت مثل هذه القطع فانهم يجرون لها تخليلة ثانية أشد قوة تطغى على الرائحة — وهذه العملية تعرف لدى العمال باسم « تقديم ثلاثين بالمائة » . كذلك ، قد يجد العمال بعد اجراء عملية التدخين لقطع اللحم أن هناك بعضاً منها قد فسد ، في السابق كانت هذه القطع تباع على « أنها من الصنف رقم ٣ » . لكن فيما بعد ، جاء أحد الأشخاص العباقره واخترع حيلة جديدة يستخرج بها العظم من القطعة الفاسدة ليتم بعد ذلك ادخال حديد أحمر حامٍ في التجويف الذي تركه العظم . وقد قضى هذا الاختراع الحديد على كل التصنيفات واحد ، واثنين وثلاثة — ولم يعد هناك إلا الصنف رقم واحد . والحقيقة أن أصحاب دور التعليب يخترعون دائماً حيلاً كهذه — فلهيهم ما يدعى عادة باسم « لحم فخذ بلا عظم » وهذا ليس إلا فضلات وبقايا لحم الخنزير الذي نحشى به الأمعاء . أما « لحم كاليفورنيا » فانهم يصنعونه من الأكتاف مع مفاصل البراجم الكبيرة بعد تجريد لحمها كله تقريباً . . . وهكذا إلى آخر ما هنالك من أنواع اللحوم التي لا تنطبق أسماؤها على مسمياتها .

أما القسم الذي عملت فيه الزبييتا فهو القسم الذي يجيء إليه اللحم
الفاسد بكامله . حيث تقطعه هناك السكاكين ذات الألفي دورة في الدقيقة
ثم يمزج بنصف طن من لحم آخر بحيث لا يعود باستطاعة أية رائحة
أن تبقى على فارق بينهما . على أن أحداً لا يعير انتباهاً للحم الذي يستخدم
في صناعة النقانق ، وكثيراً ما تعود من أورربا نقانق قديمة رفضت لما عليها
من عفن وفطريات — فتعالج بالبوراكس والغليسرين ثم تغطس في
القواديس ومن ثم تعد للاستهلاك من جديد . وقد تكون هناك لحوم
سقطت على الأرض وتلوثت بالتراب والأوساخ كما داس عليها العمال
وبصقوا عليها بملايين لا تحصى من جراثيم السل . وقد تخزن لحوم
على شكل أكداس كبيرة في الغرف حيث تقطر عليها مياه ترشح من
السقف وتتساقط عليها آلاف الجرذان . ففي مخازن كهذه تصعب على
المرء الرؤية بسبب الظلمة ، إلا أنه يستطيع مد يده إلى هذه الأكداس
والخروج بحفنة من البراز الجاف لهذه الجرذان التي تشكل مصادر
ازعاج فيحاول أصحاب دور التعليب قتلها بوضع خبز مسمم لها ،
فتموت ، وحينذاك يوضع اللحم والخبز والجرذان معاً في القواديس .
لكن لا تحسبن أن هذه حكاية من حكايا الخن أو نكتة ، فاللحم يجرف
بالرفوش إلى العربات والعامل الذي يقوم بهذه العملية لا يبالي قيد شعرة
برفع جرد ميت فيما يجرفه حتى ولو رآه — فهناك أشياء تلخل في تركيب
النقانق يعد جرد مسموم بالمقارنة معها لغواً تافهاً . كذلك ليس هناك
مكان يغسل به العمال أيديهم قبل أن يتناولوا غذاءهم : لذا لا يتورعون

عن غسل أيديهم في الماء الذي يغطسون فيه النقانق . كما أن هناك كل أعقاب وسحواشي اللحم المدخن وفضلات اللحم المحفوظ بالملح وكل بقايا ومتروكات المنشأة التي تغطس كلها في براميل عتيقة في القبو وتبقى هناك . وتبعاً للنهج الاقتصادي الصارم الذي يسير عليه أصحاب دور التعليب ، فقد كانت هناك بعض الأعمال التي تجري مرة واحدة كل فترة من الزمن . من هذه الأعمال تنظيف ما تحويه براميل الفضلات هذه . وهي العملية التي تجري كل فصل ربيع ، حيث يكون في البراميل وسخ وصدأ ومسامير قديمة وماء عفن — لكن مع ذلك تؤخذ منه حمولة عربية بعد أخرى لتغطس في القواديس جنباً إلى جنب مع اللحم الطازج ولتخرج بعد ذاك من المعمل طعاماً لآكلين . بعض هذه المحتويات قد يصنعونه على شكل نقانق « مدخنة » — لكن بما أن التدخين يستغرق زمناً وهو لهذا السبب مكلف ، فانهم يعتمدون على قسم الكيمياء لديهم ، حيث يعالجونه بالبوراكس ويلونونه بالهلام ليعطوه لوناً أسمر . علماً بأن كل ما يصنعونه من نقانق يخرج من الحوض عينه ، لكنهم حين يشرعون بلفه ، يدمغون بعضه بكلمة « خاص » ، الأمر الذي يكلف سنتين إضافيين لكل رطل انكليزي .

هذا هو الجو الذي وجدت الزبيبتا نفسها فيه . وهذا هو العمل الذي اضطرت لأن تقوم به . انه عمل فظيع رهيب ، لم يترك لها فراغ لحظة واحدة للتفكير ولا قوة لفعل شيء . لقد كانت جزءاً من الآلة التي تشرف عليها ، وكل قدرة إنسانية لاتحتاجها الآلة حكيم عليها بأن تسحق

وئزول من الوجود . شيء واحد فقط كان رحمة بالنسبة لها وهي تعمل على آلة الطحن هذه — انه انعدام الحس ، ذاك الذي منحها إياه الآلة . إذ شيئاً فشيئاً راحت تغرق في بحران الخدر — وبحران الصمت . انها تلتقي بجر جس وأونا في المساء ويسير الثلاثة إلى المنزل معاً ، انما ينذر أن يتبادلوا كلمة واحدة . فأونا أيضاً ، اكتسبت عادة الصمت — أونا التي كانت في الماضي تغرد كالبلبل . كانت مريضة وبائسة وغالباً ما كانت تشعر بجسمها ضعيفاً حتى لتعجز عن جره إلى المنزل إلا بالكاد . هنا يأكلون ما كان مفروضاً عليهم أن يأكلوه ، بعدئذ ، ولعدم وجود موضوع يتحدثون عنه سوى البأساء ، فقد كانوا يزحفون زحفاً إلى فرشهم ويغرقون في نوع من الخدر لا يحركون فيه ساكناً إلى أن يجيء موعد النهوض فيلبسوا ثيابهم على ضوء القنديل ويعودوا إلى الآلات . لقد ماتت أحاسيسهم حتى غدوا لا يشعرون بالجوع نفسه ، وحدهم الأطفال كانوا ما يزالون يضحجون ويشورون حين ينقصهم الطعام .

مع ذلك لم تكن روح أونا قد ماتت بعد — بل لم تمت روح أي منهم ، انما كانت في حالة سبات ، وهكذا كانت تستيقظ بين الحين والحين وكم كانت هذه الأحايين قاسية صعبة . فبوابات الذاكرة تنفتح أحياناً — الأفراح القديمة تمد اذرعها إليهم ، الآمال والأحلام القديمة تدعوهم فيتململون تحت العبء الذي يحملون ويشعرون بثقل وطأته الأبدية . لم يكن باستطاعتهم أن يصرخوا تحته ، إلا أن عذاباً شديداً

يقبض على نفوسهم ، عذاباً أشد من عذاب الموت . انه شيء يصعب
التحدث عنه — شيء يصيب العالم اذاعه بالبيكم ، ذاك العالم الذي يكره
معرفة عيوبه .

لقد خسروا ، خسروا اللعبة ، جرفهم التيار إلى الحضيض .
ولم يكن الأمر أقل مأساوية لأنه كان قنراً إلى هذا الحد ، لأنه كان
ذا شأن بالأجور وحسابات البقالية وإيجار المنزل ، بل لأنهم كانوا
يحلّمون بالحرية ، بفرصة يتطلعون فيها حولهم ، يتعلمون شيئاً ما ،
يكونون أنقياء نظيفين ، يرون أطفالهم يكبرون ويشتد عودهم . لقد
ولى هذا كله — ولن يعود أبداً . لقد لعبوا اللعبة وخسروها ، كان عليهم
أن يواجهوا ست سنوات أخرى من الكد والتعب قبل أن يتوقعوا
الاستراحة الأهمى ، توقفهم عن دفع أقساط المنزل . وكم هو قاس
وفظيع أن لا يصمدوا ست سنوات أخرى من حياة يعيشونها على هذا
النحو . لقد ضاعوا ، كانوا ينحدرون — وليس ثمة خلاص ولا أمل .
فكل ما قدمته لهم تلك المدينة الفسحة التي يقطنون فيها هي أنها باتت في
أعينهم لجة محيط ، فيفاء مجهولة ، صحراء مقفرة ، قبراً . هي ذي
الحالة التي غالباً ما كانت تنتاب أونا في الليل ، حين يوقظها أحد ،
فتستلقي على ظهرها خائفة من خفقات قلبها ، مواجهة أعيناً حمرة
كالدم لذلك الرعب البدائي القديم من الحياة . ذات مرة صرخت بصوت
عال فأفاق جرجس وكان متعباً عصبياً . بعد ذاك تعلمت كيف تبكي
بصمت — فنادر ما كان يتوافق مزاجها مع مزاجه في هذه الأيام .

وكان آمالهما دفنت في قبور منفصلة . كان لخرجس ، بوصفه رجلاً ، همومه الخاصة ، فهناك شبح آخر يلاحقه ، لم يكن يتكلم عنه البتة ولم يكن يسمح لأحد آخر بالتكلم عنه — بل لم يعترف بوجوده أبداً حتى أمام نفسه . مع ذلك ، استهلكت معركته معه كل مافيه من رجولة — بل وأسفاه أكثر مما فيه من رجولة بمرة أو مرتين . لقد اكتشف جرجس الشراب .

كان يعمل في قعر الجحيم الكثير البخار ، يوماً تلو يوم وأسبوعاً اثر اسبوع — حتى لم يعد عضو واحد في جسده يتحرك بغير ألم وبات هدير أمواج البحر يتردد أصداء في رأسه طيلة النهار والليل والأبنية تتمايل وتراقص أمام عينيه وهو يهبط الشارع . من كل هذا الرعب الذي لانهاية له ، كان ثمة مستراح ، خلاص — كان بوسعه أن يشرب . بوسعه أن ينسى الألم ، أن يرمي العبء عن كاهله ، يرى مرة ثانية بصفاء ، يكون سيد مخه ، سيد أفكاره ، وارادته . فروحه الميتة تتحرك ليجد نفسه يضحك ويتبادل النكات مع أصحابه — بالشراب يعود رجلاً مرة ثانية ، يعود سيد نفسه وحياته .

انما لم يكن أمراً سهلاً على جرجس أن يشرب أكثر من كأسين أو ثلاث . مع الكأس الأول يأكل الوجبة ويقنع نفسه أن في ذلك توفيراً ، أما مع الكأس الثانية فيأكل وجبة أخرى — انما يجيء وقت لا يستطيع أن يتناول فيه المزيد . وأن يدفع ثمن كأس بدون طعام بذخ لا يمكن

التفكير به ، تحدٍ للغرائز الطويلة العمر التي تتصف بها طبقة المسكونة بالجوع . لكنه ذات يوم أفلت منه الزمام وشرب بكل ما كان في جيبه بسعادة تفوق ما شعر به خلال عام كامل . لكنه ، ولغير ما سبب سوى معرفته بأن هذه السعادة لن تدوم ، ثارت ثائثرته أيضاً — على أولئك الذين سيحطمونها ، على العالم ، على حياته نفسها ومن ثم عاد فشعر بوطأة هذا كله ومرض نحجلاً من نفسه . بعد ذلك ، وحين رأى اليأس في عيون أفراد العائلة وحسب المال الذي أنفقه ، انهمرت من عينيه الدموع وبدأ المعركة الطويلة مع الشبح .

كانت معركة بلا نهاية ، معركة لا يمكن أن يكون لها نهاية أبداً . غير أن جرجس لم يدرك ذلك بمثل هذا الوضوح ، بل لم يكن يجد متسعاً من الوقت للتفكير بذلك ، كان ببساطة يعلم أنه في خضم معركة دائمة . ولم يكن عليه هو الغارق في البأساء واليأس ، إلا أن يهبط الشارع لكي يجد نفسه هناك ، حيث يوجد بالتأكيد حانة عند ركن الشارع — بل ربما عند أركانه الأربعة ، وفي وسطه أيضاً ، وكل منها تمتد ذراعيها إليه — لكل منها شخصيتها المستقلة ، اغراءاتها المختلفة عن اغراءات الأخرى . كان هناك دائماً ، في غدوه ورواحه — قبل شروق الشمس وبعد حلول الظلام — دفء وتألّق أضواء وبخار طعام ساخن وربما موسيقى أو وجه صديق ، وكلمة مرح وبهجة . وبات يظهر على جرجس نوع من الشوق لأن يحمل أونا على ذراعيه حيثما يخرج إلى الشارع ، يضمها بشدة ويمشي مسرعاً . وكان شيئاً يشير خوفه أن يجعل أونا تعرف

بهذا الشوق . فيغدو كالمجنون حين يفكر أنه أمر غير مستحب ، فأونا لم تكن تستسيغ الشراب ، وبالتالي لم تكن تستطيع فهمه أحياناً . وفي ساعات القنوط المطبق ، يجد نفسه راغباً في أن تعرف كنه هذا الشعور . وبذلك لا يضطر لأن ينجعل من نفسه في حضرتها . حينها قد يشربان معاً ويفران بنفسيهما من دنيا الرعب والهول -- يفران حيناً من الزمن . وليكن ما يكون .

وهكذا جاء حين من الزمن صارت فيه كل حياة جرجس مؤلفة من صراع مع شوقه للشراب . إذ ذاك يغدو في مزاج بغيض للغاية . يكره أونا ، يكره العائلة كلها لأنه يشعر أنهم جميعاً يقضون في طريقه : كم كان أحرق حين تزوج ، ربط نفسه إلى الأبد ، جعل من نفسه عبداً . زواجه سبب كل مصائبه ، لولا زواجه من كان سيرغمه على العمل في المسلخ . لولا زواجه اذن لكان قد ولى بعيداً كما فعل جوناثان وإلى الجحيم بكل أصحاب دور التعليل . كان يوجد في محمل الأسفدة بضعة رجال عازبين -- يعملون من أجل فرصة للفرار . في غضون ذلك . كان لديهم أيضاً شيء يفكرون به وهم يعملون -- ذكرى أيام ماضية كانوا يسكرون فيها ويعربلون : وأمل بأيام قادمة سيتاح لهم أن يسكروا فيها ويعربلوا ثانية . أما جرجس . فقد كان عليه أن يعود بكل قرش المنزل . ولم يكن يستطيع حتى الذهاب إلى الحانة وقت الظهيرة . فالمنروض به أن يجلس على الأرض ويتناول غدائه على كومة من مسحوق السماد .

بالطبع ، لم يكن مزاجه دائماً على هذا النحو ، إذ كان مايزال يحب عائلته . إلا أنه كان يمر في ذلك الوقت تماماً بتجربة . فانتاناس الصغير المسكين . مثلاً . ذاك الذي لم يكن يفشل أبداً في كسب وده بابتسامة واحدة . انتاناس الصغير أفلح عن الابتسام ، منذ غدا كتلة من الحبيبات الحمراء اللاهبة . لقد أصيب بكافة الأمراض التي يمكن أن يصاب بها الأطفال ، وبفواصل قصيرة تماماً : حمى قروزية ، نكاف ، سعال ديكبي ، في السنة الأولى ، والآن هاهو ذا يصاب بالحصبة . لم يكن ثمة من يرعاه سوى كوترينا الصغيرة ، وليس ثمة طبيب يقدم له العلاج ، فهم في حالة من الاملاق الشديد والأطفال لا يموتون بسبب الحصبة . على الأقل ليس غالباً . بين الحين والحين كانت كوترينا تجد فراغاً من الوقت تبكي فيه مصائبها ، إلا أنه كان عليها معظم الوقت أن تظل وحيدة متمترسة على الفراش . كانت الشقة مليئة بالتيارات الهوائية وإذا ما أصيب ببرد فانه قد يموت . في الليل كانوا يشدون وثاقه للفراش خشية أن يلقي بالأغطية جانباً . بينما تستلقي العائلة وهي في حالة الخلل التي تعاني منها نتيجة الارهاق . أما هو فانه يستلقي ويصرخ الساعات الطويلة حتى ليوشاك على التشنج ثم يسقط منهكاً ويبدأ النحيب والنواح وهو يتعذب أشد العذاب . كان جسمه يشتعل بالحمى ، تحرق عينيه الدموع ، وكان على ضوء النهار يبدو شيئاً فظيهاً ومؤذياً أن تمسك به ، هو العجيبة اللاصقة من البثور والعرق ، الكتلة الأرجوانية الضخمة من البؤس .

مع ذلك ، ورغم ما يعانيه من مرض كان انتاناس الصغير أحسن

أفراد العائلة حظاً . فقد كان قادراً تماماً على تحمل آلامه -- وبدأ كما لو أنه يصدر كل تلك الشكوى لكي يبين المعجزة الصحية التي يمثلها . انه ابن شباب وفرح والديه ولقد ترعرع مثل شجيرة ورد لدى ساحر . العالم كله صدفه محار لديه وبصورة عامة ، كان طوال النهار يمشي بخطاه القصيرة المضطربة هنا وهناك في المطبخ بمظهره النحيل الجائع -- فما يناله من علاوة العائلة لا يكفي ، ولم يكن لمطالبه حدود أبداً . لم يكن أنتاناس قد تجاوز العام إلا قليلاً ولم يكن أحد من أفراد العائلة يستطيع تدبير أمره سوى والده .

كان يبدو وكأنه أخذ من أمه كل ما فيها من قوة -- دون أن يترك شيئاً لمن قد يأتون بعده . وكان ثمة من جاء بعده الآن فقد كانت أونا حاملاً وكان أمراً مخيفاً أن تفكر بذلك ، بل حتى جرجس ، رغم يأسه وصحته ، كان يفهم أن ثمة عذابات أخرى في طريقها إليهم وكان يرتعش لدى التفكير بهذه العذابات .

أما أونا فقد كانت ، وبكل وضوح ، سائرة في طريق التحطم ارباً . فقبل كل شيء ، كان قد ازحاد لديها السعال ، سعال كذاك الذي قضى على أنتاناس العجوز . وقد بدأت آثاره لديها منذ ذلك الصباح القاتل الذي أجبرتها فيه شركة الترامات الجشعة على السير تحت المطر ، لكنه الآن بات يتحول إلى سعال جدي خطر ، لا يسمح لها بالرقاد طوال الليل . والأنكى من ذلك ، كان هناك التوفز العصبي الذي باثت تعاني

منه . فهي تصاب بنوبات شديدة من الصداع والبكاء الذي لا تعرف سبباً أو هدفاً له . وكانت تعود أحياناً إلى المنزل وهي ترتعش وتنوح فتلقي بنفسها على الفراش وتنفجر بالبكاء . في مرات عدة فقدت أونا زمام نفسها وأصيببت بما يشبه الهستيريا وفي كل مرة كان جرجس يوشك أن يحن هلعاً فتسرع الزبيبتا كي تشرح له أنهم لا يستطيعون فعل شيء ، فالمرأة تمر بأشياء كهذه حين تكون حاملاً ، لكنه قلما كان يقتنع . لذا كان يستجدي ويتضرع محاولاً معرفة ما يحدث . لم تكن أونا في يوم من الأيام هكذا ، كان يناقش الزبيبتا ، وهو شيء رهيب لا يمكن للعقل قبضه له . فتقول له أنها الحياة التي كان عليها أن تحياها ، العمل اللعين الذي كان عليها أن تقوم به ، هذا الذي يقتلها بالتدريج . فأونا لم تخلق لمثل هذه الحياة أو لمثل هذا العمل ، بل ليس هناك امرأة خلقت له وينبغي عدم السماح لأية امرأة بممارسة عمل كهذا ، وإذا كان العالم لا يستطيع اطعامهن وتأمين معيشتهن فعليه أن يقتلن حالاً وينتهي الأمر . ينبغي عليهن ألا يتزوجن أو ينجبن أطفالاً ، بل ينبغي ألا يتزوج أي انسان عامل — ولو أنه هو جرجس ، كان يعرف ما يعرفه الآن إذن لفقاً عينيه قبل أن يتزوج . ويستمر على هذا النحو ، ليغادو شبه مجنون هو الآخر ، الأمر الذي يصعب على المرء رؤيته أو تحمّاه . وقد تتماسك أونا أخيراً ثم تلقي بنفسها بين ذراعيه ، متوسلة إليه أن يكف ، أن يهدأ قائلة أنها ستتحسن ، وأن كل شيء سيكون على

مايرام . وهكذا تسترخي وتنشج ذارفة دموعها على كنفه ، بينما يحاق إليها النظر وقد بدا في عينيه العجز واليأس مثل حيوان جريح وجد نفسه هدفاً لأعداء لا تراهم عيناه .

- ١٥ -

في الصيف ، كانت بداية هذه الأشياء المحيرة . وفي كل مرة كانت أونا تعده ، وبصوت يرتعش خوفاً ، أن ذلك لن يتكرر ثانية — انما عبثاً — فكل نوبة ترك جرجس أشد وأشد خوفاً ، تركه أكثر ميلاً للشك بتبريرات الزبيبتا ومواساتها له حتى بات يعتقد كل الاعتقاد أن وراء الأكمة ماوراءها وأنهم لا يسمحون له بمعرفته . في إحدى هذه النوبات بل ربما في اثنتين منها نظر إلى عيني أونا فرآهما أشبه بعيني حيوان قنيص . كانت ثمة لمحات متقطعة من العذاب واليأس تعبر بهما بين الحين والحين وهي تنحب نحيبها المسعور . ولأنه كان مصدوماً يلوذ بالصمت هو نفسه ، لهذا السبب فقط ، لم يكن جرجس يشعر بالكثير من الضيق ، بل لم يكن يفكر في الأمر إلا حين يحرج جراً — فهو يحيا كما يحيا حيوان أبكم من حيوانات البحر تلك التي لا تعرف إلا اللحظة التي هي فيها .

وكان الشتاء يلوح في الأفق ثانية ، أشد نذيراً وقسوة من ذي قبل . انه تشرين الأول ، وبداية زحام العطلة . كان من الضروري أن تظل آلات التعليب تعمل حتى وقت متأخر من الليل لتوفر الطعام الذي سيؤكل

على مواعيد عيد الميلاد ، وقد بدأت ماريا وأونا والزبيبتا ، باعتبارهن جزءاً لا يتجزأ من تلك الآلة ، العمل مدة خمس عشرة أو ست عشرة ساعة في اليوم . لم يكن هن من خيار — فالعمل الذي يكلفونهن به عليهن أن يعملنه ، ان كن يرغبن بالاحتفاظ بأماكنهن ، علاوة على أنه كان يزيد قليلاً من دخلهن ، وهكذا كن يترنحن تحت الحمل الثقيل . انهن يبدأن العمل في الساعة من كل صباح ، يتناولن غداءهن ظهراً ثم يتابعن العمل حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً دون لقمة طعام واحدة . كان جرجس يود أن ينتظرهن ، يساعدهن في العودة إلى المنزل ليلاً ، إلا أنهن لم يفكرن بهذا ، فمعمل الأسمدة لا يعمل ساعات إضافية في الليل ، وليس ثمة مكان له سوى الحانات ينتظر فيها . كانت كل منهن تخرج وهي ترنح في الظلمة ، تشق طريقها إلى الزاوية التي يلتقن فيها ، أو تأخذ تراماً إذا كانت الأخريات قد سبقنها ، وتبدأ كفاحاً مريراً لكي تمنع عن أجفانها النوم . وحين يصلن إلى المنزل يجدن أنفسهن أشد إرهاقاً من أن يستطعن تناول طعامهن أو خلع ثيابهن ، فيزحفن إلى مفارشهن بلباسهن وأحذيتهم لترتمي واحدةن كجذع شجرة . ذلك أنهن إذا ما قصرن في عملهن ، فانهن سيضعن ويضيع كل شيء ، أما إذا تحملن وتابعن ، فقد يجدن كفايتهن من الفحم ليزدن برد الشتاء .

قبل يوم أو يومين من عيد الشكر ، هبت عاصفة ثلجية ، بدأت بعد الظهر ، ولم يحل المساء حتى كان قد سقط من الثلج ما يزيد على البوصتين . حاول جرجس أن ينتظر النسوة ، إلا أنه دخل الحانة كي

يتدفأ وهناك عب كأسين من الشراب ثم خرج وهو يعدو عدواً إلى المنزل هرباً من الشيطان ، وفي المنزل اضطجع ينتظرهن فاستغرق حالاً في سبات عميق . حين فتح عينيه مرة ثانية كان يعاني من كابوس رهيب وكانت الزبيبتا تهزه وتصرخ . في البداية لم يستوعب تماماً قولها - أونا لم تعد إلى المنزل ، فسألها ماهو الوقت . إنه الصباح - موعد النهوض ، وأونا لم تعد إلى المنزل تلك الليلة . والبرد قارس والثلج بارتفاع ثلاثين سنتمراً عن الأرض .

هب جرجس منتفضاً . كانت ماريا تبكي خوفاً وكان الأطفال يعولون في حالة من المشاركة الوجدانية - وعلاوة عليهم ، تانيسلوفاس الصغير بسبب نخشيته من الثلج . لم يكن جرجس بحاجة لارتداء شيء سوى معطفه وحذاءه ونخلال نصف دقيقة كان خارج الباب . لكن حينذاك فقط أدرك أن لاداعي للسرعة وأنه لايعرف أين يتوجه أبداً . كان الظلام مايزال وكأنه منتصف الليل ، وكانت هشائش الثلج تتساقط - وكل شيء صامت هادئ حتى تكاد تسمع صوت تلك الهشائش التي كانت تسقط بكثافة شديدة حتى اكتسى ، خلال الثواني القليلة التي وقفها هناك متردداً ، بغطاء أبيض من الثلج .

انطلق جرجس يجري باتجاه الزرائب ويتوقف على طريقه يسأل أصحاب الحانات التي كانت ما تزال مفتوحة . ربما عجزت أونا عن متابعة طريقها ، أو لعل حادثة ماحدثت لها وهي تعمل على الآلة .

وحين وصل المكان الذي تعمل فيه سأل أحد الحراس - لم تحدث أمس أية حادثة ، حسب معرفة الحارس . وفي مكتب الدوام الذي وجدته مفتوحاً أيضاً أخبره الموظف أن بطاقة أونا قد دقت في الليلة السابقة مما يعني أنها غادرت عملها .

بعد ذلك ، لم يعد لديه مايفعل سوى الانتظار ، رانحاً غادياً في الثلج كيلا يتجمد . كانت الزرائب قد بدأت تعج بالنشاط ، فالماشية تفرغ من العربات في مكان بعيد ، وعلى الطريق « مراكب الأبقار » تشق طريقها في الظلمة محملة بقطع اللحم الضخمة كي تنقلها إلى عربات التبريد . وقبل أن ترتسم في الأفق أول خيوط الضوء كانت جموع من العمال المرتجفين برداً تشق طريقها بسرعة ، وعلى أكتافهم تلوح إلى اليمين والشمال السطول المحملة بوجبات طعامهم . اتخذ جرجس مكان وقوفه قرب نافذة مكتب الدوام حيث كان يوجد في تلك النقطة فقط ضوء يكفي للرؤية . كان الثلج يتساقط بغزارة شديدة ولم يستطع إلا بالتحديق عن قرب ، التأكد من أن أونا لم تعبر به . واقتربت الساعة السابعة ، الموعد الذي تبدأ به آلة التعليب الهائلة العمل . كان على جرجس أن يتواجد في عمله في مثل هذا الوقت لكنه بدلاً من ذلك ظل ينتظر ، في جحيم عذاب الخوف . . . عسى أن تجيء أونا . بعد خمس عشرة دقيقة من بدء العمل رأى شكلاً يظهر من ضباب الثلج فوثب نحوه صارخاً . لقد كانت أونا ، تجري بسرعة وسحين رآته ترنحت متعثرة إلى الأمام ، قاذفة بنفسها بين ذراعيه الممدودتين .

« ماذا جرى ؟ » صرخ بانفعال شديد « أين كنت ؟ » لكنها لم تستطع الإجابة قبل مرور بضع ثوان التقطعت فيها أنفاسها « لم أستطع الوصول إلى المنزل » هتفت « الثلج - الترامات توقفت » .

« لكن أين كنت ؟ » سألها

« اضطررت للذهاب مع صديقة » أجابت لاهثة متقطعة الأنفاس « مع يادفيغا » . وتنفس جرجس الصعداء ، لكنه لاحظ أنها كانت تنشج وترتغش - كما لو أنها في واحدة من تلك الأزمات العصبية التي كان يخشاها كثيراً . « لكن ، ما المسألة ؟ » صرخ بصوت عال « ماذا حدث ؟ » .

« أوه جرجس : كنت خائفة كثيراً » قالت وهي تتمسك به بشدة عجيبة « كنت قلقة كثيراً » .

كانا يقفان قرب نافذة مركز الدوام وكان الناس يحلقون إليهما فسار بها جرجس مبتعداً « ماتعنين ؟ » سألها بكثير من الحيرة . « كنت خائفة . كنت خائفة كثيراً » قالت من بين نشجاتها « كنت أعلم أنك لن تعرف مكان وجودي ولم أكن أعلم ما ينبغي علي فعله . حاولت الوصول إلى المنزل لكنني لم أستطع . كنت متعبة للغاية . أوه . جرجس ، جرجس » . لقد كان مسروراً بعودتها إلى خد لم يستطع معه التفكير بشيء آخر . ولم ير غرابة في أن تكون على ما هي عليه من الضيق والانزعاج ، كل مخوفها وقلقها لم يعد يأتي بال طالما أنها عادت . وتركها تذرِف الدموع ذارقة معها مخاوفها ، لكن ، وقد غدت الساعة

الثامنة تقريباً وتأخرهم أكثر يعني خسارتهم ساعة أخرى ، أوصليها جرجس أخيراً إلى باب دار التعليب ووجهها شاحب كوجه الأشباح وعيناها مسكونتان بالرعب .

بعد العاصفة الثلجية مر فاصل زمني قصير . كان عيد الميلاد على وشك المجيء . ولأن الثلج كان ما يزال يغطي الأرض والجو قارس البرد ، فقد كان جرجس يمضي مع زوجته إلى مركز عملها يوماً اثر يوم شبه حامل لها ، مترنحاً معها في الظلمة ، إلى أن جاءت النهاية أخيراً ذات ليلة .

لم يكن قد ظل سوى ثلاثة أيام على ابتداء العطلة ، وحوالي منتصف الليل عادت ماريا والزبيبتا إلى المنزل لتصرخا مذعورتين وقد اكتشفتا أن أونا لم تعد . كانت كلتاها قد اتفقت على مقابلتها ، وبعد الانتظار ذهبت إلى الغرفة التي تعمل فيها ، إلا أنهما وجدتا أن عاملات صر اللحم كن قد توقفن عن العمل قبل ساعة وغادرن المعمل . لم تكن تلك الليلة مثليجة كما أنها لم تكن باردة على نحو خاص ، ومع ذلك لم تأت أونا . لابد أن شيئاً ما أشد خطورة قد دهاها هذه المرة .

نبهتا جرجس من رقادته ، فجلس يصغي بعصبية شديدة للقصة . لابد أنها ذهبت مع يادفيغا مرة ثانية إلى منزلها ، قال لهما ، يادفيغا تسكن على مقربة من الزرائب ولعلها كانت مرهقة . لا يمكن أن يكون قد حدث لها شيء وحتى لو حدث فليس باستطاعته أن يفعل شيئاً قبل

الصباح ، ثم انقلب إلى فراشه وراح يشخر ثانية قبل أن تغلق المرأتان الباب .
لكنه نهض في الصباح ثم خرج قبل ساعة تقريباً من مواعده المعتاد .
كانت يادفيغا مارسينكوس تسكن في الجهة الأخرى من الزرائب ،
خلف شارع هالستيد ، مع أمها وأخواتها وفي غرفة واحدة في التبو ذلك
لأن ميكولاس كان قد فقد مؤخراً إحدى يديه بسبب تسمم في الدم
وقد ألغيت فكرة زواجهما كلياً ، كان باب الغرفة يقع في المؤخرة
ويمكن الوصول إليه عبر ساحة ضيقة . رأى جرجس ضوءاً في النافذة ،
وسمع ، وهو يعبر ، شيئاً يقلق بالمقلاة ثم قرع الباب وانتظر شبه متوقع
أن تفتح له أونا .

لكن ، بدلاً منها فتحت الباب واحدة من أخوات يادفيغا الصغيرات
وراحت تحديق إليه عبر شق الباب « أين أونا ؟ » سألتها ، فتطلعت الطفلة
إليه محتارة ثم تساءلت : « أونا ؟ » .

فأجابها جرجس « أجل ، أليست هنا ؟ » .

« كلا » أجابت الطفلة فانخفض جرجس مجفلاً . بعد لحظة جاءت
يادفيغا مختلسة النظر من فوق رأس الطفلة ، وحين رأت أنه جرجس ،
عادت وانسلت مبتعدة إذ لم تكن مرتدية ثيابها تماماً . ثم رجعت إليه
قائلة ، يجب أن يعذرها ، أمها مريضة للغاية .

« أليست أونا هنا ؟ » سألتها جرجس ، خائفاً كل الخوف من جوابها .

« لا ، كلا » قالت يادفيغا « لكن ما الذي دفعك للتفكير بذلك ؟ هل قالت أنها آتية إلى هنا ؟ »

فأجابها « كلا ، إلا أنها لم تعد إلى المنزل ، وكل ظني أنها جاءت معك كما فعلت في المرة السابقة . »

« في المرة السابقة ؟ » رددت يادفيغا بكثير من الحيرة .

« تلك المرة التي قضت فيها الليل هنا »

« لا بد أن ثمة خطأ ما » أجابته يادفيغا بسرعة « أونا لم تقض ليلها هنا أبداً . »

ولم يستطع جرجس أن يفهم تماماً مغزى كلامها « لماذا ؟ لماذا ؟ » هتف أخيراً بكثير من الدهشة « قبل اسبوعين ، يادفيغا ، هي أخبرتني — ليلة هطل الثلج ولم تستطع العودة إلى المنزل . »

« لا بد أن هناك خطأ ما » كررت الفتاة قولها ثانية « فهي لم تأت هنا أبداً . »

ووجد جرجس نفسه يستند إلى عتبة الباب كيلا يسقط ، ولفرط اضطرابها — هي التي كانت متعلقة بأونا كل التعلق — فتحت الباب على مصراعيه ثم قالت بصوت مخنق « هل أنت متأكد من أنك لم تسيء فهمها ؟ » هتفت صائحة « لا بد أنها كانت تقصد مكاناً آخر . هي — » . « هي قالت هنا » قاطعها جرجس باصرار شديد . « لقد أخبرتني

بكل شيء عنك . لقد أخبرتني بكل شيء عنك . كيف كنت ، ماذا قلت . هل أنت واثقة مما تقولين ؟ ألم تنسي ياترى ؟ ألم تكوني في المنزل ؟ » .

« لا . . . لا . . . » هتفت الفتاة متعجبة ، ثم جاء صوت واهن — يادفيغا ، ستصيين الصغير بالبرد ، أغلقي الباب » . ثم وقف جرجس نصف دقيقة أخرى يتلعم لشدة حيرته عبر شق الباب الذي لايزيد عرضه عن ثمن بوصة . بعد ذلك ، وحين أيقن تماماً أنه لم يعد هناك مايقال ، اعتذر منها ومضى مبتعداً .

كان يسير شبه فاقد الوعي ، لايدري أين يسير . لقد خدعته أونا . كذبت عليه . ترى ما معنى ذلك ؟ أين ذهبت تلك المرة ؟ أين هي الآن ؟ لم يكن باستطاعته أن يستوعب الأمر — ولم يحاول أبداً أن يبحث عن حل لكن ألف وسواس راوده ، وبدأ احساس مبهم بكارثة وشيكة يحتاجه .

وهكذا عاد إلى مكتب الدوام ليراقب ثانية ، هو الذي لم يجد لديه مايفعله سوى الانتظار والمراقبة . هناك انتظر حتى الثامنة تقريباً أي بعد ساعة من موعد العمل ، ثم مضى إلى الغرفة التي تعمل فيها أونا سائلاً عن مشرفتها . لكنه وجد أن المشرفة نفسها لم تأت بعد ، كل خطوط الترامات القادمة من قلب المدينة كانت قد توقفت — فقد حدث طارئ في مركز الطاقة ولم يسر ترام واحد على تلك الخطوط منذ ليلة أمس . لكن مع ذلك كانت عاملات الصر يتابعن عملهن المعتاد وعلى رأسهن

مشرقة أخرى . الفتاة التي جاوبت جرجس كانت مشغولة وحين كلمته كانت تتطلع بحذر حولها لترى ان كان ثمة من يراقبها . بعدئذ جاء رجل ، يدفع أمامه عربة يد ، رجل يعرف أن جرجس هو زوج أونا وكان فضولياً يود معرفة السر .

« ربما كان لتوقف الترامات شأن بالأمر » قال الرجل « ربما ذهبت إلى قلب المدينة » .
فقال جرجس « لا ، أونا لم تذهب أبداً إلى قلب المدينة » .
فأجاب الرجل « ربما لا » .

لكن خيل لجرجس أنه رآه وهو يتبادل نظرة خاطفة مع الفتاة حين كان يتكلم ، فسأل بصورة سريعة « ماذا تعرف عن الأمر ؟ »
بيد أن العامل رأى رئيس العمال يراقبهم ، فانطلق ثانية دافعاً أمامه عربته ، ثم قال وهو يبتعد « لا أعرف أي شيء ، وأنى لي أن أعرف أين تذهب زوجتك ؟ » .

بعدئذ خرج جرجس ثانية وراح يندرع الدرب جيئة وذهاباً أمام المبنى . لقد أمضى الصباح بطوله ، دون أن تخطر بباله فكرة واحدة عن عمله . وحوالي الظهر ذهب إلى مخفر الشرطة كي يستفسر عنها ثم رجع ثانية ليقوم بنوبة حراسة أخرى . أخيراً ، انطلق إلى المنزل والشمس تشارف الأصيل .

كان يسير في شارع آشلاند ، وكانت الترامات قد بدأت تسير ثانية وقد عبرت به عدة منها مزدحمة كل الازدحام بالركاب . ومرة ثانية جعله منظرها يفكر بملاحظة الرجل الساخرة ثم وجد نفسه على نحو غير ارادي تقريباً يراقب الترامات — وكانت النتيجة أن أطلق صرخة تعجب على حين غرة وهو يكاد يسقط في مكانه .

بعد ذاك انطلق يعدو ، لم يجتز الترام كتلة بنائية إلا وكان جرجس قد أصبح خلفه على بعد أمتار قليلة منه . تلك القبعة السوداء الكالحة ذات الزهرة الحمراء المتدلّية لا يمكن أن تكون قبعة أونا لكنها تشبهها قليلاً . سيتأكد من ذلك حالا ، فهي ستغادر الترام بعد كتلتين بنائيتين . حينئذ لك خفف من سرعته تاركاً الترام يمضي أمامه .

خرجت ذات القبعة ، وما ان غابت عن نظره في شارع جانبي حتى انطلق يعدو . كان في صدره كثير من الشك ولم يعد خجلاً من تعقبها ، أبصر بها تنعطف مع الزاوية قرب منزلهم وحينئذ بدأ يعدو ثانية فراها تصعد درجات مدخل المنزل . عند ذاك انقلب راجعاً ، ولمدة خمس دقائق راح يذرع الطريق جيئة وذهاباً وقد شدد قبضة يديه وكز شفتيه وغدا رأسه وكأنه في دوامة . بعدئذ ذهب إلى المنزل .

حين فتح الباب رأى الزبيبتا ، التي كانت هي الأخرى تبحث عن أونا ، قد عادت إلى المنزل ثانية . كانت تسير على رؤوس أصابعها ، وقد وضعت أصبعها على شفتيها . فانتظر جرجس إلى أن اقتربت منه .

« لآثر آفة ضمجة » همست متعجلة .

فسألها « ما المشكلة ؟ » .

« أونا نائمة » أجابت لاهثة « انها مريضة للغاية ، أنخشي أن تكون قد فقدت عقلها ، يا جرجس . لقد تاهت في الشوارع طوال الليل ، ولم أفلح في تهدئتها إلا اللحظة » .

فسألها « متى عادت ؟ » .

« بعد أن غادرت المنزل في الصباح مباشرة » أجابت الزبييتا « وهل خرجت منذئذ ؟ » « لا ، طبعاً لا . انها في غاية الوهن والضعف يا جرجس . . . هي » .

وصرف بأسنانه صارخاً « أنت تكذبين علي » .

فأجفلت الزبييتا وشحب لونها ثم قالت شاهقة « لماذا ؟ ماذا تعني ؟ » لكن جرجس لم يجب بل نحأها جاباً وخطا خطوات واسعة سريعة إلى باب غرفة النوم ثم فتحه .

كانت أونا تجلس على السرير ، وحين دخل بدت في عينيها نظرة الحائفة المرتعدة . أطبق الباب في وجه الزبييتا ثم مضى نحو زوجته سائلاً : « أين كنت ؟ » .

كانت أونا تشبك يديها بشدة في حجرها ، نظرت إليه فرأت أن

وجهه بلون الورق الأبيض يكاد يتمزق ألماً . شهقت مرة أو مرتين قبل أن تحاول اجابته ثم بدأت تتكلم بصوت خفيض سريع ، « جرجس أنا — أنا أظن أنني لم أفقد عقلي لقد انطلقت قاصدة المنزل في الليلة الماضية إلا أنني أضعت طريقي . لقد مشيت — مشيت طوال الليل ، أظن — أظن ذلك — لكنني لم أصل إلا هذا الصباح » .

« اذن كنت بحاجة للراحة » قال بنبرة قاسية « فلماذا خرجت ثانية ؟ » كان يتطاع مباشرة في وجهها . وقد استطاع قراءة الخوف والاضطراب الغريب الذي داهمها فجأة . « أنا . . . أنا كنت مضطرة للخروج إلى . . . إلى المخزن » شهقت شبه هامسة تقريباً « كان علي أن أذهب . . . » فقاطعها جرجس « أنت تكذابين علي » .

بعدئذ شد قبضته وخطا خطوة صوبها . « لماذا تكذابين علي ؟ » صرخ بعنف شديد « ماذا تفعلين لكي تكذبي علي ؟ » .

فهتفت صارخة وهي تنفض مذعورة « أوه ، جرجس ، كيف يمكنك قول هذا ؟ » « لقد كذبت علي ، أقول لك » صرخ جرجس « لقد قلت لي أنك قضيت تلك الليلة في منزل يادفيغا ، والحقيقة غير ذلك ، لقد كنت الليلة حيث كنت تلك الليلة — في مكان ما من قلب المدينة ، لقد رأيتك تنزلين من الترام ، فأين كنت ؟ » في تلك اللحظة بدت أونا وكأنها أغمدت سكين في صدرها . بدت وكأنها تتحطم ارباً . . . ولنصف ثابتة وقفت تترنح وتمايل محذقة إليه ورعب شديد

يملؤ عينيها ثم أطلقت صرخة عذاب حادة وهوت إلى الأمام مادة ذراعها له .

لكنه تنحى جانباً عمداً ، ليركها تسقط . فتمسكت بجانب السرير ثم غاصت فيه دافئة وجهها بين يديها منفجرة في نوبة بكاء مجنونة .

نوبة من تلك التوبات المستيرية التي غالباً ما كان يحشاهدا . كانت أونا تنشج نشيجاً حاداً ، تبكي بكاء مريراً ، لقد اتحد خوفها مع عذابها ليصلا بنوبتها إلى ذروة النرى . هبات شديدة من الهيجان كانت تجتاحها هازة اياها كما تهز العاصفة أغصان الأشجار . كان كل كيانها يهتر ويرتعش — وبدت كما لو أن شيئاً مروعاً ثار في داخلها واستحوذ عليها ثم بدأ يعذبها ويمزقها ، لقد كان الهدف من هذا الشيء هو أن يهدى جرجس ويعيد إليه صوابه ، لكن جرجس ظل واقفاً مشدود الشفتين محكم القبضتين — فهي قد تبكي حتى تقتل نفسها ، لكنها لن تحرك فيه شعرة هذه المرة — ولا شعرة ، ولا شعرة . غير أن الأصوات التي كانت تصدرها جعلت دمه يبرد وشفتيه ترتعشان رغماً عنه ولهذا السبب سر إلى حد ما حين فتحت الزبيبتا الباب ، شاحبة الوجه من الخوف واندفعت إلى الداخل ، لكنه مع ذلك التفت إليها صارخاً « اخرجي ، اخرجي » ثم أمسك بها من ذراعها ، حين رآها تتلكأ هامة بالكلام ، وقلف بها خارج الغرفة . صافقاً الباب خلفها ، واضعاً خلفه طاولة . بعدئذ التفت ثانية ليواجه أونا صارخاً : « والآن . أجيبي » .

غير أنها لم تسمعه — كانت مازال في قبضة الشيطان . كان باستطاعة جرجس أن يرى يديها الممدودتين وهما تهتران وتنفثلان ، طائفتين هنا وهناك على السرير مثل كائنين مستقلين من الكائنات الحية . كان باستطاعته أن يرى الارتعاشات التشنجية تعرو جسدها ، وتمتد إلى أطرافها . كانت تنشج بالبكاء وفي حلقها غصة خانقة — بدت كما لو أن هناك أصواتاً كثيرة جداً تخرج من حنجرة واحدة ، يطارد بعضها بعضاً كأمواج البحر . بعد ذلك بدأ صوتها يرتفع على شكل صرخات راحت تعلو وتعلو إلى أن انفجرت على شكل قهقهات وحشية تحملها جرجس إلى أن شعر بالعجز عن تحمل المزيد ، فوثب إليها ممسكاً بها من الكتفين ، هازأ إياها ، صارخاً في أذنها « كفي عن ذلك . أقول لك ، كفي عن ذلك » .

رفعت أونا عينيها متطلعة إليه من أعماق عذابها ، ثم انكبت بعدئذ على قدميه ، ممسكة بهما بين ذراعيها رغم محاولاته الابتعاد ، متمددة على الأرض تتلوى وتتوجع ، مما جعل جرجس يشعر بغصة تخنقه ، فصرخ ثانية ، وبصوت أكثر وحشية وقسوة من ذي قبل « كفي عن ذلك ، أقول لك » .

هذه المرة أطاعته ، فأمسكت أنفاسها وتمددت بصمت . صمت لا يقطعه إلا شهقات نشيجها التي كانت تهز كيانها كله . والديقة طويلة طول الساعات ثلث ممتدة هناك ساكنة تماماً . إلى أن شعر

زوجها بخوف بارد يطبق قبضته عليه وكل ظنه أنها قضت نحبها ،
لكنه . فجأة ، سمع صوتها ، ضعيفاً واهناً : « جرجس . جرجس ! »
« ماذا ؟ » قال جرجس .

واضطر لأن ينحي فوقها فصولها في غاية الضعف . كانت أونا
تتوسل إليه بعبارة متقطعة لفظتها بشق النفس : « ثق بي ، صدقي » .
« أصدق ماذا ؟ » صرخ بها .

« صدق أنني - أنني أعرف أفضل - أنني أحبك - ولا تسألني -
ماذا فعلت ؟ أوه . جرجس . رجاء . رجاء ، إنه من أجل خيرنا
جميعاً - إنه » .

وبدأ يتكلم ثانية ، لكنها اندفعت بكلامها كالمجنونة مانعة إياه من
الكلام « لو تفعل ذلك فقط . لو تفعل ذلك فقط . فقط صدقي .
لم تكن خطيئي - لم أستطع الحيلولة دون ذلك . - سيكون كل شيء
على مايرام . - صدقي . إنه لاشيء - لا ضرر في الأمر . . أوه . جرجس .
من فضلك . . من فضلك . . » .

كانت تمسك به . تحاول أن ترفع نفسها لتنظر إليه . وكان
بإستطاعته أن يشعر بارتعاش الشلل في يديها ، يخفق صدرها الذي كانت
تضغطه عليه . أخيراً استطاعت الإمساك بأحدى يديه فقبضت عليها
بصورة تشنجية ، ساحبة إياها إلى وجهها . مغرقة إياها بالدموع .

« أوه . صدقني . صدقني » . راحت تقول ثانية فصرخ في غضب مسعور « لا . لن أصدقك . . » .

لكنها ظلت متعلقة به . تولول بصوت عال لشدة يأسها « أوه ، جرجس . فكر بما تفعل . ذلك سيحطمننا . . سيحطمننا ، أوه ، لا . يجب ألا تفعل ذلك ، لا . لا تفعله ، لا تفعله . يجب ألا تفعل . سيدفعني ذلك إلى الجنون . . سيقتلني . لا . لا . جرجس - أنا مجنونة . . لا . لا شيء هناك . . لا شيء ينبغي أن تعرفه . يمكننا أن نكون سعداء . يمكن لواحدنا أن يحب الآخر تماماً كما كنا من قبل . - أوه . من فضلك ، من فضلك ، صدقني » .

غير أن كلماتها جعلته كالمتوحش تماماً ، فأفلت يديه منها ورمى بها جانباً وهو يصرخ « أجيبني . . عليك اللعنة . . أقول لك أجيبني » .

لكنها غاصت على الأرض ، وبدأت تبكي ثانية ، بكاء أشبه بنحيب روح ملعونة ، ولم يستطع جرجس تحمل ذلك فضرب طاولة إلى جواره بجمع يده ثم صرخ مرة ثانية بها : « أجيبني » .

فبدأت تصرخ بصوت عال ، أشبه بصوت حيوان بري : « آه . آه . لا أستطيع ذلك ، لا أستطيع ذلك » .

لكنه صاح بها : « ولماذا لا تستطيعين ؟ » .

« لا أعرف كيف » .

فوثب وأمسك بها من ذراعها ، رافعاً إياها نحو الأعلى ، محلقاً
النظر إلى وجهها « أخبريني أين كنت الليلة الماضية . . . هيا . . . بسرعة » .
حينذاك بدأت تهمس كلمة بكلمة : « كنت - في - بيت - في -
قلب المدينة » .

« أي بيت ؟ ماتعنين ؟ » .

فحاولت إخفاء عينيها مشيخة بوجهها جانباً لكنه أمسك بها فتابعته
وهي تشهق « بيت الآنسة هندرسون » .

لم يفهم معنى ذلك في البداية ، فردد كالبيغاء « بيت الآنسة
هندرسون » ، ثم ، فجأة وكما لو أنه نوع من الانفجار ، انبثقت
أمام عينيها الحقيقة المرعبة . فراجع وهو يترنح صارخاً . حين وصل
إلى الجدار أمسك به ، واضعاً يده على جبينه ، محلقاً حوله ، هامساً
« يايسوع . . . يايسوع . . . » .

بعد لحظة واحدة كان قد وثب عليها ، هي التي كانت تدب عند
قدميه . ثم أمسك بها من خناقها صارخاً « أخبريني ، بسرعة . من أخذك
إلى ذلك المكان ؟ » .

فحاولت أن تبتعد ، جاعلة سورتها تشد أواراً . في البداية ظن أن
الخوف هو الذي جعلها تبتعد أو الألم الذي تعانيه من شدة قبضته — ولم
يفهم أنه عذابيها وخجلها . . . مع ذلك فقد أجابته : « كوناور » .

فشهق : « كونور . . الرجل . . . » .

وشدد من قبضته دون وعي منه ، وحين رأى عينيها تنطبقان ،
حينها فقط أدرك أنه يخنقها . حينذاك أرخى أصابعه ثم أقعى بجانبها
وانتظر إلى أن فتحت أجفانها ثانية . وكانت أنفاسه تلطم وجهها بحارة
كالنار . أخيراً همس : « أخبريني ، أخبريني كل شيء » .

فتمددت ساكنة تماماً ، وبدأت الكلام بصوت كان يتعذر عليه
سماعه لو لم يحبس أنفاسه « لم أرد أن أفعل ذلك . . لقد حاولت . . .
حاولت ألا أفعله . . لكنني فعلته لانقاذ العائلة — كانت فرصتنا الوحيدة » .

ومرة ثانية ساد سكون مطبق على الغرفة لا يقطعه سوى صوت
لهائه . كانت عينا أونا مطبقتين وحين عاودت الكلام ثانية لم تفتحهما
« لقد قال لي — أنه سيطردني ، قال لي أنه سيجعلنا جميعاً نفقد أعمالنا
وأنا لن نجد ما نفعله بعد ذلك أبداً . — كان — يقصد ذلك . . . كان
يقصد تخطيطنا » .

بدأت ذراعاً جرجس تهتران حتى غدا من المتعذر عليه تثبيت
نفسه ، إذ كان يتأرجح إلى الأمام والوراء وهو يصغي ، أخيراً سألتها
وهو يشهق : « متى — متى بدأ هذا ؟ » .

« في ليلة من الليالي » أجابت وكأنها في غيبوبة « انها مكيدتهم ،
مكيدة الأنسة هندرسون ، كانت تكرهني . وهو — هو يريدني .

اعتاد أن يكلمني - في الخارج على الرصيف . بعدئذ بدأ - يغازلني ،
عرض علي مالا ، توسل إلي - قال إنه يحبني . بعدئذ هددني . كان
يعرف كل شيء عنا . كان يعرف أننا نموت جوعاً ، وكان يعرف
رئيسك ، ورئيس ماريا . وكان يقول أنه سيميتنا جوعاً - بعدئذ قال
إنني إذا قبلت - سنطمئن كلنا على أعمالنا - ستبقى لنا دائماً . وذات يوم
أمسك بي . . . ولم أستطع التخلص منه . . . إنه . . . إنه » .

« وأين كان ذلك ؟ » .

« في ممر الصلاة ، ليلاً . . . بعد أن ذهب الجميع . لم أستطع منع
ذلك . فكرت بك . . . بالطفل . . . بالأم والأطفال . . . كنت خائفة
منه . . . خائفة أن أصرخ » .

قبل لحظة ، كان وجهها بلون الرماد ، أما الآن فقد بات قويزاً
وبدأت تتنفس بصعوبة من جديد ، ولم ينبس جرجس ببنت شفة .

« كان ذلك قبل شهرين . بعدئذ أرادني أن أذهب - إلى ذلك البيت -
أرادني أن أقيم هناك . . . بل قال إنه يريدنا كلنا أن نقيم هناك - وأنا
لسنا مضطرين لأن نعمل . جعلني أذهب إلى هناك - في الأماسي .
أنا قلت لك - لكنك كنت تظن أنني في المصنع . ثم - هطل الثلج
ذات ليلة ولم أستطع الرجوع . الليلة الماضية ، توقفت الترامات .
شيء تافه كهذا . . . شيء تافه يحطمنا جميعاً . حاولت المشي على قدمي -
لكنني لم أستطع . لم أكن أريدك أن تعرف . فالأمر سينتهي - سينتهي

بسلام . . وسوف نستمر ، سنستمر كما كنا من قبل ولا داعي لأن يعرف أحد شيئاً . لقد سئمني ، وسوف يتركني وشأني قريباً . سأضع طفلاً - وسأصبح قبيحة ، لقد قال لي ذلك مرتين ، قال لي ذلك ، الليلة الماضية . وقد رفضني - الليلة الماضية - رفضي أيضاً . والآن ستقتله أنت - أنت ستقتله ، وسوف نموت » .

قالت هذا كله بغير ارتعاشة ، كانت تتمدد ساكنة كالميتة . لم تتحرك شعرة من أجفانها . وجرجس ، أيضاً ، لم ينبس ببنت شفة ، رفع نفسه إلى جانب السرير ، ثم وقف . ودون أن ينظر إليها نظرة واحدة مضى إلى الباب ثم فتحه . لم ير الزبيبتا ، هي التي كانت تقف منعورة في الزاوية ، ثم خرج من المنزل ، عاري الرأس تاركاً الباب الخارجي مفتوحاً خلفه . وفي اللحظة التي وطأت قدماه الشارع انطلق يعدو .

كان يعدو كمن أصابه مس ، أعماه الغضب ، لا ينظر يمينا ولا شمالاً . وصل إلى شارع أشلاند قبل أن يجبره الانهاك على تخفيف سرعته ، ثم اندفع إلى ترام مسرع ، بعد أن لاحظته يعبر به ومرق كالسهم إلى داخله . كانت عيناه كعيني الوحش وشعره متطايراً وكان يتنفس بصوت خشن وكأنه ثور مجروح ، لكن ركاب الترام لم يلاحظوا شيئاً من هذا كله - ربما بدا طبيعياً لهم أن يكون لرجل له رائحة جرجس منظر يتطابق مع تلك الرائحة . وبدؤوا يخلون الطريق أمامه كالعادة . بل حتى الجاني

أخذ أجرة الترام وهو على حذر منه ، بأطراف أنامله ثم تركه عند المنصة بمفرده . لم يلاحظ جرجس ذلك — فقد كان ذهنه في مكان آخر . تماماً . كانت روحه أشبه بفرن مستعر ، وكان يقف متربصاً ، منتظراً . وقد تجمع على نفسه كما لو أنه يود القفز .

استعاد بعض أنفاسه حين بلغ الترام مدخل الزرائب وهكذا قفز منه مبتعداً ، وشرع مرة ثانية يعدو بأقصى سرعته . كان الناس يلتفتون ويحدقون إليه ، لكنه لم يكن يرى أحداً — كان هناك المعمل ، كان يشب وثباً إلى أن اجتاز المدخل ثم نزل إلى الممر . كان يعرف الغرفة التي تعمل فيها أونا ، وكان يعرف كونور رئيس ورشة التحميل في الخارج . فبحث عن الرجل وهو يشب وثباً إلى داخل الغرفة .

كان عمال العربات منهمكين في أعمالهم ، يحملون الصناديق والبراميل المملئة من جديد ويضعونها على العربات . وبنظرة سريعة واحدة مسح جرجس الرصيف كله — لم يكن الرجل عليه . لكنه فجأة سمع صوتاً في الممر فوثب في اتجاهه وثباً . وفي اللحظة التالية كان يواجه رئيس العمال .

رئيس العمال هذا إيرلندي ضخم الجثة أحمر الوجه قاسي الملامح تنبعث منه رائحة الخمر . رأى جرجس وهو يتأثر العتبة فشحب لونه . ولثانية واحدة تردد ، وكأنه ينوي الفرار لكن في اللحظة التالية كان مهاجمه قد صار فوقه . رفع يديه كي يحمي وجهه ، لكن جرجس

المندفع بكل ما في جسده وذراعه من قوة لطمه لطمه هائلة بين عينيه تماماً فصرعه أرضاً ، وفي اللحظة التالية كان يرمي بكل ثقله عليه ويطبق أصابعه على عنقه .

بالنسبة لخرجس ، كان وجود هذا الرجل كله يفوح برائحة الجريمة التي ارتكب . كانت لمسة جسده تدفعه للجنون — تجعل كل عصب في جسمه يرتعش ، تثير كل الشياطين الكامنة في روحه . لقد نفذ رغبته في أونا — هذا الوحش . اذن لينل عقابه . لينل عقابه . انه دوره الآن . وانبثق الدم من كل مكان تحته وهو يصرخ كالمجنون ، رافعاً خصمه إلى الأعلى ضارباً رأسه بالأرض يبتغي تهشيمه .

وبالطبع ، ساد المكان كله هرج ومرج شديدان ، فالتساء بدان الصراخ ، أغمي عليهن ، والرجال اندفعوا إلى الداخل . كان خرجس منكباً على أداء مهته انكباباً جعله لايعرف شيئاً عن هذا كله ، وربما لم يعرف إلا بالكاد أن الناس كانوا يحاولون التدخل بينه وبين ضحيته ، لكنهم لم يستطيعوا ذلك حتى أمسك نصف دسنة من الرجال بكففيه وساقيه وسحبوه بعيداً ، حينها فقط أدرك أنه خسر فريسته . وبلمحة عين انكب مرة ثانية وغرز أسنانه في وجنة الرجل وحين تركها كان فمه يقطر دماً وشرائط صغيرة من جلد وجنته تعلق بين أسنانه .

وضعه الرجال على الأرض ممسكين به من ذراعيه وساقيه ، ومع ذلك لم يثبتوه إلا بصعوبة بالغة . كان يعارك كالنمر ، مثلواً ، ملتفاً .

قاذفاً بنفسه هنا وهناك محاولاً الاندفاع من جديد باتجاه خصمه الفاقد الوعي . إلا أن عمالاً آخرين اندفعوا إلى الداخل ، حتى صار هناك جبل صغير من الأجسام والأطراف الملتفة ، تعلو وتنخفض وهي تشق طريقها خارج الغرفة . في النهاية وبفضل ثقلهم المحض ، كتموا أنفاسه ، ثم حملوه إلى مركز شرطة الشركة حيث ظل ممدداً هناك إلى أن استدعوا عربة دورية نقلته بعيداً .

- ١٦ -

عندما نهض جرجس مرة ثانية كان قد عاد إليه هذوؤه تماماً ، اذ كان مستنفذ القوى ، شبه مغشى عليه ، فضلاً عن أنه رأى بذلات الشرطة الزرقاء . دفعه هؤلاء إلى داخل عربة دورية يراقبه نصف دسيسة منهم وقد ابتعلوا عنه ما أمكن بسبب رائحة السماد ، بعدئذ وقف أمام طاولة الرقيب ، قدم اسمه وعنوانه ، ثم واجه تهمة التهجم والاعتداء على الآخرين . وفي طريقه إلى الزنازة لعنه شرطي ضخم الجثة لانه سلك ممراً خاطئاً ثم اضاف على لعناته رفسة على قفاه حين لم يسرع كما ينبغي ، مع ذلك لم يرفع جرجس عينيه — كان قد مضى عليه في باكنجتاون سستان ونصف وهو يعرف ما معنى الشرطة . فحياة الانسان نفسها قد تشير حنقهم هنا داخل عرينهم ، وليس امراً بعيد الاحتمال ابداً ان يتكلم عليك لأقل هفوة ترتكبها عشرة أو خمسة عشر منهم ليخولوا وجهك إلى كيس تدريب على الملاكمة ، ولن يكون امراً غير عادي

ان تهشم جميعتك في خضم الزحام — ويسجلوا في تقريرهم انك
كنت ثملاً وانك سقطت ارضاً وليس ثمة من يهتم بك او يبالي .

وهكذا اغلق باب القضبان الحديدية على جرجس الذي جلس
على مقعد ودفن وجهه بين يديه . لقد كان وحيداً ولديه العصر كله
والليل بطوله كي يفكر .

في البداية كان أشبه بحيوان مفترس أنخم نفسه : كان في حالة
من الحذر المتبلد الذي ينتج عن الرضى الذاتي ، لقد عاقب الوغد العقاب
الذي يستحق — انما ليس كما كان سيعاقبه لو اعطوه مهلة الدقيقة
اخرى ، لكنه عقاب جيد على اية حال . في اطراف اصابعه ما يزال
يخس بوخر خفيف من شدة على بلعوم ذلك الرجل . لكن بعدئذ ومع
رجوعه إلى حالته الطبيعية بدأ يرى شيئاً فشيئاً ما وراء رضاه الآني ،
بدأ يرى ان قتله لرئيس العمال لن يفيد أونا — لن يذهب بالاهوال
التي تواجهها ولن يمحو الذكرى التي تلتها ايامها ولياليها . لن يطعمها
ولن يطعم طفلها ، فهي بالتأكيد ستفقد عملها ، اما هو — فلا يعلم الا
الله ما سيحدث له .

ظل حتى منتصف الليل يذرع زنزانه جيئة وذهاباً . يصارع
كوابيسه ، وحين استنفدت قواه تماماً تمدد على الارض محاولاً النوم ،
انما وجد ، للمرة الاولى في حياته ، ان دماغه أكبر بكثير مما يحمل
رأسه . في الزنانة المجاورة كان ثمة سكير ضرب زوجته وفي الزنانة

الثالثة كان مهووس بصرخ ويزعق . عند منتصف الليل فتحوا المخفر للمتسكعين المشردين الذين كانوا يزدحمون قرب الباب ، يرتعشون من برد الشتاء ، ويتجمعون في الممر الواقع خارج الزنانات . بعضهم تمدد على الارض الحجرية العارية . وبعضهم الآخر ظل جالساً وهو يضحك ويتكلم . يلعن ويسب ويتشاجر مع الآخرين . الهواء نفسه افسدته رائحة انفاسهم . مع ذلك ورغم هذا كله ، شم بعضهم رائحة جرجس وانزلوا عليه لعنات السماء ، بينما كان يتمدد في زاوية بعيدة من زنانتة يعد نبضات الدم في شريان جبهته .

كانوا قد احضروا له عشاءه وهو « دفرز ودوب » - أي كتل كبيرة من الخبز الجاف على صحن من الصفيح وقهوة تسمى « دوب » لانها معالجة بعقار يهدى المساجين . لم يكن جرجس يعرف هذا . والا لكان ابتلع ماقدموه له بسرعة كبيرة ، فقد كان كل عصب فيه يربعش غضباً ونحجلاً . مع اقتراب الصباح ساد الصمت المكان ، فنهض وراح يأنزع زنزانتة جيئة وذهاباً . عند ذاك وفي اعماق روحه هب شيطان احمر العينين ، فطيع القسوة وراح يقطع نياط قلبه . لم يكن يتألم على نفسه - نرى أي شيء في الدنيا يمكن ان يهتم به رجل يعمل في معمل اسمدة دورهام ! ! ما هو ياترى طغيان السجن اذا ماقورن بطغيان الماضي ، طغيان الشيء الذي حدث ولا يمكن تذكره ، طغيان الذكرى التي لا يمكن محوها ابداً ؟ - كانت فظاعتها تدفعه إلى الجنون

فيمد يديه للسماء طالباً الخلاص منها -- وما من خلاص . فليس هناك
قوة حتى في السماء ذاتها يمكنها ان تلغي الماضي وتمحوه . إنه الشبح
الذي يظل امام العينين يلاحق الانسان ، يقبض عليه . يصرعه ارضياً .
آه لو استطاع رؤيته من قبل فقط -- وكان باستطاعته ان يراه من قبل
اولم يكن احمق . لقد لطم جبهته بيديه لاعناً نفسه لانه سمح لأونا
ان تعمل حيث عملت ، لانه لم يحل بينها وبين المصير الذي كان الجميع
يعلمون انه يحل بكل من يعمل هناك . كان ينبغي ان يبعدها حتى لو كان
عليهم ان يرموا صرعى الجوع في شوارع ومجاريير شيكاغو ! والآن
آه ! ! لا يمكن ان يكون ذلك صحيحاً . انه فظيع ، فظيع مروع .

شيء لا يستطيع الانسان مواجهته ، وكانت تمسك به ارتعاشة جديدة
كلما حاول التفكير بذلك . لا ، هو عبء لا يحتمل ، لا يمكن للانسان
ان يعيش تحت وطأته . هي ، اونا ، لا ذنب لها ولا جريرة -- كان
يعلم انه قد يغفر لها ، وقد يركع امامها على ركبتيه ، اكنها لن تستطيع
النظر إلى وجهه مرة ثانية ، لن تكون زوجته مرة ثانية ، ستقتلها شدة
نحجلها -- وليس ثمة خلاص آخر فالافضل ان تموت .

كان هذا واضحاً وبسيطاً ، لكن مع ذلك كان ثمة تناقض شديد .
فحينما يفر من كابوسه ، يجد أنه يتألم اشد الألم لرؤيته اونا وهي تموت
جوعاً ، لقد وضعوه في السجن وربما يبقونه هنا مدة طويلة ، سنوات .
من يعلم ؟ ومن المؤكد ان اونا لن تستطيع مزاولة عملها ثانية -- هي

المحطمة المهشمة وقد تفقد الزبيبا وماريا عملهما ايضاً .- اذا ما اراد ذلك الشيطان المدعو كونور ان يركب رأسه ويحطمهم . في هذه الحالة سيصبحون جميعاً بلا عمل .- وحتى لو لم يفعل ذلك ، فلن يكون بوسعهم كسب قوتهم .- حتى لو ترك الاولاد المدرسة ، فلن يكون بم استطاعتهم دفع الديون والاقساط بدون راتبه وراتب اونا . كان كل ما يملكونه في هذه الدنيا بضعة دولارات لاغير .- فقد دفعوا اجرة المنزل منذ اسبوع فقط وبعد ان كان مستحقاً لمدة اسبوعين ، ولسوف يتوجب عليهم الدفع خلال اسبوع ، ولن يجلبوا مالاً عند ذاك لدفع الاجرة القادمة .- وهكذا سيخسرون مترلهم بعد كفاحهم الطويل المرير كله . كان الوكيل قد وجه لهم حتى ذلك الحين ثلاثة انذارات ولن يتحمل أي تأخر جديد . لكن ، ربما هي خطة من جرجس ان يفكر بالمنزل في الوقت الذي تملأ رأسه اشياء أخرى لا يمكن التحدث بها . لكن ، كم تراه قاسى في سبيل منزله هذا ؟ كم تراه جميعاً قاسوا ؟ لقد كان املمهم الوحيد بالراحة ، طالما هم على قيد الحياة ، لقد وضعوا فيه كل ما يملكون - وهم اناس كادحون ، اناس فقراء ملهم هو كل قوتهم ، كل ما فيهم روحاً وجسداً ، انه الشيء الذي به يعيشون وبفقدانه يموتون .

لكنهم سوف ينخسرونه . سيطردون إلى الشارع . وسيضطرون للالتجاء إلى عليقة قارسة البرد .- ليعيشوا او يموتوا حسب الظروف .

كان لدى جرجس الليل بطوله .. وكذلك الكثير من الليالي الاخرى --
للتذكير بهذا الامر . وتقليبه على أوجهه الكثيرة ، فقد كان يعيش المشكلة
وكأنه هناك في الخارج . انهم سيبيعون اثاثهم ، ثم يفرقون في الديون
لأصحاب المخازن الذين سيرفضون بعد ذلك اعطاءهم أي شيء ديناً .
بعدئذ يبدؤون الاستدانة من تريدفيلاس الذي بلغ محل عملياته حافة
الهاوية . ثم قد يساعد الجيران قليلاً -- يادفيغا المريضة المسكينة قد تأتي
لهم ببعض القروش التي ادخرتها ، كما تفعل دائماً حين ترى أناساً يوشكون
على الموت جوعاً ، وقد يأتي لهم تاموزيوس كوتزلايكا بأجرة عزفه
على الكمان الليل بطوله . وهكذا سيكافحون للبقاء واقفين على أرجلهم
إلى ان يخرج من السجن -- ام تراهم حين يعامون انه في السجن .
سيتمكنون من اكتشاف شيء ما عنه ؟ هل سيسمحون لهم برؤيته ؟
أم ان جزءاً من عقوبته ان يبقوه جاهلاً بما يحل بهم ؟ .

كان تفكيره ينصب دائماً على اسوأ الاحتمالات . فهو يتصور
اونا مريضة تتعذب ، وماريا وقد طردت من عملها ، وستانيساو فاس
الصغير غير قادر على الذهاب إلى العمل بسبب الثلج ، والعائلة كلها
مرمية في الشارع . يا الله الكلي القوة ! ! هل سيلقونهم في الشارع فعلاً
كي يموتوا هناك ! ؟ . ألن يكون هناك اية مساعدة حتى في ذلك .
الحالة ؟ -- هل سيطوفون في الثلج إلى ان يتجمدوا ؟ لم يكن جرجس
قد رأى اية جثث في الشوارع لكنه رأى أناساً يغوصون ويختفون .

دون أن يعرف أحد أين ، ورغم انه كان يوجد في المدينة مكتب انقاذ
ورغم انه كان في منطقة الزرائب منظمة اجتماعية للبر والاحسان الا أنه
لم يسمع طوال المدة التي عاشها هنا بأي عمل لهما فعلاً . فهما لاتعملان
عن شائطتهما : نظراً لان الطلبات عليهما أكثر بكثير من ان تستطيعا
دليتهما .

هكذا ظلت الافكار تأخذ وتجيء به حتى الصباح -عند ذاك وضعوه
مرة أخرى في عربة الدورية جنباً إلى جنب مع السكر ضارب زوجته
والمهروس وعدة سكارى عادين « ومتشاجري حانة » . واصل من
لصوص المنازل ورجلين كان قد القي القبض عليهما لاختلاسهما لحماً
من دور التعليب ، ثم دفعوهم جميعاً إلى غرفة كبيرة ذات جدران
بيضاء ورائحة عفنة ومزدحمة بالناس . في الواجهة ، وعلى منصة عالية
يفصلها عن بقية القاعة حاجز خشبي كان يجلس رجل ضخم الجثة
متورد الوجه ، على انفه الكثير من البقع الارجوانية المحمرة .

ايقن صديقنا ، وبغير سبب واضح ، انهم سيبدؤون محاكمته .
فتساءل في سره عن التهمة . أتري مات غريمه ؟ واذا كان الامر كذلك
فهل سيثنتونه أم يضربونه حتى الموت ؟ - كان جرجس يتوقع كل
شيء ، هو الذي يجهل كل مايتعلق بالقانون ، مع ذلك كانت اذناه
قد التقطتا من الهمسات مايكفي لان يعرف ان الرجل ذا الصوت العالي
الجالس على المقعد قد يكون القاضي سيء السمعة كالاهان ، الذي

كان الناس في باكنجتاون يتحلثون عنه بانفاس مكتومة . كان « بات » كالاهاان - او « غرولر » كالاهاان كما كانوا يعرفونه قبل ان يصعد منصة القضاء - قد بدأ حياته كصبي جزار وملاك مشهور محلياً . وقد دخل عالم السياسة حاملاً تعلم الكلام ، وكان يدير مكنتين في آن معاً قبل ان يبلغ سن الانتخاب واذا كان سكولي هو الابهام فان « بات » كالاهاان هو الاصبح الاولى في اليد غير المرئية التي يفرض بها اصحاب دور التعليب سيطرتهم على سكان المنطقة . فليس هناك سياسي واحد في شيكاغو يحوز على ثقتهم أكثر من هذين الاثنين ، وكانا قد حازا عليها منذ زمن طويل سيما وان « بات » هذا كان وكيل اعمال دورهام الكبير في مجلس المدينة ، دورهام ذلك التاجر العصامي الذي صنع نفسه بنفسه في تلك الايام الاولى حين كانت مدينة شيكاغو كلها مطروحة في المزاد . لكن « غرولر » تخلى عن ادارة مكنتيه في المدينة في وقت مبكر من حياته المهنية - صارفاً جل اهتمامه لكسب قوة حزبية جيدة ، وكرساً بقية وقته للإشراف على جاناته رديئة السمعة ومواخيره . لكنه في السنين الاخيرة ، عندما بدأ اولاده يكبرون ، شرع يقدر « المحترمة » وصنع من نفسه قاضياً ، وهو مركز يناسبه تماماً بسبب نزعتة المحافظة الشديدة واحتقاره للاجانب .

جلس جرجس يخلق حوله في القاعة ساعة او ساعتين . كان يأمل ان يأتي احد افراد العائلة ، الا ان امله خاب . اخيراً قاده احدهم إلى مقربة من الحاجر ، فظهر قبالة محام من محامي الشركة . كان كونور

تحت رعاية الطبيب ، شرح المحامي باختصار . واذا سمح « سعادته »
فليحجز السجين لمدة اسبوع .- لكن سعادته قال على نحو سريع
« . . ثلاثمائة دولار » .

راح جرجس ينقل بصره بين القاضي والمحامي بحيرة شديدة .
« هل لديك من يكفلك ؟ » سأل القاضي . ثم بدأ كاتب كان يقف
بجوار جرجس يشرح له معنى قول القاضي . فهز رأسه وقبل ان ينسى
له معرفة ما حدث كان رجال الشرطة يقودونه بعيداً مرة ثانية . لقد
اخذوه إلى غرفة كان بعض المساجين الآخرين ينتظرون فيها . وهناك
مكث إلى أن انفضت المحكمة ، بعدها نقلتهم عربة الدورية في رحلة
اخرى طويلة وقارسة البرد إلى سجن المقاطعة الذي يقع في الطرف
الشمالي من المدينة ، على بعد تسعة او عشرة اميال من الزرائب .

هنا فتشوا جيوب جرجس ولم يتركوا له الا نقوده التي لم تكن تزيد
على خمسة عشر سنتاً . بعدئذ قادوه إلى احدى الغرف وامروه أن يتعري
كي يستحم . بعد ذلك كان عليه ان يجتاز رواقاً طويلاً عابراً بالزنايات
ذات الابواب الحديدية التي يسجن فيها المساجين المحصوصيون .- الدفعة
اليومية من القادمين الجدد وكلهم عراة تماماً بكل مايشير ذلك من اقوال
وتعليقات . طلبوا من جرجس ان يمكث في الحمام أكثر من اي سجين
آخر على امل أن يتخلص من ذرات الفوسفات والحموض العالقة به انما
عبراً . كان المساجين يوضعون كل اثنين في زنزانة ، الا ان زنزانة
واحدة كانت قد ظلت فارغة في ذلك اليوم ، وكان هو الوحيد فيها .

كانت الزنانات ثلاثاً ثلاثاً تنفتح على الاروقة . وكانت زنائنه بطول سبعة اقدام وعرض خمسة . ارضها من الحجر وعليها دكة من الخشب ولم تكن هناك نافذة — الضوء الوحيد الذي يدخلها انما يجيء من نوافذ قرب السقف في احدى نهايات الباحة الخارجية . وكان هناك سريران ضيقان واحدتهما فوق الآخر ، وعلى كل منهما فراش من القش وزوج من البطانيات الرمادية — تراكم عليها الوسخ حتى غدت متصلة كاللوح تعشش فيها البراغيث والبق والقمل . وعندما رفع جرجس الفراش اكتشف تحته طبقة من الصراير التي انطلقت تعدو بسرعة وقد اصابها من الدعر ما اصابه هو نفسه .

هنا جاؤوا له مرة أخرى بعشائه الاول « دفرزودوب » اضافة لزيادة حساء ، كان كثير من المساجين يطلبون طعامهم من المطاعم الا ان جرجس لم يكن يملك نقوداً لذلك . وكان لدى البعض كتب للقراءة وورق للعب وشموع يشعلونها ليلاً ، غير ان جرجس كان مفرداً محروماً من هذا كله غارقاً في العتمة والصمت . كذلك لم يستطع جرجس النوم ، فقد عادت اليه مرة اخرى الافكار ذاتها وراحت تجلده بسياط حامية تقع كالنار على ظهره العاري . حين خيم الظلام راح جرجس يذرع زنائنه جيئة وذهاباً مثل وحش يحاول تحطيم قضبان قفصه . فقد كان لشدة انفعاله ، يقذف بنفسه من حين لآخر على الجدران دافعاً عليها بيديه ، إلى ان جرحته الجدران وأدمته — فقد كانت باردة لا ترحم كالرجال الذين بنوها .

في مكان بعيد كان ثمة برج كنيسة وكان ناقوسه يقرع الساعات
واحدة بعد الاخرى . وحين حل منتصف الليل كان جرجس يتمدد
على الأرض ورأسه بين ذراعيه . يستمع لدقات الناقوس الذي ،
بدلاً من ان يفرق في الصمت اصدر في النهاية رنيناً طويلاً مفاجئاً .
فرفع جرجس رأسه ، ترى مامعنى ذلك ؟ - حريق ! ! يا الله ! ! لنفترض
انه شب حريق في هذا السجن لا . . . لا . . . - حينذاك سيصدر رنين
ذو لحن خاص . اما الآن فهناك رنين اجراس عادي . يبدو انهم يوقظون
المدينة - . كل المدينة من ادناها إلى اقصاها ، كانت هناك نواقيس ،
ترن رنات عنيفة ، ولدقيقة كاملة شعر جرجس انه ضاع تماماً في
فيافي الحيرة . ثم في لحظة مفاجئة ، بزغ معنى ذلك كله امام عينيه -
انها ليلة عيد الميلاد .

ليلة عيد الميلاد ! لقد نسي ذلك كلياً وشعر ببوابات الفيضان
تتحطم ، بزوبعة من الذكريات والاحزان الجليدة تندفع إلى رأسه .
في ليتوانيا النائية كانوا يحتفلون بعيد الميلاد ، ونحيل لجرجس وكأنما
ذلك بالأمس فقد رأى نفسه مرة ثانية طفلاً صغيراً مع اخيه المفقود
وابيه المتوفى في محجرتيهما في اعماق الغابة ، حيث كان قد سقط الثلج
طوال النهار والليل ودفنهم بعيداً عن العالم . لقد كانوا يعيشون في مكان
قصبي من ليتوانيا يبعد كثيراً عن سانتا كلاوس ، الا انه لم يكن يبعد
كثيراً عن الالم ونية الانسان الطيبة ، عن الرؤية المشوبة بالدهشة

للمسيح الطفل . بل هنا في باكنجتاون لم يكونوا قد نسوا ذلك — اذ ظلت بعض اشعة تلك الرؤية تتخال ظلمتهم . ليلة عيد الميلاد الماضي وطوال نهاره ظل جرجس يكد ويشغل في أحواض الدبح وأونا في صر اللحم المحفوظ لكنهما رغم ذلك وجدا بقية من قوة لأخذ الاولاد في نزهة في الشارع كي يروا واجهات المحلات المزينة بأشجار عيد الميلاد والمشعشة بالانوار الكهربائية . في إحدى النوافذ كانت هناك اوزة حية ، وفي أخرى اشكال عجيبة من السكاكر — زهرية ، بيضاء ، كبيرة إلى حد يكفي لإطعام غول ، واقراص كاتو عليها ملائكة مجنحة ، وفي نافذة ثالثة كانت هناك صفوف من ديوك الرومي الصفراء السمينة مزينة كلها بوريدات صغيرة . كذلك كان هناك ارانب وسناجب مدلاة ، وفي رابعة مجموعة كبيرة من الدمى — دمي جميلة بملابس زهرية وخراف غزيرة الصوف وطبول وقبعات جنود ، ولم يذهبوا دون ان يأخذوا حصتهم من هذا كله .

لقد ملؤوا سلة كبيرة بكل ماتسوقوه لهذه المناسبة السعيدة — شرائح مشوية من لحم الخنزير مع ملفوف وبعض ارغفة الجاودار ، وزوج قفازات لأونا ودمية مطاطية ترقو ووعاء قرني الشكل اخضر صغير مليء بالحلويات التي كانت متدلى من نافورة الغاز لتنظر اليها دسنة من العيون الملأى بالشوق .

لم يكن باستطاعة حتى نصف عام من العمل على آلات النقاق

وصناعة الاسمدة ان يقتل فكرة عيد الميلاد في اذهانهم . وشعر جرجس بغصة خائفة في بلعومه وهو يتذكر تلك الليلة التي لم تعد فيها أونا إلى المنزل واخذته تيتا التريبتا جانباً لتريه بطاقة معايدة قديمة كانت قد اشترتها من محل قرطاسية بثلاثة سنتات — صحيح انها كانت نسخة بالية الا انها كانت ذات ألوان زاهية ملأى برسوم ملائكة وحمامات . وكانت قد مسحت كل البقع عنها : وفي نيتها ان تضعها على رف الموقد ، حيث يظل باستطاعة الاولاد رؤيتها ، فhez جرجس نشج حاد امسك به من تلايبيه لهذه الذكرى — وسيقضون عطلة ميلادهم في بلجة البؤس ، واليأس : هو في السجن واونا مريضة وبيتهم في حالة من الخراب آه ما فظع ذلك ! ! ترى لماذا لم يدعوه وشأنه على الاقل ؟ — لماذا ، بعد ان اغلقوا عليه ابواب السجن ، كان ينبغي ان يقرعوا موسيقى الميلاد في اذنيه .

لكن ، لا ، نواقيسهم لا تفرح من اجله — عيد ميلادهم لا يعنيه . انهم بكل بساطة لا يحسبون حساب به . فليست له اية اهمية — كان قد ألقي به جانباً كشيء من سقط المتاع ، جيفة حيوان ما . لكنه أمر فظيع فظيع . زوجته قد تموت ، ابنه قد يقضي جوعاً ، عائلته كلها قد تهلك من البرد — ومع ذلك فانهم ما يزالون يقرعون موسيقى عيد الميلاد ، باللسخريه ! ! . كل هذا عقاب له ! ! لقد وضعوه في مكان لا يمكن للثلج ان يدخله ، لا يمكن للقرس ان ينخر عظامه فيه وهم يأتون له بالطعام والشراب . لماذا ، بحق السماء ! ! ان كان لابد من معاقبته

فلماذا لا يضعون عائلته في السجن ويدعونه خارجاً ، ماذا لا يجدون
طريقة لمعاقبته افضل من تركهم ثلاث نساء ضعيفات وستة اولاد لاحول
لهم ولاطون يهلكون جوعاً وبرداً ؟ .

ذلك هو قانونهم ، تلك هي عدالتهم .. انتصب جرجس على
ساقيه وهو يتنفض من فرط الانفعال ، يدها مشدودتان ، ساعدها إلى
الاعلى وروحه كلها تنقد حنقاً وتحدياً . عليهم وعلى قوانينهم عشرة آلاف
لعنة ! ! عدالتهم اكلوبة ، اكلوبة كريهة غادرة ، شيء فظيع
كريه لايناسب سوى عالم الكوابيس . انها مهزلة براقة المظهر تشير
الاشمئزاز - ليس هناك عدل . ليس هناك حق . لا مكان في هذا العالم
الا للقوة ، للطغيان ، للبغي والتسلط بلا حدود او قيود ، انهم يسحقونه
تحت كعابهم ، يلتهمونه روحاً وجسداً . لقد قتلوا والده العجوز ،
حطموا زوجته ، سحقوا عائلته ، ركعوها ، والآن هاهم ينهون امره .
فليس ثمة فائدة منه - ولانه يتدخل في شؤونهم ، يحشر انفه في امورهم ،
ينبغي ان ينتهوا منه كلياً . لقد وضعوه خلف القضبان ، كما لو انه
حيوان مفترس ، شيء بلا حس او عقل ، بلا حقوق او عواطف ،
بغير مشاعر او احساس ، بل لا يمكنهم ان يعاملوا وحشاً كما يعاملونه .
ترى هل هناك رجل بكامل وعيه يصيد حيواناً برياً ويترك صغاره
تموت بعده ؟

كانت ساعات منتصف الليل هذه ساعات مخيفة بالنسبة لجرجس .

فيها شاهد مولد ثمرده ، خروجه على القانون ، كفره بكل شيء .
لم يكن لدى الرجل من الفطنة مايؤهله لتعقب آثار الجريمة الاجتماعية
حتى جذورها — لم يكن باستطاعته القول ان السبب هو مايدعوه الناس
باسم « النظام » وان هذا النظام هو الذي يمرغه بالتراب ، وان اصحاب
دور التعليب ، سادته ، هم الذين يصنعون القانون فيصنعونه على هواهم ،
وانهم هم الذين يكشرون عن انيابهم في وجهه من منصة القضاء .
لم يكن يعلم الا انه مظلوم وان العالم هو الذي يمارس عليه هذا الظلم ،
وان القانون ، المجتمع ، بكل مافيه من سلطات وقوى يناصبه العدااء ،
في كل ساعة كانت نفسه تزداد قناعة ، وفي كل ساعة بات يحلم
احلاماً جديدة عن الانتقام ، التحدي ، السخط ، الكراهية المسعورة .

« شر الاعمال ، مثل كل الاعشاب السامة ،

تترعرع تماماً في اجواء السجون

ولا يضيع ويهدر هناك

الا الجانب الحسن من الانسان

فالعذاب الشديد هو الذي يحرس ابواب الحديد

.. واليأس هو الذي يقف خلفها بالمرصاد »

كذلك كتب شاعر من الشعراء رأى من العالم عدالته —

« لست ادري ان كانت القوانين على صواب

أم على خطأ ،

بل كل مائديته نحن الذين تضمننا السجون

هو ان الاسوار متينة

تحتفي بجميعها عن الأعين

فما يجري في داخلها

لا يمكن للإله ولا لرسوله

ان يروه إقط . . .

- ١٧ -

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، سمعوا لجرجس بالخروج
كي يأتي بماء يغسل به زنارته - وهي مهمة اداها جرجس بانخلاص
شديد رغم ان معظم السجناء يتهربون منها إلى ان تصبح زنارتهم في
حالة من القمادة تجبر الحراس على التدخل . بعدئذ قدموا له وبجبة
اخرى من « الدفوز والدوب » ثم سمعوا له بثلاث ساعات تنفس ضمن
باحة طويلة ذات بدران اسمتية وسقف من الزجاج . هنا كان كل
نزلاء السجن يزدهمون معاً .

في احد جوانب الباحة كان يوجد مكان للزوار يقطعه حاجزان سميكان
متينان يفصل بينهما حوالي قدم من الفراغ . بحيث لا يمكن

لاي شيء ان ينتقل بين المساجين والزوار . هنا راقب جرجس بانفعال شديد ، انما لم يأت أحد لرؤيته . لكن ما ان عاد إلى زنزانته ، حتى فتح الحارس الباب وادخل سجيناً آخر شاباً انيقاً ذا عيين زرقاوين وشاربين خفيفين وقوام رشيق . هز برأسه لجرجس ثم بدأ ، والحارس يغلق الباب عليه ، يحدق فيما حوله بعين متفحصة .

اخيراً قال وهو يرمق جرجس بنظرة سريعة ثانية « حسناً يازميل ، صباح الخير » . فأجابه جرجس : « صباح الخير » .

فأضاف الزميل : « سجن مناسب في عيد الميلاد هذا ، أليس كذلك ؟ » .

وهز جرجس برأسه .

فمضى القادم الجديد إلى السريرين ثم بدأ بتفتيش البطانيات . اخيراً رفع الفراش ثم تركه يسقط هاتفاً : « يا الهي ! ! ذلك الاسوأ اذن ! » . ثم رشق جرجس بنظرة سريعة قائلاً « يبدو ان احداً لم ينم فيه الليلة الماضية . لم تستطع تحمله اليس كذلك ؟ »

فقال جرجس « لم استطع النوم الليلة الماضية » .

« ومتى دخلت ؟ »

« امس »

فجال الآخر بنظره في الزنانة مرة ثانية ثم غَضَنَ أنفه « ثمة راحة
كرائحة الشياطين هنا . »

قال فجأة « ماهي ؟ »

فأجاب جرجس « أنها رائحتي »

« . . . رائحتك ؟ »

« . . . اجل »

« ألم يعملوك تغسل ؟ »

« بلى ، الا انها لا تذهب بالاختسال . »

« فماهي ؟ »

« سماء »

« سماء باللعة . . فما انت ؟ »

« أعمل في المسلخ ، او بالأحرى عملت حتى ذلك اليوم - والرائحة
في ملابسي » ، فقال القادم الجديد « هذا جديد علي كنت اظن انني
اقف بمفردي حيالهم . »

« ما سبب دخولك ؟ السجن »

« ضربت رئيسي »

« . . . أوه . . . هكذا . . . وماذا فعل لك ؟ »

« عاملني معاملة خسيصة »

« أرى ذلك . . . إذن أنت مايسمونه بالعامل الشريف »

فسأله جرجس « ومن أنت ؟ »

فأجاب الآخر ضاحكاً « أنا ؟ . . . يقولون أنني لاه من لصوص الليل . . . »

« وما لاه الليل ؟ » سأله جرجس .

فأجاب الآخر « صناديق وأشياء من هذا القبيل . »

« أوه » قال جرجس مندهشاً وهو يحدق إلى زميله تظني على سيمائه الخرب « تعني أنك تقوم بأعمال السطو . . . تحطم الاقفال و . . . و . . . »

« أجل » قال الآخر ضاحكاً « هذا مايقولونه »

لم تكن سنة قزيد على الثانية أو الثالثة والعشرين ، على مايلو ، لكن جرجس اكتشف فيما بعد انه في الثلاثين . كان يتكلم كرجل متعلم ، أشبه بمن يدعوهم الناس « بالخبثلمان » .

سأله جرجس « ولهذا السبب أنت هنا ؟ »

فجاءه الجواب « كلا ، انا هنا لتصرف فوضوي ، فقد جنوا
لعجزهم عن توفير أي دليل ضدي . »

« ما اسمك ؟ »

فتابع الشاب كلامه بعد وقفة قصيرة « اسمي دوان . جاك دوان . لي
اكثر من عشرة اسماء الا ان هذا اسمي في الشركة . » ثم جلس على
الارض مستنداً بظهره إلى الجدار مقاطعاً ما بين ساقيه واستأنف الكلام
ببساطة ، فسرعان ما جعل من جرجس صديقاً له — كان من الواضح
انه رجل ذو تجربة كبيرة في هذه الدنيا ، معتاد على التعامل مع كافة
انواع الناس ولا يأنف كثيراً من محادثة انسان هو مجرد عامل ، فقد
جعل جرجس يفضي بكل ما في نفسه وسمع كل شيء عن حياته — ماعدا
ذلك الشيء الذي لا يمكن ذكره ابداً . بعد ذلك روى لجرجس قصة
حياته ، وكان راوية قصص رائعاً . فمجيئه إلى السجن لم يكن يعكر
مزاجه على ما يبدو ، وقد « دخله مرتين » من قبل كما كان يتلقى
ذلك كله بترحيب العايب . فالانسان يستطيع بما خلفه وراءه من نساء
ونخمر وابتهاج ان يتحمل مثل هذه الراحة بين الفينة والفينة .

بالطبع تغيرت نظرة جرجس إلى حياة السجن بقدم زميله ،
فهو لم يعد يدير وجهه إلى الجدار ويكفهر . كان عليه ان يحدثه حين

يحدثه هذا ، ولم يكن باستطاعته ان يمنع نفسه من الاهتمام بمحادثة دوان - اول انسان متعلم يتحدث معه في حياته كلها . كيف يستطيع ياترى ان يمنع نفسه من الاصغاء - مندهشاً للرجل وهو يروي له مغامراته بعد منتصف الليل وفراراته المليئة بالمخاطر ، مآدبه العامرة وحفلات الجنس الجماعية ، والثروات الطائلة التي يبدها في ليلة واحدة . كان الشاب يشعر بنوع من الازدراء الخفي لخرجس باعتباره صنفاً من اصناف بغال الشغل ، لكنه كان يشعر ايضاً بظلم العالم وبدلاً من ان يتحمل هذا الظلم بصبر واناة ، كان يرد الضربات للعالم . كان يضرب بقسوة ، ويضرب طوال الوقت - فهناك حرب مشتعلة الاوار بينه وبين المجتمع . كان الشاب قاطع طريق ظريفاً ، يقيم بين ظهرائي عدوه من غير نخجل او وجل . لم يكن دائماً هو الظافر ، الا ان الهزيمة لم تكن تعني له العدم ولم يكن ثمة ضرورة لان يتفطر قلبه اذا ما انهزم .

في صميمه كان شخصاً طيب القلب - الى حد كبير جداً ، على ما يبدو . فهو لم يرو قصته لخرجس في اليوم الاول او الثاني بل في الساعات الطويلة التي اعقبت دخوله ولم يكن لديهما ما يقولانه سوى الحديث ، ولا موضوع لحديثهما سوى نفسيهما . كان جاك دوان من الشرق ، تربية احدى الكليات ، فقد درس الهندسة الكهربائية . بعدئذ اصاب والده سوء حظ في اعماله فقتل نفسه تاركاً وراءه زوجة

وابناً وابنة اصغر منه . كذلك ، كان هناك الاختراع الذي اخترعه دوان . ولم يستطع جرجس ان يفهم ذلك بوضوح ، الا انه كان اختراعاً ذا علاقة بالارسال البرقي ، اختراعاً على قدر كبير من الاهمية على ما يبدو - وكان يدر ثروة كبيرة ، ملايين الدولارات . الا ان الشركة الكبيرة سلبته حقه في هذا الاختراع . فعلق في قضايا ومحاكم تركته بعدها وقد اضاع كل ما يملك . بعدئذ اعطاه احدهم بنحشيشاً في سباق خيل فحاول ان يسترد ثروته بمال شخص آخر واضطر لان يفر وكانت تلك هي البداية . سأله جرجس ما الذي دفعه للسطو على الخزائن - فهي بالنسبة لجرجس مهنة غريبة يخيفك حتى التفكير بها فأجابه الزميل بأن السبب هو رجل النقابة - وشيء يقود إلى شيء آخر . سأله جرجس ألم يكن يفكر بعائلته . فأجاب الآخر ، احياناً انما ليس غالباً - فهو لا يسمح لنفسه بذلك . اذ ان مثل هذا التفكير لا يجلي نفعاً . فهذا العالم ليس العالم الذي يمكن فيه للمرء ان يفكر بعائلته وعاجلاً ام آجلاً سيكتشف جرجس ذلك ، وبعدها سيتخلى عن الكفاح ليهتم بنفسه فقط .

لقد كان جرجس بالغ الشفافية في ظاهره إلى حد ان زميله كان صريحاً معه صراحة الطفل ، وقد كان امرأ ممتعاً ان يروي له مغامراته بينما يصغي له باعجاب ودهشة ، وقد كان جديداً كل الجدة على اساليب الحياة في هذه البلاد . لم يزعج دوان نفسه حتى بانخفاء الاسماء والامكنة -

بل روى له قصص انتصاراته كلها واخفاقاته كلها ، علاقاته الغرامية واحزانه . كذلك قدم لجرجس الكثير من السجناء الآخرين الذين يعرف نصفهم تقريباً بالاسم . وكانوا قد اعطوا جرجس اسماً من قبل — فقد دعوه بـ « الرائحة العفنة » وكان اسماً قاسياً الا انهم لم يكونوا يقصدون ايذاءه ، لذا تقبله منهم بطيبة خاطر .

كان صاحبنا يتلقى بين الحين والحين هبات من روائح المجارير التي كان يعيش فوقها ، وكان السجن سفينة نوح تضم في داخلها كل مجرمي المدينة — فهناك قتلة ، رجال سطو ، لصوص ليل ، مختلسون ، مزيفون ومزورون ، متعددو زوجات ، « سارقو معروضات » محتالون ، لصوص حيوانات مدللة ، تشالون ، مقامرون ، قوادون ، متخاصمون ، متسولون ، سكيرون ومروجو دعارة ، وكان فيهم الابيض والاسود ، الشيب والشبان الامريكيون والاجانب . كذلك كان منهم المجرمون المحترفون والابرياء الذين هم اضعف من أن يؤذوا نملة ، كما كان منهم الطاعنون في السن والفتيان المراهقون ، انهم مفرزات قرحة المجتمع الكبيرة المتقيحة ، وما ابشع النظر اليها ! ! ما اكره الحديث معها ! ! الحياة كلها تحولت لديهم إلى عفن وشن واهتراء — الحب شيء بغيض ، الفرح شرك قذر ، والاله لعنة . كانوا يتمشون هنا وهناك في الباحة ، يصغي لهم جرجس . فهو جاهل وهم واسعو المعرفة ، لقد رأوا الكثير من الدنيا وخبروا كل شيء .

كان بوسعهم ان يحكوا قصة العالم الكريهة كلها ، ان يطلقوا الروح الداخلية لمدينة ، كل شيء فيها من عدالة وشرف ، اجساد نساء ونفوس ، رجال ، كلها ، كلها للبيع في المزاد ، الكائنات البشرية تتلوى فيها ، تكافح ، ويقع بعضها على بعض مثل ذئاب وقعت في حفرة ، الشهوات فيها نيران متأججة والناس وقود والانسانية تنحط أكثر وأكثر في مهاوي الفساد . في قلب هذا الغاب المليء بالوحوش ولد هؤلاء الناس دون ارادة منهم ، وشاركوا فيه لانهم لا يملكون سوى المشاركة فيه واذا كانوا الآن في السجن فهو امر لا يشينهم ، ذلك لان اللعبة ليست شريفة بل لعبة قائمة على الغش . انهم محتالون ، لصوص القروش القليلة ، نحاهم جانباً محتالو الدولارات ولصوص الملايين .

حاول جرجس ان يصغي لمعظم هذا . لقد اخافوه كل الخوف بسخريتهم الغريبة وكان قلبه طوال الوقت في مكان بعيد ، حيث يناديه احباؤه . فأفكاره تفر رغباً عنه اليهم ليجد نفسه من حين إلى آخر ، خارج هذا الحضم المتلاطم ، وليجد عينيه مغرورتين بالدموع - ولا يعيده إلى واقعه الا ضحكات زملائه وسخريتهم .

اسبوعاً كاملاً قضى جرجس في هذا الجو ، وخلال ذلك كله لم يأتيه خبر واحد من المنزل فلدغ سنتاً واحداً من سنتاته الخمسة عشر ثمن بطاقة بريدية ، كتب عليها احد زملائه ملاحظة صغيرة اخبر فيها عن مكان وجوده وموعد محاكمته . لكن دون ان يأتي جواب . أخيراً ،

وفي اليوم السابق لرأس السنة ودع جرجس بجاك دوان الذي اعطاه عنوانه او بالاحرى عنوان صاحبه وأرغم جرجس على ان يعده بالسؤال عنه عندما يخرج من السجن . « لعلي استطيع مساعدتك وانخراجك من هوتك » ، قال له جاك ثم اضاف بأنه حزين على خسارته له . بعد ذاك ركب جرجس عربة الدورية التي نقلته إلى محكمة القاضي كالاهاان حيث سيحاكم .

من الاشياء الاولى التي استنتجها فور دخوله القاعة هو ان تيتا الزبييتا وكوترنيا الصغيرة تجلسان بعيداً في المؤخرة وهما شاحبتان مذعورتان . فبدأ قلبه يدق الا انه لم يتجرأ على ارسال اشارة لهما ، كذلك لم تتجرأ الزبييتا . اخذ مقعده في محتجز السجناء وجلس يحدق إليهما بعذاب اليائس . رأى جرجس ان اونا لم تأت معهما فملاً قلبه الخوف من نذير ذلك وماقد يعنيه . لقد قضى نصف ساعة وهو يقلب المسألة على كافة وجوهها - ثم هب على قدميه فجأة وقد اندفع الدم إلى وجهه . لقد دخل رجل - ولم يستطع جرجس رؤية معالم وجهه لما عليه من ضمادات الا انه عرف فيه رئيس العمال الفظ ، كونور . فأطبقت ارتعاشة شديدة على جسده كله ، وشعر بطرفيه يتقوسان وكأنهما يعملان على نابض . ثم شعر فجأة بيد تمسك بياقته وصوت خلفه يقول « اجلس انت يا بن . . . »

اطاع جرجس الامر ، الا انه لم يرفع عينيه ابداً عن غريمه الذي

كان مايزال على قيد الحياة ، وكانت في ذلك خيبة أمل له على أية حال . مع ذلك شعر جرجس بشيء من السرور لدى رؤيته وهو غارق بين لفائف ضماداته . مضى هو ومحامي الشركة ، الذي كان برفقته ، وجلسا على مقعدين ضمن شباك القاضي ، وبعد دقيقة واحدة نادى الكاتب اسم جرجس ، فدفعه الشرطي للنهوض وقاده إلى ان وقف امام الحاجز شاداً قبضته على ذراعه ، خشية ان يثب على رئيسه .

راح جرجس يصغي بينما دخل احد الشهود واقسم اليمين ثم روى القصة . فللسجين زوجة تعمل في قسم قريب منه وقد طردت لوقاحتها تجاهه وبعد نصف ساعة هوجم بعنف ، طرح ارضاً وكاد يموت خنقاً . وقد احضر شاهدات .

« لعل ذلك غير ضروري » . ابدى القاضي ملاحظة سريعة ثم التفت إلى جرجس سائلاً اياه :

« هل تعرف بمهاجتك المدعي ؟ »

« هذا ؟ » سأل جرجس مشيراً إلى رئيس العمال .

فقال القاضي « اجل . »

« لقد ضربته ياسيدي » . قال جرجس

« قل يا صاحب السعادة » تدخل الضابط قارصاً اياه من زنده

فقال جرجس بظواعية شديدة « يا صاحب السعادة »

« هل حاولت خنقه ؟ »

« اجل ياسيدي ، يا صاحب السعادة »

« هل اوقفت من قبل ؟ »

« كلا ياسيدي ، يا صاحب السعادة »

« بماذا تدافع عن نفسك ؟ »

فتردد جرجس مختاراً . ماذا ينبغي ان يقول ؟ خلال سنتين ونصف كان قد تعلم الانكليزية للاغراض العملية ، غير ان ما تعلمه لم يكن يتضمن القول ان احد الاشخاص استغل زوجته واغواها . لقد حاول مرة او مرتين ، متلعثماً متأثراً مما ازعج القاضي الذي كانت رائحة السماد قد جعلته يشهق شهيقاً حاداً . اخيراً ، فهم الجميع ان السجين لا يجد المفردات المناسبة . عند ذاك خطا شاب انيق ذو شاربين مستعارين إلى الامام آمراً اياه ان يتكلم اللغة التي يعرفها .

فبدأ جرجس مفترضاً انه سيعطى الوقت الكافي ثم شرح كيف ان رئيس العمال استغل وضع زوجته كي يتقرب منها مهدداً اياها بفقدان عملها . وعندما ترجم المترجم هذا الكلام قاطعه القاضي الذي كانت لديه زحمة مواعيد وكانت سيارته ستأتي في موعد محدد ، قائلاً : «أوه !أرى ذلك . حسناً إذا كان قد غازل زوجتك فلماذا لم تشكه للمراقب العام أو لماذا لم تترك المكان ؟» فتردد جرجس مندهلاً بشكل

من الأشكال ثم بدأ يشرح أنهم أناس مدقعون — وأن من الصعوبة
يمكن كبير أن يجد المرء عملاً .

فقال القاضي كالاها : « أرى ، أرى . . انما كان ذلك أفضل
من التفكير بصنع الرجل » . ثم التفت إلى المدعي مستفسراً : « سيد
كونور ، هل في هذه القصة أثر من صحة ؟ » .

« أبداً ، يا صاحب السعادة » قال رئيس العمال « وهو شيء مزعج
يا صاحب السعادة . ففي كل مرة تضطر لطرد امرأة من عملها يروون
قصصاً من هذا النوع » .

فقال القاضي : « أجل ، أعلم . . أعلم . وغالباً ما أسمع بذلك .
لكن يبدو أنه ضربك بقسوة بالغة . ثلاثين يوماً مع تحميله النفقات .
القضية التالية » .

كان نرجس يصغي محتاراً . وحين جعله الشرطي الذي كان
يمسكه من ذراعه يدور على عقبيه ويبدأ السير مبتعداً ، حين ذلك فقط
أدرك أن ذلك هو الحكم الذي أصدره القاضي فحملك فيما حوله
كالمجنون « ثلاثين يوماً » قال من بين أنفاسه المتقطعة ثم انفتل باتجاه
القاضي صارخاً كالمجنون « ماذا سيفعل أهلي ؟ لدي زوجة وطفل
ياسيدي . وهم لا يملكون شروى نقير . يا إلهي ! سوف يموتون جوعاً ! »

« كان عليك أن تفكر بذلك قبل أن تقدم على ما أقدمت عليه »
قال القاضي بنبرة جافة ثم التفت إلى السجين التالي .

كان جرجس يود أن يتكلم ثانية إلا أن الشرطي قبض عليه من ياقته وقتله ، ثم بدأ شرطي ثان يتقدم صوبه وفي عينيه نوايا عدوانية واضحة . لذا تركهم يحرونه بعيداً ، وفي مكان بعيد من الغرفة كانت تيتا الزبييتا وكوترينا قد نهضتا من مقعديهما تحمقان مذعورتين . فقام جرجس بمحاولة للتوجه نحوهما لكن فتلة أخرى من يد الشرطي جعلته يعود إلى اتجاهه الأول ، حائياً رأسه متخلياً عن الكفاح . بعد ذلك دفعوه إلى داخل زنزانة حيث كان هناك سجناء آخرون ينتظرون وحالما انفضت المحكمة ، قادوه معهم إلى « ماريا السوداء » (١) ثم ساقوا بهم بعيداً .

هذه المرة سيق جرجس إلى « بريدويل » وهو سجن صغير يخدم فيه سجناء « منطقة كوك » مدة حبسهم ، إلا أنه كان أشد قذارة وازدحاماً من سجن المحافظة ، إذ كان يأتي إليه من ذلك السجن كل السجناء ذوي القضايا الصغيرة - صغار اللصوص والمحتالين ، المتخاصمين والمتشردين . وهذه المرة كان زميله في الزنزانة بائع فواكه ايطالي الجنسية رفض أن يدفع للشرطي رشوته المعتادة فالقي القبض عليه بتهمة حيازة سكين جيب كبيرة ، وبما أنه لم يكن يفهم كلمة انكليزية واحدة فقد سر صاحبنا حين غادر الزنزانة ، ليحل محله بحار نرويجي فقد نصف أذنه في مشاجرة سكارى ، وبرهن على الفور أنه رجل يحب الخصام ،

(١) عربة السجناء .

إذ لعن جرجس لأنه تحرك في سريره وجعل الصراصير تسقط على السرير السفلي . كان شيئاً غير محتمل أبداً أن يبقى المراء في زنزانة واحدة مع مثل هذا الوحش البري ، إلا أن خروج السجناء للعمل طوال النهار جعل المسألة سهون .

قضى جرجس عشرة أيام من أيامه الثلاثين هكذا . دون أن يسمع شيئاً عن عائلته ، بعدئذ وفي ذات يوم جاء الحارس وأعلمه أن هناك زائراً يود رؤيته فانقلب وجهه أبيض شاحباً ، وشعر بوهن شديد في ركبته إلى درجة لم يستطع معها مغادرة الزنزانة إلا بصعوبة .

قاده الرجل عبر الممر ثم صعدا عدة درجات إلى غرفة الزوار التي كان لها قضبان حديدية كالزنزانة ، وخلال الشبك استطاع جرجس أن يرى شخصاً يجلس على كرسي ، وحين دخل الغرفة هبّ الشخص على قدميه فرأى أنه ستانيسلوفاس الصغير . شعر جرجس لدى رؤيته واحداً من الأهل ، وكأنه يوشك على التحطم ارباً فاضطر لتثبيت نفسه متمسكاً بالكرسي باحدى يديه واضعاً يده الأخرى على جبينه وكأنه يود أن يقشع ضباباً ، ثم قال بصوت واهن « حسناً » .

كان ستانيسلوفاس الصغير يرتجف هو الآخر ، خائفاً حتى من أن يتكلم . . . هم . . هم أرسلوني لأخبرك » قال وهو ييلع ريقه . فكرر جرجس « حسناً » .

ثم لاحق نظرة الغلام إلى حيث كان الحارس واقفاً يراقبهما فصرخ جرجس « لاتبال بذلك ، كيف حالهم ؟ » .

« أونا مريضة للغاية » قال ستانيسلوفاس « ونحن نكاد نموت جوعاً . ليس بإمكاننا الاستمرار على هذا المنوال ، ففكرنا أنك قد تستطيع مساعدتنا » .

أمسك جرجس الكرسي بإحكام أشد . كانت ثمة قطرات عرق على جبينه وكانت يده ترتعش « أنا لا أستطيع — مساعدتكم » قال أخيراً ، فتابع الغلام كلامه متقطع الأنفاس « أونا تستلقي في غرفتها طوال النهار ، لا تأكل شيئاً ، تبكي طوال الوقت ، لاتقول مابها ولاتذهب إلى العمل أبداً . ثم إن الرجل جاء طالباً الايجار منذ زمن طويل ، وكان في غاية الضيق والعصبية ، وفي الاسبوع الماضي جاء مرة ثانية وقال أنه سيخرجنا من المنزل . كما أن ماريا ...

وغص ستانيسلوفاس بنشيجته فتوقف ، لكن جرجس صاح به : « مابها ماريا ؟ » فقال الغلام « جرحت يدها جرحاً بالغاً هذه المرة ، جرحاً أسوأ من كل ماضى . وهي لاتستطيع العمل ، كما أن الجرح غدا كله متعفنًا حتى أن طبيب الشركة يقول أنها — أنها قد تضطر لقطعها . وماريا تبكي طوال الوقت — فما لديها من مال ذهب كله تقريباً وليس باستطاعتنا أن ندفع الايجار والفائدة المترتبة على المنزل ، كذلك لا يوجد لدينا فحم ولا مانأ كله ، كما أن صاحب المخزن يقول... » .

وتوقف الغلام مرة ثانية بادتاً بالنحيب . فقال الآخر بلهات مسعور

« هيا . . . تابع . . . تابع . . . »

فنشج الغلام ثم قال « أما . . . أنا . . . فالطقس بارد جداً بالنسبة لي والأحد الماضي اثلجت مرة ثانية — كان الثلج عميقاً عميقاً ولم أستطع . . . لم أستطع الوصول إلى عملي » .

« يا لله . . . » صاح جرجس بملء صوته تقريباً ، ونظراً خطوة باتجاه الغلام . كان هناك كره قديم العهد بينهما بسبب الثلج — كره يعود إلى ذلك الصباح المخيف حين تجمدت أصابع الغلام واضطر جرجس لأن يضربه كي يرسله إلى العمل . والآن هاهو ذا يطبق يديه بإحكام ، ليبدو وكأنما يحاول اختراق شبك الحديد « أيها الوغد الصغير » صرخ به ، « أنت لم تحاول . . . » ، « بل حاولت . . . حاولت . . . » أعول الغلام ، منكشاً على نفسه مبتعداً وقد سيطر عليه الرعب « حاولت طوال اليوم — بل طوال يومين . وكانت الزبيبتا معي ، ولم تستطع هي الأخرى . لم تستطع السير البتة ، فقد كان الثلج كثيفاً ، ولم يكن لدينا مانأكله ، آه . . . كم كان البرد قارساً . لقد حاولت وفي اليوم الثالث ذهبت معي أونا . . . » .

— « أونا » .

« أجل . حاولت الذهاب إلى العمل هي الأخرى كان ينبغي أن

تحاول . كنا كلنا نموت جوعاً . لكنها كانت قد فقدت عملها » .

فترنج جرجس وهو يطلق شهقة حادة « عادت إلى ذلك المكان ؟ »
صرخ به فقال ستانيسلوفاس محملاً به في حيرة شديدة « لقد حاولت ،
ولماذا لا تحاول يا جرجس ؟ »

التقط الرجل أنفاسه ثلاث أو أربع مرات بصعوبة ، ثم غمغم
أنخيراً « هيا — استمر ». فقال ستانيسلوفاس « ذهبت معها . إلا أن الأنسة
هندرسون لم تعدها إلى العمل . وحين رآها كونور لعنها ، وكان ما يزال
ملفوفاً بالضمادات . ترى لماذا ضربته يا جرجس ؟ (كان ثمة شيء من
الغموض الساحر في هذه المسألة فالصغير يعلم القضية إلا أنه لم يكن مقتنعاً) .

لم يستطع جرجس الكلام بل كل ما استطاع فعله هو الحملقة ،
وقد جمحت عيناه فاستأنف الغلام : « حاولت أن تجد عملاً آخر لكنها
كانت ضعيفة القوى إلى درجة لا تستطيع معها الوقوف . كذلك رفض
رئيسي أن يعيدني إلى عملي — أونا تقول إنه يعرف كونور وأن ذلك
هو السبب . كلهم يحقدون علينا الآن . وهكذا اضطرت لأن أنزل
إلى قلب المدينة وأبيع جرائد هناك مع بقية الأولاد وكوترينا — — »

« كوترينا 1 1 » .

« أجل ، فهي تباع جرائد أيضاً . بل تباع خيراً منا جميعاً لأنها فتاة ،
فقط ، القرس شديد وإنه لأمر شديد الهول أن تعود إلى المنزل ليلاً
يا جرجس . أحياناً ، لا يستطيعون العودة إلى المنزل إطلاقاً — سأحاول

أن أجدهم هذه الليلة وأنام حيث ينامون ، فالوقت يكون متأخراً جداً والطريق طويل إلى المنزل . لقد اضطرت للمشي ولم أكن أدري أين كنت أو كيف أعود . لكن أمي قالت أن علي أن أعود لأنك ستكون رغبياً في معرفة وضعنا . وربما يكون هناك من يود مساعدتها بعد أن وضعوك أنت في السجن ولم يعد باستطاعتك الذهاب إلى العمل . وهكذا سرت طوال النهار إلى أن وصلت هنا - ولم أتناول إلا كسرة خبز في افطاري يا جرجس . أمي لاتعمل شيئاً هي الأخرى ، لأن قسم النفاق اغلق أبوابه ، وهي تدور على المنازل حاملة سلة معها تستجدي الحسنيات ، والناس يقدمون لها الطعام إلا أنها لم تحصل على الكثير أمس . فقد كان الطقس بارداً جداً على أصابعها حتى أنها تبكي اليوم ... »

... هكذا استمر ستانيسلوفاس الصغير ينشج وهو يتكلم ، بينما وقف جرجس قابضاً على الطاولة باحكام دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، إنما يملؤه شعور مبهم بأن رأسه سينفجر ، كان يشعر أن ثمة أثقالاً مكسدة فوقه ، واحداً فوق الآخر . وكلها تسحقه وتتنزع الحياة من بين جنبه . كان يكافح ويعارك داخل نفسه - كما لو أنه يعاني من كابوس رهيب ، يعاني المرء فيه من عذاب شديد دون أن يتمكن من رفع يد أو إطلاق صرخة بل يشعر أنه سيجن وأن دماغه يشتعل ناراً .

لكن في اللحظة التي نحيل له أن دورة أخرى من اللولب ستقتله . في تلك اللحظة تماماً توقف ستانيسلوفاس عن الكلام بعد أن قال بصوت واهن : « ألا تستطيع مساعدتنا ؟ » فهز جرجس رأسه بالنفي .

« ألا يعطونك شيئاً هنا ؟ » .

وهز برأسه مرة ثانية.

« متى ستخرج ؟ »

فأجاب جرجس « بعد ثلاثة أسابيع » .

حدث الغلام حوله بشيء من الشك ثم قال « إذن يمكنني الذهاب »
فأوماً جرجس برأسه ثم تذكر فجأة ، فمدّ يده إلى جيبه ثم سحبها
وهي تهتز « هاك » قال وهو يمد يده بالأربعة عشر سنتاً « خذ هذه لهم » .

أخذها ستانيسلوفاس ، وبعد شيء من التردد بدأ السير نحو الباب
« وداعاً يا جرجس » قال ، بينما لاحظ الآخر أن الغلام يسير بخطا غير
ثابتة وهو يغيب عن النظر .

ولدقيقة أو دقيقتين وقف جرجس متشبثاً بالكروسي ، مترنحاً يكاد
يسقط ، بعدئذ أمس الحارس على ذراعه فدار على عقبيه وعاد لتكسير
الحجارة .

- ١٨ -

لم يخرج جرجس من « بريدويل » في الوقت الذي توقع أن يخرج
تماماً . فقد أضيف على حكمه نفقات المحكمة « وهي دولار ونصف -
كان عليه أن يدفع مالا لقاء الازعاج الذي سببه بوضعه في السجن ،

ونظراً لعدم امتلاكه مالا ، فقد كان مضطراً لأن يعمل ثلاثة أيام عوضاً عنه . لكن مامن أحد كلف نفسه مشقة إخباره بذلك إنما بعد حساب الأيام والتطلع لانتهاء سجنه في حال من العذاب ونفاد الصبر وجد في اللحظة التي كان يتوقع فيها إطلاق سراحه أنه ما يزال على كومة الحجارة ، ولقد سخرُوا منه حين غامر واحتج . بعدئذ استنتج أنه لابد وقد أخطأ الحساب لكن بعد أن مر يوم آخر تخلّى عن كل أمل — وكان قد غرق في أعماق اليأس تماماً حين دخل الحارس بعد أن تناول افطاره ذات صباح ليقول له أن مدته انتهت أخيراً . وهكذا خلع بزة السجن ولبس ملابسه القديمة ثم سمع باب السجن يطبق خلفه .

وقف على درجات السلم متحيراً ، لا يصدق إلا بالكاد أن ذلك صحيح — فالسماء فوقه ثانية والشارع المفتوح أمامه ، وهو يتمتع بحريته ، لكن حينذاك بدأ القرس يتسلل عبر ثيابه فانطلق مسرعاً .

كان ثمة ثلج كثيف على الأرض وكان قد بدأ الذوبان تحت رذاذ المطر المتساقط الذي تسوقه ريح نفذت حتى عظام جرجس . فهو لم يكن قد توقف لارتداء معطفه حين انطلق للقضاء على كونور ، لذا كان ركوبه في عربة الدورية تجربة مريرة كل مرة . فقد كانت ملابسه عتيقة بالية لا تحمل له الدفء أبداً . والآن وهو يسير متثاقلاً الخطا سرعان ما بلله المطر ، وبما أنه كان هناك ما يزيد على الست بوصات من الماء الموحل على الأرصفة فإن قدميه كانتا ستيبالان بسرعة حتى ولو لم يكن هناك ثقب في حذائه .

كان جرجس قد وجد في السجن ما يكفيه ويزيد من الطعام ،
أما العمل فقد كان أسهل عمل مارسه منذ وصل شيكاغو ، لكن رغم
ذلك لم تكن قوته قد عادت إليه فالحوف والحزن كانا يلتهمان دماغه
ويحتانه حثاً . والآن هاهو ذا يرتعش ويفكمش تحت المطر . يخفي يديه
في جيبه ويحدب ظهره . كان سجن «بريدويل» يقع على أطراف المدينة
وكان كل ما حوله بركة لاسكن فيها — فمن إحدى الجهات كانت
هناك قناة المجارير الكبيرة ومن جهة أخرى كانت هناك مجموعة هائلة
من شبكات السكك الحديدية ، وهكذا كانت الريح تكتسح كل شيء .
بعد أن سار جرجس قليلاً التقى بمتشرد صغير فصاح به « هيه . .
أيها الولد » فحدق الغلام إليه — وأدرك أن جرجس « طائر من طيور
السجن » بسبب رأسه الحليق « ماذا تريد ؟ » سأله الغلام .
« كيف تذهب إلى الزرائب ؟ » سأل جرجس .

فأجاب الغلام « أنا لا أذهب » .

تردد جرجس لحظة من الزمن وقد توقف نبضه . بعدئذ قال :
« أعني أي طريق أسلك ؟ » فكان الجواب « لماذا لم تقل ذلك منذ البداية »
ثم أشار إلى الشمال الغربي عبر السكك الحديدية .

« وكم تبعد ؟ » سأل جرجس

فقال الآخر « لا أدري ، ربما عشرين ميلاً » .

« عشرين ميلاً » ردد جرجس كالصدى وانكب وجهه . كان عليه أن يمشي كل شبر من هذه الأميال العشرين ، لأنهم أخرجوه من السجن وليس في جيبه قرش واحد .

مع ذلك ، حين بدأ السير ، وحمي دمه نسي كل شيء في حمى أفكاره ، كل التصورات المخيفة التي كانت تنتابه في زنازته اندفعت إلى رأسه دفعة واحدة . كان العذاب قد انتهى تقريباً — كان ذاهباً ليكتشف ، واطبق قبضتيه بشدة في جيبه وهو يوسع خطاه ، متتبِعاً رغبته الطائفة أمامه وهو يعدو تقريباً ، أونا — الطفل — العائلة — المنزل — سيعرف الحقيقة فيما يتعلق بذلك كله . إنه يقترب من الخلاص . . . إنه حر الآن ، يدها ملكه ، بإمكانه أن يساعدهم ولسوف يكافح من أجلهم ويقاتل العالم كله .

لساعة أو أكثر ظل جرجس يسير على هذا المنوال ثم بدأ يتطلع حوله فبدأ وكأنه ابتعد عن المدينة كلياً . كان الشارع قد تحول إلى طريق ريفي يتجه غرباً وكانت هناك حقول مغطاة بالثلج على كلا الجانبين . وحين التقى بمزارع يسوق عربة ذات حصانين محملة بالقش أوقفه في الحال مستفسراً :

« هل هذه هي الطريق إلى الزرائب ؟ »

حك المزارع رأسه ثم قال « لا أدري تماماً أين هي الزرائب ، لكنني أعلم أنها في مكان ما من المدينة وأنت الآن تبتعد عن المدينة » .

فتطالع جرجس منذهلاً ثم قال « لقد أخبرني أن هذه هي الطريق » .
« ومن أخبرك بذلك ؟ »

« غلام »

« حسناً ، ربما كان يمازحك . خير مات فعل هو أن تعود من حيث
جئت وحين تدخل البلدة اسأل شرطياً . كان بودي أن آخذك معي
لكني آت من مكان بعيد وفي عربتي حمل ثقيل . . . هيا » .

وهكذا دار جرجس على عقبيه وتبعه . وعند الضحى بدأ يرى
شيكاغو ثانية . ثم بدأ السير عبر كتل بنائية لانهاية لها من بيوت ذات
طابقين ، على طول أرصفة خشبية وممرات غير مرصوفة ملأى بحفر
طينية عميقة . كانت سكة الحديد تقطع الطريق بعد كل مجموعة من
الأبنية وكانت تقطعه على سوية الرصيف مما يشكل فخاً قاتلاً لمن لا ينتبه ،
فقطارات الشحن الطويلة تعبر في أية لحظة والسيارات تفرقع وتتلاقى
معاً ، وجرجس ينتظر وينتظر تحرقه حمى فروغ الصبر . أحياناً كانت
السيارات تتوقف بضع دقائق ، فتتوقف العربات والتراقات منتظرة
يزحم بعضها البعض ، بينما يلعن السائقون بعضهم بعضاً أو يخبثون
أنفسهم تحت مظلاتهم كي يتقوا المطر . في أوقات كهذه كان جرجس
يروغ نحو البوابات ليختفي هناك ويجتاز الطريق عابراً السكة الحديدية
أو متسائلاً بين العربات حاملاً روحه على كفه .

اجتاز جرجس جسراً طويلاً على نهر تجمد تماماً وغطاه الطين .
على ضفة النهر نفسها لم يكن هناك ثلج أبيض - فالمطر الذي سقط كان
عبارة عن محلول دخان ممدد - وكانت يدا جرجس ووجهه قد أصبحت
مغطاة ببقع سوداء • بعد ذلك دخل إلى القسم المهني من المدينة حيث
الشوارع مجاريير سواد كالحبر ، والحيول تنزلق وتغوص والنساء والأولاد
يسرعون عبرها كمن يود أن يطير . فهذه الشوارع أودية ضخمة بين
أبنية سوداء أو عالية كالجبال ، تردد أصدااء أجراس الترامات وصراخ
السائقين ، والناس يحتشدون فيها رائحين غادين كالنمل - وكلهم مسرع
يلهث ، لايتوقف لحظة واحدة لينظر فيما حوله . أما الغريب الوحيد
الأسبه بالشريد ذو الملابس المبللة بالمطر والوجه النحيل والعينين القلقتين ،
فقد كانت وحدته تشتد كلما غاص أكثر بين الجموع ، يزداد ضياءً
كلما كثر حوله الناس وكأنما هو في فيفاء مقفرة تبعد ألف ميل .

أرشده أحد رجال الشرطة إلى الاتجاه الصحيح ، قائلاً أن أمامه
خمسة أميال عليه أن يقطعها . أخيراً وصل مرة ثانية إلى مناطق الأحياء
الفقيرة ، إلى شوارع الحانات والمخازن الرخيصة ، إلى أبنية المعامل
الحمراء الحفيرة الطويلة وساحات الفحم والسكك الحديدية . حينذاك
رفع جرجس رأسه وبدأ يتنشق الهواء كحيوان مجفل - يتشمم رائحة
المتزل الآتية من بعيد . كان الوقت أواخر الأصيل وكان الجوع وحشاً
يفتك في أحشائه إلا أن دعوات الطعام المعلقة على واجهات الصالونات
لم تكن موجهة له .

وهكذا وصل أخيراً إلى الزرائب ، إلى براكين الدخان الأسود
ونحوار البقر والرائحة النتنة ، ثم دفعه نفاذ صبره وهو يرى حافلة ترام
مزدحمة إلى القفز إليها واختفاء نفسه خلف أحد الرجال بحيث لا يلاحظه
الجاني . وخلال عشر دقائق بلغ شارعهِ ومن ثم المنزل .

كان يعدو تقريباً حين انعطف حول الزاوية ، فهناك المنزل على أي
حال ، لكنه توقف فجأة وحملق النظر . ماذا جرى للمنزل ؟

تطلع جرجس للمرة الثانية منبهتاً ثم رشق باب المنزل المجاور
بنظرة سريعة انتقل بعدها بنظره إلى المنزل الذي يليه ومن ثم إلى الحانة
القائمة قرب الزاوية . أجل . . هو ذا منزلهم ، بكل تأكيد — لم يخطيء
أبداً . لكن هذا المنزل — هذا المنزل ذو لون مغاير .

واقرب منه خطوتين أو ثلاث . أجل ، لقد كان رمادياً أما الآن
فهو أصفر ! ! كانت أطر النوافذ حمراء أما الآن فخضراء . . طلاؤه
جديد كلياً ، ما أغرب شكله الآن ! !

مع ذلك اقرب جرجس أكثر وأكثر انما ظل في الجانب الآخر
من الشارع وفجأة اجتاحتها موجة خوف شديد فاصطكت ركبته
وفعل رأسه ، طلاء جديد للمنزل وألواح خارجية جديدة ، حيث بدأت
الحقيقة تهترى والوكيل يلاحقهم ! ألواح خشبية جديدة فوق الثقب
الموجود في السقف أيضاً ، ذاك الثقب الذي ظل أشهراً ستة مصادر
عذاب أليم لروحه هو الذي لا يملك مالا يجعل أحد الناس يثبت الألواح

على هذا الثقب ولا وقتاً لشببتها بنفسه ، بينما كان المطر يرشح منها
وبمأ القدور والأواني التي توضع تحتها كما يفيض الماء في أرض العلية
ويذكك الحص . والآن هاهي ذي مثبتة ! مصراع النافذة المحطم
مستبدل ! ! ستائر على النوافذ ! ستائر بيضاء جديدة متينة ومتألقة .

ثم انفتح الباب الأمامي فجأة . فوقف جرجس وهو يجاهد لالتقاط
أنفاسه . نخرج من المنزل صبي ، صبي غريب عليه ، كبير الجسم ،
سمين ، ممتلئ الوجنتين من نوع لم يره هذا المنزل قبل ذلك أبداً .

حملق جرجس بالصبي ، ذاهل اللب ، بعد ذاك رآه يهبط درجات
السلم صافراً ، رافساً الثلج برجله . عند أسفل الدرج توقف ، التقط
قليلاً من الثلج ثم استند إلى الدرابزون يصنع كرة ثلجية . بعد لحظة من
الزمن تطلع حوله فشاهد جرجس ، التفت عيناه بعينيه ، وكانت نظرة
ملؤها العدوان ، من الواضح أن الصبي فكر بأن الرجل تراوده شكوك
فيما يتعلق بكرة الثلج وحين بدأ جرجس يجتاز الشارع على مهل متجهاً
نحوه ، رمق ماحوله بنظرة سريعة مفكراً بالتراجع على ما يبدو ،
إلا أنه قرر أخيراً أن يظل حيث هو . .

امسك جرجس بدرابزون الدرج إذ كان مضطرباً قليلاً . « ماذا —
ماذا تفعل هنا ؟ » نجح أخيراً في أن ينطق .

فقال الصبي « ماذا . . ؟ » .

« أنت — — — » حاول جرجس مرة ثانية « عمّ تبحث هنا ؟ »
« . . أنا ؟ » أجاب الصبي مغضباً « أنا أسكن هنا » .

فشبهت جرجس « أنت تسكن هنا ؟ » ثم ابيض لونه فتمسك باحكام
أكثر بالدرايزون « أنت تسكن هنا ؟ اذن ، أين عائلتي ؟ » .

فبدت الحيرة على وجه الصبي ثم ردد كالبيغاء « عائلتك . . »

وبدأ جرجس يسير نحوه ، ثم صرخ ، « أنا — — هذا منزلي » .

« إليك عني » قال الصبي ، ثم فجأة انفتح باب الطابق العلوي فهتف
« ه — ي ماما ، هاهنا رجل يقول أن هذا البيت ملكه » .

كانت امرأة إيرلندية قوية البنية قد وصلت إلى سطح الدرج العلوي
فسألت : « ما الأمر ؟ » .

التفت جرجس إليها ثم صرخ كالمجنون « أين عائلتي ؟ لقد تركتها
هنا . هاءا بيبي . ماذا تفعلون في بيبي ؟ » .

فحملقت المرأة به في تعجب وخوف ، لا بد أنها ظنت أن أمامها
مجنوناً من أولئك المجانين — ولم يكن مظهر جرجس يختلف كثيراً
عنهم . « بيتك » رددت المرأة ، « بيبي » قال بصوت أشبه بالصراخ
« كنت أمكن هنا . . أقول لك . . »

فأجابته « لا بد أنك مخطيء . مامن أحد سكن هنا . . هذا منزل جديد . هم قالوا لنا ذلك . . هم — » .

فصرخ جرجس كالمجنون « وماذا فعلوا بعائلي ؟ » .

وبدأ بصيص ضوء يلوح للمرأة ، ربما كان لديها بعض الشكوك حول ما كانوا قد أخبروها به فقالت « لا أدري أين عائلتك . فقد اشتريت المنزل منذ ثلاثة أيام فقط ، ولم يكن ثمة أحد ، وقد أخبروني أنه جديد تماماً . هل تعني أنك فعلاً كنت تستأجره ؟ » .

« استأجره . . » قال جرجس لاهثاً « لقد اشتريته . . دفعت ثمنه . . انه ملكي . و . . هم . . يا إلهي . . ألا تستطيعين أن تخبريني أين ذهب قومي ؟ » أخيراً أفهمته أنها لا تعرف شيئاً ، فاضطرب ذهن جرجس إلى درجة لم يستطع معها استيعاب الموقف . بدا له الأمر وكأن عائلته مسحت عن وجه الأرض ، كما لو أن أفرادها كانوا أضغاث أحلام ، لا وجود لهم على الإطلاق . كان ضائعاً تماماً — لكن فجأة خطرت له الجدة ماجوتز كين التي تسكن في بناء قريب . « هي تعرف . . » فدار على عقبيه وانطلق يعدو .

خرجت الجدة ماجوتز كين إلى الباب بنفسها . فصاحت دهشة حين رأت جرجس مجنون العينين ، ينتفض جسمه كله . أجل ، هي

وحدها استطاعت أن تخبره بكل شيء . العائلة انتقلت ، لم يعد في مقدورهم دفع الأجرة فأخرجوا إلى الثلج وأعيد طلاء المنزل ثم بيع مرة ثانية في الأسبوع التالي . كلا لم تسمع كيف حالهم لكنها تستطيع القول أنهم عادوا إلى شقة آنييل جوكنين التي أقاموا لديها أول وصولهم إلى منطقة — الزرائب . ألا يدخل جرجس ويرتاح ؟ الوضع سيء للغاية بالتأكيد . فقط لو أنه لم يذهب إلى السجن .

وهكذا دار جرجس على عقبيه وراح يتعثر بخطاه مبتعداً . غير أنه لم يبتعد كثيراً ، فعند الزاوية انهار تماماً ووجد نفسه يجلس على درجات حانة من الحانات يخفي رأسه بين يديه ويتنفض جسمه كله بنشيج لادموع فيه .

بيتهم ! بيتهم ! لقد خسروه ؟ الحزن ، اليأس ، سورة الغضب كلها اكتسحته — ماتراه أي تصور لشيء من الأشياء بالمقارنة مع هذا الواقع المرير الذي يحطم القلوب — بالمقارنة مع رؤية أناس غرباء يسكنون في منزله ، يعلمون ستائرهم على نوافذه ، يحملون فيه بأعين ملؤها العداوة . شيء فظيع مروع لا يمكن التفكير به — لا يمكنهم فعل ذلك — لا يمكن أن يكون صحيحاً . فكر فقط كم تراه قاسي من أجل هذا المنزل — أي بؤس عاشوه جميعاً من أجله ! — أي ثمن دفعوه لهم مقابله ! وعاد العذاب الطويل ، بكل تفاصيله إلى نفسه . تضحياتهم في

البداية ، دولاراتهم الثلاثمائة التي جمعوها فيما بينهم وكانت كل ما يملكون في هذا العالم ، كل ما يحول بينهم وبين الموت جوعاً . ومن ثم كدهم وتعبههم ، شهراً بعد شهر لتجميع الاثني عشر دولاراً فضلاً عن الفائدة والضرائب بين الحين والحين والأعباء الأخرى والاصلاصات وما إلى ذلك . . لقد وضعوا أرواحهم ذاتها في تلك الإفراط التي كانوا يدفعونها لذلك المنزل ، كانوا يدفعونها بعرقهم ودموعهم ، أجل ، بل أكثر من ذلك ، بدماء حياتهم . لقد مات ديد أنثاس وهو يجاهد لكسب تلك النقود . ربما كان سيبقى على قيد الحياة لو لم يضطر للعمل في أقبية دورهام المعتمدة كي يكسب ما يساهم به . وأونا ، هي الأخرى ، بذلت صحتها وعافيتها كي تدفع أقساطه ، بل أنها لاقت الدمار وتحطمت بسببه . وهكذا هو نفسه ، هو من كان قوياً ضخماً الجسم قبل ثلاث سنوات ، والآن هاهو ذا يجلس مرتعداً ، محطماً ، ذليلاً يبكي وكأنه طفل مصاب بهستيريا . آه . . لقد قاتلوا بكل مألديهم من قوة ، وقد خسروا . . خسروا كل شيء ، كل مادفعوه ذهب هباء . . كل سنت منه . . بيتهم ضاع — وهامهم يعودون إلى حيث بدأوا مرميين في العراء يقتلهم الجوع والبرد .

بات بإمكان جرجس أن يرى الحقيقة كلها الآن — أن يرى نفسه عبر مسار الأحداث الطويل ، ضحية الرخم المفترسة الشرهة وهي تمزق

أحشاه وتلتهم ، ضحية شياطين تجلده وتعذبه ، ساخرة منه خلال ذلك هازئة . آه يا الله ! يا لفظاعة ذلك كله ! ! يالهولة ! ! هو وعائلته ، نساء وأطفال لامعين لم يكافحون كي يكسبوا لقمة العيش ، جاهلين كل ما يدور حولهم ، وحيدين ، بلا حول أو طول ، هكذا هم والخصوم يتعقبونهم يقتضون آثارهم متعطشين لدمائهم . . ذلك الكذاب المرائي ، ذلك الوكيل المراهن الزلق اللسان . . ذلك الشرك من الأقساط الإضافية ، الفائدة وكل الأعباء الأخرى التي لم تكن لديهم وسيلة من الوسائل لدفعها ولم يكونوا ليحاولوا أبداً دفعها . . ومن ثم خدع وحيل أصحاب دور التعاييب ، سادتهم ، الطغاة الذين يحكمونهم - اغلاق المعامل ونذرة العمل ، الساعات غير النظامية والتسريع الفظيع القاسي ، تخفيف الأجور ورفع الأسعار ثم قسوة الطبيعة التي لا ترحم ، بما فيها من حرارة وبرد ، مطر وثلج ، قسوة المدينة ، قسوة البلاد التي يعيشون فيها ، بقوانينها وعاداتها التي لا يمكنهم فهمها قط . كل هذه الأشياء اجتمعت لتعمل لصالح الشركة التي وسمتهم بميسمها هم الفريسة التي تنتظر دورها كي تذهب . والآن جاء الدور ، فحطت عليهم بكل مaldiها من ظلم لتخرجهم من منزلهم وتبيعه ثانية . . ولم يكن باستطاعتهم فعل شيء ، هم المقيدون بأوثق رباط يداً ورجلاً ، فالقانون ضدهم وأجهزة المجتمع كلها تحت تصرف ذوي الأمر ، مضطهدين . إن يرفع جرجس يداً واحدة في وجوههم ، اذن سيعود إلى حظيرة الوحوش البرية تلك التي فر لتوه منها .

وأن ينهض ويمضي وشأنه يعني أنه يستسلم ، يعترف بالهزيمة ،
يترك العائلة الغريبة رهن الاستعباد ، ولعل جرجس كان سيظل ساعات
طويلة تحت المطر يرتعد من البرد لو لم يفكر بعائلته . فرمما هناك أشياء
أسوأ تنتظره - وهكذا نهض على قدميه وبدأ السير ، متعباً شعثاً زائغ
البصر .

كانت المسافة إلى منزل آنييل الواقع في القسم الخلفي من الزرائب
لا تقل عن الميادين وقد كانت في عيني جرجس أطول منها في أية مرة
في حياته . لكنه حين رأى البيت الرمادي القلبي الذي يعرفه جيداً ،
شعر أن دقائق قلبه تزداد فأغذ السير وصعد الدرج مسرعاً ثم بدأ القفز
على الباب .

خرجت العجوز بنفسها تفتح له الباب هي التي كانت قد انكمشت
وتضاءلت بما لديها من روماتزم مذ رأها جرجس لآخر مرة . فحملت
به وهي ترفع أمامه وجهاً أصفر يابس الجلد ، ثم أجنلت حين عرفته
فصاح بها لاهثاً « أونا هنا ؟ » .

« أجل » أجابته « إنها هنا » .

« كيف » - بدأ جرجس ومن ثم توقف دون أن يكمل ، ممسكاً
على نحو تشنجي بجانب الباب . ومن مكان ما في داخل المنزل جاءت
صرخة مفاجئة ، صرخة ألم فظيع غريبة فعرف أنها أونا .

وللحظة من الزمن وقف جرجس وقد شله الخوف تقريباً : ثم
وثب مجتازاً العجوز قافزاً إلى الداخل . .

كان ذلك هو مطبخ أنييل ، وكان يتكوم حول الموقد نصف دسمة
من النساء ، صاحبات مذعورات . حين دخل جرجس هبت احدهن
على قدميها . كانت نحيلة إلى حد مخيف وقد ربطت إحدى ذراعيها
باللفائف - وبصعوبة بالغة عرف أنها ماريا . بحث بينهن أولاً عن أونا ،
وحين لم يرها راح يحملق بالنساء متوقفاً أن يتكلمن إلا أنهن كن خرساوات
رددن حملة بمعلقة بمائلة ذاهلات الألباب ، وبعد ثانية واحدة انطلقت
صرخة ثانية أخرى . .

كانت الصرخة آتية من مؤخرة المنزل ، ومن الطابق العلوي .
فوثب جرجس إلى باب الغرفة وفتحته على مصراعيه . كان ثمة سلم
يؤدي عبر باب خاص إلى العلية ، وكان يقف عند أسفله حين سمع
فجأة صوتاً خلفه ورأى ماريا في اثره . كانت تمسكه من كمره بيدها
السليمة لاهثة لهاثاً غريباً « لا . . لا . . جرجس . . توقف » .

فرد شاهقاً . . « ماذا تقصدين ؟ » .

« يجب ألا تصعد » ردت بصوت أشبه بالصراخ .

فصاح جرجس شبه معتوه من الدهشة والخوف « ماذا جرى ؟

ما الأمر ؟ » .

تمسكت ماريا بكمه بشدة أكبر . وكان باستطاعته أن يسمع نجيب
أونا في الأعلى ، فكافح للتخلص من ماريا والصعود على السلم دون
أن ينتظر جوابها : « لا . . لا . . » صاحت في إثره « ينبغي ألا تصعد . .
إنه . . إنه الطفل . . » .

« الطفل » رد مختاراً مندهلاً « انتاناس ؟ » .

فأجابته ماريا هامسة : « الطفل الجديد » .

حينئذك شعر جرجس بالوهن يتسرب إلى مفاصله ، فتوقف على
السلم ثم راح يحملق بها وكأنها شبح . « الطفل الجديد » قال شاهقاً
ثم أضاف بقسوة شديدة : « لكن مواعده لم يحن بعد » .

« اعلم » قالت ماريا وهي توميء برأسها . . « لكنه جاء » .

ومرة ثانية جاءت صرخة أونا ، تلطمه كضربة على الوجه ، جاعلة
مفاصله ترتعد ولونه يشحب . ثم تلاشى صوتها في ولولة طويلة — بعد
ذاك سمعها تنشج مرة ثانية « يا الهي — هبني الموت — هبني الموت »
فألقت ماريا بذراعيها حوله صارخة « اخرج . . . ابتعد » .

ثم سحبته معيدة اياه إلى المطبخ ، شبه حاملة له ، وقد تحطم ارباً .
فقد احس وكأن أعمدة روحه تهوي جميعاً — وكأنه يتفجر من شدة
الهول . في الغرفة ، غاص في الكرسي وهو يرتعش كورقة في مهب
الريح ، بينما ظلت ماريا ممسكة به والنساء يحدجنه دونما كلمة وقد
سيطر عليهن الرعب .

بعدئذ صرخت أونا مرة ثانية وكان بإمكانه أن يسمعها بالسهولة ذاتها التي سمعها بها هناك . فترنح حتى وقف على قدميه ثم قال لاهثاً « منذ متى وهي تصرخ هكذا ؟ » « ليس طويلاً » أجابت ماريا ، ثم اندفعت مستأنفة بعد إشارة من أنيل « عليك أن تذهب بإرجس - ليس بوسعتك أن تقدم أية مساعدة - اذهب الآن وعد فيما بعد - كل شيء على مايرام - كل شيء على مايرام » ، « من معها ؟ » سأل جرجس ، ثم صاح ثانية وهو يرى ماريا تتردد في الإجابة « من معها ؟ » فأجابت . . . « أنها . . . أنها بخير - الزبييتا معها » .

فقال لاهثاً . . . « والطبيب ! لا أحد ممن يعلمون . . . » .

وقبض على ذراع ماريا فارتعشت وغاص صوتها فيما يشبه الهمس وهي تجيب « نحن . . . نحن لانملك مالاً » بعدئذ هتفت وقد أخافتها نظرة عينيه « كل شيء على مايرام ، جرجس . . . أنت لا تفهم - اذهب الآن . . . اذهب . . . آه ، لو أنك انتظرت فقط » .

وسمع جرجس صراخ أونا ثانية رغم كل احتجاجات ماريا ، وأوشك أن يفقد صوابه . فكل شيء جديد عليه ، كل شيء قاس ، فظيع - وقد هوى عليه كما تهوي الصاعقة . حين ولد انتاناس الصغير كان هو في المعمل ولم يعرف إلا والأمر قد انتهى . أما الآن فهي هو ذا يعجز عن السيطرة على نفسه . كانت النساء المذعورات في آخر حدود احتمالن ، حاولت واحدهن بعد الأخرى أن تناقشه ، أن تجعله يفهم

أن هذا هو قدر المرأة . وفي النهاية أخرجه دافعات إياه دفعاً إلى الباب ،
وهناك تحت المطر بدأ ينزع الطريق جيئة وذهاباً ، عاري الرأس ،
يسيطر عليه ما يشبه الجنون ! لكنه بعد ربع ساعة ، اندفع صاعداً الدرج
مرة ثانية ، وخشية أن يحطم الباب اضطررون أن يفتحنه له ويسمحون له
بالدخول .

لم تكن ثمة إمكانية لمناقشته . لم يكن بإمكانهن أن يقلن له أن كل
شيء سيمر بسلام — كيف تراهن يعرفن ، صرخ في وجوههن — أنها
تموت ، أنها تتمزق أرباً ، استمعن لها — اصغين . أوه . . انه شيء
رهيب — لا يمكن السماح به — يجب تقديم عون لها — ألم يحاولن المجيء
بطبيب ؟ — ربما يدفعون له فيما بعد — بالامكان تقديم وعد له .

فاحتجت ماريا « ليس باستطاعتنا أن نعد بشيء ، يا جرجس — فليس
لدينا نقود . . ونحن بشق النفس باقون على قيد الحياة . . » .

« لكنني سأعمل » هتف جرجس « سأكسب مالاً . . »

« أجل » هتفت ماريا « لكنك كنت في السجن لانعلم متى تعود
والأطباء لا يعملون بلا مقابل » .

ثم مضت ماريا تخبره كيف حاولت إيجاد قابلة ، وكيف طلبت
القابلات عشرة ، خمسة عشر ، بل حتى خمسة وعشرين دولاراً نقداً ،
« وأنا لأملك إلا ربع دولار » تابعت الفتاة « لقد انفقت كل فلس
من نقودي ، كل ما كان لدي في المصرف ، كما أنني مدينة للطبيب

الذي يأتي لمعالجة يدي ، وقد توقف عن المجيء لأنه يظن أنني لن أدفع له . كذلك نحن مدينون لأنجيل بأجرة أسبوعين وهي تشرف على الهلاك جوعاً وأناي لانشئ أن تطردنا . اننا نستدين ونشحن كي نبقي على قيد الحياة ، وليس هناك ما يمكننا فعله غير ذلك — .

« والأولاد ؟ » صاح جرجس .

« الأولاد لم يعودوا إلى المنزل منذ ثلاثة أيام . الطقس في غاية السوء . انهم لا يعرفون ما يحدث هنا — فقد جاء فجأة ، قبل شهرين من مواعده . كان جرجس يقف بجوار الطاولة فثبت نفسه ممسكاً بها بينما تهاوى رأسه إلى جانبه واهتزت ذراعاه — لقد بدا وكأنه يوشك على الانهيار . حينذاك نهضت انجيل فجأة وجاءت ترحف باتجاهه مفتشة في جيب تنورتها . ثم أخرجت خرقة وسخة ، عقدتها على شيء ما وقالت له :

« هاك جرجس ، لدي بعض النقود . بالك ! ! انظر . . »

ثم فككت العقدة وعدت المبلغ — أربعة وثلاثين ستاً « امض الآن . . هيا . . » قالت له « حاول أن نحصل على شيء لنفسك ، وربما تستطيع بعضهن المساعدة — اعطيه أنت بعض النقود ، هيا ، سيعيدها لك ذات يوم ، لعلها ستساعده على التفكير بشيء ما ، حتى وإن لم ينجح . وحين يعود ، ربما سيكون الأمر قد انتهى . »

وهكذا اخرجت النساء الأخريات ما في جيوبهن ، فكان معظمه من البنسات وأنصاف البنسات ، ثم أعطيته إياه . السيدة أولتروسكي

التي تسكن في المنزل المجاور والتي يعمل زوجها جزار ماشية ماهرأ ،
إلا أنه مدمن على الكحول ، أعطته نصف دولار تقريباً مما رفع المبلغ
كله إلى الدولار والربع فدفعه جرجس إلى داخل جيبه ممسكاً به باحكام ،
ثم انطلق يعدو .

- ١٩ -

« مدام هوبت ، هيبام » كانت تقول إحدى اللوحات وهي تتلى
من نافذة طابق ثان فوق حانة في الشارع ، وعلى باب جانبي كان ثمة
لوحة أخرى ويد تشير إلى درجات سلم قدر ، صعدتها جرجس ثلاثاً
ثلاثاً .

كانت مدام هوبت تقلي لحم الخنزير والبصل ، تاركة باب منزلها
شبه مفتوح كي يخرج الدخان . وحين حاول ان يطرقه ، انفتح تماماً
فلمحها وهي تقلب زجاجة سوداء على شفتيها ، بعدئذ طرق بصوت
اعلى ، فبدأت تبعد الزجاجة . كانت المرأة هولندية ، سمينة على نحو
مخيف . وكانت حين تمشي تتلحرج وكأنها قارب على صفحة
ماء المحيط ، كما كانت الصحف في الخزانة تطرق بعضها بعضاً .
كانت المرأة تلبس إزاراً أزرق ، وكانت اسنانها سوداء .

« ما الامر ؟ » قالت حين رأت جرجس .

لقد جرى كالمجنون طول الطريق وكان مقطوع الانفاس إلى حد

تعذر عليه الكلام الا بالكاد . كذلك كان شعره مضطرباً وعينه
متوحشتين — لقد بدا اشبه برجل اخرج من القبر لتوه .

« زوجتي . . » قال لاهثاً « تعالي بسرعة . . »

وضعت مدام هويت المقلادة على احد الجوانب ثم مسحت يديها
متسائلة « تريدني ان اذهب لحالة ولادة ؟ »

« اجل » : قال جرجس شاهقاً .

فقلت « لقد عدت لتوي ولم يتسن لي ان اتناول غدائي ، مع ذلك —
اذا كان الامر في غاية السوء . . . »

« اجل . . انه في غاية السوء » صرخ جرجس

« حسناً ، اذن ماذا تدفع ؟ »

« أنا . . أنا . . كم تريدني ؟ » قال جرجس متلعثماً .

« خمسة وعشرين دولاراً . »

فقال وقد اكب بوجهه : « انا لا استطيع دفع ذلك . »

كانت المرأة تراقبه من زاوية عينها « وكم تدفع ؟ » سأله .

« هل ينبغي ان ادفع الآن ؟ الآن تماماً ؟ »

« اجل كافة زبائني يدفعون سلفاً »

« أنا . . أنا لا املك الكثير من المال » بدأ جرجس يسيطر عليه نوع من التخوف . «

« كنت واقعاً في مشكلة ، وقد ذهب مالي كله - لكنني سأدفع لك . . . كل فلس . . . تماماً بأسرع مااستطيع . . . بإمكانني ان اعمل . «

« وماهو عملك ؟ »

« ليس لي عمل الآن ، لكنني سأجد واحداً »

« وكم تملك الآن ؟ »

وبصعوبة بالغة تمكن من تدبير الجواب : « دولاراً وربعاً » فبدأت المرأة تضحك ، مباشرة في وجهه ، ثم ردت اخيراً :
« انا لا البس قبعتي مقابل دولار وربع . »

« إنه كل ما املك ، » راح يتوسل بصوت محطم « يجب ان احصل على قابلة - زوجتي تموت . . لايمكنني الحيلولة دون ذلك - أنا . . . »
ارجعت مدام هوبت المقلادة بما فيها من لحم وبصل إلى الموقد ثم التفتت اليه مجيبة من بين امواج البخار وصوت القلي : « عشرة دولارات نقداً ، ثم تدفع لي البقية في الشهر القادم . » « لكنني لااستطيع ، لا املك هذا المبلغ » احتج جرجس « اقول لك لا املك إلا دولاراً وربعاً . »
فالتفتت المرأة إلى عملها قائلة « انا لا اصدقك . الجميع يحاولون

نخداعي فما السبب في أن رجلاً كبيراً مثلك لا يملك إلا دولاراً وربعاً ؟ »
« لقد خرجت لتوي من السجن » صرخ جرجس وهو على أتم
الاستعداد لأن يركع على ركبتيه أمام المرأة « ليس لدي نقود ، وعائلي
توشك على الموت جوعاً . »

« اذن اين اصدقاؤك ؟ ترى الا يمدون لك يد العون ؟ »

فأجاب : « كلهم فقراء . هذا المبلغ الذي احمله منهم . لقد
فعلت كل ما في وسعي » « أليس لديك ماتبيعه ؟ » .

« . . لا . لا املك شيئاً يباع — ليس لدي ما يباع » صرخ كالمجنون.
« ألا تستطيع الاستدانة ، اذن ؟ ألا يثق بك صاحب المحل الذي تشتري
منه ؟ » وحين هز رأسه بالنفي تابعت المدام : « اصغ الي — اذا أخذتني
ستسرني . سأنقذك زوجتك وطفلك وسترى ان ماتدفعه ليس كثيراً
ابداً . اما اذا خسرت زوجتك وطفلك فسترى كيف تفكر وتشعر
بعد ذاك ؟ ها هنا سيده تعرف مهنتها جيداً ، بإمكانني ان ارسلك إلى
اناس في هذا المبنى وهم سيخبرونك . »

ثم اشارت مدام هوبت إلى جرجس بشوكتها على نحو إقناعي إلا ان
كلماتها كانت أكثر مما يستطيع تحمله فطوح يديه بحركة يائسة ثم دار على عقبيه
وبدأ يبتعد هاتفاً « لافائدة » لكنه فجأة سمع صوت المرأة مرة ثانية :

« سأجعلها خمسة دولارات من اجلك »

ثم تبعته وهي تناقشه « ستكون احمق ان لم تقبل عرضاً كهذا » قالت المرأة « فانت لن تجد احداً يخرج معك في يوم ماطر كهذا لقاء مبلغ اقل . ولم لا ، انا نفسي لم اخرج إلى حالة من الحالات بمثل هذا الرخص . انا لا استطيع ان ادفع به اجرة غرفتي » فقاطعتها جرجس بسورة غضب شديدة . شبه صارخ « لكنني لا املك هذا المبلغ ، فكيف ادفعه لك ؟ يا للعة . . لو كنت املكه لدفعته ، اقسم لك . وسأدفعه حين استطيع لكنني الآن لا املكه ، هل تسمعينني - لا املكه . . »

ثم التفت وبدأ يبتعد ثانية ، وحين بلغ منتصف الدرج سمع هوبت تصيح به : « انتظر . سأذهب معك ، انتظر . »
فعاد إلى الغرفة مرة ثانية .

« من الصعب علي ان افكر بانسان يعاني الآلام » ، قالت بصوت مكتئب « ربما اذهب معك مقابل لاشيء بعد ان عرفت حقيقتك . . سأحاول مساعدتك ، فكم يبعد بيتك . ؟ »

« ثلاثة او اربعة مباني من هنا »

« ثلاثة او اربعة . . اذن سوف اتبلل . . سأصاب بالزكام ، انه يستحق أكثر . . دولار وربع ! ! وفي يوم كهذا ! ! لكنك تفهم ، ستدفع لي بقية الدولارات الخمسة والعشرين حالاً . »

«بأسرع ما استطيع»

« في وقت ما من هذا الشهر ؟ »

« اجل ، خلال شهر » قال جرجس المسكين « أي شيء . . هيا ،

اسرعي . . »

وضع جرجس الثقود على الطاولة فعدتها المرأة ثم خبأتها . بعدئذ مسحت يديها الملوثتين بالشحم مرة ثانية ومضت تستعد ، متذمرة طيلة الوقت . لقد كانت سميئة إلى درجة تؤلمها فيها كل حركة كما كانت تهمهم وتشهق لدى كل خطوة ، خلعت المرأة ازاورها دون ان تزعج نفسها حتى بادارة ظهرها لجرجس ثم لبست مشدّها وفستانها ، بعدئذ جاء دور القبعة التي تنبغي ان تعدل تماماً والمظلة التي كانت في وضع سيء ثم الحقيبة المملأى باللوازم التي جمعت من هنا وهناك — والرجل يكاد يحن قلقاً خلال ذلك . وحين خرجا إلى الشارع بقي على مسافة اربع خطوات امامها ، يلتفت اليها بين الحين والحين ، وكأنه يحثها على الاسراع بقوة رغبته . الا ان مدام هوبت كانت تخطو الخطوة وكل مايشغل بالها ان تحصل على الانفاس التي تحتاجها للخطوة التالية .

اخيراً وصلا المنزل ، ومن ثم مجموعة النساء المذحورات في المطبخ ، وعلم جرجس ان الامر لم ينته بعد — فقد سمع صراخ اوتا ،

وفي الحال خلعت مدام هوبت قبعتها ثم وضعتها على الرف واخرجت من حقيبتها ثوباً عتيقاً أولاً ثم صحناً من زيت الاوز راحت تدلك به يديها . اذ يقدر ما تكثر الحالات التي يستخدم فيها هذا الزيت بقدر ما يجلب حظاً افضل للقابلة ، لذلك تبقية على رف موقدها او تحبته في خزانها مع ملابسها الوسخة ، أشهراً ، بل سنوات حتى .

بعدئذ رافقتها النسوة إلى السلم ، فسمعها جرجس تطلق شهقة خوف ، « ستقتلني . لماذا اتيت بي إلى مكان كهذا ؟ انا لا استطيع صعود السلم . لا يمكنني عبور باب السقف . . لن احاول ذلك . لا . . سأقتل نفسي فعلاً . اي مكان هذا ؟ كيف تستطيع امرأة ان تحمل طفلاً في مكان مثله — في عليية . . لاشيء يصلها بالعالم الا سلم . ينبغي ان تنجسوا من انفسكم . . » كان جرجس يقف في المدخل ويصغي لتقريعها وهو يعلو تقريباً على أنات أونا وصرخاتها المرعبة .

اخيراً افلحت انييل في تهدئتها ، فبدأت تحاول الصعود ، لكنها بعدئذ اضطرت للتوقف حين حذرتها العجوز من ارضية العلية . فهناك لا توجد ارضية بمعنى الكلمة — بل الواح عتيقة رصفت في جزء من اجزاء العلية كي توفر مكاناً تعيش فيه العائلة ، وفي هذا القسم كل شيء مأمون وسليم ، اما الاقسام الاخرى فليس فيها سوى عوارض السقف ثم الواح السقف السفلي وجصه . واذا ماخطا المرء خطوة هناك فقد تحدث كارثة . وبما ان المكان شبه مظلم ، فمن المفضل ان تصعد احدى النسوة

أولاً ومعها شمعة . بعد ذلك سمع جرجس صرخات وتهديدات أخرى إلى أن لاح أخيراً لجرجس زوج من السيقان الفيلية تختفي عبر باب السقف واحس وكأن البيت يرتج حين بدأت مدام هوبت تمشي . بعدئذ جاءت انييل فجأة اليه وامسكته من ذراعه قائلة :

« والآن . . اذهب بعيداً . افعل ما أقول لك — لقد قمت بكل ما تستطيع القيام به . انت عثرة في الطريق ، فاذهب . ابق بعيداً . »

لكن جرجس سأل سؤال اليأس « واين اذهب ؟ »

« لا ادري » ، اجابت المرأة « اذهب إلى الشارع ان لم يكن هناك مكان آخر لك — فقط . . اذهب وابق كل الليل . »

وفي النهاية دفعته هي وماريا دفعاً خارج الباب ثم اغلقتاه خلفه . كانت الشمس توشك على المغيب ، وكان الجو قد غدا بارداً — لقد انقلب المطر إلى ثلج والوحل تجمد . ارتعش جرجس بملابسه الرقيقة ثم وضع يديه في جيبه وانطلق مبتعداً . لم يكن قد اكل شيئاً منذ الصباح فشعر بالضعف والوهن لكنه بحفظة امل مفاجئة تذكر انه لا يبعد الا بضعة مبان عن الحانة حيث كان يتناول غداءه احياناً . هناك قد يشفقون عليه ، او قد يجد صديقاً . فانطلق قاصداً الحانة بأسرع ما يستطيع « مرحباً جاك » قال صاحب الحانة حين دخل جرجس — فهم في باكنجتاون يطلقون على كل الاجانب وكل العمال المهرة اسم جاك . « اين كنت ؟ » .

اتجه جرجس مباشرة إلى المشرب قائلاً « كنت في السجن ، وقد خرجت لتوي . ثم مشيت الطريق كله على قدمي . ليس لدي سنت واحد ولم آكل شيئاً منذ الصباح ، كما اني خسرت منزلي ، وزوجتي مريضة وانا في شر حال . »

مصدق صاحب الحانة إلى وجهه الشاحب المهزول وشفتيه الزرقاوين المرتعشتين . بعدئذ دفع زجاجة كبيرة صوبه قائلاً : « املاً كأسك »

وبصعوبة بالغة استطاع جرجس حمل الزجاجة ، إذ كانت يداه ترتجفان بشدة « لاتخف » قال صاحب الحانة « املاً كأسك » .

وهكذا عب جرجس كأساً كبيرة من الويسكي ثم انقلب إلى طاولة الطعام تنفيذاً لاقتراح الرجل . فالتهم كل ما جرؤ على التهامه ، حاشياً معدته بأسرع مايسطيع . ثم مضى ، بعد ان حاول التعبير عن امتنانه ، وجلس بجانب الموقد الكبير المحمر في منتصف الغرفة .

لكن الوضع كان افضل كثيراً من ان يدوم - شأنه شأن كل الاشياء الحسنة في هذا العالم القاسي . فقد بدأت ثيابه المبللة بالتبخر وبدأت معها رائحة السماد الفظيعة تملأ الغرفة . خلال ساعة تقريباً ستغلق دور التعليب ابوابها ويعود العمال من اعمالهم ، ولن يدخلوا مكاناً يفوح برائحة جرجس . كذلك كانت تلك ليلة السبت وخلال ساعتين على الأكثر سيصل عازفو الموسيقى ، يمكن لعائلات

الحي ان تأتي وترقص ازواجاً ازواجاً في القسم الخلفي من الحانة ثم يتناول الراقصون عشاءهم ويحشون شرابهم حتى الثانية او الثالثة من الصباح . تنحج صاحب الحانة مرة او مرتين ثم قال « جاك عليك ان ترحل » .

لقد كان معتاداً على رؤية الحطام البشري ، صاحب الحانة هذا . انه يطرد العشرات منهم كل ليلة ، وكلهم مهزول ، بردان ، وحيد كهذا الحطام الذي يتكوم امامه تماماً وهم جميعاً ممن يستسلمون ويخرجون اما جرجس فقد كان مايزال قادراً على القتال ، في رأسه ذكريات ما عن الآداب واللياقة وحين نهض بلطف ودمائة ، فكر الآخر انه كان دائماً رجلاً رابط الجأش وقد يعود مرة ثانية زبوناً طيباً « لاعليك ، ستتجاوز محنتك كما ارى » ، قال وهو يصحبه ، « تعال ، هذا الطريق » .

في مؤخرة الحانة كان هناك درج القبو حيث يوجد باب في الاعلى وباب في الاسفل وكلاهما مقفل بأمان جاعلاً الدرج مكاناً رائعاً لا يداع زبون ربما ماتزال لديه فرصة لان يكسب مالاً ، او لسبب سياسي يستحسن عدم طرده .

وهكذا قضى جرجس ليلته . كانت كأس الويسكي قد اعطته شيئاً من الدفء لكنه لم يستطع النوم رغم ما عليه من انهاك واجهاد ، بل كان يغفو قليلاً فيسقط رأسه إلى الامام ثم يجفل في الحال مرتعشاً

من البرد ويبدأ بالتذكر مرة ثانية . وهكذا مضت الساعة تلو الساعة إلى ان استطاع اخيراً اقناع نفسه بأن الصباح لم يأت بعد ، وهو يسمع اصوات الموسيقى والضحك والغناء آتية من الغرفة . لكن حين توقفت اخيراً ايمن انهم سيأتون لانخراجه إلى الشارع ، وبما ان هذا لم يحدث ، فقد اخذ به العجب كل مأخذ . ترى هل نسيه الرجل ؟ .

في النهاية ، وحين لم يعد باستطاعته تحمل الصمت والسكينة ، نهض وقرع الباب فجاء صاحب الحانة وهو يشاء ويدلك عينيه . كانت حانته تظل مفتوحة الابواب طوال الليل وكان يغفو في الفترة الفاصلة بين الزبون والزبون .

« اود الذهاب إلى المنزل » قال جرجس « انني قلق بشأن زوجتي . لااستطيع الانتظار بعد . »

فقال الرجل . . « لماذا ، بحق الجحيم ، لم تقل ذلك من قبل ؟ ظننت انك لاتملك بيتاً تذهب اليه . »

وخرج جرجس . كانت الساعة الرابعة صباحاً . ظلام الليل مايزال مخيماً وعلى الارض ثلاث او اربع بوصات من الثلج الذي سقط حديثاً وكانت الهشائش تتساقط كثيفة وسريعة فانعطف باتجاه منزل انيل وانطلق يعدو .

كان ثمة ضوء يشتعل في نافذة المطبخ وقد غطتها الستائر . لكن

الباب لم يكن مقفلاً فاندفع جرجس إلى الداخل . حول الموقد كانت هناك انييل ، ماريا وبقية النسوة يتكومن تماماً كما كن من قبل ، اضافة إلى عدة نسوة اخريات لاحظهن جرجس — كذلك لاحظ أن البيت ساكن تماماً .

« حسن ؟ » سألهن .

انما لم تجب واحدة منهن ، بل تابعن حملقتهن بوجوه شاحبة ، فصرخ ثانية « حسن ؟ . . »

بعد ذلك وعلى ضوء المصباح المدخن رأى ماريا التي كانت اقرب النساء اليه تهز رأسها على مهل « ليس بعد » .

فأطلق جرجس صرخة دعر « ليس بعد ؟ »

ومرة ثانية هزت ماريا رأسها ، بينما وقف المسكين حائراً مبهوئاً ثم قال شاهقاً « لكنني لا اسمع صوتها » .

فأجابت الاخرى « لقد هدأت منذ زمن طويل »

بعدئذ حدثت وقفة اخرى — قطعها فجأة صوت من العلية منادياً هيه . .

« يا من هناك ! »

جرت عدة نسوة إلى الغرفة المجاورة بينما وثبت ماريا باتجاه

بجرجس صارخة : « انتظر هنا » وهكذا وقفا ، وكلاهما صاحب
برتعش كتلة من الآذان الصاغية . وخلال بضع لحظات غدا واضحاً
ان مدام هوبت منهمكة بنزول السلم وهي تفرع وتوبخ من جديد
في حين كان السلم يصر احتجاجاً . بعد برهة وصلت إلى الارض ،
غاضبة مقطوعة الانفاس ثم سمعها تأتي إلى الغرفة فرشقها بجرجس
بنظرة سريعة ، ثم شحب وجهه ونكص على عقبيه . كانت قد دخلت
سرتها ، كأولئك الذين يعملون في احواض الذهب وكانت يداها وذراعاها
ملطخة بالدم ، وكان الدم قد تناثر على ثيابها ووجهها فوقفت وهي
تتنفس بصعوبة ثم حذقت فيما حولها . لكن مامن احد فاه بكلمة
واحدة . « لقد بذلت كل جهدي » بدأت فجأة « لم استطع فعل شيء
آخر — ليس هناك فائدة من المحاولة » .

ومرة ثانية ساد الصمت ، فاستأنفت . . .

« ليس الخطأ خطئي ، كان عليكم ان تأتوا بطبيب . كان عليكم
ألا تنتظروا طويلاً ، اذ كان الاوان قد فات حين جثتم بي » ومن
جديد ساد صمت كصمت القبور وكانت ماريا تتمسك بجرجس
بكل مافي يدها السليمة من قوة .

بعثثد التفتت مدام هوبت فجأة إلى انييل : « أليس لديك ما يشربه
الانسان ؟ براندي مثلاً ؟ » .

فهزت أنييل رأسها « هتفت مدام هوبت » اي ناس أولاء . ؟

اذن ربما ستقدمون لي ماأأكله ، فأنا لم آكل شيئاً منذ صباح الامس واكاد اموت من التعب . لو علمت ان الامر هنا على هذا النحو ماكنت لاجيء ابدأ بالمبلغ الذي اعطيتموني اياه . »

في اللحظة ذاتها تطلعت حولها ، وبالمصادفة رأت جرجس فهزت اصبعها في وجهه ثم قالت « انت تفهمني . ستدفع لي بقية المبلغ مثلما اتفقنا تماماً . فليست هي بخطيئتي انك جئت إلي وقد تأخر الوقت حتى لم يعد باستطاعني مساعدة زوجتك . ليست خطيئتي أن وليدها خرج باحدى ذراعيه اولاً وبذلك لم استطع انقاذه . لقد حاولت طوال الليل ، وفي ذلك المكان الذي لا يصلح لان تلد فيه الكلاب ، ودون ان اجد ماأأكله سوى مااحضرته معي في جيوبي . »

هنا توقفت مدام هوبت لحظة من الزمن تسترد انفاسها . تطلعت ماريا إلى جرجس فشاهدت حبيبات العرق على جبهته وشعرت بكيانه كله يرتعش ، فخرقت الصمت قائلة بصوت منخفض :

« كيف اونا ؟ »

« كيف اونا ؟ » رددت مدام هوبت « وكيف تظنين انها يمكن ان تكون حين تتركونها تقتل نفسها هكذا ؛ لقد اخبرتهم بذلك حين طلبوا الكاهن . انها صغيرة السن وربما كانت ستنخطي المحنة وتعود قوية وصحيحة لو انها عولجت كما ينبغي . لقد كافحت ببسالة ، تلك الفتاة — وهي لم تمت بعد . »

فأطلق جرجس صرخةً مجنونة « لم تمت بعد . . »

فقالت الأخرى غاضبة « هي ستموت طبعاً ، ولقد مات طفلها الآن . كانت العلية مضاعة بشمعة الصقت على لوح ، وكانت على وشك الانتهاء تنثر الشمع حولها وتدخل حين اندفع جرجس صاعداً السلم . وبصعوبة بالغة استطاع تمييز كتلة من الأسماك والبطانيات العتيقة ممددة على الأرض : عند طرفها صليب وقربه كاهن يتمتم بصلاة وفي زاوية بعيدة تكومت الزبيبتا وهي تنوح وتغول. وعلى مفرش الأسماك كانت تتمدد اونا ، تغطيها بطانية لكنه استطاع رؤية كتفها وفراخاً من فروعها مكشوفة عارية . كانت قد تضاعفت إلى درجة لم يعرفها الا بالكاد — اذ لم تكن أكثر من هيكل عظمي . بيضاء كقطعة من الحكك . اجفانها مطبقة تستلقي ساكنة كاللوتى ، فترنح باتجاهها ثم هوى على ركبتيه صارخاً صرخة ملؤها العذاب « اونا ، اونا » .

لم تتحرك اونا ، فأمسك يدها بيده وبدأ يشد عليها بجنون هائفاً :
« انظري إلي ، . . اجيبيني . . أنا جرجس لقد عدت . . الا تسمعينني؟ »
ورأى ارتعاشة خفيفة في الاجفان فنادى ثانية في حصى مسعورة
« اونا ، اونا . . . »

عند ذلك فتحت عينيها فجأة — وللحظة واحدة . لحظة تطلعت فيها اليه ومرت لمحة تعارف بينهما — رآها فيها بعيدة كما ترى طيفاً عبر مجاز معتم وهو يقف بعيداً وحيداً . مد يديه اليها ثم هتف بها هتاف

اليأس القانط . كان ثمة شوق مخيف يتلاطم في داخله ، جوع اليها شديد العذاب ، رغبة بدت وكأنها ولدت من جديد فيه تمزق نياط فؤاده ، تكيل له شتى اصناف العذاب ، لكن كان ذلك عبثاً — فقد غابت عنه ، انزلقت عائدة ومضت . فانفجرت صرخة عذاب من فمه ، وراحت تشنجات هائلة تهز كل كيانه وانسابت دموع حرى على وجنتيه وبدأت تتساقط عليها . امسك بيديها ، هزها ، احتضنها بين ذراعيه ، ضغطها إلى صدره ، لكنها ظلت ساكنة باردة — لقد قضت ! ! ! قضت ! ! ! ودوت الكلمة في رأسه كدوي ناقوس تردده اعماقه البعيدة جاعلة الاوتار المنسية تهتز ، المخاوف القديمة الخفية تتحرك — خوفه من الظلمة ، خوفه من الفراغ ، خوفه من العدم . لقد ماتت ! ! ماتت ! ! لن يراها ثانية . لن يراها بعد ذلك ابداً . وأطبقت يدها عليه احوال الوحدة الجليدية . رأى نفسه يقف بعيداً ، يرقب العالم كله وهو يتلاشى مبتعداً عنه — عالم الظلال ، عالم الاحلام المتقلبة . كان في حزنه وخوفه ، اشبه بطفل صغير . كان ينادي وينادي انما دون جواب ، وكانت صرخات رأسه تدوي في المنزل لتعود اليه اصدااء وتجعل النساء في الطابق السفلي يلتصقن أكثر وأكثر بعضهن ببعض الآخر ، لم يكن ثمة ما يدخل اليه العزاء — جاء الكاهن ثم وضع يده على كتفه هامساً في اذنه ، إلا انه لم يسمع . كان هو نفسه قد ولى بعيداً ، متعثراً عبر الظلال ، باحثاً عن الروح التي فرت منه .

هكذا تمدد . جاء الفجر الاشهب ، زحف إلى داخل العلية ،
غادر الكاهن . رحلت النسوة وظل هو وحده مع الجسد الابيض الساكن -
أكثر هدوءاً الآن إلا أنه يئن ويرتعش متصارعاً مع الشيطان الرهيب .
من حين إلى حين كان يرفع نفسه ، يحملق بالقناع الابيض امامه ،
ثم يخفي عينيه لانه لا يستطيع التحمل . ماتت ! ! ماتت ! ! هي الفتاة
الصغيرة الفتاة التي لم تتعد الثامنة عشرة ! ! لم تبدأ حياتها بعد - وهامي
تمدد قتيلة مخنوقة - معذبة حتى الموت .

عند الصباح ، نهض جرجس ثم نزل إلى المطبخ - مهزولاً ،
اشهب كالرماد ، يترنح ، غائم البصر . كان عدد آخر من الجيران
قد جاؤوا فبدؤوا يحملقون به صامتين وهو يلقي بنفسه في كرسي
بجوار الطاولة ويدفن وجهه بين ذراعيه .

بعد بضع دقائق فتح الباب الامامي فاندفعت إلى الداخل هبة
من البرد والثلج دخلت في اثرها كوترينا الصغيرة لاهثة من الجري ،
مزرقعة من البرد ، ثم توقفت لدى رؤيتها جرجس ، مطلقة صرخة .
بعدها راحت تنتقل ببصرها من واحد إلى آخر مدركة ان شيئاً ما قد
حدث فسألت بصوت منخفض « ماذا جرى ؟ » .

لكن قبل ان يستطيع احد الاجابة هب جرجس على قدميه ، ثم
سار باتجاهها بخطا غير ثابتة « اين كنت ؟ » سألها .

فأجابت « ابيع الصحف مع الصبية . الثلج . . . »

لكنه قاطعها سائلاً « أليس لديك نقود ؟ » .

« اجل »

« كم ؟ »

« حوالي ثلاثة دولارات يا جرجس »

« هاتيها »

فمنظرت كوترينا ، وقد اخافها سلوكه ، نظرة سريعة إلى الآخرين لكنه أمرها ثانية « هاتيها » .

حينذاك مدت يدها إلى جيبها ثم اخرجت كتلة من القطن النقدية عقدت عليها في خرقه من اسمال . اخذها جرجس دونما كلمة ثم خرج من الباب وانحدر إلى الشارع .

بعد ثلاثة ابواب ، كانت هناك حانة . « ويسكي » ، قال جرجس وهو يدخل . وحين قدم الرجل بعض الويسكي له مرق جرجس الخرقه بأسنانه ثم اخرج نصف دولار وسأله : « بكم الزجاجة ؟ اريد ان أأكل » .

— ٢٠ —

يبد ان رجلاً كبيراً لا يمكنه ان يبقى مدة طويلة يسكر بثلاثة دولارات . كان ذلك صباح الاحد ، وليلة الاثنين عاد جرجس إلى

المنزل صباحاً ، مريضاً ، مدركاً انه انفق كل سنت تملكه الاسرة وانه لم يشتر ، بما انفق ، النسيان للحظة واحدة .

لم تكن اونا قد دفنت بعد ، إلا انهم كانوا قد اعلّموا الشرطة ، وفي الغد كانوا سيضعون الجسد في تابوت صنوبر ويأخذونه إلى مقبرة الفقراء والمجهولين . كانت الزبييتا في الخارج تشحد وتستجدي ، بضعة بنسات من كل جار كي تحصل على مايكفي من اجل اقامة جناز لها ، والاطفال في الاعلى يموتون جوعاً ، بينما كان هو ، الوغد الذي لا يصلح لشيء ينفق نفودهم على الشراب . هكذا كانت آنييل تتكلم باحتقار وحين تحرك باتجاه النار اضافت قائلة ان عليه بعد الآن الا يدخل مطبخها ويملاؤه بروائح الفوسفاتية النتنة . لقد جمعت كل نزلاتها في غرفة واحدة من اجل خاطر اونا ، والآن باستطاعته ان يصعد إلى العلية ، حيث لا مكان له سواها لكنها لن تبقيه هناك طويلاً ان لم يدفع لها بعض الاجرة .

ذهب جرجس دون ان ينبس ببنت شفة . وبعد ان خطا فوق نصف دسته من النزلاء النائمين في الغرفة المجاورة ، صعد السلم . كانت العلية مظلمة تماماً ، اذ لم يكن باستطاعتهم اشعال شمعة ، كما انها كانت باردة كالخارج . في زاوية ابعد ماتكون عن الجثة ، جلست ماريا تمسكة بذراعها السليمة اثناس الصغير ، محاولة تهدئته لينام . وفي زاوية اخرى تكوم جوزاباس الصغير المسكين وهو يعول وينوح لانه

يتصور جوعاً — لم تقل ماريًا كلمة واحدة لخرجس . فزحف إلى الداخل
كيجرو جلد بالسياط وجلس بجوار الجثة . ربما كان عليه ان يفكر
بجوع الاولاد بخسة تصرفه ، الا انه لم يفكر الا بأونا . لقد اسلم نفسه
كلياً للحزن ، لم يرق دمعة واحدة لتحجله من اصدار صوت بل جلس
ساكناً بلا حراك يرتعش لشدة عذابه واضطرابه . لم يكن قد فكر
من قبل بمقدار حبه لاونا ، اما الآن وقد رحلت ، الآن وهو يجلس
بجوارها عارفاً انهم سيأخذونها غداً وانه لن يراها بعينه بعد اليوم — طيلة
ايام حياته ، فالامر مختلف . ففي صدره . عاد ذلك الحب القديم ،
ذلك الحب الذي اماتوه جوعاً ، ضربوه وعذبوه حتى الموت لقد
فاض من جديد ، ارتفعت بوابات فيض الذاكرة — رأى كل حياتهما
معاً رآها بعيني صباه في ليتوانيا ، في ذلك اليوم من سوق الخيل ،
جميلة يانعة كالزهرة مغردة كالعصفور . رآها حين تزوجا ، بكل ما فيها
من رقة ، بقلبها العجيب ، حتى كلماتها ذاتها عادت ترن في اذنيه ،
دموعها وهي تذرفها تبلل وجنتيه . كانت المعركة القاسية الطويلة التي
خاضها مع البؤس والجوع قد جعلته صلباً فظاً لكنها لم تغيرها هي
التي ظلت روحاً ظمأى حتى آخر انفاسها تمد ذراعيها له تنزع
اليه تستجدي منه الحب والرقه . ولقد عانت — كثيراً عانت ، عذابات
هائلة عانت وآلاماً شديدة — آه ، يا الله ! ! ذاكرة واحد هم تعجز
عن تذكرها . أي شرير فاسد لا قلب له ، كان ياترى ؟ لقد عادت
إلى ذاكرته كل كلمة غاضبة قالها لها لتجرحه كالسكين ، كل تصرف

اناني تصرفه . بأية عذابات عادت الآن وفي نفسه ينفجر حب كهذا .
قوي قوي . . . — الآن وقد بات من المتعذر الكلام عنه ، الآن وقد
فات الاوان ، فات الاوان ! ! صدره يمتلئ به حتى الاختناق :
ينفجر به وهو يتكلم هنا في الظلمة إلى جوارها ، ماداً ذراعيه لها ،
هي التي رحلت إلى الابد ، هي التي ماتت ! كان بإمكانه ان يصرخ
عالياً من شدة يأسه وهول مصابه ، وكان عرق المعاناة يتصبب من جبينه .
مع ذلك لم يتجرأ على اصدار صوت — بل قلما تجرأ على التنفس خجلاً
واشمئزازاً من نفسه .

في وقت متأخر من الليل جاءت الزبيبتا ، وقد حصلت على نفقة
الجنار التي دفعتها مقدماً خشية ان يدفعها أمر ضروري في البيت لانفاق
شيء منها . كذلك احضرت معها كسرة من خبز الجاودار
ربما كان احدهم قد اعطاها لها ، وبذلك الكسرة اسكت الصغار ،
جعلتهم ينامون . بعد ذلك اقربت وجلست بجواره . لم تنطق بكلمة
تأنيب — فقد قررت هي وماريا مسبقاً ان تسلكا هذا السبيل . فقط ،
سوف تتوصل اليه ، هنا بجانب جثة زوجته . كانت عينا الزبيبتا قد
فرغت من الدموع من قبل سيما وقد ملأ الخوف روحها حتى لم يعد
ثمة مكان للحزن . كان عليها ان تدفن احد اولادها . وقد فعلت ذلك
ثلاث مرات من قبل ، وفي كل مرة كانت تقف على رجليها من جديد
لتتابع المعركة من اجل البقية . كانت الزبيبتا واحدة من تلك المخلوقات
البدائية ، دودة من تلك الديدان التي تستمر وتحيا حتى لوقطعتها نصفين ،

دجاجة تظل ترعى آخر صغارها ، وهي تراها تموت الواحد بعد الآخر .
انها تفعل ذلك لان تلك طبيعتها فهي لاتسأل عن عدالة هذا كله ولاعن
جدارة الحياة بأن تعاش ، تلك الحياة التي لاتقدم للانسان الا الدمار
والأوت .

ولقد عملت كل مافي وسعها لكي تطيع جرجس بهذه النظرة
الفطرية الحقيقة ، راجية اياه والدموع في عينيها . لقد ماتت اونا الا ان
ثمة آخرين مايزالون احياء وينبغي الحفاظ عليهم . لم تكن تبالي بأولادها
فهي وماريا تستطيعان تدبير امرهم ، بل هناك انتاناس فلذة كبده .
اونا هي التي انجبت له انتاناس — ذلك الصغير هو الذكرى الوحيدة
التي تركتها له وعليه ان يحافظ على هذه الذكرى كما يحافظ المرء على
كثره ويحميه . كذلك عليه أن يثبت للناس جميعاً أنه رجل . إنه يعرف
ماكانت تريد اونا منه ان يفعل ، مايمكنها ان تطلب منه لوكانت على
قيد الحياة في هذه اللحظة ، شيء فظيع انها ماتت على هذا النحو وفي
هذا الوقت لكن الحياة كانت قاسية عليها ، وكان عليها ان ترحل .
شيء فظيع انهم لايتطيعون حتى دفنها وانهم لايملكون حتى يوماً
واحداً للحداد عليها — لكن هكذا هي الدنيا ، قدرهم يضغط ويضغط ،
ليس لديهم مليم واحد والاطفال سيهلكون — ينبغي الحصول على
بعض المال ، ترى أليس بوسعه ان يكون رجلاً كرمي لأونا ؟ ان
يتمايلك من اجل خاطرها ؟ خلال فترة وجيزة سيخرجون من منطقة
الخطر — الآن وقد تخلوا عن المنزل يمكنهم ان يعيشوا بتكلفة أقل واذا

اشتغل الاولاد جميعاً سيكون باستطاعتهم المضي قدماً ، شريطة ان يحافظ هو على نفسه . ان يمسك بدفة السفينة ريثما يصل بهم إلى شاطئ الامان . هكذا كانت تتحدث الزبيبتا بتركيز محموم . انه كفاح حقيقي بالنسبة لها . كفاح مصيري وهي ليست خائفة من ادمان جرجس على الشراب فهو لا يملك مالا لذلك ، بل كان يقتلها الخوف من أن يتخلى عنهم ، يهجرهم فاراً بجلده كما فعل جوناس من قبل .

لكن ، وهو أمام جثة أونا ، لم يكن باستطاعة جرجس ان يفكر بخيانة طفله ، فقال اخيراً ، نعم سيحاول من اجل انتاناس . سيتيح للطفل الصغير فرصة ، سيبحث عن عمل في الحال ، غداً وحتى دون ان ينتظر دفن أونا . بإمكانهم الوثوق بكلمته والاعتماد عليه ، ولسوف يحفظ وعده ، وليحدث ما يحدث .

وهكذا خرج مع فجر اليوم التالي يصحبه الصداع والغم والحزن . ذهب مباشرة إلى معمل دورهام للاسمدة ليرى ان كان باستطاعته استعادة عمله الا ان رئيس العمال هز رأسه حين رآه — لا ، مكانك انشغل منذ زمن طويل ، وليس هناك شاغر .

فسأل جرجس : هل تظن انه سيكون هناك شاغر ؟ ربما علي ان انتظر ؟ « كلا » قال الآخر « لا جلوس من انتظارك فليس لك مكان هنا » . فحملك به جرجس مندهلاً « لكن لماذا ؟ ألم اكن أؤدي عملي

جيداً ؟ . . » الا ان رئيس العمال قابل نظرتة بنظرة من اللامبالاة الباردة ثم اجابه « قلت لك . ليس لك مكان هنا » .

فذهبت ظنون جرجس إلى الفحوى الرهيبة لذلك الحادث ، ثم مضى وقد غاص قلبه بين جنبيه . وفي مكان من حشد العاطلين الجائعين الذين كانوا يقفون في الثلج وقف جرجس امام مكتب الدوام ، وقف بغير طعام مدة ساعتين إلى ان فرقت الحشد عصي الشرطة وايقن أن لا عمل له في ذلك اليوم ..

كان جرجس خلال خدماته الطويلة في المسلخ قد كسب قدراً لا بأس به من المعارف — فهناك أصحاب حانات يمكن ان يأتمنوه على كأس شراب وساندويشة وهناك افراد نقابته القديمة الذين يمكن ان يقرضوه نصف دولار او بضعة سنتات . لذا لم تكن المسألة مسألة حياة او موت بالنسبة له ، وهكذا كان يبحث عن عمل طوال النهار ليعود ثانية في الغد ويحاول المرة تلو المرة مثلما يحاول المئات والآلاف سواه . في غضون ذلك كانت تخرج تيتا الزبييتا وتشحد ، هناك في منطقة « الهايدبارك » وكان يعود الاولاد بما يكفي لتهدئة انييل وتأمين كفان العيش لهم .

في نهاية اسبوع من الانتظار على هذه الشاكلة والتطواف تحت الرياح القارسة او التسكع في الحانات ، واثت جرجس فرصة عمل في واحد

من أقبية منشأة جوائز الكبيرة . لقد رأى مشرف عمال يعبر الباب المفتوح
ويناديه من اجل عمل :

« أتدفع عربة يد ؟ » سأله الرجل فأجاب جرجس . . « اجل
ياسيدي » ، قبل ان يلفظ جملة تماماً « ما اسمك ؟ » سأله الرجل
« جرجس رودكوس »

« هل عملت في المسلخ من قبل ؟ »

« اجل . »

« اين ؟ . »

« في مكانين : احواض النهر في منشأة براون ومعمل اسمدة
دورهام . »

« ولماذا تركت ؟ »

« في المرة الاولى حدثت لي حادثة ، وفي الثانية حكمت بالسجن
مدة شهر . »

« وهكذا . حسناً ، سأعطيك فرصة . تعال صباح الغد واسأل عن
السيد توماس »

وهكذا انطلق جرجس بالنبا العظيم — لقد وجد عملاً ! ! انتهى
الحصار القويح . فأقام من تبقى من افراد العائلة احتفالاً في تلك الليلة ،

وفي الصباح كان جرجس في مكان العمل قبل نصف ساعة من موعد الافتتاح جاء المشرف مباشرة بعد ذلك وحين رأى جرجس قطب جبينه ، ثم قال « . . . اوه . . . لقد وعدتك بعمل ، أليس كذلك ؟ . »

فقال جرجس « اجل ، ياسيدي »

« اوه . . . انا آسف ، يبدو انني انحطأت . لا يمكنني استخدامك . » فحملق جرجس ذاهل اللب شاهقاً . . « لكن لماذا ؟ ماذا حدث ؟ » ، « لا شيء » قال الرجل . . « فقط لا يمكنني استخدامك » وكانت في عينيه نفس النظرة الحاقدة الباردة تلك التي رآها في عيني رئيس العمال في معمل الاسمدة . كان يعلم انه لا جدوى من قول كلمة واحدة فدار على عتبيه ومضى بعيداً .

هناك في الحانات ، كان بإمكان الرجال ان يخبروه معنى ذلك كله ، كانوا يحدثونه بنظرات مشفقة — مسكين . . لقد ادرج اسمه في القائمة السوداء . ماذا فعل ؟ سألوه — صرع رئيسه ارضاً ؟ يا للسماء . . اذن كان ينبغي ان يعلم . . فليس لديه فرصة في الحصول على عمل في باكنجتاون أكثر من فرصة انتخابه رئيساً لبلدية شيكاغو . لماذا يهدر وقته عبثاً ؟ لقد سجلوا اسمه في قائمة سرية في كل مكتب من مكاتب الشركات ، الصغيرة منها والكبيرة . ولعل اسمه وصل ايضاً إلى سانت لويس ونيويورك ، اوماها وبوسطن ، مدينة كنساس وسانت جوزيف . لقد ادين وصابر بحقه الحكم « دون محاكمة ودون إستئناف » . ليس

باستطاعته العمل لدى اصحاب دور التعليب ابدأ ، ليس بامكانه حتى
تنظيف الزرائب وحظائر الماشية او دفع عربة يد في اي مكان يقع
تحت سيطرتهم . بامكانه ان يحاول ذلك اذا اراد ، مثلما حاول المئات
قبله واكتشفوا الامر بأنفسهم ، لكنه لن يجد واحداً يخبره بشيء ،
لن يتوصل إلى مايقنعه أكثر مما توصل اليه الآن . سيجد دائماً انه مامن
احد يحتاجه ، ولن ينفعه ان يتقدم تحت أي اسم آخر . فلديهم « راصدون »
مخصوصيون لهذا الغرض تماماً ، ولن يظل في أي عمل يبدوه هنا
أكثر من ثلاثة ايام . فالامر الذي يحرص عليه كثيراً ارباب العمل هنا
هو ابقاء قواتهم السوداء سارية المفعول وذلك كتحذير للرجال ووسيلة
للضغط على النقابات والقضاء على الاضطرابات والنقمة السياسية .

ذهب جرجس إلى المنزل حاملاً هذه الأنباء الجديدة إلى مجلس
العائلة . إنه أشد الأشياء قسوة ، فهنا في هذه المنطقة كان منزله ،
إن جاز التعبير ، المكان الذي اعتاد عليه والأصدقاء الذين عرفهم — والآن
كل احتمالات استخدامه هنا قد انتهت إلى الأبد ، كل الأبواب سدت ،
ولم يكن في باكنجتاون سوى دور التعليب ، فبدأ الأمر له وكأنهم
يطردونه من منزله .

امضى هو والمرأتان طيلة النهار ونصف الليل وهم يناقشون الموقف .
قلب المدينة سيكون ملاءماً كمكان لعمل الأولاد . لكن ماريا كانت
حينئذ على وشك الشفاء من إصابتها وكانت لديها آمال في الحصول

على عمل في المسلخ ، ورغم أنها لم تكن ترى حبيبها قديم العهد إلا مرة واحدة في الشهر بسبب بؤس حالتهم ، إلا أنها لم تكن قد عازمت على فراقه والتخلي عنه إلى الأبد . كذلك كانت الزبيبتا قد سمعت عن فرصة لاسح الأرض في مكاتب دورهام وكانت تنتظر الجواب النهائي .. وهكذا اتخذ القرار في النهاية بأن يمضي جرجس إلى قلب المدينة يسعى في مناكبها هناك ، ثم يقررون بعد أن يحصل على عمل . وبما أنه لم يكن هناك من يستدين منه مالا ولم يكن يتجرأ على ممارسة التسول خشية إلقاء القبض عليه فقد تم الاتفاق على أن يلتقي كل يوم بأحد الأولاد ويعطيه خمسة عشر سنتاً يمكنه أن يسد بها رمقه . بعد ذلك ، كان عليه كل يوم أن يندرع الشوارع مع مئات وآلاف العاطلين الآخرين سائلاً أصحاب المحلات ، المستودعات ، المصانع ، عن فرصة للعمل ، وفي الليل يزحف إلى أحد المداخل أو تحت إحدى الشاحنات ويختفي هناك حتى منتصف الليل ، وحينها قد يتسنى له الدخول إلى أحد المخافر فيبسط صحفه على الأرض ويقع وسط جمع غفير من المتبطلين السكارى والشحاذين ، تفوح منهم جميعاً رائحة الكحول والتبغ وتعشش فيهم الهوام والأمراض .

وهكذا ، ظل جرجس اسبوعين آخرين يصارع شيطان اليأس . ذات مرة اتاحت له فرصة للعمل في تحميل شاحنة مدة نصف نهار ، ومرة أخرى حمل حقيبة امرأة عجوز فأعطته ربع دولار مما أتاح له أن يقيم في أحد المشاوي عدة ليالٍ ولولا ذلك لتجمد من البرد . وهكذا

صار من حين لآخر يشتري صحيفة صباحية يبحث فيها عن اعلانات العمل ، في حين يراقبه الآخرون ينتظرون منه أن يلقي بها أرضاً . لكن هذه لم تكن هي الفائدة الحقيقية للصحف ، فاعلانات الصحف هي مدعاة لاضاعة الكثير من الوقت « الثمين » ، وللقيام بجولات كثيرة متعبة . فنصف تلك الاعلانات مزيفة ، تضعها مختلف المؤسسات التي تتصيد الجهلاء البائسين من العاطلين عن العمل . وإذا كان جرجس يضع وقته فقط ، فذلك لأنه لا يملك ما يضيعه سواه . فكلما كان يخبره وكيل زلق اللسان عن مركز عمل رائع تحت تصرفه ، كان يكتفي بهز رأسه بأسى ويقول أنه لا يملك الدولار الضروري لا بداعه وحين يشرحون له كم من المال يمكنه هو وعائلته أن يكسبوا عن طريق تلوين الصور ، كان يكتفي بالوعد بالمجيء مرة ثانية حين يتوفر له دولاران يشتري بها المعدات .

في النهاية أتاحت لجرجس فرصة عمل من خلال لقاء عرضي التقاه بأحد معارفه القدامى أيام النقابة . لقد واجه هذا الرجل وهو في طريقه إلى العمل في مصانع « تروست هارفاستر » الضخمة ، فقال له صديقه أن يذهب مباشرة معه ولسوف يزكيه لدى رئيسه الذي كان يعرفه معرفة حسنة . وهكذا سار جرجس أربعة أو خمسة أميال ثم اجتاز حشداً من العاطلين عن العمل المنتظرين إلى أن وصل الباب يرافقه صديقه ، وكادت ركبته تنهاران تحته ، حين قال له المشرف ، بعد أن تفحصه جيداً ووجه له الكثير من الأسئلة أن بإمكانه أن يجد منفلاً له .

لم يستطع جرجس أن يستوعب معنى هذا الحادث وملحقاته إلا على مراحل ، إذ وجد أن أعمال تروست هارفستر من النوع الذي يشير إليه دعاة الإصلاح والاحسان بفخر وكبرياء . فهناك من فكر قليلاً بالمستخدمين لذا كانت أماكن عملهم كبيرة واسعة . كما تتوفر مطاعم حيث يمكن للعمال أن يشتروا طعامهم بسعر الكلفة ، بل يوجد هنا قاعة مطالعة ، وأماكن حسنة السمعة يمكن للفتيات العاملات أن يقضين فيها راحتهم ، كذلك كان العمل خالياً من كل عناصر القذارة وما يشير الاشتزاز تلك التي تسود المسالخ ويوماً بعد يوم راح جرجس يكتشف هذه الأشياء — أشياء ، لم يتوقعها ولم يحلم بها — حتى بات يرى هذا المكان وكأنه الجنة .

لقد كانت مؤسسة كبيرة ، مساحة أرضها مائة وستون أكرا تستخدم خمسة آلاف نسمة وتنتج حوالي ثلاثمائة ألف آلة كل سنة — أي جزء كبير من كافة آلات الحصاد والجرز المستخدمة في البلاد . ولم يرَ جرجس إلا القليل منها بالطبع — فقد كان العمل شديد التخصص مثلما هو في المسالخ تماماً . فكل قطعة من قطع آلة الحصاد أو الجرز التي تعد بالآلاف تصنع على نحو منفصل وأحياناً تمر على مئات العمال إلى أن تكتمل . أما حيث يعمل جرجس فقد كانت هناك آلة تقطع قطعة معينة من الفولاذ بحجم بوصتين مربعتين ثم تدمغها ، وكانت القطع تأتي على صينية وكل ما على اليد البشرية أن تفعله هو أن تكادسها على شكل صفوف منتظمة وتبدل الصينيات من حين إلى آخر . هذا العمل كان

يقوم به صبي فتح عينيه جيداً وركز تفكيره كله عليه ، بينما كانت أصابعه تطير بسرعة إلى درجة تبدو معها أصوات قطع الفولاذ وهي تطرق بعضها بعضاً أشبه بموسيقى قطار سريع حين يسمعه المرء في عربة النوم ليلاً . إنه عمل بالقطعة طبعاً ، وهو فضلاً عن أنه يؤكد أن الصبي لا يتمهل ولا يتباطأ في العمل ، فانه يجعل الآلة تمشي أعلى سرعة ممكنة ليد الانسان .

ثلاثين ألف قطعة كان يعالج كل يوم ، أي تسعة أو عشرة ملايين كل عام — أما العدد في العمر كله فلا يعلمه إلا الله . قريباً منه كان هناك رجال ينحنون على مسنات تدور ، يضعون اللمسات النهائية لشفرات الحصادة الفولاذية ، فبعد أن يخرجوها من سلة باليد اليمنى يضغطون أحد الجانبين على المسن أولاً ثم يضغطون الجانب الثاني ويسقطونها أخيراً باليد اليسرى في سلة ثانية . أحد هؤلاء الرجال قال لخرجس أنه يسن ثلاثة آلاف قطعة فولاذية يومياً . في الغرفة المجاورة كانت هناك آلات رائعة تلتهم قضباناً فولاذية طويلة على مراحل وبسرعة بطيئة ثم تقطعها ، تمسك بالقطع ، تدمغ رؤوساً عليها ، تصقلها ، تلمعها ، تلولبها ، وأخيراً تسقطها في سلة وكلها جاهزة لشد أجزاء الحصادات معاً . من آلة أخرى كانت تخرج مئات آلاف الأغلفة المناسبة لهذه اللوالب ، وفي أماكن أخرى قطع أخرى وأشكال غريبة تشكل كلها آلات الحصاد . كان صديق جرجس يعمل في الطابق العلوي في غرف السكب ، مهمته أن يصنع قوالب قطع معينة . كان يجرف

الرمل الأسود إلى اناء حديدي ويدقه بشدة ثم يتركه جانباً إلى أن يتصلب ، بعدئذ يخرج به بعضهم ليسكب فيه الحديد المنصهر . كان هذا الرجل يأخذ أجرته على القالب - أو بالأحرى على القوالب التامة . فنصف ما يصنعه تقريباً يذهب هدرأ . انك تراه جنباً إلى جنب مع عشرات الآخرين ، يكدون ويعملون كمن أصيبوا بمس من جنون ، ذراعاه تعملان كأذرع التدمير في المحرك ، شعره الأسود متطاير ، عيناه جاحظتان والعرق يتصبب أنهرأ على وجهه ، فحين يملأ القالب بالرمل ويمد يده المدقة يدقه بها يفعل ذلك بأسلوب مجذف القارب الذي يجذف بسرعة ثم يمسك بركيزة على مقربة من صخرة مخفية تحت سطح الماء . طيلة النهار كان الرجل يعمل على هذا المنوال ، كيانه كله مركز على هدف واحد وهو ان يحصل على ثلاثة وعشرين بدلاً من اثنين وعشرين سنتاً ونصف في الساعة كي يشار إلى انتاجه من قبل قيّم الاحصاء ويفتخر به سادة هذه المهنة ويشربوا نخبه على موائدهم . وهم يحكون كيف ينتج عمالهم ضعف ما ينتجه أمثالهم في أي بلد آخر . فاذا كنا خير أمة طلعت عليها الشمس ، فذلك أساساً لأننا قادرون على دفع كسبة الأجور لدينا للعمل على هذا النحو المحموم ، رغم أن هناك قليلاً من الأشياء الأخرى التي يمكننا الافتخار بها ومن ضمنها حسابات الكحول لدينا التي تساوي بليوناً وربع البليون من الدولارات سنوياً والتي تتضاعف كل عقد من السنين .

كانت هناك آلة تطرق الصفائح الحديدية وأخرى تصوغها على شكل

جزء من المقعد الذي يقعد فيه المزارع الأمريكي . بعد ذلك تكس هذه القطع على عربة يدوية مهمة جرجس أن يدفع بها إلى القاعة التي تجمع فيها الآلات . كان هذا العمل أشبه بلعب الأطفال بالنسبة له وكان يأخذ دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً يومياً . يوم السبت ، دفع جرجس لأنجيل الستات الخمسة والسبعين التي كان مديناً لها بها مقابل استعمال علبتها ، كذلك افتدى معطفه الذي كانت الزبييتا قد رهنته حين كان في السجن .

هذا العمل الأخير كان بركة عظيمة ، فالمرء لا يستطيع الخروج في منتصف الشتاء في شيكاغو بغير معطف . كان جرجس مضطراً للركوب خمسة أو ستة أميال ذهاباً وإياباً إلى عمله كل يوم والحقيقة أن نصف هذه المسافة في اتجاه والنصف الآخر في اتجاه ثان مما تطلب تغيير الترامات وكان النظام يقضي بأن تعطى بطاقات الانتقال في جميع نقاط التقاطع إلا أن شركة السكك الحديدية لفّت حول هذا النظام ، مدعية بأن هناك مالكين متعددين . وهكذا حينما كان جرجس يرغب ، بالركوب ، كان عليه أن يدفع عشرة سنتات كل مرة أو أكثر من عشرة بالمائة من دخله لهذه الشركة التي حصلت على امتيازاتها منذ زمن طويل بشراء مجلس المدينة ورغم كل احتجاجات السكان التي كادت تصل حد التمرد . كان جرجس يمشي حين يجد لديه القوة على المشي ويركب حين يكون متعباً ، ويتعلق بسلام الترام حين يستطيع إلى ذلك سبيلاً آملاً أن يوفر أجرة الترام كي يشرب بها كأساً .

مسألة تافهة تماماً بالنسبة لرجل فر من معمل أسمدة دورهام . لقد بدأ جرجس يستعيد معنوياته وشرع مرة ثانية بوضع الخطط . كان قد خسر منزله إلا أن عبء الأيجار الرهيب كان قد زال عن كاهله ، وحين يتحسن وضع ماري سيكون بإمكانهم الانطلاق من جديد بل والتوفير . ففي الورشة التي يعمل فيها كان هناك عامل ليتواني مثله ، يعكلم عنه الآخرون بهمسات الإعجاب بسبب الأثر الرائعة التي يقوم بها . كان طوال الليل يجلس على الآلة التي تصنع اللوالب وفي الليل يذهب إلى مدرسة عمومية كي يدرس الانكليزية ويتعلم القراءة . علاوة على ذلك ، ولأن عائلته تتألف من ثمانية أنفس ودخله لا يكفي لأعالتهم ، فقد كان يخدم أيام الأحاد والسبت كحارس ليلي . . فمطلوب منه أن يضغط زرّين في طرفين متقابلين من بناء كل خمس دقائق فتتوفر له بينهما ثلاث دقائق للدراسة . شعر جرجس بالغيرة من هذا الرجل فهذا هو صنف الرجال الذي كان يحلم أن يكونه قبل سنتين أو ثلاث . مع ذلك كان بإمكانه أن يفعل مثله إذا اتبعت له فرصة حسنة — بل يمكنه أن يلتفت الانتباه ويغدو عاملاً ماهراً أو رئيس عمال كما فعل بعضهم في هذا المكان . ولنفرض أن ماريا حصلت على عمل في المعمل الكبير الذي يصنعون فيه خيوط القنب — اذن سيكون بإمكانهم الانتقال إلى حي مجاور ، وتتاح له فرصة حقاً . بأمل كهذا ، كان هناك بعض الجنود من العيش ، إمكانية لإيجاد مكان تعامل فيه كإنسان ، — وحق الله سيرهم كيف يمكنه أن يقدر على ذلك . ثم ضحكك من نفسه حين فكر كم سوف يتعلق بهذا العمل . .

لكن ، في أصيل أحد الأيام ، وبالتحديد في اليوم التاسع لعمله في ذلك المكان ، رأى ، وهو يمضي للحصول على معطفه ، جمعاً من الرجال احتشد أمام لافتة على الباب . وحين ذهب إليهم وسأل عن الأمر ، أخبروه بأن القسم الذي يعمل فيه سيغلق أبوابه اعتباراً من يوم الغد وحتى اشعار آخر . .

- ٢١ -

ذلك هو أسلوبهم . . انذار قبل نصف ساعة فقط ، المعمل يقفل أبوابه . . لقد حدث ذلك من قبل ، قال الرجال ، وسوف يظل يحدث إلى الابد . كانوا قد صنعوا كل ما يحتاجه العالم من آلات حصاد ، والآن عليهم ان ينتظروا إلى ان يبلى بعض ما صنعوه . وهذا ليس خطيئة احد . - فذلك هو الأسلوب الذي تسير عليه الامور ، وهكذا يطرد آلاف الرجال والنساء من اعمالهم في عز الشتاء ليعيشوا من مدخراتهم ان كان لديهم اية مدخرات . والا فليموتوا . واذا كان هناك من قبل عشرات آلاف الباطلين المشردين الذين يبحثون في المدينة عن عمل فسوف يضاف إليهم الآن عدة آلاف أخرى .

سار جرجس إلى المنزل بمبلغه الزهيد في جيبه ، حزينا مغموماً ، وقد ، ازيح حجاب آخر عن عينيه ، هاوية أخرى تكشفت له . أي عون كان يقدمه له لطف ارباب العمل ونزاهتهم . - حين لم يستطيعوا المحافظة على عمله ، حين صنعوا من آلات الحصاد أكثر مما يستطيع

العالم ان يشتري . . اية مدعاة للسخرية ان يستعبد الانسان لكي يصنع آلات حصاد لالشيء الا لكي يطرد بعد ذلك من عمله ويهلك جوعاً .
لم يستطع جرجس تجاوز آثار النكسة التي اصابته الا بعد مرور يومين . لم يشرب شيئاً لأن الزبيبتا كانت قد اخذت نقوده لتحفظها وكانت تعرفه أكثر بكثير من ان تستطيع طلباته الغاضبة اخافتها . وهكذا مكث في العلية ، متجهماً صامتاً ، ترى مافائدة بحث الانسان عن عمل اذا كان سيطرد منه قبل ان يتقنه ؟ لكن النقود تنفذ بسرعة وانتاناس الصغير جائع . تعضه انياب البرد في العلية كذلك كانت هناك مدام هوبت ، القابلة ، تلاحقه طلباً لبعض المال . وهكذا خرج مرة ثانية . ولعشرة ايام اخرى ظل يطوف في شوارع وأزقة المدينة الكبيرة ، مريضاً جائعاً . مستجدياً اي عمل . كان يسأل اصحاب المخازن والمكاتب والمطاعم والفنادق ، على الارصفة وساحات السكك الحديدية في المستودعات والمعامل والمصانع التي كانت تصنع منتجات تمضي إلى كل ركن من اركان العالم . وقد اتاحت له فرصة او فرصتان لكن ثمة دائماً مائة رجل لكل فرصة ، ولم يكن يحين دوره . في الليل كان يزحف إلى الحظائر والاقبية والمداخل . - إلى ان جاءت عاصفة شتائية هوجاء انخفضت بها الحرارة إلى خمس درجات تحت الصفر نهائياً وما دون ذلك بكثير ليلاً ! . حينذاك راح جرجس يصارع كالحوش لكي يدخل مخفر شرطة شارع هاديسون الكبير ويقبع في المعر الذي يكتظ برجلين آخرين في كل خطوة منه .

وغالباً ما كان يضطر لأن يعارك في هذه الايام - يعارك من اجل مكان قريب من بوابة المصنع ، وبين الحين والحين يعارك عصابات الشارع . فقد وجد ، مثلاً ، ان القيام بحمل الحقائق لمسافري السكك الحديدية عمل يحتاج لامتنياز مسبق - واذا ما حاول المرء القيام به انقض عليه ثمانية او عشرة رجال وصبيان واجبروه على الفرار بجلده فلديهم الشرطي المرتشي ، لذا لا جدوى من توقع الحماية منه .

واذا كان جرجس لم يمت جوعاً خلال تلك الايام فانما ذلك بفضل ما كان يكسبه الاولاد من مال زهيد . بل حتى هذا لم يكن اكيداً . فمن جهة كان القرس أكثر من ان يتحملة الاولاد ، كما انهم كانوا ، هم ايضاً ، يواجهون خطر المنافسين الذين يسلبونهم اموالهم ويضربونهم . القانون ضدهم ايضاً - فالصغير فيليماس كان بالحقيقة في الحادية عشرة الا انه لم يكن يبدو أكبر من ابن الثامنة ، وقد اوقفته في احدى المرات عجوز ذات نظارات لتقول انه اصغر سنّاً من ان يعمل وانه ان لم يكف عن بيع الصحف سترسل له ضابط التغيّب في المدرسة للاحقته . كذلك امسك رجل غريب بكوترينا الصغيرة من ذراعيها ذات ليلة محاولاً اقناعها بالدخول إلى ممر قبو مظلم مما ملأ قلبها رعباً وجعلها تخشى حتى الذهاب إلى العمل .

اخيراً ذهب جرجس ذات احد إلى المنزل راكباً الترام خلسة بعد ان قطع كل امل له من جدوى البحث عن عمل فوجد انهم كانوا بانتظاره مدة ثلاثة ايام - فهناك فرصة عمل له .

وكانت قصة تحكى تماماً . فالصغير جوزاباس الذي كاد يجن جوعاً في هذه الايام ، خرج إلى الشارع يشحذ الطعام لنفسه . كان جوزاباس يساق واحدة فقد بترت ساقه الاخرى اثر حادث عربة وقع له حين كان طفلاً صغيراً . لكنه كان يدبر نفسه ويسير على عكاز يضعها تحت ابطه . ولقد التقى ببعض الاولاد الذين شقوا طريقهم إلى قمامة مايك سكولي التي لا تبعد أكثر من ثلاث او اربع كتل بنائية . كان يجيء إلى هذا المكان كل يوم مئات كثيرة من محمولات عربات النفاية والفضلات القادمة من منطقة البحيرة حيث يعيش الاغنياء وفي اكوام القمامة هذه كان الاولاد يبحثون عن الطعام — فهناك كسرات الخبز ، قشور البطاطا ، بقايا التفاح ، عظام اللحم ، وكلها نصف متجلدة وسليمة تماماً . كان جوزاباس الصغير يحشو بطنه بهذا كله ثم يعود إلى المنزل بجريدة ملأى يطعم انتاناس مما فيها . رآته الزبيبتا يفعل ذلك مرة فارتعدت فرائصها خوفاً ، اذ لم تكن تصدق ان الطعام الخارج من القمامة يمكن ان يكون صالحاً للاكل . لكن في اليوم التالي وحين لم يصب احد من الطفلين بأذى وبدأ جوزاباس يتضور جوعاً ، تراجعت الام عن موقفها وسمحت له بالذهاب إلى قمامته مرة ثانية . عصر ذلك اليوم عاد إلى المنزل ليروي لهم قصة وهي ان سيدة في الشارع راحت تناديه وهو ينبش بعضاه في القمامة ثم اردف الصبي قائلاً انها سيدة حقيقية ، سيدة جميلة ، كانت تود معرفة كل شيء عنه ، ما اذا كان يأخذ طعام القمامة للدجاجات ام لا . ؟ لماذا يسير على عكاز ، سبب موت اونا ، كيف دخل جرجس

السجن ، مشكلة ماريا وكل شيء كل شيء . . في النهاية سألته عن مكان سكناه وقالت انها ستأتي لزيارته ثم اتت له بعكاز جديد يسير عليها . وقد اضفان جوزاباس انها كانت ترتدي قبعة عليها طائر ، وحول عنقها أفعى طويلة من الفراء .

وبالفعل جاءت في الصباح التالي تماماً ، حيث صعدت السلم إلى العلبة ثم وقفت وحلقت فيما حولها . وقد شحب وجهها لمنظر بقع الدم على الارض حيث قضت اونا نحبها . بعد ذلك شرحت للزبييتا انها عاملة في مؤسسة انعاش ، تقيم في مكان ما من شارع اسلاندا . كانت الزبييتا تعرف المكان ، فقد ارادها احدهم ان تذهب إلى هناك الا انها لم تهتم بذلك ، اذ ظنت ان الامر يتعلق ، ولا بد ، بالدين ولم يكن الكاهن يريد ان تكون لها اية علاقة بالمذاهب الدينية الاخرى . انهم من الاثرياء الذين جاؤوا للقامة هنا كي يكتشفوا كل شيء بانفسهم عن الفقراء ، لكن ما الفائدة التي كانوا يظنون انها ستعود عليهم من هذا الاكتشاف ، امر لا يمكن للمرء تخيله . هكذا تكلمت الزبييتا بسذاجة الا ان السيدة الشابة ضحكت دون ان تستطيع تقديم جواب لها — فقد وقفت محمقة بها ثم فكرت بملاحظة ساخرة كان قد ابداهها احد الناس لها وهي انها تقف على حافة الجحيم وتلقي اليها بكرات ثلج كي تخفف من حرارتها .

سرت الزبييتا كل السرور لانها وجدت اخيراً من يستمع لها فروت للشابة كل مصائبها — ماحدث لاونا . السجن ، فقدانهم منزلهم .

حادثة ماريا ، موت اونا وقعود جرجس بلا عمل . كانت عينا السيدة الشابة تغرورقان بالدموع وهي تصغي ، وحين وصلت الزبييتا إلى ذروة مأساتها انفجرت تلك بالدموع والقت برأسها على كتف الزبييتا دون ان تبالي بما كان على إزار المرأة من وسخ ولا البراغيث التي كانت تالاً العلية . خجلت الزبييتا المسكينة من نفسها لأنها حكمت قصة محزنة إلى هذا الحد ، بينما راحت الشابة ترجوها ، تتوسل إليها ان تتابع سرد قصتها . وكانت النتيجة ان ارسلت الشابة لهم سلة من الطعام وتركت رسالة مفادها ان على جرجس ان يذهب إلى رجل يعمل مراقباً عاماً في معمل من معامل الفولاذ الكبيرة في شيكاغو الجنوبية — « انه سيؤمن شغلاً لجرجس » ، قالت الشابة ثم اضافت وهي تبتسم من خلال دموعها « وان لم يفعل لن اتزوجه قط . »

تقع معامل الفولاذ على بعد خمسة عشر ميلاً ، وكالعادة ، فقد تدبروا الامر بحيث يدفع المرء اجرته قبل ان يصل إلى هناك . على مساحة واسعة ومدى بعيد كانت تتوهج بالالقي الاحمر الذي كان يتصاعد من صفوف المداخن الشائخة في السماء — اذ كان مايزال ظلاماً تماماً حين وصل جرجس . وكانت تحيط بالمعامل الضخمة ، التي تشكل مدينة بحد ذاتها ، حواجز من قضبان وقف عليها مائة رجل من اليد العاملة الجديدة بانتظار من يستخدمهم . بعد طلوع الشمس مباشرة بدأت الصافرات تصفر وفجأة بدأ آلاف الرجال يظهرون مندفعين من الخانات والنزل عابرين الطريق ، قافزين من الترامات وهي تمر — قبلها وكأنهم ينبعون

من الأرض في غبشة الضوء ايشكلوا نهراً راح يتدفق عبر البوابة ،
ثم بدأ ينحسر تدريجياً حتى لم يبق أخيراً الا افراد قلائل يركضون ،
والحارس يذرع الطريق جيئة وذهاباً والغرباء الجائعون ينتظرون
ويرتعدون .

قدم جرجس رسالته الثمينة الا ان الحارس الفظ اخضعه لالف
سين وجيم ، لكنه اصر على عدم معرفته شيئاً ، وبما انه كان قد احتاط
للأمر ونخم رسالته ، فقد وجد الحارس نفسه عاجزاً عن فعل اي
شيء سوى ارسالها إلى الشخص الموجهة اليه . عاد الرسول ليقول ان
على جرجس ان ينتظر ، وهكذا دخل من البوابة ، ربما غير آسف
كثيراً على أن هناك اناساً آخرين اقل حظاً منه يراقبونه بأعين تكاد
تلهيمه التهاماً .

كانت الآلات الكبيرة قد شرعت بالدوران ، وكان بإمكان
المرء ان يسمع اصوات حركة هائلة وشيئاً فشيئاً غدا المشهد واضحاً :
ابنية سوداء مرتفعة كالابرار هنا وهناك ، صفوف طويلة من المشاغل
والسقائف ، سكك حديدية تتفرع في كل مكان . فضلات الفولاذ
ونخبث الافران تحت الاقدام ، وابرار هائلة من الدخان المتصاعد فوق
الرؤوس . كانت سكة الحديد تسير بخطوط عديدة من احدى جهات
البحيرة ومن الجهة الأخرى كانت البواخر تقرب لتأخذ حمولتها .
كان لدى جرجس الوقت الكافي لتأمل هذا كله والتفكير به ،

اذ مضت ساعتان قبل ان يستدعى . بعد ذاك دخل مبنى الادارة ،
حيث قابله ضابط الدوام في الشركة ، قائلاً : ان المراقب مشغول لكنه
(هو ضابط الدوام) سيحاول ان يجد له عملاً ، ترى ألم يشتغل في
معمل للفولاذ من قبل ؟ هل هو مستعد للقيام بأي مهمة تسند له ؟
حسناً ، اذن سيذهبان ويريان .

وهكذا بدأ جولة بين مشاهد جعلت جرجس يحماق مذهولاً .
كان يتساءل ان كان سيعتاد في يوم من الايام على العمل في مكان كهذا ،
حيث كان الهواء ذاته يهتز بدوي رعد يصم الآذان ، والصافرات
تطلق الانذارات من كل جانب دفعة واحدة ، والمحركات البخارية
المصغرة تندفع باتجاهه ، وكثل المعدن الحامية كالجمر تمر به بسرعة
مهتزة تطش طشيشاً ، وانفجارات شرار النار واللهب تأخذ ببصره
وتلفح وجهه . في هذه المعامل . كان كل العمال قد اسودوا من السخام
وكانوا جميعاً غائري الاعين نحاف الأجسام . كانوا يعملون بتوتر
شديد ، مندفعين هنا وهناك لا يرفعون اعينهم عن مواضع عملهم
ابداً . وقد تمسك جرجس بدليله كما يتمسك الطفل الخائف بمربيه ،
في حين كان الاخير يهتف لمشرف عمال بعد آخر سائلاً ان كان بالامكان
استخدام شخص غير مدرب ، ثم يخلق حوله ويتعجب .

اخيراً ذهب به الرجل إلى فرن « بيسمر » حيث يصنعون قضبان

الفولاذ - وهو مبنى كالقبة بحجم مسرح كبير . وقف جرجس حيث يمكن ان تكون شرفة المسرح ، وقبالته ، حيث يمكن ان تكون الخشبة رأى ثلاثة مراحل كبيرة تكفي لان تكون مواقد لجهنم ذاتها ، مليئة بشيء ابيض يعمي العيون وهو يبقب و يرش الرذاذ كما لو ان براكين تنفخ فيه - وكان على المرء ان يصرخ ملء صوته كي يسمعه جاره . كانت النار السائلة تتواثب من المراحل وتتناثر كالقذائف نحو الاسفل وكان الرجال يعملون هناك بغير مبالاة على ما يبدو الى حد جعل جرجس يلتقط أنفاسه خوفاً وهلعاً . بعدئذ انطلقت صافرة ، فأنت عبر « ستارة المسرح » عربة آلية محملة بشيء ألقى في واحدة من الأواني ، ثم صفرت صافرة أخرى فتواجد بجوار « خشبة المسرح » قطار آخر وفجأة ، وبدون امهال للحظة واحدة ، بدأت إحدى الأواني الأسطوانية الضخمة بالميلان والانحراف ملقية بنافورة من اللهب ذي الهسيس المدوي . انكمش جرجس خائفاً ، ظاناً أن حادثاً قد وقع ، اذ سقط هناك عمود من اللهب الأبيض تغشى به العيون مطلقاً حفيفاً أشبه بحفيف شجرة ضخمة تسقط في غابة . بينما اكتسح تيار من الشرر الطريق كله عبر المبنى طاغياً على كل شيء ، مخفياً إياه عن النظر . تطلع جرجس من خلال أصابعه فشاهد شلالاً من النار الحية المتواثبة تنسكب من فم الرجل بيضاء تلفح مقل العيون ، وفوقها ارتسمت أقواس قزح متوهجة تراقص فيها ألوان

ذهبية وحمراء وزرقاء الا أن الجدول المتدفق نفسه كان أبيض لاشائبة فيه ، يتدفق من مناطق المجهول كنهر الحياة ذاته فتسائب روح الانسان لدى رؤيته وتنكص مرتدة عنه سريعة قلقة الى اراض بعيدة حيث يقطن الجمال والسلام - بعد ذاك مال الرجل مرتدأ مرة ثانية خاوياً . رأى جرجس أن أحداً لم يؤذَ ، وهو الأمر الذي أثلج صدره فدار على عقبه ولحق بدليله الى الخارج .

لقد عبر بأفراان الصهر ثم بمعامل التسوية حيث تلقى قضبان الفولاذ فتقطع كقطع الجبنة . في كل مكان كانت هناك أذرع آلات ضخمة تتحرك ودواليب كبيرة تدور ومطارق هائلة تطرق ورافعات متحركة تصر وتهتر فوق الرؤوس مادة نحو الأسفل اذرعاً حديدية ممسكة بفرائس حديدية - فكان ذلك أشبه بالوقوف في مركز الأرض حيث آلات الزمن تلور .

شيئاً فشيئاً وصلا الى المكان الذي تصنع فيه السكك الفولاذية .سمع جرجس صفرة خلفه . فقفز مبتعداً عن طريق عربية محملة بصبة فولاذ متقدة حتى الابيضاض لايقبل حجمها عن جسم الانسان ثم كان هناك انسحاق مفاجيء ونوقف للعربة ، بعد ذاك انقلبت الصبة خارجاً على منصة متحركة حيث أمسكت بها أصابع وأذرع الفولاذ ، دافعة اياها معجلة بها الى قبضة بكرات ضخمة تسوقها الى حيث تقطع وتشوى وتصنع منها قضبان السكك الحديدية .

في نهاية هذا المطاف وجد جرجس فرصته . فقد كان على العمال هنا أن يحركوا القضبان بواسطة عتلات . وكان بإمكان رئيس العمال أن يستخدم عاملاً آخر . وهكذا خلع سترته وياشر العمل في الحال .

كان الطريق إلى مكان عمله يستغرق منه ساعتين كل يوم ويكلفه دولاراً وعشرين سنتاً في الأسبوع وبما أن ذلك أمر لا مجال للبحث فيه فقد حزم فراشه وذهب مع زملائه العمال إلى منزل أحد المؤجرين البولنديين ، حيث كان باستطاعته أن ينام على الأرض مقابل عشرة سنتات كل ليلة أما وجبته فقد كان يتناولها وفق أسلوب الغداء - الحر ويذهب إلى المنزل كل ليلة سبت بكل ماله من متاع - حاملاً معه القسم الأكبر من نقوده إلى العائلة . كانت الزبييتا حزينة كل الحزن على هذا الوضع . إذ كانت تخشى أن يعتاد جرجس على الحياة بدونهم ، فرؤيته ابنه مرة واحدة في الأسبوع ليس شيئاً كثيراً ، إنما لم يكن ثمة خيار آخر . لم تكن هنالك أية فرصة لأن تعمل امرأة في معامل الفولاذ وكانت ماريا الآن قد باتت جاهزة للعمل يدفعها الأمل يوماً بعد يوم في أن تجد فرصتها في مكان ما من المسالخ .

خلال اسبوع تجاوز جرجس احساسه بالاندهال والخيرة في معمل قضبان السكة الحديدية . تعلم كيف يجد طريقه بين كل هذا الزحام وأن ينظر إلى كل هذه الأعاجيب والأهوال باعتبارها أمراً عادياً وأن

يعمل وقد صم أذنيه عن أصوات الدق والسحق . لقد انتقل من الخوف المطلق إلى الطرف الآخر تماماً ، إلى اللامبالاة وعدم الاهتمام ، شأنه شأن بقية الرجال الذين لم يكونوا يفكرون بأنفسهم ، وهم في حمى العمل إلا نادراً . وانه لشيء عجيب ، حين يفكر المرء بالمسألة ، أن يهتم هؤلاء العمال بالعمل الذي يقومون به ، وليس لهم نصيب فيه . فأجرتهم يأخذونها بالساعة ، ولم يكونوا يأخذون شيئاً مقابل اهتمامهم . كذلك ، فقد كانوا يعلمون أنهم إذا ما أصيبوا بأية إصابة فإنهم سيجدون أنفسهم في الخارج مهملين منسيين — ورغم ذلك كانوا يسرعون إلى واجباتهم ، يعملون على القطاعات الحادة الخطيرة ويتكرون أساليب جديدة تسرع العمل أكثر وتزيد من فعالية الآليات رغم أنهم يعرضون أنفسهم بذلك للمخاطر . في اليوم الرابع من استلامه العمل رأى جرجس رجلاً يتعثر وهو يجري أمام عربة فأدى ذلك إلى هرس قدمه ، وقبل أن تمضي عليه ثلاثة أسابيع شهد حادثاً أفظع أيضاً . فقد كان هناك صف من الأفران الآجرية التي يتوهج الفولاذ المنصهر داخلها توهجاً ، بعضها كان منضخاً إلى حد خطر ، مع ذلك كان العمال يشتغلون أمامها ، يضعون على أعينهم نظارات زرقاء حين يفتحون ويغلقون الأبواب . ذات صباح ، وحين كان جرجس يعبر بهذه الأفران انفجر أحدها راشاً اثنين من العمال برخة من السائل الناري وبما أنهما تمددا على الأرض يصرخان ويتدحرجان

بطناً لظهر ، اندفع جرجس لمد يد المساعدة لهما ، ونتيجة لذلك فقد قسماً لأبأس به من جلد احدى راحتيه . ضمّد طبيب الشركة يده إلا أن أحداً لم يشكره على ما فعل ، بل ظل خارج العمل بغير أجر لمدة ثمانية أيام .

لكن من حين الحظ أن الزبييتا كانت قد حصلت في هذه الآونة على العمل الذي طال انتظارها له وهو أن تذهب في الساعة الخامسة صباحاً وتساعد في تنظيف مكاتب احدى دور التعليب . عاد جرجس إلى المنزل وغطى نفسه بالحرامات كي يتدفأ ، مقسماً وقته بين النوم وملاعبة انتاناس أما جوزاباس فكان يمضي لينقب في القمامة معظم وقته بينما تبحث الزبييتا وماريا عن مزيد من العمل .

كان انتاناس قد بلغ الآن العام والنصف وغدا آلة سير كاملة وكان يتعلم بسرعة إلى حد كان يُخيّل معه لجرجس حين يعود إلى المنزل كل اسبوع وكأنما هو ولد جديد . كان يجلس ويصغي ويحملك ثم يطلق كلمات تعجب بهيجة - بالوك ! ! موما ! ! تومانوتر يدريل ! ! لقد بات هذا الطفل الصغير بهجة جرجس الوحيدة في هذا العالم - أمله الوحيد ، نصره الوحيد . الحمد لله أن انتاناس صبي . . بنيته متينة كعقدة صنوبر ، شهيته كشهية ذئب ، لاشيء يضره ولا شيء يمكن أن يضره . فقد أجتاز كل المعاناة والحربان دون أن يخلدشه شيء بل لقد ازداد حدة

وتصميماً على تمسكه بالحياة . كان ولداً صعب المراس ولم يضايق ذلك أباه — بل كان يراقبه ويبتسم راضياً عنه وعن نفسه كل الرضى . إذ بقدر ما يصبح أشد حباً للقتال بقدر ما يكون أفضل — فهو سيضطر لأن يشارك في هذه الحياة قبل أن يقطع شوطاً طويلاً .

كان جرجس قد اعتاد أن يشتري صحيفة الأحد حينما يتوفر لديه المال . أكبر صحيفة كان يستطيع شراءها بخمسة سنتات فقط ، صحيفة بطول ذراع كاملة ملأى بكل أخبار العالم ، كان جرجس يستمتع بها وهو يحاول مع الأولاد تهجئة ما فيها من أخبار وعناوين . هناك معارك وحوادث قتل وموت فجائي — وانه لشيء رائع أن يسمعوا بكل هذه الأخبار المسلية والحوادث المثيرة ولا بد أن كل القصص صحيفة إذ مامن أحد يمكنه أن يلفق مثل هذه الأشياء فضلاً عن أن هناك صوراً دائماً ، صوراً حقيقية تثبت صحتها . إحدى هذه الصحف كانت خيراً من سيرك ولا تقل جودة عن الانغماس في الشراب — انها ، بالتأكيد ، معالجة رائعة لعامل كان قد أنهكه العمل وأبلاه ولم يكن يتمتع بأية خلفية ثقافية ، عامل يمارس شغلاً مملاً فظيماً قاتلاً يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة دون أن يرى حقلاً أخضر ودون أن يحظى بتسليّة ساعة واحدة ، وليس لديه شيء يحرك خياله سوى الشراب . كانت صفحات هذه الصحف ملأى ، من بين الأشياء الأخرى ، بالصور الساخرة التي باتت هي المتعة الرئيسية في حياة أنتاناس الصغير فكان يختزنها ثم يخرجها لأبيه ويجعله

يقص عليه قصصها . كما كانت بينها كل صور الحيوانات وغدا بوسع انتاناس الصغير أن يقول اسماءها جميعاً وهو يستلقي على الأرض الساعات بطولها مشيراً إليها بأصابعه الصغيرة اللحمية . وحينما تكون القصة بسيطة إلى حد يكفي لأن يفهمها جرجس ، يطلب أنتاناس تكرارها له ، ومن ثم يتذكرها هاذراً ببضع جمل قصيرة مضحكة ، خالطاً بينها وبين قصص أخرى بأسلوب لا يقاوم . كان أسلوبه الغريب في لفظ الكلمات يثير المتعة والبهجة - وكذلك العبارات التي يلتقطها ويتذكرها ، أشياء غريبة وغير معقولة ! في المرة الأولى التي أخرجت شفتاه كلمة « اللعنة » كاد والده يسقط عن الكرسي فرحاً ، لكنه في النهاية حزن لهذا لأن انتاناس الصغير سرعان ما غدا يلعن كل شيء وكل الناس . بعدئذ وحين غدا باستطاعة جرجس أن يستخدم يديه أخذ لوازم فراشه وعاد ثانية إلى المعمل ومهمته في نقل قضبان السكة الحديدية . كان نيسان قد جاء وقد حل محل الثلج الأمطار الباردة التي حولت الشارع أمام منزل آنييل إلى قناة موحلة كان جرجس مضطراً للخوض فيها حتى الركبتين قبل أن يصل المنزل . لكنه لم يكن يبالي بهذا فالصيف آت والصيف يعد بالراحة من هذا كله . كذلك كانت ماريا قد حصلت على عمل كمشابة لحم في إحدى منشآت التعليب الصغرى ، وقد قال جرجس لنفسه إنه حفظ الدرس جيداً وإنه سيبتعد عن كل حادثة بعد الآن ، بذلك كان ثمة أمل في أن يضعوا حداً لعذابهم الطويل ، ويغدو

باستطاعتهم توفير بعض المال . وحين يأتي الشتاء القادم سيكون بوسعهم الانتقال إلى منزل جديد مريح ، وسيترك الأولاد الشارع ليعودوا إلى مدارجهم وقد ينطلقون للعمل مستعدين عاداتهم الأولى ، عادات اللطف والكرامات . وهكذا بدأ جرجس مرة أخرى يضع الخطط ويحلم الأحلام .

ذات ليلة من ليالي السبت قفز جرجس من حافلة الترام وانطلق باتجاه المنزل والشمس ترسل أشعتها الأخيرة على حواف غيوم متكلسة تسكب أمطارها جداول على الشارع الغارق بالوحل . في السماء كان ثمة قوس قزح ، وكان قوس قزح آخر في صدره فأمامه استراحة ست وثلاثين ساعة وفرصة يرى فيها عائلته . عند ذاك بات المنزل ضمن مدى نظره ، فلاحظ أن أمام الباب جمعاً غفيراً . ركض جرجس صاعداً الدرج ، شاقاً طريقه بين الجمع وهناك رأى مطبخ أنييل يغص بنساء في حالة من الهياج ذكره على الفور بذلك اليوم الذي عاد فيه إلى المنزل من سجنه ووجد أونا تموت ، فكاد يتوقف قلبه عن الحفكان . « ماذا هناك ؟ » صرخ متعجلاً .

غير أن سكوناً كسكون الموت خيم على الغرفة كما رأى أن الجميع يحملون به « ماذا جرى . ؟ » هتف ثانية .

حينذاك جاءت من العلية أصوات ولولة ، عرف منها صوت ماريان فانطلق إلى السلم — إلا أن أنييل أمسكت به من ذراعه هاتفة — « لا . لا . لا . لا . لا تصعد إلى هناك . . . » .

فصاح ملء صوته « وماذا هناك ؟ » .
حينها أجابته العجوز بصوت واهن « انتاناس مات . لقد غرق في
أوحال الشارع » .

- ٢٢ -

تلقى جرجس النبأ بأسلوب خاص فقد شحب وجهه شحوب الموتى
لكنه تماسك ، ولنصف دقيقة ظل واقفاً وسط الغرفة محكماً قبضة يديه
كازاً على أسنانه — بعدئذ نحتى آنييل بجانباً وأوسع خطاه إلى الغرفة
المجاورة ثم صعد السلم .

كانت هناك بطانية في الزاوية ، وقد بان تحتها ، بصورة شبه
واضحة ، هيكل تمددت بجانبه الزبييتا فلم يستطع جرجس أن يعرف
تماماً هل تبكي أم تراها مصابة بالاغماء ، أما ماريّا فقد كانت تقطع
الغرفة نادية ، عاصرة يديها فشدة جرجس احكام قبضة يديه ثم سألها
بصوت أكثر قسوة حتى :

« كيف حدث ذلك ؟ » .

لكن ماريّا لم تسمع شيئاً وهي في لجة علباها . كرر جرجس بصوت
أعلى وأكثر خشونة أيضاً ، فأعولت عجيبه : « لقد سقط عن الطوار »
والطوار أمام المنزل رصيف مصنوع من ألواح نصف مهترئة ترتفع
حوالي خمسة أقدام عن مستوى الشارع الغارق في الوحل .

« كيف وصل إلى هناك » سألتها جرجس .

فنشجت ماريًا ثم أجابته بصوت يكاد يختنق « لقد خرج — خرج ليلاعب . لم تتمكن من إبقائه في المنزل . ولا بد أن الوحل قد أمسك به . »

« أكيد أنه ميت ؟ » سألت جرجس .

فولت « آي . . آي . . أجل ، لقد جئنا له بالطبيب » .

عند ذاك وقف جرجس مترنحاً بضغ ثوان ، لم يدر ف دمعة واحدة بل كل ما فعله هو أنه ألقى نظرة سريعة أخرى على البطانية التي تخفي تحتها ذلك الهيكل الصغير ثم انقلب فجأة إلى السلم وهبط من جديد . فخيم السكون مرة أخرى على الغرفة حين دخلها . بعدها مضى مباشرة إلى الباب ثم عبره خارجاً ونزل إلى الشارع .

حين توفيت زوجته ، مضى جرجس إلى أقرب حانة ، لكنه في هذه اللحظة فعل شيئاً آخر رغم أن أجور أسبوعه كانت مازال بكاملها في جيبه . لقد مشى ومشى غائماً النظر مخوضاً في الوحل والماء : بعد ذاك جلس على درجة سلم وأخفى وجهه بين يديه وهناك ظل دون حراك نصف ساعة كاملة ، النأمة الوحيدة التي كانت تصدر عنه هي همسة خافتة يطلقها من حين إلى آخر « لقد مات . . لقد مات . . »

أخيراً نهض وعاد السير مرة ثانية . كانت الشمس قد غربت فظل يمشي ويمشي إلى أن خيم الظلام تماماً . حينذاك توقف عند تقاطع سكة

حديدية . كانت الحواجز منزلة وكان هناك قطار شحن طويل يهدر قادمًا . فوقف يراقبه وعلى حين غرة سيطر على كيانه دافع غريب : فكرة كانت تختفي في أعماقه مجهولة خفية ، قفزت فجأة إلى ذهنه . فانطلق بمحاذاة السكة وحين اجتاز بيت الحارس الصغير قفز قداماً وألقى بنفسه في إحدى العربات . وقف القطار مرة ثانية فقفز جرجس نازلاً وجرى تحت العربة ثم اختبأ في إحدى عربات الشحن ، وحين عاود القطار المسير خاض معركة عنيفة مع نفسه . كان يشد من قبضة يديه ويكز على أسنانه معاً . لم يبك ولن يبكي — دمعة واحدة لن يبكي . . . لقد مضى وانقضى ، انتهى الأمر كلياً — سيرمي بذلك كله عن كاهله ، سيتحرر من المسألة برمتها . هذه الليلة ستمر مثل كابوس بغض أسود وفي الصباح سيكون انساناً جديداً وكان كلما عاوده التفكير بمصيبته — ذكرى لطيفة ، أثر دمعة — ينهض على قدميه ، يلعن ويسب بغضب وهياج مبعداً كل ما في رأسه من أفكار .

كان جرجس يعارك من أجل الحياة ، يصرف بأسنانه لشدة يأسه . « أحمق ، أحمق . . أضاع حياته ، حطم نفسه لضعفه اللعين » . والآن لا دموع بعد اليوم ، لاوهناً أو رقة حسبه ماناله منهما . . لقد جعلاه منه عبداً ! والآن هاهو ذا يتحرر ، يحطم قيوده ، يقف على قدميه ليقا تل . لقد سر ان جاءت النهاية — كان ينبغي أن تأتي ذات حين وقد جاءت الآن تماماً . فهذا العالم ليس للنساء والأولاد ، وبقدر

ما يخرج منه هؤلاء بصورة أسرع بقدر ما يكون ذلك خيراً لهم وأفضل .
قد يعاني انسان حيث ذهب الآن لكنه لن يعاني أكثر مما لو ظل على
هذه الأرض وفي تلك اللحظة بدأ جرجس يفكر بالكفاح من أجل
نفسه ضدّ عالم يكيده له ويعذبه .

وهكذا مضى يمزق كل الأزهار من حديقة روحه ، يطأها بقدميه—
كان القطار يهدر على نحو يصم الأذان وعاصفة من غبار تهب في وجهه ،
لكنه مع ذلك كان يتوقف بين الحين والحين فيتشبث جرجس بمخبطه
يتشبث لكي ينقله القطار بعيداً . فكل ميل يبتعد به عن باكنجتاون
يعني عبثاً آخر يزول عن كاهله .

وكلما توقف القطار كانت نسمة دافئة تهب عليه ، نسمة محملة
بعطر الحقول البري ، برائحة الأعشاب والأزهار . كان جرجس يتشممها ،
فيخفق قلبه أشد الخفقان — لقد خرج إلى الريف ثانية . . سيعيش في
الريف ، وحين يطلع الفجر سينعم النظر حوله بعينين ظامتين ، سيتطلع
إلى المروج والغابات والأنهار ليشبع منها عينيه . أخيراً لم يعد باستطاعته
التحمل ، لذا ما إن توقف القطار حتى انسل خارجاً منه ! رآه عامل
المكبج الذي كان على سطح العربة فهز قبضته في وجهه وأطلق سيلاً من
الشتائم إلا أن جرجس لوّح بيده ساخراً وانطلق عبر الحقول .

يا للعجب ! لقد عاش في الريف طوال حياته لكنه منذ ثلاث سنوات

لم ير منظراً ريفياً واحداً ولا سمع صوتاً من أصوات الريف اللهم إذا استثنينا ذلك المسير الذي ساره حين خرج من السجن وهو في حال من القلق والضيق يصعب معها ملاحظة أي شيء . كذلك لم يكن جرجس قد رأى شجرة واحدة إلا في الحداثق ، في تلك المرات القليلة التي قضاها في قلب المدينة ، وهو عاطل عن العمل . والآن هاهو ذا يشعر وكأنه طائر حملته عاصفة بعيداً وعالياً ، فراح يتوقف ويحلق بكل منظر جديد ، قطيع أبقار ، مرجة ملأى بالاقحوان ، أسيجة كثيفة من أزهار حزيان ، طيور صغيرة تغرد على غصون الأشجار .

بعدئذ وصل إلى بيت مزرعة ، وبعد أن زود نفسه بعضاً للحماية اقترب منه . كان المزارع يشحم عربة أمام مستودع التبن فمضى جرجس نحوه مباشرة ثمّ قال « من فضلك أريد بعض الطعام » .

فقال المزارع « هل تود أن تعمل ؟ » .

« كلا » قال جرجس « لا أود » .

فنهره الآخر : « إذن لن تحصل على شيء هنا » .

« أقصد أنني سأدفع ثمناً له » قال جرجس .

فقال المزارع « أوه » ثم أضاف ساخراً « نحن لا نقدم افطاراً بعد الساعة صباحاً » .

فقال جرجس برصانة وجد : « لكنني جائع وأود أن أشتري بعض الطعام » . « اسأل المرأة » قال المزارع مشيراً برأسه . وكانت المرأة أكثر عملية لذا استطاع جرجس لقاء عشرة سنتات ان يحصل على سندويشتين سميكتين وقطعة فطير وتفاحتين . ثم مشى مبتعداً وهو يأكل الفطيرة باعتبار ذلك أسهل طريقة لحملها وخلال بضع دقائق وصل قرب جدول ، فتسلق سياجاً ثم انحدر على طول ممر في الغابة إلى الضفة حيث وجد بقعة مريحة فالتهم هناك وجبته وأطفأ ظمأه بماء الجدول . بعد ذاك استلقى ساعات طوالاً محدقاً فيما حوله يعب الفرع عباً ، إلى أن شعر أخيراً بالنعاس فاستلقى تحت ظل شجيرة وأسلم نفسه للرقاد .

حين أفاق كانت الشمس تسطح حادة في وجهه . جلس وتمطى ثم سجد إلى الماء المنساب بجواره . كانت هناك بركة عميقة محمية وهادئة تحته تماماً وعلى الفور خطرت له خاطرة رائعة . يمكنه أن يأخذ حماماً . . الماء نقي وبإمكانه أن يغوص فيه — مباشرة فيه . . وستكون المرة الأولى التي يغوص بها في ماء منذ رحل عن ليتوانيا . .

حين قدم جرجس إلى منطقة المسالخ كان نظيفاً كما يمكن لأي عامل أن يكون . لكنه فيما بعد ، أي بعد أن عانى الجوع والمرض ، الفقر والحرمان ، بعد أن لاقى ما لاقاه من أوساخ عمله وهوام منزله ، تخلص عن الاغتسال شتاء وكان يكتفي بالنزول إلى حوض الماء صيفاً

أما في السجن فتد .حظي بعدة حمامات باردة انما لاشيء منذ ذلك
الحين — والآن فانه سيسبح . .

كان الماء دافئاً فراح ينثره حوله خابطاً إياه بيديه وقدميه كما يفعل
طفل فرح . بعد ذاك جلس في الماء قرب الضفة ومضى يفرك نفسه —
برصانة ومنهجية ، راح يفرك بالرمل كل بوصة منه فركاً كاملاً دقيقاً
ثم يتأمل احساسه بنظافته بل لقد فرك رأسه بالرمل طارداً ما يدعوه — الناس
« بالفتات » من شعره الأسود الطويل ، مبقياً رأسه تحت الماء — أطول مدة
ممكنة ليرى ان كان باستطاعته أن يقتله كله . بعدئذ رأى أن الشمس
ماتزال حارة فأخذ ثيابه عن الضفة ومضى يغسلها قطعة قطعة ، وحين
بدأ الوسخ والشحم يجريان جداول منها راح جرجس يهمهم راضياً
مسروراً ويدعك الثياب من جديد حالماً بأن يتخلص من رائحة السماد .

بعد ذلك جلقها جميعاً لتجف تحت الشمس .ثم استلقى على ظهره
كي يأخذ غفوة أخرى . حين استيقظ كان القسم العلوي من ملابسه
متصلباً حاراً كالوح من صفيح ، أما الداخل فرطب قليلاً . كذلك كان
جائعاً فارتداها وانطلق مرة ثانية . لم يكن لديه سكين إلا أنه ببعض الجهد
صنع عصا جيدة متينة ومضى متسلحاً بها ، يهبط الطريق مرة ثانية .
خلال فترة وجيزة وصل إلى بيت ريفي كبير فانعطف صاعداً
ممرأ يؤدي إليه . كان الوقت عشاء وكان المزارع يغسل يديه عند باب
المطبخ ، فقال له جرجس « من فضلك ياسيدي . هل لديك شيء آكله ؟

سأدفع لك « فأجابه المزارع بسرعة : « نحن لانطعم مشردين . اذهب من هنا » .

ذهب جرجس دونما كلمة لكنه حين دار حول المستودع وصل إلى حقل محروث مثلث حيث كان المزارع قد غرس بعض غراس الكمثرى الحديثة وفي طريقه راح يقتلع الغراس من جذورها فاقتلع مايزيد عن مائة غرسة قبل أن يبلغ نهاية الحقل . كان ذلك هو جوابه وقد أوضح به حالته النفسية . من الآن فصاعداً سيقا تل ، ومن يوجه له ضربة سيردها بكل ماله من قوة وفي كل مرة .

بعد انتهاء البستان دخل جرجس بقعة حراجية ثم بلغ حقلاً مزروعاً بالقمح ، وصل بعده إلى طريق آخر . سار عليه قليلاً فرأى بيتاً ريفياً آخر وبما أن الغيوم كانت قد بدأت تظهر في السماء ، فقد طلب جرجس المأوى اضافة إلى الطعام . وحينما رأى المزارع يتفحصه بشيء من الشك أضاف « سأكون مسروراً ان نمت في المستودع » .

قال الآخر « حسناً ، لكن هل تدخن ؟ » .

فقال جرجس « أحياناً ، لكنني سأدخن خارج المستودع »
و حين وافق الرجل سأله جرجس : « كم يكلفني هذا ؟ فأنا لأملك الكثير من المال على أي حال » « عشرون سنتاً مقابل العشاء » أجاب المزارع « أما المتأمة فلن تكلفك شيئاً » .

وهكذا دخل جرجس المنزل ثم جلس إلى الطاولة مع زوجة المزارع ونصف دسته من الأطفال . وكانت وجبة رائعة : فاصولياء ، بطاطا مهروسة ، هليون مقطع ومطهو ، طبق فريز ، شرحات كبيرة وسميكة من الخبز وابريق من اللبن . لم يكن جرجس قد حضر مثل هذه المأدبة منذ عرسه ، فبذل كل مافي وسعه كي يأكل مايساوي سنتاته العشرين .

كانوا جميعاً أكثر جوعاً من أن يستطيعوا التحدث ، لكنهم بعد العشاء جلسوا على الدرج حيث دخن الرجلان هناك ، وبدأ المزارع يسأل نزيله . وحين شرح جرجس لمضيفه بأنه عامل من شيكاغو وأنه لايعرف أين يتوجه سأله الآخر « لماذا لاتقيم هنا وتعمل لدي » ؟ .

فأجاب جرجس : « أنا لأبحث عن عمل الآن »

فقال الآخر وهو يتفحص جسم ضيفه الكبير « سأدفع لك حسناً ، دولاراً كل يوم ، علاوة على طعامك ومنامتك فاليد العاملة قليلة هنا » .
« وهل تدفع في الشتاء كالصيف » ؟ سأل جرجس في الحال .

« لا . . لا » قال المزارع « لايمكنني الاحتفاظ بك بعد تشرين الثاني ، ليس لدي مكان كاف لذلك » .

فقال الآخر « . . أرى ذلك . . بل هذا ما فكرت به تماماً لكن إذا ما أنهت خيلك أعمالك كلها في هذا الخريف هل ترمي بها إلى الثلج شتاء ؟ » .

كان جرجس قد بدأ يفكر بنفسه في هذا الحين .

فأجاب المزارع وهو يقلب نظره في النقطة التي أثارها جرجس . .
« ليس الأمر هكذا تماماً ، ثم لابد أن يكون هناك عمل لشخص قوي
مثلك في المدن أو في أي مكان آخر وقت الشتاء . » أجل « قال جرجس
« هذا ما يفكر به الجميع ، ولذلك يزدحمون في المدن . . . وحين
يضطرون للتسول أو السرقة لكي يبقوا على قيد الحياة يسألهم الناس
لماذا لا تذهبون إلى الريف حيث اليد العاملة نادرة » .

وغرق المزارع في التفكير حيناً من الزمن ثم سأله أخيراً :

« وما ستفعل حين ينتهي مالديك من نقود ؟ ستضطر حينئذ لك لأن
تعمل ، أليس كذلك ؟ » .

« انتظر إلى أن تنتهي » قال جرجس . . « حينئذ سأرى » .

في الأسطبل نام نوماً عميقاً وفي الصباح تناول وجبة افطار كبيرة
من القهوة والحبز وحساء الشوفان والكرز المطبوخ ، دفع مقابلها خمسة
عشر سنتاً ، ربما بعد الجدل والمساومة ، ثم ودعهم ومضى في طريقه .

* * *

هكذا كانت بداية حياته كشريد لكنه نادراً ما نال مثل هذه المعاملة
الحسنة بعد ذلك ، بل لقد جاء حين من الزمن راح يتجنب فيه البيوت
ويفضل النوم في الحقول أما حين تمطر فقد كان يبحث عن مبنى مهجور

و حين لا يجده ينتظر حلول الظلام ثم يمضي متسلحاً بعصاه ليقرب نخلة من مستودع أعلاف. وبصورة عامة كان يتمكن من الدخول إلى مثل هذا المستودع قبل أن يشم الكلب رائحته ثم يخفي نفسه في القش كي يأمن ويحافظ على سلامته حتى الصباح. أما إن لم يستطع وهاجمه الكلب فقد كان ينهض ويشتبك معه ثم يتراجع تراجعاً نظامياً . لم يعد جرجس الرجل القوي الذي كان في الماضي ، إلا أن ذراعيه كانتا مائتزان قويتين ، ولم يكن هناك إلا قلة من الكلاب تحتاج لأن يضربها أكثر من مرة واحدة .

بعد زمن وجيز جاء ثوب العليق ثم الثوب العادي ليساعده على توفير نقوده . وكان هناك تفاح في البساتين وبطاطا في الحقول — وقد تعلم كيف يلحظ أماكن هذه الثمار جميعاً وكيف يملأ جيوبه بها بعد حلول الظلام بل لقد تدبر أمره مرتين وسرق دجاجاً ، أقام عليه مآذب ، مرة في اسطبل مهجور والمرة الثانية في بقعة مهجورة على ضفة جدول . أما حين يفشل في الحصول على هذه الأشياء فقد كان يستعمل نقوده ببائع الخرص ، إنما بغير انزعاج — فهو يعلم أن باستطاعته كسب المزيد منها حينما يريد ذلك . فتقطع حطب لمدة نصف ساعة فقط وبأسلوبه النشط كان كافياً لتأمين وجبة الطعام وغالباً ما كان المزارعون ، حين يرونه وهو يعمل يحاولون أن يرشوه ، ليبقى .

لكن جرجس لا يبقى ، لا يقر له قرار . إنه الآن رجل حر ، قرصان مغامر ، شهوة التجوال القديمة عادت تنخر في دمه وعاد إليه فرحه

بالحياة غير المقيدة ، فرح البحث ، فرح الأمل بلا حدود . كانت تحدث له ازعاجات وحوادث - انما كان يجد كل يوم شيئاً جديداً . تأمل فقط مايمكن أن يعني لرجل ، ظل سنوات طويلة سجيناً في مكان واحد ولايرى فيه سوى البيوت الخفية والمعامل القنطرة الرهيبة ، ان ينطلق فجأة إلى الحرية ، إلى الفضاء الرحب ، يتأمل المناظر الطبيعية الجديدة ، الأماكن الجديدة ، الأناس الجدد في كل ساعة من ساعات نهاره . رجل تتألف حياته كلها من أداء عمل معين طوال النهار إلى أن تنهك قواه ولا يعود بوسعه فعل شيء بعد ذلك إلا الاستلقاء والنوم حتى الصباح التالي - والآن غدا سيد نفسه يعمل حين يشاء ، متى يشاء ، ويواجه مغامرة جديدة كل لحظة . كذلك استعاد جرجس صحته ، قوة شبابه الضائعة ، فرحه وطاقاته التي أفقدهاها الحزن وأنسته اياها الهموم ، كلها عادت إليه باندفاع مفاجئة أدهشته ، أذهلته ، بل بدا وكأن طفولته الضائعة تعود إليه ضاحكة هاتفة ، فيما يأكل من طعام وافر وما يتنفس من هواء طلق ومايربص به من مختلف التمارين . كان يجد نفسه سعيداً دائماً ، ينهض في الصباح ثم ينطلق وهو لايعلم ما يفعل بطاقاته ، يتمطى ضاحكاً ، ويغني مايتذكر من أغاني الوطن القديمة . بالطبع لم يكن يستطيع منع نفسه من التفكير بين الحين والحين بأنتاناس الصغير الذي لن يراه مرة ثانية والذي لن ينسى صوته الصغير أبداً ، ثم يجد نفسه مضطراً لفتح معركة مع نفسه ، أحياناً كان يستيقظ في الليل وهو يحلم بأونا ، يمد يديه إليها ويبذل الأرض بدموعه ، لكنه

كان ينهض في الصباح فينفض عنه أحلام الليل ويغذ الخطأ مبتعداً من جديد ليخوض معركته مع الدنيا .

لم يكن يسأل أبداً عن مكان وجوده ولا عن وجهته . كان يعلم أن البلاد كبيرة بما يكفي . وأنه لاخطر من بلوغه حدودها . وبالطبع ، كان يجد دائماً من يسألهم - ففي كل مكان يذهب إليه هناك أناس يعيشون ، تماماً كما يعيش ويرحبون بانضمامه إليهم . لقد كان جديداً على « الصنعة » لكنهم لم يكونوا متعصبين ، وقد علموه كل حيلهم سماهي المدن والقرى التي يستحسن ابتعاده عنها ، كيف يقرأ اللوحات الخفية في الأسيجة ، متى يتسول ومتى يسرق وكيف يفعل كلا منهما تماماً . كانوا يسخرون من تفكيره في أن يدفع مقابل أي شيء يناله مالاً أو عملاً - فهم يتألون كل مايرغبون دون مال أو عمل . ومن حين إلى آخر كان يخيم مع عصابة منهم في مكان ما في الغابة ويجوس معهم في المناطق المجاورة ليلاً . ثم قد تحلو له عشرة أحدهم فيمضيان معاً ليتجولا اسبوعاً من الزمان ، يتبادلان الذكريات .

من هؤلاء المشردين المحترفين كان هناك الكثير بالطبع ممن كانوا طوال حياتهم مشردين أشراراً ، غير أن الغالبية العظمى منهم كانت من العمال الذين كافحوا طويلاً كما كافح جرجس ثم وجلوا أن المعركة خاسرة فاستسلموا . وفيما بعد ، واجه جرجس صنفاً آخر من الرجال ، أولئك الذين يخرج من صفوفهم المشردون ، الرجال الذين

لا مأوى لهم ، المتجولون الذين يبحثون عن عمل - يبحثون عنه في حقول الحصاد . وهؤلاء يشكلون جيشاً من اليد العاملة الفائضة في المجتمع ، جيشاً يطلب منه البقاء تحت ظل النظام الصارم للطبيعة . أن يؤدوا الأعمال العرضية التي يقدمها لهم العالم وأن يقوموا بالمهام العابرة وغير النظامية رغم أنه لابد من أدائها ، لم يكن هؤلاء يعرفون أنهم هكذا ، بالطبع ، بل كل ما يعرفونه هو أنهم يبحثون عن عمل ، وإن العمل يفر منهم . في مطلع الصيف قد تجدهم في تكساس وحين يأتي موسم الحصاد تراهم يتحركون شمالاً مع تحرك هذا الموسم لينتهوا عند الحريف في ماينتوبا . بعد ذلك - يبحثون عن مخيمات قطع الأخشاب الكبيرة ، حيث العمل الشتائي ، وإن فشلوا في هذا ينتقلون إلى المدن ويقتاتون بما تمكنوا من توفيره إضافة لقيامهم بأعمال عابرة حيث تواتيهم - تحميل أو تفريغ سفن وزوارق ، حفر خنادق ، جرف ثلج . . . إلخ . وإذا كان هنالك أكثر مما تحتاجه هذه الأعمال فإن الضعاف منهم يذوون برداً وجوعاً وذلك أيضاً طبقاً لنظام الطبيعة الصارم .

في أواخر تموز ، كان جرجس قد وصل ميسوري ، ووقع هناك على عمل من أعمال الحصاد . فهنا يعمل الرجال مدة ثلاثة أو أربعة أشهر في محصول قد يخسره صاحبه كلياً إن لم يجد من يساعده لمدة اسبوع أو اسبوعين . وهكذا كان هناك طلب شديد على اليد العاملة في المنطقة كلها - وكالات انشئت للبحث عن العمال ، مدن افرغت من اليد العاملة ، بل حتى طلاب المعاهد كانت تأتي بهم الشاحنات وجميع

المزارعين المسعورين يوقفون القطارات ويفرغونها من حمولاتها من الرجال بالقوة ولم يكونوا يدفعون لهم جيداً وحسب بل كان باستطاعة أي رجل أن يحصل على دولارين يومياً ، أكلاً ، شارباً ، نائماً ، أما العمال الجعيون فيستطيعون الحصول على دولارين ونصف أو ثلاثة دولارات .

كانت حمى الحصاد في الجو ذاته ، ولم يكن باستطاعة أي امرئ ذي روح ألا يشعر بذلك . انضم جرجس إلى زمرة من زمر الحصاد وراح يعمل من طلوع الفجر حتى حلول الظلام ، ثماني عشرة ساعة يومياً ، ولمدة اسبوعين دون انقطاع . فتجمع لديه مبلغ من المال يعتبر ثروة بالنسبة له في أيام البؤس القديمة - لكن ماعساه يفعل به الآن ؟ من المؤكد أن باستطاعته أن يضعه في مصرف وإذا كان محظوظاً يستعيده ثانية حين يحتاجه . لكن جرجس الآن رجل شريد يتجول في كل الأنحاء ، فما تراه يعلم عن المعاملات المصرفية والأرصدة وكتب الاعتماد ؟ إذا حمل المال معه فمن المؤكد أنه سيتعرض للسلب في يوم من الأيام ، اذن ماعساه يفعل بالنقود سوى أن يستمتع بها ما استطاع ؟ وهكذا ذهب ذات ليلة من ليالي السبت إلى بلدة مجاورة مع زملائه ولأنها كانت تمطر ولم يكن ثمة مكان آخر يذهبون إليه فقد ذهبوا إلى إحدى الحانات حيث وجدوا من يعتني بهم فضحكوا وعربدوا وغنوا ماشاء لهم الغناء ومن القسم الحلفي في الحانة رأى جرجس فتاة مرسحة وردية الوجنتين تبسم له ،

فشعر بفؤاده يخفق فجأة أشد الخفقان — أوماً لها برأسه فجاءت وجلست بجواره ثم شربا كؤوساً أخرى وبعد ذلك صعد معها إلى غرفة في الطابق العلوي ، حيث ثار الوحش في داخله وصرخ مثلما كان يصرخ في الغابة منذ بداية الزمان . بعد ذلك ، وبسبب ذكرياته وخجله ، شعر بكثير من السرور حين انضم الآخرون رجالاً ونساء إليهما ثم عيوا كؤوساً أخرى وقضوا الليلة كلها في حالة عجيبة من الصخب والفجور .

ففي اثر جيش العمال الموسمين هذا ، كان هنالك جيش آخر يتبعه ، جيش من النساء يكافحن دائماً من أجل الحياة وفق نظام الطبيعة الصارم اياه . ولأن هناك رجالاً أغنياء يبحثون عن المتعة ، فقد كان يتوفر لهم الكثير من العمل طالما كن شابات جميلات ، لكن فيما بعد نحل محلهن أخريات أكثر شباباً وجمالاً فيخرجن ليلحقن بركب العمال . أحياناً كن يأتين من تلقاء أنفسهن وكان أصحاب الحانات يشاركوهن الأرباح ، وأحياناً تأتي بهن وكالات مختصة بمثل هذه الأمور ، تماماً كما هي الحال مع جيش العمال . لذا تجدهن خلال مواسم الحصاد في المدن الصغيرة وفي الشتاء في مخيمات قطع الأخشاب . كما يذهبن إلى المدن الكبيرة حين يكون العمال هناك . وإذا ما نجيم فوج عسكري في مكان ما أو كانت هناك سكة حديد قيد الانشاء أو قناة ستشق أو معرض سيقام فانك تجد حشداً من النساء تحت التصرف حيث يعشن في بيوت صغيرة أو حانات أو غرف أجرة ، أحياناً كل ثماني أو عشر نساء معاً .

في الصباح لم يكن جرجس يملك سنتاً واحداً فخرج إلى الطريق مرة ثانية مريضاً مصاباً بالغثيان ، لكنه تذكر خطة حياته الجديدة فداس على مشاعره ومشى . لقد جعلهم يضحكون منه ، لكن فات الأوان . الآن كل ما يستطيع فعله هو أن يعمل على ألا يحدث هذا مرة ثانية وهكذا راح يتجول إلى أن أزال الهواء الطلق والرياضة صداعه وحل محله الفرح وعادت إليه القوة . كان هذا يحدث له في كل مرة إذ كان جرجس ما يزال مخلوقاً ذا - رغائب ، ولم تكن متعة قد أصبحت سلعة تجارية بعد - ولسوف يمضي وقت طويل قبل أن يغدو مثل أغلبية المتشردين أولئك الذين يطوفون إلى أن يتمكن من نفوسهم الجوع والظماً للنساء فيذهبون إلى العمل وفي نفوسهم غاية محددة ثم يكفون عن العمل عندما يغدو بمستطاعهم تحقيق هذه الغاية .

بل على العكس ، لم يكن جرجس ، مهما حاول ، بقادر على منع نفسه من أن يكون بائساً في صميمه . إنه الشبح الذي لايزايله ، الشبح الذي ينتابه حيث لايتوقع أبداً أن ينتابه فيدفعه دفعاً إلى الشراب .

ذات ليلة ، أمسكت به عاصفة رعديّة في الطريق فبحث عن مأوى في بيت يقع تماماً على أطراف بلدة صغيرة ، فوجد أنه بيت عامل سلافي مثله ، مهاجر جديد من روسيا البيضاء . رحب العامل بجرجس بلغته الأم ثم طلب إليه أن يقترب من الموقد ويخفف نفسه . لم يكن لديه فراش يقدمه له إنما كان هناك قش في العلية وكان باستطاعته أن يرتب أموره .

كانت زوجة العامل تطهو العشاء وكان أطفالهما يلعبون على أرض المنزل .
جلس جرجس مع مضيفه يتبادلان الحديث عن الوطن ، عن الأمكة
التي ذهبا إليها والعمل الذي عملاه . ثم تناولا عشاءهما وبعد ذلك جلسا
ودخنا ونحدثا أكثر وأكثر عن أمريكا وكيف وجداها . لكن جرجس
توقف في وسط الجملة وهو يرى أن المرأة قد أحضرت حوضاً كبيراً
من الماء ثم همت بتعريه طفلها من ملابسه . كان البقية قد زحفوا إلى
الحجرة التي ينامون فيها أما الرضيع فكان ينبغي أن يستحم ، شرح
له العامل . كانت الليالي قد بدأت تبرد وقد خاطت له أمه التي تجهل
طقس أمريكا ثياباً للشتاء ألبيسته إياها مما جعل نوعاً من الطفح يظهر على
جلد الطفل وقد قال الطبيب أن عليها أن تحممه كل ليلة ولحماقتها
صدقته .

بصعوبة بالغة سمع جرجس الشرح ، فقد كان يراقب الطفل الذي
كان عمره حوالي سنة تقريباً ، قوي البنية ذا ساقين سميتين طريتين ،
وبطن كروي صغير وعينين سوداوين كالقحم . لم تكن بشوره تزعجه
كثيراً ، على ما يبدو ، وقد طار فرحاً بالحمام فراح يضرب الماء بيديه ،
يصرخ ضاحكاً ويقهقه بهجة ممسكاً بوجه أمه ثم ممسكاً بأصابع قدميه
الصغيرتين . وحين وضعته في الحوض جلس في منتصفه وابتسم ابتسامة
عريضة ثم بدأ يشتر الماء حوله ويزقو مثل خنوص صغير . كان ينطق
كلمات روسية يعرف جرجس بعضها وكان يطلقها بأعرب نبرة

طفولية - فكانت كل كلمة منها تعيد إلى ذهنه كلمة من كلمات ابنه الصغير الذي مات وتطاعنه كالسكين . جلس جرجس صامتاً بلا حراك ، يشد قبضة يديه بالحكام ، بينما راحت عاصفة تتجمع في صدره وفيضان يتنامى خلف عينيه . في النهاية لم يعد يستطيع التحمل فدفن وجهه بين يديه وانخرط في البكاء مثيراً بذلك دهشة وخوف مضيفه . وبين نخجته وحزنه ، نهض جرجس ثم اندفع خارجاً تحت المطر .

وهكذا سار على الطريق إلى أن وصل أخيراً إلى غابة سوداء أخفى نفسه فيها وبكى حتى كاد قلبه يتفطر ، آه ! ! أي عذاب كان ذاك ! ! أي يأس يحل بالمرء حين ينشق قبر الذاكرة وتخرج منه أشباح الحياة الماضية كي تجلده ! ! أي هول أن يرى ما كان عليه في يوم من الأيام وما لم يعد باستطاعته أن يكونه الآن - أن يرى أونا ، طفله ، نفسه الميتة تلك والكل يعد فراعبه له هاتفاً به من قلب هائلة لاقرار لها - أن يرى أنه فقد ذلك كله إلى الأبد هو الذي يتعذب ويختنق في حمأة فسادته ووضاعته .

- ٢٣ -

في مطلع الحريف انطلق جرجس إلى شيكاغو مرة ثانية . لقد فقد التشرّد في عينيه كل متعة ، فالحقش لا يؤمن الدفء للإنسان ، كما أنه ، شأن آلاف الناس الآخرين ، كان يمني نفسه بأنه ، بقسومه المبكر .

سيتفادى الازدحام . كان جرجس يحمل معه خمسة عشر دولاراً
خبأها في واحدة من فردتي حذائه ، وهو مبلغ وفره من أصحاب
الحانات ، ليس بدافع من وجدان بل بدافع الخوف الذي كان يملأ
جنباته من فكرة البقاء عاطلاً عن العمل في المدينة وقت الشتاء .

لقد رحل ليلاً في قطار من قطر السكة الحديدية برفقة عدد من
المشردين الآخرين . يختبئون بين حمولات عربات القطار ، معرضين
لأن يلقى بهم في أي وقت ومهما تكن سرعة القطار . حين وصل
المدينة ترك بقية صاحبه فهو يملك مالاً أما هم فلا يملكون شيئاً ، وكان
يستهدف أن يوفر على نفسه شجاراً أكيداً . لقد قرر جرجس أن يزج
في معركته المقبلة بكل جهد ومهارة أكسبته إياها الممارسة ، ليبقى
واقفاً على رجليه وليسقط من يسقط . ففي الليالي الحسنة يمكن النوم
في الحديقة أو على شاحنة أو في برميل أو صندوق فارغ ، وحين يهطل
المطر أو يبرد الطقس يمكن أن يحشر نفسه على رف في أحد تلك النزل
التي لا يزيد أجرها على عشرة سنتات أو يدفع ثلاثة سنتات مقابل حق
« الإقعاء » في أحد ممرات الصالات وبإمكانه أن يأكل وجبات غداء
— حرة ، قيمة واحدة خمسة سنتات ولا ينفق سنتاً آخر — بذلك قد
يوفر قوته لشهرين أو أكثر وفي غضون ذلك لابد أن يجد عملاً .
وبالطبع سيضطر لأن يودع نظافة صيفه إذ سيخرج من مييت أول ليلة
وقد امتلأت ثيابه بالهوام . وليس هناك مكان في المدينة يمكنه أن يغسل

فيه حتى وجهه ، ان لم ينزل إلى منطقة البحيرة التي ستكون عما قريب متجلدة كلها .

قبل كل شيء ذهب إلى معمل الفولاذ ومعامل آلات الحصاد فوجد أن مكانه شغل منذ زمن طويل ، وقد كان حريصاً على أن يظل بعيداً عن المسالخ . فهو رجل وحيد الآن ، حدث نفسه ، يهدف أن يبقى وحيداً أو أن يحتفظ بأجوره لنفسه حين يحصل على عمل . . وهكذا بدأ طوافه الطويل الممل بالمصانع والمستودعات ، متجولاً طوال النهار من أحد أطراف المدينة إلى طرفها الآخر ليجد في كل مكان يقصده عشرات الرجال قبله . كذلك راقب الصحف إنما لم يعد بالإمكان أن تنظلي عليه خيل أولئك الكلاء اللدقي اللسان ، فقد أخبروه بكل تلك الحيل حين « كان مشرداً على الطرقات » .

في النهاية استطاع من خلال إحدى الصحف الحصول على عمل لكن بعد شهر من البحث . لقد كانت دعوة لمائة عامل ورغم أنه ظنها إحدى التلقيات المعهودة فقد ذهب ، إذ كان المكان قريباً . وجد أمامه رتلا من الرجال بطول كتلة بنائية ، لكن في تلك اللحظة جاءت من الزقاق المقابل عربة قطعت الرتل وهي تعبر الطريق فرأى الفرصة سانحة وقفز حيث احتل مكاناً مناسباً . هددته الرجال بل حاولوا القاءه خارجاً إلا أنه لعن وشم وأحدث شيئاً من الاضطراب لي جذب انتباه أحد الشرطة ، الأمر الذي جعلهم يسلمون ببقائه لمعرفتهم أنه إذا ماتدخل رجال الشرطة فانهم « سيطردون » جميعاً .

بعد ساعة أو ساعتين دخل جرجس غرفة من غرف الإدارة لمواجهة رجل إيرلندي كبير كان يجلس خلف طاولته . « هل عملت في شيكاغو من قبل ؟ » سأله الرجل . وسواء كان أحد الملائكة قد الهمه الجواب أو أن ذلك بمحض الندية والفطنة ، فقد أجابه قائلاً : « كلا ياسيدي » .

« من أين جئت ؟ » .

« مدينة كنساس ياسيدي » .

« هل لديك أية علاقات أو صلات هنا ؟ » .

« كلا ياسيدي . أنا مجرد عامل غير ماهر ، إنما ذراعاي قويتان »

« انني أريد عمالاً لعمل شاق — كله تحت الأرض . حضر أنفاق للأسلاك الهاتفية — ربما لا يناسبك » .

« بل انني أرغب بالعمل ياسيدي — وأي عمل يناسبني ، فما الأجر ؟ » .

« خمسة عشر سنتاً في الساعة » .

« أرغب بذلك ياسيدي » .

« حسناً ، عد إلى هناك وأعطهم اسمك » .

وخلال نصف ساعة باشر جرجس العمل ، بعيداً تحت شوارع المدينة . النفق خاص بأسلاك الهوائف ، ارتفاعه حوالي عشرة أقدام وعرضه كارتفاعه تقريباً ، يتفرع فروعاً لاعد لها ولا حصر — شبكة

عنكبوتية كاملة تحت المدينة ، فقد مشى جرجس مع زمرة ماينوف على النصف ميل إلى المكان الذي يعملون فيه . لكن ، من الغريب أن النفق كان مناراً بالكهرباء وقد مدت فوقه سكة حديد مزدوجة الخطوط ذات قياس ضيق .

إلا أن جرجس لم يكن هنا كي يسأل أسئلة ، بل انه لم يول المسألة أي اهتمام . لكنه بعد مرور عام تقريباً أدرك معنى ذلك كله . كان مجلس المدينة قد أصدر قراراً هادئاً بريئاً يسمح لاحدى الشركات بتمديد أسلاك هاتفية تحت شوارع المدينة وبناء على ذلك باشرت مؤسسة كبيرة بحفر أنفاق شيكاغو كلها لتزود المدينة بشبكة خطوط نقل تحت الأرض . ففي المدينة تجمع لأرباب العمل رأسماله يساوي مئات ملايين الدولارات وقد تشكل بهدف سحق نقابات العمال وعلى الأخص منها نقابة سائقي الشاحنات ، فحين تكتمل أنفاق النقل هذه ، وتصل بين كافة المصانع والمخازن من جهة ومستودعات السكك الحديدية من جهة أخرى فانهم يحسبون تماماً بخناق سائقي الشاحنات هؤلاء . من حين إلى آخر كانت تسري شائعات وهمهمات تصل إلى مجلس البلدية ، وقد شكلت لجنة تحقيق في إحدى المرات - لكن أرباب العمل كانوا يدفعون في كل مرة مبلغاً صغيراً وتموت الشائعات في المهد . وأخيراً استيقظت المدينة لتجد أن العمل قد انتهى . بالطبع حدثت هنالك فضيحة فقد تبين أن سجلات المدينة زُورت وأن جرائم أخرى ارتكبت بل لقد أرسل

بعض كبار رأسماليي شيكاغو إلى السجن - مجازياً طبعاً ، غير أن مجلس البلدية أعلن أنه يجهل القضية برمتها علماً أن المدخل الرئيسي للعمل كان يبدأ من مؤخرة حانة يملكها أحدهم .

كان جرجس يعمل في أحد المقاطع التي فتحت مجدداً وهكذا علم أن عمله سيدوم طوال الشتاء . وقد فرح إلى درجة سمح لنفسه بأن يشرب ويقصف تلك الليلة ، وبعد أن وضع ميزانية لنقوده استأجر لنفسه مكاناً في غرفة ايجار كان ينام فيها على فراش قشي كبير من صنع محلي جتنباً إلى جنب مع أربعة عمال آخرين . كانت أجرة المنامة دولاراً واحداً في الأسبوع ، وثمان الطعام أربعة دولارات يدفعها في منزل قريب من مكان عمله ، فيبقى لديه أربعة دولارات اسبوعياً وهو مبلغ ضخم بالنسبة له . في البداية اضطر لأن يدفع ثمن أدوات حضره وكذلك أن يشتري حذاء سميكاً نظراً لأن حذاءه كان قد تمزق ارباً ، كما ابتاع لنفسه قميص فانيلا نظراً لأن القميص الوحيد الذي ارتداه طوال الصيف كان قد أصبح ممزقاً . أمضى جرجس اسبوعاً وهو يفكر : هل يشتري معطفاً أم لا فقد كان هناك معطف يعود لبائع أزرار يهودي مات في الغرفة المجاورة له ، وكانت صاحبة البيت قد احتجزته مقابل الأجرة لكن جرجس قرر في النهاية أن يغض النظر عنه طالما أنه سيكون تحت الأرض نهاراً وفي الفراش ليلاً .

غير أنه كان قراراً منحوساً ، إذ دفعه بسرعة أكبر إلى الخانات ،

كان جرجس منذئذ فصاعداً يعمل من الساعة صباحاً وحتى الخامسة والنصف مساءً ، مع استراحة نصف ساعة للغداء وكان معنى ذلك أنه لا يرى الشمس طوال أيام الأسبوع . وفي المساء لم يكن ثمة مكان يجد فيه الضوء والدفء ، يسمع شيئاً من الموسيقى ، يجد صحبة يتحدث معهم سوى المشرب ، فهو الآن بلا بيت يذهب إليه ، بلا رابطة تربطه بأحد سوى رفاق السوء . في أيام الآحاد كانت الكنائس تفتح - لكن أين هي الكنيسة التي يمكن لمعامل كرية الرائحة تزحف الهوام على رقبته أن يجلس فيها دون أن يرى الناس يحاذرونه وينظرون إليه شذراً ؟ بالطبع ، كان له ركنه في غرفة قريبة إنما غير مدفأة ذات نافذة تفتح على جدار مصمت يبعد قدمين ، كذلك كانت له الشوارع المقفرة وعواصف الشتاء تكتسها كئساً ، فضلاً عن ذلك كان له الحانات - وبالطبع ، كان يضطر لأن يشرب كي يسمحوا له بالبقاء فيها . فاذا شرب من حين إلى آخر كان يجد الحرية في أن يتمصرف وكأنه في منزله ، يقامر بالزهر أو الورق ، يلعب على طاولة أناس آخرين من أجل المال أو يحدق النظر بورق لعب زهري ملوث بالبيرة عليه صور لرجال قتله ونساء نصف عاريات . على متع كهذه كان جرجس ينفق نقوده ، وعلى هذا المنوال سارت حياته خلال الأسابيع الستة والنصف التي قضها وهو يكذب ويتعب لصالح تجار شيكاغو كي يتيح لهم إمكانية تحطيم القبضة التي تشدها على رقابهم نقابة سائقي الشحن .

في عمل يجري بهذه الطريقة ، لا أحد يهتم كثيراً بمصلحة العمال .

لذا كان حشر الانفاق يكلف ، بصورة متوسطة ، نفساً واحدة كل يوم وعدة تشوهات . لكن نادراً ما كان أكثر من عشرة أو عشرين عاملاً يسمعون بحادث من الحوادث . كان العمل يتم بواسطة آلات الثقب الحديدية مع أقل ما يمكن من عمليات النسف والتفجير ، إلا أنه كان يحدث - أحياناً - أن تسقط صخرة أو تتحطم دعامة أو ينفجر لغم قبل الأوان علاوة على أخطار مد السكك الحديدية وهذا ما حدث ذات ليلة ، حين كان جرجس يشق طريقه خارجاً مع زمرته ، إذ اندفعت عربة قطار محملة على واحد من تلك الفروع ذات الزوايا القائمة والتي لاعد لها ولا حصر ثم صدمته في كتفه ، قاذفة به إلى الجدار الاسمنتي طارحة إياه أرضاً وقد فقد الوعي .

حين فتح جرجس عينيه مرة ثانية كان ذلك على رنين جرس الاسعاف . نظر حوله فوجد أنه ممدد في السيارة مغطى ببطانية ، وكانت السيارة تشق طريقها ببطء عبر زحام الناس الذين يتبضعون للعطلة . أخذوه إلى مستشفى المقاطعة حيث ثبت له ذراعه أحد الشبان ثم نظفوه ووضعوه في أحد المهاجع حيث كان هناك ثلاثون أو أربعون رجلاً من الرجال المبتوري الأطراف والمشوهين .

قضى جرجس عيد الميلاد في المستشفى ، فكان أبهج عيد ميلاد قضاه في أمريكا . صحيح أنه في كل عام تجري فضائح وتحقيقات في هذه المؤسسة وأن اتهامات الصحف تنصب على أنه يسمح للأطباء هنا

باجراء تجارب غير انسانية على المرضى ، إلا أن جرجس لم يكن يعرف شيئاً عن هذه القضية - شكواه الوحيدة هي أنهم كانوا يطعمونه لحماً معلباً ، من النوع الذي لا يمكن لأي امرئ عمل يوماً في باكنجتاون أن يطعمه لكلبه . في الماضي كان جرجس كثيراً ما يتساءل من تراه يأكل اللحم المطبوخ المعب « ولحم البقر المصنّع » الذي يخرج من مسالخ باكنجتاون ، أما الآن فقد بدأ يفهم - فهذا ما يمكنك تسميته « لحم الإطعام » الذي يعد للبيع إلى المسؤولين الرسميين والمتعهدين ومن ثم يقدم طعاماً للجنود والبحارة ، المساجين ونزلاء المصحات ، سكان الأكواخ وورش عمال السكك الحديدية .

كان جرجس جاهزاً لمغادرة المستشفى بعد مرور اسبوعين . غير أن هذا لم يمن أن ذراعه باتت سليمة تماماً وأن بإمكانه العودة إلى العمل ، بل كان ذلك يعني ببساطة أنه بات بإمكانه المضي دون المزيد من الرعاية وأنهم بحاجة لمكانه من أجل واحد آخر بحاله أسوأ من حال جرجس بكثير . أما كونه عاجزاً كلياً ، وليس لديه وسيلة لكسب رزقه فأمر لا يعني ادارة المستشفى أو أي شخص آخر في المدينة من قريب أو بعيد .

ومن غريب المصادفات أن اصابته كانت قد حدثت يوم الاثنين وكان قد دفع أجرة الغرفة وثمان طعام الاسبوع السابق أي كان قد أنفق كل الأجر الذي استلمه يوم الأحد تمريضاً ولم يبق في جيبه سوى خمسة وسبعين سنتاً اضافة إلى دولار ونصف أجرة يوم اصابته .

كان من الممكن أن يرفع دعوى على الشركة وأن يحصل على بعض التعويضات مقابل ما لحق به من ضرر لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن هذه المسألة ؛ ولم يكن من مهام الشركة أن تخبره بذلك . ذهب إلى هناك فحصل على أجرته وأدواته ثم مضى فرهنها في أحد المحلات مقابل خمسين سنتاً بعدئذ ذهب إلى صاحبة بيته فوجد أنه لا شواغر لديها ؛ ثم مضى إلى صاحبة النزل الذي يتناول فيه طعامه فحادثته بعين متفحصة وبدأت التحقيق معه . وبما أنه كان سيبقى عاجزاً عن العمل شهرين من الزمن وأنه لم يأكل لديها سوى ستة أسابيع ، فقد قررت على الفور أن إبقائه لديها واطعامه بالدين مسألة لا تستحق المغامرة .

وهكذا . خرج جرجس إلى الشارع في أشد حالاته سوءاً . كان الشتاء قارس البرد وكان الثلج الغزير يتساقط صافعاً إياه على وجهه ، ولم يكن لديه معطف ولا مكان يقصده ، وليس في جيبه سوى دولارين وخمسة وستين سنتاً مع بقيته التام بأنه لن يستطيع كسب سنت آخر قبل شهرين . فالثلج يعني عدم وجود فرصة له الآن . إنه سيمشي ويرى الآخرين يجرفون ، أقوياء نشطين - أما هو وذراعه اليسرى مربوطة إلى كتفه فماذا سيفعل ؟ كذلك لم يكن يستطيع عقد الآمال على القيام بأعمال أخرى كتحميل العربات أو الشاحنات ولم يكن يستطيع حتى بيع الصحف أو حمل الحقائق اذ بات تحت رحمة أي منافس . ليس بوسع الكلمات أن تصف الرعب الذي اجتاح جرجس حين عرف

هذا كله فقد وجد نفسه اشبه بحيوان جريح في غابة عليه أن ينافس خصومه بشروط غير متكافئة . فهنا لن يكون له أي اعتبار بسبب ضعفه - لأحد هنا يرى أن من الواجب عليه أن يمد له يد المساعدة في نكبة كهذه ، أن يجعل الكفاح أخف وطأة عليه . بل حتى لو قرر التسول فإنه لن يكون في حال ترضي وذلك لأسباب سيكتشفها قريباً .

في البداية لم يستطع التفكير سوى بالتخلص من البرد الفظيع . فدخل إلى إحدى الحانات التي كان قد اعتاد ارتيادها واشترى كأس شراب ثم وقف بجانب الموقد وهو يرتعد بانتظار أن يسمع الأمر بطرده . فحسب قانون غير مكتوب كان شراء كأس يتضمن حق المكوث مدة معينة تقريباً ثم يترتب على المرء أن يشتري كأساً أخرى أو يخرج . أما كون جرجس زبوناً قديماً فإن ذلك خوله حق الوقوف مدة أطول ، لكنه كان قد غاب مدة اسبوعين وكان من الواضح أنه « على الحليدة » . ربما يتوسل ويحكي قصته « قصة الحظ السيء » إلا أن ذلك لن يفيد كثيراً فصاحب الحانة الذي تحرك عواطفه أساليب كهذه ، سرعان ما يجد مكانه في يوم كهذا مع أفاقين كجرجس عند أبواب الحانات .

وهكذا ، خرج جرجس إلى مكان آخر ، ودفع « نيكلا » آخر لكنه كان جائعاً هذه المرة - جائعاً إلى حد لم يستطع معه مقاومة رائحة اللحم الساخن . الأمر الذي قصر كثيراً من فترة مكوثه في الحانة .

وحين أمروه بالخروج ثانية ، شق طريقه إلى مكان مستور في منطقة « الليفي » حيث كان يذهب من حين إلى آخر مع عامل بوهيمي من أصحابه عيناه كعيني الجرد ليبحثا عن امرأة . غير أن أمل جرجس بأن يبقيه المالك هناك « كجليس » ذهب هباء . في محلات الدرجة الواطئة وفي عز الشتاء ، غالباً ما يسمح أصحاب الحانات لواحد أو اثنين من المشردين البائسين الذين يدخلون حاناتهم وقد غطاهم الثلج أو بللهم المطر بالجلوس بجانب النار كي يبدوا بؤساء ويجلبوا الزبائن . فقد يأتي عامل وكله شعور بالبهجة بعد انتهاء يوم من من العمل الشاق فيزعجه أن يشرب كأساً بوجود منظر كهذا .

وهكذا يصيح : « هاي ، بوب ، ماقضيتك ؟ تبدو وكأنك قد تلاشيت » . وحينذاك يبدأ الرجل الآخر بسرد رواية من روايات البؤس فيقول الأول : تعال فخذ كأساً ، لعلها تنعشك قليلاً . وهكذا يشربان معاً وإذا كان المشرّد ذا مظهر بائس كثيراً أو زارعاً في تزليق الآخرين فانهما قد يأخذان كأسين ، وإذا ما اكتشف العامل أنهما من البلاد نفسها أو أنهما عاشا في المدينة عينها أو عملا العمل ذاته فانهما قد يجلسان إلى طاولة يقضيان ساعة أو ساعتين يتحدثان وقبل أن ينتهيا يكون صاحب الحانة قد « لطش » دولاراً . ورغم أن هذا كله قد يبدو من أعمال الشيطان إلا أن أحداً لا يلوم صاحب الحانة فهو يعاني المصائب نفسه الذي

يجعل صاحب المصنع مضطراً لغش نتاجه . إنه إن لم يفعل ذلك سيفعله شخص آخر . ومن المحتمل أن يكون صاحب الحانة ، إن لم يكن أحد أعضاء مجلس البلدية . مديناً لكبار أصحاب البيرة وهو نفسه على حافة الافلاس .

كان سوق « المجلساء » متخماً في ذلك العصر ، ولم يكن هناك شاغر بلرجس . فاضطر بالنتيجة لأن ينفق ستة نكلات كي يوفر لنفسه مأوى في ذلك اليوم الرهيب . بعد ذاك حل الظلام وبيوت المخافر لا تفتح أبوابها حتى منتصف الليل . لكنه تذكر في آخر المطاف أن هناك ساقياً في مشرب يعرفه ويحبه وهكذا ذهب إلى الساقى الذي تركه يغفو على إحدى الطاولات إلى أن عاد صاحب المشرب . كذلك أعطاه بقشيشاً حين خرج فوجد أنه سيقام في المبنى المجاور احتفال ديني من نوع ما ، تلقى فيه مواعظ وغناء ويقصده مئات الأفاقين الباحثين عن المأوى والدفع .

مضى جرجس إليه مباشرة فشهد لوحة معلقة تقول أن الباب سيفتح في الساعة والنصف فمشى ، أو ركض ركضاً تقريباً حتى وصل المبنى المجاور حيث اختبأ حيناً من الزمن ثم عاد وجرى مرة ثانية وهكذا إلى أن انقضت الساعة . في النهاية وحين أوشك على التجمد بدأ الناس يتوافدون فشق طريقه بصعوبة بالغة مع بقية الحشد (مغامراً بأن تكسر ذراعه مرة ثانية) إلى أن وصل مكاناً قريباً من الموقد الكبير .

لم تكن الساعة الثامنة حتى كان المكان مكتظاً إلى درجة ترضي غرور الخطباء : فالممرات ممتلئة والرجال متراصون عند الأبواب إلى حد يكفي لأن تمشي عليهم . وعلى المنصة كان ثمة ثلاثة رجال متقدمين في السن يلبسون بذلات سوداء ، وفي المقدمة سيدة تعزف على البيانو . في البداية أنشئوا نشيداً دينياً ثم بدأ أحد الثلاثة وهو رجل طويل بالغ النحافة حليق الذقن يلبس نظارتين سوداوين ، بالقاء خطاب ، سمع جرجس نتفاً منه إذ أبقاه الخوف مستيقظاً . فهو يعلم أنه حين ينام يشخر شخيراً عالياً ، وأن يشخر في القاعة يعني اخراجه إلى الخارج ، أي الحكم عليه بالموت .

كان الكاهن يعظ عن « الأثم والخلاص » ، عن رعاية الإله التي لا حدود لها وعفوه عن خطايا البشر . كان يخطب بكثير من الجذ والرصانة . وكان يعني أشياء حسنة تماماً إلا أن جرجس وجد ، وهو يستمع ، ان نفسه مفعمة حقداً وكراهية . ما تراه يعلم عن الأثم والمعاناة بسترته السوداء الناعمة الملمس وياقته المنشاة الأنيقة وجسمه الدافئ ، وبطنه المليء وجيئه المتختم بالنقود ؟ كيف يحاضر بأناس يكافحون كي يسدوا رمقهم . أناس في قبضة الموت تهددهم أبدأ قوى الجوع والبرد الشيطانية ؟ هذا طبعاً غير معقول . لقد شعر جرجس وكأنه لاعلاقة لهذا الخطيب بما يتحدث عنه . إنه الشخص غير المناسب لحل

مشكلته - إنه جزء من نظام قائم على سحق الناس وطحنهم . جزء من المالكين المظفرين المترفعين . من لدى كل منهم صالة كبيرة ونار دافئة وطعام ولباس ومال . لذا يمكنهم وعظ الناس الجائعين وعلى الجائعين أن يسمعوا ويطيعوا ! ! انهم يحاولون انتقاذ أرواحهم - ومن سوى الأحمق ياترى يعجز عن أن يرى أن السبب في كل ما تعاني منه أرواحهم انما هو عجزهم عن تأمين عيشة كريمة لأجسادهم ؟

في الحادية عشرة انتهى الاجتماع . وبدأ الحضور البائسون الخروج فرادى فرادى إلى الثلج . وهم يصبون اللعنات على أولئك الخونة الذين كانوا على المنصة . مع ذلك كان ما يزال هناك ساعة كاملة قبل أن يفتح بيت المخفر أبوابه وجر جس لايرتدي معطفاً كما أوهن جسمه طول المرض . في غضون تلك الساعة كاد الرجل يهلك تماماً . فقد كان مضطراً لأن يجري باستمرار كي يبقى دمه في حالة حركة دائمة . بعد ذاك ذهب إلى المخفر فوجد حشداً يسد الشارع المواجه للباب . . كان هذا في كانون الثاني عام ١٩٠٤ . حين كانت البلاد على شفا « الأيام الصعبة » وكانت الصحف تسجل إغلاقات للمعامل كل يوم وقد قلرت بعض الجهات أن مليوناً ونصفاً من العمال سيصبحون بدون أعمال قبل مجيء الربيع . وهكذا كانت كل أماكن اللجوء في المدينة مزدحمة . فأمام باب المخفر ذاك كان الناس يتعاركون ويمزقون بعضهم بعضاً

كوحوش برية وحين امتلأ المكان وأغلقت الأبواب . كان نصف الجمع ما يزال في الخارج . وبينهم طبعاً . جرجس بنزاعه العاطاة . حينذاك لم يعد أمامه من خيار سوى الذهاب إلى نزل يأوي فيه ليلته وينفق عشرة سنتات أخرى . ولقد تفتقر قلبه وهو يفعل ذلك . فقد كانت الساعة الثانية عشرة والنصف وكان قد أمضى الليل كله تقريباً في الاجتماع وفي الشارع . ولسوف يخرجونه من المأوى حين تبلغ الساعة السابعة صباحاً ، لقد صممت الرفوف التي يستخدمونها كأسرة هناك بحيث يمكن إسقاطها بسهولة على الأرض وبالتالي يمكن أن يلقى من فوقها أي امرئ يتباطأ في تنفيذ الأوامر .

ذلك كان يوماً من الأيام ، أما فترة القرس فقد دامت أربعة عشر يوماً . في نهاية الأيام الستة منها كان جرجس قد أنفق كل سنت من نقوده ، بعد ذاك خرج إلى الشوارع يتسول ما يحفظ روحه في جسده .

كان يبدأ بالتسول حالما يبدأ الناس بالحركة فينطلق من الحانة التي هي قاعدته ثم يسير متمهلاً بعد أن يتأكد من غياب الشرطة ويدنو من كل شخص حسن المظهر يعبر به ، حاكياً له قصته المحزنة متضرعاً كي يعطيه نيكلاً أوديماً (١) . وحين يحصل على شيء منه ينطلق مسرعاً ليدور حول الزاوية ويعود إلى قاعدته يتدفأ ، لكن حين يراه ضحيته يفعل هذا ، يتعد مقسماً اغلظ «الايمان» انه لن يعطي سنتاً واحداً لشحاذ بعد

(١) الديم : عشرة سنتات - النيكل خمسة سنتات .

الآن ، غير ان مثل هذا الضحية لا يتوقف ابداً كي يسأل اين يمكن لجرجس ان يذهب في المرة التالية -- وأين سيذهب ، هو الضحية . في الحانة لم يكن جرجس يستطيع الحصول على طعام وشراب افضل مما يستطيع شراؤه في أي مطعم آخر ولقاء المبلغ ذاته وحسب ، بل كان باستطاعته ايجاد مكان مريح بجانب الموقد والثروة مع أحد الاصحاب إلى أن يغلو ساخناً كالحبز المحمص على النار . وفي الحانة كان يشعر أيضاً وكأنه في منزله ، اذ كان جزء من عمل صاحب الحانة ان يقدم المأوى والمرطبات للشحاذين مقابل ما يحصلون عليه في غاراتهم . وهل هناك في المدينة كلها من يفعل هذا سواه -- هل يقوم الضحية نفسه بهذا العمل ؟

ربما كان من المنتظر ان يبرهن جرجس انه شحاذ ناجح . فقد كان خارجاً لتوه من المستشفى وكان يبلو مريضاً بائساً بذراع عاطلة تماماً ، كذلك كان بغير معطف يرتعد من شدة البرد . لكن وأسفاه ! كانت حالته كحلقة التاجر الشريف الذي يكشف ان العملة الفاسدة والبضاعة الفاسدة تطرد العملة الجيدة والبضاعة الجيدة . فجرجس ، كشحاذ . كان مجرد « هاوي سلب » بالمقارنة مع اولئك المحترفين المنظمين المنهجين . كان خارجاً لتوه من المستشفى لكن القصة باتت بالية عتيقة ، وكيف يمكنه اثبات صحتها ؟ صحيح ان يده معلقة إلى كتفه -- لكن أليست هذه حيلة يزدريها أي صبي شحاذ نظامي ؟ وكان شاحب الوجه يرتعد برداً -- لكن أليست هناك مواد تجميل تعطي مثل

هذا اللون ؟ ألا يدرس الشحاذون كيفية جعل اسنانهم تصطلك ؟ واذا كان بغير معطف ، ترى الا تواجه بينهم المئات الذين تقسم انه لا يستر اجسامهم إلا خرق قطنية بالية رغم أن لكثير من هؤلاء الشحاذين المحترفين بيوتاً مربحة وعائلات وحسابات مصرفية ربما تبلغ آلاف الدولارات؟ ان بعضهم يتقاعد مكتفياً بما كسب ثم ينصرف إلى استخدام الآخرين أو تشغيل الأولاد في هذه المهنة . كذلك هناك من يربط يديه كلتيهما إلى جانبيه ويحشو رذنيه بحشيات مناسبة ثم يستأجر ولدأ مريضاً كي يحمل طاساً له . وهناك من ليس له سيقان فيدفع نفسه على لوح ذي عجلات ، والبعض يفضل التسول مع العمى حيث يقوده كلب صغير جميل والبعض ممن هم أقل حظاً يبترون أو يحرقون أنفسهم أو يحدثون في أجسادهم قروحاً حادة بصب مواد كيماوية عليها . وقد تواجه فجأة رجلاً في الشارع يمد لك اصبعاً اهترأت أو ازرققت بسبب الغانغرينا - أو شخصاً برزت جروحه المتقرحة من ضماداتها الوسخة . هؤلاء الأشخاص البائسون هم حثالة المدينة وحطامها . إنهم يختبئون ليلاً في أقبية بيوت متداعية تسربت إليها مياه الامطار ، تجدهم في « أو كار البيرة الآسنة » وحلقات الإفيون ، حيث يلتفون بالنساء المهجورات اللواتي يلصن الدرك الاسفل من سلم الدعارة - . نساء كن محظيات لدى رجال صينيين ثم سلمهن هؤلاء أخيراً لبرائن الموت . في كل ليلة ، كانت دوريات الشرطة تسحب المئات من هذه الحثالة من الشوارع . وبإمكانك ان ترى الكثير منهم في المستشفى الاحتجازي يزحم بعضهم بعضاً في

جحيم مصغر بوجوههم البشعة الكريهة وقد شوهها الجزام أو ورمتها
الأمراض الأخرى . تراهم وهم يصرخون ويصيحون ويضحكون
في كل مرحلة من مراحل السكر ، ينبحون كالكلاب ويهذرون كالقردة ،
يمزقون ويهاجمون بعضهم بعضاً وكأنما أصابهم ضرب من الهذيان .

- ٢٤ -

رغم كل العقبات ، كان جرجس مضطراً لان يؤمن ثمن المأوى
وكأس الشراب التي ينبغي أن يتناولها كل ساعة أو ساعتين أو تجمد
برداً حتى الموت . يوماً بعد يوم كان يتجول في البرد القطبي تمتلئ
روحه مرارة ويأساً . لقد رأى عالم التمدن حينذاك ببساطة أشد مما كان
قد رآها من قبل ، فرأى هالماً لا يحسب فيه أي حساب إلا للقوة الوحشية ،
نظامه ، دستوره ، قوانينه هي ما يضعه أولئك الذين يملكون كل شيء
لإخضاع من لا يملكون شيئاً ، وقد كان واحداً من هؤلاء . وهكذا غدا كل
ما في الدنيا ، كل الحياة سجنًا كبيراً يزرعه جيئة وذهاباً مثل نمر سجين .
يجرب قضيباً بعد قضيب ليجهدها كلها تتجاوز مالهديه من قوة . لقد
خسر معركته ، معركة الجشع الضارية ، وبذلك حكم عليه بالموت ،
وكان المجتمع كله منهمكاً بإحكام الطوق حوله كيلا يفر من حكم
الإعدام . فحيثما يلتفت يجد قضبان سجن ، أعياناً معادية تلاحقه ، رجال
شرطة أنيقين ، حسني التغذية يرتعد من نظراتهم حين يرشقونه بها .
ويشدون قبضة أيديهم على عصيهم حين يرونه ؛ أصحاب حانات لا يكتفون

عن مراقبته حين يكون في حاناتهم ويحسدون عليه كل لحظة يمكث فيها لديهم بعد ان يدفع نفوقه : جموعاً متعجلة دائماً في الشوارع تصم آذانها عن نداءاته وتوسلاته ناسين حتى وجوده — كل هؤلاء كانوا جزءاً من حقيقة تواجده ، حيثما التفت واينما اتجه . فكل شيء قائم بحيث يعبر له عن هذه الحقيقة ، المساكن بجلرانها السميكة وابوابها المرتجة ، نوافذ القبوالمشبكة بقضبان الحديد ، المسنودعات الكبيرة المملأى بمنتجات العالم كله والمحروسة بمصاريع وابواب حديدية ثقيلة ، المصارف بما فيها من أموال هائلة وقد خبئت كلها في صناديق وأقنية من فولاذ .

لكن ذات ليلة ، عاش جرجس مغامرة العمر . كان الوقت متأخراً ليلاً وكان قد فشل في تأمين ثمن المأوى ، كان الثلج يتساقط عليه منذ زمن طويل حتى غطاه تماماً وكان البرد يخال حتى عظامه . كان يعمل بين حشود المسرح ، متنقلاً هنا وهناك معرضاً نفسه لآعين الشرطة . لقد وصل به اليأس درجة بات يأمل معها ان تقبض عليه الشرطة . لكنه حين رأى معظماً أزرق يتجه صوبه خذلاته شجاعته فاندفع منحدراً في شارع جانبي فاراً بعيداً . وحين توقف رأى رجلاً يتجه نحوه فاعترض طريقه .

« من فضلك ياسيدي » بدأ بصيغته المعهودة . « هل تعطيني ثمن المأوى ؟ لقد كسرت ذراعي ، ولا استطع العمل وليس في جيبي بنس واحد — انني عامل شريف ياسيدي ، لم أشحد من قبل ابداً وهي ليست خطيئتي ياسيدي — »

كان جرجس يستمر عادة إلى ان يقاطعه واحد منهم ، غير ان هذا الرجل لم يقاطعه وهكذا وصل أخيراً إلى حد انقطعت فيه انفاسه ، توقف الآخر فلاحظ جرجس فجأة أن وقفته لم تكن ثابتة تماماً « ماذا قلت ؟ » سأل الرجل فجأة بصوت أجش .

أعاد جرجس الكلام مرة أخرى ببطء اشد ووضوح أكثر وقبل ان يصل إلى نصف بيانه المعهود أخرج الآخر يده ووضعها على كتفه قائلاً :

« مسكين انت ايها الشاب . . استهلكوك اذن . . استهلكوك اذن . . »

بعدئذ اقترب أكثر وأكثر من جرجس لتصبح اليد التي كانت على كتفه ذراعاً تطوق عنقه قائلاً « انها لعبة قديمة ، أنهتني انا نفسي . . انه عالم قاس لا يرحم » كانا قرييين من عمود مصباح فنظر جرجس نظرة خاطفة إلى الرجل الآخر : كان شاباً - ربما لايتجاوز الثامنة عشرة من عمره له وجه صبياني جميل ، يلبس قبعة حريرية ومغطاً طرياً فخماً له ياقة من فراء وكان يتسم بوجه جرجس ابتسامة التعاطف والطيبة « انا في حالة صعبة أيضاً يا صديقي العزيز . والداي صعبان والا لدبرتك . ماهي مشكلتك ؟ » « كنت في المستشفى »

« مستشفي ! » هتف الشاب وهو مايزال يتسم بعنوبة « هذا في

غاية السوء . . انظر . . عمّي بولي في المستشفى أيضاً . لقد وضعت توأماً .
فما مشكلتك أنت . ؟ « كسرت ذراعي » بدأ جرجس .

« هكذا ! قاطعه متعاطفاً » الامر بسيط اذن ، ستشفى قريباً . بودي
لويكسر أحد ذراعي ، اذن سيعاملونني على نحو أفضل . . . هيه . .
أيها الكهل . . . مسم تشكو الآن ؟ »

فقال جرجس « أنا جائع ياسيدي »

« جائع ؟ ولماذا لم تتناول عشاءك ؟ »

« ليس لدي مال ياسيدي »

« ليس لديك مال ! ! ه . . . و . . . و - تماماً مثلي . . . اذاليس
لدي مال أيضاً . »

نحن سواء اذن . . . لكن لماذا لاتذهب إلى البيت مثلي ؟ »

فقال جرجس : « ليس لدي بيت . »

« لايت ، غريب في المدينة . . ياالله ! ! هذا أمر سيء . . ستأتي
إلى بيتي اذن ، وتتناول عشاءك ! ! الوحدة قاسية ! ! « الحاكم » مسافر
إلى الخارج ، بابا في شهر عسل ، بولي انجبت توأماً ، الكل ذهبوا . .
الكل بعيدون - اوف . . شيء . . يدفع المرء للشراب وحده « هام »
المعجوز ممي . لكن يا للعة . . هو لا يدعني ارتاح . . يلاحقني في كل مرة

لا يدعني أنام هناك . : إنها أوامر الحاكم . ياللعنة ! ! البيت في كل ليلة ياسيدي ! ! أتراك سمعت بشيء كهذا ؟ « كل صباح ؟ » سألته ذات مرة . . لكنه قال كلا ياسيد ! ! كل ليلة . . أو لانفقات على الإطلاق . . تلك هي أوامر الحاكم الصلب كالمسمار ، ياللعنة ! ! انه يراقبني ! ! هام المعجوز هذا والخدم يتعجسون علي أيضاً ، فما رأيك يا صديقي ؟ شخص هادئ لطيف طيب القلب مثلي . والده يذهب إلى أوروبا ولا يدعه يعيش بسلام - هوب . ؟ أليس هذا مخجلاً ياسيد ؟ وهكذا ، أعود كل مساء . أفقد كل مافي نفسي من مرح . ياللعنة ! ! هذه هي المسألة الآن . ، وذلك هو السبب في انني هنا . . أذهب بعيداً وأترك كيتي . . هك . ، إنها تبكي أيضاً - مارأيك بذلك أيها الكهل ؟ « دعيني اذهب يا كيتتر » أقول لها « سأتي باكراً . سأذهب حيث الواجب يدعوني - وداعاً - وداعاً يا حيي الحقيقي - وداعاً ، وداعاً . . يا حيي الحقيقي . » والجملة الأخيرة شطر من اغنية ارتفع بها صوت السيد الشاب ، حزيناً معولاً ، بينما تعلق بعنق جرجس الذي بدأ ينظر حوله بعصية بالغة خشية ان يقترب أحد ، فقد كانا مابز الان وحيدين على أي حال .

« لكنني بخير » تابع الشاب بشيء من العدوانية « يمكنني ان اشق طريقتي . . حين اشاء - فريدي جونز رجل يصعب التعامل معه حين يهيم بشيء » لا ياسيد « أقول له . . بحق السماء انا لست بحاجة لأحد كي يذهب معي - ثم . . لماذا تأخذني ؟ نظن انني سكران أليس كذلك ؟ أنا أعرفك . . لكنني لست أكثر سكرأ منك يا كيتتر . . » أقول لها . .

فتقول لي « ذلك صحيح يا فريدي العزيز (أنها فتاة لطيفة ، كيئي هذه)
لكنني باقية في البيت وأنت خارج إلى البرد ، إلى الليل القارس » .
« لا تبالي يا كيئي الحبيبة » أقول لها « لا تمزح ، فريدي ، يا صديقي »
تقول هي « دعني اطلب لك عربة مثل الناس المحترمين » « يمكنني
ان اطلب عربتي الخاصة ، لاتكوني حمقاء ، انا أعرف ما أفعل ، أتراهن ؟
قل يا صديقي ، مارأيك - هل تأتي إلى المنزل معي وتتناول عشاء ؟
هلم مثل فتى طيب . لاتكن احمق ، انت تالف ، مثلي . يمكنك ان تفهم
ما فهمه . قلبك في مكانه الصحيح ، وحق الله ، هلم ايها الكهل ولسوف
ننير البيت وتتناول بعض الشراب ونعربد ، اجل - يمكننا ان نفعل
ما نشاء ... طالما أني داخلة البيت فإن بامكاني ان اصنع ما اشاء . هي ذي
أوامر الحاكم » . . وحق الله . . هيب . . هيب . . »

وانحلقرا إلى الشارع يتأبط واحدتهما ذراع الآخر ، بينما الشاب
يدفع جرجس دفعا شبه غاثم البصر . كان جرجس يحاول التفكير بما
يفعل - وهو يعلم انه لا يستطيع عبور أي مكان مزدحم مع هذا الصاحب
الحديد دون ان يلفت الانتباه ويتعرض لمن يوقفه . فالثلج المتساقط هو
وحده الذي جعل الناس يعبرون دون ان يلاحظوا شيئا .

لذا توقف جرجس فجأة متسائلا « هل المكان بعيد ؟ »

فرد الآخر « ليس كثيرا - هل انت متعب ؟ حسنا - سنركب ؟
مارأيك ؟ موافق ؟ ادع عربة اذن . . »

ثم بدأ الشاب يمسك جرجس بيده ويبحث باليد الأخرى في جيوبه
«أنت تدعو العربى وأنا ادفع ، اقترح الشاب « مارأيك . . آ ؟ »
وأخرج من مكان ما حزمة اوراق مالية أكبر ١٤ كان جرجس قد
رأى في حياته كلها فراح يحملق فيها بعينين جاحظتين .

« تلبو كثيرة ، أليس كذلك ؟ » قال السيد فريدي وهو يبحث بها
« لكنك احمق أيها الكهل . . . انما حزمة صغيرة فقط . انني انفق في
اسبوع واحد أكثر منها بكثير . . . بشرفي ! . . هذه هي أوامر
« الحاكم » . . . آخذها في بداية الاسبوع ولا ابقى سنتاً واحداً منها . . .
وحق الله ! ! ولا سنتاً ! ! لقد ارسلت « هاري » برقية هذا العصر وهذا
سبب آخر من الاسباب التي تدعوني للذهاب إلى المنزل . . أكاد أموت جوعاً
قلت في البرقية ، حفاظاً على شرف العائلة أرسل لي بعض الخبز - الجوع
سيجبرني على اللحاق بك - فريدي هذا ما كتبت له وانا اعني ما اقول .
قسماً سأهرب من المدرسة ان لم يرسل لي مالا »

هكذا اسقى السيد الشاب يهزر - وفي غضون ذلك كان جرجس
يرتجش اضطراباً . كان بإمكانه ان يمسك بحزمة الاوراق تلك ويغيب
في عتمة الشارع قبل ان يستجمع الآخر أفكاره . فهل يفعلها ؟ ما الآمال
الأفضل التي يرجوها إن انتظر مدة أطول ؟ الا ان جرجس لم يرتكب
جريمة في حياته ، والآن هاهوذا يتردد نصف ثانية أخرى . سحب
« فريدي » ورقة من الحزمة ثم اعاد البقية إلى جيب بنطاله قائلاً :

« هالك ايها الكهل ! ! نخذها ! ! » وأمسك بها ملوحاً بيده .
كانا قد وصلنا قبالة حانة وعلى ضوء النافذة رأى جرجس أنها من فئة
المائة دولار .

« نخذها . . » كرر الآخر « ادفع للعربة واحتفظ بالباقي . . . أنا
لأفهم اموراً كهذه ، « الحاكم » نفسه يقول ذلك ، « الحاكم »
يعرف . . . « الحاكم » يفهم امور العمل . تراهن ؟ . » حسناً ايها الحاكم
قلت له « انت تدبر العرض وانا آخذ البطاقات . . وهكذا وضع العملة
بولي لمراقبي . والآن بولي في المستشفى وقد انجبت توأماً وأنا في الخارج مثل
قاييل . . . » ي هالو ناده يا هذا ! ! »

وكانت عربة تمر بهما فوثب جرجس هاتفاً بالخوذي إلى أن وقف
بجوار الرضيع ، صعد فريدي إلى العربة بشيء من المشقة ثم هم جرجس
باللحاق به فصاح السائق ! ! هيه . . انت . . اخرج . . ابتعد »

فتردد جرجس نصف طائع إلا ان صاحبه صرخ « ماذا . . ؟ ماذا ؟ . . »
هلم « اطاع سائق العربة الأمر وصعد جرجس إلى العربة . بعدئذ اعطاه
فريدي رقماً في منطقة البحيرة فانطلقت العربة بسرعة . استند الشاب
إلى الوراء وهو يلحتم بجرجس مهمهماً برضى ذاتي كامل ، وخلال
نصف دقيقة كان قد غرق في سبات عميق . جلس جرجس يرتعد
قد سيطرت على رأسه فكرة واحدة ، هل يستطيع الوصول إلى خزنة
لاوراق المالية . كان يخشى ان يمد يده إلى جيوب صاحبه على أي حال ،

عدا عن ذلك فقد كان سائق العربى يراقبه . كانت المائة دولار قد اصبحت
مضمونة فى جيبه وكان عليه ان يقنع بها .

بعد حوالى نصف ساعة توقفت العربى . نظر جرجس حوله فرأى
أنهم وصلوا شاطئ البحر ، ومن الشرق كانت عاصفة شديدة القوس تجلج
البحر المتجمدة بسياطها « هاقد وصلنا » صاح السائق فأيقظ جرجس صاحبه .
استيقظ السيد فريدى مجفلاً « ثم قال »

« هالو . . اوه . . اين نحن ؟ ماذا ؟ من انت ؟ اوه . . اجل تذكرت . .
ايها الكهل . . هل وصلنا البيت ؟ . . دعني ارى بر ر . . .
الطقس بارد أجل تعال معي . . نحن فى البيت . . لقد
وصلنا . . »

كانت تنتصب امامهم كتلة غرائبية ضخمة شيدت بعيداً عن الشارع
وتشغل حيز مبنى ضخم بمفردها . على ضوء مصابيح الممر استطاع
جرجس ان يرى ان لها ابراجاً وجملونات ضخمة على غرار القصور فى
العصور الوسطى ، ففكر ان صاحبه اخطأ المكان ولا بد — إذ لم يستطيع
ان يفهم ابداً كيف يمكن لأي شخص ان يملك بيتاً يشبه الفندق أو الصالة
فى المدينة . لكنه تبعه صامتاً ، ثم صعدا الدرج الطويل وقد تأبط واحدهما
ذراع الآخر .

« ها هنا ، ايها الكهل » قال السيد فريدى . . أمسك بذراعى ريشما
اجله ، ثبتني . . الآن . . آه . . ها هوذا . . لقد وصلت إليه .

رن الجرس ، وخلال بضع ثوان فتح الباب رجل يرتدي بزة
زرقاء ويحملك امامه صامتاً كتمثال حجري .

وللمحظة من الزمن وقفنا يطرفان بأعينهما بسبب الضوء . بعدئذ شعر
جرجس بصاحبه يسحبه فخطا إلى الداخل ثم اغلق الرجل — التمثال
الباب وراءه . كان قلب جرجس يخفق بشدة . انه يفعل شيئاً خارقاً
للعادة . . . وليس لديه اية فكرة عما يوجد داخل ذلك المكان السماوي
الغريب . بل لعل علاء الدين لم يكن أكثر اضطراباً منه وهو يدخل المغارة .

كان المكان الذي يقف فيه قليل الاضاءة انما كان باستطاعته ان
يرى قاعة واسعة ذات اعمدة عالية وسلم كبير في طرفها البعيد . الارض
من الرخام اللامع المصقول كالبلور ومن الجدران ، كانت تبرز أشكال
غريبة زاهية الالوان متناسقة الظلال ، وتتدلى منها لوحات رائعة تتألق
في شبه العتمة ارجوانية ، حمراء ، ذهبية كألقى الغروب في غابة كثيرة
الظلال .

تحرك الرجل ذو البزة الرسمية صوبهما دون ان ينبس ببنت شفة ،
فخلع السيد فريدي قبعته واعطاها له ثم حاول ، بعد ان ترك ذراع جرجس ،
ان يتخلع معطفه وهو الهدف الذي لم يحققه الا بعد محاولتين أو ثلاث وبمساعدة
التابع . في غضون ذلك جاء رجل ثانٍ ، شخص مهيب رزين اشبه بالجلاد .
توجه مباشرة نحو جرجس الذي انكمش فزعاً محاولاً الابتعاد فأمسكه

من ذراعته دون ان ينبس بكلمة وبدأ السير باتجاه الباب . وفجأة جاء السيد فريدي « هاملتون ! صديقي سيبقى معي . »

فتوقف هاملتون وقد ترك جرجس تقريباً « هلم ايها الكهل . . » قال الآخر فسار جرجس نحوه .

« سيد فريديك . . » هتف الرجل

« انظر إذا كان سائق العربّة قد اتخذ اجرائه » كان جواب الآخر ثم شبك ذراعته بذراع جرجس الذي كان على وشك القول « للذي التقود التي ينبغي دفعها له ، لكنه كبح نفسه في آخر لحظة . أعطى الرجل الضخم البضة ذو البذلة الرسمية إشارة للرجل الآخر فخرج هذا إلى العربّة بينما لحق هو بجرجس وسيد الصغير .

عبر الرجال الثلاثة القاعة الكبيرة ثم انعطفوا فواجهتهم بابان كبيران.

« هاملتون . . » قال السيد فريدي

« نعم ياسيدي » . . « ردّ الآخر .

« ماشأن باب غرفة الطعام ؟ »

« لا شأن له ياسيدي . . »

« اذن ، لم هو مغلق ؟ »

ففتح الرجل باباً ، ظهر وراءه مجاز آخر غارق في العتمة « النور »
امر السيد فريدي ، فضغط الحاجب زراً ، توهج بعده نور ساطع
من على كاد يزيغ له بصر جرجس ، كان يحملق وشيئاً فشيئاً رأى
امامه الشقة الكبيرة ذات السقف الدائري الأشبه بالقبة حيث كان
يتدفق الضوء ، والحدران الاشبه بلوحة واحدة ضخمة — حوريات
وجنيات غابات يرقصن في فرجة غابة مكسوة بالازهار — ديانا مع
كلاب صيدها وخيوطها وهي تندفع إلى الامام عبر جدول جبلي — مجموعة
من العذارى يستحمسن في بركة وسط غابة . هذه اللوحات بالحجم
الطبيعي وكلها تبدو حقيقية إلى درجة كاد جرجس يظن أنها من اعمال
السحر وانه في قصر من قصور الاحلام . بعدئذ مسح بعينه الطاولة
الطويلة الرابضة في وسط الصالة ، طاولة سوداء كالابنوس تتألق بنحوظ
الفضة والذهب . في وسطها زبدية كبيرة منحوتة نحتاً تتألق عليها أوراق
وغصون السرخس والاشجار الحمراء والارجوانية النادرة بفعل ضوء
مخفي في مكان ما في منتصفها .

« هذه هي غرفة الطعام » ، ابدى السيد فريدي ملاحظته . « هل
تعجبك ايها الصديق الكهل ، »

وكان يبتغي جواباً على ملاحظته وهو يتكلم على جرجس ويبتسم
له . لقد اعجبت الغرفة جرجس ! ! !

« مع ذلك فهي اكبر من ان يأكل فيها شخص واحد » كان تعليق فريدي . . «غرفة كالجحيم ، مارأيك » بعدئذ خطرت له خاطرة مفاجئة فتابع دون ان ينتظر .

« ربما لم تر في حياتك شيئاً كهذا ؟ هيه . . اليس كذلك ايها الكهل »

« ابدأ ، » قال جرجس

« آت من الريف . . . ربما ؟ »

« اجل . . » قال جرجس

« آه . . أرى ذلك . . فالناس الذين يأتون من الريف لا يرون ابداً مكاناً كهذا . « الحاكم » يأتي بهم - عرض حر - هك . . سيرك منظم . . ثم يعودون إلى بيوتهم ويخبرون جماعتهم عن بيت جونز الكبير ، جونز صاحب منشأة التعليب ، صاحب شركة لحوم الابقار - صنعها كلها من ارباح الخنازير . ياللعنة ! ! وغد حقيقي ! ! الآن ترى اين تذهب اموالناحسميات خطوط ترامات خاصة . هك . . وحق الله ! مكان رائع مع ذلك ، يستحق ان تراه . . ترى هل سمعت بجونز صاحب منشأة التعليب ، ايها الكهل ؟ ؟ » وأجفل جرجس رغماً عنه ، فسأل الآخر الذي لم يكن يغيب عن نظره الحاد شيء :

« ماذا دهالك ؟ هيه . . اسمعت به ؟ »

اخيراً تمكن جرجس من التلطف متلعثماً: « لقد عملت في المسلخ . »
« ماذا » صاح فريدي بما يشبه الصراخ « انت . . في المسلخ ؟ » . .
و . . ه . . و . . لماذا ؟ ذلك جيد . . هات يدك على هذا أيها الكهل .
يجب ان يكون « الحاكم » هنا . . سيسر لرؤيتك . . انه صديق
عظيم للناس . . « حاكمنا » هذا - العمل ورأس المال ، تجمع المصالح
وما إلى ذلك - اوه . اشياء مضحكة تحدث في هذا العالم ، اليس كذلك
أيها العجوز ؟ هاملتون ، دعني اقدمك - صديق العائلة - صديق قديم
من اصدقاء « الحاكم » - يعمل في المسلخ . نعال نقض الليل معاً -
نقضي وقتاً ساخناً . صديقي السيد - ما اسمك ايها الكهل ؟ . قل لنا
ما اسمك ؟ » « رودوكس - جرجس رودوكس » .

« صديقي السيد رودفوس ، هاملتون تصافحاً » .

فأحنى الحاجب الوقور رأسه انما لم يصدر صوتاً وفجأة وجه السيد
فريدي اصبحاً متحمساً اليه ، أنا اعلم ماهي مشكلتك يا هاملتون . . اتراهن
بدولار انني اعرف ؟ تظن انني ثمل . . اليس كذلك ؟ »

وأحنى الحاجب رأسه مرة ثانية ثم قال « اجل ياسيدي » . مما دفع
فريدي للتمسك أكثر برقبة جرجس والانخراط في نوبة من الضحك
هادراً « هاملتون ، عليك اللعنة ايها الوغد العجوز . سأقاضيك على تهمة
باطلة . وسترى انني لست ثملاً . هو . . هو . . هو . . انا ثمل . هو . .

هو . . . » وانتظر الاثنان النوبة ليريا اية نزوة جديدة ستحل به « ماذا تريد أن تفعل ؟ » سأل فريدي فجأة « اريد ان ترى المكان ايها الكهل . . . أنا ألعب دور « الحاكم » انا لعب دور (الحاكم) . . . اطوف بك فيه ؟ اريك الصالونات من طراز لويس الخامس عشر - لويس السادس عشر حيث يكلف كل كرسي ثلاثة آلاف دولار ، قاعة الشاي من طراز ماري انطوانيت ، لوحة الرعاة وهم يرقصون - ريزدائل - ثلاثة وعشرون ألفاً ! ! قاعة الرقص - اعمدة الشرفة . . . ه . . . ك . . . جاءت بها سفينة خاصة . . ثمانية وستون ألفاً . . طلاء السقف من روما - ما اسمه ذلك الشخص ، ياهاملتون ؟ فاتوني ! مكاروني ؟ اذن هذا المكان طاسة فضية ، بنفنتوسليني - رومي اول داغو ! ! والارغن ثلاثون الف دولار ياسيد . هيا ياهاملتون ، دع السيد رودنوز يسمعه . لا . . لا بأس . . انس ذلك تماماً ، يقول انه جائع ياهاملتون . دعنا نتناول بعض الطعام . فقط . . دعنا نتناوله هنا - تعال إلى جناحي ، ايها الكهل . انه جميل ولطيف . . هذا الطريق . ! هذا الطريق ! لا تتزحلق على الارض . اريد بعض اللحوم الباردة وبعض الشراب ، لاتنس الشراب بحق الله ، اريد بعض الشراب من صنف ماديرا ، ثماني عشرة ونصف . . أسمعني ياسيد ؟ »

فرد الحاجب « اجل ياسيدي . لكن ياسيد فريدريك ، اوامر والدك ؟ » فاتخذ فريدريك على الفور وضعية الرجل المهيب ثم قال

«أوامر والدي لي وليست لك » بعدئذ تيسك بأحكام أكثر بعنق جرجس وهو يترنج خارجاً من القاعة ، ثم خطرت له وهو في طريقه فكرة أخرى فسأل « هل هنالك أية رسالة ؟ أية برقية لي يهاملتون ؟ »

« كلا ياسيدي » اجاب الحاجب

« لابد ان (الحاكم) مسافر . . وكيف هو التوأم يهاملتون »

« على خير مايرام ياسيدي »

« حسن » قال السيد فريدي ثم اضاف بحمية « ليباركهما الله ،

الحملين الصغيرين . . »

بعد ذاك صعدا السلم الكبير درجة درجة وفي اعلاه برز لهم من الظلال تمثال حورية تجلس القرفصاء بجانب نبع ماء ، تمثال جميل ساحر ، يكاد ينطق بالحياة دفئاً والواناً . وفي الطابق العلوي كان ثمة بلاط فخم ، سقفه على شكل قبة وتفتح عليه اجنحة عديدة . توقف الحاجب في الاسفل انما لبضع دقائق فقط ، كي يعطي اوامره ثم لحق بهما . ضغط زرا فاشتعلت الصالة انواراً ثم فتح باباً امامهما وضغط زراً آخر بينما كانا يترنجان داخلين الى الجناح .

كان الجناح مرتباً على شكل مكتب للدراسة . في الوسط طاولة من الماهو غاني (١) مغطاة بالكتب وادوات التدخين ، الجدران مزينة

(١) خشب صلب بني اللون مائل للحمرة يصنع منه الاثاث الكلاسيكي

بشعارات الكلية وشاراتها ، رايات ، ملصقات صور ، حلي صغيرة
تافهة - مضارب تنس ، مجازيف زوارق ، عصي غولف وعصي بولو.
وكان هناك رأس ضخيم من رؤوس الموظ (١) قرناه بطول ستة أقدام
يواجه رأس جاموس على الجدار المقابل ، بينما تغطي جلود نمور ودببة
الأرض المصقولة ، كما كانت هناك كراسي يسترخي المرء عليها
ومقاعد عند النافذة عليها فرش طري ذو تصاميم عجيبة . وهناك زاوية
مفروشة على الطراز الفارسي ، مع ستارة ضخمة ومصباح كالجوهرية
تحتها ، خلفها يفتح باب على غرفة النوم . وخلف ذلك حوض مباحة
من المرمر النقي كلف حوالي أربعين ألف دولار .

وقف السيد فريدي دقيقة او دقيقتين ، محدقاً فيما حوله . بعدئذ
ظهر من الغرفة المجاورة كلب ضخم الجثة ، اكره مخلوق رأته عينان
جرجس . كان يتشاءب فاتحاً فمماً كضم التنين ، ثم جاء باتجاه السيد
الشباب هازأ ذيله « هالو ، ديوي . . » هتف سيده « تمت جيداً ايها
الغلام العجوز ؟ حسناً . حسناً هيه . . . ما المسألة ؟ (كان الكلب ينخر
باتجاه جرجس) . . . لماذا ياديوي ؟ ! هذا صديقي السيد رودنوز . . .
صديق قديم (للحاكم) « سيد رودنوز . . أميرال ديوي ، تصافحاً . .
ه . . . ك . . . اليس هو ممتازاً مع ذلك شريط أزرق في عرض نيويورك -
قصة شعره بثمانية الاف وخمسمائة ! ! كيف ذلك . . هيه »

(١) الموظ : من حيوانات أمريكا الشمالية يشبه الإلكة .

وغاص فريدي في واحد من الكراسي الكبيرة ذات الاذرع ، بينما اقمى الأميرال ديوي تحته . لم ينخر ثانية إنما لم يرفع عينيه لحظة واحدة عن جرجس . لقد كان رصيناً تماماً ، كان اميرالاً .

اغلق الحاجب الباب ثم وقف بجواره يراقب جرجس اللحظة باللمحة . بعدئذ جاء وقع خطاً في الخارج . وحين انفتح الباب ، دخل رجل يرتدي بزة خاصة وهو يحمل طاولة قابلة للطى وخلفه رجلان يحملان صينيتين مغطاتين . وقف واحدهما كالتمثال بينما راح الاول يمد الطاولة ويصف محتويات الصينيتين . فطائر لحم ، شرائح رقيقة من اللحم ، سندويشات خبز وزبدة ، زبدية من الكمثرى المشرحة شرائح شرائح وقشطة (في كانون الثاني) ، كعك صغير غريب الشكل بألوان زهرية وخضراء وصفراء وببيضاء ونصف دسته من زجاجات الحمرة الباردة كالثلج .

« هذا عشاؤك » هتف السيد فريدي جذلاً وهو يتفحص الطعام « هيا ، ايها الكهل ، تحرك . »

ثم جلس إلى الطاولة . فتح النادل احدى الزجاجات فصب هو محتوى ثلاث كؤوس في جوفه دون ان يرفعها عن فمه . بعد ذلك اطلق تنهيدة طويلة ونادى جرجس مرة ثانية طالباً منه الجلوس إلى الطعام .

امسك النادل بكرسي في الجهة المقابلة من الطاولة ، فظن جرجس انه فعل ذلك كي يبعدها عنه لكنه فهم اخيراً ان القصد هو وضعها تحت تصرفه ، وهكذا جلس بحذر وتشكك . لاحظ السيد فريدي ان النادل يزعمجونه ، فأشار لهم برأسه : « يمكنكم الذهاب » .

فذهبوا جميعاً باستثناء الحاجب

فقال فريدي « يمكنك ان تذهب انت ايضاً »

لكن سيد فريدي — بدأ الرجل .

الا ان الشاب صرخ غاضباً « اذهب . عليك اللعنة ، لا تسمعي ! »

فذهب الرجل ثم اغلق الباب ، لكن جرجس ، الذي لم يكن يقل حدة عن فريديك ، لاحظ ان الحاجب اخراج المفتاح من القفل كي يتسنى له اختلاس النظر من خلال الثقب .

التفت السيد فريديك إلى الطاولة ثانية قائلاً : « الآن . هيا ، تناول طعامك . »

حملق جرجس حوله بارتياح « كل . . » صرخ الآخر . . « احش بطنك ، ايها الكهل » « الا تريد ان تأكل شيئاً ؟ » سأل جرجس .

فكان جوابه « لست جائعاً . انا عطشان فقط . اكلت انا و كاندي بعض الحلويات . » هيا . . كل « وهكذا بدأ جرجس دون مزيد من الكلام . اكل وكأنه يأكل بمجرتين ، شوكة بيد وسكين بيد اخرى

وما ان بدأ حتى سيطر عليه جوعه الذئبي ، فلم يتوقف لحظة يأخذ فيها نفساً إلى ان مسح الصحنون جميعاً . « عظيم » قال الآخر الذي كان يراقبه مندهشاً .

بعدئذ رفع فريدي الزجاجاة ثم قال : « دعني أرك الآن وانت تشرب . » اخذ جرجس الزجاجاة ثم قلبها على فمه ، فانسكب داخل جوفه سائل سماوي عجيب مدغدغاً كل عصب من اعصابه ليفعمه فرحاً وسروراً ، لقد شربها حتى الثمالة ثم اطلق آهة طويلة .

« نخمرة جيدة ، أليس كذلك ؟ » قال فريدي بنوع من التعاطف الوجداني ، وكان قد استند إلى الوراء في الكرسي الكبير واضعاً ذراعه خلف رأسه محققاً النظر إلى جرجس .

فخلق إليه جرجس بالمثل . كان فريدي يلبس ثوباً مسائياً نقياً لاشائبة فيه وكان يبدو في غاية الجمال — فتي جميل ذو شعر ذهبي ورأس كرأس أنطونيو . ابتسم لجرجس ابتسامة الثقة والطمأنينة ثم بدأ الكلام ثانية ببراءته السماوية . في هذه المرة تكلم مدة عشرة دقائق دون توقف راوياً لجرجس قصة عائلته كلها . اخوه الكبير « تشارلي » يهوى فتاة بسيطة تمثل دور ذات العينين اللامعتين الصغيرتين في مسرحية « خليفة كامسكاتكا » وقد كادا يتزوجان في الماضي لولا أن « الحاكم » اقسم ان يحرمه من الميراث ثم قدم له مبلغاً يصيب الخيال بالذهول وقد أصاب فضيلة ذات العينين اللامعتين الصغيرتين نفسها

بالذهول . والآن تشارلي في اجازة من الكلية يقضي مع حبيبته مايمكن ان يدعى شهر عسل . كذلك ، كان الحاكم قد هدد بالحرمان من الميراث الانحت غيندولين التي تزوجت ماركيزاً ايطالياً له سلسلة طويلة من الالقاب وسجل شرف طويل . كانا يعيشان في قصره أو بالاحرى عاشا الى ان قلب طباق الإفطار عليها فأبرقت تطلب المساعدة . وهكذا ذهب العجوز بنفسه ليرى شروط « سعادته » وبذلك تركوا فريدي وحيداً ؟ في جيبه أقل من ألف دولار . وفريدي مستنفر تماماً . ينوي الاقدام على عمل خطير ، كما سيكشفون ذلك فيما بعد . وإذا لم يستطع انخضاعهم لشروطه ، سيجعل فتاته « كيتتر » تبرق بأنها على وشك الزواج منه ليرى مايجدث حينذاك .

هكذا استمر الشاب المبتهج يهذر الى ان انهكه التعب ، فابتسم لخرجس اعذب ابتسامة لديه ثم أطبق عينيه وقد داهمه النعاس . بعد ذلك فتحهما مرة ثانية وابتسم أيضاً ثم أطبقهما ونسي ان يفتحهما مرة ثانية . لعدة دقائق ظل جرجس جالساً دون حراك ، يراقبه مستمتعاً ، منتشياً بما تركت الشمبانيا من احاسيس غريبة في نفسه . تحرك مرة فزجر الكلب وهكذا جلس كأنماً حتى انفاسه — الى ان فتح باب الغرفة بلطف شديد ودخل الحاجب .

سار على أطراف أصابعه نحو جرجس مكشراً في وجهه ، فنهض جرجس وتراجع راداً له التكشيرة . وهكذا ظل يتراجع الى ان بلغ

الحدار ، حينذاك اقترب الحاجب منه ثم أشار الى الباب هامساً « اخرج من هنا » .

فتردد جرجس ناظراً نظرة سريعة الى فريدي الذي كان يطلق شخيراً لطيفاً « إن تفعل يابن الـ . . . » قال الحاجب بنوع من الهيس ، « حطمت وجهك قبل ان تخرج من هنا . »

ولم يتردد جرجس لحظة اخرى بعد ذلك ، فقد رأى الاميرال ديوي يتقدم خلف الرجل ويزمجر زمجرة لطيفة تدعم تهديدات سيده . حينذاك استسلم جرجس وبدأ السير نحو الباب .

خرجوا دون ان ينبسا بكلمة اخرى ثم نزلا السلم الكبير المدوي الاصداء وعبرا القاعة المظلمة . وعند الباب الامامي توقف جرجس بينما اوسع الحاجب خطاه حتى اقترب منه .

« ارفع يديك » ، نهره الحاجب ، فتراجع جرجس خطوة الى الوراء ، محكماً قبضة يده .

« لماذا ؟ » صرخ ، لكنه فهم في الحال ان الحاجب ينوي تفتيشه ، فأجاب : « سترى نفسك في الجحيم قبل ذلك . »

« أتريد الذهاب إلى السجن ؟ » سأل الحاجب بلهجة تهديدية : « سأطلب رجال الشرطة . »

« اطلبهم » هدر جرجس بانفعال شديد « الا انك لن تضع يديك

علي قبل ان أكسرهما . . انا لم المس شيئاً في بيتك اللعين هذا ، ولن ادعك تلمسني . »

عند ذاك وعلى نحو مفاجيء خطا الحاجب ، الذي كان يخشى ايفاظ سيده ، نحو الباب ثم فتحه قائلاً : « اخرج من هنا » . وحين بدأ جرجس يعبر فتحة الباب رفسه الحاجب على قفاه رفسة شديدة جعلته يهبط الدرجات الحجرية جرياً ثم طرحته على الثلج مفتوح اليدين والساقين .

- ٢٥ -

نهض جرجس وقد اعماه الغضب الا ان الباب كان قد اغلق وغدا القصر العظيم مظلماً منيعاً من جديد . عندئذ بدأت انياب الاماصة تنهش به فدار على عقبه وانطلق يعدو .

حين توقف مرة ثانية كان قد وصل إلى شارع مطروق ولم يكن يرغب بلفت الانتباه . كان قلبه رغم الاذلال الاخير ذاك يدق بسرعة : دقات المنتصر . لقد خرج راجحاً من تلك الصفقة ، وكان من حين إلى آخر يضع يده في جيبه كي يطمئن إلى ان الورقة ذات - المائة دولار ماتزال هناك .

مع ذلك كان في مأزق - مأزق غريب ورهيب ايضاً حين ادرك مغزاه حق الادراك . اذ لم يكن يملك شيئاً واحداً عدا تلك الورقة .

وكان عليه ان يجد مأوى لنفسه في تلك الليلة — كان عليه ان يصرفها !!
امضى جرجس نصف ساعة يمشي ويناقش المسألة . لم يكن ثمة
من يستطيع الذهاب اليه او يطلب المساعدة منه — كان عليه ان يصرفها
بمفرده تماماً . وان يصرفها في بيت من بيوت المثاوي فذلك يعني ان يضع
روحه على كفه . فمن المؤكد انهم سينهبونه بل ربما يقتلونه قبل مجيء
الصباح . كان بإمكانه الذهاب إلى فندق ما او محطة سكة حديد وطلب
صرافتها لكن ماعساهم يفكرون حين يرون متشرداً مثله يحمل مائة
دولار ؟ ربما سيلقون القبض عليه ويحاكمونه ، وما القصة التي سيرويها
لهم ؟ في الصباح سيكتشف فريدي ماضاعه ، سيفقد نقوده وحينذاك
سيجرب البحث عنه . الخطوة الاخرى الوحيدة التي يمكنه التفكير بها
هي ان يحاول صرفها في حانة ولسوف يدفع لهم مقابل ذلك ان لم تكن
هناك طريقة اخرى .

بدأ جرجس يخلط النظر إلى الامكنة وهو يعبرها . لقد اجتاز
عدة محانات شديدة الازدحام إلى ان وصل اخيراً حانة كان الساقى
فيها وحيداً تماماً ، فشدد قبضة يديه في تصميم مفاجئ ثم دخل .

« هل تصرف لي ورقة نقدية بمائة دولار ؟ » سأله جرجس .

كان الساقى شخصاً ضخم الجثة ، له فك كفك بطل من ابطال
الملاكمة وشاربان جديدان .

حملق بجرجس مندهلاً ثم سأله « ماذا قلت ؟ »

« قلت هل يمكنك ان تصرف لي ذات المائة دولار . »

فسأله غير مصدق : « ومن اين اتيت بها ؟ » .

فقال جرجس « ليس هذا من شأنك . لقد حصلت عليها واريد
أن تصرفها لي . سأدفع لك مقابل ذلك . »

فحلق الآخر متفحصاً ثم قال « دعني أرها » .

« هل ستصرفها ؟ » سأل جرجس وهو يقبض عليها بشدة في

جيبه

« كيف يمكنك ان اعرف ان كانت صحيحة ام مزورة

تراك تريد اللعب علي . . ؟ » .

حينذاك دنا جرجس منه على مهل وحذر ثم اخراج الورقة النقدية
وقلبها لحظة من الزمن بينما كان الرجل يحلق إليه من وراء النضد
بعينين معاديتين . أخيراً سلمها له .

اخذها الساقى وبدأ يتفحصها ، ممسكاً اياها بين اصابعه رافعاً اياها
إلى الضوء ، مقلباً اياها بطناً على ظهر ومن طرف إلى طرف . كانت
الورقة جديدة قاسية تماماً مما جعله أكثر ارتياباً . اما جرجس فكان
يراقبه كالقط طوال الوقت .

« أف » قال أخيراً وهو يحلق إلى الغريب رائراً حجه — متشرد

كريبه الرائحة ، يلبس اسماً ليس عليه معطف واحدى ذراعيه معلقة
إلى كتفه وذات المائة دولار ! ! « هل تريد ان تشتري شيئاً ؟ » سأله
فقال جرجس « اجل سأخذ كأساً من البيرة . »

« حسن » قال الآخر « سأصرفها لك ، ثم وضع الورقة في جيبه
وصب لجرجس كأساً من البيرة وضعها امامه على النضد . بعد ذلك
التفت إلى صندوق النقد ، فأخرج منه خمسة سنتات وبدأ يسحب نقوداً
من الدرج . اخيراً واجه جرجس وهو يعد له النقود — قطعة ذات
العشرة سنتات ثم قطعة مماثلة اخرى فربح دولار فخمسون سنتاً . «
« هاك » قال لجرجس . .

ولثانية من الزمن انتظر جرجس متوقفاً ان يراه يلتفت ثانية ، ثم
قال : « بقي لي تسعة وتسعون دولاراً » .

« اية تسعة وتسعين ؟ » سأل الساقى . فصرخ جرجس : « صرافتي .
بقية مبلغى . »

فقال الساقى : « امض ، انت مغفل . »

حينها ، رشقه جرجس بنظرة من عينيّن متوحشتين ، وللحظة من
الزمن تحكم به الرعب — رعب اسود رهيب يشل الاطراف قبض على
قلبه ثم جاء الغضب فيضانات مندفعة كاسحة صرخ جرجس عالياً
ثم امسك بالكأس وقلدها على رأس الساقى . انحرف هذا قليلاً فأخطأته

بمقدار نصف بوصة ثم نهض ثانية وواجه جرجس الذي كان ينحني فوق الباب بذراعه السليمة مسدداً ضربة ساحقة إلى وجهه القته على الارض وحينما عاد جرجس يلب على قدميه من جديد وبدأ يدور حول النضد في اثره صرخ بأعلى صوته « الشجدة . . النجدة . . »

امسك جرجس وهو يجري زجاجة من فوق النضد وحين قفز الساقى مبتعداً رماه بالقذيفة بكل ما يملك من قوة فلامست رأسه تماماً ثم تناثرت الف نثره على عمود الباب .

عند ذاك بدأ جرجس التراجع ثم اندفع إلى الرجل مرة ثانية في وسط الغرفة . لكنه ، ولشدة غضبه ، جاء بدون زجاجة هذه المرة ، وهذا ما كان يبتغيه الساقى تماماً فقد قابله في منتصف الطريق ، وبضربة ثقيلة كضربة المطرقة سددها له بين عينيه طرحه ارضاً . بعد لحظة واحدة ، انفتحت الابواب على مصاريعها واندفع رجلان في اللحظة التي كان جرجس يقف فيها على قدميه ، والزبد ملء فمه محاولاً ان يمزق الضمادات عن ذراعه المكسورة . « انتبهوا » ، صرخ الساقى ، « لديه سكين » . بعدئذ قام بالندفاعه أخرى صوب جرجس ، وقد رأى ان الرجلين على اهبة الاستعداد للانضمام اليه فطوح جانباً بغريمه الضعيف ، ملقياً به على الارض ثم قذف الثلاثة بانفسهم عليه ليدحرجوه بعد ذلك ويرفسوه في كل مكان .

بعد ثانية واحدة ، اندفع شرطي إلى الداخل فزعق الساقى مرة

اخرى : « حذار من سكينه » وكان جرجس قد ناضل و كاد يقف حين قفز الشرطي عليه مسدداً بعصاه ضربة شديدة على وجهه ، ورغم ان الضربة جعلته يترنح ، فان الهياج المسعور كان مايزال في داخله ، فهب على قدميه ، رامياً بنفسه في الهواء . بعدئذ هوت العصا مرة ثانية على رأسه فهوى بعدها كجذع خشبي على الارض .

تقوم الشرطي فوقه ممسكاً جيداً بعصاه ينتظر منه اية محاولة للنهوض ثانية . في غضون ذلك كان الساقى ينهض ، واضعاً يده على رأسه هاتفاً . . « يايسوع ! ! اظن أنه أصابني في تلك المرة . هل جرحني ؟ » فقال الشرطي : « لأرى شيئاً ياجاك ، ماقصته ؟ »

فأجابه الآخر : « رجل تعتقه السكر تماماً . ناهيك عن انه مغفل ايضاً لكنته كاد يمسك بي تحت الباب . من الافضل ان تطلب الدورية يايبلي » « لا » قال الشرطي « لم يعد قادراً على القتال كما ارى وليس عليه الا ان يسير مبنى واحداً فقط » . ثم قتل ياقة جرجس حول يده ودفعه آمراً : « انهض . . . هيا »

غير ان جرجس لم يتحرك ، فمضى الساقى خلف البار وبعد ان اودع ذات المائة دولار في مخبأ امين عاد وصب إبريقاً من الماء على رأس جرجس . بعدئذ ، وحين بدأ هذا يصدر انيناً ضعيفاً ، أنهضه الشرطي على قدميه وسحبه خارج المكان . كان المخضر يقع عند الزاوية تماماً وهكذا كان جرجس خلال بضع دقائق في إحدى الزنانات .

امضى جرجس نصف ليلته وهو ممدد فاقد الوعي يتن وبتعذب
وقد اعماه الصراع والعطش القاتل . من حين إلى آخر كان يصرخ
بصوت عال مطالباً بكأس من الماء لكن لاهية لمن تنادى ، فقد كان
هناك آخرون في المختبر نفسه برؤوس مفلووعة وحمى لاهية . وكان
هناك المئات منهم في المدينة الكبيرة وعشرات الآلاف في طول البلاد
وعرضها انما لم يكن ثمة من يسمع نداء أتهم قط .

في الصباح ، أعطي جرجس كوباً من الماء وكسرة من الخبز
ثم حشر داخل عربة دورية اوصلته إلى اقرب محكمة حيث جلس في
داخل الشبك الحديدي مع عشرات من امثاله إلى ان حان دوره .

دعي الساقى - الذي ثبت انه ملاكم شهير - إلى امام المنصة
حيث اقسم اليمين وروي قصته كالتالي : دخل السجين إلى حانته
بعد منتصف الليل سكيراً يحب القتال وطلب كأساً من البيرة ثم دفع
ورقة من فئة الدولار فأعطاه البقية وهي خمسة وتسعون سنتاً الا انه
طلب تسعة وتسعين دولاراً اخرى وقبل ان يقضى للمدعي الاجابة
رآه يقذفه بكأس البيرة ثم يهجم عليه بزجاجة من الشراب وزجاجات
اخرى حتى كاد يحطم المكان .

بعدئذ اقسم السجين اليمين فبدا مخلوقاً مهزولاً وحيداً ضعيفاً ،
ذراعه معلقة بضماد إلى عنقه ووجهيه ورأسه ينزقان دماً واحدى عينيه
مسودة أرجوانية مغلقة تماماً . سأله القاضي « ماذا تقول دفاعاً عن نفسك ؟ »

فقال جرجس « سيادة القاضي دخلت إلى حانة هذا الرجل ثم سألته ان كان باستطاعته ان يصرف لي ورقة من فئة المائة دولار فقال :

سيصرفها لي اذا ما اشتريت كأس شراب ، وهكذا اعطيته الورقة فلم يعطيني البقية .

كان القاضي يحدق اليه مندهشاً ثم هتف اخيراً « انت اعطيته ورقة من فئة المائة دولار ؟ ! »

فأجاب جرجس « اجل ياسيادة القاضي . رجل اعطاني اياها »

« رجل ؟ أي رجل ؟ ولماذا ؟ »

« شاب التقيت به في الشارع ياسيادة القاضي . كنت اتسول »

وحصل هرج في القاعة . الشرطي نفسه الذي كان يمسك بجرجس وضع يده على فمه كي يخفي ابتسامته ، بل ان القاضي نفسه ابتسم علناً دون ان يحاول اخفاء ابتسامته « هذا صحيح ياسيادة القاضي » صرخ جرجس متحمساً .

« إذن كنت تسكر علاوة على التسول في الليلة الماضية ، اليس كذلك ؟ » سأل القاضي

« كلا ياسيادة القاضي » احتج جرجس « انا . . . »

« انت لم تكن تملك ماتشرب به »
« بل كنت املك ياسيدي القاضي . كان لدي - »
« ماذا كان لديك ؟ »

« زجاجة شراب من نوع ما - لا اعرف اسمه - شيء ما يحترق . . »
وحدث ضحك في ارجاء القاعة توقف فجأة حين حدد القاضي إلى
الحضور وقطب جبينه . « هل سبق وألقي عليك القبض ؟ » سأل على
نحو مفاجيء فتلعثم جرجس وقد جعله السؤال يترنح إلى الوراء « انا -
انا . . » الا ان القاضي امره بحزم شديد : « اخبرني الحقيقة - الآن ، »
فقال جرجس « اجل ياسيادة القاضي »

« كم مرة ؟ »
« مرة واحدة فقط ، سيادة القاضي »
« لماذا ؟ »

« لانني ضربت رئيسي . كنت اعمل في المسلخ ، وهو - »
فقال سيادته : « أرى ، أرى ذلك . اظن ذلك كافياً . عليك ان
تكف عن الشراب ان كنت لاتستطيع السيطرة على نفسك . عشرة
ايام مع نفقات المحكمة . القضية التالية . »
وأطلق جرجس صرخة دعر قطعنها فجأة حركة الشرطي الذي
امسك به من ياقته ثم دفعه خارج الطريق إلى غرفة المساجين المحكومين

حيث جلس ثم بكى كما يبكي طفل ساخط عاجز عن فعل أي شيء .
لقد بداله شيئاً مريعاً ان ينظر الشرطة والقضاة باحتقار شديد إلى مقاله
بالمقارنة مع قول الساقى ، لم يكن جرجس المسكين يعلم ان صاحب
الحانة يدفع خمسة دولارات كل اسبوع لذلك الشرطي نفسه مقابل
امتيازات يوم الاحد والافضلية العامة — ولم يكن يعلم ان الساقى «البلطجي»
هو واحد من «قبضايات» زعيم الحزب الديمقراطي في المنطقة
الموثوقين ، وقد عمل قبل بضعة اشهر فقط كشاهد لصالح القاضي
الذي كان المصلحون الكريهون ذوو قفازات — الأجداء يستهدفون
الاطاحة به .

سيق جرجس إلى سجن بريدويل للمرة الثانية . كان في ثعثراته
وسقطاته قد آذى ذراعه مرة ثانية ، وهكذا لم يكن باستطاعته العمل ،
بل كان لابد ان يرعاه طبيب . كذلك كان ينبغي ان يضمم رأسه
وعينه ، وبشكله العجيب هذا خرج إلى التنفس في اليوم التالي وقابل
هناك — جاك دوان .

سر الفتى برؤية جرجس إلى درجة كاد معها ان يحتضنه صارخاً :
« علي اللعنة ان لم تكن انت ذا الرائحة العفنة . . ماذا جرى بك — هل
مررت داخل آلة نقانق ؟ »

فقال جرجس « كلا . بل في حادثة تحطم قطار وشجار » ثم
اخبره بقصته العجيبة ، وقد تجمع حولهما بعض المساجين الآخرين

الذين لم يصدقوه معظمهم ، لكن دوان كان يعرف ان من المحال ان يلفق جرجس حكاية كهذه .

« حظ ميء ايها الكهل » قال جاك حين باتا وحيدين « لكن ، لعل هذا يلقنك درساً . » « لقد تعلمت الكثير من الدروس منذ رأيتك آخر مرة . » قال جرجس حزينا بعدئذ شرح له كيف أمضى الصيف الماضي « متسكماً هنا وهناك » كما يقولون ثم سأله اخيراً « وانت ؟ اما تزال هنا منذ ذلك الحين ؟ »

فقال الآخر « ياإلهي ! ! ، لا ! ! . بل جئت قبل امس . وهي المرة الثانية التي يرسلونني إلى السجن بتهمة غير مثبتة - لقد اصابني سوء حظ ولم استطع ان ادفع لهم ما يريدون ، لماذا لاترك شيكاغو معي يا جرجس ؟ »

« فقال جرجس بأسى « ليس لي مكان اذهب اليه . »

« ولا انا » اجاب الآخر وهو يضحك ضحكاً خفيفاً « لكننا سننتظر إلى ان نخرج . »

في بريدويل التقى جرجس ببعض المساجين الذين كانوا هناك المرة الماضية لكنه التقى بآخرين كثر ، شيب وشبان لم يرهم من قبل وخيل له انهم جميعاً من النوع ذاته تماماً . بل لقد بدا الامر له اشبه بالامواج على الشاطئ ، هناك ماء جديد الا ان الامواج هي ذاتها دائماً . كان يتمشى ويحادثهم . اكبرهم اجساماً يروون القصص عن

بسالاتهم في حين يتجمع حولهم الاضعف او الاصغر سناً والاقبل تجربة وينصتون باعجاب صامت . في المرة الماضية كان جرجس لا يفكر الا بعائلته . لكنه الآن حر ينصت لهؤلاء الرجال وهو على يقين تام من انه واحد منهم وان وجهة نظرهم هي وجهة نظره وان الاسلوب الذي يقيمون اودهم به في هذه الدنيا هو الاسلوب الذي عيه ان يتبعه في المستقبل .

وهكذا حين خرج من السجن مرة ثانية ، وليس في جيبه بنس واحد ، ذهب مباشرة إلى جاك دوان . ذهب وكله خضوع وامتنان ، لان دوان رجل مجتمع وصاحب مهنة وانه لشيء عظيم ان يرغب بوضع يده بيد عامل مصنع ، رجل كان شحاذاً او متشرداً. لم يكن باستطاعة جرجس ان يرى الفائدة التي يمكن ان يقدمها لدوان ، لم يكن يدرك ان انساناً مثله يمكن ان يثق به أي انسان — هو خامة نادرة بين المجرمين مثلما هو بين اية طبقة اخرى من الناس .

كان العنوان الذي اعطي لجرجس هو عنوان علي في منطقة «الغيتو» حيث تسكن فتاة فرنسية جميلة هي خليعة دوان ، تخطط طوال طوال النهار وتكسب بقية قوتها بممارسة العهر . قالت الفتاة لجرجس أن دوان ذهب إلى مكان ما فقد بات يخشى الاقامة لديها بسبب الشرطة . اما العنوان الجديد فهو حانة رديئة السمعة تقع في قبو كان دوان قد قال لها ان صاحبها لم يسمع به ابدأ ، لكن بعد ان انخفضت جرجس لألف سين

وبجيم دلتة على سلم نخفي يؤدي إلى « سياج » يتمع في مؤخرة حانوت « الرهن » ومن هناك إلى عدد من الغرف المخصصة للقاءات والموايد، حيث كان يختبئ دوان في احداها .

سر دوان كثيرا برؤيته ، وقال انه لا يملك ستمتاً واحداً وإنه بانتظار جرجس كي يساعده على كسب بعض المال ، ثم شرح خطته ، بل الواقع انه امضى النهار بطوله وهو يكشف لصديقه عالم الإجرام في المدينة ، ويريه كيف يمكنه ان يكسب عيشه فيه . ذلك الشتاء سيواجه اباماً صعبة بسبب ذراعه وبسبب نوبة النشاط الشديد التي تمر بها الشرطة ، لكن طالما انه مجهول فسيبقى في امان منهم طيلة اتخاذه بجانب الحذر . هنا في حانة « بابا هنسون » (هكلدا يسمون الرجل الذي يدير هذه الحانة) يمكنه ان يأخذ راحته تماماً لان بابا هنسون رجل « مرتب » يقف بجانبه طالما يدفع وينثره قبل ساعة اذا وقعت غارة من غارات الشرطة . كذلك فان روز نستيف صاحب محل الرهونات ، يشتري أي شيء يأتيه به مقابل ثلث قيمته ويكفل ابقاءه لديه لمدة سنة .

كان هناك « طباخ » كازي في خزانة الغرفة الصغيرة ، طبخا عليه بعض العشاء . ثم انسلا معاً حوالي الساعة الحادية عشرة عبر المدخل الخلفي للمكان وقد تسليح جاك بنقافة . وصلا إلى منطقة سكن فتسلق جاك عمود الثور واطفاً الضوء ، ثم اختفى الاثنان تحت سائر بعرض درجة واحدة واختبأ صامتين .

وسرعان ما جاء رجل ، عامل - فتركاه يمضي . بعدئذ ، وبعد فاصل طويل جاءت خطا ثقيلة لشرطي فكتما انفاسهما إلى ان ولى . ورغم انهما كانا شبه متجمدين فقد انتظرا ربع ساعة كاملة ، بعدها جاء وقع خطاً سريعة . لكن دوان جرجس ، وفي اللحظة التي بدأ الرجل يجتازهما ، نهضا . انسل دوان كالظل دون ان يحدث صوتاً وبعد ثانية واحدة سمع جرجس نخبطة تلتها صرخة مكتومة . وكان خطف الرجل بقدمين لاكثر فوثب يكتم فمه ، في حين ثبته دوان من ذراعيه ، مثلما اتفقا الا ان الرجل كان أوهى من ان يقاوم لذا لم يكن على جرجس الا ان يمسكه من ياقته ، بينما راحت اصابع الآخر الرشيفة تبحث في جيوبه - فاتحة معطفه أولاً ، ثم سترته وبعد ذاك صدريته ، باحثة في الداخل والخارج ناقله محتوياتها إلى جيوب صاحبها . اخيراً وبعد ان تلمس دوان اصابع الرجل وربطة عنقه همس : « هذا كل شيء » ثم سحباه إلى خلف الساتر واسقطاه هناك . بعد ذلك سار جرجس في اتجاه وصاحبه في الاتجاه الآخر وهما يمشيان بسرعة .

وصل دوان أولاً ، لذا وجده جرجس حين وصل يتفحص « الغنيمة » ومن بينها : ساعة ذهبية ذات سلسلة مدلاة ، قلم رصاص فضي ، علبة كبريت ، حفنة من قطع النقد الصغيرة واخيراً علبة بطاقات فتحها دوان بصورة محمومة فوجد فيها رسائل وشيكات وبطاقة مسرح ، واخيراً وجد في الجزء الخلفي حزمة اوراق نقدية . عدها فوجدها : ورقة من فئة العشرين ، خمس عشرات ، اربع عشرات ،

وثلاث اوراق من فئة الدولار الواحد . عندها تنفس دوان الصعداء ثم قال « بهذا يمكننا الخلاص » .

بعد القيام بتفحص آخر حرقا علبة البطاقات ومحتوياتها . حرقا كل شيء ماعدا الاوراق النقدية وكذلك صورة فتاة صغيرة في المدلاة . بعد ذلك اخذ دوان الساعة والاشياء الصغيرة الاخرى إلى الطابق السفلي ثم عاد بستة عشر دولاراً قائلاً : « الوغد المعجوز ، قال ان العلبة كانت مليئة ، انها كذبة ، لكنه يعلم اني بحاجة إلى المال . »

اقتسم الصديقان الغنيمة فكانت حصة جرجس خمسة وخمسين دولاراً وبعض الصرافة . احتج هذا بأنها كثيرة جداً إلا ان الآخر وافق على اقتسامها ايضاً قائلاً انها « خبطة » جيدة افضل من المعدل العام . وحين استيقظا في الصباح ارسل جرجس يشتري صحيفة ، فاحدى متع ارتكاب جريمة من الجرائم هي القراءة عنها فيما بعد . « لي صديق كان يفعل ذلك دائماً » لاحظ دوان وهو يضحك « إلى ان قرأ ذات يوم انه ترك ثلاثة آلاف دولار في جيب داخلي سفلي من صنادير ضحيته . . . »

كان يوجد في الصحيفة وصف للسرقة يملأ نصف عمود تقريباً — من الواضح ان هناك عصابة تعمل في الجوار ، قالت الصحيفة ، فهذه هي الحادثة الثالثة خلال اسبوع ومن الواضح ان الشرطة عاجزة عن اكتشاف العصابة . الضحية وكيل شركة تأمين وقد فقد مائة وعشرة

دولارات ليست له ، ومن قبيل المصادفة ان اسمه كان منقوشاً على قميصه والا لما كان بالإمكان تمييز هويته بعد . لقد ضربه مهاجمه ضربة شديدة على أم رأسه مما سبب له ارتجاجاً في الدماغ ، كذلك كان شبه متجمد حين وجدوه وسوف يفقد ثلاثة اصابع من يده اليمنى . ولقد نقل محرر الصحيفة المغامر كل هذه المعلومات إلى عائلته ثم روى كيف تلقتها هذه العائلة .

وبما ان هذه التجربة هي تجربة جرجس الاولى فقد سببت له هذه التفاصيل بعض الضيق الا ان الآخر راح يتضحك يبرود - هذه هي اللعبة ولا مجال لمنع نتائجها . لكن ، لن يمضي وقت طويل حتى يكف جرجس عن التفكير بمثل هذه الامور مثلما يكف عمال المسلخ عن التفكير بصرع ثور ارضاً . « انها محفظتنا او محفظة الشخص الآخر واقول الشخص الآخر كل مرة ، « ابدى جاك ملاحظة اخيرة .

فقال جرجس متفكراً « لكن الرجل لم يؤذنا . »

فقال صديقه : « كان يؤذي احداً ما بأشد ما يستطيع ، تأكد من ذلك . »

كان دوان قد شرح لجرجس من قبل انه اذا انكشف محترف من محترفي مهنتهم اضطر للعمل طوال الوقت كي يلبي متطلبات الشرطة . لذا يفضل ان يبقى جرجس مختبئاً ، بحيث لا يراه مع صديقه احد .

لكن سرعان ماتعب جرجس من الاختباء . فخلال اسبوعين شعر بأنه يسترد عافيته كما بدأ يستخدم ذراعه ، وحينذاك لم يعد بامتطاعته تحمل الاختباء . اما دوان الذي كان بحاجة لان يمارس عملاً من نوع ما كي ينجذع الشرطة ، فقد اقنع ماري ، فتاته الفرنسية الصغيرة ، بمشاركته لكنه اضطر في النهاية لان يكف عن مجادلة جرجس ولأن يخرج به إلى الخانات ويبيت القمار والبغاء حيث يذهب إلى هناك كبار المحتالين « والاتباع » .

وهكذا اخذ جرجس لمحة عن عالم الطبقة العالية من مجرمي شيكاغو . فالمدينة التي تملكها اقلية من رجال الاعمال ويحكمها الشعب اسمياً ، كان لابد لها من جيش للكسب غير المشروع يستهدف تحقيق انتقال القوة . مرتين في العام ، أي في انتخابات الخريف والربيع ، كانت ملايين الدولارات تقدم من قبل رجال الاعمال وتوزع من قبل هذا الجيش ، فتعقد الاجتماعات ويستجر الخطباء المفوهون وتعزف الموسيقى ، وتطلق الصواريخ النارية وتوزع اطنان الوثائق وبراميل المشروبات وتشترى عشرات آلاف الاصوات نقداً ، وبالطبع كان ينبغي تأمين معيشة جيش الكسب غير المشروع هذا على مدار السنة . الامر الذي كان يوفره رجال الاعمال بصورة مباشرة للقادة والمنظمين ، اعضاء مجلس البلدية والمشرعين عن طريق الرشوات ، موظفي الحزب الرسميين عن طريق ارصدة الحملة ، افراد « اللوبي »

ومحامي الشركات على شكل مرتبات ، المتعهدين عن طريق الاعمال ،
زعماء النقابات عن طريق الاعانات واصحاب الصحف ومحرريها
عن طريق الاعلانات ، اما الافراد ، فإما ان يتم فرضهم على المدينة
نخلة او تؤخذ ارزاقهم من الجمهور مباشرة إذ هناك قسم الشرطة
اقسام الاطفاء والماء وبقية الموظفين المدنيين بدءاً من ادنى حاجب مكتب
وحتى رئيس ادارة المدينة ، ومن لا يوجد له مكان بين هؤلاء يبقى
امامه عالم الجريمة والزديلة حيث يسمح له بأن يغوي وينهب ويحتال
ويقترب . كان القانون يمنع الشراب يوم الاحد ، ومن يقدم الشراب
من اصحاب الحانات في هذا اليوم يتعرض للاعتقال لذا فان اقامة تحالف
بين هؤلاء وأولئك كانت امراً لا بد منه . كذلك يحرم القانون الدعارة ،
وهذا يؤدي « بالسيدات » إلى ان يتحدن . الامر ذاته كان يتم مع
كل صاحب حانة او بيت قمار أو اي رجل او امرأة ، لديه او لديها
وسيلة « كسب غير مشروع » ويرغب او ترغب بدفع حصة منه .
مهرب المخدرات ، قاطع الطريق ، النشال ، اللص ، مشتري المسروقات ،
بائع الحليب المغشوش والثمار الفاسدة واللحم المريض ، مالك المؤجرات
غير الصحية ، الطبيب المزيف ، المراهبي ، الشحاذ ، بائع عربة اليد ،
بطل الشجارات ، الملاك الماحرف ، « مستطلع انباء سباقات الخيل
بقصد المراهنة » ، القواد ، وكيل الرقيق الابيض ، والخبير في اغواء
الفتيات الصغيرات ، كل ادوات الفساد هذه كانت تتجمع معاً فتشكل
عصبة تجمعها اخوة الدم مع السياسي والشرطي وكثيراً ماتجدهم هم

انفسهم الاشخاص ذاتهم - فضابط الشرطة هو الذي يملك الماخور الذي يدعي انه يغير عليه ، والسياسي يفتح مقر عمله في حانته . و « هنكيدنك » او « جون الحمام » او آخرون من هذا الصنف هم مالكو اسوأ الخانات سمعة في شيكاغو كما أن « الذئب الرمادية » في مجلس المدينة هم الذين يخلون شوارع المدينة امام رجال الاعمال أمّا الذين يحمون امكتهم فهم المقامرون وابطال الملاكمة الذين يتحلون القانون واللصوص « والقبضات » الذين يرعبون المدينة . يوم الانتخاب ، تغدو كل قوى الجريمة والرديلة هذه قوة واحدة ، بإمكانها ان تحدد ضمن نسبة واحد بالمائة إلى ابن ستذهب اصوات الناخبين ويغيرونها خلال ساعة .

قبل شهر كان جرجس يوشك على الموت جوعاً في الشوارع ، اما الآن فقد ولج فجأة ، وكأنما ذلك بفضل مفتاح سحري ، علماً تنساب فيه الاموال وطيبات الحياة انسياً ، لقد قدمه صديقه إلى رجل ايرلندي يدعى « بك » هالوران ، وهو « عامل » سياسة يعيش في قلب هذا العالم . تحدث هذا الرجل مع جرجس حيناً من الزمن ثم اخبره ان لديه خطة صغيرة يستطيع الانسان بفضلها أن يكسب بعض المال بكل راحة ، ولكنه عمل سري وينبغي على الانسان ان يكتفم امره . ابدى جرجس موافقته فأخذه الآخر عصر ذلك اليوم نفسه - إذ كان يوم (سبت) إلى مكان يجري فيه الدفع لعمال المدينة . كان المحاسب

يجلس في كشك صغير وامامه كدسة من المغلفات بينما وقف شرطيان بجانبه . ذهب جرجس حسب التعليمات ، وقدم نفسه باسم « مايكل او فلاهوتي » فاستلم مغلفاً حملة إلى اقرب زاوية وهناك سلمه إلى هالوران الذي كان ينتظره في حانة . بعدئذ ذهب مرة ثانية واعطى اسم « جوهان شميدث » وفي المرة الثالثة اعطى اسم « سيرج رمنيتسكي » . كان لدى لوران قائمة باسماء عمال خياليين وكان جرجس يتلقى مغلفاً عن كل واحد منهم . مقابل هذا العمل استلم خمسة دولارات وقيل له انه سيستلم مثل هذا المبلغ كل اسبوع طالما ظل كاتماً للسر ، وبما ان جرجس كان ممتازاً في كتمان السر ، فانه سرعان ما حاز على ثقة « بك » هالوران الذي قدمه ايضاً إلى آخرين باعتباره رجلاً يمكن الاعتماد عليه .

كذلك افادته هذه المعارف بطريقة اخرى . فخلال فترة وجيزة اكتشف جرجس بنفسه معنى النفوذ الخاص واكتشف تماماً لماذا استطاع رئيس العمال « كونور » وكذلك الساقى الملاكم ان يرسلوه إلى السجن . فذات ليلة اقيمت حفلة لصالح « لاري الاعور » وهو رجل اعرج يعزف على الكمان في واحد من بيوت الطبقة العالية الخاصة بالدعارة في شارع كلارك . وهو شخصية مرموقة ومعروفة في منطقة « الليفي » ، اقيمت هذه الحفلة في قاعة رقص كبيرة وكانت احدى المناسبات التي تطلق فيها العنان لنفسها قوى الفسق في المدينة . حضرها جرجس وشرب كثيراً حتى غدا نصف مجنون من السكر وبدأ الشجار على فتاة . كانت ذراعه حينذاك قد باتت قوية تماماً ، فانطلق يعمل لانهاء المكان وانتهى

في زنزانه من زنزانات الشرطة . كان المخفر مكتملاً حتى الباب الخارجي تفوح رائحته بالمتشردين لذا لم يستمتع جرجس بالبقاء هناك إلى ان تزول سكرته ، فأرسل في طلب هالوران الذي هتف لزعيم المنطقة وهذا اخرج جرجس من السجن بمكالمة هاتفية اجراها في الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم . وحين دعي إلى المحكمة في الصباح ذاته كان زعيم المنطقة قد رأى كاتب المحكمة من قبل وشرح له ان جرجس رودكوس شخص شريف فقد زمام نفسه في لحظة سكر ، وبذلك حكم على جرجس بغرامة عشرة دولارات مع وقف التنفيذ ، ومعنى ذلك انه لم يكن مضطراً للدفع ابداً ما لم يثر الموضوع عليه احد الناس في المستقبل .

بات جرجس الآن يعيش بين اناس ينظرون إلى المال بمنظار مغاير لذلك الذي ينظر من خلاله اهل باكنجتاون . مع ذلك ، فقد بات يشرب اقل بكثير مما كان يفعل يوم كان عاملاً . لم يعد يعاني من عوامل الاجهاد واليأس التي كان يعاني منها . كان لديه الآن مايعمل من أجله ، مايكافح في سبيله . وسرعان ما اكتشف انه اذا ما احتفظ بفطنته دائماً فانه سيقع على فرص جديد كثيرة وبما انه رجل نشيط بالفطرة فانه لم يحافظ على رزاقته وتعلقه وحسب ، بل ساهم في ابقاء صديقه كذلك ، صديقه الذي كان اكثر ولعاً بالنساء والخمرة على حد سواء .

والشيء يقود إلى شيء آخر . ففي الحانة التي كان يلتقي فيها جرجس

بـالوران ، جلس جرجس ذات ليلة حتى وقت متأخر من الليل حين دخل تاجر ريفي (اي متسوق لتاجر من خارج المدينة) وقد تمتعه السكر تقريباً . لم يكن ثمة احد سوى الساقى وحين خرج الرجل تبعه جرجس ودوان. دار الرجل حول الزاوية ، وفي مكان معتم خال وثب جرجس إلى الامام شاهراً مسدساً في وجهه ، بينما انطلقت يدا دوان ، وقد أنزل قبعته فوق عينيه ، إلى جيوب الرجل لتفتشها اصابع تعمل بسرعة البرق . اخذ ساعته ومحفظته « ثم دارا حول الزاوية وعادا إلى الحانة التي كانا فيها قبل ان يتمكن من اطلاق أكثر من صرخة. فتح الساقى ، الذي اعطياه بقشيشاً حسناً ، باب القبو لهما حيث أخفيا ثم شقا طريقهما عبر مدخل سري إلى باب الماخور المجاور . وعبر الطح انتقلا إلى ثلاثة اماكن مماثلة تقع وراءه . فعن طريق هذه الممرات كان باستطاعة أي زبون من زبائن هذه الاماكن ان يفر من وجه الشرطة ، كما انها كانت ضرورية لتهرب الفتيات في حالة الطوارئ فآلاف منهن كن يأتين إلى شيكاغو استجابة لاعلانات عن خدمات ويد عاملة ليجدن انفسهن وقد وقعن في شرك وكالات استخدام مزيفة وأقفلت عليهن ابواب بيوت الدعارة . كان يكفي بصورة عامة ان تأخذ ثيابهن منهن انما كان لابد احياناً من « تخديرهن » وابقائهن سجينات اسابيع عدة . في غضون ذلك يتصل اهلوهن بالشرطة ، يبحثون عنهن في كل مكان وفي احيان اخرى لم يكن هؤلاء المحترفون يجدون طريقة

لاقناعهم سوى ان يسمحوا لواحدتهن بالبحث عن المكان الذي يمكن
تعقب الفتاة اليه .

ولقاء مساعدته في هذا العمل الصغير تلقى الساقى عشرين دولاراً
من المائة والثلاثين دولاراً التى حصل عليها الشريكان ، وبالطبع جعلهم
هذا العمل اصدقاء تماماً ، اذ قدمهم بعد بضعة ايام إلى شاب يهودي
يدعى غولد بيرجر وهو احد « منبري الخمر والمخدرات لبيت القمار
والبغاء » حيث كانا يختفيان . بعد بضعة كؤوس ، بدأ غولد بيرجر ،
بشيء من التردد ، يروي كيف تشاجر على فتاته المفضلة مع « لاعب »
محترف ضربه على فكه . كان الشاب غريباً عن شيكاغو واذا ما وجد
ذات ليلة مهشم الرأس فلن يهتم احد بذلك . فتساءل جرجس الذي كان
قد اصبح في هذا الحين يهشم كل رؤوس المغامرین في شيكاغو ، عما
سيحل به ، مما جعل اليهودي أكثر ثقة واطمئناناً وقال ان لديه بعض
المعلومات السرية عن سباقات نيو اورليانز وهي معلومات حصل عليها
مباشرة من ضابط شرطة المنطقة الذي خرج لتوه من ورطة سيئة وقع
فيها مع تجمع كبير للمالكي الخيول . استوعب دوان كل هذا في الحال
الا انه كان مضطراً لان يشرح المسألة لجرجس مرة ثانية قبل ان يستوعبها
ويدرك اهمية فرصة كهذه .

كان هناك « تروست » ضخمة للسباقات يسيطر على المجالس التشريعية
في كل ولاية ينشط فيها ، بل يسيطر على بعض الصحف الكبرى .

ويوجه الرأي العام وليس هناك سلطة في البلاد يمكنها الوقوف في وجهه .
اللهم ماعدا تروست المراهنات على جياة السباق . فقد اقام ميادين
سباق رائعة في طول البلاد وعرضها وعن طريق الجوائز الضخمة
كان يغري الناس بالمجيء ، ومن ثم ينظم سباق قوارب خفيفة ، حيث
بسلبهم فيه مئات ملايين الدولارات كل عام . في الماضي كان سباق
الخيول رياضة اما هذه الايام فانه مهنة ، إذ يمكن ان ينحدر الحصان
ويعالج طبياً ، يساء تدريبه او يحسن تدريبه . ومن الممكن ان يجعلوه
يسقط في اية لحظة او يمكن القضاء على حميته بضربة بالسوط الذي يظن
معظم المتفرجين أنه محاولة لابقاء الحصان في المقدمة . وهناك عشرات
الخدع التي هي من هذا النوع . خدع يقوم بها المالكون احياناً لكسب
الثروات . وخدع اخرى يقوم بها الفرسان والمدربون ، وحياناً اخرى
يقوم بها غرباء تلقوا رشوة مقابلها — لكن معظم الاحيان فان رؤساء
« التروست » هم الذين يقومون بتلك الخدع . الان ، مثلاً ، لديهم
سباق شتائي في نيواورليانز والنقابة ترتب البرنامج اليومي سلفاً .
بينما يعمل وكلاؤها في كل مدن الشمال على « حلب » مكاتب
المراهنات . الكلمة تأتي بواسطة الهاتف البعيد المدى برموز سرية ،
تماماً قبل وقت قصير من كل سباق ، واي امرئ يستطيع الحصول على
السر يحصل على ثروة جيدة تماماً . وان لم يصدق جرجس فليجرب ،
قال اليهودي الصغير . ليلتقوا في بيت معين يوم غد ويقوموا بتجربة .
كان جرجس راغباً بذلك وكذلك دوان . وهكذا ذهبوا جميعاً إلى احد مكاتب

المراهقات الرفيعة الدرجة حيث يلعب التجار والمراهنون القمار فيه (مع نساء المجتمع في غرفة خاصة) . راهن كل منهم بعشرة دولارات على حصان يدعى « بلانك الاسود » . المبلغ المدفوع يربح ستة اضعاف . وفاز الحصان . من اجل سر كهذا كانوا سيقومون بملاكمات كثيرة تماماً — لكن في اليوم التالي اخبرهم غولد بـرجز ان المراهن المسيء شعر بما سيحل به فهرب من المدينة .

كان هناك الكثير من الصعود والهبوط في العمل : الا انه كان هناك دائماً كسب عيش ، داخل السجن أو خارجه . في مطلع نيسان كانت ستجرى انتخابات المدينة وكان ذلك يعني اليسر والغنى لكل قوى الكسب غير المشروع . كان جرجس وهو يتسكع بين الحانات وبيوت القمار والمواخير ، يلتقي بأنصار كلا الحزبين . ومن احاديثهم تبنى له ان يفهم كل مداخل ومخارج اللعبة ، ويسمع عن عدد من الاساليب التي يمكنه بها ان يكون مفيداً وقت الانتخابات . كان « بك هالوران » من الحزب الديمقراطي وهكذا غدا جرجس ديموقراطياً ايضاً . لكنه ليس ديموقراطياً مرأ — فالجمهوريون اشخاص جيدون ايضاً ولا بد انهم سينفقون مبالغ طائلة في هذه الحملة الانتخابية . في الانتخابات الماضية كان الجمهوريون يدفعون اربعة دولارات لكل صوت مقابل ثلاثة يدفعها الديموقراطيون . ذات ليلة كان « بك » يجلس مع جرجس وهما يلعبان الورق مع رجل آخر حكى كيف انهم هالوران بالقيام بالتصويت

بدلاً من « مجرعة » من سبعة وثلاثين ايطالياً من المستوطنين الجدد وكيف انه ، هو الراوي ، التقى بالعامل الجمهوري الذي كان يلاحق الزمرة نفسها ، وكيف ان الثلاثة اجروا صفقة تم الاتفاق فيها على ان يصوت الايطاليون نصفاً بنصف مقابل كأس بيرة لكل منهم ، في حين ذهبت الاموال للمتاثرين .

لم يمض وقت طويل على هذا حتى قرر جرجس ، وقد سئم من اخطار وتقلبات حياة الاجرام المتعددة الاشكال ، ان يقلع عن ممارسة الاجرام وحياة الجريمة لصالح الحياة السياسية . في ذلك الوقت تماماً ، كان هناك الكثير من اللغط الذي ثار حول التحالف بين المجرمين والشرطة . فالكسب غير المشروع عن طريق الجريمة هو الميدان الوحيد الذي لم يكن لاصحاب الاعمال فيه اي دور مباشر - بل هو ما يدعوه الناس باسم « الخط الجانبي » وكانت الشرطة تسير عليه بمفردها . فالقمار المفتوح على نطاق واسع والبغاء المتيسر السبل يجعلان المدينة مريحة لممارسة « الاعمال التجارية » الا ان اعمال السطو والسرقة ليست كذلك . فقد صدف ذات ليلة ان وقع جاك دوان وهو يفتح صندوق مال في احد مخازن الثياب بين يدي حارس ليلى بالجرم المشهود لكن الحارس سلمه إلى شرطي كان بالمصادفة على معرفة حسنة بجاك ، فتحمل مسؤولية السماح له بالفرار ونجم عن ذلك ضجة كبيرة في الصحف كان ضحيتها دوان الذي لم يستطع الا بالكاد ان يغادر المدينة في الوقت المناسب .

في هذه الفترة تماماً حدث ان تعرف جرجس إلى رجل يدعى هاربر عرف فيه الحارس الليلي في مؤسسة براون ، ذاك الحارس الذي كان الاداة في جعله مواطناً امريكياً اول قدومه إلى المسالخ . وقد اهتم الرجل الآخر كل الاهتمام بالمصادفة السعيدة . الا انه لم يتذكر جرجس - فقد مر عليه الكثير « من الناس الاغرار » في زمنه ، كما قال . جلس هاربر في حفلة رقص مع جرجس وهالوران حتى الساعة الواحدة او الثانية صباحاً ، يتبادلون الحكايا عن تجاربهم وخبراتهم وكانت لديه قصة طويلة يحكيها عن مشاجرته مع المراقب العام لقسمه وكيف كان في حينها عاملاً بسيطاً وعضواً نقابياً ايضاً . وقد مضت عدة اشهر قبل ان يفهم جرجس ان المشاجرة كانت مرتبة مسبقاً ، وان هاربر كان يتسلم بالفعل راتباً قدره عشرون دولاراً اسبوعياً من رب العمل لقاء تقرير داخلي عن الاعمال السرية لثقابته . كانت المسالخ تنور اضطراباً وقلقاً في ذلك الحين قال الرجل وهو يتكلم كنتابي ، فسكان باكنتاون تحملوا فوق طاقتهم كما يبدو والاضراب قد يقع في اية لحظة .

بعد هذا الحديث ، قام الرجل بتوجيه بعض الاسئلة إلى جرجس مستفسراً عن احواله وبعد يومين عاد اليه باقتراح مثير قائلاً انه ليس متأكداً تماماً . لكنه يعتقد ان بإمكانه ان يؤمن له راتباً منتظماً ان جاء

إلى باكنجتاون وفعل مايقال له وابقى السر مكتوماً . فهارب - بوش هارب « كما يسمونه - هو اليد اليمنى لمايك سكولي ، الرئيس الديمقراطي لمنطقة المسالخ وفي الانتخابات القادمة ثمة وضع خاص . فقد قدم اقتراح لسكولي بأن يتم ترشيح احد اصحاب مصانع البيرة الاغنياء وهو رجل يعيش في الشارع العريض المحاذي للمنطقة ويسمح بالحصول على اسم كبير وعضوية في المجلس التشريعي . انه يهودي لادماغ في رأسه ولاخطر منه على الاطلاق كما يحتمل ان يدفع رصيذاً جيداً للحملة . وافق سكولي على العرض ، بعدئذ ذهب إلى الجمهوريين باقتراح . فهو لم يكن واثقاً من امكانية تدبيره « لليهودي » ولم يكن يستهدف اقتناص اية فرصة في منطقته ، اذن فليسم الجمهوريون مرشحاً مجهولاً من اصدقاء سكولي وليكن ذاك الذي يدبر لعبة بولنغ في قبو من اقبية شارع آشلاند وهو ، أي سكولي ، سينتخبه بنقود « اليهودي » ، وبذلك يكسب الجمهوريون المجد الذي لايمكنهم الظفر به في أي مكان آخر . مقابل هذا ، كان على الجمهوريين الا يتقدموا بمرشح في العام التالي ، حين يرشح سكولي نفسه للانتخاب من جديد . وافق الجمهوريون على هذا في الحال . لكن اللعنة - كما شرح هارب - هي ان جميع الجمهوريين محققي - وعلى المرء ان يكون احمق كي يكون جمهورياً في منطقة المسالخ ، حيث الملك هناك هو سكولي . فهم لايعرفون كيف يتصرفون وبالطبع لايمكن للعمال الديموقراطيين ، ذوي الجلود الحمراء من عصبية الترويج للحرب ، ان يدعموا الجمهوريين صراحة . وقد لاتكون الصهيونية

كبيرة جداً لولا حقيقة أخرى — فقد ازداد الاهتمام بالسياسة في منطقة
المسالخ خلال العام أو العامين الماضيين اذ برز حزب جديد إلى الوجود .
انهم « الاشتراكيون » وقد « لحبط » هذا الحزب جميع الاوراق كما
قال بوش هاربر . الصورة الوحيدة التي حملتها كلمة « اشتراكي »
إلى ذهن جرجس هي صورة تاموزيوس كوتزلابكا الفضيل المسكين
الذي كان يصرح علانية بذلك . وكان تاموزيوس قد حاول شرح
ذلك كله لجرجس الا ان هذا لم يكن ذا موهبة خيالية ، فظل عاجزاً
عن استيعاب الفكرة ، اما في الوقت الحاضر فقد اقنع بشرح صاحبه
ومفاده ان الاشتراكيين هم اعداء المؤسسات الامريكية — اذ لا يمكن
شراؤهم ولا يمكن الاتفاق معهم او اشراكهم في اية لعبة » . كان مايلك
متزعجاً كثيراً على الفرصة التي قدمتها لهم صفقته الاخيرة . فديموقراطيو
المسالخ كانوا ساخطين على فكرة ترشيح رأسمالي غني وخلال عملية
تبديل الموقف ربما يستنتجون ان مرشحاً اشتراكياً مرموقاً قد يكون
افضل لديهم من مرشح جمهوري مجهول . وهكذا فان هناك فرصة
مناسبة لجرجس كي يصنع لنفسه مكانة في العالم ، شرح له هاربر ،
فهو رجل نقابي معروف في المسالخ كعامل ، ولا بد ان لديه مئات
المعارف والاصحاب وبما انه لم يتحدث معهم في السياسة من قبل فان
بإمكانه الآن ان يظهر كجمهوري دون ان يشير أية شكوك علماً بان
هناك براميل من النقود ستوضع تحت تصرف اولئك الذين يسلمون
البضاعة . وبإمكان جرجس ان يعتمد تماماً على مايلك سكولي الذي لم

يتخل في حياته عن صديق . لكن ما المطلوب منه تماماً ؟ سأل جرجس بشيء من الحيرة ، فشرح له الآخر بالتفصيل . أولاً ، عليه ان يذهب إلى المسالخ ويعمل هناك . صحيح انه قد لا يستمتع بذلك ، لكنه سينال ما يكسبه من اجر علاوة على ماموف يأتيه من موارد اخرى . بعدئذ يعاود نشاطه في التقابة مرة ثانية وربما يحاول الحصول على مركز مثلما فعل هاربر نفسه ، وسيحكي لكل اصدقائه عن الاهداف الحسنة للتويل ، المرشح الجمهوري ، وفي الوقت ذاته يقوم بدعاية « مضادة لليهودي » بعدئذ يوفر له سكولي مكان اجتماع فيعلن هو عن تأسيس « رابطة الشباب الجمهوري » او شيء من هذا القبيل ، ويوزعون في هذا الاجتماع افضل مشروبات صناعي البيرة ويطلقون الألعاب النارية والمفرقات ويلقون الخطب ، تماماً مثل عصبة الترويوخ للحرب . ان جرجس يعرف ، بالتأكيد ، مئات الرجال الذين يحبون هذا النوع من الدعاية ولسوف يتواجد هناك قادة الحزب الجمهوري المعروفون والعمال الذين سيساعدونه لكي يوفر لهم اغلبيّة كبيرة تكفي لنجاحهم يوم الانتخابات .

سأل جرجس ، بعد ان سمع هذا الشرح حتى النهاية . « لكن كيف احصل على عمل في باكنجتاون ؟ اسمي مدرج في القائمة السوداء . » فضحك بوش هاربر لهذا السؤال ثم قال : « سأتولى بنفسني تدبير الامر . »

فأجاب الآخر « اذن أنا موافق . اعتبرني منذ اللحظة « محسوبك » . »

وهكذا عاد جرجس مرة ثانية إلى المسالخ ، حيث تقدم إلى سيد المنطقة السياسي ، رئيس بلدية شيكاغو مايك سكولي الذي يمتلك معمل الآجر والقمامة وبركة الجليد - غير ان جرجس لم يكن يعرف ذلك . لم يكن يعرف ان سكولي هو الذي ينبغي لومه على الشارع غير المرصوف الذي غرق فيه ابنه ، وهو المسؤول عن تعيين القاضي الذي حكم بالسجن عليه اول مرة ، وهو صاحب الاسهم الرئيسية في الشركة التي باعتها المنزل تحت ستار الايجار ثم سلبته اياه . جرجس لا يعرف شيئاً عن هذا كله - لا يعرف ان سكولي مجرد اداة ، دمية بأيدي اصحاب دور التعليب . كل ما يعرفه هو ان سكولي قوة هائلة ، أكبر رجل قابله في حياته .

كان سكولي ايرلندياً جاف الجلد ، ضئيل الجسم ، مرتعش اليدين ، يتحدث حديثاً مؤثراً مع زائره وهو يراقبه بعينين كعيني الجرذ ، كي يحزم امره بشأنه . بعدئذ اعطاه ملاحظة إلى السيد هارمون ، وهو احد المدراء الرئيسيين في مؤسسة دور هام .

« حامله ، جرجس رودكوس ، احد اصدقائي الشخصيين بودي ان تجد له مكاناً مناسباً وذلك لاسباب هامة . لقد اساء التصرف في يوم من الايام لكن أرجو ان تكون من الطيبة بحيث تتجاوز ذلك » .

قرأ السيد هارمون الملاحظة ثم رفع عينيه مستفهماً « ماذا يعني بسوء التصرف » ؟

فقال جرجس « ادرج اسمي في اللائحة السوداء ياسيدي » .

قطب السيد هارمون حاجبيه لدى سماعه الاجابة ثم قال « اللأئحة السوداء ؟ ، ماذا تعني ؟ » فاحمر وجه جرجس ضيقاً وانزعاجاً .
« لقد نسي انه ليس هناك لأئحة سوداء » انا - اعني . . وجدت صعوبة في الحصول على عمل « تلغشم اخيراً . » « وما السبب ؟ »
« لقد تشاجرت مع رئيس عمال - ليس رئيسي ، ياسيدي - ضربه . »

« ارى ذلك » قال الآخر ثم اطرق مفكراً يضع لحيات . بعدها سأل :
« ما العمل الذي ترغب به ؟ »

فقال جرجس « أي شيء ياسيدي ، فقط علي ان اكون حطراً
إذا كسرت فرائعي هذا الشتاء . »

« هل يناسبك العمل كمحارس ليلى ؟ . . »

« لا ياسيدي ، فعلي ان اكون بين العمال

« ارى ذلك - سياسة . حسناً ، هل يناسبك ان تشطب لحم
الخنازير ؟ »

« اجعل ياسيدي . »

وهكذا دعا السيد هارمون ضابط الدوام ثم قال له - نخذ هذا الرجل
إلى بات مورفي وليجد له مكاناً يعمل فيه .

بعد ذاك سار إلى قاعة ذبح الخنازير أي المكان نفسه الذي قصده
في الأيام الماضية يستجدي عملاً . أما الآن فقد كان يمشي
بزهو شديد بل لقد ابتسم في سره حين رأى التجهيم الذي طغى على
وجه رئيس العمال حين قال له ضابط الدوام : « السيد هارمون يقول إن
تسلم هذا الرجل عملاً » . إلا أن رئيس العمال لم يتلفظ بكلمة واحدة
سوى « حسن » .

وهكذا أصبح جرجس عاملاً مرة أخرى . بحث عن أصدقائه
القدامى في الحال . انضم للنقابة ثم بدأ « يغرس الجذور » « سكوتي »
دويل الذي عمل له معروفاً ذات يوم ، راح جرجس يشرح ، وهو
شخص عظيم حقاً ، بل لقد كان هو نفسه عاملاً ولسوف يمثل العمال
خير تمثيل— ترى لماذا يريدون التصويت ليهودي مليونير ؟ وماذا صنع
لهم سكولي لكي يدعموا مرشحيه طوال الوقت ؟ في غضون ذلك .
اعطى « سكولي جرجس رسالة إلى زعيم الجمهوريين في الناحية فذهب
إلى هناك حيث التقى بالجمع الذي كان عليه أن يعمل معه . كانوا
قد استأجروا صالة كبيرة من قبل ، ببعض أموال صانع البيرة . فغدا
جرجس كل ليلة يأتي بدسته من الأعضاء الجدد في رابطة دويل
الجمهورية ، وسرعان ما حددوا موعد الافتتاح الكبير وفي ليلة الافتتاح
اتوا بجوقة موسيقية سارت عبر الشوارع . كذلك اطلقوا المفرقات
والالعب النارية وأشعلوا الانوار الحمراء امام الصالة وحضر جمع
غفير من الناس اضطربهم لعقد اجتماعين كبيرين الامر الذي فرض

على المرشح الشاحب والمرتعذ خوفاً ان يلقي ثلاث مرات الخطبة الصغيرة التي كان احد رجال سكولي قد كتبها له ، والتي كان قد امضى شهراً كاملاً يستظهرها . غير ان خير ماحدث تلك الليلة هو أن السناتور سبيرشانكر ، الرجل الشهير والخطيب المصقع والمرشح لرئاسة الجمهورية ، ركب سيارة مكشوفة ومضى لكي يناقش حقوق المواطن الامريكي المقدسة والحماية والرفاهية التي يتمتع بها العامل الامريكي . وقد اقتبست جميع الصحف الصباحية خطابه العظيم الذي تصدر صفحاتها الاولى . كما قالت هذه الصحف إنه يمكن القول بناء على مصادر وثيقة ان الشعبية غير المتوقعة التي تتزايد لصالح دويل المرشح الجمهوري للنيابة تثير كثيراً قلق السيد سكولي رئيس لجنة الحزب الديمقراطي في المدينة .

وكان هذا الرئيس مايزال اكثر انزعاجاً حين خرجت مسيرة المشعل الهائلة وفي مقدمتها افراد « رابطة دويل الديمقراطية » بقبعاتهم الحمراء ، ثم وزعت البيرة بلا حساب لكل صاحب صوت في الناحية . افضل بيرة وزعت في اية حملة سياسية ، كما شهد بذلك كل المنتخبين . خلال هذا العرض ، وفي اجتماعات طارئة لاعد لها ولاحصر كان جرجس يعمل دون كلل او ملل . لم يكن يلقي خطباً — فهناك محامون وخبراء آخرون مختصون بذلك بل كان يساعد في تدبير الامور : توزيع اللافتات ، لصق الملصقات ، الإتيان بال جماهير ، ومحين يبدأ العرض ، ينصرف جرجس للاشراف على المفرقات النارية والبيرة ، وهكذا كان خلال الحملة يتصرف بالاف الدولارات التي هي من

نقود صانع البيرة اليهودي ويديرها باخلاص وامانة كاملين . لكنه قبل انتهاء الحملة علم ان بقية الفتيان ينظرون اليه بشيء من الحقد . إما لانه جعل عرضهم اقل فخامة من عرضه أو لانه يعمل من غير اعطائهم حصتهم من « الفطيرة » ،

بعد ذلك ، بذل جرجس كل مافي وسعه لكسب رضاهم وللتعويض عما فاته قبل اكتشافه « الثقوب » الاضافية الموجودة في برميل الحملة .

ولقد كسب رضا سكولي ايضاً : فصباح الانتخاب ، خرج في الساعة الرابعة ليحصل على الاصوات . . استأجر عربة ذات حصانين وراح ينتقل من منزل إلى منزل كي يرافقه اصدقاءه إلى مكان الاقتراع مفعماً بنشوة الظفر . لقد اقترح هو نفسه ست مرات كما اقترح بعض اصدقائه مثل هذا العدد وكان يأتي بمجموعة بعد اخرى من أحدث الأجانب - ليتوانيين - بولونيين - بوهيميين - سلوفاك وحين يضعهم في المطحنة يسلمهم إلى رجل آخر كي يأخذهم إلى مركز اقتراع آخر. حين انطلق جرجس لأول مرة اعطاه رئيس المنطقة الانتخابية مائة دولار ، ثم عاد ، خلال ذلك اليوم ، ثلاث مرات اخرى من اجل مئات اخرى ، دون ان يبقى في جيبه أكثر من خمسة وعشرين بالمائة من هذا المبلغ في كل مرة . كان المال يذهب كله إلى الاصوات الفعلية ، وهكذا في معقل الديمقراطيين نفسه انتخبوا « سكولي » دويل واضع لعبة البولنغ سابقاً ، بأكثرية اصوات بلغت الف صوت

تقريباً واعتباراً من الساعة الخامسة من ذلك المساء حتى الثالثة من صباح اليوم التالي ، اطلق جرجس لنفسه العنان في اكثر حالات النشوة والطرب عربدة « وقصفاً وقد فعل الشيء ذاته كل واحد في باكنجتاون تقريباً اذ كان هناك جندل شامل بسبب النصر الذي حققته الجماهير والهزيمة الساحقة التي أحاقت بالبلوتوقراطي (١) المتغطرس على يد الجماهير .

- ٢٦ -

ظل جرجس بعد الانتخابات في باكنجتاون واحتفظ بعمله ، فالغضب الشعبي الذي حدث مطالباً بأن ترفع الشرطة حمايتها عن المجرمين كان ما يزال مستمراً وبدا لجرجس ان من الافضل « الانحناء للعاصفة » في الوقت الحاضر . بات لديه في المصرف ثلاثمائة دولار تقريباً وكان بإمكانه ان يمنح نفسه الحق باجازة لكن عمله سهل وقد بات يؤديه بحكم العادة . فضلاً عن أنه استشار مايك سكولي فنصحته بأن شيئاً ما سيتغير خلال فترة وجيزة .

استأجر جرجس لنفسه مكاناً في نزل مع بعض الاصدقاء الحميمين . كان من قبل ، قد سأل عن آنييل وعلم ان الزبييتا وعائلتها قد رحلت إلى قلب المدينة ، وهكذا لم يعد يفكر بهم . لقد عقد لنفسه صداقة مع طاقم

(١) البلوتوقراطي : الشخص المتنفذ بسبب ثروته .

جديد ، شبان غير متزوجين من « الرياضيين » . كان جرجس قد ألقى منذ زمن طويل بشيابه كعامل اسمدة ، وبات مذ دخل عالم السياسة يرتدي ياقة كثانية وربطة عنق حمراء زاهية . وكان ثمة اسباب كثيرة تدعو للاهتمام بملابسه ، اولها أنه يكسب احد عشر دولاراً كل اسبوع يمكنه انفاق ثلثها على متعه دون مس مدخراته .

احياناً كان يقصد مع اصدقائه قلب المدينة حيث يرتادون المسارح الرخيصة وصلالات الموسيقى ومواطن المتعة الاخرى وفي كثير من محانات باكنجتاون كان ثمة طاولات قمار ، هنا كان باستطاعة جرجس ان يقضي أمسياته يقامر ويلهو . كذلك كان هناك ورق لعب ونرد . وذات مرة ، دخل جرجس لعبة ليلة السبت ربح فيها كثيراً ، لكن باعتباره رجلاً رفيع النفس فقد ظل يلعب مع البقية حتى وقت متأخر من عصر الاحد التالي ، وحينها كان قد خسر مايزيد عن العشرين دولاراً . كذلك كانت تقام عدمن الحفلات في ليالي السبت في باكنجتاون اذ يأتي كل رجل بفتاته ويدفع نصف دولار ثمن البطاقة وعدة دولارات اضافية ثمن شرابه خلال الاحتفال الذي كان يستمر حتى الثالثة او الرابعة صباحاً مالم يفسده شجار ما خلال هذا الوقت . كان الرجل والمرأة يستمران في الرقص معاً نصف مخدرين بالشراب والرغبة . بعد فترة وجيزة اكتشف جرجس ما كان يعنيه سكولي بقوله : شيء ماسيتغير . ففي ايار انتهى امد الاتفاقية بين الثقافات واصحاب دور التعليب . اتفاقية جديدة . كانت المفاوضات مستمرة ، والمسالخ تعج بالكلام

عن الإضراب فالاتفاقية القديمة تهتم بأجور العمال المهرة فقط ، رغم أن ثلثي أعضاء نقابة عمال اللحم هم من العمال غير المهرة ، اجرة بعضهم حوالي ثمانية عشر سنتاً ونصف في الساعة ، وكانت النقابة تود رفع هذه الاجرة في السنة القادمة ، ولم تكن اجرة كبيرة كما تبدو - فخلال المفاوضات فحص موالو النقابة صكوك الدوام ووجدوا أنها تبلغ حوالي عشرة آلاف دولار ، كما وجدوا ان أعلى اجر مدفوع هو اربعة عشر دولاراً في الاسبوع وان الأدنى هو دولاران وخمسة سنتات ، وان المتوسط العام ستة دولارات وخمسة وستون سنتاً وهو مبلغ لايسد رمق الاسرة الا بالكاد . وبما ان اسعار اللحوم المعلبة قد زادت بنسبة خمسين بالمائة تقريباً خلال السنين الخمس الماضية ، بينما انخفض سعر اللحم القائم بالنسبة ذاتها تقريباً فقد بدا ان اصحاب دور التعليب قادرون ، ولا بد ، على دفع الزيادة . غير ان هؤلاء لم يكونوا راغبين بذلك - بل لقد رفضوا طلب النقابة ، ولكي يبينوا هدفهم تماماً فقد عمدوا بعد اسبوع او اسبوعين من انتهاء أمد الاتفاقية إلى تخفيض أجور حوالي الف عامل إلى ستة عشر سنتاً ونصف في الساعة ، كما تناقلت الالسن القول ان جوائز العجوز قد اقسم ان يخفضها ايضاً إلى الخمسة عشر سنتاً عما قريب . كان هناك حوالي مليون عامل ونصف يبحثون عن عمل في البلاد ، مائة الف منهم تماماً في شيكاغو . فهل ينبغي على اصحاب دور التعليب ان يتركوا مندوبي النقابة يدخلون مكاتبهم

ويوقعونهم على عقد يخسرون بسببه عدة آلاف من الدولارات كل يوم ولمدة سنة ؟ أليس ذلك كثيراً ؟

هذا كله كان في حزيران ، وخلال فترة وجيزة طرحت المسألة على الاستفتاء في النقابة فاتخذ قرار بالاضراب ووقع الامر ذاته في كافة المدن التي تحوي دور التعليب ؛ وفجأة استيقظت الصحف والرأي العام لمواجهة الاحتمال الفظيع بأنه قد يحدث نقص في اللحوم . وقد عرضت كافة ضروب الحجج لاعادة النظر بالوضع ، الا ان اصحاب دور التعليب كانوا أعند من بغال ، فقد استمروا بتخفيض الاجور وتحويل حمولات الماشية وتحميل العربات بدلاً منها بالفرش والاسرة مما جعل الرجال يغلون كقدور على نار وهكذا انطلقت البرقيات ذات ليلة من مقر النقابات إلى كافة مراكز التعليب الكبيرة - إلى سانتبول ، أو ماها الجنوبية ، مدينة سيوكس ، سانت جوزيف ، مدينة كنساس ، سانت لويس الشرقية ونيويورك - وعند ظهر اليوم التالي خلع مابين خمسين وستين الف عامل ملابس عملهم وخرجوا من المصانع وبذلك بدأ « اضراب اللحم » الكبير .

مضى جرجس لتناول عشاءه ، بعدئذ قصد مايك سكولي الذي كان يقطن في متزل جميل في شارع رصف جيداً وأنير انارة حسنة ، إكراماً له خصيصاً - كان سكولي يعيش في شبه تقاعد وكان يبدو عصبياً مضطرباً . « ماذا تريد ؟ » سأل جرجس حين رآه .

فأجاب الآخر « جئت لأرى ان كان باستطاعتك ان تحصل لي على مكان في الاضراب . » عقد سكولي حاجبيه ثم حذجه متمعناً . في صحف الصباح كان جرجس قد قرأ تنديداً شديداً للهجة كتبه سكولي ضد اصحاب دور التعليب وصرح فيه انهم ان لم يعاملوا عمالهم على نحو افضل فان سلطات المدينة ستنتهي المسألة بهدم منشآتهم . لذا لم يفزع جرجس ابداً حين سأله الآخر فجأة « انظر هنا . . . رود كوس . . . لماذا لا تبقى في عملك ؟ » .

فبدأ جرجس بصوت عال : « ماذا ؟ ارفض الاضراب مع نقابتي ؟ »

فسأل سكولي : « ولم لا ؟ ماالتقابة بالنسبة لك ؟ »

« لكن . . . لكن . . . » تلثم جرجس فقد كان يعتبر خروجه مع نقابته امراً بديهياً .

فتابع الآخر : « اصحاب دور التعليب بحاجة لناس جيدين وناس سيئين ، وهم يعاملون الرجل الذي يقف بجانبهم خير معاملة ، فلم لا تستغل هذه الفرصة وتثبت نفسك ؟ »

فقال جرجس : « لكن ، كيف سأكون ذا فائدة لك يوما من الايام — في السياسة ؟ »

فقال سكولي بسرعة : « لن تكون ذا فائدة لي على أي حال . »
« لم لا ؟ » قال جرجس

فصرخ الآخر : « يا للجهيم ايها الرجل ! ! الا تعرف انك جمهوري ؟
وهل تظن اني دائماً سأنتخب الجمهوريين ؟ لقد اكتشف صاحبنا
فعلاً كيف خدمناه وهناك خلاف حول الدفع . »

تطلع جرجس مبهوتاً . لم يكن قد فكر بهذا الامر من قبل واخيراً
قال « يمكنني ان اصبغ ديموقراطياً » .

فأجاب الآخر : « اجل ، لكن ليس مباشرة . فالمرء لا يغير موقفه
السياسي كل يوم فضلاً عن اني لست بحاجة لك - ليس لدي ما اكلفك
به ، وما يزال امامنا وقت طويل حتى موعد الانتخاب ، فماذا تراك
فاعلاً في غضون ذلك ؟ »

« كنت أظن أن بإمكانني الاعتماد عليك » . . بدأ جرجس .
فرد سكولي « اجل بإمكانك - فأنا لم اتخل عن صديق قط .
لكن هل من المستحسن ان تترك العمل الذي أمته لك وتأتي لتطالبني
باخر ؟ لدى مائة شخص يلاحقوني كل يوم من اجل اعمال ، فماذا
تراني افعل ؟ لقد سجلت ألفاً وسبعمائة رجل على جدول رواتب البلدية
كعمال لتنظيف الشوارع هذا الاسبوع ، لكن هل تظن اني قادر
على الاستمرار في ذلك إلى الابد ! ليس باستطاعتي ان احكي للناس
الآخرين ما احكيه لك ، لكنك بت منا ، وعليك ان تملك الوعي الكافي
لتدبير شؤونك . ترى ماذا ستكسب من الاضراب ؟ »

« لم أفكر بذلك ، » قال جرجس

فقال سكولي « تماماً . لكن من الأفضل أن تفكر . اسمع كلامي ،
الاضراب سينتهي خلال بضعة ايام وسينهزم العمال . وفي غضون ذلك
ماتحصل عليه سيكون ملكك . ألا ترى ذلك ؟ »

ورأى جرجس ذلك . فقد عاد إلى المسلخ وإلى قاعة العمل . كان
العمال قد تركوا خطأ طويلاً من الخنازير وهي في مختلف مراحل
إعدادها ، وكان رئيس العمال يوجه الجهود الضعيفة لحوالي عشرين
او ثلاثين من كتبة وصبية المكاتب الادارية لانهاء العمل وايصال لحم
الخنزير إلى غرف التبريد ، فمضى جرجس مباشرة نحوه ثم أعلن :
« هاأنذا قد عدت إلى العمل ، سيد مورفي » فصاح الرجل وقد أضواء
وجهه : « رجل رائع . . . هيا . . . قدماً » فقال جرجس بعد أن تأكد
من حماسه : « لحظة واحدة فقط . أظن أنه ينبغي أن آخذ أجراً أكبر
قليلاً » فأجاب الآخر : « أجل ، بالطبع . كم تريد ؟ » كان جرجس
قد ناقش الأمر وهو في طريقه إلى المعمل ، أما الآن فقد كادت أعصابه
تخلله ، لكنه شدد من قبضة يديه ثم قال : « أظن أنه ينبغي أن آخذ
ثلاثة دولارات يومياً . » « حسناً » قال رئيس العمال بسرعة ، وقبل ان
ينتهي النهار اكتشف صديقنا ان الكتبة والموظفين وصبية الادارة

كانوا يأخذون خمسة دولارات يومياً . وكان بإمكانه حينذاك ان يرفس نفسه .

وهكذا أصبح جرجس احد الابطال الامريكيين الجدد ، رجلاً يمكن مقارنة فضائله بفضائل شهداء ليكسينجتون وفالي فورج . بالطبع ليس التشبيه تماماً لان جرجس كان يتلقى اجرأ سخياً ويلبس لباساً كاملاً ولديه سرير ذو فوابض وفراش حسن ويتناول ثلاث وجبات يومياً . لذلك كان مرتاحاً تماماً وفي مأمن من مخاطر الحياة ، ماعدا أن رغبته في الشراب كانت تدفعه للخروج من باب المسلخ . لكن حتى لو اراد الخروج فانه لم يكن يستطيع ذلك بدون حماية ، فجزء كبير من قوة الشرطة غير الصالحة في شيكاغو تحول فجأة من مكان عمله في تعقب المجرمين إلى خدمته هو وامثاله .

كان القرار الذي اتخذته الشرطة والمضربون ايضاً هو ضرورة تجنب العنف الا ان مجموعة أخرى ذات علاقة بالامر كانت قد قررت العكس — ألا وهي الصحف ووسائل الاعلام . في اليوم الاول من حياته ، كخارج على الاضراب ، ترك جرجس العمل مبكراً ، وبروح التحدي المعهودة فيه وجد نفسه يتحدى ثلاثة من معارفه بأن يخرجوا ويتناولوا كأساً من الشراب . قبل الجماعة التحدي ومضوا عبر بوابة شارع هالستين الكبيرة ، حيث كان عدد من رجال الشرطة يراقبون . وكذلك

بعض عيون النقابة الذين كانوا يتفحصون بدقة كل من يدخل أو يخرج .
سار جرجس وصحبه باتجاه الجنوب في شارع هالستين حتى اجتازوا
الفندق . حينذاك وعلى حين غرة بدأ ستة من الرجال السير باتجاههم .
عبروا الشارع ثم مضوا لمجادلتهم حول الخطأ الذي ارتكبوه بالعودة
إلى العمل ، وبما ان اسلوب المجادلة لم يكن صحيحاً فقد تحول النقاش
إلى تهديد فجأة رفع احد الستة قبعة واحد من الاربعة رامية بها إلى السياج ،
فانطلق الرجال في اثرها . بعد ذلك ، وحين ارتفعت صرخة « خارجين
على الاضراب » واندفعت دسته من الرجال الذين خرجوا من الخانات ،
وجد أحد الاربعة نفسه وهو يطلق ساقيه للريح ثم سرعان ما لحق به
آخر . اما جرجس وزميله الرابع فقد ظلا يتبادلان اللكمات مع الآخرين
مدة طويلة قبل ان يكشفوا ان عليهما ايضاً ان يسلما سيقانهما للريح ،
عبر الفندق ومن ثم إلى المسلخ ثانية . اثناء ذلك جاءت الشرطة تعدو .
وبما ان حشداً من الناس كان قد تجمع فقد جاءت قوة اخرى من الشرطة
أطلقت صفارات الانذار . لم يعرف جرجس شيئاً من هذا كله .
فقد عاد إلى شارع دور التعليب وهناك رأى أمام مركز الدوام الاساسي
احد اصحابه لاهثاً مقطوع الانفاس ، يكاد يحن وهو يروي لجمع
يتزايد باستمرار كيف هوجموا هم الاربعة من قبل حشد هادر احاط
بهم وكاد يمزقهم ارباً . وبينما كان يقف منصتاً ، يبتسم بسخرية ،
رأى عدة شبان أنيقين يقفون بجرار الحشد وفي ايديهم دفاتر . ثم ،

لم تمض ساعتان على ذلك حتى رأى باعة الصحف يحرون وتحت آباطهم
حزم من الصحف طبع عليها باحرف حمراء وسوداء :

حوادث عنف في المسالخ . . . نخرجون على الاضراب تحيط بهم
غوغاء مسعورة

ولو اشترى جرجس صحف الولايات المتحدة الصباحية كلها
يومذاك ، لوجد ان مغامرته العظيمة التي كانت تستهدف شرب البيرة
قد غدت موضوعاً يقرأه ملايين الناس وتكتب عنه افتتاحيات .

وكان جرجس سيري المزيـد من هذا مع مرور الوقت . لكن كان
عليه ، حين ينتهي عمله ، ان يختار بين ركوب الترام إلى المدينة وقضاء
الليل في غرفة وضعت فيها الاسرة على شكل صفوف ، فاختار الحل
الاخير . لكن ، لندامته ، وجد ان زمراً من الخارجين عن الاضراب
ظلت طوال الليل تتوافد ، وبما ان قلة قليلة من العمال الجحـيدين كان
بالامكان الحصول عليها من اجل اعمال كهذه ، فان العينة من « الابطال
الامريكيين الجدد » كانت تضم مختلف انواع المجرمين وحتالة
المدينة اضافة إلى الزوج وادنى اصناف الاجانب - يونانيين ، رومانيين ،
صقليين وسلوفاك . جذبهم إلى العمل الامل بحدوث اضطرابات عامة
أكثر من الاجور الكبيرة ذاتها . ولقد أحوالوا الليل إلى جحيم حقيقي
بغنائهم وصخبهم ولم يستطع جرجس النوم إلا حين كان عليه ان ينهض
إلى العمل .

في الصباح وقبل ان ينهي جرجس افطاره . ارسله بات مورفي إلى واحد من المشرفين العاملين . فسأله عن تجربته فيما يتعلق بغرفة الذبح ، حينها بدأ قلبه يرق بسرعة اذ ادرك في الحال ان ساعته حانت ، وانه سيغدو رئيس عمال .

كان بعض رؤساء العمال من اعضاء النقابة وكان الكثير منهم قد رفض المشاركة في الاضراب لكن في قسم الذبح بالذات كان اصحاب دور التعليب في اشد حالات الضيق ، وهناك بالضبط كانت قدرتهم على التحمل في ادنى مستوياتها اذ من الممكن تأجيل عمليات تدخين اللحم وتعليبه وتعليقه بعض الوقت ، كما يمكن اتلاف كل المنتجات الثانوية اما اللحوم الطازجة فيجب تأمينها ، والا فان المطاعم والفنادق والبيوت ذات الحجارة الرمادية ستشعر بالضغط ، وحينذاك سيأخذ الرأي العام « اتجاهها مفاجئاً » .

فرصة كهذه لا يصادفها الانسان مرتين وهكذا امسك بها جرجس . اجل كان يعرف العمل ، كل ماله علاقة بالعمل ، وباستطاعته ان يعلمه للآخرين ، لكن اذا ما استلم العمل وأثبت جدارته فانه يتوقع ابقائه فيه ، ترى ألن يطردوه منه حين ينتهي الاضراب ؟ . فأجاب المشرف ان بإمكانه ، في هذا المجال ، الوثوق تماماً بمؤسسة دورهام . انهم يفكرون بأن يلتقوا النقابات وكل من دعمها من رؤساء العمال

درساً لا ينسى ابد الدهر وقد علم جرجس ان اجره اليومي سيكون
خمسة دولارات طوال فترة الاضراب وخمسة وعشرين دولاراً في
الاسبوع بعده :

وهكذا لبس صاحبنا الحذاء الخاص بحذاء الذبح . وبنطلون
« الجينز » ثم ، انكب على عمله . مشهد غريب كان يجري في احواض
الذبح - جمع من الزوج والامجانب الاغبياء الذين لا يفهمون كلمة
مما يقال لهم وقد اختلطوا بآخرين من الكتبة وحفظة الدفاتر جوف
الصدور شاحبي الوجوه شبه مغشي عليهم بسبب الحرارة الحارقة
ورائحة الدم الطازجة القاتلة - والكل يكافح ليسلخ دسمة او دسيتين
من رؤوس الماشية في المكان ذاته الذي كانت فئة الذبح فيه تعمل قبل
اربع وعشرين ساعة بسرعة غريبة ودقة مذهشة يصل معها عدد اللبائح
إلى اربعمائة ذبيحة كل ساعة . .

لم يكن الزوج والمشاكسون من حي « ليفي » يرغبون بالعمل ،
لذا كان بعضهم يشعر كل بضع دقائق بالرغبة في القعود والاستراحة .
خلال يومين اضطر دورهام وشركاه لتشغيل المراوح الكهربائية كي
تبرد لهم الغرف ، بل ولتأمين مقاعد لهم كي يرتاحوا عليها . وفي
غضون ذلك كان باستطاعتهم ان يخرجوا ليبعثوا عن زاوية ظلية
يأخذون « غفوة » فيها . وبما انه لم يكن هناك مكان خاص بأحد ولم
يكن هناك نظام ، فقد كانت تمر ساعات قبل ان يكتشف رؤسائهم

اماكن وجودهم . اما بالنسبة لمستخدمي المكاتب المساكن فقد بذلوا كل ما في وسعهم يدفعهم إلى ذلك خوفهم ، فقد طرد ثلاثون منهم دفعة واحدة في صباح اول يوم من ايام الاضراب لرفضهم العمل ، فضلاً عن أن عدداً من النساء كن يعملن ككاتبات وضاربات آلة كاتبة ، اضطرن للعمل كنادلات . مثل هؤلاء العناصر هم الذين اضطر جرجس لتنظيمهم . وقد بذل كل جهد لديه طائراً من مكان إلى مكان ، منتظماً اياهم في صفوف موضحاً لهم اساليب العمل . لم يكن قد أعطى امراً واحداً في حياته لكنه كان قد تلقى ما يكفي لكي يعرف كيف تعطى الاوامر . وسرعان ما لبس لبوس الأمر فراح يهدد ويؤمر مجر مثل أي أمر متمرس لكنه لم يكن يملك التلامذة المطواعين . « انظر ايها الرئيس » كان يبدأ احد الزوج كبار البشة « ان كان عملي لا يعجبك فبامكانك ان تأتي بمن يؤديه خيراً مني . » عند ذاك كان يجتمع حشد من العمال وينصتون متممين بالتهديدات . لقد فقدت بعد الوجبة الاولى كل السكاكين الفولاذية تقريباً ، والآن كان لدى كل زنجي واحدة منها مشحودة جيداً ومخبأة في مكان ما من ثيابه .

وسرعان ما اكتشف جرجس ان من المستحيل تحقيق النظام في غمرة الفوضى هذه ، لذا عمل جاهداً كي يتكيف مع الجو ، فليس ثمة جدوى من انهاء نفسه بالزعيق والصراخ . ان كانت الجلود والامعاء ستخرج تالفة لافائدة منها فليس ذلك من مسؤوليته ، واذا ما استلقى

احد العمال خارجاً ونسي ان يعود فليس هناك فائدة من البحث عنه ، لان البقية قد يتركون العمل خلال ذلك . كل شيء كان يذهب هدرأ ، خلال الاضراب ، وكان اصحاب دور التعليب يدفعون . ولم ينقض زمن طويل حتى اكتشف جرجس أن عادة الاستراحة كانت قد أوجت لبعض العقول اليقظة بفكرة التسجيل في اكثر من مكان وكسب أكثر من خمسة دولارات في اليوم . وحين امسك رجلاً بالجرم المشهود « سرحه » الا ان ذلك حدث ، بالمصادفة ، في ركن هادىء فقدم له الرجل ورقة من فئة العشرة دولارات مع غمزة من عينه فتلقاهما جرجس دون اعتراض . وبالطبع لم يمر وقت طويل حتى انتشرت هذه العادة وسرعان ما وجد جرجس نفسه يكسب دخلاً جيداً منها .

في مواجهة صعوبات كهذه ، كان اصحاب دور التعليب يعدون انفسهم محظوظين ان استطاعوا ذبح الماشية التي كانت تصاب اثناء النقل والخنزير التي تقع فريسة المرض . اذ غالباً ما كانت الخنازير ، خلال رحلة بالقطار لمدة يومين او ثلاثة وفي طقس حار وبدون ماء ، تصاب بالكوليرا وتنفق . وقد تهجم البقية على واحدها قبل ان يقضي نحبها تماماً . وحين يفتحون عربة القطار قد لا يجدون منه سوى العظام . واذا لم تذبح كل الخنازير الموجودة في عربة كهذه حالاً ، فانها ستصاب جميعها بالعدوى وتموت . وحينذاك لن يستفاد منها الا بتحويلها إلى شحوم ، الشيء ذاته ينطبق ايضاً على الماشية التي كانت تنفق ايضاً

وتموت او تجر قوائمها المكسورة التي تظل عالقة بجلودها - وكان لابد من ذبحها حتى ولو اضطر السماسرة والمشترون والمراقبون العامون لخلع ستراتهم والمساهمة في سوقها وذبحها وسلخ جلودها . خلال ذلك ، كان وكلاء اصحاب دور التعليب يجوبون كل مكان بحثاً عن زمر الزوج في مناطق الريف الجنوبي البعيد مقدمين لهم الوعود بأجرة خمسة دولارات في اليوم مع الطعام والنوم ، مع حرصهم الكامل على اغفال كل ذكر للاضراب القائم . وبذلك كانت حملات من عربات القطارات تشق طريقها بأجر خاص من شركة السكك الحديدية التي اغفلت كل مايتعلق بتعرفة الركوب . بلدان ومدن كثيرة استفادت من هذه الفرصة لاختلاء سجونها ودور العمل فيها - ففي ديترويت ، مثلاً ، كان القضاة يطلقون سراح كل العمال الذين يوافقون على مغادرة المدينة خلال اربع وعشرين ساعة ، لينقلهم وكلاء دور التعليب من قاعات المحكمة مباشرة ، حيث يقدمون لهم في عربات السكك الحديدية كل مايلزمهم من طعام وشراب بحيث لايجد احدهم مايفريه بالنكوص . لقد استأجروا ثلاثين فتاة في سنسيناتا « لتعليب الفواكه » وحين وصولهن وجدن أن العمل هو تعليب اللحم المطبوخ ، ووضعت لهن أسرة في ممر عام ، يمر عبره الرجال . وبما ان الورش كانت تأتي ليل نهار ، ترافقها عناصر الشرطة ، فقد كانت تودع في المشاغل والمخازن وفي حظائر السيارات إلى درجة كنت تجد فيها السرير على

السريو بل اهتم في بعض الاماكن كانوا يستخدمون الغرفة ذاتها للنوم والطعام ، ففي الليل يمد العمال فرشهم على الطاولات كي يظلوا في منأى عن اسراب الجردان .

لكن ، رغم كل جهودهم ظل اصحاب دور التعليب مرتبكين مشوشين . فتسعون بالمائة من العمال كانوا قد رحلوا ، وكانوا يواجهون مهمة تكوين يدهم العاملة تكويناً تاماً من جديد — مع ارتفاع سعر اللحم بمقدار ثلاثين بالمائة والمطالبة العامة بايجاد حل . وقد تقدموا بحل يقضي بأن تطرح المسألة برمتها امام لجنة تحكيم . بعد عشرة ايام قبلت النقابة العرض وألغى الاضراب . وقد تم الاتفاق على اعادة كافة العمال إلى اعمالهم خلال خمسة واربعين يوماً شريطة الا يكون هناك أي تمييز او تمييز ضد النقابيين .

وكان هذا وقتاً عصيباً بالنسبة لخرجس . فاعادة كافة العمال دون تمييز يعني انه سيفقد منصبه الحالي لذا سعى إلى المشرف الذي كشر مبتسماً ثم قال . . « انتظر وسترى . فالحارجون على الاضراب في مؤسسة دورهام لن يذهب منهم الا القلة . »

لكن ما اذا كان « الحل » خدعة من أصحاب دور التعليب يرغبون من ورائها كسب الوقت أو يأملون منها فعلاً تحطيم الاضراب وتركيع النقابات امر لا يمكن البت به تماماً ، الا ان برقية في تلك الليلة صدرت من مكتب دورهام وشركاه إلى كافة مراكز التعليب الكبرى تقول —

« لا تستخدموا القادة النقابيين » ، وفي الصباح حين احتشد العشرة آلاف رجل في المسالخ ومعهم سطول طعامهم وثياب عملهم ، وقف جرجس قرب باب غرفة تشذيب لحم الخنازير حيث كان يعمل قبل الاضراب ورأى حشداً من الناس الراغبين بالعمل ، بجانبهم عشرون أو ثلاثون شرطياً يراقبونهم ، كما رأى المراقب العام يخرج ثم ينزل الممر ليختار هذا الرجل أو ذاك ممن يعجبونه : وعلى هذا المتوال كان يأتي الرجل تلو الآخر ، بينما تجمع عند رأس الرتل من لم يتم اختيارهم — وجلهم من النقابيين والمندوبين والخطباء . وفي كل مرة طبعاً كانت المهممات تعلقوا أكثر وأكثر . فهناك ، حيث ينتظر جزارو الماشية ، سمع جرجس صيحات ورأى جمعاً غفيراً فأسرع إليه . كان ثمة جزار كبير ، هو رئيس مجلس نقابة التعليب وقد مر به المراقب العام عدة مرات . كان السخط قد بلغ بالرجال أشده فقد عينوا لجنة من ثلاثة أعضاء بهدف الدخول ورؤية المراقب العام وقد قامت اللجنة بثلاث محاولات ، إلا أن رجال الشرطة كانوا يمنعونها في كل مرة بهراواتهم . بعد ذلك حدث صراخ وصياح استمر إلى أن جاء المراقب العام بنفسه إلى الباب «سنعود جميعاً أولاً يعود أحد .» صرخ مائة صوت فهز المراقب العام قبضته في وجوههم صارخاً : « لقد خرجتم من هنا كالماشية ، وكالماشية تعودون . . »

عندئذ قفز رئيس نقابة الجزارين إلى كومة حجارة صارخاً « انتهى الامر ايها الفتيان ؟ كلنا مشترك مرة ثانية . . » وهكذا أعلن جزارو

الماشية اضرباً جديداً مباشرة ثم جمعوا افراد نقابتهم من المنشآت الأخرى حيث كانوا يواجهون الخدعة عينها وساروا في شارع باكرز الذي كان يغص بجموع هائلة من العمال ، وهم يهتفون بشدة . اما العمال الذين كانوا قد استلموا اعمالهم في احواض الذبح فقد ألقوا ادواتهم أرضاً وانضموا إلى اولئك ، كما كان البعض الآخر يمتطي ظهور الخيول لينقل الخبر من مكان إلى آخر ، وخلال نصف ساعة كانت باكنجتاون كلها تعلن الاضراب مرة ثانية وملؤها السخط والغضب .

بعد هذا ، حدث في باكنجتاون تغير كامل في اللهجة ، فقد غدا المكان كله مرمجل محماس يفور ، ومنفسد الاضراب الذي يجرؤ على الخروج يلقي الويلات . كان يقع حادث او حادثان من هذا النوع كل يوم ، تنشر الصحف تفاصيلها تماماً وتوقع اللوم في حدوثها على النقابات . ورغم انه قبل عشر سنوات ، حين لم يكن هنالك نقابات في باكنجتاون ، حدث اضراب اضطرت فيه السلطات لاستدعاء قوات الجيش فقد حدثت معارك متفرقة كان العمال يخوضونها ليلاً وعلى ضوء قطارات الشحن المشتعلة . فباكنجتاون كانت دائماً مركزاً للعنف . « ففي نقطة الوسكي » ، حيث كانت هنالك مئات الحانات ومعمل للفراء ، كان دائماً يحدث عراك ومزید من العراكات في الطامس الحار وكل من يزعب نفسه بالرجوع إلى سجلات المخفر القريب يجد أنه حدث في هذا الصيف عنف اقل من اي صيف قبله .

وذلك رغم وجود عشرين ألف عامل عاطل عن العمل ، ليس لديهم ما يفعلونه طوال النهار سوى تقليب النظم بالانخطاء الفادحة التي ارتكبت . ولم يكن باستطاعة احد أن يتصور المعركة التي كان يخوضها القادة النقايبون — لكي يمسكوا بزمام هذا الجيش العرمرم ، يمنعوه من التشرذم والضيع والسلب والنهب ، يرفعوا معنويات مائة ألف نسمة ، يشجعوهم ، يرشدوهم بعشرات الالسنه المختلفه وطوال ستة اسابيع من الجوع وخيبة الامل والقنوط .

في هذه الاثناء وضع اصحاب دور التعليب امام اعينهم هدفاً واحداً هو : تكوين يد عاملة جديدة . كانوا يأتون كل ليلة بألف أو ألفين من الخارجين على الاصراب ويوزعونهم بين مختلف المنشآت ، بعضهم من العمال المتمرسين — جزارين ، باعة ، مدراء مخازن فرعية تابعة لدور التعليب . وبعضهم رجال نقايبون جاؤوا من مدن اخرى الا ان الاغلبية العظمى زوج « اغرار » قادمون من مناطق القطن في الجنوب البعيد يساقون إلى منشآت التعليب كقطعان الاغنام . كان هناك قانون يحظر استخدام المباني كمساكن مبيت عالم يصرح باستخدامها رسمياً لهذا الغرض وتزود بنوافذ مناسبة ومدارج وسلام حريق لكن الآن باتت « غرفة طلاء » لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق « مسقط » مغلق ، غرفة ذات باب واحد وليس لها نوافذ على الاطلاق ، تكتظ بمائة عامل ينامون على فرش مدت على الارض . وفي الطابق الثالث

من بيت الخنازير في مؤسسة جواز ، يوجد مستودع بدون نوافذ وقد احتشد فيه سبعمائة رجل ، ينامون ليلاً على أسرة عارية لتستخدمها نهاراً وردية ثانية بمائلة العدد . وحين تعالى احتجاج الرأي العام كثيراً وجاءت لجان لتفتيش هذه الحالات واضطر رئيس البلدية للأمر بتنفيذ احكام القانون ، استطاع اصحاب دور التعليب تأمين قاض اصدر تعليمات قضائية تمنعه من فعل ذلك .

في هذا الوقت تماماً كان رئيس البلدية يتفاخر بأنه وضع حداً للقمار والمشاجرات في المدينة الا ان مجموعة من المقامر المحترفين وبالاتفاق مع الشرطة بدأت تمارس سلب الخارجين على الاضراب . ففي اية ليلة ، وفي الارض الفضاء الكبيرة الواقعة امام مؤسسة براون كان بإمكان المرء ان يرى زنجياً مفتولي العضلات عارين حتى الخصور وهم يدقون بعضهم بعضاً من اجل المال . في حين تطل صفوف من الرؤوس ذات الشعر الصوفي من كل نافذة من نوافذ المعامل المحيطة . اجداد هؤلاء الزنوج كانوا عبيداً في افريقيا ، ومنذئذ وهم عبيد رقيق او يعيشون في مجتمع تسيطر عليه تقاليد العبودية . والآن ، للمرة الاولى ، وجدوا انفسهم احراراً - احراراً في ان يطلقوا العنان لعواطفهم ، احراراً في ان يحطموا انفسهم . كان المطلوب منهم ان يفسدوا اضراباً ، وحين يتحقق هذا سيرحلون بعيداً . لن يراهم ساداتهم الحاليون - بعد ذاك ابدأ . وهكذا راحوا يأتون بالنساء والويسكي حمولات عربات .

يسعونهم اياها ، ويطلقون العنان بها لنوع من الجحيم الحقيقي في المسالخ .
ففي كل ليلة حوادث طعن بالخناجر واطلاق نار ، ويقال ان لدى
اصحاب دور التعليب تصاريح فارغة يمكنهم بها نقل الجثث من المدينة
دون ازعاج السلطات . كانوا يؤون الرجال والنساء معاً في الطابق
نفسه . فتبدأ في الليل العريضة والمجون ، حفل خالص للفسق والفجور -
مشاهد لم ترها العين في امريكا قبل ذلك ابدأ . وبما ان النساء كن من
حثة مواخير شيكاغو ، وكان الرجال في معظمهم من زنوج الريف
الجهلة فسرعان ما انتشرت امراض الرذيلة التي لا اسم لها انتشاراً واسماً ،
تماماً حيث تجرى معالجة الاغذية التي ترسل الى كل ركن وزاوية
من العالم المتمدن .

لم تكن « الزرائب الممتدة » في يوم من الايام مكاناً مريحاً ، لكنها
الآن لم تعد مجموعة بيوت للذبح وحسب ، بل ايضاً مكان يخيم فيه
جيش يعد خمسة عشر او عشرين الفاً من البهائم البشرية . فطول النهار
ترسل شمس الصيف المحرقة اشعتها على ذلك الميل المريع من الاشياء
البغيضة : عشرات الآلاف من رؤوس الماشية تكتظ في حظائر ارضيتها
الخشبية تفوح بروائح نتن وتشر عدوى الامراض باتجاه خطوط
السكك الحديدية العارية اللاذعة - المغطاة بنجث المعدن ، والمباني
الفضيحة التي تقوم فيها معامل اللحم القذرة والتي تتحدى ممراتها المتاهية
ان تعبر نسمة هواء واحدة طريقها اليها . وليس هناك أنهار من الدم

الحار وحمولات عربات من اللحم الطازج ورواقيد إعداد ومراجيل صابون وحسب ، بل هناك ايضاً معامل غراء وخزانات اسمدة تصدر روائح أشد نفاثة من روائح الجحيم — كذلك هناك اطنان النفاية التي تتفسخ تحت اشعة الشمس ، وملابس العمال المغسولة وقد نشرت لتجف ، وغرف الطعام المسودة بأسراب الذباب ودورات المياه التي لم تكن أكثر من مجاريير مكشوفة .

ثم يأتي الليل ، حين ينصب هذا الحشد في الشوارع كي يلهو — فيتعارك افراده ، يقامرون ، يشربون ويقصفون ، يسبون ويصرخون ، يضحكون ويغنون ، يلعبون البانجو (١) ويرقصون . كانوا يشتغلون في المسالخ طوال ايام الاسبوع السبعة وكانت لهم ملاكمتهم وشجاراتهم ، وحفلات قمارهم في ليالي الاحاد ايضاً ، لكن حينذاك وقرب الزاوية يمكن للمرء ان يرى ناراً تشتعل وزنجية عجوزاً شائبة الشعر ، نحيلة اشبه بساحرة شعرها متطاير وعيناها متقدتان وهي تصرخ وتترنم لنيران الهلاك ودم « الحمل » في حين يستلقي الرجال والنساء على الارض وهم يثنون ويصرخون متشنجين تشنجلت الرعب والندامة .

هكذا كانت المسالخ اثناء الاضراب ، في حين كانت النقابات في يأس قاتم والبلاد تصرخ مثل طفل شره يطالب بطعامه وارباب دور

(١) البانجو : آلة موسيقية .

التعليب ماضون في غيهم يعمهون . في كل يوم كانوا يضيفون عدداً جديداً من العمال ويصنحون أكثر قسوة مع القدامى—يمكن ان يشغلوهم بالقطعة ، ويطردهم ان لم يماشوا وتيرة العمل . وقد بات جرجس أحد وكلائهم في هذه العملية ، بات بإمكانه ان يحس بالتغير يوماً بعد يوم ، كما يحس بالاقلاع البطيء لتلك الآلة الضخمة . كذلك اعتاد ان يكون سيداً يأمر وينهي ، وبسبب الحرارة الحارقة والرائحة الكريهة والحقيقة المائلة امام عينيه دائماً وهي انه مفسد اضراب وبسبب احتقاره لنفسه فقد كان يشرب ويزداد مزاجه سوءاً يوماً اثر يوم ، بل لقد بات يشور ويزمجر ويشتم عماله ، بات يلهيهم بسياط العمل ، يسرعهم إلى ان يصلوا حافة الانهيار .

ذات يوم من اواخر آب ، دخل المراقب العام وهو يعدو طالباً إلى جرجس وورشته التوقف عن العمل واللدحاق به . تبعه العمال إلى الخارج حيث رأوا وسط حشد غفير عدة عربات ذات حصانين تمتظرو ثلاث عربات محملة برجال الشرطة . وثب جرجس ورجاله إلى واحدة من العربات ، ثم صرخ السائق بالحشد ومضوا يهدرون كالرعد تعدو الخيول بهم عدواً . كانت بعض الثيران قد فرت من الزرائب وكان المضربون قد امسكوا بها وكان هناك احتمال في ان يحدث شجار .

خرجوا من بوابة شارع آشلاندا ، ثم مضوا في اتجاه « القمامة » وحالما باتوا على مرأى العين انطلقت صرخات بينما راح النساء والرجال

يخرجون من المنازل والحانات وهم يمرون بهم عدوا . كان هناك ثمانية او عشرة من رجال الشرطة في العربة وحين وصلوا إلى نقطة تعذر فيها المرور بسبب احتشاد الناس اطلق راكبو العربة المسرعة صرخات تحذير فتبعثر الحشد شذر منثر كاشفاً عن احد الثيران ملقى ارضاً وحوله بركة من الدم . فهناك الكثير من جزاري البقر الذين لا يعمل لهم والذين ينتظرهم اولادهم الجائعون ، وهكذا طرح احدهم الثور ارضاً - وباعتباره جزاراً من الدرجة الاولى فقد كان باستطاعته ان يذبح الثور ويسلخه خلال دقيقتين . . لذا كان الثور قد فقد قلراً كبيراً من لحمه حين وصلت النجدة وهذا طبعاً يتطلب القصاص ، فمضى رجال الشرطة لإنزال القصاص بالمذنبين وقد فعلوا ذلك بأن وثبوا من العربة وهشموا كل رأس وقع تحت ايديهم . انطلقت صرخات الغضب والالم ، وبدأ الناس المذعورون الفرار إلى البيوت والمخازن ، او التفرق على غير هدى في الشوارع . انضم جرجس ورجاله إلى اللعبة ، وبدأ يستفرد كل رجل بضحيته ، ساعياً لمحاصرته في احدى الزوايا ، أما اذا فر إلى منزل من المنازل فقد كان بإمكان مظارده ان يحطم الباب الهش ويلاحقه حتى السلم ضارباً كل من يجد في طريقه ، جاراً أخيراً ، فريسته الزامية من تحت سرير او كومة ثياب عتيقة في خزانة .

طارد جرجس وشرطيانه معه بعض الرجال إلى داخل مشرب ، فاحتوى احدهم خلف البار ، حيث حشره شرطي في زاوية ومضى

يوجه له الضربات المتتالية على الكتفين والظهر إلى ان سقط ارضاً معرضاً بذلك رأسه للضرب . اما الآخرون فقد قفزوا فوق حاجز في المؤخرة يصدون الشرطي الثاني الذي كان سميناً . وحين رجع ، اندفعت امرأة بولندية ضخمة الجثة ، هي صاحبة الحانة ، غاضبة شائمة صارخة فتلفت عصا على بطنها جعلتها تنقلب ارضاً ، في تلك الاثناء كان جرجس الذي يتمتع بمزاج عملي ، يخدم نفسه في المشرب فانضم اليه الشرطي الذي طرح ضحيته ارضاً ثم بدأ باخراج الزجاجات وملء جيوبها بها ، بعدئذ وحين بدأ بالمخادرة مسح كل ماعلى الطاولة بضربة من هراوته . فهبت المرأة البولندية السمينة على صوت الزجاج المهشم الا ان شرطياً آخر جاء من ورائها ووضع ركبته في ظهرها ويديه على عينيها — بعدئذ نادى صاحبه الذي رجع وحطم درج النقود ثم ملأ جيوبه بمحتوياته . بعد ذلك خرج الثلاثة ، بينما دفع الشرطي الذي كان يمسك بالمرأة ضحيته دفعة قوية اسقطتها ارضاً واندفع هو خارجاً . كان رجال الورشة قد نقلوا الذبيحة إلى العربة من قبل ، وهكذا انطلقت الجماعة ، تلاحقها الصرخات واللعنات ورخات الحجارة والآجر من اعداء غير مرئيين . وقد ظهرت هذه الحجارة والآجر في صورة « شغب » ارسلت اخباره إلى مئات الصحف خلال ساعة او ساعتين ، الا ان قصة تخطيط الدرج ذهبت طي النسيان لانه كرها الا حكايات باكنجتاون التي تمزق القلوب .

كان الوقت قد غدا ساعة متأخرة من الاصيل حين عادوا ، فسلخوا بقية الثور وثورين آخرين كانا قد قتلا ثم توقفوا عن العمل . ذهب جرجس إلى قلب المدينة كي يتناول عشاءه مع ثلاثة اصدقاء كانوا في العربات الاخرى وراحوا يتبادلون الذكريات على الطريق . بعدئذ، دخلوا إلى صالة روليت حيث خسر جرجس ، الذي لم يكن يخالفه الحظ في القمار ، حوالي خمسة عشر دولاراً . ولكي يواسي نفسه كان عليه ان يشرب كثيراً ، وهكذا عاد إلى باكسجتاون حوالي الثانية صباحاً وهو في اسوأ حال .

في طريقه إلى المكان الذي ينام فيه ، قابل امرأة ذات وجنتين مطليتين بالمساحيق وكيمنوزاه . اسرعت اليه ولقت ذراعها حول خصره لتثبته ، ثم انعطفا إلى غرفة معتمة كان عليهما ان يمرا بها - لكن قبل ان يخطوا نخطوتين انفتح باب فجأة ودخل رجل حاملاً مصباحاً «من هناك؟» هتف بصوت حاد ، فشرع جرجس بالاجابة مهمهما ، لكن في اللحظة ذاتها رفع الرجل المصباح الذي كان يتوهج في وجهه حتى بات بالامكان تميزه . وقف جرجس مذهلاً ابكم تماماً يخفق قلبه كجناحي طائر مجنون . انه « كونور » .

كونور ، رئيس ورشة التجميل . . الرجل الذي اغوى زوجته - الرجل الذي بعث به إلى السجن ، حطم بيته ، دمر حياته . . ووقف هناك محملاً يتوهج الضوء في عينيه .

كان جرجس كثيراً ما يفكر بكونور مذ عاد إلى باكنجتاون ،
غالباً ما كان يرى الامر كله شيئاً بعيداً وكأنه لا يعنيه ، اما الآن وحين رآه
حيّاً يرزق ، فقد حدث له ما حدث من قبل . موجة عارمة من السخط
اجتاحت كيانه ، غضب اعمى سيطر عليه فألقى بنفسه على الرجل
مسدداً له ضربة شديدة بين العينين - ثم امسك ، وقد هوى الرجل
ارضاً ، ببلعومه وبدأ يندق رأسه بحجارة الارض .

بدأت المرأة الصراخ وبدأ الناس بالتوافد . كان المصباح قد انقلب
وانطفأ وهكذا كان الظلام شديداً إلى درجة تعذر معها رؤية شيء .
كان بإمكان المرء فقط ان يسمع لهاث جرجس ويسمع نحيبات جمجمة
غريمه على الحجارة . فاندفع الناس اليه يحاولون تخليصه . وكما حدث
من قبل تماماً ، فقد نخرجت اسنان جرجس بقطعة لحم من غريمه ،
كما استمر يقاتل اولئك الذين تدخلوا في القضية إلى ان جاء شرطي
راح يضربه بهراوته إلى ان فقد وعيه .

وهكذا قضى جرجس بقية الليل في مخفر باكنجتاون . لكنه كان
يملك مالاّ هذه المرة وحين عاد إلى وعيه طلب شيئاً يشربه كما ارسل
رسالة إلى « بوش » هاربر يخبره فيها عن ورطته لكن هاربر لم يظهر
الا بعد ان نودي على السجين ، الذي بدأ يشعر بكثير من الوهن والضعف ،
إلى قاعة المحكمة وحكم القاضي بإطلاق سراحه بكفالة مقدارها خمسمائة
دولار ريشما تظهر نتائج الجروح التي اصيب بها غريمه . وجن جنون

جرجس ، فالقاضي الذي كان على القوس جديد تماماً وقد قال جرجس
امامه انه لم يعتقل من قبل وانه كان يدافع عن نفسه ، أي لو وجد من
يقول كلمة واحدة لصالحه اذن لا اطلق سراحه في الحال .

لكن هاربر شرح له انه كان في قلب المدينة وان الرسالة
لم تصله ، ثم سأله « ما الذي حدث ؟ » فقال جرجس « لقد هشمت
رجلاً وعلي ان ادفع خمسمائة دولار كفالة » . فقال الآخر . . « يمكنكني
ان ارتب لك ذلك تماماً . القضية قد تكلفك بضعة دولارات طبعاً .
لكن ماهي المشكلة ؟ »

« انه رجل اساء إلي اساءة بالغة في يوم من الايام » اجاب جرجس .
« ومن هو ؟ »

« رئيس عمال في مؤسسة براون - او بالاحرى رئيس عمال
سابق اسمه كونور » . فشقق الآخر صارخاً « كونور . . ايس فيل
كونور ! ؟ »

« بل هو نفسه ، لماذا ؟ » قال جرجس

فهتف الآخر : « يا إلهي ! اذن فقد وقعت ، ايها الكهل . ليس
بوسعي مساعدتك . »

« ليس بوسعك مساعدتي . . لم لا ؟ »

انه من اكبر رجال سكوبي - وهو عضو في عصبة الترويج للحرب

ولهم يتحدّثون عن ارساله إلى المجلس التشريعي . . فيل كوبر ،
ياإلهي ! ! »

وجلس جرجس وقد اخرسه الخوف .

« لماذا ؟ بإمكانه ان يرسلك إلى جوليت (١) ان اراد ذلك » .
صرّح الآخر . « لكن ألا يمكن لسكولي ان يخلصني قبل ان يكتشف
حقيقة الامر ؟ » سأل جرجس اخيراً فأجاب الآخر : « سكولي خارج
المدينة ، بل لا اعرف اين هو . . فقد ابتعد كي يتخلص من الاضراب
ومشكلاته . »

اذن فهي ورطة حقيقية . جلس جرجس المسكين زائع البصر
تقريباً . لقد وقع وكانت وقعته مع من هو اكبر منه . وقد انتهى الأمر . .
اخيراً سأل بصوت واهن « : لكن ما العمل ؟ » فأجاب الآخر . . « وأنى
لي ان اعلم ؟ انا لا اجرؤ حتى على تأمين كفالة لك — قد يحطمني
ذلك إلى الابد . . »

ومرة ثانية ساد الصمت . « ألا يمكنك ان تفعل ذلك من اجلي ؟ »
سأل جرجس ، « ثم تدعي انك لم تكن تعرف ضحيتي ؟ »

« لكن ما الفائدة ؟ سئذهب إلى المحاكمة ؟ » ثم جلس غارقاً في
التفكير للدقيقة او دقيقتين « ليس بوسعي فعل شيء . . . ان لم يكن

(١) جوليت : أي المقصلة .

هذا . قال اخيراً . . « يمكنني ان اخفض لك الكفالة ، واذا كنت تمتلك المال يمكنك ان تدفعها ثم تفر . »

« كم ؟ » سأل جرجس بعد ان جعل هاربر يشرح له المسألة أكثر ، فقال الآخر :

« لأدري . كم لديك من المال ؟ » .

« حوالي ثلاثمائة دولار . »

« حسن » اجاب هاربر « انا لست متأكداً . الا انني سأحاول اخراجك مقابل ذلك . سأغامر كرمي لصداقتنا فانا اكره ان اراك ذاهباً إلى سجن الولاية لمدة سنة او سنتين . »

وهكذا اخرج جرجس دفتر شيكاته — الذي كان قد خاطه في مكان ما من بنطاله — ووقع شيكاً ، بعد ان كتبه هاربر ، يقضي بأن يدفعوا اليه كل ما يملك من مال . بعدئذ ذهب هذا إلى القاضي ثم شرح له ان جرجس شخص طيب وانه من اصدقاء سكولي ، هاجمه احد منسدي الاضراب . وبذلك خفضت الكفالة إلى ثلاثمائة دولار : وقد كتبها هاربر بنفسه . الا انه لم يقل هذا لجرجس ولم يقل له انه حين يحين موعد المحاكمة سيكون من السهل عليه ان يتكرر تزويره للكفالة ووضعه الثلاثمائة دولار في جيبه كمكافأة له على المخاطرة بالاساءة لمايك سكولي . كل ما تاله لجرجس هو ان انه بات حراً وان خير ما يفعله

هو الفرار بجلده ، وبأسرع ما يستطيع . وهكذا اخذ جرجس بكثير من الامتنان والشكر الدولار والاربعة عشر سنتاً التي بقيت له من حسابه المصرفي ووضعتها مع الدولارين والربع التي بقيت له من حفلة الليلة الماضية ، ثم استقل حافلة وانطلق إلى الطرف الآخر من شيكاغو .

— ٢٧ —

وعاد جرجس المسكين مرة اخرى شريداً متسكعاً . كان عاجزاً — عاجزاً فعلاً كأي حيوان فقد تخالبه او اخرج من صدفته . لقد جرد ، بضربة واحدة ، من كل الاسلحة الغامضة تلك التي كان قادراً بها على كسب معيشته والتملص من عواقب اعماله بسهولة ويسر . لم يعد بإمكانه المطالبة بعمل حين يريد ذلك ولم يعد باستطاعته ممارسة الاختلاس وهو في حصن حصين — بل كان عليه الآن ان يجرب حظه مع بقية الناس والانكى من كل ذلك انه لم يعد يتجراً على الاختلاط بالناس — كان عليه ان يتخفى ، ذلك انه اذا انكشف مرة تحطم إلى الابد . اصحابه القدامى سيغدرون به من اجل المال الذي سيكسبونه بفعلهم هذا . وسيجعلونه يعاني ، ليس بسبب الاساءة التي ارتكبتها وحسب ، بل بسبب الآخرين الذين سيصطفون على بابه مطالبين باسترداد حقوقهم منه ، تماماً كما حدث لمسكين آخر بعد ذلك الهجوم الذي قام به هو على « تاجر الريف » ذاك .

كذلك بات يعمل وفي وجهه عائق آخر . لقد اعتاد على مستوى

معيشة معين لم يكن من السهل تبديله . فحين كان يطرد من العمل في الماضي ، كان يرضى ، إذا تمكن من إيجاد مكان للمبيت في مدخل منزل او تحت عربة ثقيه المطر ، وكان يفرح اذا استطاع توفير خمسة عشر سنتاً في اليوم ثمن غذائه في الحانة . اما الآن فقد بات يرغب بكل ضروب الاشياء الاخرى ويقاسي كل المقاساة لان عليه العيش بدونها . كان عليه ان يشرب من حين لآخر ، فالشراب غاية بحد ذاته ، ناهيك عن الطعام الذي لابد من تناوله مع الشراب الذي كان حنيته اليه قويا إلى درجة تكفي لالغاء كل اعتبار آخر — فعليه ان يشرب سواء كان ماسيدفعه مقابل ذلك هو آخر نيكل في جيبه أم لا ، أو سيهلك جوعاً بعد ذلك ام لا .

وعاد جرجس مرة اخرى مرتاداً منتظماً لابواب المصانع ، الا ان فرصة في الحصول على عمل لم تكن في يوم من الايام اقل مما هي عليه الآن . فمن جهة . كانت هناك الازمة الاقتصادية ، فهناك مليون او مليونان من العمال الذين طردوا من اعمالهم في الربيع والصيف ولم يعودوا بعد . ثم ، هناك الاضراب الذي ترك مايزيد على سبعين الف رجل وامرأة بلا عمل منذ شهرين كاملين ، عشرون ألفاً منهم في شيكاغو يبحثون عن عمل في كل انحاء المدينة . ولم يسجدِ نفعاً ان الاضراب انتهى بعد بضعة ايام وان نصف المضربين عادوا إلى اعمالهم ، فمقابل كل عامل اعيد إلى عمله ، سرح مفسد اضراب وانخرج إلى الشارع . وهكذا وجد العشرة او الخمسة عشر ألفاً من الزوج « الاغرار »

والاجانب والمجرمين ، انفسهم بلا عمل . فحيثما يذهب جرجس يلتقي بهم . وكان يعاني اشد المعاناة خشية ان يعرف احدهم انه مطلوب . كان سيترك شيكاغو : انما كان موقناً ان الخطر الوحيد عليه هو افلاسه وان خيراً له ان يذهب إلى السجن من ان يخرج إلى الريف وقت الشتاء .

بعد حوالي عشرة ايام وجد جرجس نفسه لا يملك الا بضعة بنسات ولم يكن قد وجد عملاً بعد — لم يجد حتى عمل واحد في اي مجال ، ولافرصة واحدة لحمل حقيبة . ومرة ثانية وجد نفسه ، كما وجدها حين خرج من المستشفى ، مقيد اليدين والرجلين يواجه الشيخ الرهيب ، شبح الموت جوعاً . فتملكه رعب فظيع قاتل ، اضطراب شديد لم يعد يفارقه لحظة واحدة انهكه وعذبه أكثر من حاجته الفعلية للطعام . سيموت من الجوع . . كان الشيطان يمد صوبه يديه الحرشفيتين — كانتا تلامسانه ، انفاسه في وجهه ، وهو يصرخ خوفاً منه يستيقظ في الليل ، يرتعد . يتصبب عرقاً ثم ينطلق هارباً ويظل يمشي ، يستجدي عملاً — ، إلى ان يسقط اعياء . لم يكن يستطيع البقاء ساكناً فيتمجول هنا وهناك مهزولاً . يحدق حوله بعينين قلقتين ابداً . وحيثما يذهب من طرف المدينة إلى طرفها الآخر . يجد مئات من امثاله ، ففي كل مكان باطلون عن العمل — ويد السلطة التي لا ترحم تجرفهم بعيداً . هناك نوع من السجنون يكون فيه الانسان داخل القضبان وكل مايرغب به خارجها ، وهناك نوع آخر تكون فيه الاشياء داخل القضبان وهو خارجها .

حين لم يبق لدى جرجس الا آخر ربع دولار ، علم ان اصحاب
المخابز ، وقبل ان تغلق مخابزهم ابوابها ، يبيعون كل مايتبقى لديهم
بنصف ثمنه ، فبات يذهب إلى هناك في مثل هذا الموعد ويحصل على
رغيفين من الخبز « البائت » مقابل نيكل واحد ، ثم يكسرها ويحشو
بهما جيوبه قاضماً كسرة منهما بين الفينة والفينة : لم يكن ينفق بنساً
واحداً على شيء غير هذا ، لكنه بعد يومين او ثلاثة وجد نفسه مضطراً
لتوفير ثمن الخبز نفسه . كان يقف ويتفحص براميل القمامة وهو يمر ؟
بها في الشوارع ، ومن حين إلى آخر ينبش شيئاً ما ، ينفض عنه الغبار
ويزيل الوسخ ثم يبدأ بالتهامه .

وهكذا ظل عدة ايام يتجول ، جائعاً طوال الوقت مزداداً هزلاً
يوماً بعد يوم . ثم حدثت له حادثة كريمة ذات صباح ، كريمة إلى
درجة مزقت له قابله . كان يعبر شارعاً فيه صف من المستودعات ،
عرض عليه رئيس عمال احدها عملاً وبعد ان بدأ العمل ، طرده
هذا لانه لم يكن قوياً كفاية ، فوقف جانباً لي شاهد بأم عينه رجلاً آخر
يحمل محله ، ثم امسك بسترته ومشى مبتعداً ، باذلاً كل جهده كيلا
ينخرط في البكاء مثل طفل صغير . لقد ضاع ! ! حكم عليه بالهلاك ! !
ليس له أي أمل ابداً ! ! لكن حينذاك وباندفاع مفاجئة ، حل محل
خوفه سخط شديد ، فانكب يسب ويشتم . سيعود إلى هناك بعد حلول
الظلام وسيرى ذلك الوغد ان كان يصلح لشيء ام لا يصلح . .

كان مايزال يدمدم بهذا الكلام حين وصل فجأة إلى بقالية عند الزاوية وعلى لوح كبير فيها عرض مقدار كبير من الملفوف . نظر جرجس نظرة سريعة حوله . ثم انحنى وامسك بأكبر ملفوفة وانطلق ليغيب في المنعطف . سمع خلفه ضججة وصرخات اذ انطلق في اثره الاولاد والرجال وبدؤوا يطاردونه الا انه وصل إلى زقاق فرعي ثم إلى آخر يتفرع عنه اوصله إلى شارع بعيد تماماً ، بدأ يمشي فيه بهلواء وقد اخفى ملفوفته تحت سترته غارقاً بين الزحام وحين اجتاز مسافة أمان كافية جلس على الرصيف والتهم نصف الملفوفة . هكذا كما هي ثم خبأ البقية في جيوبه حتى اليوم التالي .

في ذلك الوقت تماماً فتحت إحدى الصحف ، التي كانت قد صنعت شعبية كبيرة لها ، مطبخ حساء حر لصالح الباطلين عن العمل - بعض الناس قالوا انها فعلت هذا من اجل الاعلانات التي ستستفيد منها العملية والبعض الآخر قال ان الدافع هو الخوف من ان يهلك جميع قرائها جوعاً ، لكن ايّاً كان السبب ، فقد كان الحساء جيداً وحاراً ، وكانت هناك زبديّة منه لكل امرئ كل ليلة . حين سمع جرجس بهذا من متشرد آخر - اقسم انه سيحصل على نصف دسّة من الزبديّات قبل شروق الشمس . لكنه تبين انه كان محظوظاً كل الحظ حين حصل على زبديّة واحدة ، فقد كان هناك رتل من الناس يمتد مئات الامتار وكان مايزال هناك رتل طويل تماماً حين اغلق المحل أبوابه .

على أن هذا المحل كان ضمن هامش الخطر بالنسبة لجرجس — انه في منطقة « ليفي » حيث كان جرجس معروفاً . إلا أنه ذهب إليه فقد بات الأمر سيان . لقد بلغ أقصى حدود اليأس بل بدأ يفكر « بريدويل » كملجأ ينقذه مما به . حتى ذلك الحين كان الطقس مايزال حسناً ، وكان ينام كل ليلة في العراء ، في أية فسحة خاوية يجدها . لكن الآن ، بدأ ظل من ظلال الشتاء القادم يلوح في الجو ، ريح باردة من الشمال ، عاصفة مطر غزيرة ، وما إلى ذلك . في ذلك اليوم ، اشترى جرجس كأس شراب بهدف إيجاد مأوى له ، وفي الليل أنفق آخر بنشين يملكهما « في حانة بيرة عفنة المذاق » وهي حانة يديرها زنجي يسحب الحثالة القديمة لما يتبقى من بيرة في البراميل التي تلقى خارج الحانات ، وبعد أن يعالجها بالمواد الكيماوية يصنع منها « شراباً » يبيع كل علبة منه بستتين ، كما أن شراء العلبة يتضمن حق النوم طوال الليل على الأرض جنباً إلى جنب مع جملة مشردين بائسين من النساء والرجال .

هذه الأهوال كلها أثرت على نحو أشد قسوة ومرارة في جرجس إذ كان دائماً يقارنها بالفرص التي أضاعها . مثال على ذلك ، كان موعد الانتخابات قد عاد مرة ثانية ، فخلال خمسة أو ستة أسابيع كان المنتخبون في طول البلاد وعرضها سيدلون بأصواتهم لانتخاب رئيس للجمهورية . ولقد سمع ذلك من المشردين الذين كان يصحبهم ورأى شوارع المدينة مزينة بالملصقات والأعلام — فهل يمكن لكلام أن يصف سهام الحزن واليأس التي اخترقت فؤاده ؟ .

وهناك مثال آخر : ذات يوم ظل يتسول طوال النهار كي يكسب ما يقيم أوده لكن دون أن يجد من يلقي بالآله . قبيل المساء شاهد عجوزاً تخرج من حافلة ترام فساعدتها في حمل مظلتها وصررها . وعندما حكى لها قصته ، قصة الحظ التمس ، وأجاب على أسئلتها المتشككة على نحو مرضٍ ، أخذته إلى مطعم حيث قدمت له وجبة دفعت ثمنها ربع دولار ، تناول فيها حساء وخبزاً ، بيضاً مسلوقاً وبطاطا وبازلاء وفطيرة وقهوة ثم خرج وقد حشي جلده تماماً ككرة قدم . بعدئذ ، وعبر العتمة والمطر ، رأى بعيداً في الشارع أضواء حمراء تتوهج وسمع دقة صنج نحاسي فوثب قلبه من بين أضلأعه وانطلق إلى المكان يعدو عدوا — عارفاً دون حاجة لسؤل أنه اجتماع سياسي .

كانت الصحف قد وصفت الحملة حتى ذلك الحين بـ « اللامبالاة » . فليسب ما ، رفض الناس الاهتمام بالصراع ، وكان من المستحيل تقريباً أن تأتي بأحد منهم إلى اجتماع سياسي أو تفتعل بهم أية ضجة . لذا أتمت الاجتماعات التي عقدت في شيكاغو حتى ذلك الحين بالفشل الذريع . وكان المشرفون على هذه العملية يرتعدون فرقاً خوفاً أن يفشل الاجتماع أيضاً رغم أن الخطيب الذي سيحضره لا يقل عن مرشح لمنصب نائب الرئيس . إلا أن العناية الإلهية أرسلت عاصفة المطر الباردة هذه ، وكل ما يلزم فعله الآن هو إطلاق بعض الألعاب النارية والدق حيناً

من الزمن على الطبل ، فيتلفق كل الرعاع والمشردين المتواجدين على بعد ميل ويملئون الصالة . . وفي الغداة تتاح الفرصة للصحف كي تنشر صور التجمع الهائل وتضيف أنه احتشد جمهور كبير للغاية وثبت تماماً أنها قادرة على دغدغة مشاعر المرشح العظيم .

وهكذا وجد جرجس نفسه في قاعة كبيرة مزينة على نحو متقن بالاعلام وأوراق الزينة . ألقى عريف الحفل خطاباً قصيراً ثم نهض خطيب الأمسية بين تصنيف الحضور وهتافهم — لكن تصور فقط ما شعر به جرجس من أحاسيس لدى اكتشافه أن تلك الشخصية ليست إلا السناتور الشهير والخطيب المفوه سبير شانكز الذي كان قد خطب في رابطة دويل الجمهورية في منطقة المسلخ وساعد في انتخاب مرشح مايك سكولي إلى مجلس شيكاغو التشريعي .

بالحقيقة ، لم يستطع جرجس لدى رؤيته السناتور ، أن يمنع عينيه من ذرف الدموع . فأي عذاب ياترى أن ينظر إلى الماضي ، إلى تلك الساعات الذهبية ، حين كان له ، هو الآخر مكان على منصة الشرف . حين كان هو الآخر ممن ينتخبون ، ممن تحكم البلاد من خلالها . حين كان له ثقب في برميل الحملة خاص به . . . والآن ها هو ذا انتخاب آخر سيوزع الجمهوريون فيه كل المال ، ولولا ذلك الحادث الكريه اذن لكان له نصيب فيه بدلاً من أن يقع حيث هو . .

كان السناتور المفوه يشرح نظام الحماية ، وهو تدبير عبثي يتيح به العامل لصاحب المصنع أن يحمله أسعاراً أعلى مقابل حصوله على أجور أعلى وبذلك يأخذ نقوده بيد ليرجعها له باليد الأخرى . بالنسبة للخطيب ، كان هذا الترتيب قد أصبح ممثلاً لحقائق الوجود العليا فبسيه بانت كولومبيا (١) جوهرة المحيط ، وكل انتصاراتها في المستقبل ، كل قوتها وسمعتها الطيبة بين الأمم تتوقف على الاخلاص والحماس الذي يشعر به كل مواطن لدى أولئك الذين يعملون دائمين للحفاظ عليها ودفعها قدماً دائماً .

هنا بدأت الحقبة الموسيقية تعزف ، وانتصب جرجس منتفضاً انتفاضة عنيفة فرغم ما كان فيه من وحدة كان جرجس يبذل محاولات يائسة لفهم مايقوله الخطيب - لفهم مضمون الازدهار الأمريكي . الامتداد الهائل للتجارة الأمريكية ومستقبل الجمهورية في المحيط الهادي وجنوبي أمريكا وفي كل مكان آخر تسمع فيه أنات المضطهدين . سبب محاولاته هذه هو أنه كان يريد البقاء مستيقظاً . كان يعلم أنه إذا ماسمح لنفسه بالنوم فانه سيبدأ بالشخير عالياً ، لذا كان عليه أن يصغي - كان يجب أن يهتم . . لكنه كان قد تناول عشاء فاخراً وكان في غاية الاعياء وكانت الصلاة دافئة ومقعده مريحاً تماماً . . فبدأت هيئة الخطيب الأنيقة

(١) نسبة إلى كولومبوس أي : أمريكا .

نغم أمام عينيه ، بدأت تعلو أمامه كالبرج وتراقص مع أشكال أخرى من كل صنف ولون . وحين لكزه جاره لكزة عنيفة بين أضلاعه ، انتصب مجفلاً ، محاولاً أن يظهر بمظهر البريء ، لكنه سرعان ما عاود الكرة ثانية وبدأ الناس حوله يحدقون إليه بانزعاج بصيحاتهم في ضيق شديد . أخيراً دعا أحدهم شرطياً جاء فأمسك بياقة جرجس ثم قذفه عن المقعد . فوقف جرجس مذهولاً مدعوراً . التفت بعض الحضور لمعرفة مصدر الضجة وتلكأ السناتور في خطابه ، إلا أن صوتاً - صاح هاتفاً : « نحن فقط نطرد متشرداً ، هيا امضِ أيها العجوز » وهكذا زار الحشد ضاحكاً فابتسم السناتور بمرح ثم تابع خطابه ، وخلال بضع ثوان وجد جرجس المسكين نفسه ملقى أرضاً تحت المطر مع رفسة على قفاه وسيل من الشتائم واللعنات .

قصد جرجس على الفور مدخل مبنى والتجأ إليه . لم يكن قد أصيب بأذى ولم يلق عليه القبض - انه أكثر مما يتوقع . لعن نفسه وحظه حيناً من الزمن ثم اتجهت أفكاره إلى واقعه الفعلي . لم يكن لديه نقود . ولا موضع يبيت فيه ، وكان عليه أن يبدأ التسول مرة ثانية .

خرج جرجس زاماً كتفيه معاً مرتعشاً من لمسة المطر البارد كالحليد . كانت تعبر الشارع باتجاهه سيدة محسنة الهيئة تحمل مظلة فدار على عقبه وسار بخذائهما ثم بدأ « من فضلك ياسيدي : هل تقرضيني ثمن مبيت الليلة . أنا عامل فقير - » .

وفجأة توقف عن الكلام . فعلى ضوء مصباح الشارع لمح وجه السيدة وعرفها .

انها ألينا جازتييت التي كانت ملكة جمال عرسه ، ألينا التي كانت تبدو في غاية الجمال وترقص كأروع مايكون الرقص مع جوزاس راتزيوس ، سائق الشاحنة . كان جرجس قد رآها مرة أو مرتين بعد ذلك فقد استبدل بها جوزاس فتاة أخرى وغابت ألينا عن باكتنجتاون ، ذهبت إلى حيث لايعلم أحد . والآن هامو ذا يلتقي بها هنا . .

وكما فوجيء رودكوس فوجئت هي فصاحت شاهقة « جرجس رودكوس ما الذي حل بك ياترى ؟ » فتلعثم « أنا . . أنا . . أصابني سوء حظ ، خرجت من عملي . ليس لدي بيت ولا مال . وأنت ياألينا هل تزوجت ؟ » .

« كلا » أجابته ألينا « أنا لم أتزوج إلا أن لدي مكاناً جيداً » .
ثم وقفا يحدق واحدتهما إلى الآخر بضع لحظات . أخيراً تكلمت الينا مرة ثانية . .

« جرجس كنت سأساعدك لو استطيت ، قسماً كنت سأساعدك ، لكن حدث انني خرجت بدون نقودي واقسم لك انني لا املك بنساً واحداً . مع ذلك يمكنني ان افعل شيئاً افضل بالنسبة لك - يمكنني ان اقول لك كيف تحصل على مساعدة . يمكنني ان اخبرك اين هي ماريا . »

فانتفض جرجس شاهقاً : « ماريا »

فقلت الينا : اجل وهي ستساعدك . لديها مكان وهي تعمل جيداً
ولسوف تسر كل السرور حين تراك .

لم يكن قد انقضى أكثر من عام على اليوم الذي غادر فيه جرجس
باكسجتاون وهو يشعر وكأنه يفر من سجن . كان يومها يفر من ماريا
والزبييتا وكل فرد من افراد العائلة لكن الآن وبمجرد ذكرهم ضج
كيانه كله فرحاً . كان يود رؤيتهم . كان يود ان يذهب إلى البيت !
فهم سيساعدونه - سيكونون لطيفين معه . وبللمحة عين كان قد
فكر بالوضع كله - كان لديه عذر مناسب لهروبه - حزنه على وفاة
ابنه كما كانت لديه حجة مناسبة لعدم عودته وهي رحيلهم عن باكسجتاون
فقال « حسناً ، سأذهب . »

وهكذا اعطته رقماً في شارع كلارك ثم اضافت . . « لاداعي
لاعطائك عنواني ، ماريا تعرفه » وانطلق جرجس ، دون مزيد من
الفضضاء .

وجد في العنوان منزلاً حجرياً كبيراً ذا مظهر ارسطوقراطي .
رن الجرس فجاءت فتاة ملونة إلى الباب ، فتحتة قرابة البوصة ، حذقت
اليه بشيء من الريبة ثم سألته :

« ماذا تريد ؟ » .

فسألها « هل تقطن ماريا برجنيسكاس هنا ؟ »

« لأعرف » ، قالت الفتاة « ماذا تريد منها ؟ » .

فأجابها : « أريد ان اراها . انها قريبتي »

ترددت الفتاة لحظة — ثم فتحت الباب وقالت « ادخل » دخل

جرجس ثم وقف في الصالة فاستأنفت : « سأذهب لاراها . ماهو اسمك ؟ » .

« قولي لها جرجس » ، اجابها فصعدت الفتاة الدرج ثم عادت خلال

دقيقة او اثنتين قائلة : « لأحد هنا بهذا الاسم . »

وشعر جرجس بقلبه يهوي بين جنبيه ثم صاح — لقد قالوا لي

انها تسكن هنا لكن الفتاة اكتفت بهز رأسها . « السيدة تقول انه لا يوجد احد هنا بهذا الاسم . »

وقف لحظة من الزمن ، متردداً ، يائساً ، خائفاً . ثم دار على عقبه

ينوي الخروج لكنه في اللحظة نفسها ، سمع قرعاً على الباب ، فمضت

الفتاة اليه . عند ذلك لفت انتباه جرجس حركة صاخبة لأقدام عديدة ،

ثم سمع الفتاة وهي تطلق صرخة . وفي اللحظة التالية وثبت إلى الوراء

ثم اجتازته وقد ابيضت عيناها رعباً وهلعاً وراحت تقفز الدرج قفزاً .

صارخة ملء صوتها : « شرطة ! شرطة ! غارة ! »

ولثانية من الزمن وقف جرجس متحيراً ثم وثب خلف الزنجية

وهو يرى ذوي البذلات الزرقاء يندفعون إلى الداخل . كانت صرخاتها
إشارة لبدء ضجة شديدة في الأعلى ، فقد كان المتزل غاصاً بالناس وحين
دخل الصلاة رأهم يتدافعون هنا وهناك ، صارخين زاعقين انذاراً
للآخرين . كان هناك رجال ونساء وليس على هؤلاء إلا ازارات أما
ولئك فكانوا في شتى مراحل العري . في أحد الجوانب لمح جرجس
جناحاً كبيراً فيه كراسي مغطاة بالمخمل وطاولات مغطاة بالصينيات
والكؤوس - وكان هناك ورق لعب مبعثر في كل مكان من الأرض -
وقد قلبت إحدى الطاولات فتدحرجت زجاجات الخمرة في كل مكان
وانساحت محتوياتها على السجاد كما كانت فتاة شابة قد أصيبت بالاغماء
وكان رجلان يستندانها وحوالي ستة رجال يزحم بعضهم بعضاً باتجاه
الباب الأمامي .

لكن فجأة ، جاءت من ذلك الاتجاه سلسلة ضربات مدوية على
الباب جعلت الحشد ينكص على أعقابهِ ، وفي اللحظة نفسها جاءت
امرأة بديئة ، مطلية الوجنتين ، في أذنيها أقراط من ماس ، وهي تعدو
الدرج عدواً ، لاهثة مقطوعة الأنفاس : « إلى المؤخرة ، بسرعة » .

ثم قادت الجمع إلى السلم الخلفي فلاحق بها جرجس . في المطبخ
ضغطت على نابض فتراجعت خزانة ثم انفتحت كاشفة عن ممر مظلم .
« ادخلوا » صرخت بالحشد الذي بات عدده حوالي الثلاثين والذي بدأ
العبور خلال ذلك الممر غير أنه لم يختف آخر واحد منهم حتى جاءت

الصرخات من الامام وبدأ الحشد بالتدفق عائداً مرة ثانية « انهم هناك ..
لقد وقعنا في الفخ » .

« إلى الطابق العلوي » صرخت المرأة وحدث اندفاع آخر للحشد ،
نساء ورجالاً ، وهم يشتمون ويصرخون ويعاركون وكلهم يود أن
يكون في المقدمة . مبسط درج ، مبسطان ، ثلاثة — ثم وجئوا أنفسهم
أمام سلم يفضي إلى السطح وحشد عند أسفله ، بينما كان رجل في
أعلاه يحاول فتح باب السقف . إلا أن الباب لم يفتح ، لم يتحرك وحين
صرخت به المرأة « فك رتاجه » أجابها : « لقد فككته من قبل . .
ثمة أحد يجلس عليه » .

بعد لحظة ، جاء صوت من الأسفل . « يستحسن أن تقلعوا عن
محاولتكم أيها الناس . هذه المرة المسألة جدّ تماماً » .

وهكذا استسلم الحشد ، وخلال بضع لحظات جاء عدد من رجال
الشرطة يتفحصون هنا وهناك وينظرون بسخرية إلى ضحاياهم الذين
كان من بينهم رجال في أشد حالات الذعر . بينما كانت النسوة
لامباليات ينظرن للمسألة وكأنها مزحة اعتدن عليها — مع ذلك فقد كن
شاجبات الوجوه رغم أنه يصعب القول أكان ذلك بسبب الخوف
أم بسبب طلاء الوجوه . نظر جرجس حوله فرأى فتاة ذات عيون سودّ
ماحولها وقد انحنت من أعلى الدرابزون وراحت ترفس بقدمها خوذ
الشرطة ، إلى أن أمسك بها أحدهم من كاحلها وسحبها أرضاً . وعلى

أرض الصلاة كان هناك أربع أو خمس فتيات أخريات جلسن على
حقائب وهن يسخرن من الموكب الذي يمر بهن واحداً واحداً ضاحكات
صاخبات فبدا واضحاً أنهن ثملات . كانت احدهن تلبس « كيمونو »
أحمر زاهياً . وكانت تصرخ وتزعق بصوت طغى على جميع الأصوات
الأخرى — لمحها جرجس فأجفل ، ثم صرخ : « ماريا » .

سمعته ، فتطلعت فيما حولها . رآته فانكمشت على نفسها أولاً ،
ثم كادت تثب على قدميها دهشة ، وأخيراً هتفت شاهقة : « جرجس . »
ولثانية أو ثانيتين وقفا يحديق واحدهما إلى الآخر ثم هتفت ماريا
معجبة « كيف جئت إلى هنا ؟ » .

فأجاب « جئت لأراك » .

« متى ؟ »

« نواً »

« لكن كيف عرفت — من أخبرك أنني هنا ؟ »

« ألينا جازيثيت . لقد قابلتها في الطريق »

ومرة ثانية ساد الصمت بينما راح واحدهما يتأمل الآخر . كان
الحشد كله يراقبهما وهكذا نهضت ماريا واقتربت منه أكثر فسألها
جرجس « وأنت ؟ هل تعيشين هنا ؟ » .

فأجابت ماريّا « أجل ، أعيش هنا »

عند ذلك جاءت صبيحة من الأسفل « والآن البسن ملابسكن أيتها الفتيات
وعدن مباشرة . ومن الأفضل أن تبدأن أو ندمتن " ، فهي تمطر في الخارج » .

« برر . . . رر . . . » ارتعش أحدهم برداً ، فنهضت النساء وبدأن
يدخلن مختلف الأبواب التي تنفتح على الممر .

« تعال » قالت ماريّا ثم ادخلت جرجس إلى غرفتها وهي مكان
صغير بطول ثمانية أقدام وعرض ستة أقدام ، فيها سرير ضيق وكروسي
ومشجب ثياب علقت عليه بعضها ، بينما كان البعض الآخر مبعثراً
على الأرض ، وفوضى عجيبة في كل مكان — علب حمرة ، زجاجات
عطر وقد اختلطت بالقبعات ، صحنون سجائر ، وعلى الكرسي كان
ثمة خف وساعة حائط وزجاجة وسكي .

لم يكن على جسم ماريّا شيء سوى كيمونو وزوج من الجرابات
الطويلة ، مع ذلك مضت تلبس ثيابها أمام جرجس ، دون أن تزعج
نفسها حتى باغلاق الباب ، في تلك اللحظة كان جرجس قد عرف
تماماً نوع المكان الذي وجد نفسه فيه . إذ كان قد رأى الكثير من الدنيا
مذ ترك بيته ولم يكن يصدّم بسهولة — مع ذلك ، فقد سبب له اكتشافه
لوضع ماريّا لإجفالة مؤلة ، ماريّا تفعل هذا ؟ لقد كانوا دائماً أناساً شرفاء
فهل نسيت ماريّا تلك الأيام القديمة ، لكنه بعد ذلك ضحك من نفسه

لحماقته ، من هو يا ترى كي يدعي الشرف والعفة ؟ . . . و منذ متى
تعيشين هنا ؟ . « سألها جرجس .

فأجابت « حوالي السنة »

ولماذا جئت ؟ .

فقالت : « كان علي أن أعيش . لم يكن باستطاعتي أن أرى الأطفال
وهم يموتون جوعاً » .

والحفلة من الزمن توقف يراقبها ثم سألها أخيراً : « هل طردت
من العمل ؟ »

فأجابت « مرضت . بعد ذلك وجدت نفسي بلا نقود ، ثم مات
ستانسلوفاس » . . . « ستانسلوفاس مات ! ؟ » .
« أجل . نسي . أنت لا تعرف شيئاً عن ذلك » .

« كيف مات ؟ »

« قتله الجرذان »

« قتله الجرذان ! ؟ » صاح جرجس شاهقاً

« أجل » قالت الأخرى ، وهي تنحني لتربط حذاءها « كان يعمل
في مصنع زيوت — أو بالأحرى كان يستأجره الرجال ليأتي لهم
ببيرانهم — وكان معتاداً أن يحمل العلب على سارية طويلة ، وكان يشرب

قليلاً من كل علة . وذات يوم أفرط في الشراب فسقط نائماً في إحدى الزوايا حيث ظل طوال الليل ، وحين وجدوه في اليوم التالي كانت الجردان قد أمت عليه تقريباً .

فجلس جرجس وقد جمده الخوف ، بينما استمرت ماريا تربط حذاءها ، وساد صمت طويل . فجأة جاء شرطي ضخم الجثة إلى الباب صارخاً : « هيا ، اسرعي ، أنت » .

فقالت ماريا « — بأسرع ما أستطيع » ثم وقفت وبدأت تلبس مشدّها بسرعة مخومة .

« وبقية جماعتنا ؟ أما يزالون أحياء ؟ سأل جرجس أخيراً »

« أجل »

« أين ؟ »

« قريباً من هنا . انهم على مايرام الآن »

فتساءل : « هل يعملون ؟ »

« الزبيبتا تعمل حين يتسنى لها ذلك . أنا أتعهد بهن معظم الوقت — انني أكسب مالاً كثيراً هنا » .

صمت جرجس لحظة من الزمن ثم سأها : « هل يعرفون أنك تعيشين هنا — هل يعرفون كيف تعيشين ؟ » .

« الزبيبتا تعرف.. لم أستطع أن أكذب عليها ، وربما اكتشف الأطفال الحقيقة الآن .. على أي حال .. أنا لست خجلى من ذلك .. لم يكن باستطاعتي الحيلولة دونه » وتاموزيوس ؟ .. « هل يعرف ؟ » فهزت ماريا كتفيها ثم قالت « وأنى لي أن أعلم ؟ أنا لم أره منذ أكثر من عام . لقد أصيب بتسمم في الدم وفقد على أثره إحدى أصابعه ولم يعد باستطاعته العزف على الكمان فرحل بعيداً » . كانت ماريا تقف أمام المرأة تزرر فستانها بينما جلس جرجس يحملق بها . بصعوبة بالغة كان يصدق أن هذه هي نفس المرأة التي عرفها في تلك الأيام البعيدة . كانت هادئة تماماً — قاسية تماماً .. وقد انغرز الخوف عميقاً في قلبه خوفاً من أن يراقبها .

بعدئذ رشقته بنظرة سريعة ثم قالت : « تبدو وكأنك أنت أيضاً مررت بأحوال صعبة » .
فأجاب « أجل .. ليس لدي سنت واحد في جيبتي ، وليس لدي ما أفعله » .

« وأين كنت ؟ »

« في كل مكان . كنت مشرداً أطوف البلاد .. ثم عدت إلى المسلخ — تماماً قبل الاضراب .. وتوقف لحظة متردداً ثم أضاف « سألت عنكم فوجدت أنكم قد رحلتم إلى حيث لا يعلم أحد . ربما تظنون أنني خدعتكم خدعة قليلة بفراري ذاك ، ماريا — »

فأجابت ماريا « لا . . . أنا لا ألومك . . بل لم يملك أحد منا .
لقد بذلت مافي وسعك — كان العمل كثيراً علينا » . وتوقفت لحظة
ثم أضافت :

« نحن جهلة . نحن في غاية الجهل ، وتلك هي المشكلة . نحن لم
نستطع اقتناص أية فرصة ولو كنت أعلم ما أحلمه الآن اذن لفرنا
بالكثير » .

فقال جرجس « أكنت ستأتين إلى هنا ؟ »

« أجل » قالت ماريا « لكن ليس هذا ما أقصده . أقصدك أنت — كم
كان سلوكك سيختلف — بالنسبة لأونا » .

فصمت جرجس . لم يكن قد فكر أبداً بهذا الجانب .

فتابعت ماريا « حين يتضور الناس جوعاً ويكون في حوزتهم شيء
ذو ثمن ، عليهم أن يبيعوه . هذا رأيي . وأظن أنك تفهم الآن ذلك
لكن بعد أن فات الأوان . فقد كان باستطاعة أونا أن تتعهدنا جميعاً
بالرعاية ، في البداية تلك » .

كانت ماريا تتكلم دون أثر من عاطفة ، كأني انسان بات ينظر
إلى الأشياء من وجهة نظر عملية . « أجل . . أظن ذلك » ، أجاب
جرجس متردداً ، انما لم يصف أنه دفع ثلاثمائة دولار وخسر وظيفته
كرئيس عمال لكي يرضي نفسه بطرح فيل كونور أرضاً للمرة الثانية .

في تلك اللحظة عاد الشرطي إلى الباب من جديد قائلاً : « هلمي الآن أيتها الشرطة . . » « حسناً » ، قالت ماريا وهي تمد يدها لقبعة كبيرة تشبه قبعة رئيس الأطباء ، مزينة كلها بريش النعام . ثم خرجت إلى الصالة وتبعها جرجس بينما ظل الشرطي في الغرفة يفحص تحت السرير ونخلف الباب .

« ماذا سينجم عن هذا كله ؟ » سأل جرجس وهما ينزلان الدرج

« تعني الغارة ؟ أوه — لا شيء — فهذا يحدث لنا بين الحين والحين . المدام ، لديها ترتيباتها مع الشرطة ، لا أعرف ماهي ، إلا أنها قد تنهي المسألة برمتها قبل الصباح . على أي حال لانهف فلن يمسك أحد بسوء . فهم يطلقون سراح الرجال دائماً » .

فأجاب على الفور « ربما ، لكن بالنسبة لي . . أخشى أن أكون قد انتهيت » .

« ماذا تعني ؟ . . »

« أنا مطلوب من قبل الشرطة » ، قال خافضاً صوته ، رغم أن محادثتهما تدور باللغة اليتوانية طبعاً . « وأخشى أن يرسلوني إلى السجن سنة أو سنتين » ، فقالت ماريا « يا للجهيم . . ذاك أمر في غاية السوء . اذن سأحاول تخليصك من هذه الورطة » .

في الطابق السفلي ، حيث كان يحتشد القسم الأكبر من المساجين سمعت ماريا للوصول إلى تلك الشخصية البدينة ذات الأقراط الماسية ، ثم همست بضع كلمات في أذنها فاقتربت هذه من رقيب الشرطة المسؤول عن الغارة ثم قالت مشيرة إلى جرجس « بيلى ، ثمة شخص دخل لرؤية أخته . كان تماماً قد دخل من الباب حين طرقتم أنتم . أنتم لاتعتقلون متشردين أليس كذلك ؟ » فضحك الرقيب وهو يتطلع إلى جرجس ثم قال « آسف . لكن الأوامر تقضي باعتقال الجميع ماعدا الخدم » .

وهكذا حشر جرجس بين بقية الرجال الذين كان بعضهم يروغ خلف البعض الآخر كشيء شمت رائحة ذئاب . كان بينهم الشاب والأكهل ، طالب الجامعة والعجوز الذي يمكن أن يكون جده ، بعضهم كان يرتدي بذاة المساء — ولم يكن من بينهم واحد تبدو عليه «سيماء الفقير سوى جرجس » .

حين انتهوا من الجولة التفتيشية الأخيرة ، فتحت الأبواب ، وخرجت الجماعة إلى حيث كانت تقف ثلاث عربات دورية عند الرصيف ، وكان كل من في الجوار قد خرجوا للتفرج وراحوا يمازحون الموكب مشرطي الأعناق . كانت النسوة ينظرن فيما حولهن بأعين ملؤها التحدي أو يضحكن ويمزحن ، بينما كان الرجال يسرون خافضي الرؤوس يحاوان ستر وجوههم بقبعاتهم . صعد الجميع إلى

عربات الدورية حتى اكتظت بهم وكأنما هي حافلات ترام ثم انطلقوا أخيراً وسط ضجيج من الهتافات والصيحات . في المخفر أعظمهم جرجس اسماً بواندياً فحشر في زنزانه مع نصف دسته من الرجال الآخرين وبينما جلس هؤلاء وراحوا يتحدثون همساً استلقى هو في إحدى الزوايا وأطلق لافكاره العنان .

كان جرجس قد رأى أسفل درجات الحضيض الاجتماعي وكان قد اعتاد على رؤيته لذلك الحضيض والعيش فيه ، لكنه حين كان يفكر بأن البشرية كلها قدرة فاسدة بغيضة كان يرى دائماً ، ان هناك عائلته التي يحبها ويثق بنقاها - والآن هاهو ذا يكتشف اكتشافه المفاجيء المريع هذا - ماريا عاهرة ! ! الزبيبتا والأولاد يعيشون من ثمن عارها ! كان بإمكان جرجس أن يناقش في سره كل مايشاء ، ان يناقش أنه أساء التصرف وأنه أحمق - إلا أنه لم يستطع أبداً ان يتجاوز ذلك الاكتشاف المفاجيء . لم يستطع منع نفسه من الغرق في لجة الحزن بسبب هذا الاكتشاف . كانت أعماقه ذاتها قد اضطربت وارتجت ، الذكريات أثرت بعد أن رقدت زمناً طويلاً إلى درجة ظنها قد ماتت . ذكريات الحياة القديمة - آماله القديمة تشوقاته ، أحلامه بالشرف والاستقلال . . ورأى أونا ثانية ، سمع صوتها الرقيق وهي تتوسل إليه . رأى انستاناس الصغير الذي كان يود أن يصنع منه رجلاً .

رأى والده العجوز المرتعش الذي كان يباركه دائماً بحبه الرائع . ومرة ثانية عاش يوم الرعب ذلك حين اكتشف عار أوننا — يا لله ! ! كم عانى ! ! أي مجنون كان ! ! كم بدا له كل شيء مرعباً حينذاك ! ! والآن في هذا اليوم ، جلس وأنصت شبه موافق على تصرف ماريا وعلى قولها له أنه كان أحمق . أجل لقد قالت أنه كان عليه أن يبيع شرف زوجته ويعيش بثمرته — ثم كان هناك ستانسلافاس — ومصيره المروع — القصة الموجزة التي روتها له ماريا بكل هدوء ، بلامبالاة متبلدة هكذا ! ! ذلك الصغير المسكين ، بأصابعه التي أودى بها الصقيع ، بخوفه من الثلج — صوته وهو يعول رن مرة ثانية في اذن جرجس ، وهو يستلقي هناك في الظلمة ، حتى أحس بالعرق يتصبب على جبينه . من حين إلى آخر كان يرتعش بتأثير نوبة مفاجئة من الرعب وهو يتصور ستانسلافاس الصغير وقد احتجز داخل مبنى مهجور يعارك الجرذان لإنقاذ حياته .

كل هذه العواطف كانت قد غدت غريبة على روح جرجس . منذ زمن طويل كانت قد أزعجته إلى درجة جعلته يقلع عن التفكير بها . ترى ما جدوى مثل هذه العواطف بالنسبة له ، هو العاجز اليائس الذي لا حول له ولا طول — لماذا يسمح لها بتعذيبه ؟ كانت مهمته الأمامية ، في الفترة الأخيرة من حياته ، هي أن يكافح مثل تلك العواطف

والأحاسيس ، أن يلغيها من وجوده ، بحيث لا يعاني بسببها أبداً ،
إلا إذا داهمته على حين غرة ، وباللاوعي ، إلا إذا طغت عليه قبل
أن يتمكن من صدّها . كان يسمع أصوات روحه القديمة ، يرى أشباحها
تلك وهي توميء له ، تمد أذرعتها له . . . إلا أنها كانت بعيدة باهتة ،
وكان الشق الفاصل بينهما مظلماً لاقرار له ، وكانت ستتلاشى في
ضباب الماضي مرة أخرى ، ستموت تلك الأصوات ولن يسمعها مرة
ثانية قط . وبذلك تنطفئ في روحه آخر شرارة للرجولة وتحمده كلياً .

— ٢٨ —

بعد الافطار سيق جرجس إلى قاعة المحكمة التي كانت تغص
بالمساجين وبأولئك الذين دفعهم الفضول أو الامل بالتعرف إلى أحد
الرجال المتهمين كي يبتزه في المستقبل . نودي على الرجال أولاً ، ثم
وجهت اليهم التوبيخات وطرّدوا جميعاً . وحده جرجس ولشدة رعبه
نودي عليه بصورة مفصلة باعتبار حالته مشكوكاً بها على مايلو .
ففي هذه القاعة عينها كان قد حوكم تلك المحاكمة التي
اوقف فيها تنفيذ الحكم ، كان القاضي ذاته والكاتب ذاته وقد راح
هذا يحملق بجرجس وكأنما خيل له انه يعرفه . الا ان القاضي لم يراوده
أي شك . ففي ذلك الوقت تماماً كانت افكاره تدور حول الرسالة التي
تلقها من رئيس شرطة المنطقة والتي اخبره فيها عن المتصرف الذي

ينبغي ان يتصرفه حيال قضية « بولي سيمبسون » . وهو الاسم الذي يعرف به بيت « المدام » . في غضون ذلك ، كان يصغي لقصة جرجس وكيف كان يبحث عن اخته . فنصحته بنبرة جافة ان يبعد اخته عن مثل هذه الامكنة ثم اطلق سراحه ومضى كي يحكم على كل فتاة من فتيات البيت بغرامة خمسة دولارات . وهي الغرامة التي دفعتها « المدام » بصورة اجمالية من حزمة نقود كانت تخبئها في جواربها .

انتظر جرجس خارجاً ثم سار إلى البيت مع ماريا . كانت الشرطة قد تركت المنزل ، وكان قد حضر بضعة زوار من قبل . ولن يجيء المساء حتى يكون العمل قد عاود سيرته الأولى وكأن شيئاً لم يكن . اثناء ذلك اخذت ماريا جرجس إلى غرفتها في الطابق العلوي حيث جلسا وتحدثا . على ضوء النهار كان باستطاعة جرجس ان يلاحظ لون وجنتيها الذي لم يكن لونها الطبيعي القديم ، ذاك الذي كانت تضيفه الصبغة عليها . فالواقع ان بشرتها كانت صفراء كالرق وان حلقتي سوداوين كانتا تحيطان بعينيها . « أكنت مريضة ؟ » سألتها جرجس فقالت ماريا « مريضة ! ! يا للجهيم ! ! (لقد تعلمت ماريا ان تحشو حديثها باللعنات والسباب مثلما يفعل عتالو المراكب وسائقو البغال) وأنى لي ان اكون الامريضة في هذه الحياة . . . ؟ »

واطبق الصمت دنيهة من الزمن بينما راحت تحملق امامها باكتئاب ،
وانخيراً قالت :

« إنه المخدر ، يحيل لي انني اتناول المزيد منه كل يوم . »

« ولماذا المخدر ؟ »

« هذا هو الاسلوب المتبع هنا ، ولا اعرف لماذا . فالواحدة منا تدمن على الشراب ان لم تدمن على المخدر ، ذلك انها ان لم تخدر نفسها سيتعلم عليها الاستمرار والتحمل . لذا فان « المدام » تعطي جرعة المخدر للفتاة لحظة وصولها فتعود عليه وتتعلق به ، او تجد نفسها دائماً فريسة الصنادع وأشياء من هذا القبيل . انها عادة يصعب عليها التخلص منها . ولقد اكتسبت هذه العادة ، وانا اعلم انه من الصعب التخلص منها فقد حاولت الاقلاع عنها لكنني لم ولن أنجح طالما ظللت هنا .

« وكم ستبقين ؟ »

« لا ادري . دائماً ، اخمن تخميناً . ماتراني افعل ان خرجت ؟ »

« ألم توفري مالا ؟ »

« اوفر ؟ . . ياإلهي . . كلا طبعاً ، انني احصل على الكثير ، على ماظن ، لكنه يذهب جميعاً فأنا آخذ نصف حصه ، دولارين ونصفاً لكل زبون واحياناً اكسب خمسة وعشرين دولاراً او ثلاثين دولاراً في الليلة ، فهل تظن انني اوفر شيئاً منها . . ان علي ان ادفع اجرة غرفتي وثمان طعامي وبأسعار لم تسمع ابداً ، ثم هناك الاضافات والمشروبات -

مقابل كل ما اكسب وبعض ما لا اكسب . فاتورة المصبغة وحدها
تكلفني حوالي عشرين دولاراً اسبوعياً فكر في ذلك ، لكن مالذي
استطيع فعله ؟ .

فاما ان اتحمل ذلك او اترك . ولسوف اجد الشيء ذاته في كل
مكان آخر . ان كل ما استطيع فعله هو توفير الخمسة عشر دولاراً
التي اعطيها لالزبيينا كل اسبوع ، وبذلك يتمكن الاولاد من الذهاب
إلى المدرسة .

جلست ماريا مطرقة تفكر ، ثم تابعت وقد رأت ان جرجس مهتم
كثيراً : « هذه هي الطريقة التي تعيش بها الفتيات هنا- فهم يغرقون
بالديون إلى درجة يتعلم معها التخلص . فتاة تأتي من خارج البلاد
مثلاً ، لاتعرف كلمة انكليزية واحدة ، تدخل في مكان كهذا ،
وحين تود الذهاب تربها « المدام » ان عليها مائتي دولار ديناً ، ثم تجردها
من ثيابها وتهدها بأن تجعلهم يلقون القبض عليها ان لم تبقى وتفعل مايقال
لها . وهكذا تبقى ، وبقدر ماتبقى بقدر ماتغرق اكثر واكثر في الدين .
وغالباً ايضاً مايكن فتيات لايعرفن ماسوف يحل بهن ، ترى هل لاحظت
تلك الفتاة الفرنسية الصغيرة ذات الشعر الاصفر التي كانت تقف بجواري
في المحكمة ؟

فأجاب جرجس بالايجاب .

« حسناً ، لقد جاءت إلى امريكا قبل حوالي عام . لقد كانت كاتبة في مخزن ثم استأجرها رجل وارسلها إلى هنا كي تعمل في مصنع . كن ستفتيات معاً فجيء بهن جميعاً إلى بيت قريب من هنا ، حيث وضعت هذه الفتاة بمفردها واعطيت جرعة مخدر في طعامها ، وحين افأقت من المخدر وجدت انه قضي عليها . صرخت ، زعقت مزقت شعرها الا انه لم يكن يسترها سوى ازار ولم يكن باستطاعتها التخلص . لقد ابقوها شبه غائبة عن الوعي بفضل العقاقير التي اعطوها لها إلى ان استسلمت . في ذلك المكان ظلت حوالي عشرة اشهر لاتخرج منه ابداً ثم بعد ذلك اخرجوها منه ، لأنها لم تعد منامية . واطن انهم سيخرجونها من هنا ايضاً فقد بدأت تصاب بنوبات جنون من فرط الادمان على الشراب . فتاة واحدة فقط من الفتيات التي جئن معها استطاعت الافلات ، قفزت من نافذة من الطابق الثاني ذات ليلة ، وقد حدثت ضجة كبيرة بسبب ذلك - ربما سمعت بها . »

فقال جرجس « سمعت بها فيما بعد » (لقد حدثت الحادثة حين كان هو ودوان يلتجئان من زبونهما الريفى . وكانت الفتاة قد غدت مجنونة ، من حسن حظ الشرطة)

« انهم يكسبون الكثير من المال مقابل ذلك » قالت ماريا « يكسبون اكثر من اربعين دولاراً لكل فتاة وهم يأتون بالفتيات من كل مكان .

يوجد هنا سبع عشرة فتاة ينتسبن لتسع بلدان . في بعض الاماكن قد تجد أكثر ايضاً فلدينا هنا نصف دسنة من الفرنسيات واظن ان سبب ذلك هو ان « المدام » تتكلم الفرنسية . فالفتيات الفرنسيات سيئات ، اسوأ الفتيات طراً ماعدا اليابانيات . ثمة مكان قريب مليء باليابانيات لكنني لا استطيع العيش مع واحدة منهن تحت سقف واحد .

وللمحظة او لحظتين توقفت ماريا . بعدئذ اضافت : معظم النساء هنا طيبات تماماً ولعل هذا سيفاجئك . كنت عادة اظن انهن يمارسن هذا العمل لانهن يحببنه — لكن تخيل ! امرأة تبيع نفسها لكل ضروب الرجال شيئاً كانوا ام شباناً ، سوداً ام بيضاً — وتفعل ذلك حباً به ! ! فقال جرجس « بعضهن يقلن انهن يحببنه »

فقالت ماريا « اعلم ذلك . هن يقلن أي شيء . لقد وقعن ويعلمن انه لا منجاة لهن لكنهن لم يكن يحببنه حين بدان — وبامكانك ان تكتشف ذلك — انه الفقير دائماً . . هاهنا فتاة يهودية صغيرة كانت بالاصل تعمل لدى صانع قبعات نسائية ، لكنها مرضت وفقدت مكانها ، ثم وجدت نفسها مدة اربعة ايام مشردة في الشوارع دون لقمة طعام ، عندئذ ذهبت إلى مكان قريب عند الزاوية وعرضت نفسها فجعلوها تتعري من ثيابها قبل ان يقدموا لها لقمة تأكلها . »

ولدقيقة او دقيقتين صمتت ماريا وهي تفكر ملياً ، ثم قالت فجأة : « حدثني عن نفسك يا جرجس اين كنت ؟ . »

وهكذا اخبرها جرجس قصة مغامراته الطويلة منذ هروبه من المنزل :
حياته كمتشرد ، عمله في انفاق الشحن ، الحادث . ثم حياته مع جاك
دوان ، حياته كسياسي في المسالخ واخيراً سقوطه وانفقااته اللاحقة .
كانت ماريا تصغي بتعاطف كامل . كان من السهل ان تصدق حكاية
اشرافه الاخير على الموت جوعاً ، فقد كان ذلك جلياً في وجهه . « لقد
وجدتني في الوقت المناسب تماماً » قالت ماريا اخيراً . « سأقف إلى
جانبك — سأساعدك إلى ان تتمكن من الحصول على عمل . »

« لاحب ان ادعك . . . » بدأ جرجس

« ولم لا ؟ لاني هنا ؟ »

فقال : « لا ، ليس لهذا السبب ، بل لاني وليت الادبار وتركتكم .
» هراء . لا تفكر بذلك . انا لا املك »

وبعد دقيقة او دقيقتين قالت . . « لابد انك جائع ابق هنا كي
تتغذى . سأطلب شيئاً ما إلى الغرفة . »

ثم ضغطت زراً فجاءت امرأة ملونة إلى الباب تلقت الاوامر منها
« شيء جميل ان يكون لديك من يخدمك » لاحظت ماريا ، ضاحكة ،
وهي تستلقي على السرير .

بما ان افطار السجن لم يكن سخياً ، فقد كانت شهية جرجس جيدة ،
وقد اقاما معاً نوعاً من المأدبة الصغيرة تحدثا خلالها عن الزبييتا والاولاد

والزمان القديم . لكن قبل انتهائهما من الطعام بفترة وجيزة مجأت فتاة ملونة أخرى رسالة مفادها ان « المدام » تريد ماريا ، « ماري الليتوانية » كما كانوا يسمونها هنا .

فقالت لجرجس « ذلك يعني ان عليك ان تذهب »
وهكذا نهض فاعطته ماريا عنوان العائلة الحديد في منطقة الغيتو
ثم قالت : « اذهب إلى هناك وسوف يسرون برؤيتك » .

لكن جرجس وقف متردداً لحظة من الزمن ، ثم قال :
« انا — انا لأحب ذلك . ماريا ، لم لاتعطيني مبلغاً من المال وتدعيني
ابحث عن عمل اولاً ؟ فكان جوابها . . « كيف تحتاج إلى المال ؟ ماتحتاجه
هو المأكل والمأوى اليس كذلك ؟ » . . « اجل . . لكن ماذا ان لم يكن لدي
رغبة في الذهاب إلى هناك بعد ان تخلت عنهم — سيما وانني بلا عمل
وان — أن . . . »

« اذهب . . » قالت ماريا وهي تدفعه « عم تتكلم ؟ انا لن اعطيك
مالاً ، » ثم اضافت بعد ان لحقت به إلى الباب : « فأنت ستشرب به
وستؤذي نفسك . هاك ربع دولار الآن ، وامض اليهم في الحال .
انهم سيسرون بعودتك ولامبرر لنحملك ابداً . وداعاً » .

* * *

وهكذا خرج جرجس ، ثم بدأ السير في الشارع وهو يقلب الافكار.

اخيراً قرر ان يحاول الحصول على عمل اولاً ، وعلى هذا قضى بقية
نهاره طائفاً هنا وهناك ماراً بالمصانع والمستودعات لكن دونما نجاح .
حين حل الظلام ، قرر الذهاب إلى البيت وبدأ السير فعلاً في ذلك الاتجاه
لكنه حين وصل قرب مطعم دخل اليه وأنفق ربع دولاره ثمن وجبة عشاء ،
وعندما خرج غير رأيه - فالليلة جميلة وسينام في مكان ما في الخارج
ليتابع البحث عن عمل في الغد ، وبذلك تتاح له فرصة اخرى قد يحصل
فيها على عمل . وهكذا عاد فابتعد من جديد . وفجأة تطلع حوله فوجد
بالمصادفة أنه يسير في الشارع ذاته ويمر بالصالة ذاتها التي استمع فيها
الليلة الماضية لخطاب سياسي . لم يكن هناك نيران حمراء ولا جوقة موسيقية
بل مجرد لافتة في الخارج تعلن عن اجتماع ، وكان جدول من الناس
يتدفق إلى الداخل . بلمحة عين قرر بجرس ان يقتنص الفرصة مرة
اخرى وان يجلس ويستريح ريثما يحزم امره . لم يكن هناك من يأخذ
بطاقات ، اذن لابد ان العرض حر مرة ثانية ، ودخل . لم يكن ثمة ترتيبات
في الصالة هذه المرة انما كان هناك حشد لا بأس به على المنصة ،
مقاعد الصالة مشغولة تقريباً . . احتل مقعداً من مقاعد الصف الاخير
البعيد . وفي الحال نسي كل ما حوله . هل سقطن الزبيبتا انه آت لامتصاص
مواردها ، ام هل ستفهم انه ينوي ايجاد عمل والاسهام في نفقات البيت ؟ هل
ستقبله استقبالاً حسناً ام ستوبخه ؟ لا يستطيع ان يحصل على اي عمل

قبل ان يذهب اليها — لو ان رئيس العمال الاخير ذاك يرغب فقط بتجريبه . . .

بعد ذاك رفع جرجس ناظريه فجأة اذ انطلق هدير هائل من حناجر الجمهور الذي كان في ذلك الحين قد زحم الصلاة حتى ابوابها . كان الرجال والنساء يقفون وهم يلوحون بالناديل ويهتفون ويصيحون . من الواضح ان الخطيب قد جاء ، فكر جرجس — أى حمقى يصنعون من انفسهم ! ! ماتراهم يتوقعون ان يثالوا من هذا المرشح ؟ ماشأهم ياترى بالانتخابات ؟ بحكم البلاد ؟ لقد بات جرجس يعرف الآن ماوراء الكواليس .

وعاد إلى افكاره ، انما بحقيقة اخرى يمكن الاستناد اليها — هي انه محتجز طوال الاجتماع فالصلاة تغص براودها حتى الابواب . وبعد الاجتماع سيكون قد فات الاوان على ذهابه إلى المنزل ، لذا عليه ان يدبر نفسه في الخارج . ربما سيكون من الافضل ان يذهب إلى المنزل صباحاً ، اذ يكون الاولاد في المدرسة وحينذاك سيغدو بإمكانه ان يشرح لالزبييتا المسألة برمتها وهما وحيدان . لقد كانت دائماً انسانة معقولة وهو يقصد فعلاً ان يكون مستقيماً ، سيعمل على اقناعها بذلك . علاوة على ان ماريا ترغب بذلك ، وماريا هي التي تقدم المال لذلك اذا قابلته الزبييتا على نحو بشع فسوف يقول لها ذلك بكل صراحة .

وهكذا ، مضى جرجس في تفكيره حتى بدأت الصلاة اخيراً ،
وكان قد مضى عليه ساعة او ساعتان ، تعد نفسها لتكرار الكارثة
المخيفة التي وقعت الليلة الماضية . كانت الخطب قد استمرت طوال
الوقت والجمهور يصفق ويهتف منفعلًا مهتاجًا ، وشيئًا فشيئًا بدأت
الاصوات تختلط في اذن جرجس وبدأت افكاره تضطرب وتتداخل ،
ورأسه يهوم ويكبو . وكالعادة امسك نفسه عدة مرات متخذًا قرارات
يائسة الا ان القاعة كانت دافئة وحميمة وكان مشواره الطويل وغداؤه
أكثر مما يستطيع تحمله — وفي النهاية سقط رأسه إلى الامام وغرق في
سبات عميق .

ومرة ثانية لكزه احدهم فجلس منتفضاً انتفاضة الذعر . كان يشخر
طبعاً . . فماذا الآن ؟ ثبت جرجس عينيه امامه بتركيز مؤلم محققاً إلى
المنصة وكأنما لم يكن يهمه شيء آخر او ربما لم يهمه شيء آخر في حياته
كلها ، كان يتصور صرخات التعجب الغاضبة ، النظرات العدائية
وكان يتصور الشرطي وهو يوسع خطاه نحوه ، ماداً يده إلى عنقه — أم
ترى لديه فرصة أخرى ؟ هل ستركونه وشأنه هذه المرة ؟ وجلس
يرتعد انتظاراً . لكن جاءه ، وعلى حين غرة ، صوت في اذنه ، صوت
نسائي لطيف ورقيق : « لو تحاول الاصغاء يارقيق فربما سيثار اهتمامك » .
واجفل جرجس لذلك الصوت اكثر مما لو كان لمسة شرطي .
فثبت عينيه امامه ولم يتحرك لكن قلبه وثب وثبة كبيرة . رفيق ! من
تلك التي دعتة رفيقاً ؟ . .

انتظر وانتظر ، واخيراً حين اطمأن على أن أحداً لا يراقبه ، اختلس نظرة من طرف عينه إلى المرأة التي تجلس بجانبه فوجدتها شابة ، جميلة تلبس ثياباً حسنة وتبدو ما يدعوه الناس بـ « السيدة » ، ولقد دعتة رفيقاً . ادار جسمه قليلاً ، وبكثير من الحذر ، كي تتسنى له رؤيتها على نحو افضل . بعد ذاك بدأ يراقبها مفتوناً . كانت على ما يبدو ، قد نسيت كل ما يتعلق به وكانت تتطلع باتجاه المنصة ، حيث يتكلم احد الخطباء الذي كان جرجس يسمع صوته على نحو غامض فافكاره كلها منصبة على وجه المرأة . لقد طغى عليه شعور بالخوف وهو يحدق اليها ، ما جعل جلده يقشعر . ما الذي دها هذه المرأة ؟ ما الذي يجري هناك بحيث يؤثر في انسان ما بهذا الشكل ؟ كانت تجلس وكأنها تحاولت إلى حجر ، يداها مطبقتان في حجرها بشدة إلى درجة يمكن بها ان يرى العروق البارزة في رسغها . وعلى وجهها نظرة انفعال شديد ، جهد شديد كنظرة من يصارع بكل قوته ، أو من يشهد مثل هذا الصراع وعلى خيشومها كان يظهر ارتعاش خفيف ، ومن حين إلى آخر كانت تبلل شففتيها بسرعة محمومة ، وكان صدرها يعلو ويهبط وهي تتنفس ، بينما يبدو انفعالها وكأنه يتزايد أكثر وأكثر ثم ينخفض ثانية ويخفت مثل قارب تتقاذفه امواج المحيط . ما الأمر ؟ ما المسألة ؟ لابد ان يكون شيئاً ما ، ذاك الذي يقوله الرجل الذي يقف هناك على المنبر . مانوع هذا الرجل ياترى ؟ اي شيء ذاك الذي يقوله ؟

وهكذا نخطر بخرجس فجأة ان ينظر إلى الخطيب .

كان ذلك اشبه بالوصول فجأة إلى منظر غريب من مناظر الطبيعة—
غاية جبالية تسوطها عاصفة هوجاء ، سفينة يتقاذفها بحر عاصف . وانتاب
جرجس احساس بالقلق ، بعدم الراحة ، بالاضطراب ، بانتفاضة غريبة
عديمة المعنى . كان الرجل نحيلاً ، طويلاً ، مهزولاً ، كسامعه نفسه ،
وقد غطت لحية سوداء رقيقة نصف وجهه ، وكان بإمكان المرء ان
يرى تجويفين اسودين حيث العينان ولاشيء سواهما . كان الرجل
يتكلم بسرعة ، بانفعال شديد وكان يستخدم الكثير من
الاشارات — وكان وهو يتكلم يتحرك هنا وهناك على المنصة ، ماداً
ذراعيه الطويلتين وكأنما سيمسك بشخص ما أمامه . كان صوته عميقاً
كصوت ارغن ، لكن مضى حين من الزمن قبل ان يفكر جرجس بالصوت
— فقد انشغل كثيراً بعينه إلى درجة لم تسمح له بالتفكير بقوله . لكن ،
فجأة خيل له وكأن الرجل يشير إليه مباشرة ، كما لو انه افرده نخصيصاً
من اجل ملاحظاته ، وهكذا بدأ جرجس يعي الصوت المرتعش
المهتز انفعالاً وألماً وحنيناً ، والمحمل بأشياء لايمكن الكلام عنها ،
لاتعبر عنها الكلمات . فأن تسمعه يعني ان بأسرك فجأة ، أن يقبض عليك
ويثبتك دون حراك .

« انتم تستمعون لهذه الاشياء » كان الرجل يقول « ثم تقولون ،
اجل هذا صحيح ، لكن هكذا هي الحال دائماً . او تقولون ربما سيأتي

ذلك اليوم ، انما ليس في هذا الزمان - ولن يجديني ذلك نفعاً . وهكذا
تعودون إلى منازلكم واعمالكم المعتادة تطحنكم مطحنة القوة الاقتصادية
القائمة على التناق العالمي ! ! تكون ساعات طويلة ليحني الفوائد اناس
آخرون ، تعيشون في بيوت وضيفة حقيرة ، تعملون في اماكن خطيرة
غير صحية ، تصارعون اشباح الجوع والحرمان ، يصيبكم ما يصيبكم
من حوادث وامراض وموت وكل يوم يغدو الصراع أشد حدة وشراسة
والوتيرة أكثر قوة ، كل يوم تضطرون للكد أكثر وأكثر وتشحرون بيد
الظروف الحديدية تشدد الخناق عليكم . تمر الشهور - وربما السنون -
ثم تعودون مرة ثانية ، ومرة ثانية تجدوني هنا اتوسل اليكم ، لكي
اعرف اذا كانت الحاجة والبأساء قد فعلت فعلها بكم ، اذا كان الظلم
والاضطهاد قد فتح لكم عيونكم . ولسوف انتظر - فليس ثمة ما يمكنني
فعله . ليس هناك قفر يمكنني الهروب اليه من هذه الاشياء ، وليس هناك
ملاذ ألوذ به منها . فرغم اني قد ارحل إلى اقاصي الارض الا اني
سأجد النظام اللعين نفسه . سأجد أن كل الاواقع الكريمة والنبيلة لدى
الانسانية ، احلام الشعراء وعذابات الشهداء ، كلها مغلوطة ومقيدة
في خدمة الجشع المفترس المنتظم لذا لا أجد الراحة ، لا يسعني البقاء
صامتاً ، فألقي جانباً بالراحة والسعادة ، بالصحة والشهرة - واخرج
إلى العالم ، أصرخ بالآلام روحي . . لا لن يسكتني الفقر والمرض ،
ولا الكراهية والقدح ، ولا التهديدات والسحرية - ان يسكتني السمع

والاعتقال إذا ما جاء - لن تسكتني قوة على وجه الأرض ، كانت
أو تكون أو ستكون يوماً من الأيام .

وان أفضل الليلة سأحاول غداً ، وأنا أعلم أن الخطأ لا بد نخطئي إذ
ما إن أعبر مرة واحدة تعبيراً حقيقياً عن رؤى روحي ، ما إن أوضح
توضيحاً صحيحاً عذاباتها ومعاناتها حتى تتحطم أمتن حواجز العصب
وتهتز أضعف النفوس وأبلدها . . انها ستُخجل أشد النفوس تشاؤماً
من ذاتها ، ستُرعِب أشدها أنانية ، ولسوف يسكت صوت السخرية
وينحسر الزيف والزور إلى جحريهما ويظهر الحق ويزهق الباطل . .
ذلك لأنني أتكلم بصوت الملايين الذين لا صوت لهم . . بصوت
المضطهدين الذين لا يحملون من يرفع عنهم الحيف والاضطهاد ، بصوت المحرومين
من الحياة ، من ليس لهم راحة أو خلاص من ليس العالم لديهم إلا سجنًا ،
زنزارة عذاب ، قبراً . . اني أتكلم باسم الطفل الذي يكبد ليل نهار في
محالٍ قطن الجنوب ، يترنح إعياء ، وقد أخرسه الألم ، لا يعرف أملاً
سوى القبر . . باسم الأم التي تحيط على ضوء الشمعة في غرفتها الحفيرة
المستأجرة متعبة ، باكية ، تجلدها سياط الجوع القاتل الذي يهدد
أطفالها . . باسم الرجل الذي يتمدد على فراشه الرث ، يصارع مرضه
الأخير ويترك أطفاله الأحياء ليراثن الهلاك ، باسم الفتاة التي تجوب ،
في هذه اللحظة شوارع هذه المدينة المرعبة ، خائفة ، جائعة وليس لها
خيار إلا المأخور أو قاع البحيرة . . باسم أولئك الذين تمسك بهم أنياب

الشره الحادة ، أياً كانوا واينما كانوا . . باسم الانسانية المطالبة بالخلاص ،
باسم روح الانسان الخالدة الناهضة من التراب ، الشاقة طريقها خارجة
من سجنها ذاك الذي أعدته لها طغمة الاضطهاد والجهل — متلمسة
طريقها إلى النور » .

وتوقف الخطيب . فخيم الصمت لحظة من الزمن ، كان المستمعون
فيها يلتقطون أنفاسهم ، ثم ، وكأنه صيحة رجل واحد ، انطلق
هتاف ألف انسان — وخلال ذلك كله ظل جرجس بلا حركة ، عيناه
مثبتتان على الخطيب ، يرتعش وقد أذهلته الدهشة .

وفجأة رفع الرجل يديه فساد السكون وبدأ من جديد .

« انني أتوسل إليكم كائناً من تكونون ، شريطة أن تكونوا ممن
يهم بالحقيقة ، لكن أكثر من أتوسل إليهم . . انما هم العمال ، الذين
ليست الشرور التي أصورها مجرد مسائل عاطفية لديهم ، يمكن مداعبتها
والتلاعب بها ، ومن ثم توضع جانباً وتنسى ، العمال الذين كل مآصوته
من شرور انما هي وقائع يومية قاسية تطحنهم بين أسنانها والأغلال في
أقدامهم والسياط على ظهورهم ، والحديد يكبل نفوسهم . إليكم أيها
العمال . . إليكم أيها الشغيلة الذين صنعت هذه البلاد وليس لكم صوت
في مجالسها ، إليكم يا من قادر كم أن تزرعوا ليحني الآخرون ، أن
تعملوا وتطيعوا ولا تطالبوا أكثر من قوت يومكم ، من مأوى يحميكم ،

يامن تعيشون حياتكم يوماً بيوم . . إليكم أوجه رسالتي ، رسالة الخلاص ،
إليكم أوجه ندائي . انني أعلم كم هو كثير ما أطلبه منكم . أعلم ،
لأنني كنت حيث أنتم ، عشت حياتكم ، وليس من رجل أمامي
هذه الليلة يعلم أفضل مما أعلم ، انني أعلم ما يعني أن يكون المرء متسكع
شوارع يعيش على كسرة الخبز وينام في مداخل الأقبية وتحت العربات
الفارغة ، انني أعلم ما يعني أن تجرؤ وتطمح ، ان تحلم أحلاماً رائعة
وتراها تتحطم أمام عينيك - ان ترى كل أزهار روحك تمرغ بالحماة
والطين ، تمرغها قوى الحياة البهيمية الوحشية . انني أعلم الثمن الذي
يدفعه العامل لقاء المعرفة - ولقد دفعته من طعامي ونومي ، من معاناتي
الجسدية والذهنية ، من صحتي ، من حياتي نفسها تقريباً ، وهكذا ،
حين أجيء إليكم بغصة الأمل والحرية ، برؤيا الأرض الجديدة التي
سنصنع ، بالعمل الحديد الذي ينبغي الاجترار عليه ، لا يدهشني أن
أجدكم متلكئين متهاونين كسالى غير مصدقين . وإذا كنت لا أعرف
البأس فذلك لأنني أعرف أيضاً القوى التي تسوقكم من الخلف - لأنني
أعرف سوط الفقر اللاهب ، وخز الاحتقار والتكبر ، غطرسة أصحاب
المكاتب وأرباب العمل ، لأنني أشعر بثقة كاملة ان في هذا الحشد الذي
جاء الليلة هنا ، بغض النظر عن مقدار تبلده ولا مبالاته ، وبغض
النظر عن جأؤوا بدافع الفضول والتبطل أو للتنهك وحسب - يوجد
شخص ما أحاله الألم والمعاناة انساناً يائساً ، شخص جعلته رؤيته العرضية

للظلم والأهوال يرتعد فرقاً ويصدم إلى حد الاهتمام . وسوف تأتي
كلماتي لشخص كهذا كما هو لمع البرق لشخص يرحل في الظلمة
— «تكشف الطريق له : بكل ما فيها من مخاطر وعقبات — ستحل له
كل المشكلات وتزيل كل الصعوبات ! ! سوف تزول الغشاوة عن
عينه . وتتحطم الأغلال عن قدميه — وسوف يقفز صارخاً بالامتنان
والشكر وسوف ينطلق رجلاً حراً أخيراً . . انساناً تحرر من عبوديته
التي صنعها لنفسه . . ولن يقع في شرك أبداً . إذ لن تغريه الزخارف
والبهرجات ولن تخيفه كل التهديدات ، ومن اليوم فصاعداً سيمضي
قدماً ، لن يتراجع ، سيدرس ويتفهم ، سيقبض على سيفه ويحتل مكانه
بين رفاقه وأخوانه وسوف يحمل الانباء الطيبة إلى الآخرين ، مثلما
حملتها له — هبة الحرية التي ليست ملكي ولا ملكه ، بل هي ملك روح
الانسان . . ايها العمال . . ايها العمال .

أيها الرفاق افتحوا أعينكم وانظروا حولكم . لقد عشم طويلاً
في الكد والحرارة التي بلدت أحاديثكم وأماتت نفوسكم . لكن تمنعوا
مرة واحدة في حياتكم ، في هذا العالم الذي تقيمون فيه — مزقوا أسمال
عاداته وتقاليده ، تأملوه على حقيقته ، بعريه المخيف البغيض هذا ،
اعرفوه . . اعرفوه . . اعرفوا أن على سهول منشوريا اليوم يتقابل
جيشان متعاديان — الآن ، وأنتم تجلسون هنا ، يلقي مليون كائن بشري
بأنفسهم بعضاً على بعض يكافحون بكل هوس المجانين لتزريق بعضهم

بعضاً . . ويحدث هنا في القرن العشرين وبعد مضي تسعة عشر قرناً
على مجيء رسول السلام إلى الأرض . . منذ تسعة عشر قرناً تلقى كلماته
مواعظ مقدسة ، ومع ذلك ثمة جيشان يمزق أحدهما الآخر مثلما
تفعل وحوش الغابة . . لقد حاكم الفلاسفة المسألة محاكمة منطقية ،
وأنكرها الأنبياء وبكى الشعراء وتوسلوا — ومع ذلك ظل هذا الوحش
الرهيب طليقاً يسرح ويمرح . . لدينا المدارس والكلليات ، الصحف
والكتب ، وقد نقبنا السماوات والأرض ، وازنا وبحثنا وناقشنا ، وكل
ذلك لكي نزود الإنسان بما يدمر أخاه الإنسان . . اننا ندعوها حرباً
ونعبر بها عبوراً — لكن لا تملصوا مني بالحجج التافهة والتقاليد تعالوا
معي — اعرفوها جيداً . . انظروا إلى أجسام الرجال وقد مزقتها الرصاص ،
وقد فجرتها القذائف ومزقتها ارباً ارباً . . اسمعوا صوت الحربة وهي
تنغرز في لحم الإنسان تمزقه وتسحقه ، اسمعوا أنات وصرخات العذاب .
تأملوا وجوه الناس وقد شوّهها الألم فانقلبت إلى وجوه شيطانية بفعل
السخط والكراهية . . ضبعوا أيديكم على تلك القطعة من اللحم — انها
دافئة ترتعش ، فمنذ لحظة فقط كانت جزءاً من إنسان . . هذا الدم
ما يزال حاراً يتصاعد منه البخار — كان يدفعه قلب بشري ! ! يا إلهاً كلي
القوة ! ! وهذا كله مستمر — بصورة منهجية منظمة تم التفكير بها
مسبقاً ! ! ونحن نعرفه ، نقرأ عنه ، نعتبره طبيعياً ، صحفنا تتحدث

عنه ولا تكف - كئائسنا تعرف به ولا تغلق أبوابها - الناس يبصرون
ولا يشورون من الهول أو يتمردون .

أو لعل منشوريا بعيدة كثيراً عنكم - اذن فلتأتوا معي ، تعالوا
هنا إلى شيكاغو . هنا في هذه المدينة وفي هذه الليلة ثمة عشرة آلاف امرأة
في ما يشبه الحظائر القذرة أغلقت عليهن أبوابها ، يدفعهن الجوع لأن
يعلن أجسادهن . ونحن نعرف ذلك ! ! أو نصنع منه دعاية . . هؤلاء
النساء صنعن على صورة أمهاتكم ، وقد يكن أخواتكم أو بناتكم ،
الطفلة التي تركتموها الليلة في المنزل والتي نحييكم عيناها الضامحكتان
في الصباح - قد يكون ذلك القدر بانتظارها . وهذه الليلة ، في شيكاغو
عشرة آلاف رجل مشردين بلا مأوى ، يرغبون في أن يجدوا عملاً ،
يستجدون فرصة للعمل ومع ذلك يتضورون جوعاً ويواجهون مرتعدين
فرقاً برد الشتاء الرهيب . هذه الليلة في شيكاغو ثمة مئة ألف طفل يستنفذون
كل مالديهم من قوة ، تدمر حياتهم وهم يحاولون أن يكسبوا قوت
يومهم . . ثمة مئة ألف أم تعيش في البؤس والشقاء ، تكافح كي تكسب
ما يعيل أطفالها الصغار . . ثمة مئة ألف شخص هرم ، منهوذ ، عاجز ،
ينتظر الموت عسى أن يخلص من - عذابه . . ثمة مليون نسمة ، رجالاً
ونساء وأطفالاً يتقاسمون لعنة عبيد الأجور أولئك الذين يكدون
الساعات تلو الساعات كي يكسبوا ما يسد رمقهم بشق النفس ، أولئك
الذين يحكم عليهم مخي الممات بالرتابة والسأم ، بالجوع والبؤس ،

بالحر والقر ، بالقذارة والمرض ، بالجهل والادمان والرهبة . . ثم
لنقلب الصفحة معاً ، ولنتأمل الجانب الآخر من الصورة . . ثمة ألف
- وربما عشرة آلاف - هم سادة هؤلاء العبيد ، يملكون جهدهم
ويستغلون تعبهم . أناس لا يفعلون شيئاً كي يكسبوا ما يكسبونه ،
لا يضطرون حتى للسؤال عنه - فهو يأتيهم بنفسه ، همهم الوحيد هو
ألا يتصرفوا به . . أنهم يسكنون القصور ، يغرقون في بحار البلذخ
والترف - إلى درجة تعجز الكلمات عن الوصف ، تجعل الخيال ينكص
على عقبيه مترنجحاً ، تصيب نفس الإنسان بالمرض والدوار . إنهم
ينفقون مئات الدولارات ثمن حذاء أو منديل أو طماق ، ينفقون
الملايين على الحمول والسيارات واليخوت ، على القصور والحفلات ،
على الحجارة الكريمة التي يزينون بها أعناق نسائهم . حياتهم مباراة
يتنافسون فيها لإثبات تفوقهم في دنيا المظاهر واللامبالاة ، في تدمير
الأشياء الضرورية والمفيدة ، في هدر جهد وحياة المخلوقات التابعة
لهم ، جهد وعناء الأمم ، عرق ودموع ودماء الجنس البشري . فكل
شيء ملكهم - ينصهم ، تماماً مثلما تصب كل الينابيع في الجداول
والجداول في الأنهار والأنهار في المحيط - وهكذا ، بصورة آلية
لامفر منها ، تأتي ثروة المجتمع كلها إليهم . المزارع يحرق التربة ،
عامل المنجم ينقب في الأرض ، والشاسج يعمل على النول البناء ينحت
الحجر ، والناطقة مخترع والماهر يوجه ، والحكيم يدرس والملمهم

يغني - وكل ما ينتج ، كل ما تخرج به الأدمغة والعضلات ، إنما يجتمع في تيار ضخيم واحد يصب في أفواههم . . المجتمع كله في قبضة أيديهم ، عمال العالم كلهم يقعون تحت رحمة أيديهم - وكالذئاب الشرسة تجدهم يمزقون ويدمرون ، مثل الطيور الجارحة يلتهمون . . كل ما يملك الجنس البشري من طاقة إنما هو ملكهم إلى الأبد ودون منازع - فمهما تفعل الإنسانية ومهما تكافح ستجد نفسها دائماً تعيش من أجلهم وتموت من أجلهم فهم لا يملكون اليد العاملة في المجتمع وحسب ، بل يملكون الحكومات وفي كل مكان يستخدمون قوتهم الطاغية الغاصبية لتمكين أنفسهم أكثر وزيادة امتيازاتهم أكثر . ولكي يعمقوا أكثر ويوسعوا أكثر ، الألفية التي تجري فيها أنهار المرباح نحوهم . . - وأنتم أيها العمال . . أيها العمال ، أنتم بأنفسكم تأتون بها إليهم ، وأنتم تكلدون كالبهائم المحملة لا تفكرون إلا بيومكم وآلامه - مع ذلك ، هل يوجد فيكم من يعتقد أن نظاماً كهذا سيستمر إلى الأبد ؟ هل هناك رجل واحد منكم لديه الجرأة لأن يقف أمامي ويقول أنه يعتقد أن هذا النظام سيستمر إلى الأبد ، ان وسائل عيش الجنس البشري ، نتاج عمل المجتمع ، سيظل دائماً ملك المتبطلين الكسالى والطفيليين ، كي يهدر ارضاء للغرور والشهوات - كي ينفق من أجل أي غرض كائناً ما كان هذا الغرض ، كي يكون تحت تصرف أية رغبة فردية أياً كانت ، وأن جهل الإنسانية لن يكون بشكل ما وفي مكان ما ملكاً للبشرية يستخدم من أجل أغراض

البشرية وتمحكم به ارادة البشرية ؟ وإذا ما حدث هذا في يوم من الأيام ، فكيف سيحدث ؟ أية قوة ستحققه ؟ أظنون أن مهمة سادتكم أن يحققوه ؟ — هل سيكتبون لكم دستور حرياتكم بأيديهم ؟ هل سيصنعون لكم سيف خلاصكم ويسلمونكم قيادة الجيش الذي يرسلونه إلى المعركة ، معركتكم ؟ هل سينفقون ثرواتهم في سبيلكم ؟ هل سيشيدون لكم الجامعات والكنايس كي يعلموكم ، يطبعون الصحف ليبشروا بتقدمكم ، ينظمون الأحزاب السياسية لتهدئ كفاحكم وتمضي به قدماً ؟ ألا ترون أن المهمة هي مهمتكم — أن تخلصوا ، أن تصمموا وأن تنفذوا ؟ وانها إن تنفذ ذات يوم فأنما ستنفذ بعد أن تواجه كل العقبات والعراقيل التي يمكن للثروة والتسلط أن يضعها في وجهها — ستواجه التهكم والسخرية ، الكراهية والاضطهاد ، الزنزانات والسجون ؟ بقوة زنودكم ستواجهون محقق الاضطهاد وغضبه ، بتعلم القسوة وعدم الرحمة ، بالسعي المؤلم ، سعي الأذهان التي لم تتعلم ، بالتلعشات الضعيفة للصوت الذي لم يشتقف بظلم الروح الوحيدة الخزيئة ، بالسعي والكفاح والتشوق ، بالألم واليأس ، بالعذاب والعرق والدم . . سيتحقق ذلك . بالمال الذي سيدفع رغم الجوع ، بالمعرفة المختلطة على حساب النوم ، بالأفكار المتناقلة تحت ظلال المقاصل | | ستكون حركة بدايتها في الماضي البعيد ، شيئاً غامضاً غير مشرف من السهل أن تسخر منه من السهل أن تحتقره ، شيئاً غير محبوب يلبس رداء الانتقام والكراهية ولكن

إليكم أنتم ينادي العامل | عبد لأجور بصوت قوي كله تصميم واصرار ،
صوت لا يمكنكم الفرار منه حيثما كنتم على وجه الأرض ، بصوت كل
مظالمكم ، بصوت كل رغباتكم ، بصوت واجبتكم وأملككم - بكل
شيء في العالم ذي قيمة لديكم . . صوت الفقير الذي يطالب بالقضاء
على الفقر ، صوت المضطهد وهو يعلن نهاية الاضطهاد . . صوت
القوة المصنوعة من المعاناة - التصميم المستخلص من الضعف ، الفرح
والشجاعة المولودين في خضم العذاب واليأس . . صوت اليد العاملة
المحتقرة المهينة ، ذلك العملاق القوي الذي ينبطح على الأرض - عالياً
كالجبل ، كبيراً كبيراً لكنه معصوب العينين مقيد اليدين يجهل ما يملك
من قوة . والآل يراوده حلم المقاومة ، أمل مصارعة الخوف ، إلى أن
يتحرك فجأة ويكسر الأغلال - تسري الحمية في عروقه ، تبلغ الأطراف
البعيدة لجسم العملاق ، وبطرفة عين يغدو الحلم حقيقة . . فينتفض ،
يحرك نفسه ، يمزق العصبه عن عينيهِ ، يلقي بالأحمال عن ظهره
وينهض - عالياً كالبرج ، كبيراً كالعملاق ، يهب على قدميه بصرخ
بنشوته التي ولدت من جديد » -

وانقطع صوت المتكلم فجأة ، لشدة انفعاله ، فوقف وقد مد
ذراعيه إلى الأعلى ، كأنما رفعت قوة رؤياه عن الأرض . فهب الجمهور
كله صائحاً صيحة واحدة ، وبدأ الرجال يلوحون بأيديهم ، ويضعحون
عالياً لشدة احتياجهم . وكان جرجس معهم يصرخ على نحو يمزق

الحناجر يصرخ لأنه لم يستطع منع نفسه من الصراخ ، لأن شدة انفعاله كانت أكثر من أن يستطيع التحمل . لم تكن كلمات الرجل أو فصاحته المتدفقة ، هي التي أثرت فيه بل حضوره ذاته ، صوته : صوت ذو نبرات غريبة ترن في حنايا النفس رنين الأجراس ، ذلك هو الذي كان يقبض على المستمع وكأنها يد عملاق تلف جسده ، تهزه ، تجعله ينتفض بخوف مفاجيء باحساس بأشياء ليست من هذه الأرض ، بأسرار لم يبح بها أحد من قبل ، بمثل الرعب والهول أمام العين . . لقد انكشفت دروب أمام عينيه ، انهارت الأرض تحت قدميه ، حدث ثوران ، هزة ، انتفاضة ، وشعر بنفسه فجأة مجرد انسان لا أكثر - في داخله طاقات لم يحلم بها ، قوى شيطانية تصارع ، عجائب طويلة العهد تكافح لكي تولد ، فجلس ينتابه الألم والفرح ، بينما سرى خدر في أصابع قدميه وغدا تنفسه صعباً متسارعاً . كانت كلمات هذا الرجل هزيم رعد يدوي في جنبات نفسه ، فيضمان انفعال يتدفق في داخله - كل أماله وأشواقه القديمة ، أحزانه وسورات غضبه ويأسه ، كل ما شعر به يوماً من الأيام في حياته بدا وكأنه يعود إليه دفعة واحدة وبمحافظة جديدة يصعب وصفها . ان يكون قد عانى من اضطهادات وأهوال كهذه أمر سيء بما فيه الكفاية ، لكن ان تسحقه وتهزمه ، أن يستسلم وينسى ويعيش في سلام - حقاً ، ذلكم هو الشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات ، الشيء الذي لا يمكن لمخلوق بشري أن يتحملة ،

إنه الهول والجنون . . يسأل النبي « ترى ماهي جريمة من يقتل الجسم بالنسبة لجريمة من يقتل الروح ؟ » وكان جرجس انساناً قتلت روحه ، كف عن الأمل ، توقف عن الكفاح — انساناً عقد اتفاقية مع الانحطاط واليأس . والآن ، فجأة وبانتفاضة مرعبة ، اتضح الحقيقة السوداء البغيضة أمام عينيه إذ كان هناك انهيار كامل لكل ركائز روحه ، وكانت السماء تغلق فوق رأسه — فوقف رافعاً يديه المطبقتين بأحكام ، عيناه حمراوان كالدم ، عروقه تتنفض ارجوانية في وجهه ، ثم زار بصوت كصوت الأسد ، صوت كأصوات المجانين . وحين لم يعد باستطاعته الصراخ وقف ساكناً وهو يشهق ويهمس بصوت أبح في سره « يا الله ! . يا الله ! . يا الله ! . » .

— ٢٩ —

عاد الرجل إلى مقعده على المنصة فأدرك جرجس أن خطابه قد انتهى . لقد استمر التصفيق عدة دقائق . ثم بدأ أحدهم أغنية سرعان ما انتشرت بين الحشد وارتج بها المكان ارتجاجاً . لم يكن جرجس قد سمع بها أبداً ، ولم يستطع تبين الكلمات جيداً ، إلا أن روحها الغريبة العجيبة سيطرت عليه — أنها نشيد المارسيليز . . وبينما كانت مقاطعه تدوي مقطعاً اثر آخر بجلس جرجس مضموم اليدين ، يرتعش كل عصب فيه . لم يكن قد أثر على هذا النحو طيلة حياته — أنها اعجوبة تنسج في داخله . لم يعد باستطاعته التفكير مطلقاً ، كان منذهلاً ، إلا أنه

أدرك أن رجلاً جديداً قد ولد فيه من خلال الانتفاضة الهائلة التي حلت بروحه . لقد نخرج من بين أنياب الدمار ، نخلص من براثن اليأس ، العالم برمته قد تغير من حوله — انه حر . . حر . . حتى وان كان سيعاني كما عانى من قبل حتى وان كان سيتسول ويتضور جوعاً ، فلم يعد الأمر كما كان من قبل . انه سيفهم ذلك سيتحملة . . لن يكون بعد اليوم ألعبوة الظروف ، بل سيكون رجلاً ذا ارادة وهدف ، سيكون لديه مايقا تل من أجله ، مايموت من أجله ان احتاج الأمر . فهنا رجال يوضحون له ويساعدونه ، سيكون له منهم أصدقاء وحلفاء ، سيقم في حمى العدالة وسيتأبط ذراع القوة .

هدأ الجمهور مرة ثانية وجلس جرجس في مقعده من جديد . فتقدم عريف الحفل ثم بدأ الكلام . كان صوته يبدو رخواً جافاً بعد صوت ذلك الرجل ، بل بدا لجرجس وكأنه نوع من التدنيس . ترى لماذا يتكلم أي انسان آخر بعد ذلك الرجل المدهش ؟ لم لا يصمتون جميعاً ؟ كان العريف يشرح أنه سيتحم جباية بعض الأموال لتغطية نفقات الاجتماع ودعماً لرصيد الحزب في حملته . سمع جرجس ، لكنه لم يكن يملك قرشاً يدفعه . وهكذا سرحت أفكاره في مكان آخر من جديد .

كانت عيناه مثبتتين على الخطيب الذي كان يجلس في كرسيه وقد أسند رأسه إلى يده في حالة تدل على الإعياء . لكنه ، وعلى نحو مفاجيء .

هب على قدميه ثانية وسمع جرجس عريف الحفل يقول أن الخطيب
سيجيب على أي سؤال يود الجمهور طرحه . تقدم الرجل إلى الأمام ،
فنهضت امرأة ثم سألته عن رأي كان الخطيب قد عبر عنه يتعلق بتولستوي .
لم يكن جرجس قد سمع أبداً بتولستوي ولم يكن يهمه شيء يخصه .
ترى لماذا يسأل الناس أسئلة كهذه بعد خطاب من هذا النوع ، فليست
المسألة ان نتكلم بل ان نفعل ، المسألة هي ان نضع يدنا على الآخرين ،
نستثيرهم ، ننظمهم ونعدهم للقتال . .

لكن رغم ذلك استمر النقاش بنبرة محادثة عادية مما اعاد جرجس
إلى دنيا الواقع . قبل بضع دقائق شعر وكأنه يود الإمساك بيد السيدة
الجميلة الجالسة إلى جانبه ويقبلها ، شعر وكأنه يود القاء ذراعيه حول
عنق الرجل الجالس إلى جانبه الآخر . والآن هاهو قد بدأ يدرك انه
« متشرد » — رث الثياب ، كرية الرائحة ، لا مكان له يأوي إليه تلك
الليلة .

وهكذا انتهى الاجتماع أخيراً وبدأ الحضور يغادرون القاعة ،
بينما كان جرجس يعاني عذاب القلق . لم يكن قد فكر بالمغادرة بل فكر
ان الرؤيا لا بد باقية إلى الابد وانه قد وجد اخواناً ورفاقاً لكنه الآن سيخرج ،
ستتلاشى الرؤيا . ولن يكون بمسطاعه ان يجدها مرة ثانية . . فجلس
في مقعده خائفاً متعجباً ، لكن الآخرين الجالسين في الصف نفسه
كانوا يريدون الخروج وهكذا اضطر لان ينهض وان يتحرك ، وبينما

كان يحرفه التيار نزولاً إلى الممر كان ينتقل ببصره من شخص إلى آخر بتوق واكتئاب ، فقد كانوا جميعاً يناقشون الخطاب بانفعال شديد . . .
إلا أن أحداً لم يتقدم لمناقشته معه . واقترب من الباب إلى حد يكفي لأن يحس بجو الليل ، فألقى اليأس قبضته عليه . لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك الخطاب الذي سمعه . لم يكن يعرف حتى اسم الخطيب وعليه أن يذهب دون أن يعرف — لا ! لا ! لا ! هذا محال . ينبغي أن يتكلم مع أحدهم ، ينبغي أن يجد ذلك الرجل نفسه ويحدثه ، لا ، لن يحتقره ، ذاك الذي كان شريداً مثله ! !

وهكذا دخل صفّاً خاوياً من المقاعد راح يراقب منه . وحين نحف الحشد انطلق نحو المنصة . كان الخطيب قد ذهب ، إلا أن باب المسرح كان ما يزال مفتوحاً والناس يخرجون ويدخلون ولا أحد يحرسه . للمم جرجس اطراف شجاعته ودخل ، ثم نزل ممراً يؤدي إلى باب الغرفة حيث كان يحتشد جمع غفير من الناس . لم يعرفه أحد أي انتباه ، فاندفع إلى الداخل وفي أحد الأركان رأى الرجل الذي كان يبحث عنه جالساً في كرسية مزمووم الكهفين ، مطبق العينين تقريباً . كان وجهه شاحباً شحوباً خفيفاً يميل لونه إلى — الخضرة ، وقد ارتخت إحدى ذراعيه إلى جانبه ، بينما وقف بقربه رجل ضخم الجثة يلبس نظارتين وهو يرجع الناس إلى الوراء ، مبعداً الحشد عنه قائلاً : « ابعدوا قليلاً من فضلكم . ألا ترون أن الرفيق منهك ؟ »

وهكذا وقف جرجس يراقب خمس أو عشر دقائق . من حين إلى آخر كان الرجل يتطلع إلى الأعلى ، يوجه كلمة أو كلمتين إلى من هم قربه ، أخيراً وفي إحدى هذه المناسبات وقع بصره على جرجس . وبدأ في عينيه اثر من تساؤل فشر جرجس وكأن قوة دافعة مفاجئة تطلعي عليه فخطا إلى الامام .

« وددت ان اشكرك ياسيدي » بدأ جرجس بسرعة وهو يلهث « لم استطع الذهاب قبل ان اخبرك كم — كم سررت لسماحك . فأنا — . . لم اكن اعرف شيئاً عن ذلك كله . »

في هذه اللحظة كان الرجل ضخم الجثة ذو النظارتين والذي كان قد ابتعد قليلاً ، قد رجع إلى مكانه « الرفيق في غاية الانهاك ولا يستطيع التحدث مع احد — » بدأ يكلم جرجس إلا ان الآخر رفع يده عالياً ثم قال :

« انتظر . فلدى الرجل مايقوله لي » ثم حلق إلى وجه جرجس متسائلاً :

« اتريد ان تعرف المزيد عن الاشتراكية ؟ »

فبدأ جرجس متلعثماً « أ . . أ . . أهذه — هي الاشتراكية ؟ لم اكن اعلم — والآن اود ان اعرف كل شيء عما كنت تتحدث عنه — اود ان اقدم مساعدة . كلي لذلك . »

« اين تسكن ؟ » سأل الآخر

فأجاب جرجس « ليس لي منزل . ولاعمل »

« انت اجني . أليس كذلك ؟ »

« ليتواني ياسيدي » .

أطرق الرجل لحظة متفكراً ثم التفت إلى صديقه سائلاً « من هناك

ياولترز ؟ هناك اوسترينسكي - لكنه بولندي - »

فقال الآخر « اوسترينسكي يتكلم الليتوانية »

« حسن اذن . هل يمكنك ان ترى ان كان قد غادر ؟ »

انطلق الآخر مبتعداً . بينما عاود الخطيب النظر إلى جرجس ثانية .

يعينين سوداوين عميقتين ووجه ملؤه الرقة والالم . ثم قال : « يجب ان

تعلمني ايها الرفيق . فأنا منهك تماماً - اني اتكلم يومياً منذ شهر لكنني

سأقدمك إلى شخص يستطيع تقديم المساعدة لك مثلما استطيع انا . »

لم يكن الرسول قد اجتاز أبعد من الباب حتى أقفل عائداً يتبعه رجل

قدمه إلى جرجس على انه الرفيق اوسترينسكي ، كان اوسترينسكي

شخصاً ضئيل الجسم لا يصل إلا بالكاد إلى كتف جرجس ، جاف

العروق متغضن الوجه ، قبيح المنظر يعرج قليلاً ويرتدي سرة سوداء

طويلة الذيل ذات شريط اخضر عند درزتها وعري ازرار ، ولا بد من أن

عينيه كانتا ضعيفتين اذ كان يلبس نظارتين غريبتين اضيفتا عليه منظرأ

غريباً . لكن قبضة يده . وهو بصافح . كانت قوية وكان يتكلم الليتوانية

التي جعلته قريباً من قلب جرجس . قال الرجل : « تريد ان تعرف شيئاً عن الاشتراكية ؟ بالتأكيد ، اذن دعنا نخرج ونمشي الى حيث يمكننا ان نجلس بهدوء ونتكلم . »

وهكذا ودع جرجس السيد المتعب وخرج . سأله اوسترينسكي عن مكان سكنه ، عارضاً ان يسيرا في ذلك الاتجاه فاضطر جرجس لان يشرح مرة اخرى انه بدون بيت ، وبناء على طلب الآخر حكى له قصته : كيف جاء الى امريكا ، ماحدث له في المسلخ ، كيف تحطمت عائلته وكيف اصبح شريداً . استمع الرجل الضئيل الجسم لكل حرف من قصته ثم ضغط على ذراع جرجس بشدة قائلاً - « لقد وقعت بين اسنان الطاحونة ايها الرفيق ، لكننا سنصنع مقاتلاً منك . . »

بعدئذ بدأ اوسترينسكي يشرح ظروفه بدوره . كان بوده ان يدعو جرجس الى بيته انما ليس لديه سوى غرفتين وليس لديه فراش يقدمه له . كان من الممكن ان يقدم له فراشه الخاص الا ان زوجته مريضة ، لكن فيما بعد وحين فهم ان جرجس سينام في احد ملاخل الابنية ان لم يأخذه معه عرض عليه ان ينام في مطبخه ، وكان من دواعي سرور الآخر ان يقبل هذا العرض . . « ربما نتمكن غداً من فعل ما هو افضل » قال الآخر « فنحن نحاول ألا ندع رفيقاً من رفاقنا يموت جوعاً . »

كان بيت اوسترينسكي في منطقة الغيتو . وكان يتألف من غرفتين في قبو . كان ثمة طفل صغير يبكي حين دخلا ، فأغلق الباب المؤدي إلى

غرفة النوم . شرح اوسترينسكي له ان لديه ثلاثة اولاد صغار — وطفلاً
ولد من جديد . ثم سحب كرسيين الى جوار موقد المطبخ : مضيفاً
ان على جرجس ان يعذرهم لما في البيت من فوضى . ففي وقت كهذا
غالباً مات قلب تربيئات البيت رأساً على عقب . كان نصف المطبخ مشغولاً
بمقعد للشغل تكومت عليه كومة كبيرة من القماش فشرح اوسترينسكي
انه « يفصل بنظونات » وقد جاء بهذا القماش كي يشتغل به هو وزوجته .
انه يكسب قوته منه ، الا ان الامور تصعب يوماً بعد يوم لان عينيه
بدأتا تخذلانه . ماذا سيحدث حين تخذلانه كلياً امر لا يستطيع التحدث
به ، فهو لم يوفر شيئاً — والانسان لا يستطيع ان يكسب من عمل اثني
عشرة او اربع عشرة ساعة يومياً الا مايسد الرمق . فتفصيل البناتيل
لا يحتاج لكثير من المهارة . بإمكان كل امرء ان
يتعلم هذه المهنة ، لذا يقل كسبهم يوماً بعد يوم . انه نظام الاجر التنافسي ،
وان كان جرجس يود أن يفهم ماهي الاشتراكية ، فالأفضل ان يبدأ
من هنا . فالعمال يعملون على عمل يعيشون منه يوماً بيوم ، وبذلك
ينافسون بعضهم بعضاً ، وليس باستطاعة احد ان يحصل على أكثر
من الحد الأدنى الذي يقدمه الآخرون المستغلون . وهكذا تجد جماهير
الناس في حال صراع دائم مع الفقر ، صراع حياة او موت . ذلك هو
« التنافس » بالنسبة لكاسب الاجر ، ذاك الذي لا يملك الا جهده كي
يبيعه ، اما بالنسبة لمن هم في قمة الهرم أي المستغلين ، فالأمر يبدو
مختلفاً تماماً ، طبعاً — فهناك قلة منهم وبإمكانهم ان يتحدوا ويفرضوا

سيطرتهم لتغزو قوتهم لا تقاوم . وهكذا يوجد في كل مكان من العالم طبقتان ، الشقة الفاصلة بينهما لا تسد ابداً - الطبقة الرأسمالية ذات الثروات الهائلة والبروليتاريا المقيدة بسلاسل خفية إلى نير عبوديتها . ورغم ان هذه الطبقة تفوق تلك بنسبة ألف إلى واحد ، الا انها جاهلة وعاجزة وستبقى تحت رحمة مستغليها إلى ان تنظم نفسها - إلى ان تصبح طبقة واعية . وهذه عملية بطيئة ومملة الا انها - ستستمر . انها اشبه بجبل جليدي ، ما ان يبدأ الحركة حتى يصعب إيقافه تماماً .

كل اشتراكي يساهم بنصيبه ويعيش على أمل « مجيء الزمن الصالح » - وذلك حين تذهب الطبقة العاملة إلى صناديق الاقتراع وتمسك بزمام السلطة ، وتضع حداً للملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وبغض النظر عن مقدار فقر الانسان او مقدار معاناته ، فانه لا يمكن ان يكون تعيشاً حقاً طالما يعلم شيئاً عن مثل ذلك المستقبل ، حتى وان لم يعيش إلى ان يراه بنفسه فان اولاده سيعيشون ويرونه . بالنسبة للاشتراكي ، نصر طبقته هو نصره . كذلك هناك دائماً التقدم الذي يشد من أزره . فهنا في شيكاغو ، مثلاً ، تنمو الحركة بقفزات كبيرة . شيكاغو هي المركز الصناعي للبلاد ، وليس هناك مكان آخر تعادل قوة النقابات فيه قوتها هنا ، الا ان هذه التنظيمات لا تقدم للعمال الا القليل من النفع ، والسبب في ذلك هو ان ارباب العمل منظمون ايضاً ، لذا تفشل الاضرابات عموماً ، لكن بقدر ماتتشر النقابات بسرعة أكبر بقدر ما يتحول الناس إلى الاشتراكية .

بعد ذلك شرح اوسترينسكي تنظيم الحزب ، الجهاز الذي تتقف البروليتاريا نفسها من خلاله قائلاً أن هناك « محليات » في كل مدينة وبلدة ، وهي قيد التنظيم في المواطن الاصغر . « والمحلية » ، حيثما كانت ، تضم من ستة الى ألف عضو ومجموع المحليات هو ألف واربعمئة أي ما مجموعه حوالي خمسة وعشرين ألف عضو يدفعون اشتراكات لدعم المنظمة . اما « محلية المنطقة » كما تدعى منظمة المدينة فتضم ثمانين محلية فرعية وهي وحدها تنفق عدة آلاف من الدولارات في الحملة ، وتصدر نشرة اسبوعية باللغة الانكليزية واخرى باللغة البوهيمية والالمانية . كذلك هناك دورية تصدر كل شهر في شيكاغو ودار نشر تعاونية يصدر عنها مليون نسخة من الكتب والمؤلفات كل عام . وهذا كله حصيلة السنوات القليلة الماضية — اذ لم يكن هناك شيء من هذا كله حين قدم اوسترينسكي إلى شيكاغو .

واوسترينسكي بولندي في حوالي الخمسين من العمر ، عاش في سيليسيا ، فرداً من شعب محقر ومضطهد وشارك في الحركة العمالية في مطلع السبعينات حين وجه بسمارك ، بعد ان قهر فرنسا ، سياسته ، سياسة الحديد والدم نحو « الالمية » . اوسترينسكي نفسه سيق إلى المعتقل مرتين لكنه كان شاباً حينذاك ولم يكن يبالي ورغم انه كان قد قدم أكثر من نصيبه في الكفاح ، فقد رحل إلى امريكا كي يبدأ من جديد في الوقت الذي حطمت فيه الاشتراكية كل حواجزها وغدت أكثر قوة سياسية

في الامبراطورية . في امريكا كان الجميع يسخرون من مجرد طرح فكرة الاشتراكية - ففي امريكا كل الناس احرار ، كما لو ان الحرية السياسية تجعل عبودية - الاجور اسهل كثيراً . . قال اوسترينسكي .

كان الخياط الضئيل الجسم مائلاً إلى الورا في كرسيه المتين وقد مد قدميه فوق الموقد الخاوي ، متحدثاً همساً كيلا يوقظ النائمين في الغرفة المجاورة . فبدأ لعيني جرجس شخصاً لا يقل روعة عن الخطيب الذي كان يتكلم في الاجتماع « انه فقير ، في اسفل درجات السلم ، بائس تسوطه سياط الجوع - ومع ذلك ما اكثر ما يعرف ! ! ما اعظم جرأته ! ! ما أكثر ما انجز ! ! اي بطل تراه ! ! وهناك آخرون مثله ايضاً - آلاف مثله ، كلهم عمال . . كل تلك الالية الرائعة ، آلية التقدم التي تحدث عنها انما ابداعها هو وزملاؤه - ولم يستطع جرجس تصديق ذلك ، لقد بدا اعظم من ان يصدق » .

ذلك هو الطريق دائماً ، قال اوسترينسكي ، فحين يهتدي المرء اول ما يهتدي إلى الاشتراكية يغدو كالمجنون - لا يستطيع ان يفهم كيف يعجز الآخرون عن رؤية الاشتراكية كما يتوقع ان يهتدي العالم كله لها في اول اسبوع . لكنه بعد حين يدرك كم هي مهمة صعبة ولسوف يكون محظوظاً ان استطاع هداية بضعة عمال جدد ليمنعوا عنه السقوط في مهاوي اليأس . الآن تماماً يمكن ان تتاح لجرجس فرصة طيبة للتنفيس عن انفعاله ، فهناك حملة لانتخاب رئيس للجمهورية والجميع يتحدثون

في السياسة . اوسترينسكي سيأخذه إلى الاجتماع التالي « للمحلية الفرعية »
ويقدمه إلى المسؤولين . وهناك ينضم إلى الحزب . الاشتراكات خمسة
ستات اسبوعياً ، لكن كل من لا يستطيع الدفع يمكن اعتاؤه . الحزب
الاشتراكي منظمة سياسية ديمقراطية حقاً ، يسيطر عليها سيطرة كاملة
ويدير شؤونها افرادها انفسهم وليس لها رؤساء .

شرح اوسترينسكي هذا كله لخرجس ، كما شرح أيضاً مبادئ
الحزب اذ يمكن القول انه ليس هناك بالحقيقة الا مبدأ اشتراكي واحد —
هو مبدأ اللامساومة ، الذي يعد جوهر الحركة البروليتارية في كل
انحاء العالم . فحين ينتخب اشتراكي ما لمنصب من المناصب فانه يصوت
مع شرعي الحزب الكبير على أي اجراء يحتمل ان يكون
ذا فائدة للطبقة العاملة ، لكنه لا ينسى ابداً ان تلك المناسبات ، اياً كانت ،
انما هي تافهة بالمقارنة مع الهدف العظيم — أي تنظيم الطبقة العاملة من
اجل القيام بالثورة . فحتى الآن ، القاعدة في امريكا هي ان الاشتراكي
يصنع اشتراكياً آخر مرة كل سنتين ، واذا ما حافظوا على المعدل
نفسه سيكتسحون البلاد في عام ١٩٢١ ، رغم انه من غير المتوقع ان
يفجحوا كلهم بالسرعة ذاتها .

وللاشراكيين تنظيم في كل امة متحضرة . انه حزب سياسي
امي ، بل أكبر حزب عرفه العالم . لا يقل عدد اتباعه عن ثلاثين مليوناً

وله ثمانية ملايين صوت . لقد بدأ صحيفته الاولى في اليابان وانتخب نائبه الاول في الارجننتين وفي فرنسا يسمي اعضاء في مجلس الوزراء ، وفي ايطاليا واستراليا بمسك بميزان القوى ويغير وزارات . اما في المانيا ، حيث يبلغ مجموع اصواته أكثر من ثلث مجموع الاصوات في الامبراطورية فقد اتحدت كل الاحزاب والقوى الاخرى كي تواجهه . لكن لن يجدي ذلك نفعاً ، شرح اوسترينسكي ، فحين تحقق بروليتاريا امة من الامم انتصار تلك الامة تهب القوة العسكرية للامم الاخرى وتسحقها . لذا فالحركة الاشتراكية هي حركة عالمية ، تنظيم لكل الجنس البشري يبني من خلاله الحرية والاخوة . إنه الدين الجديد للبشرية — او يمكنك القول انه ماتوصل اليه الدين القديم ، نظراً لانه يتضمن المعنى الحقيقي لكل تعاليم المسيح .

انقضى زمن طويل بعد منتصف الليل وجرجس غارق في الحديث مع صاحبه الجديد . انها تجربة في منتهى الروعة بالنسبة له — تجربة خارقة للطبيعة تقريباً ، إنها اشبه بمقابلة احد سكان الكواكب البعيدة المتحررين من كل قيود الانسان . منذ اربع سنوات وجرجس يحول ويتخبط في فيفاء مقفرة وهاهي ذي فجأة تمتد يد اليه ، تمسك به ثم تخرجه من القفر وتضعه على قمة جبل ، حيث يمكن ان يرى كل شيء — يرى الممرات التي طاف بها ، المستنقعات التي خوض فيها ، مكامن الوحوش المفترسة

التي وقع عليها . هناك تجاربه في باكنجتاون ، مثلاً ، — وأي شيء في باكنجتاون لا يستطيع اوسترينسكي تفسيره ، بالنسبة لجرجس كان اصحاب دور التعليب رديفاً للقدر ، اما اوسترينسكي فقد اوضح له انهم « شركة احتكارية للحوم » . انهم اتحاد عملاق لرأس المال يستحق كل معارضة ، يدوس بقدمه قوانين البلاد ، يفترس الشعب . وتذكر جرجس كيف وقف ، حين قدم اول مرة إلى باكنجتاون ، وراقب ذبح الخنازير ، فخطر له حينذاك مقدار ما في ذلك من قسوة ووحشية ثم خرج وهو يهنيء نفسه انه ليس خنزيراً ، والآن يبين له صاحبه الجديد أن وضع الخنزير افضل من وضعه هو . — وانه ليس أكثر من احد خنازير دور التعليب . فما يريرونه من الخنزير انما هي الفوائد التي يمكنهم ان يستخلصوها منه ، وهذا هو بالضبط ما يريرونه من العامل وهو نفسه ما يريرونه من الجماهير . ما يفكر به الخنزير وما يعاني منه ليس بندي اهمية مطلقاً ، كذلك لاهمية ابدأ لما يفكر به العمال وما يعانون منه وما يفكر به مستهلك اللحم وما يعاني منه . وهذا صحيح في كل مكان من العالم . . الا انه صحيح على نحو خاص في باكنجتاون ، فهنا يشتد المستغلون قسوة ولا مبالاة بسبب ممارستهم اعمال الذبح والقتل — وهذا هو نفسه ما يجعل حياة مئات الناس لاتساوي بنساً واحداً لدى هذه الطبقة المستغلة . وحين يقرأ جرجس الكتابات الاشتراكية ويتفهمها جيداً ، كما يمكنه ان يفعل ذلك بسرعة ، فانه سيأخذ لمحات عن شركة احتكار اللحوم من كافة جوانبها ولسوف يجدها هي ذاتها في كل مكان .

إنها تجسّد الطمع الأعمى المجنون . إنها الوحش الذي يلتهم كل شيء .
وله الف فم ويطأ كل مادونه بألف حافر . إنها الجزار الكبير - روح
الرأسمالية مجسدة بلحمها ودمها . في محيط التجارة تبحر كسفينة
قرصنة ، ترفع الراية السوداء وتعلن الحرب على المدينة . الرشوة والفساد
هما نهجها وطريقها . في شينكاغو ، حكومة المدينة أحد مكاتبها الفرعية .
إنها تسرق بلايين الغالونات من ماء المدينة جهاراً ، وتملي على المحاكم
الأحكام التي تريد فرضها بالمضربين المخلين بالنظام وتمنع رئيس البلدية
من تنفيذ قوانين البناء ضدها ، وفي عاصمة البلاد ، لديها القوة لمنع
تفتيش منتجاتها وتزوير تقارير الحكومة وانتهاك قوانين الضريبة .
وحين تهدد بإجراء تفتيش ، تحرق دفاتر حساباتها وتبعث بوكلائها
المرتكبين خارج البلاد . إنها في عالم التجارة القوة الساحقة ، تلك التي
تمحق في طريقها كل شيء ، تبتلع آلاف المهن كل عام وتدفع بالناس
إلى الجنون والانتحار . إنها تفرض أدنى أسعار للماشية كي تقضي على
صناعة تربية الماشية وهي المهنة التي تعيش عليها الولايات كاملة وتحطم
آلاف الجزائريين الذين يرفضون تداول منتجاتها . إنها تقسم البلاد
إلى مناطق ، تثبت سعر اللحم في كل منها ، تضع يدها على كل عربات
التبريد ، تفرض جزية ضخمة على كل الدواجن والبيض والثمار
والخضار . إنها ، بملايين الدولارات التي تتدفق كل أسبوع عليها ،
تتوصل إلى التحكم بالمصالح الأخرى ، بخطوط السكك الحديدية

والثرامات ، بامتيازات الكهرباء والغاز ، ولقد وضعت يدها من قبل على مصالح الجلود والحبوب في البلاد . ورغم أن الناس تشيرهم إلى ابعاد حد ، تعدياتها وتجاوزاتها ، لكن مامن احد يملك العلاج . وسخدمهم الاشتراكيون يحملون على عاتقهم مسؤولية تعليم الناس وتنظيمهم ، اعدادهم للوقت الذي يتوجب عليهم فيه ان يضعوا ايديهم على الآلة الضخمة التي تدعى « تروست اللحوم » كي يستخدموها لانتاج الغذاء للناس لا لتكديس الثروات لصالح حفنة من القراصنة - وكان قد مضى زمن طويل على منتصف الليل حين تمدد جرجس على أرضية المطبخ ، ثم مضت ساعة قبل أن يرقد له جفن ، فرحا بروعة تلك الرؤيا ، رؤيا سكان باكنجتاون وهم يسرون قدماً ويضعون أيديهم على « اتحاد المسالخ » .

- ٣٠ -

تناول جرجس الافطار مع أوسترينسكي وعائلته ، ثم ذهب إلى البيت ، إلى الزبييتا . لم يعد يشعر بالحجل من نفسه - وحين دخل بدأ ، بدلاً من قول كل ماخطط لقوله ، يحكي لالزبييتا عن الثورة ! في البداية ظنت أنه فقد صوابه ، وقد مرت ساعات قبل أن تطمئن فعلاً على أنه هو جرجس بلحمه وشحمه . وحين أقنعت نفسها بسلامة عقله في كل الميادين ماعدا ميدان السياسة ، لم تعد تهتم بالأمر . لقد قدر على جرجس أن يكتشف أن درع الزبييتا منيع مناعة مطلقة على الاشتراكية .

فقد تَصَلَّبَتْ رُوحُهَا فِي نَارِ الْعَدَاءِ لِلْإِشْرَاقِيَّةِ وَلَا يُمْكِنُ تَحْوِيلُهَا الْآنَ .
الْحَيَاةُ بِالنِّسْبَةِ لَهَا هِيَ الْبَحْثُ عَنِ الْخُبْزِ الْيَوْمِيِّ وَالْأَفْكَارِ الْمَوْجُودَةِ بِالنِّسْبَةِ
لَهَا هِيَ الْأَفْكَارُ الَّتِي تَنْصَبُ عَلَى ذَلِكَ وَحَسَبَ . كُلُّ مَا يَهْمُهَا مِنْ هَذِهِ
الصَّرْعَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي اسْتَحْوَذَتْ عَلَى تَفْكِيرِ صَهْرِهَا هُوَ مَا إِذَا كَانَتْ
سَتَدْفَعُ بِهِ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَاقِلًا وَدَوَّوْبًا عَلَى عَمَلِهِ أَمْ لَا ، وَحِينَ اكْتَشَفَتْ
أَنَّهُ يَنْوِي الْبَحْثَ عَنْ عَمَلٍ وَيَقْدُمُ نَصِيحًا مِنْ مَصَارِيفِ الْعَائِلَةِ ، أَطْلَقَتْ
الْعَنَانَ لَهُ لِاقْنَاعِهَا بِأَيِّ شَيْءٍ ، امْرَأَةٌ صَغِيرَةٌ حَكِيمَةٌ عَلَى نَحْوِ رَائِعٍ هِيَ
الزَّبِييْتَا ، يُمْكِنُهَا أَنْ تَفَكِّرَ بِالسَّرْعَةِ الَّتِي يَفَكِّرُ بِهَا أَرْنَبُ مَطَارِدَ . لَذا ،
وخلال نصف ساعة ، كَانَتْ قَدْ اخْتَارَتْ مَوْقِفَهَا مَدَى الْحَيَاةِ تَجَاهَ
الْحَرَكَةِ الْإِشْرَاقِيَّةِ . كَانَتْ تَتَّفَقُ بِكُلِّ شَيْءٍ مَعَ جَرَجَسَ ، مَا عدا
ضَرُورَةَ دَفْعِ الْإِشْرَاقِ بَلْ أَنَّهُ سَتَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى الْاجْتِمَاعِ بَيْنَ الْفَيْئَةِ
وَالْفَيْئَةِ وَسَتُجْلِسُ وَتَخْطُطُ لِعَدَاءِ يَوْمِهَا التَّالِيِ وَسَطِ الضَّجْجِجِ وَالزَّحَامِ .

طَوَالَ أُسْبُوعٍ مِنْ اهْتِدَاءِ جَرَجَسَ إِلَى الْإِشْرَاقِيَّةِ ، ظَلَّ يَتَابَعُ
التَّطَوُّرَاتِ كُلِّ يَوْمٍ ، بِإِحْثَاءٍ عَنْ عَمَلٍ إِلَى أَنْ صَادَفَهُ أَخِيرًا حَظٌّ غَرِيبٌ
فَقَدْ كَانَ يَمُرُّ بِأَحَدِ فَنَادِقِ شِيكََاغُو الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَاعَدَ لَهَا وَلَا حَصْرَ ،
وَبَعْدَ شَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ قَرَّرَ أَنْ يَدْخُلَ . رَأَى رَجُلًا يَقِفُ وَسَطَ الصَّلَاةِ
فَظَنَّهُ صَاحِبَ الْفَنْدُقِ وَهَكَذَا مَضَى إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَمَلًا .

فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ . . . « مَاذَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْمَلَ » ؟ .

« أي شيء ياسيدي » قال جرجس ثم أضاف بسرعة « انني بلا عمل منذ زمن طويل ، وأنا رجل شريف وقوي وأرغب بالعمل . . . » .
فتفحصه الآخر تفحص المتعمد ثم سأله : « هل تشرب ؟ » .
فقال جرجس « كلا ياسيدي » .

« حسن . لدي بواب يشرب كثيراً ، وقد طردته سبع مرات حتى الآن ، واني أشعر أن ذلك كاف فهل ترغب أن تكون بواباً ؟ » ا
« نعم ياسيدي » .

« انه عمل شاق . عليك أن تنظف الأرض ، تغسل المنافض ، تملأ المصابيح ، تحمل الحثائب » . . . أرغب بالعمل ياسيدي » .
« حسن . سأدفع لك ثلاثين في الشهر وطعامك ونومك ، ويمكنك أن تبدأ منذ الآن إن رغبت بذلك ، كما يمكنك أن تترقي بذلة الشخص الآخر » .

وهكذا انكب جرجس على عمله وبدأ يشتغل بلا كلل أو ملل حتى الليل . عند ذاك ذهب وأخبر الزبييتا . كما قام أيضاً ، رغم تأخر الوقت ، بزيارة أوسترينسكي لإعلامه بالخط الحسن الذي أصابه .
وهنا تلقى مفاجأة كبيرة ، فحين كان يصف موقع الفندق قاطعه أوسترينسكي فجأة قائلاً : « ليس فندق هايندز ؟ » .

فقال جرجس « بل هو . إنه الاسم ذاته » .

« اذن لديك أفضل رئيس في شيكاغو » أجاب الآخر « انه منظم كبير في حزبنا . وواحد من أشهر خطبائنا . . » .

وهكذا ذهب جرجس صباح اليوم التالي إلى رب عمله وحكى له ، فقبض الرجل على يده وصافحه بشدة صارخاً : « بحق الله . . ذلك يجعلني أستريح . فأنا لم أنم طوال الليلة الماضية لأنني طردت اشتراكياً جيداً . » .

بعد ذلك ، بات جرجس يعرف لدى رئيسه باسم « الرفيق جرجس » وبالمقابل كان الرئيس يتوقع أن يناديه جرجس باسم « الرفيق هايندز » وتومي هايندز ، كما هو معروف لدى أصحابه ، رجل قصير ثخين ذو كتفين عريضتين ووجه متورد يزينة سالفان أشيبان . انه صاحب أطيب قلب عاش على وجه الأرض وهو أنشط البشر — رجل لا ينفد حماسه وهو يتكلم عن الاشتراكية طوال النهار والليل ، انه الشخص الذي يبهج الجمهور ويبقى الاجتماع بفضلته في حال ثوران دائم ، وإذا ما بدأ الخطاب مرة فليس هناك من يزه أبدأ .

كان تومي هايندز قد بدأ حياته كمساعد حداد ، ثم هرب وانضم إلى جيش الاتحاد حيث تعرف لأول مرة على « الكسب غير المشروع » على شكل بواريد وبطانيات بالية . وبسبب إحدى البواريد مات أخوه الوحيد وبسبب تلك البطانيات البالية يعاني كل مايعانيه الآن من عذابات

شيخونخته . فحينئذ تمطر يتحرك الروماتزم في مفاصله وحينئذ يبرم وجهه ويغمغم « الرأسالية ! ! يا ولدي ! الرأسالية ! ! » .

كان لديه علاج لا يجيب لكل شرور هذا العالم ، وكان يوصي به للجميع ، سواء كانت مشكلة الشخص هي انخفاق في العمل أو سوء هضم أو حماة تحب الشجار . ففي كل الحالات ، تلمع عيناه ويقول « هل تعلم مات فعل بذلك — انمخب لاثمة الاشتراكين » .

وقد انطلق تومي هايندز متعقباً اثر « الأخطبوط » حالما انتهت الحرب . دخل غمار العمل فوجد نفسه في حالة تنافس مع أولئك الذين كانوا يسرقون حين كان هو في ميادين القتال . محكومة المدينة في أيديهم والسكك الحديدية متحالفة معهم ، وأصحاب المهن الشريفة محشورون في الزاوية ، وهكذا وضع هايندز كل مدخراته في عقارات شيكاغو وانطلق وحيداً يسد نهر الكسب غير المشروع . كان عضو اصلاح في مجلس المدينة ثم عضواً في غريناكر فتقايياً عمالياً ثم انتسب لحزب الشعب فحزب « البريانييت » وبعد ثلاثين سنة من العراق أفاده عام ١٨٩٦ في اقناعه بأن من غير الممكن ضبط سلطة الثروة المركزة بل من الممكن تدميرها فقط ، وقد نشر كتاباً حول ذلك ثم شرع بتنظيم حزب خاص به حين كشف له منشور اشتراكي بالمصادفة ، أن الآخرين قد سبقوه . والآن مضى عليه ثماني سنوات وهو يناضل في سبيل الحزب في أي مكان وكل مكان — سواء كان اجتماع انتخابات

عامّة أو مؤتمر أصحاب فنادق أو حفلة رجال أعمال افرو - امريكيين او نزهة لرابطة انجيلية ، فان تومي هايندز يدبر توجيه الدعوة له كي يشرح علاقات الاشتراكية بالموضوع قيد البحث . انه يبدأ جولة من جولاته في شيكاغو وينتهي في مكان ما بين نيويورك وأوريغون وحين يرجع من هناك ينطلق لكي ينظم محليات جديدة للجنة الولاية وأخيراً يعود إلى بيته كي يرتاح - ويتحدث عن الاشتراكية . كان فندق هايندز مهدياً للدعاية بالغ الحرارة ، فكل المستخدمين أعضاء في الحزب وان لم يكونوا كذلك أول مجيئهم ، فمن المؤكد تماماً انهم سيكونون قبل أن يرحلوا . ذلك أن صاحب الفندق يدخل في نقاش مع أحد الناس في الصالون ومع ازدياد النقاش حرارة يبدأ الآخرون بالتجمع كي يسمعوا ، وهكذا يحتشد كل من في الفندق حول المتناقشين ويشكلون جماعة تشارك في نقاش نظامي ، كان يجري كل ليلة . وحين لا يكون تومي هايندز موجوداً لاثارة النقاش فان كاتبه يحل محله وحين يكون كاتبه بعيداً في إحدى الحملات فان مساعد الكاتب يحضر الجلسة ، بينما تجلس السيدة هايندز خلف الطاولة لتقوم بالمهمة . والكاتب صديق قديم من أصدقاء هايندز ، عملاق من الرجال ذو وجه مصفر ناحل وفم عريض وسالفان يصلان أسفل ذقنه ، النموذج الذي يجسد تماماً صاحب مزرعة ألبان . وقد كان كذلك طوال حياته . . وقد صارع شركات السكك الحديدية في كنساس خمسين سنة ، ثم انتسب لحزب

« غرانجر » وغدا أحد أعضاء تحالف المزارعين هم أحد أفراد حزب الشعب « . . جناح الوسط » وأخيراً تكشف له فكرة رائعة وهي استخدام التروسنات بدلاً من تدميرها وهكذا باع مزرعته وجاء إلى شيكاغو .

ذلك هو أموس ستروفر ، لكن هناك أيضاً هاري آدامز ، مساعد الكاتب وهو رجل شاحب الوجه يبدو عليه مظهر الباحث أتي من ماساشوسيتز وبالتحديد من « بليغريم » . كان آدامز يعمل في تعاونية قطن قرب نهر فول ، إلا أن الكساد المستمر هناك أنهكه هو وعائلته فهاجر إلى كارولينا الجنوبية في ماساشوسيتز . كانت نسبة الأمية بين البيض ثمانية بالعشرة من المائة بينما هي في كارولينا الجنوبية ثلاثة عشر وستة من عشرة بالمائة كذلك يوجد في كارولينا الجنوبية شرط الملكية لمن يحق لهم التصويت - ولهذا السبب ولأسباب أخرى كان عمل الأطفال هو القاعدة كما كانت محالج القطن في ماساشوسيتز تطرد عمالها من أعمالهم .

لم يكن آدامز يعلم هذا . كان يعرف فقط أن محالج الجنوب تدور ، لكنه حين وصل إلى هناك وجد أن على كل أفراد عائلته إذا أرادوا العيش ، أن يعملوا من السادسة صباحاً حتى السادسة مساء . وهكذا انطلق يعمل في تنظيم الأيدي العاملة في المحلجة وفق الطراز المتبع في ماساشوسيتز فطرد من عمله ، لكنه حصل على عمل آخر وتشبث به ،

وأخيراً حدث اضراب لساعات قصيرة حاول فيه هاري آدامز أن يلقي خطاباً في الشارع ، فكانت في ذلك نهايته . ففي ولايات الجنوب توجر قوة العمل لدى المحكومين بالسجن إلى متعهدين ، وحين لايتوفر مايكفي من المحكومين فإنه يتوجب توفيرهم . وهكذا يحكم على هاري آدامز من قبل قاضٍ هو ابن عم صاحب المحلجة وشريكه في أعماله ورغم أن الحياة هناك كادت تقضي عليه ، إلا أنه كان من الحكمة بحيث لم يتلفظ بكلمة واحدة ، وحين انتهت فترة سجنه غادر هو وأسرته ولاية كارولينا الجنوبية - القناء الحلفي للجحيم ، كما كان يسميها . لم تكن لديه أجرة القطار إلا أنه كان موسم الحصاد والعمل في موسم الحصاد متوفر ، وهكذا كانوا يسرون يوماً ويعملون يوماً إلى أن وصلوا أخيراً إلى شيكاغو وانضم آدامز إلى الحزب الاشتراكي . لقد كان رجلاً مجداً متحفظاً لا شأن له بفن الخطابة ، إلا أنك تجد لديه دائماً كدسة من الكتب يضعها تحت طاولة في مكتب الفندق وكانت المقالات التي ينتجها يراعه في نشرات الحزب قد بدأت تجذب الانتباه وعلى العكس مما يتوقع المرء لم تضر هذه الراديكالية بأعمال الفندق . إذ كان الراديكاليون يتوافدون عليه وجميع المسافرين التحاررين يجدونه مسلياً . كذلك كان الفندق في الفترة الأخيرة قد غدا مكان التوقف المفضل لأصحاب الماشية الغربيين . فمنذ أن تبني تروست اللحوم سياسة رفع الأسعار لاجتذاب حملوات الماشية الضخمة ومن ثم أنزلها مرة

ثانية ووضع يده على كل ما يحتاجه ، فقد بات من المحتمل كثيراً أن يجد مربّي الماشية نفسه في شيكاغو عاجزاً عن دفع فاتورة الشحن ، وهكذا يضطر للذهاب إلى فندق رخيص ، وليس بالعائق بالنسبة له أن يكون هناك نقاش عام في الصلاة . فهؤلاء الغربيون هم الوجهة الرئيسية لتومي هايندز . انه يضع نصف دسته منهم حوله ويرسم صوراً صغيرة « للنظام » . بالطبع ، لم يمض اسبوع حتى كان قد سمع قصة جرجس بكاملها . بعد ذلك لم يكن هايندز ليترك بوابه الحديد مقابل الدنيا كلها . « اسمع لقد وجدت الشخص المناسب لفندي ، الشخص الذي يعمل فيه ويولي اهتمامه لكل مافيه » .

كان جرجس يتكبد على عمله أياً كان ، وحين ينتهي منه يقول الآخر : « رفيق جرجس ، اروي هؤلاء السادة مارأيتهم تماماً في أحواض الدبح » . في المرة الأولى ، سبّب هذا الطلب لجرجس أشد أنواع العذاب ، وبدأ له الكلام عن الموضوع أشبه بقلع الأسنان ، لكنه شيئاً فشيئاً اكتشف المطلوب تماماً ، وفي النهاية تعلم كيف يقف ويقول ما يقوله بحماسة بالغة . كان رب عمله يجلس جانباً ويشجعه بهتافات التعجب وهزات الرأس ، وحين يقدم جرجس وصفاً لعناصر اللحم المطبوخ أو يحكي عن الحنازير المحكوم عليها بالاتلاف والتي يتم اسقاطها داخل « المدمرات » من الأعلى لتخرج مباشرة من الأسفل ، ثم تحمل إلى ولاية أخرى وتصنع على شكل شحوم ، فان تومي هايندز يلطم ركبته ويصرخ « أو تظنون أن من الممكن أن يخطر شيء من هذا في بال انسان ؟ » .

بعد ذاك يهب صاحب الفندق فيبين كيف أن الاشتراكيين يملكون العلاج الحقيقي لشرور كهذه ، وكيف أنهم هم وحدهم « ينوون معالجة تروست كتروست اللحوم » . وحينما يجيب الطرف الآخر بأن البلاد كلها تائرة على تصرف هذا التروست وأن الصحف ملأى بالتنديدات به وأن الحكومة تهتم باتخاذ اجراء ضده ، حينها يستعد تومي هايندز لتوجيه الضربة القاضية اذ يقول « أجل ، هذا كله صحيح— لكن ماتراكم تظنون السبب في ذلك كله ؟ هل أنتم من الحماقة بحيث تصدقون ان ذلك يجري من أجل مصلحة الجماهير ؟ ففي البلاد تروستات أخرى غير شرعية وابتزازية مثل تروست اللحوم تماماً هناك تروست الفحم الذي يجمد الفقراء من البرد في الشتاء — وهناك تروست الفولاذ الذي يضاعف سعر كل مسمار في حداثك — وهناك تروست النفط الذي يمنعك من القراءة ليلاً — فما هو السبب ياترى في هياج الصحف ذاك وفي سحق الحكومة الموجه ضد تروست اللحوم ؟ وحين يجيب الطرف الآخر بأن هناك ضجة كافية ايضاحول تروست النفط يتابع هايندز « قبل عشر سنوات قال هنري لويد كل الحقيقة عن شركة ستاندار للنفط في كتابه « الثروة الخاصة مقابل الثروة العامة » فحورب الكتاب بل فقد من الأسواق ، وربما لم نسمع به أبداً . وأخيراً ، وجدت مجلستان بعض الشجاعة للتعرض لشركة ستاندار مرة ثانية ، فماذا حدث ؟ الصحف تنهكم على كتاب المقالات ،

والكنائس تدافع عن المجرمين - والحكومة لا تحرك ساكناً . اذن :
لماذا الأمر مختلف كلياً مع تروست اللحوم ؟ » .

هنا يعترف الآخر عموماً ، بأنه أفحيم ، وحينئذ يشرح له
تومي هايندز كل شيء وعينه جاحظتان ، الأمر الذي يبعث على الضحك
أحياناً . « لو كنت اشتراكياً » يقول صاحب الفندق « لفهمت جيداً
أن السلطة التي تحكم الولايات المتحدة اليوم هي تروست السكك الحديدية ،
هذا التروست هو الذي يسيطر على حكومة ولايتك حيث تعيش ويسيطر
على مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة . كل التروستات التي ذكرناها
هي تروستات سكك حديدية - ما عدا تروست اللحوم فقط . هذا
التروست يتحدى السكك الحديدية - وهو ينهبها يوماً بعد يوم من
خلال الترامات الخاصة ، الأمر الذي جعل الجمهور يشور ويغضب ،
والصحف ترفع أصواتها مطالبة بالعمل ، والحكومة تختار طريق الصلدام ..
وأنتم أيها الناس المساكين تراقبون وتصفقون ظانين ان ذلك يتم من أجكم ،
غير مدركين أبداً أن هذه هي ذروة الصراع الذي دام قرناً كاملاً ،
قمة حركة التنافس التجاري - التماسك الأخير بالأيدي بين رؤساء
تروست اللحوم وستاندارد أويل والفائز هو الذي يسيطر على الولايات
المتحدة الأمريكية .

هذا هو البيت الجديد الذي عاش فيه جرجس وعمل وأكمل

ثقافته . وقد تتخيل أنك لا تجد هنا ما تعمله ، لكنك ستكون مخطئاً
كثيراً فقد كان جرجس يرغب بأن يكون يد هاينلز اليمنى لذا باتت
متعته في الحياة أن يبقى فندقه في ذروة الجمال ورغم أن عشرات الحجج
الاشتراكية كانت تدور في دماغه أثناء ذلك إلا أنها لم تكن لتؤخره
عن العمل البتة بل العكس هو الصحيح ، فقد كان جرجس ينظف
المنافض ويلمع سلال المهملات بشدة أكثر نظراً لأن صراعاً داخلياً
شديداً كان يدور بينه وبين متمرد وهمي طوال انكبابه على العمل .
ومما يسر الأمر كثيراً هو أنه أقلع عن الشراب مباشرة وعن جميع
العادات الفاسدة الأخرى التي تصاحب الشراب ، إنما ليس ذلك دقيقاً
تماماً . فأولئك الثوريون ليسوا ملائكة ، انهم بشر والبشر من طينة هذا
المجتمع ، وبالطين نجدهم ملوثين . بعضهم يشرب وبعضهم يجذف
وبعضهم يأكل الفطيرة بالسكين ، لكن ، ثمة فرق بينهم وبين بقية
الناس — هو أنهم يعيشون مع الأمل ، لهم قضية يكافحون من أجلها
ويعانون بسببها — وقد كانت تمر بعض الأوقات يبدو فيها الحلم لجرجس
بعيداً ضعيفاً ، وتبدو كأس البيرة بالمقارنة معه كبيرة هائلة . لكن إذا
كانت كأس البيرة تؤدي إلى كأس أخرى وإلى كؤوس أخرى كثيرة ،
فقد كان هناك ما يدفعه للندامة والتصميم في الغداة من جديد . لقد أنضح
له أن من أشد المنكرات أن ينفق المزيد من نقوده على الشراب ، في

الوقت الذي تغرق فيه الطبقة العاملة في الظلمة وتنتظر الخلاص . فثمن كأس من البيرة يشتري خمسين نسخة من منشور للحزب . يوزعه المرء على النشء الحديد ، ثم يشمل نشوة وهو يفكر بالخبر الذي صنعه . تلك هي الطريقة التي صنعت بها الحركة ، وهي الطريقة الوحيدة التي ستجعلها تتقدم ، فليس يجدي نفعا أبداً أن تعرفها ان لم تناضل من أجلها انها حركة من أجل الجميع لا من أجل البعض .

وبالطبع كانت النتيجة الطبيعية لهذا التفكير هو أن كل من يرفض التبشير بالحديد بات مسؤولاً شخصياً عن منع جرجس من تحقيق أمنية قلبية غالية ، وهذا ، وبالأأسف ! ما جعله غير مريح كصاحب . لقد التقى ببعض البحيران الذين صادقتهم الزبييتا فشرع يصنع منهم اشراكيين بالحملة ، وكاد في مرات عديدة أن يدخل معارك من أجل ذلك .

الأمر واضح لكل الوضوح بالنسبة لجرجس ، وليس بوسعهم أن يفهم كيف يعجز الانسان عن رؤية ما يراه . فهنا كل القرص المتاحة للبلاد : الأرض - المناجم - المصانع - الأبنية المشيدة على الأرض - السكك الحديدية - المخازن والكل بأيدي بضعة أفراد يدعون رأسماليين ، يضطر كل الناس لأن يعملوا لديهم من أجل الأجور . ما ينتجه الشعب ينهبه تكديس ثروات طائلة لدى هؤلاء الرأسماليين ، يتكدس ويتكدس

ويتكلس - رغم أنهم هم وكل من يلف لفهم يعيشون في ترف لا يوصف . . اذن ، أليس واضحاً أنه إذا اقتطع الشعب ما يأخذه هؤلاء الذين « يملكون » فقط ، فان نصيب أولئك الذين يعملون سيكون أكبر بكثير ؟ ان ذلك واضح وبسيط كما أن اثنين واثنين تساوي أربعة . وهذا كل ما في الأمر ، كله تماماً . لكن رغم ذلك ، ثمة أناس لا يستطيعون تبينه ، مع أنهم يستطيعون مناقشة كل شيء آخر في الدنيا ، انهم يقولون لك أن الحكومات لا تستطيع ادارة الأشياء اقتصادياً مثلما يفعل الأفراد ، وهم يكررون ذلك ويكررونه ، ظانين أنهم يقولون شيئاً ما . . فهم لا يستطيعون أن يروا أن « الادارة الاقتصادية » التي يقوم بها السادة تعني ، ببساطة ، أنهم ، هم الشعب ، يعملون ويكدون أكثر وينسحقون أكثر ويتلقون أجوراً أقل . . انهم كسبة - أجور وخدم يعيشون تحت رحمة المستغلين الذين لا يفكرون . . إلا بشيء واحد ، هو أن يمتصوهم ، يستغلوا جهدهم أكثر ما يستطيعون ، وهم يهتمون كل الاهتمام ويقلقون كل القلق خشية ألا تجري الأمور كما يشتهون . . ترى أليس نوعاً من التجربة المرة أن تصغي لمناقشة كهذه؟ بل ثمة أشياء أسوأ حتى . اذ قد تبدأ التحدث مع أحد المساكين الفقراء ، شخص ربما أمضى في العمل ثلاثين سنة ولم يستطع توفير بنس واحد ، شخص يغادر بيته كل صباح في الساعة السادسة ليذهب ويشرف على

عمل آلة من الآلات ، ثم يرجع ليلاً منهكاً إلى حـد لا يستطيع معه خـنـع ثيابه ، شخص لم ينل اجازة في حياته كلها ، لم يسافر ، لم يعيش مغامرة واحدة ، لم يتعلم شيئاً ، لم يعقد الأمل على شيء وحين تشرع بمحادثته عن الاشتراكية ينخر جانباً ويقول « أنا لا أهتم بذلك — أنا فردي » ، ثم يمضي ليخبرك أن الاشتراكية « نهج تسلطي » وأنها إذا ماشقت طريقها وسيطرت فإن العالم سيكون عن التـقـدم . كلام كهذا يكفي لأن يجعل البغل يضحك ، مع ذلك فليس في المسألة ما يضحك ، كما ترى — اذ كم هناك من ملايين السذج المضللين المساكين الذين عطلت تفكيرهم ومسخت حياتهم الرأسمالية الى درجة لم يعودوا معها يعرفون معنى الحرية . انهم يحسبون أنه نوع من « الفردية والاستقلالية » أن يجتمع عشرات الآلاف كالمقطعان ويطيعوا أوامر سيد الفولاذ ويتعجوا له مئات ملايين الدولارات ثم يدعونه يمنحهم الحريات ، في حين أن استلام الصناعة وإدارتها بما يناسبهم وتكوين حرياتهم بأنفسهم « نهج تسلطي » .

كان جرجس يشعر أحياناً من جراء هذه المناقشات بعذاب أشد من أن يحتمل ، مع ذلك لم يكن ثمة مفر ، فليس أمامك ما تفعله سوى أن تحفر عميقاً في قاعدة جبل الجهل والتعصب هذا . عليك أن تبقى في أثر الشخص المسكين ، ألا تفقد أعصابك ، أن تناقشه ، وتتحين الفرصة

المناسبة لادخال فكرة أو فكرتين في رأسه . أما بقية الوقت فينبغي عليك أن تشغل أسلحتك — ينبغي أن تستنبط أجوبة جديدة على اعتراضاته وأن تزود نفسك بحقائق جديدة كي تبرهن له عن خطأ أسلوبه في التفكير .

وهكذا ، اكتسب جرجس عادة القراءة . كان يحمل في جيبه منشوراً أو كراساً أعاره أحدهم له ، وحينما تتاح لحظة فراغ له ينكب على كراسه هذا يتهجأ فقراته كلمة كلمة ، ثم يفكر بها ، يقلبها على كافة الأوجه وهو يشتغل ، كذلك كان يقرأ الصحف ويسأل الأسئلة عنها ، فأحد البوابين الآخرين في فندق هايتنز كان إيرلندياً ضئيل الجسم حاد الذكاء يعرف كل شيء يود جرجس معرفته . لذا وفي الوقت الذي يشتغلان فيه كان هذا الإيرلندي يشرح جغرافية أمريكا ، مثلاً ، تاريخها ، دستورها وقوانينها كما كان يعطيه فكرة عن نظام العمل في البلاد ، السكك الحديدية والشركات ، أصحابها ، نقابات العمال ، الاضرابات الكبيرة وقادتها . وفي الليل حين يتمكن جرجس من مغادرة عمله ، فانه يحضر الاجتماعات الاشتراكية . أثناء الحملة ، لا يعتمد المرء على اجتماعات زوايا — الشوارع ، حيث لا يكون الطقس ونوعية الخطيب مضمونين ، بل هناك اجتماعات الصالات الليلية وبامكان المرء أن يسمع خطباء على مستوى عال ، يناقشون الوضع السياسي من كل جانب وكل ما كان يزعم جرجس هو عدم قدرته على أن يتحمل الا جزءاً ضئيلاً من الكنوز التي كانوا يقدمونها له .

كان ثمة شخص معروف في الحزب باسم « العملاق الصغير » .
وكان هذا يبسلو وكان الإله استخدم مواد كثيرة لدى صنعه لرأسه
إلى حد لم يبق لديه ما يكمل به رجله ، لكنه كان يصعد المنصة ، وحين
يهر شاربيه الفاحمين تهتر ركائز الرأسالية ذاتها . لقد كتب موسوعة
حقيقية عن الموضوع ، كتاباً لا يقل حجمه عن حجمه هو نفسه — كذلك
كان هناك مؤلف شاب جاء من كاليفورنيا حيث كان يعمل صياداً
لسمك السلمون ، قناص بحار ، رجل شواطئ ، بحاراً ، وكان قد
طاف البلاد كلها وحكم بالسجن وعاش في أحياء وايتشابل الفقيرة
وذهب إلى كلوتديك بحثاً عن الذهب وقد وصف هذه الأشياء كلها
في كتبه ، ونظراً لأنه كان رجلاً عبقرياً فقد أجبر العالم على الاصغاء
إليه. بات شهيراً الآن ، لكن حيثما يذهب تجده يعظ مبشراً بأنجيل
الفقراء ، كما كان هناك شخص يعرف باسم « الاشتراكي المليونير » .
انه رجل كسب ثروته من الاعمال التجارية وأنفقها كلها تقريباً في
انشاء مجلة عملت دائرة الاعلام على حجبها فذهب إلى كندا . وهو
رجل هادئ السلوك ، قد ترقى فيه أي شيء ماعدا محرضاً اشتراكياً . حديثه
بسيط غير متكلف — بل انه لا يفهم لماذا ينبغي أن يقلق الانسان نفسه
بهذه الأشياء . انها عملية تطور اقتصادي ، كما يقول ، وهي تتكشف
عن قوانينها وطرائقها . الحياة كفاح من أجل الوجود ، القوي فيها يغلب

الضعيف ، ليغلبه بدوره من هو أقوى منه . ومن يخسر في هذا الكفاح تتحدد نهايته عموماً ، لكن من المعروف أن هؤلاء الخاسرين ينقلون أنفسهم من حين إلى آخر باتحادهم - وهو نوع من أنواع القوة أسمى وأكثر مجدة ، تستطيع به الحيوانات الضعيفة حين تجتمع أن تقهر أكثر الحيوانات ضراوة وافتراساً . ففي التاريخ البشري ، استطاعت الشعوب باتحادها أن تقهر الملوك . العمال بكل بساطة هم أهل الصناعة ، والحركة الاشتراكية هي التعبير عن ارادتهم في البقاء على قيد الحياة . حتمية الثورة تعتمد على هذه الحقيقة ، وليس هناك من خيار سوى الاتحاد أو الانقراض . إنها الحقيقة التي لا ترحم وهي لا تتوقف على ارادة البشر بل أنها قانون السيرة الاقتصادية التي أوضح الكاتب تفاصيلها بدقة مذهشة .

في وقت لاحق ، عقد الاجتماع الكبير للحملة ، وفي هذا الاجتماع استمع جرجس لاثنين من قياديين حزبه . فقبل عشر سنوات كان قد حدث في شيكاغو اضراب لمائة وخمسين ألفاً من مستخدمي السكك الحديدية ، استأجرت فيه شركات السكك الحديدية سفاكين وقطاع طرق لارتكاب أعمال العنف ، كما بعث رئيس الولايات المتحدة بقوات لانهاء الاضراب وذلك بالقاء زعماء النقابات في السجن من غير محاكمة . وقد خرج أحد زعماء النقابات من زنزانته رجلاً محطماً ، لكنه خرج اشتراكياً أيضاً ، فهو منذ عشر سنوات يطوف في أرجاء البلاد ، يواجه

الناس ، يناشدتهم العدالة . انه رجل ذو حضور أسر . طويل ، نحيل ، ووجه
أنهكه الكفاح والمعاناة . سحق الرجلوة المهينة يتوقد في داخله — ودموع
الأطفال الصغار الملعدين تخضب صوته . كان حين يتكلم ، يذرع المنصة
بخطاه ، توافاً متوثباً كالقهد . كان ينحني باتجاه الحاضرين يمد يديه لهم ،
يشير إلى أنفسهم داخل أجسادهم باصبع ملحاحه . صوته أجش من
كثرة الكلام ، الا أن القاعة الكبيرة كانت تظل ساكنة سكون القبور
وكان الجميع ينصتون له .

حين خرج جرجس من الاجتماع ، دس أحدهم ورقة في يده
حملها معه إلى المنزل وقرأها ، وهكذا أصبح على معرفة : « نداء
المنطق » . فقبل حوالي اثني عشر عاماً حزم أحد المضاربين العقاريين
في كولورادو أمره على أن من الخطأ المضاربة بضروريات حياة الكائنات
البشرية ، لذا اعتزل عمله وبدأ نشر دورية اشتراكية كل اسبوع . وقد
جاء وقت اضطر فيه لان يطبع الدورية بنفسه على الآلة الكاتبة ، لكنه
استمر وانتصر ، والآن أصبح لديه مؤسسة للنشر . فهو يستهلك حمولة
عربة من الورق اسبوعياً وقد تظل قطارات البريد ساعات وهي تحمل
طروده من مستودع بلدة كنساس الصغيرة . انها صحيفة اسبوعية من
أربع صفحات تباع النسخة بأقل من نصف سنت وقائمة المشتركين
النظاميين فيها تزيد على الربع مليون وترسل إلى كل ركن في أمريكا .
و « النداء » صحيفة « دعائية » . لها اسلوبها الخاص تماماً — انها

ملاى بالبهارات والتوابل ، باللهجة الغربية والمكر . انها تجمع الانخبار
عن « الأثرياء ذوي النفوذ » وتقدمها ليستفيد منها « الشغيلة الأمل ، يكيون » .
فهي قد تضم أعمدة كاملة من المقارنات الفظيعة : الماس الذي قيمته
ملايين الدولارات أو مؤسسة كلاب البودل (١) الخيالية التي ترعاها
سيدة من سيدات المجتمع ، إلى جانب وصف بارع لمصير السيدة مورفي
من سان فرانسيسكو التي ماتت جوعاً في الشوارع أو مصير جون روبنسون
الذي خرج من المستشفى في نيويورك وعلى الفور شق نفسه لأنه لم
يستطع ايجاد عمل . كما كانت تجمع قصص الكسب غير المشروع
والبؤس من الصحف اليومية وتعلق تعليقات لاذعة عليها . « ثلاث
مصارف في بنغتون وساوث داكوتا أعلنت افلاسها ، مبتلعة المزيد
من مدخرات العمال » ، « رئيس بلدية ساندي كريك من أو كلاهو ما فر
بمائة ألف دولار . ذلك هو نوع الحكام الذين يقدمهم لكم الحزبيون » .
« رئيس شركة في فلوريدا رهن القضبان بتهمة تعدد الزوجات . انه
عدو لدود للاشتركية ويقول أنها ستدمر البلاد . » لقد كان (للنداء)
مايمكننا أن ندعوه « جيشاً » قوامه حوالي ثلاثين ألفاً من المخلصين الذين
يقدمون لها مادتها ، وهي دائماً تستحثهم على المتابعة وأحياناً تشجعهم
باجراء مسابقة توزع فيها جوائز بدءاً من الساعة الذهبية وحتى البيخت

(١) البودل : نوع من الكلاب الذكية ذات الشعر الكثيف الأجد .

الخاص أو المزرعة ذات الثمانين أكرأ . العاملون الاداريون فيها يعرفون جميعاً لدى « الجيش » بأسماء طريفة — مثلاً « آيك الحبار » ، « الرجل الاصلع » ، « الفتاة حمراء الرأس » ، « الكلب الضخم » ، « عترة المكتب » و « هوس الوحيد » .

لكن أحياناً ترى « النداء » جدية ، جلدأ مفرطاً . اذ تبعث مراسلاً إلى كولورادو وتطبع صفحات تصور الدمار الذي حل بالمؤسسات الامريكية في تلك الولاية . وفي احدى المدن لما « جيش » ينوف على الاربعين فرداً في مقر شركة التلغراف ، لذا لايمكن أن تخرج برقية لهم الاشتراكين إلا وترسل نسخة منها إلى « النداء » . انها تطبع أعداداً كبيرة ومميزة أثناء الحملة ، والنسخة التي وصلت إلى جرجس كانت بياناً موجهاً إلى العمال المضربين ، وقد وزع منه حوالي مليون نسخة في المراكز الصناعية حيث كانت روابط أرباب العمل تنفذ برنامجها ، برنامج « الخانوت المفتوح » . « لقد خسرتم الإضراب » بهذه الحملة كان يبدأ البيان « والآن ماذا ستفعلون ؟ » انه مايدعى بالنداء « الملهب المثير » — كتبه رجل ذو روح فولاذية . وحين ظهرت هذه الطبعة ، أرسل منها عشرون ألف نسخة إلى منطقة المسالخ أودعت في مستودع دخان صغير ، وفي كل مساء وكذلك في أيام الاحاد كان أعضاء عمليات باكنجتاون يملئون أحضانهم بها ويوزعونها في الشوارع والمنازل . كان شعب باكنجتاون قد خسر اضرابه — ان كان الشعب يخسر يوماً —

لذا كانوا يقرؤون هذه الصحف بسرور ، ولم تكن العشرون ألف نسخة تكفي الا بالكاد للانتقال من يد إلى يد . كان جرجس قد صمم على عدم الاقتراب من منزله القديم مرة ثانية ، لكنه حين سمع بهذا وجد الامر أكثر من قدرته على التحمل ، فبات كل ليلة ، ولمدة اسبوع ، يستقل الترام وينذهب إلى المسالخ كي يساهم في إبطال ما فعله في السنة السابقة ، حين أرسل مرشح مايك سكولي ، واضع لعبة البولنغ ، إلى مجلس نواب البلدة . وانه لمن المدهش تماماً أن ترى الفارق الذي صنعه اثنا عشر شهراً في باكنجتاون — عيون الناس تفتحت ، الاشتراكيون يكتسحون كل شيء في ذلك الانتخاب ، سكولي وجهاز « كوك كاوتني » يشحنون مخيلاتهم ، يبذلون أقصى طاقاتهم من أجل إيجاد « قضية » . قرب انتهاء الحملة تذكروا أن الزوج هم الذين حسموا الإضراب ، وهكذا أرسلوا إلى كارولينا الجنوية آكل النار ، « الخطيب المنراة » كما كانوا يسمونه ، وهو رجل ينزع سترته حين يتحدث إلى العمال ويلعن ويشتم مثل رجل « هستي » (١) . لقد روجوا دعاية واسعة النطاق لهذا الاجتماع ، كذلك فعل الاشتراكيون — والنتيجة هي أنه حضر حوالي ألف شخص في تلك الامسية ، وانصب على « الخطيب المنراة »

(١) الهسي : نسبة إلى ولاية « هس » في ألمانيا الغربية ويشتهر أهلها بسوء المزاج وبذاءة اللسان .

وابل من الاسئلة لمدة ساعة جعله يذهب إلى بيته مشمئزاً ، أما بقية الاجتماع فقد كانت عملاً حزيباً بحتاً . لقد أتيحت لجرجس ، الذي أصر على المجيء ، فرصة العمر في تلك الليلة ، بل لقد رقص ولوح بذراعيه تأثراً وانفعالاً - وحين بلغ ذروة انفعاله أفلت من أصدقائه وخرج إلى الممر حيث مضى يلقي خطاباً بنفسه . كان الخطيب قد أنكر أن الحزب الديمقراطي حزب فاسد وأن الجمهوريين هم الذين يشترون الأصوات دائماً ، حسب قوله - وهنا صرخ جرجس غاضباً « كذب ! كذب ! » ثم مضى يروي للجمهور ما يعرفه عن هذه النقطة ، وكيف يعرف ما يعرفه - فهو نفسه كان يشتري الأصوات وكاد يروي للسيناتور « المنراة » كل خبراته في هذا المجال ولم يسرع هاري آدامز وصديق آخر للامساك به من عنقه وجره إلى أحد المقاعد .

« ٣١ »

أول عمل قام به جرجس بعد حصوله على عمل هو ذهابه لرؤية ماريا التي نزلت إلى القبر لمقابلته ، فوقف بجانب الباب حاملاً قبعته بيده ثم قال : « لقد وجدت عملاً الآن ، لذا يمكنك ترك هذا المكان » . غير أن ماريا اكتفت بهز رأسها . فليس هناك شيء تفعله ان خرجت ، وما من أحد يستخدمها . اذ لا يمكن ابقاء ماضيها سرّاً - فتيات كثيرات حاولن ذلك ودائماً كن يشكفن . فهناك الآن الرجال الذين يرتادون هذا المكان وعاجلاً أو آجلاً ستلتقي بواحد منهم . ثم أضافت ماريا

« ناهيك عن أنني لم أعد قادرة على القيام بأي عمل ، لم يعد بي أي نفع -
انني أتناول المخدرات ، فما تراك تفعل بي ؟ »

« ألا تستطيعين الاقلاع عن هذه العادة ؟ » صرخ جرجس .

فأجابت : « كلا . لن أقلع عنها أبداً . وما جدوى التحدث عن ذلك - سأبقى هنا إلى أن أموت على ماأظن . انه الشيء الوحيد الذي أصبح له » . وكان ذلك كل مااستطاع التوصل اليه - لافائدة من المحادثة .
وحين قال لها أنه لن يدع الزبييتا تأخذ نقوداً منها بعد ذلك ، أجابت بلا مبالاة « اذن ستهدر هنا ، هذا كل مافي الامر » كانت أجفانها مثقلة ووجهها أحمر يبدو كما لو أنه متورم : رأى بعد لحظة أنه مصدر ضيق لها وأن كل ماترغب فيه هو أن ينصرف ، وهكذا انصرف ، خائباً ، حزيناً .

لم يكن جرجس المسكين سعيداً جداً في حياته المنزلية ، اذ كانت للزبييتا في هذه الآونة تعاني من مرض شديد وكان الاولاد قد خرجوا عن طريق السيطرة والاضبط ، يقضون معظم أوقاتهم في الشوارع . مع ذلك ، فقد ظل متمسكاً بالعائلة ، اذ كانت تذكره بسعادته القديمة ،
وحين تسير الامور في الطريق الخاطئ ، يعزي نفسه بأن يغرق أكثر في خضم الحركة الاشتراكية . فمنذ عرفت حياته هذا الاتجاه الجديد وغاص في هذا التيار العظيم ، بدأت الاشياء التي كان يراها في السابق مثل حياته العليا ، تتخذ أهمية ضئيلة نسبياً : فاهتماماته باتت في مكان

آخر ، في دنيا الافكار . ماعدا ذلك كانت حياته بسيطة لاثير أي اهتمام ، كان مجرد بواب في فندق ولايتوقع أن يكون شيئاً غير هذا ، لكن رغم ذلك وفي دنيا الفكر كانت حياته مغامرة دائمة ، فهناك الكثير مما ينبغي أن يعرف — الكثير من الاسرار التي ينبغي أن يكتشف . أبدأ لن ينسى بجرجس اليوم الذي سبق الانتخابات حين جاءت رسالة هانغية من أحد أصدقاء هاري آدامز ، يطلب فيها أن يأتي بجرجس تلك الليلة ليراه ، وذهب بجرجس والتقى بأحد أدمغة الحركة .

كانت الدعوة من شخص يدعى فيشر ، وهو مليونير من شيكاغو نذر حياته لأعمال الخير والانعاش يسكن في بيت صغير في قلب حي من أحياء المدينة الفقيرة . لم ينتسب للحزب لكنه كان متعاطفاً معه وقد قال أنه سيستضيف تلك الليلة محرر مجلة شرقية كبيرة يكتب ضد الاشتراكية ، انما لايعرف تماماً مانوع كتابته . اقترح المليونير أن يأتي آدامز بجرجس مباشرة وعندئذ يثرون موضوع « الطعام النقي » الذي يثير اهتمام المحرر .

كان منزل فيشر عبارة عن بيت آجري صغير مؤلف من دورين ، ذي مظهر خارجي قبيء أبلته العوامل الجوية الا أنه جذاب من الداخل . كانت الغرفة التي جلس فيها بجرجس مرصوفة الجدران حتى منتصفها بالكتب كما كانت هناك لوحات كثيرة ، لم تستطع عينا بجرجس تمييزها على الضوء الاصفر الباهت الا بصعوبة ، وكان الليل بارداً

ماطراً ، وفي الموقد المكشوف جذع من الحطب يفرقع متطاير الشرر وقد تجمع حوله سبعة أو ثمانية أشخاص ، حين وصل آدامز وصديقه رأى جرجس أن ثلاثة من الحضور هن من السيدات ، الامر الذي أثار فزعته . فهو لم يكن قد تحدث إلى مثل هؤلاء الناس من قبل ، وفي الحال وجد نفسه في أشد حالات العذاب والضيق . وقف عند العتبة ممسكاً بقبضته بإحكام تام ، ثم راح ينحني أشد الانحناء لدى تقديمه لكل شخص من الاشخاص ، وحين طلبوا اليه أن يجلس اختار كرسيّاً في زاوية مظلمة ثم جلس على حافته وبدأ يمسح العرق المتصبب من جبهته بكفه ، وأخشى ما يخشاه توقعهم أن يتحدث اليهم . كان يوجد في الغرفة المضيف نفسه وهو شاب رياضي طويل يرتدي لباس السهرة ، وكان هناك المحرر وهو سيد ذو مظهر نكد مشاكس يدعى مينارد . كما كان هناك أيضاً زوجة المضيف الشابة الرقيقة وكذلك سيدة مسنة تعلم الاطفال الصغار ، وطالب جامعي وفتاة جميلة ذات وجه متوتر جلدي لم تتكلم إلا مرة أو مرتين طوال وجود جرجس — أما بقية الوقت فقد ظلت تجلس بجوار الطاولة وسط الغرفة تستند بذقنها إلى راسحتها وتنصت مستغرقة في المحادثة . كذلك كان هناك رجلان آخران قدمهما فيشر الشاب إلى جرجس باسم السيد لو كاس والسيد سليمان وقد سمعهما يناديان آدامز بكلمة « رفيق » ، لذا عرف أنهما اشتراكيان .

كان المدعو لو كاس رجلاً ضئيل الجسم رقيقاً لطيف المظهر

ذا مسحة كهنوتية . وقد تبين انه عمل مبشراً متجولاً ينتقل من مكان إلى آخر ، ثم رأى النور وأصبح يبشر بالرسالة الجديدة . كان يطوف في كل البلاد ، يعيش كما كان يعيش الرسل القدماء على الضيافة ، والوعظ في زوايا الشوارع حين لا تتوفر قاعة . أما الرجل الآخر فقد كان يخوض مناقشة حامية مع المحرر حين دخل آدامز وجرجس ، وبناء على اقتراح المضيف فقد استأنفاها بعد المقاطعة . وفي الحال جلس جرجس مبهوراً وكل ما يدور في خلدته هو أنه يوجد معه في الغرفة أغرب رجل عرفته البسيطة .

فنيكولاس سليمان سويدي ، طويل ، نحيل ذو يدين شعراوين ولحية صفراء خشنة الشعر . كان رجل جامعة واستاذ فلسفة إلى أن وجد ، كما قال ، أنه يبيع نفسه وكذلك وقته . لذا جاء إلى أمريكا حيث عاش في علية في منطقة الاحياء الفقيرة هذه وجعل الطاقة البركانية تشتعل ناراً . لقد درس تركيب المواد الغذائية وعرف تماماً كم يحتاج جسده من البروتينات والسكريات . فمن خلال مضغ الطعام مضغاً علمياً يمكنه ، كما قال ، أن يضاعف قيمة ما يأكله ثلاث مرات ، لذا لا يكلفه الطعام إلا أحد عشر سنتاً في اليوم . كان في أوائل تموز ، يغادر شيكاغو ، سيراً على الاقدام ، لقضاء عطلة ، وحين يقع على حقل من حقول الحصاد ، يباشر العمل فوراً مقابل دولارين ونصف يومياً ثم يعود إلى بيته حين يتوفر له زاد ستة أخرى من المال - أي مائة وخمسة وعشرون دولاراً . تلك هي أقرب الطرق التي يمكن أن يسلكها الانسان إلى الاستقلال

« تحت ظل الرأسمالية » ، شرح الرجل . وهو لن يتزوج أبداً ، اذ مامن رجل عاقل يسمح لنفسه بالوقوع في الحب الا بعد أن تتحقق الثورة .

كان يجلس في كرسي كبير ذي ذراعين ، وقد وضع رجلاً على رجل ورأسه غارق في الظل إلى درجة لا يمكن للمرء أن يرى معها إلا ضوئين متألقين في وجهه ينعكسان من النار المشتعلة في الموقد . كان يتكلم ببساطة وبدون أي أثر من انفعال ، شأن المعلم الذي يشرح لفئة من التلاميذ مبدأ الهندسة ، وكان يشرح أفكاراً تجعل شعر الانسان العادي يتصبب . وحين يبدو على مستمعه عدم الفهم ، يمضي للتوضيح بفكرة جديدة أكثر هولاً ورعباً . بالنسبة لخرجس كان « أهر » الدكتور سليمان يحمل صفات العاصفة الرعدية أو الزلزال . مع ذلك ، ورغم ما في ذلك من غرابة ، فقد شعر جرجس بأن رباطاً وثيقاً يشد واحدهما إلى الآخر ، وكان بإمكانه متابعة المناقشة طوال الوقت تقريباً . فهو يجتاز المواضع الصعبة رغماً عنه ليغوص أعمق وأعمق في حياة انسان مجنون — «مازيبا» بذاته يمتطي متن حصان متوحش هو المضاربة .

كان نيكولاس سليمان يعرف الكون كله ، والانسان جزء صغير منه . كان يفهم كل المؤسسات القائمة وينفخها كفقاعات الصابون . وكان أمراً مفاجئاً لخرجس أن يرى أن بإمكان عقل بشري واحد أن يحتوي مثل هذه القدرة التدميرية . أهى الدولة ؟ ان الغاية من وجود

المسألة هي حماية حقوق الملكية ، الحفاظ إلى الأبد على القوة القديمة والزيف الحديث . أم هو الزواج ؟ والزواج والعهر وجهان لعملة واحدة . انه استغلال الرجل للمرأة ، اقتراسه لمتعة الجنس . الفرق بينهما هو فرق طبيعي . فاذا كانت المرأة تملك المال يغدو بإمكانها أن تملئ شروطها : المساواة ، التعاقد على الاستمرار مدى الحياة ، والشرعية - أي حقوق الملكية - لأبنائها . أما ان كانت لا تملك مالاً فإنها تغدو بروليتارية تباع نفسها كي تبقى على قيد الحياة . أما الدين ، فانه أفتك الأسلحة بيد الأقوياء . ان الحكومة تضطهد أجسام عبيد - الأجور بينما يضطهد الدين عقولهم ، ويسم تيار التقدم من منبعه . إذ على العامل أن يعقد آماله على الحياة الأخرى ، في حين تنهب جيوبه في الحياة الدنيا ، وهو يتنشأ على العوز والمذلة والخضوع - أي باختصار على كل فضائل الرأسمالية الزائفة . أما مصير الحضارة فسوف يتقرر في الصراع الحاسم ، صراع الحياة أو الموت بين الأهمية الحمراء والأهمية السوداء ، بين الاشتراكية والكنيسة الكاثوليكية ، وهنا في الوطن « الديجور المظلم للأنجليكانية الأمريكية » .

هنا دخل الواعظ السابق الميدان لتجري مناقشة حامية . لم يكن « الرفيق » لو كاس ذلك الانسان المثقف ، فهو لا يعرف إلا الانجيل ، ذلك الانجيل الذي تشرحه الخبرة الواقعية . فسأل الواعظ ، « ترى ما الفائدة من خلط الدين بتحريمات الناس له ؟ قولك أن الكنيسة في أيدي طغمة من التجار في الوقت الراهن أمر واضح تماماً ، لكن هناك بالفعل علامة

نورة وإذا ما عاد الرفيق سليمان بضع سنوات إلى الورا — « فقاطعه الآخر : « آه ، طبعاً ، نعم . ليس لدي شك أن الفاتيكان سينكر بعد مائة عام أنه عارض الاشتراكية في يوم من الأيام ، تماماً مثلما ينكر في الوقت الحاضر أنه عذب غاليليو . »

« أنا لا أدافع عن الفاتيكان » هتف لو كاس بحماس « انني أدافع عن كلمة الله — أي عن الصرخة الطويلة ، صرخة النفس البشرية من أجل الخلاص من ويلات الاضطهاد . خذ ، مثلاً ، الفصل الرابع والعشرين من سفر أيوب الذي اعتدت أن اقتبس منه في خطبي باعتباره « الانجيل المتعلق بثروست اللحوم » أو خذ كلمات أشعيا أو كلمات السيد المسيح نفسه ، لا الأمير البهي الحلي لكنيسة المليئة بالفسق اليوم ، ولا رئيس كنائسنا المزين بالجواهر — بل يسوع الواقع الرهيب ، انسان الحزن والألم ، الشريد المنبوذ المحقر الذي لا يجد مكاناً يريح فيه رأسه — . »

وتوقف لو كاس ، فمد الآخر يده نحوه بورقة كانت على الطاولة ، قائلاً وهو يضحك « هاك أيها الرفيق هذه نقطة يمكنك البدء منها ، زوجة اسقف سرقوا منها ماساً بقيمة خمسين ألف دولار وهو الأسقف الأشد مDAHنة وتملقاً الأسقف المتنور البارز ، الاسقف المحب للاحسان ، صديق العمال — الخدعة التي يستخدمها « الاتحاد المديني » لتحذير الشغيلة والعمال .

حتى هنا ، ظل أفراد الجماعة يجلسون جميعاً كمتفرجين لكن في

هذه اللحظة انتهر السيد مينارد المناسبة لكي يبدي ملاحظة ساذجة:وعاً ما ، وهي أنه يعلم أن لدى الاشتراكيين برنامجاً جاهزاً ومحدداً لمستقبل الحضارة ، بينما يوجد هنا عضوان فعالان من أعضاء الحزب لا يتفقان ، كما يمكنه الاستنتاج من المناقشة ، على أي شيء ، فهل يتكرم الاثنان ، من باب تنويره ، بأن يبيننا ما يتفقان عليه ولماذا ينتميان إلى الحزب نفسه ؟ وهو سؤال أدى ، بعد طول نقاش إلى صياغة فكرتين صياغة دقيقة : الأولى هي أن الاشتراكي يؤمن بالملكية العامة والادارة الديمقراطية لوسائل انتاج ضروريات الحياة ، والثانية هي أن الاشتراكي يؤمن بأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا انما هي التنظيم السياسي الطبقي الواعي ، تنظيم الشغيلة . على هاتين النقطتين كانا متفقين انما ليس أكثر .

فلوكاس ، المتحمس الديني ، يرى أن الكومنولث (١) التعاوني هو مملكة السماء التي « تكون في داخلك » أما الآخر فيرى أن الاشتراكية هي بكل بساطة مرحلة ضرورية نحو هدف بعيد المدى ، مرحلة ينبغي تحملها بفروغ صبر . كان سليمان يدعو نفسه « الفيلسوف الفوضوي » وقد شرح أن الفوضوي هو من يؤمن بأن غاية وجود الانسان هي التطوير الحر لكل شخصية دون أن يحد ذلك أي قانون من القوانين ماعدا قوانين وجودها ذاته . وبما أن عود الثقاب ذاته يشعل النار لدى كل الناس ،

(١) الكومنولث : هو المجتمع الديمقراطي الذي يربط أفرادهم بعضهم ببعض الآخر مصلحة مشتركة .

ورغيف الخبز نفسه يملأ بطن الجميع ، فان من المستحب تماماً أن نخضع الصناعة لسيطرة الأغلبية . إذ ليس هنالك إلا كوكب أرضي واحد وكمية الأشياء المادية محدودة . لكن من جهة أخرى ، ليس هنالك حدود للأشياء الفكرية والأخلاقية حيث يمكن للمرء أن يمتلك قدراً أكبر من هذه الأشياء دون أن يكون ذلك على حساب الآخرين ، لذا فان « مشاعية انتاج المواد وفوضوية الانتاج الفكري هي مبدأ التفكير البروليتاري الحديث » . اذ حالما ينتهي عذاب المخاض وتشفى جروح المجتمع ، سيقام نظام بسيط يسير وفق القاعدة التالية « من كل حسب جهده ولكل حسب حاجته » ، بعد ذلك تمضي عمليات الانتاج ، التبادل والاستهلاك بصورة آلية ودون أن يشعر بها المرء أكثر مما يشعر بنبض قلبه . هكذا استمر سليمان في شرحه قائلاً إن المجتمع سيتجزأ بعدئذ إلى جماعات مستقلة ذاتياً ، تتألف من أفراد متجانسين مترابطين ، مثال على ذلك في الوقت الحاضر : النوادي ، الكنائس والأحزاب السياسية . ولسوف تتم بعد الثورة رعاية النشاطات الفكرية والفنية والروحية للناس من قبل « روابط حرة » كهذه . فالروائيون الرومنتيكيون يدعمهم من يحبون قراءة الرواية الرومانتيكية ، والرسامون الانطباعيون يدعمهم من يحبون تأمل اللوحات الانطباعية والشيء ذاته ينطبق على الوعاظ والعلماء ، المحررين والممثلين والموسيقيين . فاذا ما رغب أي امرئ في أن يعمل أو يرسم أو يصلي ولم يجد أحداً يعيله ، فعليه أن يعمل نفسه بالعمل جزءاً من وقته ، وهذا هو الوضع في الوقت الراهن .

الفارق الوحيد هو أن نظام الأجر التنافسي يجبر الإنسان على العمل طوال الوقت كي يكسب معيشته أما بعد القضاء على الامتيازات والاستغلال ، فسيكون بإمكان أي امرئ إعالة نفسه بالعمل ساعة واحدة في اليوم . كذلك فإن جمهور الفنان في الوقت الحاضر لا يشكل إلا أقلية صغيرة من الشعب ، ذلك أن معظمه غارق في الجهالة والضعفة التي تفرضها عليه محاولته للفوز بقصب السباق في معركة التنافس التجاري ، وليس بإمكاننا في الوقت الراهن أن نشكل أي فكرة ، مهما تكن ، عن النشاطات الفنية والفكرية التي ستحدث حين يتحرر الجنس البشري بكامله من كابوس التنافس .

بعدئذ ، رغب المحرر في أن يتناول الأساس الذي افترضه الدكتور سليمان بناء عليه أن بإمكان المجتمع أن يعيش إذا ما عمل كل فرد فيه ساعة واحدة يومياً . فأجاب الآخر : « ترى ماذا ستكون الطاقة الانتاجية للمجتمع إذا تم استغلال الموارد العلمية الراهنة على خير وجه ؟ هذا السؤال لا نملك بالواقع وسيلة للتأكد من جوابه ، لكن بوسعنا أن نؤكد أنه سيفوق أي شيء يبدو معقولاً لعقولنا المتعودة على بربريات الرأسمالية وفظاعاتها . إذ ستكون الحرب شيئاً لا مبرر له بعد انتصار البروليتاريا الأمية ، ومن تراه يستطيع تصور نفقات الحرب وأعبائها على البشرية -- ليس كأرواح ومواد تقضي الحرب عليها وتدمرها وحسب ،

ولا كنفقات لابقاء الملايين من الرجال العاطلين عن العمل علاوة على تسليحهم وتجهيزهم للمعركة والاستعراضات وحسب ، بل أيضاً كهدر لطاقات المجتمع الحيوية ، ذلك الهدر الذي ينبجم عن اتخاذ موقف الحرب ، عن رعب الحرب ، وكذلك الوحشية والجهالة ، الايمان على المشروبات وممارسة العهر والجريمة التي تجرها وراءها مثل هذه الممارسة ، ناهيك عن انعدام القدرة الصناعية وانعدام الأخلاق ؟ هل تظن أننا نبالغ كثيراً حين نقول أن ساعتي عمل يقدمهما كل فرد كفؤ في المجتمع لا تكفي إلا بالكاد لإشباع شيطان الحرب الأحمر ؟

بعدئذ تابع سليمان تلخيصه لبعض أشكال الهدر الناجم عن التنافس ، خسائر المصنوعات الحربية ، القلق الذي لا يتوقف والاحتكاكات ، الرذائل - كالشراب ، مثلاً ، الذي تضاعف مرتين تقريباً خلال عشرين عاماً ، وذلك كنتيجة لزيادة توتر الصراع الاقتصادي ، وجود أفراد باطلين عن العمل وغير منتجين في المجتمع ، وجود أغنياء بالغي الغنى وفقراء مدقعين ، قانون وآلية القمع ككل ، الهدر الناتج عن حب المظاهر في المجتمع وما هنالك من صانعي قبعات ، خياطين ، مزينين ، أساتذة رقص ، نخدم وحشم . « فأنتم تفهمون » قال سليمان « أن المال في مجتمع يسوده التنافس التجاري هو ، بالضرورة ، محك النجاح وأن القدرة على الهدر والتبذير هي المعيار الوحيد للقوة . وهكذا فإن لدينا .

في المرحلة الراحنة ، مجتمعاً ثلاثون بالمائة من أفرادهم مشغولون بإنتاج مواد لا فائدة منها ، يقوم واحد بالمائة من المجتمع بتدميرها . لكن ، ليس هذا كل شيء ، ذلك لأن خدام وأتباع الطفيليين هم طفيليون أيضاً ، فصانعو القبعات النسائية والجواهريون وأتباع السادة كلهم تتوجب اعالتهم من قبل أفراد المجتمع النافعين . ولاتنس أيضاً أن هذا المرض الفتاك لا يؤثر فقط على المتبطلين وأتباعهم وحسب بل إن سمومه تتغلغل إلى جسد المجتمع كله . فدون طبقة النخبة التي تتكون من مائة ألف امرأة ، هناك مليون من نساء الطبقة الوسطى اللواتي يشعرن باليأس لأنهن لسن من النخبة ويحاولن التظاهر بمظاهرها أمام الناس ، ودون هذه الطبقة ، أيضاً ، خمسة ملايين من نساء الفلاحين اللواتي ينظرن بشغف وإعجاب إلى صحف الأزياء والقبعات ذات الحواشي ، كذلك بائعات - المحلات والحاديات والمومسات اللواتي يبعن أجسادهن في المواقير من أجل مجوهرات زائفة وأثواب من جلد الفقير المقلد ، وإضافة إلى هذا التنافس المكشوف فهناك نظام التنافس الكامل معروضاً للبيع ، فهناك الصناعيون الذين يخترعون عشرات آلاف الحيل لسلب المال ، أصحاب المحال الذين يعرضونها ، والصحف والمجلات المليئة بالإعلانات عنها .

« ولاتنس أشكال الهدر الناجمة عن الغش » ، تدخل فيشر الشاب

فأجاب سليمان « حين يصل المرء إلى مهنة الاعلان الحديثة للغاية - أي علم اقناع الناس بأن يشتروا مالا يرغبون بشرائه ، يكون قد بلغ صميم بيت - الموتى المخيف ، صميم النزعة التدميرية الرأسمالية وناشراً مايعرف إلى أي هول من الأحوال الكثيرة يشير أولاً . لكن لتأمل هدر الوقت والطاقة الناجمين عن صنع آلاف الأشياء المختلفة التي لاهدف لها إلا التظاهر والتفاخر الاجتماعي ، في حين قد يكون شيء واحد منها كافياً . لتأمل كل أشكال الهدر الناجمة عن تصنيع النوعيات الرخيصة من السلع ، السلع المعدة لبيعها للجهلة وخذاعهم ، لتأمل هدريات الغش - الأقمشة الرديئة النوع ، البطانيات القطنية ، الايجارات غير المستقرة ، الحليب المغشوش ، ماء الصودا والأنيلين ، النقانق المصنوعة من دقيق البطاطا - » .

« ولنتأمل الجوانب الأخلاقية للقضية » قاطعه الواعظ السابق ، فقال سليمان « بالضبط ، الاحتيال الدنيء والقسوة الفظيعة المرافقة لهذا كله ، المكر والخذاع ، الكذب والرشوة ، التفاخر والتبجح ، الأنانية الفاضحة . التعجل والقلق . طبعاً ، ان التقليد والغش هما جوهر التنافس - فهما ليسا إلا صيغة أخرى للعبارة « يشتري من أرخص الأسواق ويبيع في أغلاها » . لقد قال أحد المسؤولين الحكوميين ان الأمة تتحمل خسارة

بليون وربع البليون من الدولارات كل عام نتيجة الأغذية المغشوشة وبالطبع ، هذا لا يعني المواد المهدورة التي يمكن أن تكون مفيدة خارج نطاق الاستخدامات البشرية وحسب ، بل يعني نفقات المعالجة الطبية للناس الذين لولا تناولهم هذه المواد لكانوا بألف خير ، وتعني نفقات الرعاية للجنس البشري ككل قبل عشر أو عشرين سنة من الوقت المناسب . ولنتأمل أيضاً هدر الوقت والطاقة اللازمين لبيع تلك الأشياء المغشوشة في عشرات المخازن ، حيث يكفي مخزن واحد لفعل ذلك . في البلاد ، يوجد مليون أو مليونان من المؤسسات التجارية ، في كل منها خمسة أو عشرة موظفين ، فلتأمل عمليات إدارة هذه المؤسسات ، اجراء الحسابات واعادة اجراء الحسابات ، التخطيط والقلق ، تحقيق التوازن بين الربح والخسارة . لنأمل الآلية الكاملة للقانون المدني الذي صار لا بد منه بسبب هذه العمليات ، المكتبات المحشوة بالمجلدات الثقيلة المملة ، المحاكم ورجال القانون الذين يفسرونها وطلاب المحاماة الذين يدرسون للاحاطة بها ، التلاعب والخداع ، الضغائن والأكاذيب . لنأمل الخسائر الناجمة عن انتاج السلع العشوائي الأعمى - المصانع تغلق ، العمال يمطلون ، البضائع تتلف في المستودعات . لنأمل نشاطات متلاعبين البورصة ، شل الصناعات الكاملة ، المبالغة بتقدير قيمة الآخرين لأغراض المضاربة ، افلاسات المصارف ، الأزمات وموجات الرعب . المدن المهجورة والسكان المهددين بالموت جوعاً . لنأمل الطاقات المهدورة بحثاً عن الأسواق ، المهن العقيمة : كالطبال ، المحامي ، ملصق الاعلانات

وكيل الدعايات . لتأمل الحسائر الناجمة عن الازدحام في المدن الذي يجعل المنافسة والاحتكار أمراً ضرورياً ، ولتأمل الأحياء الفقيرة ، الجوع الفاسد الأمراض وهدر الطاقات الحيوية . لتأمل أبنية المكاتب ، هدر الوقت والطاقة في تكويم الطابق فوق الطابق ونيش ماتحت الأرض . ثم لتأخذ مهنة التأمين ككل ، الكتلة الهائلة من الإداريين والموظفين والعاملين التي تشملها وكل ذلك الهدر .

« انني أعجز عن تتبع ذلك » قال المحرر .

« الكومنولث التعاوني هو شركة التأمين الشاملة ومصرف الادخار لكل أفرادهِ . وبما أن رأس المال هو ملك الجميع ، فإن أي ضرر يلحق به إنما يلحق بالجميع ويعوضه الجميع . ان المصرف هو مقر حساب الرصيد الحكومي الشامل والدفتر الأساسي الذي توازن فيه مكتسبات ومصروفات كل فرد . وهناك أيضاً النشرة الحكومية الشاملة التي يدرج فيها ويوصف بدقة كل شيء يملكه الكومنولث للبيع . وبما أن الأرباح لا تعود لأحد . بنتيجة البيع ، اذن لن يكون هناك داعٍ للتهويل والمبالغة وسوء التقدمة ولا للخداع والغش أو التقليد ولا للرشوة أو « الكسب غير المشروع » .

« وكيف يحدد سعر الأشياء ؟ » .

« بسعر العمل الذي تحتاجه صناعته وتقدمها . ويتم ذلك بفضل

المبادئ الأولية للحساب . فإذا كان هناك مليون من العمال يعملون في حقول قمح البلاد بمعدل مائة يوم في السنة لكل منهم ، وكان الانتاج الاجمالي هو بليون كنتال ، تكون قيمة كنتال القمح هي جزء من عشرة أجزاء من يوم العمل في المزرعة . وإذا ما استخدمنا الأرقام وقلنا مثلاً ، أننا ندفع خمسة دولارات في اليوم أجرة العمل في المزرعة ، اذن تكون كلفة كنتال القمح خمسين سنتاً .

« انك تقول أجرة العمل في المزرعة » قال السيد مينارد « اذن ، لن تكون أجرة العمل متساوية . »

« بالتأكيد لا ، نظراً لأن بعض العمل أسهل من بعضه الآخر . وإلا لكان لدينا ملايين من موزعي البريد في الريف وليس لدينا عامل منجم فحم واحد . بالطبع . يمكن ترك الأجور على حالها ، انما تتغير ساعات العمل ، وبذلك يمين تغير هذا أو ذاك باستمرار طبقاً لزيادة أو تناقص العدد المطلوب في أية صناعة بعينها . وهذا بالضبط مايجري في الوقت الحاضر . ماعداً أن انتقال العمال يتم على نحو عشوائي ناقص ، غير مخطط ، خاضع للاشاعات والاعلانات بدلاً من أن يكون ثابتاً وكاملاً ومطابقاً لخطة حكومية شاملة . » وماذا عن تلك الأعمال التي يصعب حساب الوقت فيها ؟ ماهي كلفة كتاب مثلاً ؟ . » من الواضح أن كلفة الكتاب هي كلفة صنع الورق ، الطباعة والتجليد - أي حوالي خمس كلفته الحالية . »

« المؤلف ؟ » .

« لقد سبق لي أن قلت إن الدولة لا تتحكم بالانتاج الفكري . قد تقول الدولة أن كتابة هذا الكتاب ، مثلاً ، تستغرق سنة ، وقد يقول المؤلف انها تستغرق ثلاثين . لقد قال غوته أن كل كلمة جيدة من كلماته كلفته كيس ذهب ، وما تلخصه هنا نظام وطني ، أو بالأحرى أممي ، يهتم بتوفير الحاجات المادية للناس . وبما أن الانسان لديه حاجات فكرية أيضاً ، فانه سيعمل مدة أطول ويكسب قدرأ أكبر ويوفر حاجاته حسب ذوقه وبأسلوبه الخاص . إنني أعيش على الأرض التي يعيش عليها الآخرون ألبس النوع نفسه من الأحذية وأنام في النوع نفسه من الأسرة ، لكنني لا أفكر بالنوع نفسه من الأفكار ولا أرغب في أن أدفع للمفكرين ذاتهم الذين قد يختارهم الآخرون ، وإذا كان الناس يرغبون في الاصغاء لواعظ معين ، فانهم يتجمعون ويتبرعون بما يحلو لهم ويدفعون لكنيستته ويعيلون الواعظ ، ثم يستمعون لوعظه ، أما أنا الذي لا أرغب في الاستماع إليه ، فاني أتحنى وبالتالي لا يكلفني ذلك شيئاً . وبالأسلوب نفسه ، هناك مجلات عن النقود المصرية والقديسين الكاثوليك والطلائعيات والتسجيلات الرياضية ، لكنني لا أعرف شيئاً عنها . من جهة أخرى ، إذا ماتم القضاء على عبودية الأجور وتمكنت من كسب وتوفير بعض المال من غير أن أدفع جزية للرأسمالي المستغل ، فتدأ أجد مجلة لغرض محدد هو تفسير ونشر كتاب فريديريك نيتشه .

نبي التطور ، وكذلك هوراس فليتشر ، مؤسس العلم النبيل ، علم الأكل
النظيف ، أو أجد مجلة ثانية ربما تهدف لتقصير التنورة الطويلة وتربية
الرجال والنساء تربية علمية واجراء الطلاق بالاتفاق المتبادل .

وتوقف الدكتور سليمان لحظة من الزمن ، ثم قال ضاحكاً « هذه
محاضرة ومع ذلك فهي البداية فقط » .

فسأل مينارد « وماذا هناك أيضاً ؟ » .

« لقد أشرت إلى بعض أشكال الهدر السلبية التي تنتج عن المنافسة »
أجاب الآخر « إلا أنني لم أذكر الاقتصاديات الإيجابية للتعاون . فإذا
فرضنا أن كل أسرة تتكون من خمسة أفراد ، كان معنى ذلك أنه
يوجد في البلاد خمسة عشر مليون أسرة ، عشرة ملايين منها على الأقل
تعيش على نحو مستقل والعامل في المنزل هو إما الزوجة أو عبيد من
عبيد - الأجور . والآن لنضع جانباً النظام الحديث لتنظيف المنزل -
بالهواء المضغوط والجوانب الاقتصادية للطهو التعاوني ولتأمل
جانباً واحداً فقط ، غسل الصحون مثلاً ، فمن المؤكد أننا لانغالي حين
نقول أن غسل الصحون لدى أسرة مؤلفة من خمسة أفراد تستغرق نصف
ساعة يومياً وإذا اعتبرنا يوم العمل عشر ساعات فإن غسل الصحون
في البلاد يتطلب عمل نصف مليون شخص كامل الامكانيات ، ومعظمهم
من النساء ، علاوة على أنه أوسخ وأشد الأعمال غلاظة وازعاجاً . إنه
سبب فقر الدم ، العصبية ، القبح ، سوء المزاج ، الدعارة ، الانتحار ،

والجنون . وهو سبب ادمان الأزواج على المسكرات والخطاط نوعية الأطفال ، والآن لتأمل أنه في كل جماعة من الجماعات الحرة الصغيرة ، ستكون ثمة آلة تغسل وتجفف الصحون وهي تفعل ذلك بشكل علمي — أي تعقمها — وتوفر على الانسان القيام بهذا العمل القذر كما توفر تسعة أعشار الوقت . هذه الأشياء جميعاً يمكنك أن تجدّها في كتب السيدة غيلمان ، ثم خذ كتاب كروبوتكين « الحقول المصانع ، الورش » واقراء عن علم الزراعة الحديد الذي تكوّن في السنوات العشر الماضية والذي يستطيع الجنائني بواسطته ، وبواسطة التربة الصناعيّة والاستنبات المكثف ، أن يرفع الغلة بمقدار عشرة أو اثني عشر ضعفاً في الموسم الواحد ، وأن ينتج مائتي طن من الخضروات من الآكر الواحد ، وهو العلم الذي يمكن بواسطته تأمين الغذاء لسكان الكرة الأرضية جميعاً من الأرض التي تزرع الآن في الولايات المتحدة وحدها . لكن من المستحيل الآن تطبيق طرق كهذه وذلك بسبب الجهل والفقر اللذين يعاني منهما العاملون في الزراعة وبسبب ما هم عليه من بعثرة وتوزع . لكن لتخيل مسألة توفير المواد الغذائية لشعبنا إذا ما تولى العلماء الأمر على نحو منهجي وعلمي ، فحينذاك ستعزل كل الغابات ذات الأراضي الصخرية الفقيرة لتكون احتياطاً وطنياً للأخشاب ، يلعب فيها أطفالنا ويصطاد شبابنا ويقيم شعراؤنا ، كما سيتم اختيار أفضل مناخ وتربة لكل نوع من أنواع الانتاج . وستتم معرفة متطلبات الجماعة واحتياجاتها تماماً . وتخصص لكل منها المساحة المناسبة . وتستخدم أكثر الآلات

تطوراً وكل ذلك تحت اشراف وتوجيه الخبراء الزراعيين المختصين .
لقد نشأت في مزرعة وإني أعلم كل العلم مشقة العمل الزراعي وبودي
أن أصوره كله كما سيكون بعد الثورة . لتتصور آلة زراعة البطاطا
الكبيرة التي تجرها أربعة خيول أو محرك كهربائي وهي تشق الأثلام ،
تقطع حبات البطاطا وتزرعها في التربة وتطمرها فتزرع عشرين أكرأ
في اليوم . لتتصور آلة قلع البطاطا الكبيرة التي قد تعمل بالكهرباء وتتحرك
في حقل مساحته ألف أكرة ، تنبش التربة والبطاطا وتعيء هذه ضمن
أكياس . لتأمل كل نوع آخر من أنواع الخضروات والفواكه وهي
تعامل بالأسلوب ذاته : التفاح والبرتقال تقطعه الآلات ، البقرات
تحلبها الآلات ، وهي أمور تحدث الآن فعلاً كما تعلمون . لتتصور
حقول الحصاد في المستقبل ، وملايين الرجال والنساء السعداء يذهبون
إليها كي يقضوا عطلم الصيفية تنقلهم إليها قطارات خاصة ، وحسب
العدد المطلوب لكل حقل . ولتقارن هذا كله بنظامنا الفظيع الحالي ،
نظام المزارع الصغيرة المستقلة - حيث يكدح عامل جاهل نحيل هزيل إلى
جانب كادح آخر أصفر الوجه حزين ، كئيب من الساعة الرابعة صباحاً
حتى الساعة التاسعة ليلاً ، وحيث يشتغل الأطفال محالماً يصبحون قادرين
على السير ، ينكشون التربة بأدواتهم البدائية وينفصلون عن كل معرفة
وأمل ، عن كل منافع العلم والاختراعات وكل مسرات الروح سليبيقيهم
في آخر رمق من حياتهم التنافس في العمل والتبجح بالحرية لأنهم أشد
عمى من أن يروا أغلالهم .

وتوقف الدكتور سليمان لحظة ثم استأنف « ولنضع إلى جانب هذه الحقيقة ، أي حقيقة المواد الغذائية غير المحدودة ، أحدث ، اكتشافات علماء الفزيولوجيا وهي أن معظم أمراض البشر تعود لفرط التغذية ، والحقيقة الأخرى التي ثبتت وهي أن اللحم غير ضروري كغذاء . فمن الواضح أن انتاج اللحم أصعب بكثير من انتاج الخضروات وإعداده ومعالجته أقل امتاعاً كما يظل الاحتمال أكبر في أن يكون غير نظيف . لكن ما يهم ذلك كله طالما أن اللحم يدغدغ حاسة الذوق بصورة أشد قوة وتأثيراً ؟ » .

فسألت الطالبة بسرعة « كيف ستغير الاشتراكية ذلك ؟ » وكانت تلك هي المرة الأولى التي تتكلم فيها . فأجاب سليمان :

« طالما لدينا عبودية أجور فلن يكون بذي أهمية أبداً كم هو العمل حقير ومنفر ، اذ سيظل من السهل دائماً إيجاد الناس الذين يؤدونه . لكن حالما يغدو العمل حراً فإن أجر عمل كهذا سيبدأ بالارتفاع . وهكذا تبدأ المعامل العتيقة القذرة وغير الصحية بالانهيار واحداً بعد الآخر — ويغدو من الأرخص أن نبني عوضاً عنها معامل جديدة . وهكذا ستزود البواخر بآلات تعمل بالنفط ، وتغدو المهن الخطرة سليمة مضمونة أو يتم إيجاد البديل عن منتجاتها . وبالاسلوب ذاته تماماً ، وبينما يصفي مواطنو جمهوريتنا الصناعية ، فإن كلفة منتجات المسالخ ستزداد سنة بعد سنة إلى أن يضطر أخيراً أولئك الذين يرغبون بأكل اللحم لأن يذبحوا

ذباحهم بأيديهم - لكن كم من الزمن ستدوم مثل هذه العادة ؟
لأحد يعلم . والآن لننتقل إلى بند آخر - إلى واحدة من مصاحبات
الرأسمالية في النظام الديمقراطي ألا وهي الفساد السياسي . فاحدى
نتائج الادارة المدنية التي يشرف عليها سياسيون جهلة وفاسدون هي
أن أمراضاً يمكن الحيلولة دونها تقضي على نصف شعبنا اذ حتى لو سمح
للعلم بأن يحاول ، فانه لا يستطيع أن يفعل إلا القليل لان غالبية الناس
الآن ليست كائنات بشرية مطلقاً ، بل هي ببساطة آلات لصنع الثروات
للآخرين . انهم يزرعون في بيوت قنطرة أشبه بحظائر الحيوان ، ويبقون
هناك إلى أن يهرقوا ويتعفنوا في حمأة البؤس . كما أن ظروفهم المعاشية
تجعل منهم مرضى على نحو أسرع بكثير من أن يستطيع كل أطباء
العالم شفاءهم . وهكذا يبقون ، بالطبع ، يؤر عدوى تسمم حياتنا
جميعاً وتجعل السعادة مستحيلة حتى بالنسبة لأكثرنا أنانية . ولهذا السبب
أؤكد على أن كل الاكتشافات الطبية والجراحية التي قد يقوم بها
العلم مستقبلاً ستكون ذات أهمية أقل من تطبيق المعرفة المتوفرة لدينا
أصلاً ، وذلك حين يحصل المحرومون في هذه الارض على حقهم
بالوجود كبشر .

هنا غرق « الهر » الدكتور في الصمت مرة ثانية . كان جرجس
قد لاحظ أن الفتاة الجميلة التي كانت تجلس بجوار طاولة الوسط تصغي
وفي عينيها النظرة نفسها ، التي كان ينظرها هو ذاته حين اكتشف

الاشتراكية السرة الاولى ، فشعر جرجس بأنه يود التكلم اليها ، واثقاً كل الثقة من أنها ستفهمه . وفي وقت لاحق من ذلك المساء ، حين فرط عقد الجماعة ، سمع جرجس السيدة فيشر تقول لها بصوت خفيض « انني أتمسك اذا كان السيد مينارد سيظل يكتب الاشياء ذاتها عن الاشتراكية » فأجابت الفتاة « لأدري - لكنه إن يفعل سنعلم أنه مخادع وضعي » .

بعد هذا ببضع ساعات فقط حان موعد الانتخاب - اذ انتهت الحملة الطويلة وبدأت البلاد كلها وكأنها تقف حابسة أنفاسها منتظرة الحكم . لم يكمل جرجس وبقية عناصر فندق هايندز وجبة طعامهم تقريباً بل أسرعوا إلى القاعة الكبيرة التي استأجرها الحزب من أجل تلك الامسية .

وكان هناك أناس ينتظرون من قبل ، كما كانت آلة التلغراف الموجودة على خشبة المسرح قد بدأت تنقل نتائج الانتخابات وباهتراء بعض الحسابات تبين أن مجموع الاصوات الاشتراكية يزيد على المائة ألف - أي بزيادة حوالي ثلاثمائة وخمسين بالمائة خلال أربع سنوات. وهو أمر في غاية الروعة ، الا أن الحزب كان يتلقى النتائج المبكرة من « المحليات » الأكثر نجاحاً والتي تميل لتقديم تقاريرها بسرعة أكبر ، لذا اعتقد جميع من في القاعة تلك الليلة أن مجموع الاصوات سيبلغ ست أو سبع أو حتى ثمانمائة ألف . مثل هذه الزيادة غير المعقولة

تحققت فعلاً في شيكاغو وولايتها . فمجموع الاصوات في المدينة كان ٦٧٠٠ عام ١٩٠٠ ، أما في هذه الانتخابات فقد بلغ ٤٧,٠٠٠ ، وفي الينوير كان ٩٦٠٠ أما الآن فهو ٦٩٠٠٠ ، وهكذا مع حلول الظلام ، وتزايد الحشد في القاعة بات المشهد منظراً يسر كل عين فالنشرات تقرأ والناس يهتفون بأعلى الاصوات ، ثم يعتلي المنصة أحد الخطباء ويلقي كلمة ليزداد الهتاف أكثر وأكثر . بعد ذاك يسود الصمت ثم تقرأ المزيد من النشرات . كذلك تأتي رسائل من أمماء السر في الولايات المجاورة ، مسجلة انجازاتهم ، أصوات انديانا ارتفعت من ٢٣٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ، فيسكونيا من ٧٠٠٠ إلى ٢٨٠٠٠ أوهايو من ٤٨٠٠ إلى ٣٦٠٠٠ ، وهناك برقيات إلى المكتب الوطني من أفراد متحمسين في المدن الصغيرة التي حققت زيادات مذهشة لاسابقة لها خلال عام واحد : فيبيدكت في كنساس ، من ٢٦ إلى ٢٦٠ ، هتدرسون في ككتاكي من ١٩ إلى ١١١ ، هولاند في متشيغان من ١٤ إلى ٢٠٨ ، في أوكلاهوما من ١٠٤ إلى ١٠٤ ، مارتينز فيري في أوهايو من ١ إلى ٢٩٦ — وأخريات كثيرة على نفس المنوال . فقد كانت هناك ، فعلاً ، مئات المدن المماثلة، وقد جاءت تقارير من ست منها ضمن دفعة واحدة من البرقيات ، قرأها للجمهور رجال الحملات الاولى الذين ذهبوا إلى تلك الامكنة وساهموا في صنع هذه الاصوات وكان بإمكانهم أن يقدموا تعليقات مناسبة : كوينسي في الينوير من ١٨٩ إلى ٨٣١ — وكان ذلك حيث ألقى رئيس البلدية القبض على خطيب اشتراكي ،

كروفرورد كاوتني في كنساس من ٢٨٥ إلى ١٩٧٥ ، وذلك في موطن
« النداء إلى المنطق » ، وفي « بطل كريك » ، ميتشيغان من ٤٢٦١ إلى
١٠١٨٤ ، وذلك كجواب من اليد العاملة على حركة تحالف المواطنين.

ثم جاءت الردود الرسمية من مختلف أنحاء وتقسيمات المدينة
نفسها ، فكان من أشد الأمور ادهاشاً لقادة الحزب هو ذلك
المجموع الهائل من الاصوات الذي جاء من منطقة المسالخ . فقد كانت
باكسجتاون تضم ثلاثة تقسيمات ادارية من المدينة ، وكان مجموع
أصواتها في ربيع ١٩٠٣ خمسمائة وفي خريف العام ذاته ألفاً وستمائة ،
أما الآن وبعد سنة واحدة فقط فقد زادت على الستة آلاف وثلاثمائة
بينما كان مجموع أصوات الحزب الديمقراطي ٨٨٠٠ . بل
لقد كانت هنالك نواح تم فيها تجاوز أصوات الحزب الديمقراطي ،
وفي منطقتين ، انتخب أعضاء المجلس التشريعي في الولاية . وهكذا
باتت شيكاغو في طليعة البلاد ، لقد وضعت معياراً جديداً للحزب
ودلت العمال على الطريق .

هكذا تكلم خطيب كان يقف على المنبر وقد ثبتت أنظارها عليه
آلاف العيون بينما انطلقت ألف حجارة تهتف لكل جملة من جملة .
فالخطيب ظل رئيس مكتب انعاش المدينة في منطقة الزرائب إلى أن
جعله مشهد البؤس والفساد يصاب بالمرض . لقد كان شاباً يتفقد ناراً

وتظهر عليه علامات الجوع . كان يطوح بنراعيه الطويلتين ويدق بهما الطاولة للجمهور ، فبدأ بالخرجس وكأنه روح الثورة نفسها . « نظموا الناس نظموا ، نظموا . » تلك كانت صرخته . انه خائف من هذا المجموع الهائل للأصوات الذي لم يكن حزبه يتوقعه والذي لم يكن يحلم بكسبه . « هؤلاء الناس ليسوا اشتراكيين » كان الخطيب يصيح « غداً ينتهي الانتخاب وينطفئ الحماس وينسى الناس كل شيء عنه ، واذا مانسيتم أنتم أيضاً واسترخيتم مطمئين على ما حققتموه فانكم ستخسرون هذه الاصوات التي جاءت لصالحكم اليوم ولسوف يسخر منا أعداؤنا حتى درجة الاحتقار ، فعليكم أن تتخذوا قراركم ، الآن في أوج النصر ، أن تجدوا أولئك الذين أدلوا بأصواتهم لصالحنا ، ان تأتوا بهم إلى الاجتماعات وأن تنظموهم وتضموهم لصفوفنا . نحن لن نجد حملاتنا الانتخابية الاخرى ، سهلة كهذه الحملة . فالليلة ، وفي كل مكان من أنحاء البلاد ، يدرس سياسيو الأحزاب القدامى مجموع الاصوات هذا ويبنون عليه مخططاتهم ، ولن يكونوا في أي مكان آخر أسرع أو أكثر ذكاء مما سيكونون عليه في مدينتنا هذه . فخمسون ألف صوت اشتراكي في شيكاغو تعني السيطرة على المدينة في الربيع ، لذا سيعملون على تضليل المقترعين مرة أخرى ولسوف تطرح كل قوى النهب والفساد في الشارع مرة أخرى . لكن مهما فعلوا ، فان هناك شيئاً واحداً لن يستطيعوا فعله ، شيئاً كان الناس ينتخبونهم أملاً بتحقيقه ، ألا وهو اعطاؤهم شعبنا استقلاله وحرية - لن يستهدفوا

أبدأ فعل ذلك ، لن يحاوله . كل ما سيفعلونه هو أن يتيحوا لخزبتنا
في شيكاغو أكبر فرصة أتتحت الاشتراكية حتى الآن ! سوف نجد
المصلحين المزيفين يلعنون أنفسهم ويدينونها ، وسوف نرى الديمقراطيين
وقد تجردوا من كل قدرة على الكذب الذي يغطون به عريهم . ثم
تبدأ الالذفاعة التي لن تصد أبداً ، المد الذي لن ينقلب إلى جزر حتى
يصل مداه — وسوف يكون طاعياً لا يقاوم — نجميع عمال شيكاغو
الساخطين وضمهم إلى صفوفنا . اذن علينا أن ننظمهم ، أن ندرهم ،
ونقودهم إلى النصر . علينا أن نحطم المقاومة ، أن نكتسحها — وسوف
نكون شيكاغو لنا ! ستكون لنا ! ستكون لنا !



كلمة لائحة

اوبتون سينكلير هو الروائي الامريكى الذي بلغ أعلى مرتبة بين الروائيين الدعائيين الامريكيين الحديثين . وهو ، في الوقت ذاته ، واحد من اغزر الكتاب في تاريخ امريكا الادبي وربما الاوسع انتشاراً في الخارج بالمقارنة مع جميع المؤلفين الامريكيين ، فحسب احصاء حديث ، هناك ٧٧٢ ترجمة لكتبه ، بسبع واربعين لغة وتسعة وثلاثين بلداً مع تزايد مستمر .

يُقارَن سينكلير عن جدارة بكاتب دعائي كبير آخر هو « توماس بين » . وهو ، شأنه شأن « بين » ، يهاجم بسخط وقاد وشجاعة نادرة كل نوع من انواع الظلم والغبن الاجتماعي . لذا فان التسميات التي اطلقت عليه مثل « كاتب الصلاح والحق » و « آخر المشهورين بنوي الشأن » هي اوصاف تناسب تماماً حياة سينكلير الادبية العاصفة .

الآن يستطيع سينكلير، وهو في الثانية والثمانين ، ان يتأمل راجعاً الى الوراء حياته التي كرسها للحملاآت العنيفة : ضرب جواسيس اليد العاملة ، صناعة تعليب اللحم ، دور النشر الفاسدة ، مضاربي وول ستريت ،

مجتمع نيويورك ، الادمان على الكحول ، قنلة ساكو وفانزيبي ، اضطهاد
توم موني ، الاخلاق البورجوازية ، احوال مناجم الفحم ، الحماسة
الصليبية بين الناس ، التعليم العالي والثانوي ، صناعة النفط وشروط
الحرب . وكما نلخص روبرت كانتويل القضية تلخيصاً جيداً نقول :
« قليل من الكتاب الامريكيين ، اذا ما استثنينا بعض الروائيين المهمين ،
من كتب مثل هذا القدر من الكتب والقى مثل هذا القدر من المحاضرات
وطاف مثل هذا القدر من البلاد وتاصر مثل هذا القدر من القضايا
او كتب مثل هذا القدر من الرسائل إلى المحررين ، أو كانت له
علاقة بمثل هذا القدر من الفضائح ، أو امين او تعرض للسخرية
والتجسس والحداع أي باختصار ، قلة هي التي قفزت برشاقة بالغة
من مقال (جمع مقالة) كثيرة إلى حرائق كثيرة ، وما من أحد مثله
كان قادراً على البقاء مريحاً مبتهجاً واللهب بتواثب حوله .

كان سينكلير من اوائل المهتدين إلى الاشتراكية ، رغم انه غالباً
ما كان يفشل في الالتزام بخط الحزب القويوم ، تتضمن جهوده الدعائية
لازمة تتكرر باستمرار وهي : ان الرأسمالي وغد عليهم الاحساس
وان العامل بطل مضطهد . في منتصف الثلاثينات التي تميزت بالركود
الاقتصادي ، اضاع سينكلير فرصة ثمينة هي ان يضع قيد التنفيذ نظرياته
الاشتراكية ، وذلك حين قام ، كمرشح ديموقراطي لمنصب حاكم

كاليفورنيا ، بحملة مذهشة على برنامج « ايبك » - أي إنهاء الفقر في كاليفورنيا . فمعارضته الحادة لمصالح الولاية التجارية الكبيرة كلفته المنصب ونحسر الانتخاب .

قفز سينكلير إلى عالم الشهرة على نحو مفاجيء . ففي مطلع عشريناته ، عزم على ان يصبح كاتباً ناجحاً أو يموت جوعاً . وكاد يموت جوعاً بالفعل قبل ان يحقق النجاح : فرواياته الخمس الاولى التي نشرت ما بين ١٩٠١ و ١٩٠٦ لم تعد عليه كلها بأكثر من الف دولار .

غير ان نقطة التحول هي روايته « الغاب » التي نشرت عام ١٩٠٦ وكانت الاكثر انتشاراً وتأثيراً من رواياته العديدة كلها . فهذا الوصف الفظيع لظروف اليد العاملة في جو العمل وكذلك لظروفها الصحية في مسالخ شيكاغو ظهر لأول مرة على نحو متسلسل في « النداء إلى المنطق » وهي دورية اسبوعية اشتراكية . كان الكاتب يومها في السابعة والعشرين من عمره ، وكان الوقت مناسباً تماماً لرواية « الغاب » اذ كانت مازال حية في اذهان الناس فضيحة « لحم البقر المصنوع من الفساد » تلك الفضيحة التي حدثت في الحرب الامريكية الاسبانية . فتودور روزفلت ، بطل معركة تل سان جوان ، أدلى بشهادته أمام لجنة التحقيق في مجلس الشيوخ قائلاً انه على استعداد لان يأكل قبعته العتيقة ولا يأكل الطعام المملب الذي كان ينقل ، طبقاً لعقد حكومي ، إلى الجنود في كوبا . وفي

الوقت الذي كان فيه سينكلير يعد بيانه الشهير ، كان ثمة مشروع مرسوم في الكونغرس اعده الدكتور هارفي ويلي « ابو مرسوم العقاقير والطعام النقي » لتشديد القوانين وحماية المستهلكين من ممارسات اصحاب الاعمال والصناعيين عديمي الضمائر . كذلك ، مما ساهم في تهيئة الجو لرواية « الغاب » مدرسة « المشهورين بنوي الشأن - » وهو النعت الذي اطلقه روزفلت على الصحفيين والمصلحين الذين كانوا ، خلال العقد الاول من القرن الحالي ، منهمكين كل الانهماك بالتحقيق في مساوئ السياسيين وجشع اصحاب الاعمال وفضحهم . واشهر ما كتب في هذا المجال انما هي مقالات لينكولن ستيفن حول الكسب غير المشروع الذي تمارسه البلدية و « قصة شركة ستاندارد للنفط » بقلم ايدا تاربل ، وكتابات رأي ستانارد بيكر عن السكك الحديدية وكتابات ثوماس لوتون عن الماليين المعاصرين وتشارلز ادوارد روسيل عن « تروست اللحوم » وسلسلة مقالات صاموئيل هوبكنز آدامز عن تراخيص الادوية والصحف . وكما كشف عن ذلك المشهورون ، فان الفساد العام كان قد تغلغل في كل مجال من مجالات الحياة العامة ، بما في ذلك سرقة الامتيازات ، حشود فائر الرواتب بأسماء غير حقيقية ، تزوير العقود ، تحالفات الشرطة ورجال الرذيلة ، مساكن الاحياء الفقيرة القذرة ، الفقر في المدن ، برامج الرساميل العديمة القيمة ، شركات التأمين الزائفة ، والاحتكارات مصاصة الدماء .

لكن من المشكوك فيه ماذا كان لاي من اعمال التشهير السابقة
التأثير الفظيع الذي تركته رواية سينكلير « الغاب » على وجدان الجمهور ،
ربما جزئياً بسبب شكلها القصصي المألوف ، انما على الأكثر لانها
ضربت على الوتر الحساس لدى الجمهور - أي ما يتعلق بالمعدة . فلورية
« النداء إلى المنطق » ، بنسخها التي تصل إلى نصف المليون كانت توزع
بصورة رئيسية في مناطق الطبقة العاملة وكانت تقدم لسينكلير خمسمائة
دولار من أجل تأمين معيشته بينما كان هو يتحرى احوال وحياة
القرباء المساكين المحرومين الذين يعيشون في منطقة الزرائب في شيكاغو
ومن ثم يعود إلى بيته في نيوجرسي ليكتب عما شاهد وسمع وشم .
وحسبما يقوله الكاتب ، فقد كتبت رواية « الغاب » في حجيرة من
ألواح خشبية ثمانية عشرة أقدام ، مقامة على سفح تل شمالي برنستون
في نيوجرسي خلال مدة لاتزيد على التسعة أشهر .

بدأ الكلام عن الرواية يتشتر خارج محيطها البروليتاري ، حتى
قبل الانتهاء من نشرها على شكل متسلسل . وبدأت الدعوات باعادة
نشر ما صلر منها تصل إلى المجلة بأعداد كبيرة . مع ذلك فان الناشرين
الخمس الأوائل الذين اتصل بهم سينكلير رفضوا نشر مخطوطه ،
خشية أن تكون الرواية قنبلة تفجر مصالحهم . أخيراً ، استجدى الكاتب
قراء « النداء إلى المنطق » لتأمين نشر روايته من خلال التوصية على نسخ

منها ودفع ثمنها مقدماً ، فجاء اثنا عشر ألف طلب من هذا النوع . وهكذا بدأ صف أحرف الرواية ، لكن في تلك اللحظة تقدمت شركة « دوبلدي وبيج » بعرض لنشر الكتاب شريطة أن تتحقق من صدق مضمونه الأساسي . وهكذا ذهب ناشر « دوبلدي » وهو اسحق ماركوسون إلى شيكاغو وقابل الدكتور و . ك جاكز الذي كان في السابق رئيس دائرة تفتيش اللحوم في المسالخ والذي كان قد طرد بسبب اصراره على التدقيق الشديد للحوم المريضة واتلافها . فشهد الدكتور جاكز بأن « الغاب » لا تحوي أية مبالغاة جدية أو بيانات كاذبة . بل لقد سجل ماركوسون ما يلي : « تمكنت من الحصول على شارة مفتش اللحوم التي يمكنني الوصول بواسطتها إلى لبامبراطورية اللحوم الذي لا يصل إليه أحد . وطوال النهار والليل ظلمت أجوس في تلك المنطقة الكريهة الرائحة وتمكنت من أن أرى بعيني رأسي ما لم يسمع به سينكلير نفسه » .

ظهرت رواية « الغاب » باسم دار نشر دوبلدي وسرعان ما تركزت انطباعاً ملحوظاً داخل الوطن وخارجه . وقد أرسلت براهين أكثر خطورة إلى الصحف الأمريكية الرئيسية ، وفي تاريخ اصدارها ، أي ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٦ ، انفجرت القصة على صفحات الجرائد الأولى من شرقي البلاد إلى غربها . وقد تحقق انتشار اضافي لها بارسال

نسخة مطورة خاصة لرئيس الولايات المتحدة في ذلك الحين ، تيودور روزفلت الذي تأثر بالغ التأثير بما كشفتته الرواية إلى درجة أرسل معها إلى سينكلير برقية دعاه فيها لزيارته في الحال ومناقشة المسألة .

يصف الناقد الاجتماعي الأشهر في تلك الحقبة ، فينلي بيتردون أو « سيد دولي » ، رد الفعل الروزفلتي « تجاه الغاب » على النحو التالي :

« كان تيدي يلهو بتناول افطار خفيف وهو يقلب على مهل صفحات الكتاب الحديد بين يديه . وفجأة هب على قدميه صارخاً : « لقد تسممت » وبدأ يلقي بالنفاق من النافذة ، فأصابت قطعة النفاق التاسعة رأس السناتور بيفريدج وجعلته يصرخ ، ثم نطت بعيداً وضربت ساق أحد عناصر الخدمة السريه ، ثم تبعثرت قطعاً . وهذه القطع أفسدت صفاً جميلاً من أشجار البلوط القديمة . فاندفع السناتور بيفريدج وهو أحد أتباعه الخالص في مجلس الشيوخ إلى الداخل ، ظاناً أن الرئيس يتعرض لحادث اغتيال لكنه اكتشف أن « تيدي » منهك في صراع بالأيدي مع لحم مختزير معلب . وسرعان ما اشتبك السناتور نفسه وهو من إنديانا ، في المعركة ، لكنه حاول أن يجعل القذائف عديمة الأذى : ومنذئذ أصبح الرئيس ، مثلنا جميعاً ، رجلاً نباتياً . . . » .

تقارن رواية « الغاب » بكتابات ليوتولستوي وروائيي القرن

التاسع عشر الروس الآخرين . كما تقارن بأعمال روائيين فرنسيين مثل زولا في تشاؤميتها الكاملة ، حالة اليأس الأسود الذي يطنى عليها والمأساة التي لا خلاص منها . إطار الرواية هو المسالخ واهياء شيكاغو الفقيرة ، وسلسلة من الأجناس البشرية — ألمان ، إيرلنديين ، بوهيميين ، بولنديين ، ليتوانيين ، سلوفاك ، يتبع بعضهم بعضاً كعمال في المسالخ ، وقد أغراهم بالمجيء إلى أمريكا من قراهم في العالم القديم وكلاء منشآت التعليب مقدمين لهم وعوداً بأجور خيالية .

تروي « الغاب » القصة المأساوية لخرجس رودكوس ، الفلاح الليتواني ومجموعة من أقربائه وأصدقائه وكلهم من المهاجرين ، الذين عاشوا واشتغلوا وماتوا في منطقة المسالخ . فهناك في باكنجتاون (كما سمي سينكلير منطقة المسالخ) كان المهاجرون يواجهون ، عملياً ، كل الشرور الموجودة في الصناعة والسياسة والمجتمع الأمريكي . فهم ، لعجزهم عن تكلم الانكليزية ، يتعرضون للاستغلال بكل سهولة ويسقطون ضحايا بين أيدي السلطة — أي أصحاب منشآت التعليب « وأزلامهم » ، الشرطة ، الزعماء السياسيين ، سماسرة العقارات ، وكل من هم من أبناء « الطبقة العليا » . لقد اضطر جرجس لدفع الرشوة كي يحصل على عمل ويحتفظ به . كما أن وكيل الشركة العقارية يخدعه ببيعه بيتاً بالتقسيط انما يكون العقد محشواً بفقرات ملتبسة لا يستطيع

الليثواني فهمها . تجعله أخيراً يخسر منزله . وفي العمل يتعرض لنظام تسريع وحشي لا يرحم يسبب له اصابات بالأذى ، كما يصاب هو وأفراد عائلته بأمراض فظيعة . ثم يطرد من العمل ويدرج في القائمة السوداء . بعدئذ يساق إلى السجن ظلاماً وجوراً لتعشيمه وجهه رئيسه البربري المعتدي . وهكذا ، واحداً اثر الآخر ينسحق جرجس ومجموعته : فكبار السن منهم يلقون على كومة النفايات ليموتوا جوعاً والنساء يتحولن إلى عاهرات كي يجدن مايسد رمقهن ، وزوجة جرجس التي تشرف على ولادتها قابلة جاهلة تموت بسبب نقص الرعاية ، وابنه يغرق في إحدى برك الماء الآسن المحيطة بكونه الحرب ، ولا يوفر سينكاير مكاناً من روايته إلا ويقدم فيه لقارئه المندھش صوراً واقعية مما رآه من قدرات المسالخ ونتمنها وقسوة الحياة فيها . أخيراً لا يظل أمام جرجس ، المحطم جسدياً والوحيد ، إلا أن يتجول هنا وهناك إلى أن ترسخ قناعته بأن الاشتراكية وحدها هي التي يمكنها صنع هذا العالم البغيض من جديد وانقاذه .

لم يكن في نية صناعة تعليب - اللحوم القوية أن تخضع بسهولة لاتهامات سينكاير ولا لتنظيمات الحكومة المحكمة لعملياتها . بل ، على العكس ، كانت على أتم الاستعداد لمقارعتها بكل سلاح تملكه ، فقد أقنعت شركة اللحوم الاحتكارية اللجنة التي أرسلها إلى شيكاغو

وزير الزراعة للتحقيق في الشروط السائدة في باكنجتاون ، ان « الغاب »
نتاج عقل مختل يبحث عن الاثارة كما كتب أوغدين أرمور وهو
كاتب وهمي ، عن عمه وتصميم ، سلسلة من المقالات في صحيفة
« ساتردي إيفنغ بوست » أنكر فيها بغير لبس أو موارد البيانات التي
قدمها سينكلير والآخرون . كذلك تجمعت صحف واسعة النفوذ مثل
« شيكاغو تريبيون » وبوسطن ترانسكربت للدفاع ومهاجمة سينكلير
في مشورات وقصص جديدة ، وقد أنفقت مبالغ كبيرة من قبل
أصحاب صناعة اللحوم على الاعلانات في محاولة منهم لأن يعكسوا
في أذهان الجماهير الصورة الفظيعة التي قدمتها « الغاب » عن المسالخ .
كما مورس ضغط شديد تماماً على الكونغرس من أجل منع أو تشويه
أي تشريع يهدف فرض رقابة اتحادية أو تنظيم لهذه الصناعة .

في غضون ذلك ، قرر روزفلت أن يرسل إلى شيكاغو لجنة أخرى
تألف من عاملين في الخدمة الاجتماعية في نيويورك هما تشارلز نيل الذي
كان حينذاك مفوض عمل وجيمس رينولدز . فعادت اللجنة من شيكاغو
بتقرير مثير يثبت التهم الرئيسية الموجودة في الغاب ويضيف عليها
مشاهدات اللجنة الشخصية المتعلقة بالظروف السائدة . قاوم روزفلت
فكرة نشر التقرير فوراً ، وبدلاً من ذلك احتفظ به كسيف مسلط على
رقاب أصحاب دور التعليب ، آملاً أن يتمكن ، من خلال تهديده

ايامهم بنشر محتويات التقرير ، من احتواء معارضتهم الشديدة لمشروع
بيفريدج الاصلاحي أي « مرسوم التخصيص الزراعي » . فهذا المرسوم
الذي قدم بموافقة الرئيس ، كان يشترط أن يمتد التفتيش الحكومي
الأكيد إلى كل عمليات تحضير اللحم .

لكن حين اسعمر أصحاب دور التعليب في عنادهم ولم يتراجعوا
عن معارضتهم أرسل روزفلت رسالة إلى المجلس التشريعي يطالب
بالموافقة على مشروع بيفريدج (الذي كان مجلس الشيوخ قد تبناه
بالاجماع من قبل) وسمح بنشر الجزء الأول من تقرير نيل - رينولدز
فاكتسحت البلاد عاصفة من السخط إذ بدأ الجميع يدركون أن المواد
المعلبة واللحوم الأخرى التي يستهلكونها إنما يتم إعدادها في قلب الأوساخ
والقذارة كما انتشرت في الصحف والمجلات أغنية صغيرة باتت مألوفة
لدى الجميع :

لدى ماري حمل صغير

حين رآته يمرض

ارسلته إلى باكنجتاون

حيث عليه هناك باسم فروج

وبالرغم من أن أصحاب دور التعليب ظلوا باستمرار ينكرون

التهمة الموجهة إليهم إنكاراً شديداً ، فقد بذلوا جهوداً مسعورة لتنظيف منشآتهم . أما الحجة التي أقنعتهم أخيراً بضرورة سن تشريع من نوع ما فهي أن « بيع اللحم ومنتجاته قد هبط إلى مادون النصف » حسبما ذكر أحد إداريي دور التعليب ، وهي حقيقة في غاية القسوة بالنسبة لهم . لذا وبعد مناقشات حادة أصدر المجلس مرسوم « الغذاء والدواء الثقي » ومرسوم تفتيش اللحوم بصيغة معدلة نوعاً ما وأصبحت موادهما قانوناً سارياً في البلاد - بعد أقل من ستة أشهر من صدور رواية الغاب » .

أما النتائج فقد وصفها الرئيس روزفلت في رسالته إلى الكونغرس بتاريخ ٣ كانون أول ١٩٠٧ : « لقد عارض قانون الغذاء الثقي بشدة أخرت إصداره عقداً من السنين ، مع ذلك فقد عاد بالنفع المباشر والخالص على الفور . أما قانون تفتيش اللحوم فقد هوجم بعنف أكثر حتى لكن لم تنقض سنتان حتى بات واضحاً أن الفائدة الكبيرة التي عاد بها القانون للشعب تصحبه فائدة أخرى مساوية جنتها مؤسسات دور التعليب الشهيرة ، التي تحسنت أعمالها بوجود القانون أكثر من ذي قبل » .

الجانب الخارق للعادة لرواية « الغاب » هو الغضب الوطني الذي أثارته مع انعكاساته العالمية . ذلك أن سينكلير ركّز انتباه الجمهور بصورة حصرية تقريباً على مادة كان ينظر إليها أساساً على أنها عرضية أو مجرد خلفية وتلوين محلي لموضوعه الرئيسية ألا وهي اضطهاد عمال

باكتنجتون . فالحقيقة ، ليس هناك من أصل ٣٠٨ صفحات ، أكثر من اثني عشرة صفحة تعنى بالتفاصيل الرهيبة لانتاج اللحم : طخن الجراذين المسممة مع اللحم ، الخنازير الميتة بسبب الكوليرا والتي تستخدم لانتاج نوع غريب من الشحوم ، بيع جثث الخنازير التي يحكم عليها مفتشو الحكومة بالاتلاف نتيجة اصابتها بالسل إلى أسواق المواد الغذائية ، والأفطع من ذلك كله ، القصص الشائعة بين الناس عن العمال الذين يخدمون في غرف الطهو والذين يسقطون أحياناً في رواقيد الغلي ويخرجون أخيراً إلى العالم تحت اسم « رقائق دورهام من الشحوم النقية » فهذه الاشارات العرضية للأغذية التي كانوا يشترونها ويأكلونها هي التي أثارت الناس وأغضبتهم وجعلت مطالباتهم بالاصلاح أمراً لايقاوم .

كذلك كان لسيثكلير هدف أكبر من كتابته لرواية « الغاب » وهو أن تكون دعوة للاشتراكية واحتجاجاً على عبودية الأجور . وقد اعترف بهذا الهدف اشتراكي زميل ، هو جاك لندن الذي استقبل الكتاب بحماسة لاحدود لها : « إنه سيفتح آذاناً لاحتصر لها كانت صماء تجاه الاشتراكية ، سيصنع آلاف المؤمنين بقضيتنا فهو يصف واقع بلادنا الحقيقي ، موطن الاضطهاد والظلم ، كابوس الشقاء والبؤس ، جحيم العذاب والمعاناة ، جهنم البشر ، غاب الوحوش المفترسة

وما فعلته رواية كوخ العم توم للعبيد السود ، ستتاح فرصة كبيرة أمام « الغاب » لأن تفعله لعبيد الحاضر البيض .

لكن من دواعي السخرية ولشدة خيبة سينكلير فقد كانت النتيجة شيئاً مغايراً تماماً ، إذ كتب هو نفسه يقول : « لقد سددت مستهدفاً قلب الجمهور ، وبالمصادفة ، أصبته في معدته » فمجموع الأصوات الاشتراكية في أمريكا لم يزد ، كما أن الثورة الاشتراكية لم تبد أقرب مثلاً . كل ما حدث هو استياء بالغ انصب على لحوم البقر والخنازير وهو أمر اضطر أن يقنع به المؤلف إضافة للشهرة والثروة اللتين عاد بهما الكتاب عليه ، لكن الحقيقة التي لامراء فيها هي أن الغاب ، كما أشار ماركوسون إلى ذلك « انجزت اصلاحاً بناءً ودائماً في صناعة تمس كل كائن بشري وتؤثر عليه » .

لكنها ربما حققت أكثر من ذلك حتى . فمن خلال المقارنة التي أجراها سينكلير بين الغني والفقير في المجتمع الأمريكي ، ومن خلال هجماته على الجشع المنظم وادانته للإنسانية الإنسان تجاه أخيه الإنسان وكذلك من خلال العاطفة الوجدانية « للغاب » فقد غدا سينكلير قوة دفع محرركة أيقظت وجدان الأمة وأدت إلى تغييرات كبيرة في تنظيم المجتمع . ذلك

أن الشخص المتبلد الحس القاسي الفرد هو وحده الذي يستطيع أن يظل
لامبالياً تجاه مطالبات سينكلير البليغة بوضع حد لفظاعات ومظالم استغلال
العمال ، تجاه آماله بإيجاد حل سلمي للصراع الطبقي .

روبرت داوتز

جامعة إلينويز ١٩٦٠م

* * *

19A2 / V / 8000

السلسلة الروائية

قد تكون الرواية هي الجنس الأدبي الذي يستجيب لرغبات
الإنسان الفنية في عصر التصنيع المعاصر ، وهذا ما جعلها تتقدم - نوعا
وكميا - تنافيا واستهلاكيا - على بقية الأجناس الأدبية في القرنين
التاسع عشر والعشرين ، أن في المعاليم المصنوع أو في العالم غير
المصنوع ، ففي أقل من نصف قرن تحولت الرواية العربية وتمت وبدأت
تنتج تحفا فنية ذات قيمة عالية .

ولقد رأت وزارة الثقافة والإرشاد القومي أن تسهم في حركة
تجديد الرواية العربية بسلسلة دورية تقدم في البداية ، كل ثلاثة
أشهر رواية عالية مترجمة ، وسوف تعمل كل ما توسعها كي تسرع
هذه الدورة بحيث تصبح روايتها يوما شهريا .

ورواية الغائب هي الرواية الرائدة في هذه السلسلة مؤلفها
أنتون تشيخوف الروسي المشهور .

والترجمة لا تقتصر على التمهيد للمؤلف وحسب ، كما قد يظن
البعض ، بل لها دور آخر هو الذي تتوخاه الوزارة من سلسلة
هذه ، فنقصد أننا نقيم بالترجمة حوارا بين العالم ، على
القمة الأعلى أي اللغة الإنسانية .

وسوف تفتح الوزارة في هذه السلسلة مكانا خاصا لأهم
الروايات العالمية التي لم تترجم إلى العربية بعد .

المطبعون وكور الإلهان
مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دمشق - ١٩٨٢

سعر النسخة

٢٥ ل. و١٠ د.